مفتاح تحقيق التاريخ الإسلامي

كتاب القرن الرابع عشر الهجري

محمد رسول الله ﷺ

صلّى الله عليه وسلّم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

بقلم

محمد الصّادق ابراهيم عرجون

عميد كلّية أصول الدّين بجامعة الأزهر سابقاً

الجزء الأوّل

دار القلم

دمشق

محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الطبعة الثانية
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص. ب: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب: ١١٣/٦٥٠١ - هاتف: ٣١٦٠٩٣

دار البشير
للطباعة والنشر والتوزيع جدة: ٢١٤٦١ - ص. ب: ٢٨٩٥ - هاتف: ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب
محمد رسول الله ﷺ
منهج ورسالة ـ بحث وتحقيق
فكرته ـ هدفه ـ مادته ـ منهجه

فكرة الكتاب

ليس هذا الكتاب حشداً لروايات أحداث السيرة النبوية، وجمعها من شتيت مؤلفاتها ودواوينها في مؤلف واحد، كما صنع كثير من الأعلام في جمع كتب أمّهات الحديث وغيرها من كتب الفنون التي شُهرت بالجوامع، ولكنه فكرة دراسيَّة للحقائق والمعاني التي تضمنتها وقائع السيرة.

وقد راودتني فكرة هذا البحث منذ زمن بعيد لا أستطيع تحديده تحديداً يقف به عند تأريخ معين باليوم والشهر والسنة، وإنما هي فكرة لمعت في ذهني فكانت أشبه بأشعة الشمس عند الإصباح، ثم لم تزل تعلو وتشتد في حياتي التوّاقة إلى البحث حتى استوت في كبدها شمساً وهّاجة بدّدت من أفق تفكيري سحائب التسليم المستسلم لكل ما أقرأ من كتب الأقدمين من أئمة أعلام الإسلام الذين تخصصوا في أحداث السيرة النبوية ورواياتها، والذين شُهروا برواية الحديث، والذين جمعوا في تفسير القرآن الحكيم روايات سميت تفسيراً بالمأثور.

وكانت قراءاتي متدرجة من مرحلة إلى مرحلة، وفي كل مرحلة وقفات للفكر متسائلة: أهذا صحيح؟ أهذا معقول؟ وكنت أُجيب نفسي عن تساؤلاتي بأجوبة مستسلمة لأصحاب الهالات المشهَّرة، لكن ذلك كثر كثرة خشيتها على تفكيري، وخشيتها على ديني وعقيدتي.

فرجعت إلى القرآن العظيم، واتخذته وحده الصديق الحميم الذي أصغي إليه وأحاول أن أفهم عنه، وصفّيت نفسي بقدر المستطاع عن الإنصات لغير جَرْسه، والاستماع لغير هَدْيه، ورسمت لنفسي مع القرآن العظيم خطة لأستخلص منه ما أستنقذ به نفسي من الاستسلام الموبق أيّاً كان المتكلم غير القرآن الحكيم في جميع ما جاء به، أو الرسول الأمين في كل ما ثبتت صحته بالرواية عنه بغير معارض أقوى منه.

وللقرآن الكريم منهج في بنائه الفني هو رأس إعجازه بهدايته التي أُنزل بها أمانة في عنق الأمة الإسلامية لتطبيقها واقعاً في حياة مجتمعها أينما حلّ من أرض الله، والإعجاز بالهداية هو معجزة القرآن الخالدة خلود العقل، أما الإعجاز الأسلوبي في براعة البيان وروعة الأداء فهو إعجاز خاص بمن يفهمه ويزنه بميزان ركائزه من البلاغة العربية التي ذهب أهلها بعد أن استعجموا، فلم يبق على ظهر الأرض من يقوم بحمل أمانته بالسليقة ولا بالتعلّم لما سـمّاه البلاغيون بلاغة وبراعة، وإنما هو شيء رسخ في قلوب المسلمين، لأن عجز أهل السليقة البيانية عن معارضته مع شدة وَخْذ التحدي المتدرِّج حجةٌ على عَجْز من لم يكن من هذه السليقة البيانية بَسَبدٍ ولا لَبَدٍ، فهذا الإعجاز الأسلوبي في روعته مَعْبر للإعجاز بالهداية الباقية الخالدة، وبالهداية كان الإعجاز عامّاً شامـلاً للزمان والمكـان والأجيال والأفكار، وقد بيّنا ذلك في كتابنا (القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين) وأعني بالبناء الفني للقرآن العظيم هذا التنوّع في أداء المقاصد الشاملة لحاجات الحياة أفراداً وجماعات، عقيدة وتعبّداً، وتشريعاً وأنظمة اجتماعية وآداباً خلقية وتربية سلوكية.

وكانت اللبنة الأولى في هذا البناء الفني هي الحديث عن شخصية حامل رسالة القرآن ﷺ، وكان هذا الحديث منوّعاً لو جمعت آياته في إطار التصوّر الحسِّي لكانت هي (محمد رسول الله منهجاً ورسالة).

ومن هنا بدأتْ فكرة الكتاب، فبدأتُ من جديد أقرأ ما كتب عن محمد رسول الله في مؤلفات القدامى والمحدَثين، وأُحكِّم فيه القرآن بما جاء

فيه عن محمد رسول الله، فصادفتني فَجَوات ومهاوي في روايات أصحاب السِّيَر لا تنسجم مع هداية القرآن، وألحّ عليَّ الشك في هذه المؤلفات، وتوجَّهتُ إلى كتب الحديث أقرأ فيها عن محمد رسول الله، وإذا بي كلما أمعنت في القراءة كلما ازدادت عليّ مضايق الفكر من كثرة الاختلاف بين الروايات وكثرة الأغاليط في الحقائق والمعاني.

فعوّلت على أن أدرس حياة محمد رسول الله، لا محمد العبقري، ولا محمد البطل، وأسجل مما أقرأ بميزاني للروايات القائم على الموازنة بينها في صحة السند وصحة المتن، فأيّتها رجحت كفته في صحة السند والمتن قبلته وسجّلته، وبيّنت سبب قبوله بأمور نقلية وعقلية، غير أني وجدت باب المعجزات الكونية مقفلاً على العقل، فلا يصحّ أن يتحكم فيه، لأن العقل معزول عن تجاوزه حدوده في سُنن الله الخاصة، وباب المعجزات الكونية من هذا القبيل بشرط أن يصحّ صحة لا يعارضها ما هو أعلى منها، وجمعت مما سجّلت الكثير الطيب مستعيناً بالله الرحيم الودود.

هدف الكتاب

وقد كان أن تبلور في صدري هدف الكتاب، إذ وجدتني (متكيِّفاً) بروح ما جمعت وما سجّلت، وإذا بهذه الروح تشرق بشمسها في آفاق نفسي، وتلحُّ عليَّ أن أستخلص نور السيرة النبوية من ركام سُحُب الظلام الذي نَسَجَتْ بُرْدَه الروايات العاطفية والنقول التقليدية التي لا تقف أمام الحقائق بميزان العقل وتحقيق البحث.

ورجعت أقرأ ما جمعت وما سجّلت، وأُنقِّيه من غَلَس الأساطير ليبرز منه منهج الرسالة في معالمها الواقعية في التطبيق السلوكي الشامل لعناصرها في الكليّات والجزئيات، وكان أن استوى هدف الكتاب على سُوقه في إطار إبراز معالم منهج الرسالة الخالدة في شخص محمد رسول الله ﷺ.

وفي هذا الفصل تتجلى قوة الصراع بين الحق والباطل، وبين الإيمان والعواطف؛ إذ قلّما صادفتني رواية في معناها وموضوعها لم تعارضها رواية

أو روايات أخرى!! وهنا تظهر عثرات الأكابر ذوي الهالات المشهَّرين في تاريخ التراث الإسلامي ولا سيما في رَصْد روايات السيرة النبوية وأحاديثها وأحداثها، وتتغلّب العواطف على العقل، ويقف العقل كالمتهم البريء الذي لا يجد ناطقاً بحجته، وأخوض هذه اللـجّة حَذِراً من المزالق، وَجِلاً ممن أناقش، لأنه اقتعد ذروة الشهرة والاستسلام لما يقول، وحَسْبه عند المتعالمين أنه (فلان) ومَن الذي يردُّ على (فلان) روايته أو قوله؟!.

ولكني أطلتُ الوقوف، ثم استعنت الله، وقلت لنفسي: هذا دين به تَلْقين الله، وعنه تُسألين من الله تعالى فانظري: هذه الجنة ونعيمها، وهذه النار وجحيمها، وأنى لي بالصبر على النار، ولجأت إلى الله تعالى مستغيثاً أرجو رحمته، وعزم لي الأمر أن أكتب ما وصلت إليه باجتهادي، وسألته أن يرزقني حسن النيّة وقصد السبيل فيما إليه قصدت، وهو الغفور الودود، ولكني كنت أكتب متحوِّطاً لنفسي، ومتوقعاً لنقد الناقدين، متصدِّقاً بما ينالني مستغفراً لنفسي ولمن ظلمني، راجياً أن يقع هذا البحث موقع القبول الذي يفتح للباحثين أبواب الولوج إلى ساحة التراث الإسلامي المبتلى بالتشويه لتنقية الحقائق من غَلَس الأباطيل، حتى لا يكون لأعداء هذه الرسالة الطاهرة المطهَّرة سبيل إلى هدم معالمها بمعاول التدسيس في تراثها.

مـادة هذا الكتاب

كانت المادة التي بني منها صرح هذا الكتاب قريبة المنال، سهلة التناول، معروفة المعالم، لا تخفى على طلبة العلم بَلْهَ العلماء والأعلام، فهي: أولاً ـ القرآن الحكيم من بين دفتي المصحف، لا من تفاسير المفسِّرين التي قد يحوج البحث إلى النظر فيها، ولكن لا على أنها مصدر البحث ومرجع التحقيق، بل على أنها مُثُلٌ لما قيل، وفيها ما فيها.

والقرآن الحكيم عرض لكثير من أحداث السيرة النبوية ووقائعها، فهو فيما عرض إليه أصل الأصول، ومصدر النور، ليس وراء حجته حجة، ولا مع دليله دليل، ونصّه هو القاطع للخصومة، وقوله هو الفصل.

ثانياً ـ السنَّة المطهَّرة التي صحَّ نقلها عن رسول الله ﷺ لا تعارضها شبهة، وهذه الصحة لا تقف عند صحة السند، ولكن لا بدّ فيها من صحة المتن، بل إن صحة المتن أهم وأعظم، ونعني بصحة المتن عدم مخالفة ما يُروى لأصل من أصول الإسلام، دون لجوء إلى التأويلات المتعسِّفة، وعصمة الأنبياء في عقيدتنا أصل من أصول الإيمان والإسلام، فإذا جاءت رواية تمسّ من قريب أو بعيد عصمة محمد ﷺ وجب طرح هذه الرواية كان مَنْ كان راويها لأنه غير معصوم من الوهم والغلط.

منهج الكتاب

تَتبُّع النصوص في الموضوع الواحد والمسألة الواحدة بالنظر إلى ما فيها من اختلاف أورثها إيّاه مذهب القائلين بجواز رواية الحديث بالمعنى، وهو مذهب أدّى إلى ضياع كثير من التعبيرات النبويّة ـ هو الأساس الأول في منهج هذا الكتاب.

وفي إطار هذا المنهج بدأت البحث، وفي إطاره تكامل الكتاب الذي لا يجد فيه قارئه شيئاً غريباً عن معارفه التي قرأها في مصادر السيرة النبوية، لأن مادته التي بُني على أساسها هي الروايات المتداولة بين أهل العلم قديماً وحديثاً، ومن قبلها آيات القرآن العظيم التي جاءت متحدِّثة عن محمد رسول الله ﷺ في خطاب خاصٍّ في الوصف أو التوجيه ورسم طرائق تبليغ الرسالة، وبيان معالم التأسّي به ﷺ، أو جاءت متحدِّثة تعمّه بالخطاب مدخلة معه مجتمعه المسلم أينما كان وكيفما كان، أو جاءت متحدِّثة عن حوارٍ بينه ﷺ وبين غير مجتمعه من أهل الكتاب والمشركين، أو كانت حديثاً عن المجتمع المسلم وتربيته تربية سلوكية لتكون له وراثة التأسِّي به.

بَيْدَ أن القارىء سيجد في الكتاب تحقيقات وتعليقات، وبحوثاً تناقش هذه الروايات لتستخلص من أضابيرها الصحيح الذي يتفق مع نصوص القرآن العظيم، ويتفق مع حياة رسول الله ﷺ الإنسانية منذ ولادته إلى أن فارق دنيا الناس إلى الرفيق الأعلى، ويتفق مع ما ثبت عنه ﷺ ثبوتاً أقرب في صحته إلى القطع الذي لا يقبل الشبهات.

وهذه التحقيقات والتعليقات والبحوث هي في الحقيقة العنصر الأصيل في هدف الكتاب، وهي إذا جُرِّدَت من الكتاب كانت أضخم حجمًا، وأعظم قَدْراً من نصوص الروايات، ولكنها لارتباطها بالروايات ارتباطاً لا تنفصم عُراه، ولا تحلّ وثاقته يجعل من العسير القريب من المحال تجريدها عنها، لأن الكتاب حينئذٍ يفقد حقيقته التي بُني عليها.

ومن ثَمَّ بدأتُ الكتاب بمقدمات تمهيديّة عن (محمد ﷺ من نَبْعته إلى بَعْثَته) وهي مقدِّمات جرى فيها البحث عن الحياة الإنسانية التي عاشها محمد ﷺ بشراً بين قومه وأغصان دَوْحته القرشية، عربياً متكامل الخَلْق والخُلُق، متنائياً بعقله عن مزالق العبودية لغير الله.

وفي هذه المقدِّمات عرضتْ لنا روايات تتحدث عن إرهاصات كونية، لا يسارع العقل إلى تسليمها والإيمان بها، وهنا كان لنا موقف مع العقل و(العقلانيين) في مدى ما يمكن أن تصل إليه مدارك العقلِ من حقائق الكون العظيم، وهو بحث مفيد في الحديث مع هؤلاء الذين يؤلِّهون العقل، ويعطونه حقَّ التحكّم المطلق في أحداث الحياة والكون، بيّنا فيه بالأدلة والحجج الواضحة أن كثيراً جداً من حقائق هذه الحياة وهذا الكون العقلُ معزول عن إدراكه، لأنَّ العقل محدود التكوين، ومحدود الإدراك، ولكنّنا قلنا إنّ الاعتماد في مثل هذه الروايات على صحتها صحة ترفعها إلى إمكان القبول ردّاً إلى اقتدار الله تعالى، على أنّ ردّها في هذه المرحلة البشرية التي لم تكن معها نبوّة لا يخدش الإيمان في قليل أو كثير.

وقد عدنا لهذا البحث عند الحديث عن المعجزات الكونية التي ثبت وقوعها بعد الرسالة، فقد تكاثرت رواياتها تكاثراً يصعب معه ردّها، وهي من روايات الصحيح، وذكرنا في ذلك كثيراً من الأمثلة القائمة في حياة الناس أفراداً وجماعات، وهم بعلمائهم الكونيين عاجزون عن إدراك حقائقها ومعانيها ولكنهم ينتفعون بآثارها التجريبية، ووقفنا في صدد قبولها أو ردّها عند توثيق روايتها من الثقاة المشهود لهم بالعلم والفضل، ورأينا أن عدم قبولها لعجز العقل البشري عن الوصول إلى سنتها الخاصة التي قام عليها وجودها جرحة في إيمان المؤمن، لأن كثرتها في سياقات الصِّحاح يجعل

من الصعب جداً إنكارها أو التوقف مع العقل في عدم قبولها، لأن ذلك يفتح الباب أمام إنكار الغيبيات التي هي بعيدة المنال عن مدارك العقل، وكثير منها من أصول الإيمان.

وقد بدأنا البحث بعد هذه المقدِّمات بالحديث عن الوحي والنبوّة وحقيقتهما ومعناهما، ثم خصّصنا الحديث عن نبوّة محمد ﷺ، وناقشنا هنا بعض الأكابر ذوي الهالات المشهَّرة من علماء الإسلام في مؤلفاتهم التي نالت ما يشبه الإجماع على قبول ما روت وجمعت، كما ناقشنا قول الملاحدة فيما يعتري النبي ﷺ من قوة الروحانية حين تلقِّيه الوحي مناقشة علمية مستقاة من آيات القرآن الكريم، وومضات العقل، وآثار الهداية التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً في آثار دعوات الأنبياء والرسل، وهم صفوة الخلق في هذه الحياة.

وقد أقمنا بناء الكتاب على مرحلتين أصيلتين أجرينا الحديث في أحداثهما: المرحلة المكيّة، والمرحلة المدنية، وكانت في كل مرحلة منهما تحقيقات لأحداث وأحاديث، ولا سيما المرحلة المكية وما كان فيها من مواقف للنبي ﷺ في إيمانه برسالة نفسه ودعوته إلى الله، واشتداد الخطوب والكوارث عليه وعلى أصحابه، حتى أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ليخرجوا بالدعوة وتبليغ الرسالة إلى مجال يجدون فيه أرضاً يستنبتونها، وبيّنا بياناً شافياً أنّ هذه الهجرة كانت من أعظم السياسات الحكيمة التي ساس بها ﷺ مجتمعه، وبيّنا أن هذا المجتمع الذي كان طليعة لروّاد الدعوة من أهل الرسوخ في الإيمان واليقين لم يكن كما تقول بعض الروايات من الفقراء والعُبْدان والضَّعْفى؛ بل كان فيهم كثرة غامرة من أعلياء بيوت قريش منافيّين، ومخزوميّين، وزُهريِّين، وأعلياء بعض القبائل التي كانت خارج مكة، وهنا كتبنا فصلاً مسهباً بسطنا فيه البحث في أخبث قصة اشتملت عليها أحداث السيرة، تلك هي قصة الزندقة الكبرى أضلولة (الغرانيق)، وقد أتينا في هذا البحث على ما يقرب من جميع ما قيل فيها إثباتاً لا يعتمد إلا على خيط العنكبوت، ونفياً اجتثّ جذورها، ورمى بها في هاوية الأباطيل التي كيد بها الإسلام وكتابه القرآن المجيد. وقد كان أغرب

ما صادفناه أنّنا وجدنا بين من يُثبتها ويتعصب لإثباتها ممن يُشار إليهم في الإصلاح الفكري في تاريخ الإسلام!! ثم ذكرنا مواقف قريش من النبي ﷺ، وموقف عمه أبي طالب في دفاعه عنه وحمايته، ومحاوراتهم معه، وردّ رسول الله ﷺ على عمه، وذكرنا موقفاً غريباً جداً في ليلة الهجرة وائتمار المشركين به ﷺ مما أشار إليها القرآن الكريم، ولم نجد في الروايات ذكراً قط لبني عبد مناف عامّة أو الهاشميين خاصّة إزاء هذا التآمر الدنيء، وتساءلنا: أين بنو عبد مناف، وأين الهاشميون؟ وهو موقف غريب جداً في إهمال أهم الأحداث والمواقف، ورأينا في حديث خروج رسول الله ﷺ من بيته ليلة الهجرة فَجَوات واسعة لم تسدّها الروايات بل اضطربت فيها اضطراباً واسع الأطراف، واعتمدنا حديث عائشة عند البخاري ووجدنا كثيراً من الروايات تخالف هذا الحديث وهو في القمة من الصحّة، وقد عالجنا ذلك معالجة علميّة رددنا فيها المواقع إلى مواطنها من البحث.

ثم بدأنا الرحلة إلى المدينة آخذين بركاب رسول الله ﷺ وصاحبه وصدِّيقه أبي بكر رضي الله عنه، ولم نُغفل حادثاً من حادثات الطريق كانت له أهمية في معالم منهج الرسالة دون تحقيق روايته وبحث وقائعه.

وتجاوبت آفاق المدينة وما حولها بوصول النبي ﷺ إلى قُباء، وكانت اللهفة تحمل أهل المدينة على الخروج إلى مشارفها ليتلقّوه ﷺ، وكان للقلم سبحات في وصف هذا اللقاء الأكرم من الرجال والنساء والأطفال، ونزل ﷺ حيث أنزله الله في أشرف بقعة من بقاع المدينة، وفيها بنى مسجده الشريف أول ما صنع من شيء، وقد أخذ بناء المسجد الشريف جولات من القلم فيها بحوث وتحقيقات أبرزت هذا المسجد كآية من آيات الله تعالى في تصوير معالم منهج الرسالة في بناء المساجد في العالم الإسلامي، ومقاصدها في بساطة بنائها وما يجب أن يكون فيها من مرافق إصلاحية.

ثم عقدنا فصلاً مطوّلاً للمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، مؤاخاة تكافليّة في الترافق والتواصي والتواسي، وأبنّا موقف الأنصار من هذه المؤاخاة التكافليّة، ذلك الموقف الذي سجّله القرآن وبلغ به درجة الإيثار،

وناقشنا مزاعم القائلين بالتوارث بين المهاجرين والأنصار، وأبطلنا ذلك بالأدلة التاريخية، والوقائع النقلية.

ثم جاء الجهاد القتالي بعد أن استنفد جهاد الحجّة والمجادلة بالتي هي أحسن، وبيّنا أن المشركين هم الذين أشعلوا نار هذا الجهاد، وكان موقف النبي ﷺ منه موقف المدافع عن دعوته، دعوة الحق والهدى والنور والخير.

وبدأت الغزوات والبعوث والسرايا وعقد الألوية والرايات لنشر الدعوة وتبليغ الرسالة وإزالة العوائق من طريقها، وقد رأينا أن استيعاب جميع الغزوات والبعوث والسرايا صعب جدّاً لا يمكن تحقيقه مع حاجته إلى استغراق زمنٍ طويل، فاخترنا أهم الغزوات للبحث والتحقيق، ووقفنا مع قضية أسرى بدر وما جاء في شأنها في القرآن من معاتبة على أخذ الفداء، وأبطلنا بالأدلة الواضحة مزاعم الذين أدخلوا النبي ﷺ في هذه المعاتبة، ثم قفّينا على الموقف في غزوة أُحد مبدأ ونهاية، وما كان فيها من أحداث وكوارث تحمّل منها النبي ﷺ أعظمها، ثم وقفنا مع آيات العتاب التي نزلت بها سورة آل عمران، وحلّلنا الآيات تحليلاً أبان أنها من أعظم معالم منهج الرسالة في علاقة القائد الأعظم بجيوشه وكتائبه، ثم تابعنا بقية ما اخترنا من الغزوات، وفي كل غزوة مواقف مثيرة تعثّرت فيها الروايات، فبذلنا جهداً مضنياً في تحقيق الحق، وعرضنا لقصة الإفك عرضاً كانت فيه آيات القرآن شمساً بدّدت ظلام النفاق في هذه المسألة الشائكة، واستبعدنا اعتماداً على بعض القرائن والشواهد أن يكون أحد ممن ثبتت له صحبة النبي ﷺ قد شرك في هذه الموبقة، ولم نزل نمشي مع الأحداث حتى جاءت معاهدة الحديبية، فأعطيناها حقّها من التحقيق والبحث، وأعقبها الفتح الأعظم فتح مكة المكرمة الذي بلغت فيه سماحة النبي ﷺ ذروة الفضائل الإنسانية.

ثم عرضنا لغزوة حُنَين وما كان فيها من دروس لتربية المجتمع المسلم ردّت إليه كرامته وعزّته، وأنزل الله نصره على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، وكانت مكارم رسول الله ﷺ في غنائم هذه الغزوة مع المؤلّفة قلوبهم ومع

ذوي الحاجة من عامّة المؤمنين مما لا يستطيع القلم أن يحيط بوصفه، واتصل ذلك بغزوة ثقيف وما كان للنبي ﷺ من سياسة حكيمة أنزلتهم من حصونهم وافدين إلى المدينة ليسلموا ويبايعوا رسول الله ﷺ، وفي غزوة حنين كان للأنصار موقف تولّى رسول الله بنفسه غسل صدورهم من آثاره.

ثم جاءت أعظم الغزوات جيشاً وأخطرها قَدْراً في مقصدها وأعظمها تضحية، تلك هي غزوة تبوك، وفي روايات أحداثها تحقيق وبحث يرفعان راية الحق والهداية، وقد ذكرت الروايات أموراً مختلفة في أسباب هذه الغزوة التي حشد لها النبي ﷺ طاقته البشرية، وبذل فيها أثرياء الصحابة وفقراؤهم أقصى ما استطاعوا من البذل في سبيل الله، وقد كان أبو بكر ذروة الباذلين فتبرع بجميع ما يملك، وقفّاه عمر وعبد الرحمن بن عوف، وكان عثمان بن عفان هو المثل المضروب في البذل الذي لم يلحقه فيه أحد، كما أنفق الذين لا يجدون إلا جهدهم من القليل الذي في أيديهم ما طابت به أنفسهم. وقد ذكر رواة السيرة في سبب هذه الغزوة روايات مختلفة متضاربة، فناقشناها مناقشة نقد وتمحيص وبحث وتحقيق، ولم يثبت لدينا منها سوى إشارة في رواية، أمسكنا بها وشرحناها شرحاً بيِّنا به أن السبب الحقيقي لهذه الغزوة هو التطبيق العملي لعموم الرسالة، وتجريء العرب على الرومان والفرس، وقد كان اسماهما كفيلين ببثّ الرعب في قلوبهم استعظاماً لقوتها، وقد جعل النبي ﷺ هذا التطبيق العملي تفسيراً لقول الله تعالى: (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار).

وقد كانت غزوة تبوك آخر غزوات رسول الله ﷺ، ثم توالت بعدها وفادات وفود من بقي متربِّصاً من قبائل العرب، وقد اخترنا من أحاديث هذه الوفود ما صحّت روايته وإن اختلفت الأساليب، وما رأينا فيه شيئاً من معالم منهج الرسالة الذي هو الهدف الحقيقي للكتاب، ثم اخترنا من كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك والرؤساء داخل الجزيرة العربية وخارجها بعضها مما رأينا فيه من دروس التربية للأمة ما يجعله جديراً بالبحث والتسجيل.

ثم أفردنا لموقف اليهود من الإسلام ونبيِّه ومجتمعه باباً في الكتاب

أخّرناه لنوحِّد الكلام على طوائفهم، لأنَّ ما شبّوا فيه وشابوا عليه من الغدر وخيانة العهود والنفاق والتآمر والمكر والكيد والحسد ورجس العقيدة ـ كان على سمة واحدة في جميع طوائفهم، وقد أبرزنا في هذا الكتاب الكثير من خلائقهم التي عاشوا ويعيشون بها في المجتمع الإنساني، ورددنا مزاعم الذين لا تقبل نفوسهم تماثل الجزاء فيما جازاهم به النبي ﷺ على غدرهم به وهو في دارهم ونقضهم العهود ليأسه من صلاح حالهم.

ثم جاء الحديث عن الشمائل النبوية والأخلاق الذاتية لرسول الله ﷺ مع الناس والحياة، ولم نشأ أن ندخل في مضائق الافتراءات الكافرة والأباطيل الملحدة حتى لا نفتح نوافذ الجدل والمراء للّذين طوَوا صدورهم على معاداة وإضعاف شأن المسلمين.

وبعد: فهذا إجمال يأخذ بيد من ينظر في سطوره إلى ساحة الكتاب الواسعة، ليقرأ متأنياً، يخوض في لجج قضاياه ومسائله التي نالها التحقيق والبحث، وهي كثيرة كثرة توائم ضخامة حجم الكتاب في وزنه كمّاً، وتلائم حقائق أحداثه ومعانيه كيفاً، عسى أن يجد فيه أهل العلم دافعاً يدفعهم إلى النظر والبحث في كتب التراث الإسلامي لتنقيتها من أوضار الأضاليل التي أدخلها على هذا التراث أعداء الإسلام قديماً، فقبلها أهل السلامة والاستسلام.

وهذا الكتاب لا يُعطي زمامه إلا لمن يقرأ متحرِّر الفكر، لا تخدعه الهالات والشهرة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

المؤلف
محمد الصادق إبراهيم عرجون
عميد كلية أصول الدين سابقاً
بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

من نبعته إلى بعثته

مُقَدِّمَات مُمَهِّدَات

فتح وتقديم

ذرَّة من نفحات وصفه ﷺ

الحمد للّه الذي اصطفى من ينابيع جوده نَبْع بدائعه، محمداً أكمل الخلق روحاً وعقلاً، وأقومهم بدناً ورَسْماً، وأعلاهم قَدْراً وذكراً، وأرفعهم فضلاً ونبلاً، وأشرفهم مجداً وعزاً، وأحسنهم خُلُقاً وخَلْقاً، وأصدقهم قولاً وفعلاً، وأصفاهم طويَّة وقلباً، وأطهرهم نيَّة وقصداً، وأهداهم طريقاً وهدياً، وأرشدهم سلوكاً ومنهجاً، وأسدّهم مسلكاً ورأياً، وأنبلهم غاية ومقصداً، وأكرمهم أصلاً ومحتداً، وأعزهم بيتاً ومنبعاً، وأعرقهم أرومة وجمعاً.

محبة النبي ﷺ شطر الإيمان

أدَّبه ربُّه فأحسن تأديبه، وربَّاه فأكمل تربيته، آواه إلى كنف عزِّه في يتمه، وهداه من حَيْرة تعبّده إلى نور نبوته، وأغناه من عَيْلته فلم يحوجه لغير جوده، وشرح له صدره حتى انفسح لكتاب الكون علماً ومعرفة. ورفع له ذكره فقرنه إعزازاً له في تحقيق الإيمان به بذكره، وجعل محبته شطر الإيمان، واتِّباعه عنوان محبته، فلا إيمان يقيناً لمن لم يكن محمد ﷺ أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه، وأحب إليه من ولده ووالديه والناس أجمعين، ولا إيمان يقيناً لمن لم يكن هواه تبعاً لما جاء به من الهُدَى والعلم، ولن يغني في قبول الإيمان اتِّباع مع جَفْوة، أولئك يمرقون من الدين كما يَمْرق السهم من الرَّميَّة، ولن يفارق الإيمان صدق المحبة، فالاتِّباع المرضي عنواناً لمحبة الله هو الاتباع النابع من المحبة لنبيه ﷺ، ومن هنا كانت طاعته طاعته، وهديُه هديَه، ورضاه رضاه، وبيعتُه بيعتَه، وصراطُه صراطَه، خلع عليه حلل فيضه، وألبسه خِلَع رأفته ورحمته، فكان الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، وكان المرسل

رحمة للعالمين، وخصّه بالصلاة عليه، ومنح ملائكته ـ تشريفاً ـ هذا الفضل بين يديه، وأمر عباده المؤمنين أن يتخلَّقوا بخلقه الأعلى في سبحات الصلاة عليه، وجعل سلامهم عليه وصلة أرواحهم وصائل روحه، لينعموا بجنات ردِّه تسليمهم عليه، ولن يشقى من حظي من حبيب الله بردّ السلام عليه.

فصلوات الله، وصلوات الملأ الأعلى، وصلوات المؤمنين في عالم الغيب والشهادة أينما حلَّ الزمان بهم في مكان من الوجود على محمد المجتبى من أشرف أرومة، رسولاً لخير أمة كانت به بؤرةَ شمس الإنسانية ومشرق إشعاع الهداية الربانيَّة، والسلام الأكمل الأنضر ورحمة الله وبركاته عليه ما ذكر الله الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

إطار البحث

وبعد: فهذه سبحات متطفِّلة في بحار أنوار سيرة الصادق الأمين محمد سيد الوجود ﷺ، تصوِّر ملامح حياته تصويراً يجري مع الأحداث والوقائع، لتكون طرازاً من الأسلوب في تحقيق معالم ما أبرزه التاريخ الصادق المصدوق من مظاهر الكمال الإنساني في حقيقته الإنسانية ﷺ، التي يستطيع العقل البشري أن يدرك مشاهدها في آفاق الواقع التاريخي، دون اقتحام يتوثب الحُجُب تطلُّعاً إلى أنوار خصائصه الروحيَّة وكمالاته النبوية ﷺ، فذلك ما لا يدركه تصوُّر، ولا يلاحقه خيال، فالبصائر في أودية خصائصه حسيرة، والأبصار من دون وصفه كليلة، وقصارى غَلْوة الألسنة والأقلام في هذا المجال الوقوف عند طاقتها فيما تمدّها به العقول من رَشَحات نصوص الأحداث.

فهو ﷺ الحقيقة الكبرى للإنسانية المستخلَفة في الأرض، تستمد الأجيال في أعصرها المختلفة من هديه نوراً يضيء لها آفاق الحياة، ويشرح لها بقدر ما يطيق كل جيل من تحمّل أمانة الله في إدراك الحقائق الكونية ﴿ وقل الحمدلله سيريكم آياته فتعرفونها ﴾[1].

والحديث في سيرته ﷺ عريض الجوانب، طويل المدَى، واسع الآفاق، عميق المَسْقَى، غزير المادة، تسابقت الأقلام في حَلْبته، وتنافست

(١) سورة النمل آية: (٩٣).

الأفكار في ديباجته، فالقدماء من المؤرِّخين والرواة والعلماء حدَّثوا ورَووا وكتبوا ما تناهت إليهم به الأحداث والوقائع من الحقائق، كما كتبوا غير ذلك من الأقاصيص التي لا تثبت للنقد والتمحيص.

تنوع رشحات الباحثين والكاتبين في السيرة المطهرة

وقد تعددت مناحيهم، واختلفت طرائقهم، وتباينت مذاهبهم، وجمعوا في دواوينهم الكثير مما ناء به كاهل التاريخ، فأطال بعضهم القصير، وكثَّر القليل، ودعم المتهافت، ولمَّ المنتثر، وضم المتفكِّك، واخترع ما لم يكن، وقصّ ما لُقِّن، وحكى ما رُوِّي، وكانت دواوينهم مراجع لمن جاء بعدهم، فالناقد الممحِّص تخيَّر فكتب، والعليم البصير حقَّق وتثبَّت، والصحفي الغَمْر تلقَّف وأتلف، والمتعالم الجهول رمرم وضمضم، والجحود الكنود الذي طَوَى كَشْحَه على مستكنة من الحقد الأسود للإسلام والمسلمين في الغرب والشرق أشاح عن الحق وأعرض، وتولَّى وأدبر، وعشى عن ضوئه فأدلج في دياجير الأباطيل وأوغل، وقال[1] للحق وتقوَّل، ونقل وتنقَّل، وزوَّق وبهرج، وزيَّف وهرّج.

وكان في أغمار المسلمين سمَّاعون لهم، عُبَّاد لصنم جحودهم، فركعوا سجّداً بين أيديهم، وسجدوا أذلة تحت أقدامهم، تباهياً بالعصرية، وتفاخراً بالتجديد، وتظاهراً بحرية التفكير، وتكلَّموا بلسان معبودهم، وكتبوا بقلمه، وترنَّموا بنغمه، ورقص على توقيعهم أتباع كل ناعق من ذوي الغرارة والجهالة، وفُتن بهم ذوو الثقافة الفجَّة والمعرفة الضحلة، فتشابهت قلوبهم وتواءمت أفكارهم، وأعرضوا عن بيِّنات التاريخ، وراحوا يحفرون بأظافر عقولهم الحاقدة في أرض الأكاذيب، ليتصيَّدوا من غثاء الروايات والأقاصيص ما يرضي أحقادهم، وتشبثوا بكل ما يخدش وجه الحقيقة التاريخية زوراً وبهتاناً، وتأولوا بأهوائهم وسوء مقاصدهم أحداثاً كانت في السيرة المطهَّرة عنوانات على السموِّ والشرف والفضل والنبل، فقلبوا حقائقها، وغيَّروا معالمها، وفرطحوا أديمها، وأبدَوا فيها وأعادوا، وآمنت منهم طائفة، وكفرت طائفة، غير أن المؤمنين منهم لم يستطيعوا التحرُّر

(١) هذا من قبيل قوله تعالى: ﴿أتقُولون للحق لما جاءكم﴾.

الكامل من عبودية التلمذة للمستشرقين والمستغربين من أعداء الإسلام، ولكنهم وقفوا يتنازعهم الإيمان القاهر بالحقيقة الكبرى ممثلة في جوهر الأحداث والوقائع التي كانت عناصر الحياة في الواقع التاريخي لهذه السيرة الطاهرة المطهَّرة، وتنازعتهم الرغبة الملحة في التظاهر بالتجديد والعصريَّة وحرِّية التفكير، وتنازعهم القصد إلى «مقاربة» المنهج الإستشراقي في رفض كل ما يتعارض مع رغائبهم من روايات التاريخ وأحداثه، وتصيُّد كل ما يوافق أهواءهم، أو يشيد نظرياتهم في توهين شأن الأحداث من هذه الروايات، ولو كانت مغرقة في حمأة الأباطيل على ما هو دأبهم في تدوين وفهم الأحداث التي تضمَّنتها مراجع التاريخ للسيرة النبوية المشرَّفة.

ولكن هؤلاء المقهورين بالإيمان استطاعوا أن يرضوا إيمانهم بمزيد من التحمُّس الإنشائي في أسلوب بالغ الروعة البيانية، بَيْدَ أن ذلك لم يعصمهم من تيار التشكيك، بل التكذيب لِما لم يفهموا من حقائق الأحداث في إطارها من النظام الكوني التي وقعت متلبِّسة به، وفي كثير من وقائع الإعجاز تشبثوا بمألوف العقول وقضايا العلم وسنن الكون العامة، وفي كثير من الأحداث الاجتماعية داروا وداوروا، ولفُّوا حول أنفسهم يغمغمون بالكلمات، ويجمجمون بالهمسات، ينظرون من طرف خفي إلى أساتذتهم وهم يغمزون بلذعات الحقد الأسود أديم السيرة المطهَّرة، توهماً منهم أنهم يستطيعون أن ينالوا من الشمس في عليائها ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتمَّ نوره ولو كره الكافرون﴾[1].

منهج البحث وسنن الله العامة والخاصة

وعمود البحث في منهجنا هو ما أصَّلنا في كتبنا ومؤلفاتنا، ولا سيما التاريخية منها[2]: أننا نقرأ، ونقرأ حتى نظن أننا استوعبنا أو قاربنا، ثم نفحِّص ونمحِّص، ونوازن وننقد، ونعتمد ماتثبَّت لدينا صحته سنداً، ويدخل في وصيد القبول متناً وأصلاً، ولم يعارضه من مدركات العقل والعلم ما يعلو عليه، مع إيماننا بأن للعقل حداً يقف عنده، ولقضايا العلم

(١) سورة التوبة آية: (٣٢).

(٢) لنا في ذلك كتاب (خالد بن الوليد) وكتاب (عثمان بن عفان).

موضوعات تنتهي عندها، وهما محجوبان عن عالم الغيب، مقصِّران دون إدراك كثير من حقائق عالم الشهادة، فكيف بعوالم ما وراء مظاهر الطبيعة في الكون؟!.

وسنن الله العامة التي أقام على دعائمها نظام الكون العام وترابط عوالمه ترابطاً متناسقاً تجري إلى جانبها سنن الله الخاصة التي تربط بوشائجها نظام بعض الأحداث عند مناسباتها متناسقة في وقوعها، وهذه وتلك محكومة بقهر القدرة الإلهية، واختيار المشيئة الربَّانية.

مراحل الحياة في الاصطفاء المحمدي

وحديث السيرة النبوية يجري في ثلاث مراحل متميِّزة بخصائصها، مترابطة بوحدة موضوعها.

المرحلة الأولى: هي مرحلة الإعداد الإلهي لتمهيد جو الحياة، وصهر العوامل المقوّمة لإبراز الحَدَث الجَلَل الذي يغيِّر وجه التاريخ تغييراً أصيلاً شاملاً، وهذه هي مرحلة الاصطفاء لقنوات التجدُّد الإنساني من أعالي الذرى القدري إلى وادي الوجود الواقعي، وهي أيضاً مرحلة التربية والحضانة لمن سيحمل لواء الرسالة الخاتمة الخالدة، التي جاءت لتصحِّح أغاليط الحياة في نظامها الاجتماعي، لتقيمه على دعائم التوحيد، توحيد الخالق، وتوحيد الإنسان، وتجعل من هذا التوحيد ركيزة للقيم الخلقية والفضائل الإنسانية.

وتمشياً مع منهجنا في البحث لم نبعد النجعة في تطلّب الأرومات الواغلة في الدوحة الإنسانية في أفنانها العربية، لأن المعالم البعيدة مطموسة في مهايع التاريخ، وقد اكتفينا في البحث أن نجعل بدأنا من فنن نبعة محمد ﷺ القريبة التي انبثق منها غصناه الزهراوان، متتبِّعين تسلسل الحوادث التي تنتهي ذرى أعاليها إلى رائد الرسالات الإلهية الموحدة، خليل الله، ورسوله أبي الأنبياء والمرسلين إبراهيم عليه السلام، الذي كان محمد ﷺ في سلسلة نسبه واسطة العقد، ولؤلؤة الجيد، وجوهرة القلادة في ميراث صادق الوعد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، حتى بلغ الكتاب أجله، وأشرق الوجود

بنور محمد ﷺ وليداً في مهد الاصطفاء الجامع لما يعرف من فضائل الحياة وكمالات البشرية.

وهذه المرحلة في تتابع سير الأحداث تمتد منذ ميلاد محمد ﷺ لمدى أربعين سنة عاشها محمد ﷺ إنساناً أكمل ما يكون الإنسان، عربياً في سماته وأخلاقه وفواضله بين قومه، يقاربهم في كل ما يشدّه إلى القيم الخلقية النابضة بالكمال، وينأى عنهم صاعداً في كل ما يخدش حياء الفضيلة، فكان فيهم المثل المضروب لأفضل الفضائل المقدسة في سجل الإنسانية. وكان بينهم نموذجاً يُحتذَى في مكارم الجبلَّة والتطبُّع، فهو منذ عرفوه وعرفهم «الصادق الأمين» والصدق والأمانة إطاران لأقدس محاسن الإنسان الاجتماعية في هذه الحياة، لأنهما مجمع الإحسان في الإنسان المدني بطبعه ورغائبه.

وأخيراً حط التاريخ المثقل بأوضار الوثنيات رحاله بالربوة الحمراء بمكة

لقد طالت رحلة الحياة على التاريخ وهو مستعبد مكبَّل بأغلال الطغيان «الامبراطوري» في عالم الإنسان، ذلك الطغيان الذي أثقل كاهله بما حمَّله من أوزار وأضاليل تاهت في زواياها المظلمة الحقيقة العظمى، حقيقة التوحيد، وعقيدة الإيمان بالله الواحد الأحد التي تنساب من ينابيعها جداول الحرية الاجتماعية للإنسان في تفكيره وعيشه.

وظل التاريخ مشغولاً بتجميع ركام الوثنية الحطوط في أمم عُمِّرت الحياة دهوراً وأحقاباً وهو يقول عنها في إعجاب أبله: إنها بلغت من العلم والمعرفة الذُّرى، وتربَّعت على قمة «الفلسفة» وتسنَّمت آفاق التفكير الإنساني، وقدَّمت للحياة أرفع قضايا العلم، وأعلا قمم الحقائق في المعرفة.

مع أنها عاشت حياتها في حمأة الوثنية الهابطة، فعند كل أمة من أمم الجاهلية الأولى عشرات «الآلهة» التي تعبد من دون الله، وتقرِّب لها القرابين، وتنشب بينها الحروب المدمِّرة للشعوب باسم «الآلهة» من أجل شهوات الطغيان «الامبراطوري» الذي كان يستغل هذه الوثنية «الداعرة» ليعيث في الأرض فساداً باسم «الآلهة».

وتنبَّه التاريخ فاستيقظ من غمرات غفلاته، وحزم تراثه وحمله على

مناكبه، وسار به في سرعة خاطفة ميمِّماً مشرق الشمس، حتى إذا بلغ «الربوة الحمراء» في فيافي الجزيرة العربية ألقى عن كاهله أثقاله. والجزيرة العربية يومئذ في عزلة موحشة ونسيان شرود، ولكن ضربات المخاض القاسية التي كانت أنّاتها تؤذن بانفراجها عن الحدث الجليل ذكَّرت التاريخ بها، فذهب إليها وهو يلهث مكدوداً، وألقى بثقله في أحضانها، على ربوتها في أرض أم القرى، وغط في نوم قلق مليء بالرؤى وأضغاث الأحلام، رجعاً لصدى ماضيه السحيق.

تيقظ التاريخ ليستجلي أسرار الحياة في رمال بطحاء مكة

وعلى صوت حفيف أقدام خافت في رمال الصحراء تيقَّظ من غفوته، فانبعث من مرقده متكاسلاً يتمطَّى ويمسح عن عينيه رماص الكرى، وإذا به مع نفسه وحيداً إلا من طفل في مهده يضغو من شدة العطش، وإلى جانبه امرأة رصينة مستور، لهفانة، لا تستقر نظرتها على شيء، حتى على طفلها المتضاغي في مهده، كأنها تخاف أن تنظر إليه، بَيْدَ أنها كانت تنوء تحت وطأة الآلام تعصر قلبها، وتحرق كبدها كلما حرَّك الطفل قدميه يفحص بهما رمال الصحراء، كأنه يطلب شيئاً أودعه له فيها حفيظ أمين.

وانفجرت الرمال عن الوديعة، فإذا هي «زمزم» عين لا تغيض!! وصدق إلهام «هاجر» حين قالت لأبي الطفل الذي جاء به مع أمه إلى هذا الوادي الأجرد اليابس: آالله أمرك بهذا؟ قال الخليل عليه السلام: نعم، ولم يزد، ثم ولَّى مسرعاً كأنه على موعد: إذن لا يضيِّعنا.

أجل ياأم إسماعيل لن يضيِّعكما الله، وفي صلب وليدك وديعة الوجود، وهدية السماء إلى الحياة بمن فيها وما فيها.

مناجاة اليقين في ضمير هاجر أم إسماعيل

أجل يا أم إسماعيل إن الله سيجدِّد بوليدك صادق الوعد ديباجة الحياة، وسيخلع عليها من جلابيب الفيض السماوي ما يحوِّل ظلامها نوراً، وجبالها مآذن، وهضابها منائر للهداية، ووديانها مساجد يتعبَّد في محاربها الموحدون، وآفاقها مراتع للحرية الإنسانية، يرتع في مسارحها المؤمنون بقداسة الحياة، وتتفلَّق صخورها عن سر الأسرار في هذا الوجود، عن النور المخبوء في مشكاة كنز الغيب، عن كلمة الله وأمانته منذ كان آدم بين الطين والماء.

صبراً أم إسماعيل، إن إبراهيم عليه السلام خليل الله، وللخليل مع الخليل مناجاة ومصافاة، وفي المناجاة أسرار وأسرار، وفي المصافاة أضواء وأنوار، سوف تنفجر عنها رمال الحياة كما انفجرت عن «زمـزم» رمال الصحراء.

أجل يا أم إسماعيل، لقد جيء بك وبوليدك إلى هنا لتؤديا أمانة الله إلى الحياة في هذا الوادي «الصَّدْيان» لتكون الآية الإلهية أضخم من تراث التاريخ كلِّه في فلسفته وعلومه ومعارفه وتجاربه وأنظمته منذ وعى التاريخ حقيقة الحياة.

وافتر ثغر «هاجر» عن ابتسامة الرضى، وهي ترى واديها الأجرد المقفر يجذب إليه لثاماً من الناس، كانوا يمرون به من قبل فلا يجدون فيه أثراً للحياة.

وشبَّ إسماعيل وترعرع بين أطفال جرهم وشبابها عربياً خالصاً، ولمَّا استوت رجوليَّته أصهر فيهم إلى سيدهم، وجاء إبراهيم خليل الله عليه السلام زائراً ولده، ولقي إسماعيل أباه، وتحدَّثا حديث حنان الأبوة، ووَله البنوَّة، وأفضى خليل الله إلى ابنه إسماعيل بسر الحياة في رمال الصحراء التي كان قد أودعه فيها مع أمه في هذا الوادي الأجرد ليؤدِّيا أمانة الله إلى الحياة.

طلائع الأسرار في بناء الكعبة المشرفة

ونبَّأه بأمر الله في بناء بيته وقد بوَّأه الله مكانه من الربوة الحمراء، وبنى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام «الكعبة المشرَّفة» بيتاً لله تعالى، ليكون رمزاً إلى الحقيقة الكبرى في الوجود، حقيقة التوحيد في توحيد التوجُّه إلى الله الواحد الأحد، وتضرَّع خليل الله ودعا وأمَّن إسماعيل أن يجعل الله أفئدة من الناس تهوي إلى ذريته في جوار هذا البيت المحرم ﴿ ربَّنا إني أسكَنْتُ من ذرِّيتي بوادٍ غير ذي زَرْعٍ عند بَيْتِك المحرَّم، ربَّنا ليقيموا الصلاةَ فاجعل أفئـدةً من النـاس تَهْـوِي إليهـم، وارزقهـم من الثمـرات لـعلَّهـم يشكرون ﴾[1].

(١) سورة إبراهيم آية (٣٧).

وهذه ضراعة داعية تنساب من قلب خليل الله إبراهيم لجوءاً إلى أرحم الراحمين أن يجعل من هذا الوادي الأفيح المقفر اليابس بلداً عامراً بذرية هذا الوليد الذي جاء به إلى هنا وحيداً إلا من أمه الراضية الوالهة ـ استجابة لأمر الله تعالى، ولمّا يعلم الخليل ما كتبه قلم القدر الحكيم في لوح الكون من أسرار تحجبها رمال الصحراء في هذا الوادي المجيد، ولكن إلهام «الخُلّة» في وحي النبوة ألقى إليه كلمة الله في رسالة التوحيد، تلك الرسالة التي حاف عليها تاريخ المجتمع البشري، فلم تجد لها في تراثه إلا سَمّ الخِيَاط مَنْفَذاً تنسرب منه متسلّلة في مسارب الحياة.

وكانت هذه الضراعة الداعية دعـوة عامـة، تستهدف الاستقـرار والأمن، وجلب الرزق لذريَّة إسماعيل، وتبرز ما استسرَّ وراء سُجُف الغيب من تجلّيات وأحداث تجعل من إسماعيل دَوْحَة تلقي بظلال أفنانها على جنبات الوادي الأجرد، فتحيله حياة حيَّة خالدة، تهوي إليه الأفئدة من أطراف الأرض، هائمة والهة بحب الحقيقة الكبرى في رمزها العظيم «الكعبة المشرَّفة» ﴿ وإذ بوَّأنا لإبراهيم مكان البيت ألّا تشرك بي شيئاً، وطهِّر بيتيَ للطائفين والقائمين والركَّع السجود، وأذِّن في الناس بالحجِّ يأتوك رجالاً وعلى كلِّ ضامر يأتين من كل فجٍّ عميق ﴾[1].

واستجاب إبراهيم وإسماعيل لأمر الله، وطهَّرا بيت ربِّهما الذي جعله مثابةً للناس وأَمْناً، طهّراه من رَجَس الوثنية التي أثقلت كاهل التاريخ على طول مسيرته في حياة المجتمع البشري، ونادى إبراهيم في الناس بالحجِّ إلى بيت الله، وأبلغ الله النداءَ إلى أهله في عالمي الغيب والشهود، وأتَوا من كل فجٍّ عميق ملبِّين دعوة ربهم على لسان خليله إبراهيم، يتداولون عصرا بعد عصر، وجيلاً وراء جيل، تحقيقاً لوعد الله بقبول دعاء إبراهيم وإسماعيل ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربَّنا تقبَّل منّا إنك أنت السميع العليم ﴾[2].

(١) سورة الحج آيتا (٢٦، ٢٧).

(٢) سورة البقرة آية (١٢٧).

كانت الجهالة مع الكثرة وطول الزمن سبباً لنسيان التوحيد وشيوع الوثنيات

وتزاحفت القرون والعصر متواثبة، وهي تطوي بساط التاريخ، وتسوق الأجيال، جيلاً إثر جيل، وبلغت دعوة إبراهيم العامَّة مداها في الانتشار، وتكاثر ولد إسماعيل حتى كانوا غَمْرة العرب وجمهرتهم، وسادوا وتسيَّدوا وتشعَّبوا وتفرَّعوا، ملؤوا السَّهل والجبل، ونزلوا الوديان وتسنَّموا القُنَن.

بَيْدَ أنهم إذ كثر عديدهم نسوا دعوة أبيهم إبراهيم وهم في غمرة الحياة الجاهلة، وجهلوا منها الحقيقة الكبرى، حقيقة التوحيد، وأوغلوا في وثنية بليدة، وجعلوا من «بَنيَّة» إبراهيم وإسماعيل المطهَّرة «متحفاً» لوثنيتهم، يضاهؤون بها وثنية الفجور من قبلهم في أمم الفلسفة وتفكير الإشراك.

وتنفَّس الغيب، وبدت إشراقة الفجر الجديد ترسل أشعتها من أفق «الربوة الحمراء» وتعالى صوت الحق في ترنيمة الرسالة العظمى، رسالة التوحيد والعلم والطُّهر، علم الكتاب والحكمة، لا علم الهَلْوسة والفلسفة، ورتَّل القدر مرة أخرى ضراعة أخرى للخليل في دعوته الخاصة بعد أن حقَّق الله له دعوته العامة، وكانت هذه الدعوة الخاصة هي ميراث الحياة في خُلَّة الخليل، والعنوان المشرق في ملَّته الحنيفية والكلمة الباقية من نبوته ورسالته، وجاءت هذه الدعوة متوافقة تمام التوافق مع نَفَس الغيب في إشراقة الفجر، وتكلَّم الله جلَّ جلاله، وعزَّ سلطانه على لسان خليله يلهمه سرَّ الوجود في ضراعة خاصة يطلب بها إظهار مكنون الغيب حين يحين الحين ﴿ ربَّنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِكَ ويعلِّمهم الكتابَ والحكمةَ ويزكِّيهم، إنَّك أنت العزيزُ الحكيمُ ﴾[1].

إلهام الله تعالى خليله دعوة إظهار سر الوجود

يقول الإمام ابن كثير: وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قَدَر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً في الأمِّيين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجنّ.

وحان الحين، وكانت كلمة الله الخاتمة الخالدة في اصطفاء منابع السرِّ

(١) سورة البقرة آية (١٢٩).

الأعظم من دَوْحة الإنسانية، واستخلاص ثمرتها في معنى كلمة الله، وجاء التعبير البياني عن ذلك الاصطفاء على لسان المصطفى مصدِّقاً لما بين يديه « إنَّ الله اصطفى كِنَانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كِنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم؛ فأنا دعوة أبي إبراهيم » وكان خلاصة «الخُلَّة» في نبوة الرسالة الخالدة من إسماعيل صادق الوعد محمداً الصادق الأمين. المبعوث رحمة للعالمين، بين يدي الساعة خاتماً للنبيين.

وأشرق الفجر وتمت كلمات الله

تمهيد

الرسالات الإلهية والعقل الإنساني

العقل هو المرشد الأول

مكانُ الرسالات الإلٓهية من الحياة مكانُ العقل الإنساني من أفراد البشر، والعقلُ هو المرشد الأول للإنسان، يهديه إلى سواء الطريق، وينير له ظلمات الوجود، ويفتح له مغاليق الكون، ويسدده في مسيره ضارباً في بيداء الزمن حتى يقضي ما قُدِّر له من بقاء.

وعلى قدر استعداده الفطري يكون كسبه من تجاريب الحياة، وعلى قدر ما يكسبه من تلك التجاريب تكون فائدته، وعلى قدر هذه الفائدة تكون مكانة الفرد في الجماعة ومكانته منها، ومن ثم يتدخل العقل بوساطة الفرد في إرشاد الجماعة وهدايتها وتسديدها والسمو بها صعداً في مدارج الرقي والكمال.

ليس لرقي الفرد والجماعة حد يقف العقل عنده

وإذا كانت الحياة لم تعرف حداً لرقي الفرد في الجماعة البشرية ينتهي إليه، فأحْرِ ألا يكون للجماعة نفسها حداً تقف عنده في رقيها، فالحياة متجددة، والمعارف الإنسانية متزايدة، والعقل البشري دائبُ العمل، وخزائن الكون لا تزال مغلقة، وأسراره ما برحت محجبة وحقائقه ما فتئت مجهولة.

وكيف يقف رقي الفرد أو الجماعة عند حد ومهمة العقل في الحياة هي كشف تلك الأسرار الكونية، ومعرفة حقائق الوجود واستخدامها في إفادة الإنسانية؟ ومن الغرور العقلي أن يزعم إنسان أنه وصل إلى درجة من المعارف والعلم بحقائق الكون وأسرار الوجود تقرِّبه من الكمال المقدور

للبشرية، فالمجهول من تلك الأسرار وهذه الحقائق لا يزال أعظم بكثير جداً مما عُرف، والذي عُرف لا يزال الكثير منه مستخدماً في الحياة على غير جهته التي تفيد منها الحياة، فالجهاد أمام العقل واسع المدى فسيح الجنبات.

بيد أن هذه المعارف العقلية التي لا تنتهي عند حد في الأفراد والجماعات هي في الواقع المشهود محدودة المنزع، لا تتعدى مشاهد الوجود ومظاهر الكون.

دور الرسالات الإلهية في قيادة العقل

وهنا يأتي دور من أدوار الرسالات الإلهية في قيادة العقل إلى مجاهل الطبيعة ومطبوعها ومداخل الوجود، وبواطن الحياة، بل إلى ما وراء الطبيعة وإلى ما فوقها، إلى الخالق جلَّ شأنه، وإلى عظيم قدرته وباسط سلطانه، وبالغ حكمته، وواسع علمه، وهيمنة إرادته، وإلى الكون وما فيه من أسرار وآيات ودلائل تدلّ ـ بما اشتملت عليه من نظام متماسك وقوى مترابطة وسُنن متوافقة، ومنافع متتابعة ـ على فضل الله ورحمته ولطفه وإحسانه وجوده وقهره وكبريائه ولطائف تدبيره.

وهذا مجال تنبيه وإرشاد تتجه فيه الرسالات الإلٓهية إلى مخاطبة العقل لتوجيهه إلى تعرُّف جلال الكون وعظمة الوجود، وخطر الحياة ليقف منها على وشائج التكوين والإبداع التي تصل المخلوق بالخالق، وتربط بين أجزاء الوجود، وتكشف عما طوي فيها من منافع واستجابات لرغبات الإنسان المادية والروحية.

وكلما اتسعت معارف العقل عن حقائق الكون ازدادت استجابات الحياة له وقوي سلطانه في تسخير قوى الطبيعة فيما يفيد النوع الإنساني، ويرقِّي عناصره، ويدعم قواه، ويهيء أمامه الفرص للتغلُّب على احتمال أعباء الحياة في ثقة واطمئنان.

حاجة العقل الإنساني إلى الرسالات الإلهية لتهديه إلى المحجة

وليس العقل الإنساني بمعصوم من الزلل والخطأ، بل ربما كان من الحق أن يقال أنه كثير الخطأ والزلل، ولا سيما إذا ضعف أمام الغرائز والقوى الحيوانية واستجاب لدواعيها وخضع لسلطانها فإنه حينئذ يصبح أداة طيعة لهوى تلك الغرائز وعبداً لشهواتها تتحكم فيه وتوجهه في طريق أغراضها

وتصبح معارفه وسيلة من وسائلها في تلوين الحياة كما تشتهي وتريد.

سطوة الغرائز أشد عرامة من قوى العقل

وتاريخ الحياة والأحياء يدل على أن سلطان الغريزة كان أقوى في الأفراد والجماعات من سلطان العقل، ويدلّ على أن الحياة أسرع استجابة لنداء الغريزة من منطق العقل، وأسلس قياداً في يد الغرائز منها في يد العقل، والغرائز في الإنسان شبيه بعضها ببعض في مطالبها وغاياتها، ولكنها تختلف في الأفراد قوة وضعفاً، وظهوراً وكموناً، وليس العقل الإنساني على هذا الغرار في أفراد الإنسان، فهو مختلف فيهم أشد الاختلاف، وقلما يتفق عقل وعقل، فاتفاق الغرائز في الغايات يكسبها قوة في مطالبها وتنفيذ أغراضها، واختلاف العقول يوهن من سلطان العقل على الغرائز، والغرائز منافذ للقوى المادية تتنفس منها، ومن ثم نراها تشتط في تنفيذ رغائب الجسد وتحاول أن توجه قوى الحياة ـ حتى العليا منها ـ الى مقاصد مادية، لا وزن عندها للقيم الخلقية من العدل والرحمة والإيثار إلا إذا كانت وسيلة لنفع مادي وقضاء شهوة جسدية، فالظلم والقسوة والأثرة في لغة الغرائز ومنطق المادة الصماء تساوي العدل والرحمة والإيثار في كثير من الأحايين والأوقات.

فالغرائز إذا انطلقت على سجاياها وتغلّبت على العقل كيَّفت أعمال الأفراد والجماعات على حسب ميولها وهواها، وخلعت على تصرفات الأشخاص والأشياء نعوتاً من لغتها حتى تصبح القوةُ الغاشمة هي الميزانَ الأعلى في شرعة الحياة، ولا فرق بين أن يكون هذا الميزان منصوباً على حشائش الأحراش والأدغال وعلى أبواب الكهوف والغيران، أو موضوعاً على بساط من سندس الحضارة الزائفة الملوثة بدماء الضعفاء، وهذا هو المنبع الذي نبعت منه المذاهب المادية الملحدة منذ قامت الحياة.

وهنا يأتي دور آخر للرسالات الإلٓهية هو دور إيقاظ العقل من ذهول سطوة الغرائز وإفساح المجال أمامه لتنظيم رغائبها في صورة تخضعها لموازين الأخلاق، وإعطاء الفضائل قيمتها في الحياة ووضع الرذائل في مواضعها منها حتى تقاس كل فضيلة أو رذيلة في أعمال الأفراد والجماعات بمقياسها العادل

الذي لا يعرف الغشّ والخداع[1].

عمل الرسالات الإلٓهية في دورها الأول مع العقل

فالدور الأول للرسالات الإلٓهية دور قيادة وتعليم، ومجالها في هذا الدور هو الحقائق الكلية والمعارف العليا، فهي التي تنبىء عن الغيب وتكشف عن حقائق كلية في صور واقعية وأمثال تقرّبها إلى الواقع المشهود حتى تكون دانية إلى مجال العقل ومدركاته، وهي التي تتحدث عن الخالق ونعوت كماله، وعن فيض الحياة من خزائن رحمته، وعن عوالم السماء والأرواح، وعن الوحي والنبوة، وعن نظام الكون وقوانين ترابطه، وعن الحياة الأخرى وما فيها من ثواب وعقاب.

ولا سبيل للعقل وحده إلى إدراك هذه الحقائق إدراكاً يتجاوب صداه مع الواقع الغيبي في هذا المجال، لأن الغيب محجوب عن الحسّ، والحسّ بأدواته المادية هو المشكاة التي يستضيء بمصباحها العقل، فيتهدى إلى أوليات من الحقائق يحمل عليها مثيلاتها بضرب من القياس والتشبيه، ومن هذه الحقائق تتولد القضايا العقلية المنتزعة من الوجود المشهود انتزاعاً مباشراً أو غير مباشر.

فالعقل الإنساني في هذا الدور يجب أن يكون خاضعاً للرسالات الإلٓهية، آخذاً عنها، وهي التي تمده وترشده وتهديه، فإذا استجاب لها أمن العثار والزلل، وإذا تأبّى عليها وقع في أغلال الغرائز، وانقلب عمله إلى استجابات مادية تصبّ المعارف العليا في قوالب وثنية تعتمد على التشبيه والتصوير، وتاريخ الفلسفات والأديان مليء بالشواهد الصادقة على ذلك.

مؤاخاة العقل للرسالات الإلٓهية

أما الدور الثاني للرسالات الإلٓهية فهو دور مؤاخاة العقل ومظاهرته

(١) في صدد تحديد موازين الأخلاق قد تعرض للباحث هنا مشكلة يراها بعض الباحثين الاجتماعيين من أعوص المشاكل، تلك هي مشكلة تحديد حقائق الفضائل بتحديد يميزها عن الرذائل، وهل ذلك من مهمة العقل وحده، أو له في ذلك شريك؟ وأي شيء هو ذلك الشريك؟ أو أن العقل لا شأن له في ذلك، ويجب أن ينحى عن هذه المرتبة، وإذا أُبعد العقل عن هذا المجال فأي كائن هو الذي توليه الحياة ثقتها؟ ولا يمكن أن يكون ذلك الكائن هو الغرائز وقد عرف شأنها، بيد أن جميع أهل الأديان والملل يطمئنون كل الاطمئنان إلى أن مرجع ذلك هو الرسالات الإلٓهية.

حتى يتغلب على جموح الغرائز ويكفكف من حدتها، ويطامن من غرورها، ويقلّل من اندفاعها، ويوجهها وجهة صالحة دون كبت يميتها أو انطلاق يفسدها.

ومجال هذا الدور هو الحياة الواقعية التي يحياها الأفراد والجماعات، وتحديد علاقة الفرد بالفرد، وعلاقة الفرد بالجماعة، وعلاقة الجماعة بالجماعة، بل علاقة الفرد والجماعة بالحياة والأحياء، وتنظيم هذه العلاقات على أسس من العدل تعطي كل ذي حق حقه وتشيع بين الأحياء الثقة والاطمئنان والتعاطف والتواسي والمحبة والإخاء.

والعقل الإنساني في هذا الدور يجب أن يكون هو المسيطر على الغرائز، يقودها بحكمته ويوجهها بسياسته، والرسالات الإلّهية هي المرشد العليم، والمستشار الأمين، والناصح الحكيم، وعلى ضوء إرشادها ونصحها ومشورتها يسير العقل في طريقه مؤدياً واجبه على أكمل وجه في الحياة.

التدرج في مراحل الحياة من خصائص العقل والرسالات الإلّهية

ولقد مرَّت الإنسانية بأطوار متعددة اختلفت عليها في تلك الأطوار الرسالات الإلّهية فكانت فيها معالم للتاريخ على تلك الأطوار، وكانت كل رسالة مبدأ لطور ونهاية لآخر. وقد احتفظت تلك الرسالات بخصائص ومميزات هي في الواقع خصائص ومميزات الأطوار التي سايرتها، ومن تلك الخصائص يعرف نصيب العقل الإنساني في تلك الأطوار، فهو مولود مع الإنسانية وخاضع لما تخضع له من حكم التدرُّج في طريق الاكتمال.

وكما مرَّت الإنسانية في مرحلة الطفولية الغريزية محكومة بالغرائز المنطلقة، مرّ معها العقل الإنساني في هذه المرحلة منطلقاً مع الغرائز يفتح لها أبواب المادية المجنونة الجائعة، وجاءت الرسالات الإلّهية في هذا الطور تومىء إلى الحقائق العليا ولا تفصح، وترمز ولا تصرح، تمشياً مع طاقة الإنسانية الساذجة، وحالة الطفولة التي يمرّ العقل بها في مرحلتها في هذا الطور من أطوار التاريخ البشري.

واستعراض الصور الجدلية التي يقصها التاريخ وتحدثنا بها كتب

في صور الجدل والحوار اللذين قصتهما كتب الرسالات القديمة دلالة على طفولية العقل يومئذ

الرسالات الإلّهية عن أوائل الأنبياء والرسل ومتقدميهم في الزمن كنوح وإبراهيم وهود وصالح وشعيب مع أممهم؛ تدلنا على أن العقل البشري وقتئذ كان مدثّراً في مهاد الطفولية، محاطاً بالغرائز تهدهده حتى يظل نائماً لصيقاً بالأرض محجوباً عن السماء.

وقد يكون هذا هو السبب فيما يقع من الوهم في صلاحية العقل وحده لإدراك الحقائق العليا إدراكاً مباشراً دون اعتماد على الحس، ولعل هذا الوهم يستند إلى تاريخ الفلسفات القديمة التي أطلقت للعقل أعنة السبح فيما وراء الطبيعة: في الخالق ونعوته، وفي عوالم الأرواح والملائكة والأفلاك والسموات، وفي الحياة وطريقة صدورها عن (الله) تعالى. ولا شك أن هذه حقائق عليا لا سبيل لتدخل الحس فيها، بل استقل العقل في خوض بحارها فغرق في أعماقها، ثم طفا وفي يديه قضايا ومعارف آمن بها وأقام عليها صَرْحَ أعرق فلسفاته القديمة، وهي الفلسفة الإغريقية التي ثقفها فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب ففتنوا بها وكان عليها معوَّلُهم، وها هوذا العلم التجريبي وفلسفات العقل المتوثب وقد زعزعا أركان تلك الفلسفات القديمة.

قد يرى التاريخ أن الفلسفات أصلها رسالات إلهية حرفت

ونحن إذا تجاوزنا عن قول بعض مؤرخي الفلسفة القديمة كالقفطي: إن الفلسفة الإغريقية وليدة الفلسفة المصرية وهذه الفلسفة المصرية اعتمدت في أصلها على بقايا من الرسالات الإلّهية كرسالة نبي الله ورسوله (إدريس) عليه السلام، وهو الذي تسميه الفلسفة (هرمس) فيكون ـ حينئذ ـ العقل فيها غير مستقل، وليست هذه القضايا من عمله وحده، بل اعتمد في أصلها على نبوات الرسالات الإلّهية، إذا تجاوزنا عن ذلك ـ رغم أننا لا نجد سنداً تاريخياً يصحح رواية القفطي ـ فإننا لا نفقد أثر الحس واضحاً في كثير من قضايا هذه الفلسفة، وحسبنا أن نلقي نظرة على أهم قضاياها عند أبرع فلاسفتها، تلك هي قضية (الإلّه) الخالق عند (أرسطو) فسوف نجد عمل الحس هنا سابقاً على عمل العقل، ولعل نظرية (العقول العشرة) التي فتنت بها هذه الفلسفة تعطينا صورة عن عمل الحسّ وقياس الغائب على الشاهد، وهذه النظرية (العقول العشرة) التي ابتدعها أرسطو أبرع فلاسفتهم تعتمد

على وجوب الوسائط في الخلق والتكوين وهذا من آثار عمل الحسّ في التفكير.

وكان هؤلاء الرسل الكرام يضيقون ذرعاً بهذه البلادة العقلية، وذلك التعبُّد الذليل للغرائز العمياء التي تستلهم المادة وتستهدي بها في أغراضها، وتستوحي الأرض في تحقيق مطالبها وتتصامم عن سماع صوت السماء، حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أن منافذ الأمل قد سدت، وأبواب الرجاء في تخليص العقل من سلطان الغرائز وسيطرتها قد أوصدت لم يبق لهم إلا طلب التطهير العام بإفناء هؤلاء الميؤوس من هدايتهم وتحرير عقولهم، تطلعاً منهم إلى طور إنساني جديد، يتجدد به ميلاد الإنسانية بعقل يشبّ عن الطوق، وتتهيأ له وسائل التغلُّب للتفلت من أغلال الغرائز، مستعداً لفهم لغة فوق لغة الحس، تتحدث عن عوالم الغيب وموازين الأخلاق.

لم يخل العقل الإنساني من ومضات في إدراك شيء من الحقيقة الفكرية

ولقد كان للعقل الإنساني ومضات في هذا الطور من أطوار الحياة، إذا أنبهته الرسالات الإلهية تنبه، وأشرقت آفاقه بنور الحق في سرعة خاطفة، أما إذا غلبت عليه كثافة الغرائز المتحكمة فإنه سرعان ما ينكص على عقبيه، وعاد كأنه لم يبصر من الحق والهدى شيئاً.

وفي ذلك يقول القرآن الكريم في قصة إبراهيم رسول الله وخليله عليه الصلاة والسلام: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آبائنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين * قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين * قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين * وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين * فجعلهم جذاذا إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون * قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين * قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم * قالوا فَأْتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون * قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم * قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون * فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا

إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾[1].

وهذا تصوير بارع لمغالبة الطبيعة المادية القائمة في جبلة هؤلاء الوثنيين الملحدين للعقل الحبيس في أتون الغرائز، مع قارعات الحجج الإلهية وداويات النذر، فلم يبقَ أمام الرسالة الإلٓهية إلا الأسف الحزين على إهدار كرامة العقل الذي بدأ يشب على رقدة المهد ﴿ قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولايضركم؟! * أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾[2].

وفي هذا الطور من أطوار الحياة حفل التاريخ الإنساني بأعمال عقلية، سجلها فيما ادخره من فلسفات كانت في نظره حقائق فكرية.

موقف العقل من شريعة التوراة وحامليها

وفي هذا الطور بدأت الرسالات الإلٓهية تمزج بين الحقائق الكلية الإلٓهية الحياة الواقعة والحوادث الجزئية التي تحيا مع الناس ويحيا الناس معها. وجاءت شريعة التوراة تتحدث عن الله تعالى، وعن الكون والخلق، والأنبياء والرسل، وعن الوحي وعن الملأ الأعلى مما لا يدركه الحسّ، وتتحدث عن حياة بعد هذه الحياة وعن الثواب والعقاب، وعن علاقة الناس بالخالق، وعلاقاتهم بعضهم ببعض ونحو هذا من التشريع الذي لم يعهد في شرائع الرسالات السابقة.

بيد أن أسلوب التوراة في التعبير عن ذلك كله كان أسلوباً قائماً على الاستعانة بالحس، وتغمره الأمثلة والصور الحسية، ويقلّ فيه التجريد، بل يكاد ينعدم، وذلك مراعاة لأثر الرواسب الغريزية المستخفية في الطبيعة الإنسانية، ذلك الأثر الذي كان يطفو أحياناً على سطح الحياة في غفلة من العقل كفقاعات الهواء الفاسد التي تتنفس عنها مستنقعات النزيز.

وكان مظهر ذلك جيل بني إسرائيل، فهو جيل عرف من المعارف العليا كثيراً من الحقائق، وخاطبت فيه الرسالات الإلٓهية العقل ـ على ظلمه

(١) سورة الأنبياء، آيات: ٥١ ـ ٦٥.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ٦٦ ـ ٦٧.

عندهم ـ وشرعت له، وهو نفسه الجيل الذي تبلّد وأنكر كل معارفه العقلية في لحظة استعلى فيها سلطان الغرائز على العقل فحجبه عن السماء، وشده إلى الأرض، فنسي حتى تنكر لماضيه القريب، والقرآن الحكيم يصوِّر ذلك كله تصويراً بارعاً في قوله تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها، وتمت كلمة ربّك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون * وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلَهاً كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون * قال أغير الله أبغيكم إلَهاً وهو فضلكم على العالمين﴾[1].

تصوير القرآن الحكيم لموقف اليهود من العقل

فانظر. . ليس إلا مجاوزة البحر بهم ناجين من فرعون وعذابه، وكانوا قبل تلك المجاوزة المثل المضروب لعالم زمانهم في عرفان الحقائق العليا من توحيد الله ونعوت كماله وعوالم الغيب مما هو وراء الطبيعة، فنسوا كل شيء من هذه المعارف، وطمس على عقولهم فعادوا كأخبث ما كانت طبيعة مظلمة، وكأحط ما كان عقل سجيناً، وكأبلد ما كانت أمة من الناس، وكأجهل ما كان جيل في تاريخ البشرية.

أما ما جاءت به التوراة إليهم من التشريعات الجزئية للحوادث الواقعة في الحياة، فقد أحالته غرائزهم المادية المسعورة إلى رسوم استغلالية لا تقيم وزناً للقيم الخلقية، ولا للفضائل الإنسانية، ولم يبقَ ـ عند تطبيق هذه التشريعات ـ فَيْصل بين فضيلة ورذيلة، وأصبحت الحياة ـ في نظرهم ـ متجراً للاستغلال والمرابحة، كأنهم ولدوا بغير قلوب، وخلقوا بغير وجدان، فليس بين أحضانهم رائحة للعواطف الإنسانية في معاملة الناس من غير جنسهم، بل من أنفسهم.

تبلور حاجة الإنسانية إلى شريعة رحيمة

ومن ثم كانوا ـ وكانت الحياة من أجلهم ـ في أشد الحاجة إلى «ثورة» عاطفية حنون تنبع من وجدان مليء بحب الحياة وحب الأحياء، «ثورة» تعرف

(١) سورة الأعراف، آيات: ١٣٧ ـ ١٤٠.

الحق وتقدسه، ولكنها تلفه في غلالة الإيثار، وتعرف العدل مقدراً جلاله ولكنها تغلفه بالرحمة الحانية، وتعرف الإخاء وشيجة بين أبناء الإنسانية قاطبة، ولكنها تجعله مودة موصولة بالتسامح والسماحة.

«ثورة» تقوم في داخل كل نفس إنسانية، يسمع صوتها القلب والعقل وهي تقلب الضمير ظهراً لبطن، وتعرضه لشمس الحياة كما يعرفها الناس، عسى يستطيع أن يصنع من غلاظ الرقاب، قساة القلوب والأكباد أناساً يعيشون في دفء الشمس كما يعرفها سائر الناس.

وكان الله رؤوفاً رحيماً، فجاءهم بعيسى المسيح بن مريم عليه السلام، روحاً من الله وكلمة رحمته الودود، وأنزل عليه الإنجيل ترنيمات عاطفية باكية، ترمي بدموعها إلى مداخل قلوبهم لتطهِّرها من رجس غرائزهم المادية المظلمة، وتكفكف من غلواء نفوسهم الجامحة.

ولكن طبيعة اليهود لم تألف السماحة وتعاطف الرحمة، فمسخوا ترنيمات الرحمة الإنجيلية إلى وثنيات ترابية، فلسفتها لهم غرائزهم في صور مادية بعيدة كل البعد عن آفاق التفكير العقلي، بله التراحم العاطفي، فلبسوا الحق بالباطل، وكتموا الحق تضليلاً وافتروا على الله الكذب، وجعلوا من المسيحية مسخاً غامضاً لا تسيغه العقول.

جاوة العقل في رحمة سماء بإمداده بشريعة كاملة في روحها وماديتها

ووقف العقل وحده في مكانه من الحياة، يتطلع مشدوهاً في رجاء وأمل إلى السماء يستهديها الرشد، ويسترشدها الهداية، ويسألها في ضراعة أن تمده بمددها في رسالة إلّهية كاملة شاملة، توائم نضجه ورشده، تعرف الحق والعدل، وتتخذهما أساساً لبناء الحياة الكريمة، وتعرف السماحة والرحمة، وتجعلهما أساساً لبناء حياة الإخاء الإنساني، وتعرف قبل هذا وذاك فطرية العقيدة التي تعتمد في معرفة الله فاطر السموات والأرض على دراسة الكون في غير غموض ولا تلبيس، ولا تغمض عين العقل على قذى فلسفات جوفاء، ولا تقبل عليه وصاية من خارج تفكيره، بل تمنحه حرية الانطلاق الكامل في كل ما تملك قوته العمل في مجاله، وتحجزه حفاظاً عليه من متاهات الاسترسال فيما لا يستطيع ولا يطيق من عوالم الغيب التي

لا تخضع لسُنن البحث والتفكير، وإن كان الإيمان المطلق بها يعتمد على مقدمات تخضع للبحث الذي يجعل من نتائجها قضايا يطمئن العقل إلى الإيمان بها كإيمانه بأية قضية بحث من قضاياه.

وكان الله عليماً حكيماً فأنزل القرآن الحكيم تبياناً لكل شيء، وأرسل به نبيه محمداً ﷺ، وختم به رسالات السماء، وأبان فيه مكانة العلم والمعرفة، وجعل للعقل قيادهما، ومن هنا كان «العلم» بأوسع معانيه هو المعجزة الخالدة لهذه الرسالة الخاتمة. وفي ذلك يقول خاتم النبيين محمد ﷺ «ما من الأنبياء نبي إلا أوتي ما على مثله آمن البشر، وكان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

البيئة الطبيعيّة والاجتماعيّة
لحياة محمد صلى الله عليه وسلم

البيئة الطبيعية لحياة محمد ﷺ هي الجزيرة العربية كلها بوجه عام، سماؤها وأرضها، شمالها وجنوبها، جبالها ووديانها، نجودها وتهائمها، وهي بوجه خاص شمال تلك الجزيرة المعروف بأرض الحجاز، وهي بوجه أخص «مكة» من أرض الحجاز.

والتاريخ الطبيعي عرف للجزيرة العربية في جملتها خصائص شاملة تشترك فيها جميع أجزائها، وعرف بعد ذلك خصائص فصلت الجنوب عن الشمال، وعرف خصائص امتازت بها أرض الحجاز، وخصائص امتازت بها مكة في موقعها من أرض الحجاز.

خصائص الجزيرة الطبيعية كلها تجمعت في حجازها وعاصمته

عاصرت تلك الخصائص الجزيرة العربية مفرقة بين شمالها وجنوبها آماداً طويلة، وأحقاباً متعددة، تدخل مع التاريخ في أعماقه البعيدة حتى تقف معه عند مجاهل العصور التي لم تتبين له معالمها ولم تزل تمخضها الحوادث وتدافعها الأحداث، وتمر مع الزمن في أطوار طبيعية حتى تبلورت إلى صورة واحدة مشت بالجنوب إلى الشمال، فمزجته به في خصائصه حتى صار كأنه هو، جدباً وشظف عيش، وقسوة طبيعية، وجفوة حياة وإكفهرار منظر، وعبوس جو، ولفح سموم، وكثرة تقلبات، وقلق إقامة وتطلعاً إلى السماء رجاء غيث، وتوثباً في أرجاء الأرض طلباً لمرعى أو قطرة ماء.

وهي بعد ذلك بيئة تدَّرع الليل، وتأنس بالوحش، وتستضيء بالنجوم، وتطرب لصوت الرعد، يكنفها فضاء لا نهاية له، وتظلها سماء

لا تستقر على حال، تصفو مرة فتلمح بالليل نجومها! وتضحى بالنهار شمسها، وتغيم مرة فيسود أديمها وتتوارى كواكبها وتحتجب شمسها، ويكفهرّ أفقها، ويتجهّم منظرها، أكنافها الجبال ومسارحها الوديان، لا صناعة تشذب من مظاهرها، ولا زراعة ترفه من جوها، وكل الأمل المرجو منها مرعى تجود به الطبيعة لتحيا عليه قطعان من إبل وشاء عليها قوام تلك البيئة القاسية.

وقد شهر ذلك عن الجزيرة العربية حتى عرفه جيرانهم من الفرس والرومان فزهدوا فيها مع طغيان روح الاستغلال الاستعماري في الدولتين، (يحدثنا ابن هشام في السيرة: إنه لما طال بلاء الحبشة على أهل اليمن، خرج سيف بن ذي يزن الحميري حتى قدم على قيصر ملك الروم فشكا إليه ما هم فيه، وسأله أن يخرج الحبشة عنهم ويليهم هو، ويبعث لهم من شاء من الروم، فيكون له ملك اليمن، فلم يشكه[1]، فخرج حتى أتى النعمان ابن المنذر وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق، فشكا إليه أمر الحبشة، فقال له النعمان إن لي على كسرى وفادة في كل عام، فأقم حتى يكون ذلك ففعل فأدخله على كسرى، فقال له: أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأغربة، فقال كسرى: أي الأغربة؟ الحبشة أم السند؟ فقال: بل الحبشة، فجئتك تنصرني ويكون ملك بلادي لك، قال كسرى: بعدت بلادك مع قلة خيرها، فلم أكن لأورط جيشاً من فارس بأرض العرب، لا حاجة لي بذلك.

* * *

هذه الخصائص الطبيعية كانت خلاصة ما انتهت إليه الأحداث الضخمة والحوادث الهائلة التي انتابت الجزيرة العربية في مدى الأحقاب المتوغلة في مجاهل التاريخ، تجمعت من أرجائها كلها وتلاقت في شمالها من أرض الحجاز، فكانت - فوق أنها خصائص الجزيرة كلها منذ بدأ انسياح القبائل الجنوبية إلى الشمال طلباً للعيش عقب انهيار سد مأرب وتخريب عمران اليمن - هي في الوقت ذاته خصائص بلاد الحجاز منذ عرفها التاريخ.

(١) يشكه: مضارع أشكاه إذا أزال شكايته.

مكة المكرمة ومكانتها

مكة في سماتها الطبيعية صورة صادقة لبيئة الجزيرة

أما «مكة» بلد محمد ﷺ وبيئته اللصيقة به فسمِّها قرية أو مدينة أو ما شئت من أسماء الأمكنة التي كانت موئلاً لاستقرار قبيل من الناس يضطربون فيه طلباً لوسائل الحياة والعيش، فيتسع لهم ويعطيهم ما تسمح به طبيعته، ويظهر أن أمر هذه التسمية يرجع إلى العرف ومصطلح الناس، وقد يختلف باختلاف الأزمنة والعصور، والقرآن الكريم أطلق عليها «بلداً» وسماها مرة «قرية» ومرة أخرى سماها «أم القرى» وأصول الاجتماع لا تأبى عليها اسم «المدينة». ومهما يكن من أمر ذلك كله فإنها منذ كانت فهي عاصمة الحجاز غير منازعة ولا مزاحمة، وإطلاق اسم المدينة عليها أقرب إلى تسمية القرآن لها «أم القرى» وأدنى إلى ما عُرف لها من مكانة واحترام قبل البعثة المحمدية وأشبه بما صارت إليه في الإسلام من منزلة دينية واجتماعية.

تلك المدينة التي كانت مسقط رأس محمد ﷺ، وموطن أسرته، ووطن قبيلته وصفها القرآن على لسان خليل الله إبراهيم عليه السلام بأنها (واد غير ذي زرع) فيما حكاه الله عنه بقوله: ﴿ربّنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم﴾[1] وهذا أصدق وصف وأجمع كلمة لخصائصها الطبيعية، فكلمة (واد) تصور أتم تصوير وضعها من الأرض، فهي منخفض تحيط به الجبال، وكلمة «غير ذي زرع» تعطيك أن هذا الوادي له طبيعة شحيحة أشد الشح بالماء، فهي لا تكاد تجود به نبعاً، وإذا جادت به غيثاً تفرق في غير كبير فائدة، وتعطيك نتيجة لذلك جدوبة الأرض وقحولتها، وتعطيك يبس الطبيعة وقسوتها، وتعطيك شظف الحياة وبؤس العيش، وتعطيك صرامة الجو، ولفح السموم، وهو وصف في جملته يدخل على

(١) سورة إبراهيم، آية: ٣٧.

النفس يأساً، قلّما أن تجد وسيلة من وسائل العيش الرغيد، أو سبباً من أسباب الكسب الربيح في هذا البلد السجين بين شاهقات الجبال.

تدارك العناية الإلّهية لمكة وصيرورتها حرماً مقدساً

لكن «مكة» بلد محمد ﷺ لم تستسلم للطبيعة تحبسها في واديها الأجرد، بين جبالها السود المكفهرة القاسية، بل تداركتها العناية الإلّهية فأهدت إليها «الكعبة» بيت الله الحرام، فصارت بها «مكة» بلد الله الحرام، وكان الذي أقام الكعبة إبراهيم وولده إسماعيل، وإبراهيم جد العرب الذي تنتهي إليه مفاخرهم، وإسماعيل أبوهم، وقد تعرب منذ كان، فلم يعرف غير العرب شعباً ولا غير جزيرة العرب وطناً، ولا غير «مكة» بلداً - كما روى البخاري - فحفظ الأبناء تراث الآباء، ورعى الأحفاد ذخيرة الأجداد، وعظَّم العرب كلهم «الكعبة» بيت جدهم إبراهيم وأبيهم إسماعيل، وعظموا لتعظيمها «مكة» واتخذوها حرماً آمناً يقدسونه ويتحامون فيه المآثم وينزهونه عن وقوع المظالم، ويُؤمِّنون فيه الخائف ويجبرون الكسير، وينصرون المظلوم، ويخافون الظلم فيه، روى ابن هشام أن سبيعة بنت لاجب قالت لابنها خالد ابن عبد مناف الكعبي تعظم عليه حرمة مكة وتنهاه عن البغي فيها:

أبنيَّ لا تظلم بمكة لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بنيَّ ولا يُغَرَّنْك الغرور
أبنيَّ من يظلم بمكة يَلْقَ أطراف الشرور
الله أمَّنها وما بنيت بعرصتها قصور
والله آمن طيرها والعصم تأمن من ثبير

يحجون إليها ويجتمعون في مواسمها، يتعبدون ويتجرون، ويجلبون إليها الأرزاق والسلع ويتبادلون ذلك فيما بينهم، فيصدر عنها من وردها بغير ما ورد، ويردها من صدر عنها بغير ما صدر، ثم اتخذوها مناراً لإذاعة مفاخرهم ومحكمة لتحاكمهم، وملجأ لضعفائهم، وملاذاً يلوذ به أصحاب التبعات والجرائر منهم، ومصدراً لمحالفاتهم وتعهداتهم، ووضعوا لذلك سنناً متبعة لا يحيدون عنها، ونظاماً مأثوراً يأثره الخلف عن السلف، من غيَّره أو انتهك حرمته فقد جاء بإحدى الكبر.

وهكذا أصبحت «مكة» شيئاً آخر غير كونها وادياً أجرد محصوراً بين الجبال، أصبحت متعبد العرب قاطبة، تهفو إليها قلوبهم تحنثاً فيها وتعبداً بالطواف حول بيتها المحرَّم، يقدسونها تقديساً لا يفوقه تقديس، ويفدون بيتها المعظَّم بالمهج والأرواح، روى ابن هشام أن أبرهة الأشرم - وكان والياً على اليمن من قبل النجاشي - كتب إلى النجاشي يقول له: إني بنيت لك - أيها الملك - كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب، فلما تحدثت العرب بذلك غضب رجل من النَّسَأة - قوم من العرب كان لهم النسيء في الأشهر الحرم - فدخل كنيسة أبرهة وقذَّرها، فلما بلغ ذلك أبرهة سأل عنه: من فعله؟ فقيل له: رجل من العرب، من أهل هذا البيت الذي يحج العرب إليه بمكة، فحلف أبرهة ليسيرن إلى هذا البيت حتى يهدمه وتجهز لذلك، فلما سمعت العرب بمسيره أعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقاً عليهم.

تلك هي صورة مجملة تصور البيئة الطبيعية التي ولد فيها محمد ﷺ، والتي عاش بين أحضانها، وتلك هي خصائصها العامة والخاصة.

* * *

البيئة الاجتماعية

كانت البيئة الاجتماعية ثمرة البيئة الطبيعية

أما البيئة الاجتماعية التي نهد محمد ﷺ بين أعطافها، وشب في مدارجها، واستوى رجلاً في مجامعها فهي البيئة العربية التي تشمل جميع الشعوب والقبائل والبطون والعشائر ممن سكن الجزيرة العربية في جنوبها وشمالها، وتكلم بلغة العرب، ودان بأديانها، واعتقد عقائدها وتخلق بأخلاقها وتسنن بعاداتها، وتأثر بمن خالطها من الأمم والجماعات التي طرأت بتراثها الاجتماعي على جزيرتها، فهي أوسع مدى، وأشمل أثراً من البيئة الطبيعية، لأن خصائص البيئة الطبيعية مظاهر جامدة ترتبط بالأرض والسماء، والخصب والجدب، والجو والطبيعة، أما خصائص البيئة الاجتماعية فهي انعكاسات لمظاهر البيئة الطبيعية تظهر صورها وآثارها حية

في الإنسان الذي عاش فيها، وتقلب في أنحائها يتسبب لمعاشه، فهي على الحقيقة مجموعة أخلاق الناس وطبائعهم وعقائدهم ومظاهر حياتهم فيما يغلب عليهم من وسائل الحياة في صناعة أو تجارة أو زراعة أو استثمار حيوان، وما يتولد عن التنافس في ذلك من حرب أو سلم طلباً للمغالبة ودفاعاً عن البقاء، وأثر هذا في الأفراد والجماعات.

العقيدة أهم مظاهر البيئة الاجتماعية

وأول مظاهر البيئة الاجتماعية وأعمها مظهراً العقيدة الدينية وما ينشأ عنها من مناسك وتعبدات، وعنوان ذلك عند العرب قاطبة هو الوثنية التي تتمثل في عبادة المخلوقات من الكواكب وأصناف الحيوان والأشجار والأحجار، وهي وثنية جامدة بليدة في شكلها وموضوعها، لا تتفلسف ولا تتعالم، ولكنها تقوم على التقليد الأبله والوراثة المتعصِّبة التي لا تسمع لصوت العقل ولا تصغي إلى الشعور ونداء الوجدان، وقد حكى القرآن عنهم هذا في معرض الرد عنهم على دعوتهم إلى الحق فقال: ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾[1] ثم بكَّتهم على هذه البلادة العقلية التي لا تناسب إنسانيتهم فقال: ﴿أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾[1] ثم مثَّلهم في سد طرائق الفهم والتعقل على أنفسهم وعدم تأملهم لما يسمعون، بالبهائم التي ينعق بها راعيها فتسمع الصوت ولا تفهم مغزاه، وتحس بالنداء ولا تفهم معناه فقال: ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلّا دعاء ونداء ﴾[1] ثم سجل عليهم أنهم لم يكتفوا بإلغاء عقولهم، ولكنهم ألغوا كذلك حواسهم فعطلوها عن عملها الجاد المفيد فقال: ﴿ صُمّ بُكْمٌ عميٌ فهم لا يعقلون ﴾[1].

الأوثان في أشكالها تدخل في كل بيت من بيوتهم.

وقد دفعهم الفراغ عن جد الحياة إلى التفنن في وثنيتهم البلهاء، فنوعوها وعددوا آلهتها واتخذوا لها الأنصاب والتماثيل والأصنام والأوثان، وبنوا لها البيوت والمتعبدات حتى أصبح لكل قبيلة صنم أو تمثال في بيت خاص به تتعبد له وتذبح عنده قرابينها وتطوف به وتتقرب إليه بصدقاتها ونذورها، وتستقسم بأزلامها في كنفه ليأمرها أو ينهاها، بل لم يبق بيت من

---

(١) سورة البقرة، آيتا: ١٧٠ ـ ١٧١.

مظاهر بلادة الوثنية الجاهلية

بيوت العرب إلا اتخذ أهله صنماً يعبدونه، قال محمد بن إسحاق: (واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسح به حين يركب، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفر وإذا قدم من سفره تمسح به، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله) ومن هنا جاء عجبهم حينما دعاهم رسول الله ﷺ إلى التوحيد فقالوا ـ كما حكى القرآن عنهم ـ: ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ قال هشام الكلبي في كتاب الأصنام: (واستهترت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنماً، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب، فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان وسموا طوافهم الدوار، فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً وجعل ثلاثة أسافي قدره، وإذا ارتحل تركه فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك، فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها).

وقد تبلغ البلاهة ببعضهم إلى أن يصنع صنمه من طعام يعجبه، يطوف به ويتنسك لديه مادام مستغنياً عنه، فإذا عضه الجوع عدا عليه فأكله، وقد يتنبه الوعي الداخلي في نفس أحدهم فيدرك في لحظة عابرة أنه ليس على شيء، ولكنه تنبُّه الخطرة الخاطفة لا تنبه العقل المتأمل والعقيدة المفكرة. روى محمد بن إسحاق وابن الكلبي أن رجلاً من بني ملكان ابن كنانة أقبل بإبل له كثيرة ليقفها على صنم لهم يقال له «سعد» وهو صخرة طويلة بفلاة من أرض جده التماس بركته ـ فيما يزعم ـ فلما رأت الإبل سعداً وكانت مرعية لا تركب ـ وكان يهراق عليه الدماء ـ نفرت منه، وذهبت في كل وجه، فغضب ربها وأخذ حجراً ورمى به سعداً ثم قال له: لا بارك الله فيك إلهاً، نفَّرت عليّ إبلي، ثم خرج في طلبها حتى جمعها، فلما اجتمعت له قال:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا ... فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة ... من الأرض لا يُدعى لغيٍّ ولا رشد

وقال ابن الكلبي في كتاب الأصنام: وكان لمزينة صنم يقال له «نهم»

وبه كانت تسمى عبد نهم، وكان سادن نهم يسمى خزاعي بن عبد نهم من مزينة ثم من بني عداء، فلما سمع بالنبي ﷺ ثار إلى الصنم فكسره وأنشد يقول:

ذهبت إلى نهم لأذبح عنده عتيرة نسك كالذي كنت أفعل
فقلت لنفسي حين راجعت عقلها أهذا إلَه؟ أيكم ليس يعقِلِ؟
أبَيْتُ فديني اليوم دين محمد إلَه السماء الماجد المتفضِّل

وفي كتاب الأصنام أن امرأ القيس بن حِجْر لما أقبل يريد الغارة على بني أسد مر بذي الخلصة وكان صنماً بأرض تبالة، وكانت العرب تعظمه، وكانت له ثلاثة أقداح، الآمر والناهي، والمتربص - فاستقسم عنده ثلاث مرات، فخرج الناهي، فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم وقال له: (عضضت با.. أبيك لو كان أبوك قتل ما عوقتني) ثم غزا بني أسد فظفر بهم.

وإلى جانب هذه الوثنية البلهاء الغامرة كانت هناك قلة منثورة في أرجاء الجزيرة العربية تنفرد باعتقادات خاصة وتدين بديانات أخرى، فكانت اليهودية باليمن حتى غلبت عليها الحبشة فأدخلت فيها النصرانية التي عاشت بنجران حتى جاء الإسلام، ثم تحولت اليهودية إلى الحجاز فأقامت بيثرب وخيبر، وهناك لقيها الإسلام.

رشح من ندى الفطرة السليمة بلل بقطراته قلوب أفراد قلائل عزفوا عن هذه الوثنية البلهاء.

وفي غضون هذا الخضم الوثني كانت توجد حفنة من الناس تنكر على قومها التعبُّد للأحجار وتتطلع إلى الحنيفية دين إبراهيم وإسماعيل، وكانت قد بقيت لها آثار باهتة لا تتضح منها معالمها، فتمسكت بأهدابها باحثة عن حقيقتها حتى جاء الإسلام فسمعوا ديباجة حديثة، ولم تتلبث بهم أعمارهم حتى يطلعوا على حقيقته، فمضوا على نياتهم وعقائدهم، قال محمد ابن إسحاق فيما يرويه ابن هشام في السيرة: واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويديرون به، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نَجِيّا، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، قالوا: أجل، وهم: ورقة بن نوفل، وعبيدالله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد ابن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على

شيء، لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضرّ ولا ينفع؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم، فأما ورقة ابن نوفل فاستحكم في النصرانية حتى علم علماً من أهل الكتاب، وأما عبيدالله ابن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر إلى الحبشة وهناك تنصّر ومات على نصرانيته، وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم وتنصّر وأقام هناك، وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه واعتزل الأوثان والذبائح التي تذبح لها ونهى عن قتل الموءودة وقال: أعبد رب إبراهيم، وبادى قومه بعيب ما هم عليه، وقد قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق: لقد رأيت زيد ابن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مسنداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته، وقد قال عنه النبي ﷺ: إنه يبعث أمة وحده، وفي رواية عند ابن سعد في الطبقات: إني رأيته يسحب ذيله في الجنة.

وكان من أثر بقاء آثار الحنيفية بين العرب أنهم كانوا يؤمنون بوجود الله، ويسندون إليه عظائم الأمور، وأن آلهتهم هذه إنما تقربهم إلى الله زلفى، كما حكى عنهم القرآن في قوله: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُنَّ الله﴾[1] وفي قوله: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾[2] وكان بعضهم يقول في تلبيته للحج: (لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك. إلا شريكاً تملكه وما ملك). وهكذا كانت الجزيرة العربية تموج بالشرك والوثنية في صور مختلفة ومظاهر متعددة، تتلاقى كلها في تفاهتها وسذاجة أوضاعها، وبعدها عن يقظة العقل والوجدان.

---

(١) سورة الزمر، آية: ٣٨.

(٢) سورة الزمر، آية: ٣.

كانت أخلاق العرب الجاهلية أثراً للبيئة

أما أخلاق العرب وعاداتهم الفاشية فيما بينهم فهي في الأغلب أخلاق وعادات تنبع من ينبوع عقائدهم الوثنية وبيئتهم الطبيعية، فخيرها يستوحي البيئة ومستلزماتها من الفاقة وضنك العيش وقسوة الحياة، فالنجدة والمروءة والوفاء بالعهد وصدق الحديث والشجاعة والكرم والسخاء والإيثار، والذود عن المحارم ورعاية الجوار، والحلم والصبر وسرعة الخاطر وصفاء البديهة وكل ما جرى هذا المجرى مما سجله تاريخهم ووعته أشعارهم وشاد به أدبهم فضائل كان لها عند العرب من المكانة ما لم يكن لها عند غيرهم من الأمم، ومن المعروف أن العرب ما كانوا يرجعون في ذلك إلى قانون خُلقي ولا نظريات نفسية ولا مراسم تربوية، ولكنهم كانوا يستلهمون دواعي البيئة التي تأويهم، ودوافع الحياة التي يحيونها، وتلك البيئة هي التي جعلت من هذه الفضائل أمهات المكارم التي تتفاخر بها العرب حتى أسرفت فيها إسرافاً أخرجها عن دائرة الفضائل الفطرية التي تقرها العقول السليمة وتحض على التحلي بها الرسالات الإلٓهية.

وتلك البيئة نفسها هي التي جعلت من بعض رذائل الفطرة ومقابح العقول ومناهي الديانات السماوية فضائل محلية، فشرب الخمر والمقامرة، والفتك ونصر القريب الظالم، ووأد البنات وإكراه الإماء على البغاء تكسباً وما إليها مما كان فاشياً بين مجتمعات العرب وفي قبائلهم هي رذائل الفطرة النقية، ولكنها كانت عند العرب فضائل يتفاخرون بها، ويعيبون الذي لا يتحلى بحليتها.

وكان للعرب إلى جانب ذلك خرافات سخيفة يعتقدونها وخيالات ساقطة يقيمون حياتهم عليها، وهي في الأغلب وليدة البله في العقيدة الدينية والوثنية التي كانت شائعة بينهم، ومن خرافاتهم الاستقسام بالأزلام، وهي أقداح موضوعة عند سدنة الأصنام مكتوب عليها (افعل) و (لا تفعل) أو نحو ذلك مما يدل على المضي في المقصود أو العدول عنه، فإذا أراد أحدهم سفراً أو أمراً مما يعرض له في حياته ذهب إلى السادن وطلب إليه إخراج الأقداح ليأخذ منها واحداً يأتمر بما فيه، ولها صور متعددة. ومن خرافاتهم التطير بالسوانح والبوارح من الطير. ومن سواقطهم طوافهم بالبيت عراة، وقد عدد

القرآن الكريم كثيراً من هذه الرذائل مبكتاً المتعلقين بها عائباً عليهم اعتقادها ناعياً عليهم سفاهة أحلامهم وركاكة عقولهم.

وقد قضت البيئة الطبيعية والفوضى الدينية وشيوع الخرافات أن تتوافر لدى العرب أسباب لإشعال نيران الحروب وإيقاد جذوة التطاحن قلما توافرت لأمة أخرى من الأمم، ولا يغلو من يقول إن حياة العرب في جاهليتهم كانت حياة لا تعرف الأمن والسلام، بل كانت حياة تخفق فوقها بنود الحرب والتقاتل، وكأنما ضنَّت عليها الطبيعة بما يروي غلتها ويخصب أوديتها من نمير الماء فجادت عليها لتعوضها بصبيب الدماء، وكأنما أصبحت الحرب طبيعة من طبائع ذلك الجيل من الناس، فمن العسير جداً على التاريخ أن يجد يوماً من أيام الناس مر على جزيرة العرب وليس بين أبنائها قتال، فإذا لم يكن في الجنوب كان في الشمال، وإذا لم يكن في نجد كان في تهامة، وإذا لم يكن بين قبائل حِمْير كان بين نزار، وإذا لم يكن في ربيعة كان في قيس، وقد عدَّد المؤرخون أيام الوقائع الكبرى في الجزيرة العربية وذكروا أسبابها ونتائجها، فإذا بها راجعة إلى تغالب على مرعى، أو حماية جار، أو أخذ بثأر، أو مساعدة حليف، وكم من سبب تافه ألهب لظى حرب لبثت أعواماً يصطلي أوارها الناس، وحسبك أن تعرف أن روايات التاريخ الجاهلي تذكر أن حرب داحس والغبراء مكثت أربعين عاماً لا تخمد جمرتها، فلا يتحاجز الناس إلا ريثما يتهيئون لوثبة أخرى تعود فيها الحرب جذعة تأكل شباب المتقاتلين وشجعانهم، وحسبك أن تعلم أن سبب كل هذه الحرب الطويلة الدامية محاولة تغليب فرس على فرس في سباق، وحسبك أن تعلم أن حرباً بين بكر وتغلب دامت عشرات الأعوام وكان سببها إصابة ناقة البسوس وكانت جارة لجساس بن مرة البكري فقتل بها كليباً سيد تغلب ونشبت بين القبيلتين حرب شابت فيها الولدان.

وهكذا لا تكاد تنظر في تاريخ العرب قبل البعثة المحمدية إلّا وتجد صفحات من الدماء صَبتها على أديم جزيرتهم أسنة الرماح وظباة السيوف، وقد ولَّدت هذه الحروب العداوة بين قبائل العرب وبيوتاتهم، ففشى بينهم التقاطع والشحناء، وكان من أثر ذلك تعصب كل قبيلة لأفرادها والانتصار

لهم مهما بلغ شأنهم، ومن ثم ساد بين العرب في جاهليتهم النظام القبلي الذي يعطي الفرد من المكانة ما لم يعرف له في الأنظمة الاجتماعية التي تنسق فيها الجماعة على نسق نظامي يحكمه قانون ثابت وحكومة تقوم على تنفيذ ذلك القانون.

وقد استحكم هذا الوضع الفردي في الأسرة العربية، فحكمها الفرد وتحكم فيها، فنظام الزواج والمفارقة والمواريث وعلاقة أفراد الأسرة كلها قائمة على حكم الفرد الذي لا يرد حكمه، وما بالك بنظام يجعل من قوانينه حرمان المرأة أن تتصرف في شيء من أمرها؟ وما بالك بنظام يجعل من حق أكبر أبناء الرجل أن يخلف أباه على زوجته؟ وما بالك بنظام يرمي بالأسرة كلها بل بالقبيلة من أجل جريرة فرد من أفرادها، ولو كان ذلك الفرد صعلوكاً أو خليعاً؟!.

محمّد صلّى الله عليه وسلّم الإنسان

تسلسل الأحداث

محمد ﷺ إنسان بكل معاني الإنسانية المكتملة في خصائصها

توجيه البحث في هذا الفصل:

المقصود من هذا الفصل هو تصوير شخصية سيدنا محمد ﷺ تصويراً تاريخياً يقوم على معرفة الأحداث والحوادث والأشخاص والأزمنة والأمكنة في الحياة التي كانت تحياها بيئة محمد ﷺ الطبيعية والاجتماعية، والحياة التي كان يحياها محمد ﷺ نفسه في تلك البيئة، وبيان الأطوار التي مر فيها تاريخ محمد ﷺ مدى تلك الحياة، وبيان آثار تلك البيئة في بناء شخصية محمد ﷺ التاريخية، وبيان آثار محمد ﷺ في البيئة من ناحيته الذاتية كرجل من رجالات تلك البيئة، نشأ في أحضانها، وعاش بين عاداتها وأخلاقها، وشام[1] تفكيرها، ورأى عقائدها، وخالطها في حربها وسلمها، ثم بيان آثاره كإنسان مكتمل خصائص الإنسانية في احتمال أعباء الرسالة الإلهية التي يبعثه الله بها إلى الناس كافة، في أطوارها المختلفة.

محمد ﷺ عاش في بيئته بخصائصه فكان صورة فيها ولم يكن صورة منها

هذا التصوير يقتضينا أن ننظر في شخصية محمد الإنسان ﷺ لنتعرف عليه في نشأته وعيشه، كيف نشأ، وكيف عاش في بيئة لها خصائصها ومميزاتها الطبيعية والاجتماعية، وكل إنسان نشأ وعاش في بيئة فلا بد أن يأخذ منها وتأخذ منه، ويجاذبها وتجاذبه، وفي هذا التجاذب بين البيئة وأفراد مجتمعها تظهر مميزات الأفراد الذاتية التي تحميهم من التأثر بعوامل البيئة تأثراً كلياً قد تجعل الفرد صورة للبيئة وأثراً من آثارها ليس غير، كالآلة يصنعها صانعها

(١) شام تفكيرها: هو من قولهم: شام البرق إذا نظر إليه ليتعرف أين يقصد.

ليعمل بها ما يريد وهي مجردة من الإرادة والاختيار اللذين هما خصيصة الإنسان النابعة من إنسانيته، بيد أن هذه الخصيصة تتفاوت في أفراد الإنسان وهذا التفاوت هو فيصل الامتياز والتفوق في الشخصية المتكاملة، فما مدى أثر هذا التجاذب بين محمد ﷺ وبيئته في حياته مدى أربعين سنة قبل أن يُبعث نبياً، عاشها في قومه وبيئته أطواراً مختلفة مرهف الحسّ، قوي الوجدان، صادق الشعور، مشبوب الرجولية، فارع الشباب.

الخصيصة العظمى لمحمد ﷺ تتمثل في تربية الله له وتأديبه ليعده لحمل أمانة أعظم رسالة لانقاذ الإنسانية

وهذا التصوير يقتضينا أن ننظر بعد هذا إلى حياة محمد ﷺ الذي تولى الله فيها تربيته وأعده لرسالته الخاتمة الخالدة، فأدَّبه فأحسن تأديبه، لنتعرَّف على معالم تلك التربية الإلهية والإعداد الرباني والتأديب الرحماني الذي جعل الله به عبده محمداً ﷺ رحمة للعالمين.

وقد جرت سُنَّة الله في رسالاته الإلهية أن يُعِدَّ من يصطفيه لها في خلائقه وجوهر إنسانيته وخصائص رجوليته إعداداً خاصاً، يوائم بينه وبين ما انتدب إليه؛ حتى يستطيع القيام بما حُمِّل ويؤدي ما كلِّف، كما أشار إلى ذلك القرآن الحكيم في قوله: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾.

أسرة محمد صلى الله عليه وسلم
خصائصها ومكانتها في العرب

محمد ﷺ سليل أسرة جمعت أمجاد العرب في خلائقها

ونظرنا إلى محمد ﷺ الإنسان يدفع بنا إلى الوراء قليلاً قبل أن يكون محمد ﷺ شخصاً بين قومه، لنعرف النبعة التي انشقت عنه، ونعرف ماذا كان لها في شخصيته من أثر وراثي، أو أثر اجتماعي، ولسنا نعني هنا دوحته الكبرى «قريشاً» فهذه قد استوفت حظها من البحث، وإنما نعني فَرْعَيْها الفارعين وغصنيها الزاكيَيْنْ: «عبد مناف» و«زُهْرة» اللذين انفـرجا عن محمد ﷺ، فعبد مناف غصن من الدوحة القرشية زكى وأينع فأثمر لسيدها عبد المطلب ابنه «عبدالله» وزُهْرة غصنها الذي زهى ونما، فأثمر لوهب سيدها ابنته «آمنة»، وهاتان الثمرتان ضمهما القدر المغلف بأسرار الغيب على وساد من الحب الشفيف واللقاء الشريف في سنة عربية للزواج بين كرام العرب معروفة، وشرعة إلٰهيَّة منذ كان النـاس مقـدورة، فكـان منهما «محمد» رسول الرحمة للعالمين. ووقوفنا عند «عبد مناف» و «زهرة» من بين أغصان الدوحة القرشية التي تجمعهما لأنهما نقطتان تجمع فيهما كثير من خصائص الأصل والنبعة الكبرى، حتى كأنهما أصل مع الأصل، أو فرع انتهت إليه خصائص الأصل، فعبد مناف ورث مجد أبيه قصي الذي يعتبر في تاريخ قريش عرق الثرى في إمداد أغصانها بأمجاد المناقب وأصول المكارم.

جده قصي كان ملكاً غير مملك إلا بخلائقه وجلائل أعماله

كان «قُصَي» بن كلاب أخا «زهرة» لأبيه وأمه، وكان في سن الفطام حين هلك أبوه، وكان «زهرة» قد بلغ مبلغ الرجال، فتزوجت أمهما رجلاً من قضاعة فارتحل بها إلى أرض قومه من مشارف الشام، فأخذت معها «قصياً» لصغره وتركت «زهرة» في قومه، ولما كبر قصي وبلغ مبلغ الرجال عاد إلى

بلده وقومه فوجد أخاه «زهرة» قد كبر وعمي، فتعرف إليه فعرفه بعد أن استوصفه. ووجد «قصي» أمر مكة بيد خزاعة فخطب إلى سيدها حُلَيل ابن حبشي ابنته «حُبَّى» فزوَّجه بها لمكان نسبه وشرفه، وكان «قصي» جلداً نهداً نسيباً، فكثر ماله وولده وانتشروا في مكة، وسمت نفسه فطمح إلى سيادة قومه، ورأى أنه أحقّ بالبيت وبأمر مكه من خزاعة فحاربهم مستعيناً بأخوته لأمه من قضاعة وانتزع أمر مكة من أيديهم، فشرف في قومه وساد، قال ابن هشام في سيرته: «كان قصي بن كلاب أول بني كعب ابن لؤي أصاب ملكاً أطاع له به قومه، فكان شريف أهل مكة، لا ينازع فيها، فابتنى دار الندوة وجعل بابها إلى البيت، ففيها كان يكون أمر قريش كله، وما أرادوا من نكاح أو حرب أو مشورة فيما ينوبهم، ولا يعقدون لواء حرب لهم مع قوم من غيرهم إلا في دار الندوة، يعقده لهم قصي، ولا يعذر لهم غلام إلا في دار النَّدْوة، ولا تخرج لهم عير فيرحلون إلا منها، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها؛ تشريفاً له وتيمناً برأيه ومعرفة بفضله ويتبعون أمره كالدين المتبع، وكان إليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة وحكم مكة كله».

كان فرع عبد مناف أمجد أغصان دوحة قصي

ولما هلك قصي خلفه على أمر مكة ابنه «عبد مناف» لأن عبد الدار بكر قصي وكبير ولده كان ضعيفاً فائل الرأي، وكان إخوته قد شَرُفوا عليه، وكان أعلاهم كعباً في السيادة والشرف «عبد مناف» وقد شرف في زمان أبيه وذهب كل مذهب[1]، وكان يقال له القمر من حسنه وله يقول الشاعر:

كانت قريش بيضة فتفلقت ... فالمحّ خالصه لعبد مناف

أمجاد عبد مناف صيرته دوحة في نسب المكارم فكان أصلاً انتهى إليه محور القربى في تحديدها الإسلامي

وقد اجتمعت قريش على «عبد مناف» فاختط لها الرباع بمكة ووطد سلطانها عليها، وعلى عبد مناف اقتصر النبي ﷺ في بيان القرابة في قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ روى ابن سعد في الطبقات عن ابن عباس قال: لما أنزل الله تعالى على النبي ﷺ ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾

---

(١) الطبري جـ٢ ص ١٨٤.

خرج حتى علا المروة ثم قال: (يا آل فهر) فجاءته قريش، فقال أبو لهب ابن عبد المطلب: هذه فهر عندك فقل، فقال: (يا آل غالب) فرجع بنو محارب وبنو الحارث ابنا فهر، فقال: (يا آل لؤي بن غالب) فرجع بنو تيم بن الأدرم ابن غالب، فقال: (يا آل كعب بن لؤي) فرجع بنو عامر بن لؤي، فقال: (يا آل مرة بن كعب) فرجع بنو عدي بن كعب وبنو سهم وبنو جُمَح ابنا عمرو ابن هصيص بن كعب بن لؤي، فقال: (يا آل كلاب بن مرة) فرجع بنو مخزوم ابن يقظة بن مرة وبنو تيم بن مرة، فقال: (يا آل قصي) فرجع بنو زهرة ابن كلاب، فقال: (يا آل عبد مناف)، فرجع بنو عبد الدار بن قصي وبنو أسد ابن عبد العزى بن قصي، وبنو عبد بن قصي، فقال أبو لهب: هذه بنو عبد مناف عندك فقل، فقال رسول الله ﷺ: (إن الله قد أمرني أن أنـذر عشيرتي الأقربين، وأنتم الأقربون من قريش، وإني لا أملك لكم من الله حظاً ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إلّه إلا الله، فأشهد بها لكم عند ربكم، فتدين لكم بها العرب وتـذل لكم بها العجم) ورواه البخاري مختصـراً قـال ابن حجر في شرحه: ووقع عند البلاذري من وجه آخر عن ابن عباس أبين من هذا ـ ثم ساقه الحافظ موافقاً لرواية صاحب الطبقات، وكذلك رواه مسلم والإمام أحمد والبيهقي وغيرهم.

وهذا الحديث وحده يكفي سنداً لوقوفنا عند «عبد مناف» في تطلب الأصل القريب الذي ترجع إليه شخصية محمد ﷺ بالوراثة في بعض الخلائق والسجايا، فأنت ترى أن النبي ﷺ وهو في مقام بيان القرابة التي لها المقدمة في الإنذار حسماً للأطماع، والتي أوثرت من قبل الله العلي الأعلى بالسبق، لتعتمد على وشائج القربى في حميتها لحماية دعوته وحمايته لتجاوب ما بينه وبينهم من المشاركة في خصائص تنزع إلى عرق واحد ـ قد سلك مسلك التدرج في التخصيص، حتى إذا بلغ مجتمعها الحافل رآها سوية في «عبد مناف»، فأخبرهم أنهم أخص من يجتمع به في عرق من قريش، ولهذا التدرُّج الـذي سلكه النبي ﷺ من الأعم إلى الأخص حكمـة لطيفـة تبين أن الخصائص المشتركة بين فروع الأصل الواحد موزعة على الفروع كلها بنسب متفاوتة، ولكنها قد تنتهي مجتمعة عند فرع ينزل منها منزل القلب من الشجرة،

وذلك الفرع هو الذي يسقي الأغصان المتفرعة عنه بجميع موارد الخصائص السابقة واللاحقة.

وهذا التفسير العملي للقرابة ـ في هذا المقام ـ يوحي بأن عبد مناف هو الفرع القرشي الذي تحدرت إليه جداول الخلائق الموروثة من أعراق آبائه، وهو الذي تقاطر فيه غيث «قصي» وأمجاده وانتهت إليه خصائصه، فنبل وساد ومجد في حياة أبيه على رغم صغر سنه وعلى رغم وصية أبيه لأخيه الأكبر «عبد الدار» بكر قصي بما كان لقصي من مناصب السيادة والشرف، وترك عبد مناف لهمته وفواضله. روى ابن الأثير قال: لما كبر قصي ورقّ وكان ولده «عبد الدار» أكبر ولده وكان ضعيفاً، وكان «عبد مناف» قد ساد في حياة أبيه، وكذلك إخوته، فقال قصي لعبد الدار: والله لألحقنك بهم فأعطاه دار الندوة، والحجابة ـ وهي حجابة الكعبة ـ، واللواء فهو كان يعقد لقريش ألويتهم، والسقاية كان يسقي الحجيج، والرفادة وهي خرج تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب فيصنع منه طعاما للحاج يأكله الفقراء.

لكنّ بني عبد مناف لم يرضهم أن تذهب منهم مكرمتا الجود والبذل، والسقاية والرفادة، فانتزعوهما من بني عبد الدار، وتركوا لهم من شارات المجد ما سواهما حتى جاء الإسلام فأقر حجابة الكعبة في بني عبد الدار، وسألوا رسول الله ﷺ أن يجعل اللواء فيهم مع الحجابة فقال لهم: (إن الإسـلام أوسع من ذلك)[1] وهو يشير بذلك إلى أن اللواء صار في الإسلام مرتبة من مراتب المسلمين عامة، ولم يعد منصباً من مناصب أمجاد قريش بل ولا عامة العرب، فانتزعه منهم وجعله لعامة المسلمين، وأقر السقاية والرفادة في بني عبد مناف يتوارثها الخلف منهم عن السلف، حتى أدركت أبا جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس وتعاقبها الخلفاء من بعده.

أما «زُهْرة» الجد الأعلى للسيدة «آمنة» أم سيدنا محمد ﷺ فهو الأخ الأكبر لقصي والد عبد مناف، وقد أقام «زهرة» بمكة حياته كلها لم يفارقها

(١) ابن الأثير جـ ٢ ص ١٠.

أما زهرة الجد الأعلى للسيدة آمنة أم خير الورى محمد ﷺ فكان الأخ الأكبر لقصي وكان أولاده مع أولاده في كل ما ينوب قريش

ولم يرحل عنها، ولما رجع قصي من بلاد قضاعة تعرف إليه فعرفه وأدناه، ولم يزل ولده مع ولده لا يفارقونهم، يدخلون معهم في كل حلف ويشاركونهم فيما يقومون به من عمل، فأول حلف عقده بنو عبد مناف «حلف المطيبين»، فكان بنو زهرة معهم على بني عبد الدار، قال ابن هشام في سيرته: (ثم إن بني عبد مناف بن قصي أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم، فتفرقت عند ذلك قريش، فكانت طائفة مع بني عبد مناف، يرون أنهم أحق به من بني عبد الدار لمكانهم في قومهم، وكانت طائفة مع بني عبد الدار يرون ألا ينزع منهم ما كان قصيٌ جعل إليهم، وكان بنو أسد بن عبد العزى بن قصي وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة وبنو الحارث بن فهر مع بني عبد مناف، وكان بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدي مع بني عبد الدار، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ثم مسحوا الكعبة توكيداً على أنفسهم فسموا المطيبين).

وكان بنو زهرة شركاء بني عبد مناف في نصيبهم عند تجزئة الكعبة لبنائها، حدَّث أبو جعفر الطبري عن محمد بن إسحاق قال: (ثم إن قريشاً تجزأت الكعبة فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة).

ترابط فرعي عبد مناف وزهرة دليل على تحلب خصائص الوراثة إلى فرعيهما

هذا الترابط الذي كان بين زهرة وعبد مناف هو الذي يوحي بجعل فرعيهما في قريش ملتقى ما تنقله الوراثة من الخصائص الإنسانية المنسابة مع تيار التوالد في الأشخاص.

بيد أن هناك فرقاً بين فرعي عبد مناف وزهرة في مقدار ما عند كل منهما من الجاذبية للخصائص والطباع، والتاريخ يذكر لبني عبد مناف خلائق القوة والصلابة والتمجد بالمكان وحب الشرف والسيادة والبذل ودقة الشعور وسرعة البداهة، وهي خصائص كانت كلها متوافرة في قصي جدهم الأعلى، فأخذها منه وراثة ابنه عبد مناف وأورثها عبد مناف بنيه من بعده، ويذكر

لبني زهرة الأناة والهدوء ورقة الحاشية وحب الثراء، وهي خصائص كانت طبعاً لأبيهم زهرة بن كلاب، ومنه تحدرت إلى ولده موزعة عليهم على حسب ما فيهم من استعداد مفطور.

والناظر إلى سيرة النسل المتجدد من عبد مناف، ولا سيما الفرع الذي انتهى إثماره إلى محمد ﷺ يجد صدق هذا في طباعهم وأحلامهم، والناظر في بني زهرة يجد كذلك خصائص أبيهم ممثلة في طبائعهم.

كان هاشم جد محمد ﷺ لأبيه صورة لخصائص الأمجاد المنافية

ومن ثم نقول ونحن مطمئنون: إن محمداً ﷺ انتهت إليه خلاصة ما انطوى عليه بيتا عبد مناف وزهرة من خلائق وطبائع وخصائص إنسانية؛ لأنك - بعد ما أجملناه لك من حديث عبد مناف وزهرة - إذا تقصَّيت التاريخ عرفت أن هاشماً بن عبد مناف جد محمد ﷺ هو الذي خلف أباه من دون إخوته أبناء عبد مناف - في شرفه ومكانته لتقارب ما بينهما من النوازع والأخلاق، فهاشم أول من سنَّ الرحلتين لتجارة قريش، كان يرحل على رأس عيرها في الشتاء إلى اليمن، وإلى الحبشة إلى النجاشي فيحبوه ويكرمه، وكانْ قد أخذ حلفاً لقريش من قيصر لأن تختلف بتجارتها إلى الشام في الصيف[1] وهي آمنة لا يتعرض لها أحد.

وكان هاشم على خلق أبيه في التمجد بالكرم والبذل، يقوم بالرفادة وإطعام الحاج في الموسم كله، وكان رجلاً موسراً، فإذا حضر الحج قام في قومه، فقال: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته، فهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه وزوره، يأتون شعثاً غبراً من كل بلد على ضوامر كأنها القداح، فأقروهم واسقوهم، وكانت قريش ترافد على ذلك حتى إن كان أهل البيت ليرسلون بالشيء اليسير على قدرهم، وكان هاشم يخرج في كل عام مالاً كثيراً، ويقول: لو أن مالي يسع ذلك ما كلفتكم شيئاً، وكان يأمر بحياض من أدم ثم يسقي فيها الماء من البئار التي بمكة - والماء يومئذ قليل -، وكان يطعمهم أول ما يطعم قبل التروية بيوم بمكة وبمنى وعرفة وجمْع، وكان

(١) ابن الأثير جـ ٢.

يثرد لهم الخبز واللحم، والخبز والسمن والسويق والتمر إلى أن يصدروا من منى تنقطع الضيافة ويتفرق الناس لبلادهم[1].

وذكر ابن سعد في الطبقات أن قريشاً أصابتهم سنوات ذهبن بالأموال، فخرج هاشم إلى الشام فأمر بخبز كثير فخبز له، فجعله في الغرائر على الإبل حتى وافى مكة فأطعم قومه والناس معهم حتى أشبع أهل مكة، فكان ذلك أول الحياة بعد السنوات التي أصابتهم، فحسده أمية بن عبد شمس ابن أخيه، وهو الذي كان يساميه في بيت عبد مناف، وكان أمية ذا مال فتكلف أن يصنع مثل صنيع هاشم فعجز عنه، فتنافر إلى أحد حكام الجاهلية فنفر هاشماً وجلا أمية عن مكة إلى الشام عشر سنين فكان ذلك مبدأ العداوة بين بيتهما.

وكانت العرب لا تعرض لقوافل قريش إذا مرت على أحيائها وقبائلها، لأن هاشماً ألف العرب على أن تحمل قريش بضائعهم ولا كراء على أهل الطريق[2].

كان لهذه المكرمات والمناقب أثر خطير في مكانة عبد مناف وأبنائه عند جميع العرب، فعرفوا لهم فضلهم وقدَّروهم قدرهم، ونظروا إليهم نظرة فيها قداسة واحتشام، لم ينظروها لغيرهم ممن يساميهم من أبناء عمومتهم مع ما كان في أيديهم من مراتب المجد والشرف وشارات السيادة والتقدم مثلهم، لكن بني عبد مناف امتازوا بالصنائع والمكارم يسدونها إلى قومهم، واختيارهم من بين مراتب الشرف مرتبتي الرفادة والسقاية ـ وهما مظهر الجود والبذل ـ هو الذي زاد في مكانتهم ورفعهم في نظر العرب قاطبة، وهو الذي عقد لهم وشيجة المحبة والإعظام في قلوبهم.

أما عبد المطلب جد محمد الأدنى فكان أشبه بجده الأعلى قصي ابن كلاب في شرفه وتساميه وطموحه إلى عوالي الأمور، ومن غرائب هذا التشابه أن كلاً منهما نشأ بعيداً عن قومه وبلده في حضن أمه حتى اشتد ساعده وبلغ

(١) ابن سعد في الطبقات.

(٢) طبقات ابن سعد.

أما عبد المطلب جد محمد ﷺ فكان صورة جامعة لخصائص جديه قصي وعبد مناف

مبلغ الرجال وعرف أنه فرع الدوحة القرشية وابن هامتها، فتحمل إلى قومه وبلده، فاستقبله الشرف والمجد ودانت له السيادة. فقصي رحل إلى مكة فوجد أمرها بيد خزاعة وبني بكر، وليس لقريش منه شيء، فانتزعه منهما انتزاعاً، وأخذه غلاباً، فساد على أهل مكة وملّكه قومه عليهم فلا يصدرون إلا عن رأيه. وعبد المطلب نشأ في أخواله بني عدي بن النجار مع أمه سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية، وكان أبوه هاشم رآها وهو في طريقه على المدينة ماراً بسوق النبط، فرأى امرأة حازمة جلدة تأمر بما يشترى ويباع لها، فأعجبته وعرف نسبها، وكانت لشرفها لا تنكح الرجال حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها، فتزوجها هاشم وشرطت الإقامة في قومها، فلما بنى بها حملت بعبد المطلب وسمته «شيبة» لبياض في شعر رأسه، وكان هاشم ارتحل في تجارته إلى الشام فمات بغزة، وشب عبد المطلب بين لِدَاته وأقرانه من فتيان يثرب، حتى كان يوماً مع غلمان من أخواله ينتضلون، فجعل كلما أصاب الهدف صاح مفتخراً: أنا ابن عمرو العلا أنا ابن سيد البطحاء، فسمعه ثابت بن المنذر أبو حسان بن ثابت الشاعر ـ وكان خليلاً لعمه المطلب ـ فلما قدم ثابت مكة معتمراً لقي المطلب، فقال له: لو رأيت ابن أخيك شيبة فينا لرأيت جمالاً وهيبة وشرفاً!! لقد نظرت إليه وهو يناضل فتياناً من أخواله، فيدخل مرماتيه (سهميه) جميعاً في مثل راحتي هذه، ويقول كلما خسق (أصاب الهدف) أنا ابن عمرو العلا، فشغف المطلب بإحضاره إلى قومه وبلده، فأحضره ووقفه على ملك أبيه وسلمه إليه، ونازعه عمه نوفل بن عبد مناف في أشياء فاستعان بأخواله من بني النجار فردها عليه.

وكان المطلب أكبر من أخويه هاشم وعبد شمس، ولكن هاشماً كان سبقه إلى الشرف والسيادة فكانت بيده الرفادة والسقاية، فلما مات هاشم خلفه عليهما أخوه المطلب وكان جواداً كريماً، وكانت قريش تسميه الفياض لسماحته، وكان يتجر إلى اليمن والحبشة وهو الذي عقد لقريش حلفاً مع النجاشي في متجرها، وفي أرض اليمن بمكان يقال له ردمان هلك المطلب، فقام بعده عبد المطلب بن هاشم بالرفادة والسقاية.

قِصَّة حَفْرِ زَمْزَم

زمزم مكرمة من أعظم المكارم التي خص بها عبد المطلب

وفي حياة عبد المطلب حادثان مهمان يتصلان من قريب بسيرة محمد رسول الله ﷺ وتاريخه، أما الحادث الأول فهو (حفر زمزم)، واتصال هذا الحادث بتاريخ محمد ﷺ أن القدر انتهى به (أولاً) إلى إبراز، والده عبدالله في صورة تحاكي ما وقع لجده الأعلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل في قصة الذبح والفداء، وإسماعيل وإبراهيم كانا مناط شرف قريش خاصة ومعقد مفاخر العرب عامة، فلهذه المحاكاة في القصة أثرها النفسي عند العرب عامة، ولقب عبدالله بالذبيح كما لُقِّب بذلك من قَبْله إسماعيل، وانتهى به (ثانياً) إلى جمع أبويه على أكرم أبوة وأطهر أمومة لخير مولود عرفه الوجود.

وحادث حفر زمزم كان له أثر خطير في ازدياد مكانة عبد المطلب رفعة وعلواً بين قومه وفي بلده بل بين العرب أجمعين، فقد يسَّر حفر زمزم الماء ـ وهو أعز شيء في وجود مكة ومنزلتها ـ على أهل الحرم وعلى الحجيج كله، وعلى عبد المطلب نفسه وهو صاحب مرتبتي الرفادة والسقاية من مراتب السؤدد والشرف في قريش جيران الله وسدنة بيته.

وكتب التاريخ والسيرة تلوِّن هذا الحادث بألوان مختلفة، يتدخل فيها الخيال أحياناً فيضفي عليها من بريقه اللامع ما يجعلها أقرب إلى باب القَصَص الفضفاض منها إلى الواقع المشهود، ولكن هناك أشياء في القصة لا يختلف فيها الرواة، ذلك أن عبد المطلب وقريشاً قاطبة كانوا على يقين أن بالحرم إلى جوار بيت جدهم إبراهيم بئر أبيهم إسماعيل، وهي عين ثرّارة لا تنزف أبداً، ولكن أين مكانها على التحديد من البيت؟ هذا ما حيَّرهم وصدَّهم عن التفكير فيها طول مدة التاريخ الغابرة. وهم يتهيَّبون أن يجعلوا

من ساحة البيت منطقة تفتيش وتنقيب عن شيء مهما بلغ عندهم من العزة؛ فإن عزة البيت وحرمته فوق عزته، وما أدراهم إن هم أقدموا على البحث ألّا تغضب عليهم آلهتهم التي أحاطوا بها البيت؟ بل ما يدريهم ألّا تضار جدران البيت من أثر المعاول والمساحي؟ لكن عبد المطلب كان أكثرهم شغلاً وتفكيراً في ذلك؛ لأنه صاحب السقاية مكرمته ومكرمة أبيه من قبله. وآبار مكة التي يستقي منها الماء للناس في الموسم الأعظم متناثرة متباعدة، وليست كلها غزيرة الماء مما يجعله يطمئن إلى كفاية الحجيج منها، وهو وحيد وليس معه إلا بكره الحارث، وبنو عبد شمس وبنو عبد الدار منافسوه في الشرف يتربصون به، وهنا تذكر الرواية التي لا اختلاف فيها أيضاً بين الرواة أن عبد المطلب أُري مكان زمزم مناماً. وإن كانت الرواية تختلف في أسلوب الرؤيا وكيفيتها، وذلك من الوجهة التاريخية لا يقف في طريق البحث، وأقرب الروايات وأوفاها رواية ابن سعد في الطبقات من طريق شيخه محمد ابن عمر الواقدي، وهي رواية عبد الملك بن هشام في سيرته عن محمد ابن إسحاق. وهذان المصدران من أقدم مصادر السيرة والتاريخ وعليهما معوّل من جاء بعدهما. فابن الأثير في كامله خالف إمامه أبا جعفر الطبري وتابعهما فيها.

قال ابن سعد: فلم يزل عبد المطلب مقيماً بمكة حتى أدرك، وخرج المطلب بن عبد مناف تاجراً إلى أرض اليمن فهلك بردمان من أرض اليمن، فولي عبد المطلب بن هاشم بعده الرفادة والسقاية، فلم يزل ذلك بيده يطعم الحاج ويسقيهم في حياض الأدم بمكة، فلما سُقي زمزم ترك السقي في الحياض بمكة وسقاهم من زمزم حين حفرها، وكان يحمل الماء من زمزم إلى عرفة ليسقيهم، وكانت زمزم سقيا من الله، أتي في المنام مرات فأمر بحفرها ووصف له موضعها، فقيل له احفر طيبة[1] قال: وما طيبة؟ فلما كان الغد أتاه فقال: احفر بَرَّة، قال: وما برة؟ فلما كان الغد أتاه وهو نائم في مضجعه ذلك فقال: احفـر المضنونة، قال وما المضنونة؟ أبِنْ لي ما تقول، فلما كان الغد أتاه قال: احفر زمزم، قال: وما زمزم؟ قال: لا تنزح ولا تذمّ، تسقي

(١) طيبة، برة، المضنونة: هذه أسماء لبئر زمزم لوحظ فيها مضمناتها من المعاني كما فسرها صاحب النهاية.

الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم ـ قال: وكان غراب أعصم لا يبرح عند الذبائح مكان الفرث والدم ـ وهي شرب لك ولولدك من بعدك، قال:

فغدا عبد المطلب بمعوله ومسحاته معه ابنه الحارث بن عبد المطلب وليس له يومئذ ولد غيره، فجعل عبد المطلب يحفر بالمعول ويغرف بالمسحاة في المكتل، فيحمله الحارث فيلقيه خارجاً، فحفر ثلاثة أيام ثم بدا له الطوي فكبَّر، وقال: هذا طوي إسماعيل!! فعرفت قريش أنه قد أدرك الماء، فأتوه فقالوا: أشركنا فيه، فقال: ما أنا بفاعل، هذا أمر خُصصت به دونكم، فاجعلوا بيننا وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد هُزَيم ـ وكانت بمعان من أطراف الشام ـ فخرجوا إليها وخرج مع عبد المطلب عشرون رجلاً من بني عبد مناف وخرجت قريش بعشرين رجلاً من قبائلها، فلما كانوا بالقفير من أرض الشام أو حذوه فني ماء القوم جميعاً، فعطشوا، فقالوا لعبد المطلب: ما ترى؟ فقال: هو الموت، فليحفر كل رجل منكم حفرة لنفسه فكلما مات رجل دفنه أصحابه حتى يكون آخرهم موتاً رجلاً واحداً فيموت ضيعة، فموت واحد ضيعة خير من أن تموتوا جميعاً، فحفروا ثم قعدوا ينتظرون، فقال عبد المطلب: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للعجز، ألا نضرب في الأرض فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض هذه البلاد فارتحلوا، وقام عبد المطلب إلى راحلته فركبها فلما انبعثت به انفجر تحت خفها عين ماء عذب، فكبَّر عبد المطلب وكبَّر أصحابه وشربوا جميعاً، ثم دعا القبائل من قريش فقال: هلمُّوا إلى الماء الرواء فقد سقانا الله، فشربوا واستقوا وقالوا: قد قضى لك علينا والذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم، فوالله لا نخاصمك فيها أبداً، فرجع ورجعوا ولم يصلوا إلى الكاهنة وخلَّوا بينه وبين زمزم.

تدخل الخيال في قصة حفر زمزم لا يحلها ولكنه يعطيها لوناً من ألوان البيئة العربية

هذه الرواية بخطوطها الجوهرية من الوجهة التاريخية لم يسقطها المؤرخون ولم يزيفها ـ فيما رأينا ـ أحد من القدامى، وهي من الوجهة النفسية بالنسبة لجوها الذي يحيطها به الرواة لا يأبى التاريخ الواقعي أن يشهدها، فليس فيها شيء تنكره حياة العرب في جاهليتهم، ولا سيما في قريش ومكة

خاصة، فهي حياة أحلام وكهانة ورؤى ومناجاة وأشباح وخوارق مادية وعجائب حسية، تشترك في تمثيلها كائنات مرئية وأخرى غير مرئية يؤمن العرب عامة وأهل مكة خاصة بقوتها وسلطانها.

وسواء لدى البحث أصحَّت هذه الأقصوصة كلها أم بطلت كلها، أو صحّ بعضها وبطل بعضها، فإن كلمة التاريخ في مصادره العربية متفقة على أن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام كانت له عين ماء إلى جوار مكان البيت الحرام، أُغيث بها ليشرب هو وأمه في قصة مشهورة، عرضت لها الروايات الصحيحة في كتب الحديث والسيرة والتاريخ، وقد رواها البخاري في صحيحه، وكذلك تتفق كلمة التاريخ على أن هذه العين طُمَّت، وسواء أكان طمها بفعل إنسان ـ على ما تنسبه الرواية لعمرو بن مضاض الجرهمي ـ أم بفعل الجو وأحداث الطبيعة وقلة الأيدي المستصلحة في ذلك المكان وتلك الأزمنة الغابرة. وكلمة التاريخ أيضاً متفقة على أن قريشاً لما سكنت مكة وعمرتها ودانت لها بسلطانها الديني تقاسمت مراتب الشرف في بيوتاتها، فكانت سقاية الحجيج في بني عبد مناف يتوارثونها حتى انتهت إلى عبد المطلب بن هاشم، وهو أحوج في موقفه هذا إلى الماء الغزير القريب، فما يمنع أن يكون قد دار في نفسه خاطر بئر جده إسماعيل، واعتلج فيها الشوق إلى العثور عليها وتملكه الشعور بذلك، فانعكس في وعيه الباطن فرأى في منامه ما رأى، وكان هاتفه من نفسه وإليها؟ وما يمنع أن يكون عبد المطلب قد أُلهم ذلك إلهاماً؟ أو تفرّسه فألقى إليه مناماً؟ وما يمنع أن يكون نُوجِيَ به في نومه كما يُناجي كلّ مشغول بأمر من الأمور بشيء مما يهجس في خاطره.

ليس في القصة بُعدٌ ولا إحالة من وجهة رؤيا المنام وهواتف عبد المطلب ومغالبته قريشاً فهذه كلها أمور جاهلية معروفة معهودة.

موقف الطبري من قصة حفر زمزم

بيد أننا نقف هنا وقفة متأملة مع شيخ مؤرخي الإسلام أبي جعفر الطبري، فإنه ـ رحمه الله ـ مرَّ على قصة حفر زمزم مرور الكرام فلم يحفل بعديد رواياتها كعادته في الإسهاب وتكثير الروايات في الحادث الواحد، واكتفى بقوله في صدد الحديث عن مكانة عبد المطلب: (وهو الذي كشف عن زمزم

بئر إسماعيل بن إبراهيم واستخرج ما كان فيها مدفوناً).

فما شأن أبي جعفر؟ فهل شك في القصة وتفاصيلها فأعرض عنها؟ لا نظن هذا، لأن أبا جعفر نفسه اعتمد على رواية محمد بن إسحاق في قصة نذر عبد المطلب ذبح أحد بنيه إن بلغوا عشرة يمنعونه من قريش، هذه القصة مؤسسة على قصة حفر زمزم، وقد صرَّح بذلك أبو جعفر في قوله عن محمد بن إسحاق: كان عبد المطلب بن هاشم قد نذر حين لقي من قريش في حفر زمزم ما لقي لئن ولد له عشرة نفر، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرنَّ أحدهم لله عند الكعبة، والذي لقيه عبد المطلب من قريش في حفر زمزم في رواية محمد بن إسحاق هو ما ذكره عنه ناقل سيرته عبد الملك ابن هشام في روايته المطابقة لرواية ابن سعد. ومهما يكن من أمر قصة حفر زمزم فإنها تقودنا إلى الحديث عن الذبيح عبدالله بن عبد المطلب أبي محمد ﷺ، وقصة نذر ذبحه وما انبثقت عنه من زواجه بآمنة بنت وَهبْ، ومن بينهما كان محمد ﷺ.

قصة الذبيح
عبدالله بن عبد المطلب

ارتباط حفر زمزم بقصة نذر عبد المطلب ذبح أحد بنيه

يتصل الحديث عن عبدالله بن عبد المطلب أبي محمد رسول الله ﷺ في كتب التاريخ بحديث حفر زمزم اتصالاً وثيقاً، فقد كان حفرها فيما يقول الرواة سبباً في نذر عبد المطلب ذبح أحد أبنائه تقرُّباً إلى الله، وكانت قصة الذبح مَعْبَراً إلى زواج عبدالله بآمنة بنت وهب أم محمد رسول الله ﷺ، وبهذا يظهر اتصال الحديث اتصالاً مباشراً بتاريخ وسيرة محمد رسول الله ﷺ، وتظهر حكمة تحقيقنا لقصة زمزم لما لها من أثر واضح في مكانة عبد المطلب جد محمد ﷺ الذي رآه في طفوليته ورأى ما يتمتع به من الشرف والمجد، وهو الذي تعهده وكفله بعد وفاة أبيه، وكان عبد المطلب يتمجد بهذا الحفيد العظيم ويتفرَّس فيه مكنون الغيب عند ولادته فيسميه محمَّداً، فيقال له: ما هذا الاسم الذي ليس في أسماء آبائك؟ فيقول: سميته محمداً ليحمد في السماء والأرض، ويقول لأبنائه ـ وهم حافون حول فراشه في ظل الكعبة وقد أبى محمد ﷺ إلا أن يجلس فوق فراش جده، فيهمُّ أعمامه بتنحيته إعظاماً لمكان أبيهم شيخ قريش وسيدها ـ: دعوا ابني إنه ليؤنس ملكاً.

وحديث نذر عبد المطلب نحر أحد بنيه وإسهامه بينهم وطيران القرعة على سهم عبدالله كغيره من أحاديث التاريخ الجاهلي تعددت رواياته، واختلفت أساليبه في مصادر التاريخ العربي، ولوَّنه الرواة بألوان شتى، وهو في إجماله كالمجمع عليه في تلك المصادر.

وصفوة سياقته منها أن عبد المطلب بن هاشم لما احتفر زمزم وأخرج

صدق العزيمة على الوفاء بالنذر وطيران القرعة على عبدالله أحب وأعز ولد عبد المطلب إليه.

منها كنز جرهم نازعته قريش وطلبت أن تقاسمه وتشاركه في الماء، وكانت جرهم حين عزموا الخروج من مكة دفنوا غزالين من ذهب وسبعة أسياف قلعية (نسبة إلى بلدة بالهند تسمى قلوع) وخمسة أدراع سوابغ، فاستخرجها منها عبد المطلب، وكان يتألَّه ويعظِّم الظلم والفجور، فضرب الغزالين صفائح في وجه الكعبة، وعلَّق الأسياف على البابين يريد أن يحرز به خزانة الكعبة، وجعل المفتاح والقفل من ذهب، فحسدته قريش وجاءته كأنها تغازيه فحاكمها فظفر عليها، وكان وحيداً فيهم ليس له ولد سوى ابنه الحارث، فهاجت به لواعج الشوق إلى المكاثرة بالولد، فنذر لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم تقرُّباً إلى الله عند الكعبة، فلما توافى له بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه جمعهم وأخبرهم بنذره فأطاعوه وقالوا له: أوفِ بنذرك، فأسهم بينهم وقال لسان أعظم أصنامهم (هبل) اضرب عليهم بالقداح، فضرب عليهم فخرج سهم عبدالله ـ وكان فيما يقول الرواة أصغر بني عبد المطلب وأحبهم إليه ـ فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة بيده الأخرى ثم أقبل به على مذبح قريش الذي تذبح فيه قربانها عند صنميها إساف ونائلة ليذبحه، قال الطبري: فقامت إليه قريش من أنديتها. فقالوا: ماذا تريد ياعبد المطلب؟ قال: أذبحه، فقالت قريش وبنوه: ـ أي بنو عبد المطلب إخوة عبدالله ـ والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه فما بقاء الناس على هذا؟ فقال له المغيرة ابن عبدالله بن عمرو المخزومي ـ وكان عبدالله بن عبد المطلب ابن أخت القوم ـ: والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه.

وقال ابن سعد في الطبقات: ثم أخبر عبد المطلب أولاده بنذره ودعاهم إلى الوفاء به لله فما اختلف عليه منهم أحد، وقالوا: أوفِ بنذرك وافعل ما شئت، فقال: ليكتب كل رجل منكم اسمه في قدحه ففعلوا، فدخل عبد المطلب في جوف الكعبة وقال للسادن: اضرب بقداحهم، فضرب فخرج قدح عبدالله أولها ـ وكان عبد المطلب يحبه ـ، فأخذ بيده يقوده إلى المذبح ومعه المدية، فبكى بنات عبد المطلب، وكُنَّ قياماً، وقالت إحداهن لأبيها: أعذر فيه بأن تضرب في إبلك السوائم التي في الحرم، فقال للسادن: اضرب عليه

بالقداح وعلى عشرة من الإبل ـ وكانت الدية يومئذ عشراً من الإبل ـ فضرب فخرج القدح على عبدالله، فجعل يزيد عشراً عشراً كل ذلك يخرج القدح على عبدالله حتى كملت المائة، فضرب بالقداح فخرج على الإبل، فكبَّر عبد المطلب والناس معه، واحتمل بنات عبد المطلب أخاهنَّ عبدالله، وقدم عبد المطلب الإبل فنحرها بين الصفا والمروة.

اختلاف الروايات في قصة ذبح عبدالله.

وقال ابن سعد أيضاً من رواية ابن مِجْلَز: إن عبد المطلب أُتي في المنام فقيل له: احتفر، فقال: أين؟ فقيل له: مكان كذا وكذا، فلم يحتفر، فأُتي فقيل له: احتفر عند الفرث عند النمل عند مجلس خزاعة ونحوه، فاحتفر فوجد غزالاً وسلاحاً وأظفاراً، فقال قومه لما رأوا الغنيمة كأنهم يريدون أن يغازوه، فعند ذلك نذر لئن ولد له عشرة لينحرنَّ أحدهم، فلما ولد له عشرة وأراد ذبح عبدالله منعته بنو زهرة، وقالوا: أقرع بينه وبين كذا وكذا من الإبل، فأقرع فوقعت عليه سبع مرات وعلى الإبل مرة، ثم صار من أمره أن ترك ابنه ونحر الإبل.

وفي حديث رواه الحاكم في المستدرك عن معاوية بن أبي سفيان قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتاه أعرابي فقال: يا رسول الله خلفت البلاد يابسة والماء يابساً هلك المال وضاع العيال، فعد عليّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه، قال معاوية ـ مبيناً من هما الذبيحان في قول الأعرابي ـ إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن يسر الأمر بها أن ينحر بعض ولده، فأخرجهم فأسهم بينهم فخرج السهم لعبدالله، فأراد ذبحه فمنعه أخواله من بني مخزوم، وقالوا: أرضِ ربك وَافْدِ ابنك ففداه بمائة ناقة، فهو الذبيح الأول وإسماعيل الذبيح الثاني، أي في نسب النبي ﷺ.

هذه أربع روايات تتفق كلها على أصل قصة نذر عبد المطلب ذبح أحد بنيه، وتختلف في سبب هذا النذر، فحديث معاوية الذي رواه الحاكم يجعل هذا النذر من قبيل الشكر على تسهيل أمر زمزم، وسائر الروايات يجعله من قبيل الشكر على منح عبد المطلب أولاده الذين منعوه من بغي

قريش وعدوانها، وتتفق هذه الروايات على أن عبدالله بن عبد المطلب هو الذي خرج سهمه ليكون الذبيح، وتختلف فيمن تصدّى لعبد المطلب فمنعه من ذبحه.

الاختلاف فيمن تصدى لعبد المطلب في تنفيذ عزمته

هل المتصدي أبناء عبد المطلب؟ كيف والرواية تذكر أنهم جميعاً أطاعوه حينما أخبرهم بنذره وقالوا له: افعل ما تشاء؟ ولكن العاطفة عند رؤية العزيمة وقيام قريش معهم يقرب ذلك ويجعله مقبولاً، أو المتصدي لعبد المطلب بناته، بكين لما رأين وسائل التنفيذ قائمة، وقالت إحداهن كالمنبِّهة لعقل عبد المطلب وعاطفته: أعذر فيه بإبلك السوائم في الحرم؟ أو المتصدي هم أخوال عبدالله من بني مخزوم يقدمهم شيخهم المغيرة بن عبدالله تعزيزاً بابن أختهم؟ أو هم بنو زهرة حلفاء بني عبد مناف؟. وهذه الرواية التي تسند منع عبد المطلب من ذبح عبدالله إلى بني زهرة أغرب الروايات وأعجبها، وهي رواية تلفت نظر الباحث إلى ما جاء بعد قصة الذبح مباشرة من زواج الذبيح عبدالله بآمنة بنت وهب سيد بني زهرة، فهل كان بين قيام بني زهرة دون ذبح عبدالله وإصهارهم إليه صلة؟.

رواية بني زهرة لون عاطفي

ولِمَ لا؟ وبنو زهرة منذ كانوا هم حلفاء بني عبد مناف وشركاؤهم فيما ينوبهم، وأقرب بطون قريش مودة إلى بني هاشم، والمعهود بين الناس طبيعة وعُرفاً أنه إذا كان بين بيتين من البيوتات صلة مودة وتحالف وناب أحدهما نائبة قام معه أهل مودته وحلفه متقدمين على سائر أقاربه توكيداً لمظهر المودة والحلف، فلما تصدى بنو زهرة ومنعوا عبد المطلب من ذبح ابنه وأجابهم إلى الفداء طاروا بالذبيح فرحين إلى بيوتهم احتفالاً بحياته وسروراً بنجاته، وفي غمرة السرور طارت الكلمات بالتهنئة والتحايا يتولاها سيد البيت وزعيمه، وكانت كلمات التودد والتحبب إلى الذبيح، وجرى حديث مداعبة الشباب بالمصاهرة، فتسمع الشيخ الهاشمي وأعجبه فنقلها جداً بينه وبين سيد زهرة توكيداً لمظاهر المودة على سنن الناس وعوائدهم، وأجاب سيد زهرة كما يجيب كل نبيل يدعى إلى مكرمة من كفء كريم، وارتفعت الكلمات إلى تحقيق موعود الله باصطفاء عبدالله بن عبد المطلب وآمنة بنت وهب قراراً لخير نسمة برأها الله في الوجود.

رواية تلوح عليها لوائح الوضع

وفي رواية عند الطبري عن عبدالله بن عباس أن امرأة نذرت أن تنحر ابنها عند الكعبة في أمر إن فعلته ففعلت ذلك الأمر، فقدمت المدينة لتستفتي عن نذرها فجاءت عبدالله بن عمر، فقال لها عبدالله بن عمر: لا أعلم الله أمر في النذر إلا الوفاء، فقالت المرأة أفأنحر ابني؟ قال ابن عمر: قد نهاكم الله أن تقتلوا أنفسكم، فلم يزدها عبدالله بن عمر على ذلك، فجاءت عبدالله بن عباس فاستفتته فقال: أمر الله بوفاء النذر ونهاكم أن تقتلوا أنفسكم، وقد كان عبد المطلب بن هاشم نذر إن توافىَ له عشرة رهط أن ينحر أحدهم، فلما توافوا عشرة أقرع بينهم أيهم ينحر فطارت القرعة على عبدالله بن عبد المطلب ـ وكان أحب الناس إلى عبد المطلب ـ فقال عبد المطلب: اللهم هو أو مائة من الإبل، ثم أقرع بينه وبين الإبل فطارت القرعة على المائة من الإبل، فقال ابن عباس للمرأة فأرى أن تنحري مائة من الإبل مكان ابنك، فبلغ الحديث مروان وهو أمير المدينة. فقال: ما أرى ابن عمر ولا ابن عباس أصابا الفتيا؛ إنه لا نذر في معصية الله، استغفري الله وتوبي إلى الله وتصدقي واعملي ما استطعت من الخير، أما أن تنحري ابنك فقد نهاك الله عن ذلك، فسرّ الناس بذلك وأعجبهم قول مروان، ورأوا أن قد أصاب الفتيا، فلم يزالوا يفتون ألاَّ نذر في معصية الله.

نقد هذه الرواية.

وقد ذكرنا هذه الرواية استيفاء لعرض روايات قصة الذبيح، وهي رواية عجيبة لأنها تسند إلى رجلين من أعلام علماء الصحابة ورأسين من رؤوس العبادلة ـ اشتهرا بالفقه في الدين وحمل الشريعة والتصدُّر للفتيا، هما عبدالله بن عمر بن الخطاب وحبر الأمة عبدالله بن عباس ـ جهلاً بحكم شرعي يعلمه أقل الناس فقهاً في الدين، وتسند إلى عبدالله بن عمر أنه أفتى فلم يصب الفتيا، مع أن الرواية تقول إنه لم يزد على أنه بيَّن أن الله أمر في النذر بالوفاء ونهى عن قتل النفس، وهذا توقف في حكم المسألة وليس فتوى، وتسند إلى ابن عباس أنه أفتى المرأة بنحر مائة من الإبل مستدلاً بفعل عبد المطلب بن هاشم، ولم يقل أحد من أهل العلم في الإسلام أن فعل عبد المطلب حجة في دين الله، وأطمُّ من ذلك وأفحش أن هذه الرواية تسند الجهل بهذا الحكم الشرعي إلى عامة الأمة في الصدر الأول من الصحابة

وتلاميذهم؛ ماعدا مروان الذي كشف عن هذا الحكم ففرح الناس به وتعلموه يومئذ، ولم يزالوا من يوم مروان هذا فقط يفتون ألَّا نذر في معصية الله، وليت شعري ما كانت فتواهم فيها يعرض لهم من نذر المعصية قبل وجود مروان وعلمه؟! هذه الرواية نجزم بعدم صحتها للوجوه التي ذكرناها، ولوائح الوضع السخيف عليها لائحة فلا يسوغ التعويل عليها في شيء.

الروايات كلها تتفق على مجمل قصة النذر وعزمة الذبح وأن الذبيح هو عبدالله أبو محمد ﷺ

والروايات في قصة عبدالله الذبيح تكاد تجمع على أن عبد المطلب أسهم بين بنيه لينحر أحدهم وفاء بنذره بعد أن بلغوا عشرة، وبعض الروايات يجعل بلوغهم عشرة هو مناط النذر؛ بل إن صاحب الطبقات من رواية الواقدي يعددهم بأسمائهم فيقول: فلما تكاملوا عشرة؛ فهم الحارث، والزبير، وأبو طالب، وعبدالله، وحمزة، وأبو لهب، والغيداق، والمقوم، وضرار، والعباس. وصاحب الطبقات نفسه يقول: فكان تزوج عبد المطلب ابن هشام وتزوّج عبدالله بن عبد المطلب في مجلس واحد، فولدت هالة بنت وهب لعبد المطلب حمزة بن عبد المطلب، فكان حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ في النسب وأخاه من الرضاعة، ومعلوم أن زواج عبدالله بآمنة وزواج عبد المطلب بهالة كانا بعد قصة الذبح، فكيف يكون أولاد عبد المطلب عند العزم على الوفاء بالنذر قد بلغوا عشرة وحمزة لم يولد بعد، والعباس أصغر من حمزة وكان حينئذ لا يزال غيباً من الغيب؟ وكيف يعد حمزة والعباس باسميهما في أولاد عبد المطلب الذين تكاملوا عشرة ليفي بنذره؟ وأعجب من ذلك أن الطبري وغيره يصرحون بأن عبدالله أصغر ولد أبيه، فكيف يكون أصغرهم وفيهم حمزة وهو لم يكن قد ولد يوم أن تزوج عبدالله؟ وعباس أصغر من حمزة، وكان لقربه من رسول الله ﷺ يشتبه على بعض الناس سنّهُ بسنِّهِ، فقد روي أنه سُئل بعد إسلامه: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال: هو أكبر مني وأنا أسنّ منه، وروي عن العباس أنه قال: أذكر مولد رسول الله ﷺ وأنا ابن ثلاثة أعوام أو نحوها وجيء به حتى نظرت إليه، وجعل النسوة يقلن لي: قبِّل أخاك فقبَّلته، فأين ميلاد العباس من ميلاد أخيه عبدالله والد رسول الله ﷺ.

هذا لون مما يدخل على الروايات من الغلط فيتناقله الرواة دون نقد

وتمحيص حتى يتقادم فلا يُعرف مخرجه أو يُتَمحل له، وهو كثير في روايات التاريخ الجاهلي، ولا تخلو منه روايات التاريخ الإسلامي، وقد انخدع به كثير من الباحثين المعاصرين ونحن ننبه على ما يعرض لنا منه في ثنايا البحث مما قد يصادم حقيقة تاريخية.

الاختلاف في عدد أولاد عبد المطلب ورأي القسطلاني والسهيلي

وقد عرض القسطلاني في مواهبه إلى نقد هذه الرواية ولكنه أبعد النجعة في محاولة المخرج، فقال: وقد استشكل بعض الناس أن عبد المطلب نذر نحر أحد بنيه إذا بلغوا عشرة، وقد كان تزوجه بهالة أم ابنه حمزة بعد وفائه بنذره، فحمزة والعباس ولدا عبد المطلب إنما ولدا بعد الوفاء بنذره، وإنما كان أولاده عشرة بها، قال السهيلي: ولا إشكال في هذا، فإن جماعة من العلماء قالوا: كان أعمامه عليه السلام اثني عشر فإن صح هذا فلا إشكال في الخبر، وإن صحّ قول من قال: كانوا عشرة لا يزيدون، فالولد يقع على البنين وبنيهم حقيقة لا مجازاً، فكان عبد المطلب قد اجتمع له من ولده وولد ولده عشرة رجال حين أوفى بنذره.

ورواية الاثني عشر رواها - أيضاً - ابن سعد في الطبقات، ولكن من طريق ابن الكلبي، وقد اضطربت في ذكر الأسماء فبلغت بهم ثلاثة عشر لا اثني عشر كما ذكرت في الإجمال قبل التفصيل بتعديد الأسماء، فزادت على رواية الواقدي المتقدمة ثلاثة، هم: عبد الكعبة، وحجل[1] وقثم، والاعتماد على هذه الرواية في دفع الإشكال اعتماد على متكىء ضعيف، وأكثر الروايات المحددة تقف عند العشرة، ورواية الزيادة انفرد بها ابن الكلبي.

وزعْمُ أن الولد يقع على الولد وولده تكلف لا تحتمله حقائق التاريخ، وأقرب الروايات - رواية الحاكم في حديث معاوية الذي ذكرناه سابقاً، ومحصلها: أن عبد المطلب نذر نحر بعض ولده إن سهَّل الله له حفر زمزم هكذا دون تحديد لعدد أو تسمية لأحد، فلما تم له ما أراد أسهم بين ولده

(١) في البداية والنهاية لابن كثير أن الغيداق لقب لحجل وليس اسماً لغيره، وفيه أن عبد الكعبة اسم المقوم وقيل هما اثنان، وفيه أن حِجْلا اسمه المغيرة وأن الغيداق لقب لرجل منهم اسمه نوفل وهو غير حجل.

الموجودين ومنهم عبدالله والد رسول الله ﷺ وكان أصغرهم وأحبهم إلى أبيه، فخرج سهمه لتتم المحنة وتجمل بعدها المنحة، فكان هو الذبيح المفدّى.

تزويج
عبدالله بن عبد المطلب من آمنة

تصوير لخوالج عبدالله ابن عبد المطلب وقد تمثل له موقف الذبح بيد أبيه.

وصلت قصة الذبيح إلى هذه النهاية لتبدأ بها قصة الحياة في صورة أكبر من عبد المطلب ونذره وسوائمه في الحرم، وأكبر من قريش وزمزم، تلك هي قصة التأذن بميلاد الإنسانية وتجديدها في أكمل صورة من صلة السماء بالأرض.

رُوِّع الفتى عبدالله بن عبد المطلب أيما ترويع وقد رأى من أبيه شيخ قريش وسيدها الجدَّ النافذ والعزيمة الصارمة في أمر ذبحه، ورأى الموت إلى جانب أبيه يرقبه ليختطفه من بين إخوته وأخواته اللائي بكين له وانتحبن عليه فزاده بكاؤهن ترويعاً، فتوزعت مشاعره، وتبددت أحاسيسه، وذهبت به الخوالج كل مذهب.

حياة البنوة امتداد لحياة الأبوة، هذا هو قانون الأزل للحياة، فلو كان أحد في هذا الوجود يملك أن يعطي من حياته وعمره شيئاً يضاف إلى حياة غيره لما وجد ـ عن صدق وجداني ـ من يجود بذلك من غير تلفت أو حساب سوى أب يسخو في إسراف ليمد في حياة ابنه وهو راض مغتبط، يملأه شعور داخلي في نفسه بأنه لم ينزل عن شيء من حياته لغيره، لأنه يتمثل في شخص ابنه ومثاله ذاته وشخصيته. ويرى في وجود ابنه وحياته وجوده وحياته، فأي إنسان لايُروَّع ولا يطيش صوابه وتتحطم أعصابه وهو يرى أباه أرحم الناس به وأحبهم إلى قلبه، وألصقهم بنفسه وأسرعهم إلى رغائبه وهواه، يمشي به على مشهد من هذه الدنيا ليذبحه على أبشع صورة وأشنع منظر مر على

إنسان في هذا الوجود؟.

أي شيء هذا الذي ينتظر عبدالله بن عبد المطلب؟ إنه الذبح، إنه دمه الزكي يتطاير من شفرة أبيه على أرض الحرم تقرُّباً لأحجار قريش، إنها إنسانيته الناطقة الضاحكة الجميلة تحال إلى. . إلى ماذا؟ إلى صورة بهيمة تذبح، وَمَنْ الذابح؟ إنه الوالد الذي صبت فيه الحياة أضخم ما تملك من ذخيرة في عصارة الشفقة والحب والرحمة والحنان، أي ابتلاء هذا؟ وارحمتاه للشيخ الوالد مرة، إنه يمشي إلى النهاية ليصبر أو ليذهب، ولكن وارحمتاه ألف مرة للشباب الفينان الذي سيهصر، والعود الريّان الذي سيذوي ويجف، ماذا من الأماني والآمال في خيال هذا الشباب الغض المقبل على زهرة الحياة ونضارتها التي ستقطعها عن الوجود الثري تلك اللحظة المشؤومة؟ وماذا من الرؤى والأحلام في عينيه الظامئتين لرحيق الحياة؟ بل ماذا من الأفكار والتقديرات يدور في رأس هذا الفتى الحيران؟

إنها لحظة ويسدل الستار على آخر فصول هذه الرواية الباكية الدامية، لحظة وينصرف النظّارة وينتهي كل شيء.

لمعات القدر من وراء الغيب أضاء للشيخ الظلام

لكن القدر المسيطر على منافذ الحياة كان أسرع من خوالج عبدالله الذبيح، وهواتف عبد المطلب وعزيمته وتضرعات أبنائه ودموع بناته، وكأن ضوءاً ساطعاً لمع فجأة فأنار زوايا نفس الشيخ الأسيف وكشف عن بصيرته وهو آخذ بيد ابنه الحبيب وفي يده الأخرى الشفرة المشحوذة يمشي به خُطى متثاقلة إلى مذبح قريش، يحدث نفسه والهمّ القاصم يعتلج فيها، ويصيح الوفاء، الوفاء، وإذا به يجأر إلى السماء بكل ما تملك الأبوة من حنو واسترحام: اللهم هو أو مائة من الإبل. بخٍ، بخٍ فداء فريد في ضخامته، فداء لم تعرفه العرب لعربي قبل عبدالله الذبيح، ولم تعرفه قريش قبل لمفدّي قبل أن تسخو به نفس عبد المطلب، فداء عظيماً لأنه لمفدى حبيب من أب يحترق قلبه أسىً وتذوب كبده هماً وأسفاً، قالوا: وتعطفت آلهة عبد المطلب وقبلت الفداء ونجا الذبيح عبدالله من الموت، وكان لابد أن ينجو، لأن القدر الكريم كان قد اختاره منذ الأزل ليكون مشرق ديباجة الحياة في صلة السماء

بالأرض لآخر مرة في حياة الأحياء، وما آلهة عبد المطلب إلا حفنات من رمال تلاصقت حجراً حوّم فوقه الشيطان.

نجا عبدالله من الموت وبقي له الفزع والروع يملآن حنايا نفسه، ويرسمان على ملامحه آثارهما وهو بعد شاب غض الإهاب لم يكمل الحلقة الثانية من عمره النضير أو جاوزها بشيء قليل، فأي شيء يعوضه ويرد إليه نفسه الذاهبة مع إبل الفداء؟ وأي شيء يبعث في قلبه السكون والطمأنينة، وأي شيء يعيد إليه مرح الشباب وينسيه آلام تلك الساعة الفادحة؟ لا شيء غير الزواج أمنية الشباب وأمله، ومسرح خواطره ورؤاه، ومجتمع لذاذاته وأحلامه. وصحَّت عزيمة الشيخ على أن يمسح بيد حنانه الأوصاب عن قلب ابنه الحبيب، ومضى في طريقه إلى حلفائه أبناء عمومته الأعلين بني زهرة يخطب لابنه الذبيح سيدة عقائل العرب آمنة بنت وهب سيد بني زهرة؟ وهنا يجيء دور التاريخ ليتحدث فنسمع منه، وتختلف رواياته في كثير من أمر هذا الزواج كعهدنا بهذا التاريخ، الظالم، المظلوم، في كل شيء من حوادثه، بَلْه الجاهلي منها.

سن عبدالله بن عبد المطلب عند زواجه

كانت سن عبدالله بن عبد المطلب يوم محنة الذبح سن شاب أقرب إلى الحداثة، ولكنها الحداثة الفارعة التي تسبق إليها الرجولية في سرعة مستعجلة، وهي سنه يوم أن خطب له أبوه آمنة بنت وهب، ويوم أن بنى بها فحملت برسول الله ﷺ، وتزويج هذا الصنف من الفتيان في هذه السن المبكرة يكون إما من قبيل التدليل والترف الناعم تزيداً في التحبب والتحنن، وإما من قبيل العطف والرحمة لإزاحة أثقال حادث فادح ألمٍّ فأمضٍّ، وقد تكون دواعي تزويج عبدالله الذبيح مزيجاً من اللونين، فهو أحب أبناء أبيه إليه، وقد ابتلي بأقسى ما يبتلى به إنسان، مع ما كان قد بلغ أبوه الشيخ من سن تبتدر فيها نهاية الآمال إلى حيز الوجود، فهو قد حمل فوق كاهله من ثقل غاربات الأيام والسنين ما يوحي إليه بما يسبق به الزمن في تحقيق رغائب الحياة لمن يحبهم.

والذين ذهبوا مذهب التحديد والضبط في تقدير سن عبدالله بن عبد

المطلب وقت تزويجه ـ وهو أمر يحف به الشك، لأن الحياة يومئذ لم يكن لديها من الوسائل ما يسمح بتحديد وضبط مثل هذه الأمور عند العرب ـ اختلفوا، فالطبري وابن الأثير يحدِّدان تلك السن تحديداً دقيقاً بما يقف بها عند الثامنة عشرة. قال ابن الأثير تبعاً لأبي جعفر: ولد عبدالله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ لأربع وعشرين سنة مضت من سلطان كسرى أنوشروان، وولد رسول الله ﷺ سنة اثنتين وأربعين من سلطانه إهـ. وقد اتفق الرواة على أن ميلاد رسول الله ﷺ كان في طي العام الذي تزوَّج فيه أبوه بأمه، فلم يكن بين بناء عبدالله الذبيح على آمنة بنت وهب ومولد رسول الله ﷺ سوى مدة الحمل، وهي على المحقق من الروايات تسعة أشهر كوامل، فتكون سن عبدالله ـ على هذه الرواية ـ ثماني عشرة سنة.

ويذهب ابن سعد في الطبقات إلى أن سن عبدالله بن عبد المطلب يوم وفاته كانت خمساً وعشرين سنة، وهو يصرح بأن وفاته كانت ورسول الله ﷺ يومئذ حمل في بطن أمه، ويتفق مع سائر الرواة في أن الحمل برسول الله ﷺ عقب تزوُّج أبيه بأمه، وعلى ذلك تكون سنة وفاة عبدالله أبي رسول الله ﷺ هي سنة تزوجه بأمه، فتكون سنّه ـ على هذه الرواية ـ حين تزويجه خمساً وعشرين سنة.

وقد اختار هذا الرأي ابن كثير في البداية والنهاية فقال: والمقصود أن أمه حين حملت به توفي عبدالله وهو حمل في بطن أمه على المشهور، قال محمد ابن سعد: حدثنا محمد بن عمر ـ هو الواقدي ـ حدثنا موسى بن عبيدة اليزيدي، وحدثنا سعيد بن أبي زيد عن أيوب بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة، قال: خرج عبدالله بن عبد المطلب إلى الشام، إلى غزة في عير من عيرات قريش يحملون تجارات، ففرغوا من تجاراتهم ثم انصرفوا فمروا بالمدينة وعبدالله بن عبد المطلب يومئذ مريض، فقال: أنا أتخلّف عند أخوالي بني عدي بن النجار، فأقام عندهم مريضاً شهراً ومضى أصحابه فقدموا مكة، فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبدالله، فقالوا: خلّفناه عند أخواله بني عدي بن النجار وهو مريض، فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث فوجده قد توفي، ودفن في دار النابغة، فرجع إلى أبيه فأخبره، فوجد عليه

عبد المطلب وإخوته وأخواته وَجْداً شديداً، ورسول الله ﷺ يومئذ حمل، ولعبدالله بن عبد المطلب يوم توفي خمس وعشرون سنة، قال الواقدي : هذا هو أثبت الأقوال في وفاة عبدالله وسنه عندنا.

ثم قال ابن كثير: والذي رجَّحه الواقدي وكاتبه الحافظ محمد بن سعد أنه عليه الصلاة والسلام توفي أبوه وهو جنين في بطن أمه، وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه.

قصة المتعرضة
لعبدالله بن عبد المطلب

كان من الطبيعي في بيئة قريش ومكة وحرمها بعد حادث نذر عبد المطلب وما انتهت إليه قصة الذبيح أن يستشرف كثيـرات من النسوة إلى عبدالله بن عبد المطلب ليكون لهنّ وينجبن منه، فهو أنهد شباب الحرم وأشبّ ما يكون فتى في فتيان مكة، وأجمل رجال قريش وأنضرهم، وهو المختار لذلك الحادث الخطير الذي كان حديث قريش ومكة كلها في محافلها وبيوتها، إلى جانب ما كان يتناقله المحدثون في مجالس السمر ومحافل الملأ من أنباء وبشارات تلقفها التجار والسمار والمتألهون من أفواه الأحبار والرهبان وقارئي كتب الأقدمين عن نبي يبعث من العرب قد أظل الناسَ زمانُه، ومن أجدر بالنبوة وهي منصب ديني من قريش قطّان الحرم وجيران البيت؟ وَمَنْ أحق بها في قريش من بني عبد المطلب وهم أصحاب مراتب الشرف الديني في الحرم؟ بل مَنْ أحرى بها يحمل نورها من هذا الفتى الذي اختارته الإرادة العليا قرباناً وزلفى؟ والنساء أبداً مولعات بالغرائب والفرائد، فليس من المستغرب أن تعرض امرأة أو أكثر نفسها على عبدالله الذبيح عقب نجاته وفدائه، ولكن الله الذي ادخر ما حمل عبدالله من شرف نوراني ونور قدسي لأشـرف عقائل قريش آمنة بنت وهب هو الذي صانه عن الاستجابة إلى من تعرض له منهنّ.

اختلاف الروايات في المرأة المتعرضة

قال أبو جعفر الطبري وعبد الملك بن هشام: ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد ابنه عبدالله، فمر ـ فيما يزعمون ـ على امرأة من بني أسد يقال لها أم قتال، واسمها رقيقة أو قتيلة بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى

وهي أخت ورقة بن نوفل بن أسد، وهي عند الكعبة، وكانت تنظر وتعتاف[1]، فقالت له حين نظرت إلى وجهه: أين تذهب يا عبدالله؟ قال: مع أبي، قالت: لك عندي مثل الإبل التي نحرت عنك وقع عليّ الآن، قال: أنا مع أبي، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه، فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة، وهو يومئذ سيد بني زهرة سناً وشرفاً فزوَّجه آمنة بنت وهب، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً، فدخل عليها مكانه حين ملكها فحملت برسول الله ﷺ، ثم خرج من عندها حتى أتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت، فقال: ما لكِ لا تعرضين اليوم عليّ ما كنتِ عرضت عليّ بالأمس، فقالت له: فارقك النور الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليوم حاجة.

رأي آخر في المرأة المتعرضة

وقال ابن كثير في البداية والنهاية من طريق أبي بكر الخرائطي عن ابن عباس: لما انطلق عبد المطلب بابنه عبدالله ليزوجه مرّ به على كاهنة من أهل تبالة متهوِّدة قد قرأت الكتب يقال لها فاطمة بنت مر الخثعمية، فرأت نور النبوة في وجه عبدالله فقالت: يا فتى هل لك أن تقع عليّ الآن وأعطيك مائة من الإبل، فقال عبدالله:

أما الحرام فالممات دونه ... والحل لاحلّ فأستبينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه ... يحمي الكريم عرضه ودينه

ثم مضى مع أبيه فزوَّجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، فأقام عندها ثلاثة أيام، ثم إن نفسه دعته إلى ما دعته إليه الكاهنة فأتاها فقالت: ما صنعت بعدي؟ فأخبرها، فقالت: والله ما أنا بصاحبة ريبة، ولكني رأيت في وجهك نوراً فأردت أن يكون فيّ وأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد، ثم أنشأت تقول:

---

(١) تعتاف: من العيافة، وهي التكهن وصدق الحدس والظن وزجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها. قال ابن منظور في اللسان: وفي الحديث: إن عبدالله بن عبد المطلب أبا النبي ﷺ مر بامرأة تنظر وتعتاف فدعته إلى أن يستبضع منها فأبى

إني رأيت مخيلة لمعت فتلألأت بحناتم[1] القطر
فلمائها نور يضيء له ما حوله كإضاءة البدر
ورجوتها فخراً أبوء به ما كل قادح زنده يوري
لله ما زُهرية سلبت ثوبيك ما استلبت وما تدري

وقالت أيضاً:

بني هاشم قد غادرت من أخيكم أمينة إذ للباه يعتركانِ
كما غادر المصباح عند خموده فتائل قد ميثت[2] له بدهانِ

وروى ابن سعد في الطبقات قصة الخثعمية وذكر البيتين المنسوبين لعبدالله دون أن يذكر فيهما الشطر الأخير من البيت الثاني، وكأن هذا أشبه، أما الشعر المنسوب إلى الخثعمية فهو شبيه بموضعه، وفي بيتيها الأخيرين توضيح يشبه أن يكون طبيعياً لدوافع الرغبة في عبدالله بن عبد المطلب، فهو شاب مشبوب الحيوية، خصيب البدن، ريان الدم، قوي البنيان، جميل المحيا، باهر الطلعة، لايُرى في قريش فتى أحسن منه قامة ولا أوسم وسامة، ولا أحلى منه منظراً، ولا أعدل منه قدّاً، ولا أملح منه وجهاً، ولا أرفع منه حسباً ولا أعرق منه نسباً. وأما حديث النور الذي تقول الرواية أن النسوة المتعرضات له رأينه في وجهه فطلبن منه ما طلبن من أجله فهو قد يكون حديث الرغبة العارمة التي حركتها المناسبة في حادث الذبح والفداء، فتخيلت رواء الشباب وإشراق الجمال، وفخر الأحدوثة بهذا الحادث الفريد نوراً يبهر، وغرة تسطع، وليس بعجيب أن يكون عبدالله والد رسول الله ﷺ تميز بجمال فوق جمال أقرانه، وحسن فوق حسن لِداته، وحيوية أشب وأقوى من حيوية أمثاله؛ لما يحمل من بذرة النبوة التي استدارت في ذاته اكتمالاً فاستنارت على وجهه حسناً وجمالاً حسبه الراؤون غرة في وجهه تسطع أو نوراً في جبهته يلمع، وليس هو ـ في بديهة الرأي ـ شيئاً من أنوار الناس الحسية المعروفة، ولكنه نور روحي قدسي تمثل في قوة الحيوية الطافحة والجمال

(١) الحناتم: سحائب سود.
(٢) الميث: المرس والإذابة.

الغامر، والإشراق الباهر، فعبَّرت عنه كل رائية بما تمثلت أو تخيلت، وفي قول الخثعمية:

كما غادر المصباح عند خموده فتائل قد ميثت له بدهانِ

لفتة فنية بديعة عميقة لا يقدر على تصويرها إلا أنثى امتازت في أنوثتها وعرفت من أمر الرجال ما لم يعرف غيرها من أمثالها، فعبدالله مرّ عليها في أول مروره مرافقاً لأبيه وهو ريان الشباب طافح الحيوية، ميَّاس الفتوة، بكر الرجولية، لم يعرف النساء ولا عرفه النساء، ولم تُعتصر حيويته، ولم يستلب شبابه ولا انتزع رواؤه، ولكنه بعد ذلك تزوَّج آمنة بنت وهب وهي أبرع فتاة في قريش، وللشباب عرامة وإسراف، فلما خرج من عند زوجه وكان قد أودعها سر النبوة ونورها، ومر بصاحبته المتعرضة أعرضت عنه بعد شغفها، وحدثته نفسه بما تحدث به نفس كل فتى في موقفه، وطلب إليها ما كانت طلبته منه بالأمس فأبت عليه لأنها عفيفة شريفة، كانت قد أرادت إلى شيء منه قد ذهب عنه، فما حاجتها به؟ أين تلك الحيوية الطافحة؟ وأين ذلك الشباب الريان؟ وأين إشراقة ذلك الجمال الفينان؟ وأين الحسن المشبوب في وجه عبدالله؟ لقد استلبته آمنة بنت وهب سرَّ جماله وحيويته فغادرته ذابلاً نعسان، وخامداً كسلان، ومعصوراً يابساً كما غادرت الفتائل الممروسة بالدهن المصباح عند خموده، ونفاد زيته، فما نفعها فيه وما فائدتها منه؟ لقد فازت به آمنة بنت وهب، وما كل قادح زنده يوري.

من أغرب روايات المتعرضة

وأغرب روايات المتعرضات رواية تذهب إلى أن عبدالله بن عبد المطلب كانت له زوجة مع آمنة أم رسول الله ﷺ، وهذه الزوجة هي التي عرضت عليه نفسها أو هو كان قد طلبها فأبطأت عليه فذهب إلى زوجه آمنة. روى الطبري عن محمد بن إسحاق أن عبدالله دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب وقد عمل في طين له وبه آثار من الطين، فدعاها إلى نفسه فأبطأت عليه لما رأت به من آثار الطين، فخرج عنها فتوضأ[1] وغسل

(١) إن ثبتت هذه اللفظة فمعناها ـ من غير شك ـ الوضوء اللغوي الذي يعرفه العرب في جاهليتهم، ويكون عطف ما بعدها عليها عطف تفسير وتوضيح.

عنه ما كان به من أثر ذلك الطين وعمد إلى آمنة فدخل عليها فأصابها فحملت بمحمد ﷺ، ثم مر بامرأته تلك، فقال: هل لك؟ فقالت: لا، مررت بي وبين عينيك غرة فدعوتني فأبيت ودخلت على آمنة فذهبت بها. وهذه رواية تبدو عليها آثار الصنعة، ويظهر أن صانعيها وضعوها دفعاً لما تضافرت عليه الروايات من أن امرأة عرضت نفسها على عبدالله قبل زواجه بآمنة بنت وهب أن يستبضع منها ـ والاستبضاع نكاح الجاهلية معروف يقصد به نساؤهن الإنجاب ممن يرين عليه مخايل النجابة ـ ، فكأن واضعي هذه الرواية أرادوا المبالغة في تطهير والد رسول الله ﷺ أن يراد لهذا النكاح الذميم، وقد يرجّح هذا قول ابن كثير في تاريخه: وقد كانت أم قتال رقيقة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل توسمت ما كان بين عيني عبدالله قبل أن يجامع آمنة من النور، فودت أن يكون ذلك متصلاً بها لما كانت تسمع من أخيها من البشارات بوجود محمد ﷺ وأنه قد أزفّ زمانه، فعرضت نفسها عليه، قال بعضهم: ليتزوجها، وهو أظهر.

فانظر إلى قوله عن بعضهم ليتزوجها واستظهاره لذلك تعلم أن زعمهم في المتعرضة أنها كانت زوجة لعبدالله مع آمنة حديث خيّله الإغراق في إرادة تصوُّن والد رسول الله ﷺ عن تلك الأنكحة الجاهلية الذميمة، ومن ثَمّ قال ابن كثير عقب ذلك: وهذه الصيانة لعبدالله ليست له وإنما هي لرسول الله ﷺ فإنه كما قال الله تعالى: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾.

وأنت ترى أن الصيانة حاصلة ولو لم تكن المتعرضة زوجة لعبدالله مع أم رسول الله ﷺ، لأن الله تعالى صانه عن إجابتها إلى ما أرادت، وادخر هذا الشرف فوضعه حيث أراد، وقد أنكر بعض الرواة والمؤرخين أن يكون لعبدالله بن عبد المطلب زوجة غير أم رسول الله ﷺ وجزم بأنه لم يتزوج غيرها، وهذا ما لا نشك فيه وهو رأي جمهور علماء السير والتاريخ.

ويظهر من تعدد الروايات واختلاف أسماء المتعرضات وأوصافهن أن قصة التعرض ربما تكررت مع أكثر من امرأة واحدة، وفي كلها حفظ الله والد رسوله ﷺ حتى وضع نوره حيث أراد.

وكأنما عز على الرواة أن يُخلو حديث زواج عبدالله بن عبد المطلب بآمنة بنت وهب من طرافة الحب والقصص المترف الناعم، فأضفوا عليه لوناً من هذه الألوان الطريفة المستملحة في رواية زعمت أن آمنة بنت وهب حدثت بجمال عبدالله وحسنه فرغبت في زواجه فتزوجته، حكى الطبري عن الزهري قال: إن عبدالله بن عبد المطلب كان أجمل رجال قريش فذُكر لآمنة بنت وهب جماله وهيئته وقيل لها: هل لك أن تَزَوَّجيه فتزوجته، فدخل بها وعلقت برسول الله ﷺ. قال الواقدي: هذا غلط، والمجتمع عليه عندنا في نكاح عبدالله بن عبد المطلب ما حدثنا به عبدالله بن جعفر الزهري عن أم بكر بنت المسور أن عبد المطلب جاء بابنه عبدالله فخطب على نفسه وعلى ابنه فتزوجا في مجلس واحد، فتزوج عبد المطلب هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة، وتزوج عبدالله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة.

تدخل الخيال الفضفاض في قصة زواج عبدالله بآمنة

ولولا هذا النقد الذي غلَّط به الواقدي ـ وهو من متقدمي الرواة ومؤرخيهم ـ هذه الرواية لقلنا إنها تكملة للرواية المشهورة، تتمشى معها في صورتها الطبيعية إلى أن خطب عبد المطلب آمنة بنت وهب لابنه عبدالله، فحدثها أبوها أو عمها ـ على اختلاف الروايات فيمن زوَّجها ـ عن خطيبها عبدالله بن عبد المطلب، وعن شبابه وجماله وحسن هيئته كالمرغب فيه حتى تأنس فلا تنفر وترضى فلا تأبى، فرغبت فيه بعلاً ورضيته زوجاً، وتلك سنة معروفة عند بعض العرب في استشارة بناتهن في أمر زواجهن وترك حرية اختيار الزوج لهن، ولكن نقد الواقدي وتغليطه الرواة في هذه الرواية يشعر بأن الرواة والمؤرخين يذكرون هذه الأقصوصة على أنها رواية مستقلة في بيان الطريقة التي وصلت بعبدالله أبي رسول الله ﷺ إلى زواج آمنة أمه عليه الصلاة والسلام.

نقد الواقدي لرواية الخيال

ومهما يكن من شأن هذه الروايات فإن عبدالله بن عبد المطلب بنى بزوجه آمنة بنت وهب سيد بني زهرة في أهلها، فأقام عندها ثلاثاً، وكانت تلك السُنَّة عندهم إذا دخل الرجل على امرأته في أهلها.

سفر عبدالله في تجارته إلى الشام ومحمد ﷺ جنين في بطن أمه

وكان عبدالله بن عبد المطلب يعيش على سنة آبائه الأماجد تاجراً سفَّاراً، يذهب مع تجار قريش في عيراتها إلى أسواق العرب ومتاجر اليمن والشام، ولم يكن واسع الثراء كأصحاب المضاربات والمرابين من تجار قريش، ولم يكن فقيراً يقعده الفقر عن أسباب الكسب والعمل للحياة من أشرف طرائقها، ولا سيما بعد زواجه، فقد أصبح مسؤولا عن بيت فيه زوجته التي وجب عليه أن يعولها ويقوم على واجباتها، وقد شعر بهذا شعوراً ملك عليه أحاسيسه حتى إنه لم يمهله - في أشهر الروايات - أن يقيم إلى جانب زوجته بعد أن بنى بها أكثر من أيام معدودات، ثم أذَّن مؤذن العير بالرحيل إلى الشام للتجارة، فخرج مع قومه مودعاً من أبيه الشيخ الأسيف وزوجته الحبيبة على جِدَّة عهده بها وإخوته وأخواته وهم يرقبون عودته، ولكن الأقدار التي تعلو بحكمتها على مدارك العقول أبت على عبدالله الذبيح أن يرجع من سفرته هذه ليشهد آمنة الزوجة الحبيبة وقد تنفس حملها عن أكرم مولود يشهد الحياة أول ما يشهدها يتيماً.

وفاة عبدالله ودفنه بالمدينة

وهكذا مات عبدالله بن عبد المطلب في هذه الرحلة وهو عائد من الشام ماراً بأخوال أبيه عبد المطلب بني عدي بن النجار، وهكذا دفن عبدالله أبو رسول الله ﷺ بيثرب مدينة الأسرار والأنوار، ومأوى المهاجرين والأنصار، ومهبط الوحي ومنزل الأحرار، ومثوى الكملة الأبرار.

ولأمر ما كانت المدينة المنورة مرقد عبدالله أبي محمد رسول الله ﷺ قبل أن يشهد الوجود طلعة محمد بن عبدالله ﷺ، ولأمر ما كانت من بعده مثوى محمد ﷺ، ولله تعالى حكمة فوق مدارك العقول والأفهام.

قِصَّةُ أصحَابِ الفِيْل

طبيعة المسالمة في قريش يمثلها زعيمها عبد المطلب

أما الحادث الثاني في حياة عبد المطلب جد رسول الله ﷺ الذي وعدنا بالحديث عنه لأهميته في تاريخه فهو حادث أصحاب الفيل، فقد كان عبد المطلب هو صاحب كلمة قريش وزعيم مكة وسيدها الناطق عنها، وله مع أبرهة قائد جيش الفيل موقف غريب في ظاهره، بيد أنه كان حكمة وكياسة في حقيقته، وهذا الموقف يصور طبيعة المصالحة والتألّه في عبد المطلب خاصة وقريش عامة، ومن هنا كانت خصيصة قريش وامتيازها على العرب وزعامتها فيهم، ومن هنا كانت خصيصة عبد المطلب في قريش وشرفه وسيادته عليهم، فليست قريش من مساعر الحروب في العرب، ولم يُعْنَون لها التاريخ في أيام حروب الجاهلية إلا ما أُلجئت إليه إلجاءً، ولم يكن ذلك عن ضعف فيها أو جبن عن لقاء أقرانها؛ ولكن طبيعة حياتها في حرم الله وجوار بيته هي التي صنعتها على هذه الصورة المسالمة، وكذلك لم يكن سيدها عبد المطلب ابن هاشم من رجالات الحروب وأبطال الغزو والقتال، بل كان رجل سلم وسلام، لأنه شيخ الحرم الذي يأمن فيه الخائف فلا يهاج، وينتصف فيه من الظالم للمظلوم، وقد غلبت هذه الطبيعة على قريش وعلى شيخها عبد المطلب في موقفهم من أصحاب الفيل.

سياسة الحكمة في موقف عبد المطلب من جيش الفيل صانت قريشاً

فهذا جيش جاء لغزو مكة وهدم بيتها المحرَّم وقريش سادنة البيت وصاحبة مجده. وعبد المطلب شريف قريش وسيدها، فما كان من قريش ولا كان من عبد المطلب نهوض للحرب ووقوف في وجه هذا الجيش المهاجم ليصدوه عن بلدهم وبيتهم، كما وقف في وجهه قبائل من العرب التي مر بها

في طريقه فعرفت وجهته فحاربته وهزمها، ومضى في طريقه إلى هدفه حتى دنا من مكة وتسامعت قريش وعبد المطلب بأخباره وعدده وعدته، فقالوا: لا طاقة لنا بحربه، وأشار عبد المطلب على قومه بالخروج من مكة وإخلائها صيانة لهم من عبث الجيش ومعرّته، فلجأوا إلى شعف الجبال تاركين البيت لرب البيت يحميه ويمنعه، لأن التعرُّض لحرب هذا الجيش إنما هو انتحار على أبشع صورة يسوق إليها التهور المغرور، وكان عبد المطلب في رأيه هذا أكيس من رجل يدفع بقومه إلى الانتحار في غير طائل، فسالم وخلص بقريش فلم يصبها ما أصاب غيرها من القبائل المتعرضة لهذا الجيش الكثيف، وقدر عبد المطلب في نفسه أن الله رب البيت سيحمي هذا البيت، وراح في قومه قبل أن يخرجوا عن مكة يدعون الله ويستنصرونه لبيته وحرمه.

تعزز مكانة قريش في العرب بموقفها وراء زعيمها عبد المطلب.

فلما جاء الله بنصره وأنزل نقمته على أعداء حرمه وبيته عرفت العرب لقريش هذه المكانة فقالوا: إنهم أهل الله وجيران بيته يحامي عنهم، وازدادت مكانة عبد المطلب رفعة عند قومه لأنه أنقذهم وصان حرمتهم، وذاع صيته وصيت قريش في أرجاء الجزيرة، وتداول الناس الأحاديث عن عبد المطلب وعن أبنائه وقومه في قبائلهم وبيوتاتهم ومحافلهم وأسواقهم، وما صنع الله لهم، وقد اتصل ذلك بحديث ميلاد حفيد عبد المطلب محمد ﷺ ابن ولده الحبيب عبدالله الذبيح، وهذا الاتصال ربط ذلك الحادث بسيرة وتاريخ رسول الله ﷺ على صورة تجلت في الامتنان عليه وعلى قومه وأمته بما صنع الله له ولبيته العتيق، فصانه وصان أهل جواره عن عبث الغزاة وفجورهم، ورد عليهم كيدهم في نحورهم، وأهلكهم هلاك استئصال بما لم تجربه عادة الناس، فكان إرهاصاً لمقدم محمد رسول الله ﷺ وبعثته، وأنزل الله في ذلك سورة من سور القرآن الكريم سجل فيها هذا الحادث خاصة أروع تسجيل في أوجز عبارة وأوضح أسلوب، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

الإرهاص لمقدم محمد ﷺ بحادث إهلاك جيش الفيل.

هذا الحدث ماصاً لمقدم حمد ﷺ

وفي خطاب رسول الله ﷺ في مفتتح السورة بهذا الأسلوب التقريري التعجيبي، وانصباب الاستفهام على الرؤية وهو ﷺ لم يكن من شهود

الحادث عند وقوعه دليل على أن هذا الحادث كان معروفاً متعالماً مشهوراً بشهوده وآثاره لدى الخاصة والعامة، حتى كان الحديث عنه ممن شهدوه إلى من لم يشهدوه حديث رؤية وعلم يقين يستوي مع المشاهدة والعيان. وفي انصباب الاستفهام على رؤية كيفية فعل الله بهؤلاء الطغاة دون انصبابه على ذات الفعل أو أثره فقيل: ﴿ ألم تَرَ كيف فعل ربك ﴾ ولم يقل: ألم تر ما فعل أو آثار ما فعل ربك، إشارة إلى تهويل الحادث وإيذان بوقوعه على كيفية وحالة هي فوق مستوى ما عهده الناس وجرت به عادة فيما بينهم من طرائق وقوع الأحداث.

وإضافة الفعل المعجِّب عن طريقة وقوعه إلى الله بعنوان الربوبية المختصة بمحمد ﷺ على ما تقتضيه الإضافة إلى ضمير الخطاب له خاصة، دون ضمير غيره أو دون مشاركة معه رمز إلى مزيد اختصاص هذا الحادث به وأنه كان من أجله، ومن أجل رسالته، ومن هنا اتفقت كلمة أهل الاسلام ـ إلا من زاغ عن الجادة ـ على أن الله قدَّم هذا الحادث تشريفاً لخاتم أنبيائه وتعظيماً لشأنه. قال الإمام فخر الدين الرازي ولا شك أن هذه الواقعة كانت دالَّةً على قدرة الصانع وعلمه وحكمته، وكانت دالة على شرف محمد ﷺ، وذلك لأن مذهبنا أنه يجوز تقديم المعجزات على زمان البعثة تأسيساً لنبوتهم وإرهاصاً لها.

وإبهام ما فعل الله بهم في صدر الكلام ثم توضيحه وتفصيله في صورة الاستفهام التعجيبي، والتعبير عن مقاصدهم الفاجرة بالكيد الدال على خفي التدبير وسيء المكر، وامتنان الله بجعل ذلك هباء مضيَّعاً لا يحظى منه صاحبه بطائل دليل على شدة قهر الله لهم وبطشه بهم، وعلى فظاعة ما كانوا يستهدفون من هدم بيت الله وتخريبه والعبث بحرمه وهتك حرمات قطانه وأهله. وفي العناية بالتنصيص على طريقة إهلاكهم وذكر ما أهلكوا به بعنوان متعارف في صورة لم تجر بها عادة، ولا تعارفها الناس فيما بينهم في كافة الحروب والغزوات وتجمعات الجيوش آية على أن هذه النهاية السريعة الخاطفة والصورة البشعة الهائلة التي انتهى بها هذا الحادث ليست من سنن الحياة المألوفة المكررة، ولكنها من سنن الوجود المدخرة، لأحيانها ومناسباتها، فهو معجزة لنبوة

محمد ﷺ مقدمة عليها إرهاصاً لها وتأنيساً بوقوعها، أعلم الله بها نبيه ممتناً به عليه عند تشريفه بدواعيها.

وإلا فمتى كان في معهود الناس ومتعارف الأحداث أن طيراً - بهذا العنوان الذي له صورة خاصة لدى من يسمعه - تفد جماعات في إثر جماعات، تحمل معها حجارة من طين يابس متحجِّر حتى كأنه طبخ بالنار، ثم تعمد هذه الجماعات من الطير إلى جماعات من الناس مخصوصة لا تتعداهم إلى غيرهم، فترميهم بما حملت من الحجارة فتصيب مقاتلهم إلا قليلاً ممن نجا سقيماً ليكون عنواناً على هول ما أنزل الله بهم من نقمة في هذا الحادث الجسيم!!. هذا هو الذي قال الله تعالى وقصَّه علينا في صراحة لا تحتمل لبساً ولا تأويلاً، وقد آمن بهذا المؤمنون، وعلموا أن سنن الكون أجلّ من أن يحيط بها علمنا، وأخطر من أن تكون حبيسة في دائرة عقولنا المحدودة، وأنَّ منها سنناً عامة معهودة متعارفة، وأن منها سنناً خاصة تقع عندما تتهيأ لها دواعيها، وخوارق العادات التي يجريها الله على أيدي أنبيائه ورسله من سنن الكون الخاصة التي جعلها الله عنواناً على صدقهم وتكريمهم.

موقف الإيمان وموقف العقل والعقلانيين من هذا الحادث

أما الذين وقفت بهم عقولهم عند مألوف الناس واحتكموا في الحوادث إلى العادات الجارية المتكررة، وأرادوا أن يخضعوا سنن الله في الكون وإرادته في خلقه وسلطان قدرته عليهم إلى ما جرت به العادة وتعارفه الناس فقد فَظِع بهم أن يؤمنوا بهذا كما آمن المؤمنون بجلال الله وواسع قدرته ومحكم إرادته وعظيم سلطانه، وأبوا إلا تحريف كَلِمَ الله عن مواضعه وتأويل آياته الصريحة الصادقة، والتمسوا في الأمور العادية ملجأ للتأويل.

وفي قصة الفيل تشبثوا بالأوبئة العامة والأمراض الجائحة ليجدوا لهم مخرجاً في تأويلها حتى لا تكون من سنن الله الخاصة في الكون والمعجزات الباهرة لمحمد ﷺ، فتحدثوا عن الحصبة والجدري وراحوا يفسرون بهما هذا الحادث.

رأي الإمام الرازي

قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره: واعلم أن قصة الفيل واقعة على الملحدين جداً لأنهم ذكروا في الزلازل والرياح والصواعق وسائر الأشياء التي عذَّب الله تعالى بها الأمم أعذاراً ضعيفة، أما هذه الواقعة فلا تجري

فيها تلك الأعذار، لأنه ليس في شيء من الطبائع والحيل أن يُقبل طير معها حجارة فتقصد قوماً دون قوم فتقتلهم، ولا يمكن أن يقال إنّه كسائر الأحاديث الضعيفة لأنه لم يكن بين عام الفيل ومبعث الرسول إلا نيف وأربعون سنة، ويوم تلا الرسول هذه السورة كان قد بقي بمكة جمع شاهدوا تلك الواقعة، ولو كان النقل ضعيفاً لشافهوه بالتكذيب؛ فلما لم يكن؛ عَلِمْنَا أنه لا سبيل للطعن فيه.

وليس بلازم ـ على المحقق من مذاهب العلماء ـ أن تكون ـ أي المعجزات ـ مقرونة بالتحدي، بل من المعجزات ما يجب أن يكون مقروناً بالتحدي، وذلك ما جعله الله برهاناً على صدق مدّعي الرسالة كالقرآن الكريم[1] بالنسبة لمحمد ﷺ، والعصا بالنسبة لموسى وإحياء الموتى بالنسبة لعيسى عليهما السلام. ومنها ما يكون لمحض التكريم والتشريف سابقاً للنبوة في زمانها ـ أو واقعاً في زمانها كجميع الآيات الحسية المادية التي أوتيها محمد ﷺ ولم يتحدَّ بها. والعمدة فيه اتفاقه مع القسم الأول في خرق العادة ومخالفة مجرى سنن الحياة المتكررة المعهودة؛ كتظليل الغمامة وشق الصدر وتسبيح الحصى وتكثير القليل من الطعام أو الماء مما وقع لنبينا محمد ﷺ قبل نبوته أو بعدها ولم يتحدّ به ولم يتخذه برهاناً على صدقه، وإنما جعله الله له تكريماً لمقامه وتشريفاً لقدره.

وقد أغرق رواة السيرة وقصاص التاريخ في رواية القصة فلوّنوها بألوان شتى، وأدخلوا عليها من الغرائب ما أوحى به الخيال الفضفاض.

أقرب روايات القصة وأشبهها بالواقع

ونحن بعد أن شرحنا ما تضمنته سورة الفيل من سور القرآن الكريم ـ وهو أصدق وأحكم مصدر لما يقصه ويرويه من الدلائل والإشارات على مغزى القصة في السورة ومرماها وطريقة أدائها للحادث في مقدمته ونتائجه ودقيق

---

(١) وإنما انفرد القرآن الكريم من بين جميع المعجزات المحمدية بجعله برهان الصدق وقرنه بالتحدي لمناسبته لعموم الرسالة، لأن التحدي به عم ويعم جميع من أرسل إليهم إلى يوم القيامة أما سائر المعجزات فإنها لم يشهدها إلا قوم بأعيانهم فليس فيها عموم التحدي فلم تجعل برهاناً عاماً على صدق الدعوى وإن كانت برهاناً لمن شهدها، ولم يعرف من طريق صحيح أن النبي ﷺ تعلق بهذه المعجزات المادية الصادقة الوقوع برهاناً على صدق رسالته.

عنايتها بنهايته التي هي محط العظة والاعتبار - نرى أن نلم إلمامة موجزة بأشبه روايات القصة وأقربها إلى الحق الواقعي في كتب السيرة والتاريخ.

الاختلاف في سبب هذا الحادث - رواية ابن إسحاق

وقد اختلفت الروايات في سبب هذا الحادث ومبعثه الذي هاجه وحرك إليه، فذهب جمهور الرواة إلى رواية محمد بن إسحاق المشهورة التي تزعم أن أبرهة الأشرم أمير الحبشة على اليمن رأى إقبال العرب على الحج إلى مكة لتعظيم الكعبة بيت جدهم إبراهيم وأبيهم إسماعيل، فأراد أن يتقرَّب إلى سيده النجاشي - وكان نصرانياً - بصرف العرب عن مكة وكعبتها، فابتنى كنيسة صرف همه في زخرفتها وتزيينها وكتب إلى النجاشي: إني بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حاجّ العرب. فلما تسامع العرب بما صنع أبرهة اشتد عليهم، فذهب بعض المتحمسين من متدينيهم واحتال حتى دخل تلك الكنيسة فعبث بها وقذرها، فغضب أبرهة وأقسم ليهدمن الكعبة ويطأن مكة.

رواية هشام الكلبي ومقاتل

وذهب هشام الكلبي ومقاتل بن سليمان إلى أن سبب حادث الفيل أن فتية من قريش خرجوا تجاراً إلى أرض الحبشة، فنزلوا على ساحل البحر إلى جوار بيعة للنصارى يسمونها الهيكل، فأوقدوا ناراً لطعامهم وتركوها وارتحلوا فهبت ريح عاصف على النار فأضرمت البيعة ناراً فاحترقت، فأتى الصريخ إلى النجاشي فأخبره فاستشاط غضباً، فأتاه أبرهة بن الصباح وحجر بن شرحبيل وأبو يكسوم الكنديون وضمنوا له إحراق الكعبة وسبي مكة.

توجيه إمكان إحدى هاتين الروايتين

هاتان الروايتان هما أمثل الروايات في سبب القصة، وكلتاهما محتملة الوقوع، فالرواية الأولى ترد السبب إلى دوافع سياسية واقتصادية، فالحبشة قوم متغلبون على هذا القطر العربي - اليمن - يحكمونه وهم أجانب عنه، لا يطمئنون إلى أهله ويتوجسون خيفة من اجتماعهم بإخوانهم عرب الشمال في أرض الحجاز، وهذه طبيعة كل متغلب أجنبي، فلما رأوا رحلات أهل اليمن في مواسم الحج خشوا مغبة ذلك على اقتصادهم وخافوا عاقبته على وجودهم، فأرادوا أن يصرفوا الناس عن هذه الرحلات فبنوا كنيستهم ليحج الناس إليها ويتحول اقتصاد الجزيرة وتجاراتها في مواسمها إلى بلادهم،

وبذلك يستطيعون مراقبة من تحدثه نفسه بالخروج على سياستهم المتغلبة تطلعاً إلى الحرية والاستقلال، إلى جانب ما قصد إليه أبرهة من استرضاء النجاشي والزلفى إليه.

والرواية الثانية ترد السبب إلى العصبية الدينية وتربطه بأرض الحبشة نفسها، وكانت الصلات التجارية بين العرب والحبشة معروفة، ونزول التجار بجوار الأديرة والبِيَع والهياكل مشهور، وعادة القوافل إذا نزلت منزلاً أن توقد النيران لتطعم وتستدفىء فإذا رحلوا لم يحملوا معهم جذوات الجمر في دفين الرماد، فإذا هبَّت الريح اتقدت وازدادت اشتعالا وسرت مع الريح، فاذا صادفت مسعراً تسعَّرت واستشرت فأهلكت ودمرت، وفي الهياكل والبيع أدهان القناديل ومجتمع الهشيم.

فإذا لحقت النيران بأوله لم تلبث حتى تأتي على آخره، ولعل هذا كان أثراً من آثار أولئك الفتية التجار من أبناء قريش الذين نزلوا بجوار بيعة الحبشة فاحترقت، وظن الحبشة بالعرب الظنون وأرادوا الثأر لبيعتهم، وعرفوا أن الكعبة هي هيكل العرب ومتعبدهم المقدَّس فأرادوا تخريبها، فكتب النجاشي إلى عامله على اليمن أو سار العامل بمن معه من الحبشان إلى مكة بجيش جرار يقدمه الفيلة وطليعتها أعظمها، فلما علم به العرب أعظموه وفظعوا به ورأوا قتاله وصدّه واجباً عليهم، فتصدى له بعض من كان في طريقه من قبائل العرب، وكان أول من خرج لجهاده ومقاتلته رجل من أشراف اليمن وأذوائهم يقال له ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من العرب، فقاتلوه فهزمهم أبرهة وأخذ ذو نفر أسيراً، ثم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي على رأس قومه ومن تبعه من غيرهم، فقاتلوه فهزمهم أيضاً وأخذ نفيل أسيراً فكان دليل الحبشة في طريقهم، حتى إذا مروا بالطائف ألقت إليهم ثقيف بطاعتها وأرسلت معهم رجلاً يقال له أبو رغال يدلهم على الكعبة، فأنزلهم مكاناً قرب مكة يقال له المغمس وفيه مات أبو رغال فكان سبة على ثقيف، وذهبت طليعة الحبشة فاستاقت إلى أبرهة أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم، وأصابوا فيها مائتي بعير لعبد المطّلب بن هاشم - وهو يومئذ كبير قريش وسيدها -

موقف عبد المطلب من هذا الحادث

ثم بعث أبرهة إلى أهل مكة رجلاً يقال له حُنَاطة الحميري فقال لهم: إن الملك يقول: إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا إليّ بحرب فلا حاجة لي بدمائكم، فلما دخل رسول أبرهة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له: عبد المطلب بن هاشم، فجاءه فقال له ما أمره به، فقال عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك منه طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يخلِّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال له رسول أبرهة: فانطلق إليه، فإنه قد أمرني أن آتيه بك، فانطلق معه عبد المطلب فدخل على ذي نفر في مجلسه ـ وكان له صديقاً ـ قبل أن يدخل على أبرهة، فقال له: يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر: وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدواً وعشياً؟ ما عندي غناء في شيء مما نزل بك إلا أن أنيساً سائس الفيل صديق لي فسأرسل إليه وأوصيه بك وأعظِّم عليه حقك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك، فقال عبد المطلب: حسبي.

فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له: إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة ومطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت، فقال: أفعل، فكلّم أنيس أبرهة فقال له: أيها الملك هذا سيد قريش ببابك ويستأذن عليك وهو صاحب عين مكة، يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال، فأذن له عليك فيكلمك في حاجته؛ فأذن له أبرهة، وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم، فأجلّه أبرهة وأعظمه ونزل عن سريره فجلس معه على بساطه قال له: حاجتك؟ فقال عبد المطلب: حاجتي أن يردّ عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي، فقال له أبرهة: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ قال عبد المطلب: إني أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه، قال أبرهة: ما كان ليمتنع مني، قال عبد المطلب:

أنت وذاك، فرد عليه إبله وانصرف عبد المطلب إلى قريش وأمرهم بالخروج إلى شعف الجبال والشعاب تخوفاً عليهم معرَّة الجيش، ثم قام عبد المطلب، وهو آخذ بحلقة باب الكعبة فقال:

لاَهُمَّ إنّ العبد يمـ ـنع رَحْلَه فامنع حِلالك
لا يغلبنَّ صليبُهم ومِحالهم غَدْواً محالك
إن يدخلوا البلد الحرا م فأمرٌ ما بدا لك

ثم انطلق مع قومه ينتظرون أبرهة ما هو فاعل بمكة إن دخلها، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ جيشه يقدمه أضخم أفياله، ثم وجهه إلى الحرم فسقط كالبارك، فضربوه ضرباً شديداً فلم ينهض، فوجهوه نحو اليمن وإلى كل جهة غير مكة فنهض يهرول، وأرسل الله عليهم طيراً يجيئهم جماعة في إثر جماعة ترميهم بحجارة، فأصابت مقاتلهم وخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك، وأصيب أبرهة فجعل جسمه يتناثر ويتساقط حتى انصدع صدره فمات بصنعاء.

التزيّد في القصة وفرطحتها بالخيال

هذا القدر من رواية القصة هو الذي أجمع عليه الرواة، وهو في مجموعه ليس فيه شيء يعسر على العقل الإيمان بوقوعه، لكن أهل الاغرام بالفضفضة والمبالغات السابحة في بحار الخيال الطيار تزيَّدوا في كثير من أطراف القصة وأطوارها تزيداً أخرجها عن الحقيقة التاريخية إلى حوادث التسلية والسَّمَر، ولا سيما في طرف الإعجاز منها، وهو الطرف الذي ارتفعت به قدرة الله عن الخضوع لنواميس العادة المتكررة وسنن الحياة المألوفة إلى أفق سنن الوجود الخاصة النادرة التي لا تجيء على وفق تلك النواميس العامة، فقد تحدث هؤلاء المتزيدون عن الطير المرسلة ووصفوها بأوصاف لم تُبْقِ لها من حقيقة الطير التي أخبر بها الله تعالى إلا رفرفة الأجنحة والسبح في فسيح الأرجاء، وفيما عدا ذلك فهي جامعة لأشكال جميع ما خلق الله من حيوان معروف أو غير معروف، ولم تنج من هذا التزيد الحجارة التي رمت بها هذه الطير أبرهة وقومه، فلم يكفهم ما وصفه الله بها، بل أضافوا إليها من الأوصاف الخيالية كل غريب وعجيب، ولم يرضهم إلا أن تكون مبعوثة من

جهنم ومكتوب على كل حجر منها اسم صاحبه، وهكذا مما جعل كثيراً من الناظرين والكاتبين في تفسير القرآن والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي إذا عرضوا لهذه القصة أجحفوا بالحقيقة التاريخية وردوا ما فيها من إعجاز قُصِد به التمهيد للنبوة والتشريف لصاحبها، ومن اختير لها، وذهبوا في تأويل النصوص مذاهب متعسفة خشية التسليم بهذه المبالغات الجوفاء التي لا تنقص شيئاً من حقيقة الإعجاز في القصة لو خلت عنها.

تعسف المتأولين كان ثمرة لتزيّد المتزيدين

فهؤلاء المؤوّلون يأبون أن يقبلوا ظاهر القرآن في أن الله تعالى أرسل على أبرهة وجيشه جماعات من الطير تحمل معها حجارة شديدة الصلابة ترميهم بها حتى هلكوا كما يفهمه العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، فالطير في لغة العرب عامة معروف المعنى، والحجارة كذلك معروفة المعنى، والقرآن إذ عبَّر بهما أراد إلى هذا المعنى المكشوف البيِّن المتبادر إلى فهم السامع، ويبعد أشد البعد أن يكون القرآن الكريم قد أراد إلى هذا التعسف الذي يُحَمِّل الألفاظ معاني لم تعرف إلا بعد عدة قرون من نزول القرآن، فالمكروب الذي يريدون أن يجعلوه من محامل لفظ الطير في سورة الفيل إذا كان في عصرنا قد صار من الحقائق العلمية المسلمة فهو عند العرب وعامة المسلمين من الحقائق المجهولة التي يستحيل عليهم فهمها من كلمة (طير)، فتفسير القرآن به إسراف في التجني على اللغة وتعالم على السلف من أصحاب رسول الله ﷺ ومن جاء بعدهم من أعلام العلماء في مدى القرون الماضية من تاريخ الإسلام إلى أن كشف العلم عن المكروب وحقيقته.

فإذا كان وزر المتزيدين في الروايات أنهم تزيدوا وأغرقوا، وقبلوا كل تافه وغثاء، فوزر المتأولين أنهم أجحفوا وتنقصوا وظلموا الحقيقة، وردوا ظاهر القرآن وصحيح الرواية لغير ضرورة ملجئة.

وإذا جاز التأويل في شيء من موضوعات القرآن الكريم وصرف ألفاظه عن معانيها الظاهرة المتبادرة لاعتياصها على بعض الأفهام؛ فالقصص القرآني أبعد ما يكون عن ذلك لأن ألفاظ هذا القصص من الوضوح والبيان بمكان رفيع، لأن المقصود الأول من القصص في القرآن هو العظة والعبرة

والتأسي، وذلك لا يتحقق إلا بألفاظ بينة المعاني واضحة الدلالة على مقصودها.

ولم يكتفِ بعض الكاتبين بالتأويل وصرف الألفاظ عن ظواهرها إنكاراً للإعجاز، ولكنه في سبيل الوصول إلى غرض معين أقحم على القصة عنصر الأوبئة العامة والأمراض الجائحة، وتحدث عن الحصبة والجدري وأن وباءهما تفشى في جيش أبرهة ففتك به، ولعل جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر، وهذا بلا شك لون من ألوان المجازفة في الحكم على حقائق التاريخ، لأن هذا الزعم لا يستند على شيء من الروايات الثابتة وإنما يعتمد على روايات واهنة وافقت هوى عند هؤلاء المتأولين فتمسكوا بها، وهي مع ضعفها ذكرت الحصبة والجدري كأثر من آثار الإعجاز في الطريقة التي أنهت بها القدرة الإلهية الحادث على ما جاء في التعبير القرآني، وقد راج هذا الزعم على شيخ المفسِّرين أبي جعفر الطبري فقال: فأقبلت الطير من البحر أبابيل مع كل طير ثلاثة أحجار، حجران في رجليه، وحجر في منقاره فقذفت الحجارة عليهم، لا تصيب شيئاً إلا هشمته وإلا نفط ذلك الموضع، فكان ذلك أول ما كان الجدري والحصبة والأشجار المرة فأهمدتهم الحجارة، وروى الطبري أيضاً عن يعقوب بن عتيبة أنه حدث: إن أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام، وإنه أول ما رؤي بها مرار الشجر الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام، قال ابن الأثير: وهذا مما لا ينبغي أن يعرج عليه، فإن هذه الأمراض والأشجار قبل الفيل منذ خلق الله العالم.

رواج أكذوبة حدوث الحصبة والجدري على الطبري

نقد ابن الأثير لهذه الخرافة

* * *

وفي حديث الفيل لا نحب أن نغفل هذه الرواية الغريبة التي يحكيها القرطبي في تفسيره فيقول: فحكي عن عبد المطلب أنه بعث ابنه عبدالله على فرس له، ينظر ما لقوا من تلك الطير فإذا القوم مشدوخين جميعاً، فرجع يركض فرسه كاشفاً عن فخذه، فلما رأى ذلك أبوه قال: إن ابني هذا أفرس العرب، وما كشف عن فخذه إلا بشيراً أو نذيراً، فلما دنا من ناديهم بحيث يسمعهم الصوت قالوا: ما وراءك؟ قال: هلكوا جميعاً..

قصة غريبة يحكيها القرطبي

وهذه الحكاية إذا صحت ولم يكن قد وقع فيها تصحيف في الاسم دلت على أن عبدالله أبا محمد رسول الله ﷺ شهد حادث الفيل، وأنه كان في يومه شاباً جَلِداً يعتمد عليه، وكانت له دراية بالفروسية وخبرة بركوب الخيل فبعثه أبوه ليكشف حال جيش أبرهة بعد أن تركت لهم قريش مكة وتحرَّزت بشعف الجبال، فذهب وجاء يركض فرسه على هيئة يتعرف بها المجربون من رجالات قريش والعرب آية النجابة، وقد عرف ذلك أبوه فقال: إن ابني أفرس العرب، غير أن شهود عبدالله حادث الفيل لا يتفق إلا على أساس وقوع الحادث قبل زواجه بآمنة بنت وهب أم محمد رسول الله ﷺ إذا أخذنا بالرواية المشهورة التي تزعم أن عبدالله لم يلبث بعد زواجه أن توفي، أما إذا كان شهوده الحادث بعد زواجه فلا يتم إلا على رواية من يذهب إلى أنه عاش حتى ولد رسول الله ﷺ وبلغ من العمر ثمانية وعشرين شهراً، أو حتى مضى من حمله سبعة أشهر على ما سنحققه عند الكلام على الميلاد النبوي إن شاء الله بعونه وتوفيقه.

ميلاد محمد ﷺ

وما احتف به من الأحداث

الصورة الفطرية في حمل آمنة بمحمد ﷺ

ترسم كتب السيرة ومصادر التاريخ ميلاد محمد ﷺ والحمل به في صورتين مختلفتين إحداهما فطرية طبيعية، لأن محمداً ﷺ فيها إنسان حملت به أمه كما تحمل سائر الأمهات ولدانهنَّ زماناً وحالة. روى القسطلاني في مواهبه عن أبي زكريا يحيى بن عائذ أنه قال: بقي ﷺ في بطن أمه تسعة أشهر كملاً، لا تشكو وجعاً ولا مغصاً ولا ما يعرض لذوات الحمل من النساء.

وكانت تقول: والله ما رأيت من حمل هو أخف منه ولا أعظم بركة منه.

ويقول القسطلاني أيضاً: واختلف أيضاً في مدة الحمل به، فقيل تسعة أشهر وقيل عشرة وقيل ثمانية، وقيل سبعة، وقيل ستة، وكل هذه الأزمنة محتملة في الحمل بالولدان لكثير من النساء في جميع العصور والبلدان، وما من زمن منها إلا وقد حفظ التاريخ وشهد الواقع أنه كان زمناً لحمل كثير من الولدان أو الولائد، فليس في شيء منها خصوصية لمحمد ﷺ تخرج بحمله عن معهود الناس وطبائع الحياة فيهم. وأكثر الرواة يذهبون إلى اختيار أبي زكريا في أن الحمل به ﷺ كان تسعة أشهر كاملة، وهذا ميل منهم إلى الواقع الفطري في تصوير زمان حمله ﷺ، وكذلك جرت الرواية في تصوير حالة الحمل به، فأمه لم تشعر لحمله بمشقة ولا وجدت له ثقلة، وكثير جداً من الولدان من لا تشقى بهم أمهاتهم في حملهن بهم، فلا يجدن للحمل ألماً ولا ثقلاً، بل كثيرات من الأمهات ولا سيما أبكارهن لا يشعرن بالحمل إلا بعد مضي زمنه لخفته عليهن وقوة بنيانهن، مع اعتدال مزاجهن، وكمال صحتهن.

فليس عجيباً أن تكون أم محمد ﷺ - وهو بكرها فلم تعرف الحمل قبله، وهو وحيدها فلم تحمل بعده - وقد حملت به فلم تشعر أنها حملت إلا حينما أنكرت رفع حيضتها، وليس غريباً ألَّا تجد لحمله ثقلاً ولا وصباً مما يعتري كثيرات من النسوة والحاملات. قال ابن سعد في الطبقات: إن آمنة بنت وهب لما حملت برسول الله ﷺ كانت تقول: ما شعرت أني حملت به ولا وجدت له ثقلة كما تجد النساء إلا أني قد أنكرت رفع حيضتي وربما كانت ترفعني وتعود، وروى أيضاً من طريق شيخه الواقدي عن الزهري أنها قالت: لقد علقت به فما وجدت له مشقة حتى وضعته.

فليست خفة الحمل وعدم المشقة فيه مما يدخل في باب العجائب الخارقة لعادات الناس الجارية في مألوفاتهم، ولا هو مما يدخل في شيء من خصائص التكريم والتشريف، فهو أمر معهود مشهود مكرور لعامة الناس وخاصتهم.

وليس ثقل الحمل وظهور عوارضه اللاغبة مما يخرج عن سنن الحياة، ولا هو في شيء من دلائل عدم الرعاية الربانية للوليد وأمه، فإذا كان بعض الرواة قد روى خفة حمل آمنة برسول الله ﷺ فإن بعضاً آخر قد روى ثقله وشدته عليها حتى كانت تشكو منه لصواحباتها، روى الطبري وغيره من حديث العامري عن شدَّاد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال في جواب مساءلة العامري: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى بن مريم، وإني كنت بكر أمي، وإنها حملت بي كأثقل ما تحمل النساء وجعلت تشتكي إلى صواحباتها ثقل ما تجد».

ويحدثنا ابن سعد في طبقاته أن آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ قالت: قد حملت الأولاد فما حملت سخلة أثقل منه. وهذه رواية شاذة منكرة وليس شذوذها ونكارتها لما اشتملت عليه من حديث ثقل الحمل وشدته لمناقضتها لِمَا رُوِيَ من طرق كثيرة في خفة الحمل به ويسره على أمه، ولكن لِمَا فيها من زعم أن آمنة بنت وهب حملت بغير وحيدها محمد بن عبدالله صلوات الله عليه، وهذا ما لا يشك في بطلانه جمهور الرواة والمؤرخين. قال

الواقدي معقباً على هذه الرواية الزائفة: وهذا مما لا يعرف عندنا ولا عند أهل العلم؛ لم تلد آمنة بنت وهب ولا عبدالله بن عبد المطلب غير رسول الله ﷺ، ولولا كلام الواقدي لأمكن تخريج هذه الرواية على إفادتها مجرد ثقل الحمل، وذلك بأن تقرأ بضبط لفظ (حُمِّلَتْ) بالبناء للمفعول وتكون تعبيراً عن معاناة الحمل عند كل والدة، وتضبط لفظة فما (حملت) سخلة كذلك بالبناء للمفعول.

إنسانية محمد ﷺ في ميلاده

وهذه الصورة الفطرية الطبيعية تصور محمداً ﷺ في ميلاده إنساناً ولدته أمه في يسر وبهجة وضيئاً نظيفاً، حلو الملامح جميل المحيا كما تلد كثيراً من الولدان أمهاتهم، وتلقته على يديها قابلته الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف الزهرية كما يتلقى القابلات سائر الولدان، وقد بُشِّر به جده عبد المطلب ففرح به فرحاً شديداً، لأنه رأى فيه خلفاً من أبيه الحبيب، يرى في مطالعة محياه ذكريات الأبوة الحانية، فأخذه بين يديه ودخل به الكعبة، وقام عندها يدعو الله ويشكر ما أعطاه، وقد شارك عمومة محمد عليه السلام أباهم الشيخ فرحته بولادة ابن لأخيهم عبدالله الذبيح الذي ذهب فلم يعد، وقد عمَّهم الفرح وشملهم البشر فتصدقوا وأهدَوا وأعتقوا حتى من كشف الغيب عن عداواته لمحمد عليه السلام، فهذا عمه أبو لهب ـ وقد سجل القرآن في ذمه ما سجل ـ تذكر الرواية الصحيحة أنه لما بشرته مولاته ثُويبة بولادة النبي ﷺ أعتقها، وكانت بعد عتقها أول من أرضع رسول الله ﷺ مع عمه حمزة بن عبد المطلب قبل أن يسترضعا في بني سعد بلبن ابن لها يقال له مسروح، وشاركهما في لبنها أبو سلمة، وكان النبي عليه السلام يبرّها ويسأل عنها وعن أقاربها وفاء لها.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الزهري عن عروة ابن الزبير عن زينب بنت أم سلمة أم المؤمنين عن أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: يا رسول الله انكح أختي عزة بنت أبي سفيان، فقال رسول الله ﷺ: «أوتحبين ذلك؟» قلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحبُّ من شاركني في خير أختي، فقال النبي ﷺ: «فإن ذلك لا يحل لي» قالت: فإنا نحدَّث أنك تريد أن تنكح درة بنت أبي سلمة، قال: «بنت

أم سلمة؟» قلت: نعم، قال: «إنها لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلَّت لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن عليَّ بناتكن ولا أخواتكن». زاد البخاري: قال عروة: وثويبة مولاة لأبي لهب أعتقها فأرضعت رسول الله ﷺ، فلما مات أبو لهب أُريه بعض أهله بشر حيبة[1] فقال له: ماذا لقيت؟ فقال أبو لهب: لم ألقَ بعدكم خيراً غير أني سُقيت في هذه بعتاقتي ثويبة، وأشار إلى النقرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع.

قال ابن كثير: قالوا: لأنه لما بشَّرته ثويبة بميلاد ابن أخيه محمد ابن عبدالله ﷺ أعتقها من ساعته فُجوزِيَ بذلك لذلك. وقال القسطلاني في المواهب: وأرضعته ﷺ ثويبة عتيقة أبي لهب أعتقها حين بشَّرته بولادته عليه السلام.

يوم ميلاد محمد ﷺ وبعض أحواله عند الميلاد

وقد صح من طرق كثيرة أن محمداً عليه السلام ولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة مضت من شهر ربيع الأول عام الفيل في زمن كسرى أنوشروان، ويقول أصحاب التوفيقات التاريخية إن ذلك يوافق اليوم المكمل للعشرين من شهر أغسطس سنة ٥٧٠ بعد ميلاد المسيح عليه السلام، ووراء ذلك خلاف عريض في زمن ميلاده يوماً وشهراً وعاماً لا طائل تحت استقصائه، ولكنه يشعر بصادق العناية في تقصِّي واستيفاء ما يتعلق بحياته ﷺ مما لم يتوافر في سيرة شخصية من شخصيات الأنبياء والرسل والقدِّيسين والقادة والمصلحين.

ومكان ولادته معروف بمكة مشهور، تقلبت عليه الأحداث فتغلب عليها حتى انتهى به الأمر إلى أن صار في عصرنا داراً للحديث، وقد كنت بمكة في سنة ١٣٧٠ الداخلة في سنة ١٣٧١هجرية، ورأيت أسس البناء عليه قائمة، وكانت التبرعات تجمع له من أجواد المسلمين، ولا شك أن هذا المكان كان جزءاً من دار جده عبد المطلب، انتقلت إليها آمنة وهي حامل به ﷺ، وقد عقَّ عنه جده عبد المطلب في يوم سابعه فرحاً بمولده. روى البيهقي عن

---

(١) الحيبة: الهم والحزن. قال في اللسان: وفي حديث عروة لما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر حيبة أي بشر حال

أبي الحكم والتنوخي قال: فلما كان اليوم السابع ذبح عنه جده عبد المطلب ودعا له قريشاً، فلما أكلوا قالوا: يا عبد المطلب أرأيت ابنك هذا الذي أكرمتنا على وجهه ما سميته؟ قال: سميته محمداً، قالوا: فما رغبت به عن أسماء أهل بيته؟ قال أردت أن يحمده الله في السماء وخلقه في الأرض.

وفي رواية أن أمه حَدَّثت أنه قيل لها في النوم سمِّيه محمداً فسمَّته به، فلما وضعته أرسلت إلى جده عبد المطلب وكان على فراشه في ظلّ الكعبة حوله ولده والملأ من قريش أنه قد ولد لك غلام فأته فانظر إليه، فأتاه هو ومن معه من ولده وقومه فنظر إليه، وحدثته آمنة برؤياها وما أمرت أن تسميه فسمَّاه بما قالت، وهذا الاسم لم يكن من الأسماء الذائعة المنتشرة بين العرب، ومن ثَمّ استغربه الملأ من قريش لما سألوا جده عن اسمه الذي سماه به فأخبرهم، ولكن التاريخ حفظ ذكر جماعة من العرب سُمُّوا بهذا الاسم تطلعاً إلى ما كان مستفيضاً على ألسنة أهل الكتاب والمتحنفين من ترقب ظهور نبي من بني إسماعيل يسمى بهذا الاسم. والله أعلم حيث يجعل رسالته.

تنفس محمد عليه الصلاة والسلام نسيم الحياة يتيماً فَقَدَ أباه قبل أن يشهد الوجود طلعته؛ فقد مات عبدالله بن عبد المطلب ورسول الله ﷺ جنين في بطن أمه، وقد ترك له خمساً من الإبل وقطعة من الغنم وجارية هي حاضنته أم أيمن بركة الحبشية، وقد أعتقها ﷺ وزوَّجها مولاه زيد بن حارثة فولدت له أسامة بن زيد، هذه هي الصورة الفطرية التي رسمتها كتب السيرة والتاريخ لميلاد محمد ﷺ في أشهر الروايات وأشبهها بالحق والواقع.

صورة العواطف المشبوبة بالحب تخضع للخيال

أما الصورة الأخرى التي رسمتها كتب السيرة ومصادر التاريخ لمحمد ﷺ في الحمل به وفي ميلاده فهي صورة مليئة بالأعاجيب والخوارق والمعجزات، وإن شئت قلتَ هي صورة كلها أعاجيب وخوارق ومعجزات، حتى ما كان من أمره ﷺ إنسانياً متمشياً مع الحياة الفطرية نجده في هذه الصورة المصنوعة قد انخرط في سلك الأعاجيب والخوارق المعجزة في منزع من التكلف في التأويل وضرب من التعسف في التخريج، فخفة الحمل به

على أمه إذا رويت في سيرته وجب أن تكون خارقة للعادة داخلة في باب الإرهاصات المعجزة، وثقلة الحمل به وشدته على أمه إذا رويت في سيرته وجب أن تكون خارجة عن مألوف الناس ومكرور عاداتهم، فهي إرهاص معجز لا يكون إلا لمن كتب في رقيم الأنبياء، وإذا اختلفت الروايات فجاء في بعضها خفة حمله على أمه وأنها لم تشعر بوجع ولا وحم وجاء في بعضها الآخر ثقل الحمل وشدته شدة تشكوها إلى صواحباتها، وجب أن يوفق بين هذه الروايات المتخالفة على أساس إثبات كل حالة، وعلى أن تكون كل حالة في وضع غير طبيعي لتكون إرهاصاً معجزاً، قال القسطلاني في المواهب بعد أن ساق حديث شداد بن أوس في مساءلة العامري لرسول الله ﷺ عن بدء شأنه:

ففيه أن أمه عليه السلام وجدت الثقل في حمله، وفي سائر الأحاديث أنها لم تجد ثقلاً، وجمع الحافظ أبو نعيم بينهما بأن الثقل به كان في ابتداء علوقها به والخفة عند استمرار الحمل به، فيكون على الحالين خارجاً عن المعتاد المعروف.

وللباحث ـ بداهة ـ أن يتساءل: ولماذا كل هذا التكلف؟ وما الحامل عليه؟ هل يضير سيرة محمد عليه الصلاة والسلام أن يكون في حمله إنساناً بشراً يخف حمله كما يخف حمل الولدان من الأناسي ويثقل ويشتد كما يثقل ويشتد حمل الأجنة من بني آدم؟ وهل يخدش النبوة أن يكون النبي في حمله جارياً على مقتضى طبيعة الأحياء؟.

الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة
تحقيق تاريخي وتحليل علمي

لله في كونه وملكه سنن عامة وسنن خاصة، لكل منها قوانينها وضوابطها

ليس من رأينا ولا في مذهبنا أن ننكر الإرهاصات المعجزة جموداً مع الجامدين المتعالين الذين يريدون أن يخضعوا جلال الألوهية وعظم سلطانها لسلطان عقولهم في حدود ما يعرفون من سنن الحياة، هذا غرور بليد لأن ما عرف من سنن الحياة تافه قليل إلى جانب ما لم يعرف. وحتى الذي عرف من سنن الحياة لا ينكر هذا الضرب من الخلق والتكوين الذي يراه من يقيسه إلى سنن الحياة العامة المألوفة المتكررة معجزاً خارقاً لقوانينها، وهو في نظامه وتكوينه وأسبابه خاضع لسنن خاصة تعرفها الحياة في أوقات ومناسبات خاصة، فهو في حقيقة أمره من سنن الله القائمة على أسباب ومناسبات مطّردة في بابها، وطرائقها.

رأينا في تقبل هذه الخوارق والآيات العجيبة

وإنما مذهبنا في تقبل هذه الإرهاصات أن نثبت بها الرواية ثبوتاً لا يحتمل الطعن والتجريح في سندها أو متنها على ما ذهبنا إليه في حادث الفيل اعتماداً على النص القرآني، فهل جاءت الرواية التاريخية في حادث الحمل بمحمد عليه الصلاة والسلام بهذا التفريق بين أول الحمل واستمراره بما يسوغ هذا التأويل، ولماذا لا يكون العكس صحيحاً فتكون خفة الحمل في أوله ويكون ثقله وشدته في استمراره؟ وهذا هو الموافق للفطرة التي فطر الناس عليها وبها يتم الجمع والتوافق بين الروايات والجمع بين الأحاديث إذا صحت بها الرواية كلها.

وهذه الأعاجيب والإرهاصات المعجزة لا تقف عند شخصية محمد

عليه الصلاة والسلام، فتجعله متكلماً في المهد ساجداً رافعاً إصبعيه إلى السماء كالمتضرع إلى غير ذلك. ولكنها تبدأ بأمه فتجعلها مكلّمة في يقظتها مرة وفي منامها مرة أخرى بكلام طويل ترويه كتب السيرة ومصادر التاريخ من النثر والشعر، وتنتبه من نومها فتجد عند رأسها صحيفة من ذهب مكتوب فيها أبيات من الشعر تعويذة لوليدها، ثم تتلقى اسمه تلقياً، وتتنزل عليها الملائكة ساعة ولادتها فتمسح بأجنحتها على فؤادها فيذهب ما بها من أوجاع وآلام، وتُسقى شربة بيضاء ليست من شراب الدنيا، وتتنزل عليها نسوة كالنخل طوالاً فترعب منهن فيعرفنها بأنفسهن ليذهب عنها الروع، وإذا هُنَّ آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وطائفة من الحور العين، حتى إذا وضعته تنزلت عليها الملائكة عيانا في صور وألوان وأحوال غاية في العجب، وأخذوه منها وغيبوه عنها وطافوا به مشارق الأرض ومغاربها على الإنس والجن والملائكة والطيور والوحوش ليعرفوه، إلى شيء كثير وكثير جداً لا يحيط به الحصر.

والعجيب في هذه الأعاجيب والإرهاصات أنها لا تقف عند حد ولكنها تتصل بكل شيء، فهي في الأرض وفي السماء، وفي البر وفي البحر، ومع الإنس ومع الملائكة ومع الجن، وفي أرض العرب، وفي بلاد العجم، فإيوان كسرى ارتجس ليلة ميلاد محمد عليه السلام وسقطت منه أربعة عشر شرفة، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوه، ورأى الموبذان رؤيا أفزعت كسرى فأوفد عبد المسيح إلى سطيح فسجع له وهدر وحذر وأنذر، وبشرت وحوش المشرق وحوش المغرب، ونطقت الأصنام، وهتفت الأنعام، وتكلمت الجمادات إلى ما لا يحصى كثرة.

ولو أن باحثاً حاول أن ينسب هذه الإرهاصات المروية في حمله وولادته ﷺ إلى ما روي من معجزاته الكونية بعد نبوته ـ وهو وقت الحاجة إليها إن كانت إليها حاجة ـ لوجد الفارق شاسعاً والبون بعيداً في العدد والنوع والأسلوب، فهنا ـ في الحمل والولادة ـ يجد كثرة غامرة وأنواعاً مختلفة الألوان، وأسلوباً عنيفاً، وهناك ـ بعد النبوة ـ يجد عدداً محصوراً من المعجزات في أنواع متقاربة تكاد تكون محصورة في أسلوب هادىء يرمي إلى

تثبيت الإيمان والإيقاظ للوجدان إلى رحمة الله وواسع قدرته في تشريف رسوله وتكريمه بألوان من سنن الحياة الخاصة بمن اصطفاهم الله لهداية الخلق.

على أن أكثر روايات الإرهاصات في الحمل والميلاد يقفِّيها رواتها بقولهم: لا أصل له أو شديد الضعف، أو مطعون فيه، أو متكلم فيه، ونحو ذلك مما يدل على أنه ما كان ينبغي أن تسوّد بمثله صحائف النور في السيرة العطرة لأكرم النبيين وسيد المرسلين.

وعلى ضوء ما أصَّلناه للبحث عند الحديث على حادث الفيل، وما عرضنا له هنا في الأعاجيب والخوارق المعجزة نرى:

دعائم رأينا في وقوع السنن الخاصة

أولاً ـ إن وقوع حوادث كونية تخفى على العقول أسبابها وعواملها المنشئة ـ وهو ما نسميه بالأعاجيب ويسمى في مشهور عرف العلماء بالإرهاصات إن وقع قبل النبوة وبالمعجزات والآيات إن وقع في زمان النبوة ـ أمر قامت على جوازه ووقوعه الدلائل من النصوص القطعية في الكتب السماوية والنقول التاريخية التي بلغت في جملتها مبلغ التواتر القاطع، ومن البراهين العقلية التي تقرر هذه السنن الخاصة وقيوميّة الخالق عزَّ شأنه وإطلاق قدرته من قيود القوانين والعادات المعلومة في حدود مدارك العقول الإنسانية إلى سنن كونية وقوانين للوجود فوق آفاق تلك العقول، تحدث على وفقها تلك الأحداث الكونية والأعاجيب الإعجازية إذا تطلبتها أسبابها وحانت مناسباتها، والله فعَّال لما يريد لا يسأل عما يفعل.

ثانياً ـ إن القرآن الكريم ـ وهو أثبت وأصدق نص تاريخي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ قصّ علينا في قصص الأنبياء بعض آياتهم المعجزة من الأحداث الكونية التي وقعت على أيديهم مما جرى مجرى التشريف والتكريم، ومما تحدَّوا به أقوامهم مما لا يمكن أن يدخل تحت سنة من سنن الحياة المعروفة للعقول والمعهودة في عادات الناس ومألوفهم، وقد سمَّى القرآن بعض تلك الآيات الكونية المتحدية براهين، فانقلاب عصى موسى حية تسعى، وإخراج يده بيضاء من غير سُوء، وانفلاق البحر له ولقومه، ونتق الجبل

فوقهم كالظلة، وإحياء عيسى للموتى، وإبراؤه للأكمه والأبرص، وإنباؤه قومه بما يأكلون وما يدَّخرون في بيوتهم، وخلقه من غير أب، وإيتاء أمه مريم عليها السلام رزقاً دون حركة آلية أو تسبب مما بعث كافلها زكريا عليه السلام على التعجب، ونقل عرش بلقيس من المسافة البعيدة في أسرع من لمح البصر، وما وقع لأصحاب الكهف، وعدم إحراق النار إبراهيم عليه السلام، وسائر آيات الأنبياء في قصصهم التي لا تحتمل تمحّلاً ولا تأويلاً، كل ذلك من الأعاجيب المعجزة والخوارق التي وقعت فعلاً وشهدها الوجود، واستفاضت بها روايات التاريخ بنقل الأجيال عن الأجيال منذ كانت النبوة لبني الإنسان إلى يوم الناس استفاضة تدفع بمنكريها إلى محابس الممرورين وذوي العته العقلي ونقص التكوين الإدراكي.

ثالثاً ـ إذا ثبت وقوع الأعاجيب المعجزة والحوادث الكونية الخارقة لمعروف العقول في سنن الحياة العامة فالنظر فيما يروى منها جملة في سيرة نبينا محمد ﷺ قبل نبوته أو في زمنها يجري على سنن تلك الآيات وقوانينها، ويبقىٰ على الباحث النظر في إثبات أفراد تلك الحوادث والجزئيات التي سجلتها السيرة النبوية، فما ثبت منها بطريق صحيح السند صادق الرواية وجب قبوله والإذعان بوقوعه، لأن ردّه أو التشكّك فيه بعد ثبوته بهذه الطريقة التي لا طريق للإثبات التاريخي فوقها رد لبرهان العقل القاطع ورد لنص القرآن في إثبات الآيات المعجزة، ولا فرق بين آية وآية، ورد البرهان العقلي والنص القرآني إلحاد في دين الله أو جهل بسنن الحياة أو تشكيك في قدرة الله.

وما لم يثبت منها هذا الثبوت فنحن في حِلٍّ من إنكار وقوعه أو التوقف في الحكم عليه إثباتاً أو نفياً، والتوقف أسلم وأحكم ـ كما يقول علماؤنا ـ لأنه محتمل الثبوت، وقد قامت الدلائل في العلم التجريبي وفي وسائل البحث التاريخي على أن كثيراً مما كان ينكر من الحقائق العلمية والحوادث التاريخية أصبح ثابتاً مقرراً في بداهه العقول، وكثيراً ما كان يُزعم حقائق علمية ومقررات تاريخية صار في مهب الأساطير والخرافات، فالتسرع في الإنكار خطل في الرأي، والتسرع في التصديق قبل الإثبات غميزة في العقل.

قانون البحث في كل ما يتعلق بالآيات والأعاجيب

وعلى هذا الهدى جرينا ونجري في البحث بتوفيق الله تعالى، فنعرض لما يروى في السيرة العطرة من هذه الأعاجيب الكونية المعجزة نحاكمه إلى صحة السند وصدق الرواية، فإذا ثبت لهذه المحاكمة وفاز فيها بعنوان الوجود الواقعي سجلناه مؤمنين مذعنين، وإذا لم يثبت وطاحت به الرواية أو خانه السند الصحيح طرحناه حيث ينتهي غير آسفين.

وأعلى ذلك عندنا وأرفعه في منازل القبول والصدق القاطع ما يذكره القرآن في صراحة ظاهرة، أو يشير إليه إشارة لَمّاحة، وبين المرتبتين من الفرق ما بين الأسلوبين في التعبير، فلا يجوز التلبث في قبول المرتبة الأولى والإيمان بها، ولا يقبل أن يمشي التأويل إلى ساحتها، تشبثاً من المتأولين بمعروف العقول وقضايا العلم وقوانين المنطق ومألوف سنن الحياة؛ لأن معروف العقول وقضايا العلم وقوانين المنطق ومألوف سنن الحياة مخلوقة لله تعالى فهي محكومة بواسع قدرته ومطلق سلطانه في تعريف خلقه، فلا يسوغ في معروف العقول السليمة وقضايا العلم الصحيح وقوانين المنطق المستقيم أن تجعل حاكمة على خالقها، وإلا كانت الألوهية ضرباً من الوثنية التي يصطنعها الناس بعقولهم وعواطفهم وأخيلتهم.

والمسألة هنا ليست مسألة عقل يحكم أو منطق يقيس ويبرم ثم ينتهي كل شيء، وإنما هي مسألة عقل يبحث في أصل الإيجاد والإبداع، فإذا استقام له أن يقيم هذا الأصل على دعائم ثابتة جاءت الحوادث الجزئية بطبيعتها خاضعة لناموس الإيجاد والإبداع العام فقط دون أي ناموس آخر يحكمها في وجودها الجزئي.

أسلوب الإيجاد الإلهي غيب لا يعلمه مخلوق إلا عن طريق التمثيل والرمز.

وإذا صحَّ للعقل أن الإيجاد والإبداع صفة دائمة تقتضيها الألوهية وتجعلها سارية في ذرات الكون وجزئيات الوجود، ثم طلبنا إلى هذا العقل أن يحدد لنا أسلوب الألوهية في الإيجاد وطريقتها في التكوين والإبداع لم يَجِر جواباً لأنه أعجز من أن يصل إلى هذه الحقيقة وهي أبداً أمامه في كل لحظة من لحظات الحياة، وإلى ذلك يشير القرآن الحكيم في طرف من قصة إبراهيم عليه السلام حيث يقول: ﴿ وإذ قال إبراهيم رَبِّ أرني كيف تُحيي الموتى،

قال أوَلَـمْ تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي، قال فخذ أربعة من الطير فصُرْهُنّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم ادعهن يأتينك سعياً، واعْلَم ان الله عزيز حكيم ﴾[1] فإبراهيم عليه السلام مؤمن أرسخ الإيمان، موقن أشد الإيقان بأن إيجاد الحياة في الموتى إعادة أو بدءاً؛ صفة الإلهية الخالقة القادرة، ولكنه أراد إلى يقين آخر في معلوم جديد وهو أن يريه الله حالة الإيجاد والإبداع وأسلوبه وطريقته، ولذلك قيل له تطميناً لقلبه على طريق الاستفهام التقريري: أنت مؤمن بما هو كمال خلّتك ومنتهى مجال إنسانيتك في الاعتراف بقدرة الخالق على الإيجاد والإبداع، وهذا هو غاية مجال العقل الذي يجب أن يقف عنده، ثم أجيب إلى ما طلب بطريق الرمز التمثيلي إشارة إلى أن هذه مرتبة روحانية محضة فوق متعارف العقول.

سر جواب إبراهيم في قوله تعالى: ﴿ فصرهن إليك ﴾

ولنا في هذه الآية فهم قائم على أساس ما قاله بعض الأئمة في تفسير (فصُرْهُنّ إليك) بمعنى ميلهن إليك بعقد أواصر المحبة الجاذبة من غير اختيار، فإذا تم هذا ففرقهن عنك في أماكن متباعدة وكن منهن بحيث يرينك ويسمعن نداءك، ثم ادعهن وافهم كيف يأتينك ساعيات إليك، ولله المثل الأعلى وهو عزيز لا يغلب، حكيم تصدر شؤونه على مقتضى حكمته في تدبير خلقه، وفي طي هذا الفهم أسرار لا يبـاح نشرها إلا لأهل العلم الموقنين.

أما قول جمهور المفسرين إن معنى (فصرهن اليك) فقطعهن، فـإنه إلى كونه يجعل المتعلق ـ وهو محط الإفادة ـ بمضيعة في البين، هو بمعزل عن المقصود من سوق السؤال والإجابة.

ما أشار إليه القرآن عن الآيات المعجزة أقرب إلى القبول

أما المرتبة الثانية، وهي الأعاجيب التي يشير إليها القرآن ولا يذكرها صراحة فإن تأيدت بروايات صحيحة السند من السنة النبوية كان حظها في الإيمان بها وقبولها مثل حظ سابقتها، لكن لا على أنها هي التفسير للنص القرآني قطعاً كما في المرتبة السابقة، بل على أنها وجه لتخريج النص وفهمه مع قيام صحة غيره من الوجوه المحتملة إذا استقام لها الدليل، وإن لم تجد لها

(١) سورة البقرة، آية: ٢٦٠.

عضداً قوياً من الرواية الصحيحة قبلنا ما يذكر فيها من تأويل قويم على أنه معنى راجح في الدلالة على استنباط ما تشير إليه من حادث كوني معجز دون أن ينفي صحة أن يكون هذا الحادث الكوني المشار اليه معنى من معاني النص المحتملة.

ودون ذلك مراتب أعلاها ما يروى في المصادر المعتبرة عند ذوي العلم بسند صحيح وطرق متعددة، وأدناها ما ينفرد بروايته مصدر ضعيف أو راوٍ لا يتحرز.

أما الآثار والأحاديث الموضوعات والأباطيل التي ينص الأئمة على وضعها واختلاقها فلا تصلح أن تكون في مراتب الاعتداد والحسبان.

والأمثلة على ما ذكرناه من المراتب كثيرة في السِّيرة النبوية، ولا تعوز الباحث، فهو يجدها أنَّى طلبها، وحادث الفيل أوضح مثال على ما ذكره القرآن الحكيم من الأعاجيب المعجزة في صراحة ظاهرة، ومن هنا بسطنا القول فيه بسطاً يجلِّي ما فيه من إعجاز يرد ما زعم فيه من تأويل يخرجه عن حقيقته المعجزة التي سيقت في القرآن للامتنان بها على محمد رسول الله ﷺ تشريفاً له وتكريماً، وتنويهاً بذكر قومه وبلده.

ويشارك حادث الفيل في هذه المرتبة قصة انشقاق القمر، فقد ذكرها القرآن في صراحة ظاهرة، وتضافرت على روايتها المصادر العالية في روايات ارتفعت على الصحة حتى كادت تكون متواترة، وسنعرض لها عند فرصتها من البحث.

وقصة شق صدره ﷺ وهو فطيم عند ظئره في بني سعد كما في بعض الروايات وهو المعوّل عليه المنصور عند الجمهور الأئمة، أو ليلة الإسراء به كما في بعض الروايات الأخرى، مثال للمرتبة الثانية من الأعاجيب الكونية التي أشار إليها القرآن إشارة لمّاحة وتأيدت بروايات صحيحة الأسانيد، فقد ذكر كثير من المفسرين أن قول الله تعالى: ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ إشارة إلى هذه القصة المعجزة، وقد تأيد ذلك برواية لمسلم في صحيحه ذكر فيها قصة شق الصدر زمن الطفولية، وبرواية له وللبخاري في صحيحيهما ذكرا فيها

قصة شق الصدر ليلة الإسراء، وأورد الترمذي قصة شق الصدر في تفسير ألم نشرح، وسنعرض بشيء من البسط لهذه القصة أيضاً عند مناسبتها، ويدخل في هذا تظليل الغمامة وقصتها مروية في جامع الترمذي وغيره من كتب الحديث ودواوين السنة.

ومن قبيل المرتبة الثانية أنباء أهل الكتاب والآخذين عنهم من مُتَحنِّفة العرب ومتدينيهم بزمن مولده وبعثه والتنويه بذكره، لأن القرآن ذكر أنهم يجدون محمداً ﷺ بنعته واسمه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، وقد جاءت الروايات الصحيحة عن أخبارهم بما علموا قبل أن يظهر شأنه ويدخلهم الحسد فيدفعهم إلى كتمان أمره ﷺ.

وقصص تكثير القليل من الطعام أو الماء حتى يكفي الجم الغفير من الناس طعاماً مشبعاً وشراباً روياً وطهوراً نقياً، وقصة تكلم البقرة التي حمل عليها صاحبها متاعه وركبها فقالت: (إني لم أخلق لهذا) أمثلة لأعلى مراتب ما لم يذكر في القرآن تصريحاً أو إشارة، ولكنه روي في المصادر المعتبرة بأسانيد صحيحة، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما هذه القصص بروايات متعددة وطرق كثيرة، ورواها غيرهما من أصحاب السنن والصحاح.

حول حديث رد الشمس بعد غروبها على علي رضي الله عنه

وقصة رد الشمس يوم قريظة حتى تُصَلَّى العصر في وقتها تذكر في مصادر لا يتفق عليها مهرة النقّاد والمحدثين، فهي مثال لأدنى ما لم يذكره القرآن أو يشير اليه. فقد خرجها الطحاوي في مشكل الحديث عن أسماء بنت عميس ووثق رواتها، وضعّف ابن الجوزي حديثها بل كذبه وحكم بوضعه فقال: وغلو الرافضة في حب علي عليه السلام حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة في فضله، منها أن غابت الشمس ففاتت علياً عليه السلام صلاة العصر فردت له الشمس، وهذا من حيث النقل محال ومن حيث المعنى فإن الوقت قد فات وعودها طلوع متجدد ولا يرد الوقت، ونضيف إلى ذلك أن الشمس لم ترد للنبي ﷺ ومعه جمهور أصحابه في إحدى سفراته، وقد نزلوا وادياً، فقال النبي ﷺ لبلال: (اكلألنا الفجر)، فناموا ونام بلال فلم يوقظه إلا حر الشمس، فرحلوا عن الوادي ثم صلّوا الصبح.

أما الموضوعات والأباطيل فأمثلتها أكثر من أن يعد منها، وفي قصص الميلاد نبع فياض لها.

سنن الله بمعناها الأعم لا تتبدل

وقد تمحك بعض الباحثين ـ في سبيل إنكار الأعاجيب والمعجزات الحسية ـ بالسنن الكونية وأخبار القرآن أن سنة الله لن تجد لها تبديلاً، وهذا إيهام مضلِّل، لأن سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً هي السنة الكونية بمعناها الأعم الأشمل التي تشمل السنن العامة مما يدخل في معروف العقل ومألوف العادة، والسنن الخاصة التي ترتفع فوق مستوى معروف العقول وتختص الألوهية بالإحاطة بأسبابها وأسلوب إيجادها، فالأعاجيب الكونية والمعجزات الخارقة لمألوف العادة عند مناسباتها من سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً.

وأدخل من هذا في الإيهام المضلِّل قول منكري المعجزات الكونية: إن حياة محمد ﷺ كانت كلها حياة إنسانية سامية، وإنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق.

عظمة محمد ﷺ المميزة له على سائر البشر من عظمة رسالته.

وهذا غلط أو مغالطة، أو هو من قول الحق الذي أريد به الباطل، لأن إنسانية حياة محمد ﷺ وسُمُوّها كلام لا يُتحدث به عن محمد رسول الله ﷺ وإنما يتحدث به عن محمد الإنسان العبقري العظيم المصلح، وما شاكل كل ذلك من كلمات وعنوانات براقة يقصد بها إلى صرف الأنظار عن خصيصة النبوة والرسالة التي ارتفع بها محمد ﷺ فوق سمو الإنسانية وكمالها، وهذه الخصيصة هي مناط عظمة النبي والرسول وليس مناط عظمته إنسانيته السامية، لأن هذا قدر يمكن دعوى الاشتراك فيه، لأنه مكسوب محصل، وقد أبان الله تعالى في القرآن الحكيم عن فيصل التفرقة بين الكمال البشري والكمال النبوي بما أفاد أن الكمال النبوي مرتبط بالوحي والرسالة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إنما أنا بشرٌ مثلكُم يوحى إليّ ﴾. أما النبوة والرسالة فهي هبة الخالق عز شأنه وإن كانت لا توهب إلا لمن كمل له السمو الإنساني، فهي معنى زائد فوق السمو الإنساني به يفضل الأنبياء والمرسلون سائر الإنسانيين الكملة، ولأمر ما وصف ابن الدغنة سيد القارة أبا بكر الصديق رضي الله عنه ـ كما رواه البخاري ـ بما هو عين ما وصفته خديجة أم

المؤمنين رضي الله عنها محمداً ﷺ، وهي نعوت وخلال كانت له ﷺ قبل نبوته ورسالته، أي أنها أوصاف إنسانية سامية تدلّ على الكمال في الإنسانية وأن صاحبها بمعزل عن الانتكاس فيما يخدش الكمال الإنساني.

كمال الإنسانية صفة بشرية قد يشترك فيها كثيرون من العباقرة والمصلحين

فالإنسانية السامية لا تجعل صاحبها نبياً ولا رسولاً، ولا تدلّ وحدها على أن صاحبها نبي أو رسول، ولكنها قد تجعله عبقرياً أو مصلحاً أو عظيماً أو بطلاً، أو ما شئت من هذه النعوت التي هي أعلا ما تصل إليه الإنسانية من خصائص السمو المكسوب والكمال المفطور، ألا ترى أن محمداً ﷺ في سمو إنسانيته قد اختاره الله لمرتبة من الكمال الروحي فوق هذا السمو الإنساني هي مرتبة النبوة والرسالة، وبقي الصدِّيق في سموه الإنساني إنساناً صدِّيقاً أي إنساناً كاملاً، لك أن تقول إنه عبقري أو مصلح أو عظيم وأنت مطمئن إلى أنك لم تنقص كماله الإنساني ولم تخدش إنسانيته السامية، ولكنك إذا قلت عن محمد نبي الله ورسوله إنه عبقري أو مصلح أو عظيم أو بطل وأنت تريد أن تضعه موضعه من الكمال الوجودي كنت مجحفاً بالحقيقة العليا في هذا الكمال، وهي حقيقة النبوة والرسالة التي يمتاز بها النبي والرسول عن سائر الكَمَلة من بني الإنسان.

ومعاذ الله أن نقول إن إنسانية أبي بكر الصدِّيق أو إنسانية إنسان ما في الوجود يمكن أن تكون في ميزان واحد مع إنسانية النبي والرسول بله إنسانية خاتم النبيين محمد ﷺ، ولكنا أردنا إلى أن نقول: إن الصفات التي تواضع عليها الناس وجعلوها صفات الإنسانية السامية قد تكون هي صفات العبقريين والقادة والمصلحين والأبطال والعظماء من البشر، وليست هي خصيصة إنسانية الأنبياء والرسل التي هي سرّ الاختيار ومناط الاصطفاء في قول الله تعالى: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ فمحمد ﷺ قبل نبوته إنسان كامل كانت حياته كلها إنسانية سامية، فهو عبقري ومصلح عظيم إلى ما شاكل ذلك من نعوت الكمال الإنساني الذي يفطر عليه أو يكسبه الإنسان بوصف إنسانيته، ولا ريب أن هذه النعوت ليست وقفاً على إنسان دون إنسان ممن أعدَّتهم الفطر لها وإن كانت الأفراد تتفاوت في مقادير التكمل فيها، فالذين أعدهم الله من كملة الإنسانية لتلقِّي فيض النبوة أكمل

وأسمى إنسانية ممن سواهم مع التفاوت فيما بينهم ﴿ تلك الرسل فضَّلْنا بعضَهم على بعض ﴾.

ومحمد ﷺ بعد نبوته نبي اصطفاه الله لرسالته ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهذا معنى فوق السمو الإنساني، له مقومات خاصة يعجز عن اللحاق بها جميع العباقرة والقادة والمصلحين من غير الأنبياء والمرسلين، فلا مدخل لسمو إنسانية محمد ﷺ في نبوته ورسالته إلا بقدر أن هذا الكمال الوهبي لا يجيء إلا فوق كمال فطري يزداد بالكسب والتحصيل واستقامة السلوك قبل مجيء النبوة والرسالة.

أما بعد مجيئها فالأمر أمرها ولا مدخل للإنسانية السامية إلا على أنها قالب يصب فيه التدبير الإلٓهي الأعلى.

وأما قول منكري المعجزات الحسية: إن محمداً ﷺ لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق، فهو إمعان في الإيهام المضلِّل لأن الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة ليست مسألة كسبية يلجأ إليها الأنبياء ويحصِّلونها متى أرادوا وكيفما أرادوا، وإنما هي آيات الله يجريها على يد من يشاء من عباده الذين اصطفاهم لرسالته متى شاء وكيفما شاء.

وقد جعل الله بعضها برهاناً على صدق من أجراها على يده وأُذِن في التحدي بها كما يبيِّنه قول الله تعالى بعد أن ذكر آية موسى عليه السلام: ﴿ فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه ﴾، وبعضها للتشريف والتكريم وتقرير الإيمان في نفوس بعض من تمر بهم لحظات من القلق النفسي لتطمئن قلوبهم وتسكن وجداناتهم كما في كثير من الآيات الكونية التي أوتيها نبينا محمد ﷺ، ولم يجعلها براهين على صدقه ولم يتحدّ بها اكتفاءً بالآية العظمى: القرآن العظيم، فمن ذلك ما رواه الترمذي عن سمرة ابن جندب قال: كنا مع رسول الله ﷺ نتداول في قصعة عن غدوة حتى الليل يقوم عشرة ويقعد عشرة، قلنا: فما كانت تُمَدُّ؟ قال: من أي شيء تعجب؟ ما كانت تمد إلا من ها هنا، وأشار بيده إلى السماء. وما رواه عن علي بن أبي طالب قال: كنت مع النبي ﷺ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله

ما ظهر من الآيات الحسية على يد النبي ﷺ كان تشريفاً وتكريماً له ﷺ ولم يكن للتحدي به

جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليكم يا رسول الله، وكحديث حنين الجذع الذي كان يخطب إليه النبي ﷺ، روى البخاري والترمذي ـ واللفظ له ـ عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ خطب إلى لزق جذع، واتخذوا له منبراً فخطب عليه فحنّ الجذع حنين الناقة، فنزل النبي ﷺ فمسَّه فسكن. ومنه ما رواه الإمام البخاري من طريق مالك بن أنس عن إسحاق بن عبدالله ابن أبي طلحة عن أنس بن مالك قال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأُتي رسول الله ﷺ بوضوء فوضع رسول الله ﷺ يده في ذلك الإناء وأمر الناس أن يتوضؤوا منه، قال أنس: فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم.

وقريب من هذا ـ وهو واضح في حكمة التأليف والترغيب ـ ما رواه البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين قال: كنا في سفر مع النبي ﷺ وذكر أنهم ناموا عن صلاة الصبح حتى علت الشمس، فارتحلوا ثم نزلوا فصلّوا مع النبي ﷺ إلا أحدهم اعتزل فلم يصلِّ فسأله النبي ﷺ: «ما منعك يا فلان أن تصلي مع القوم؟» قال: أصابتني جنابة، ولا ماء، فقال «عليك بالصعيد فإنه يكفيك» ثم سار النبي ﷺ فشكى إليه الناس من العطش، فنزل فدعا علياً وآخر معه وقال لهما: «اذهبا فابتغيا الماء» فانطلقا فتلقيا امرأة بين مزادتين أو سطيحتين من ماء على بعير لها، فقال لها: أين الماء، قالت: عهدي بالماء أمس هذه الساعة ونفرنا خلوفاً، قالا لها: انطلقي إذاً، قالت: إلى أين؟ قالا: إلى رسول الله ﷺ، قالت: الذي يقال له الصابىء، قالا: هو الذي تعنين، فانطلقت، فجاءا بها إلى النبي ﷺ وحدثاه الحديث، فاستنزلوها عن بعيرها، ودعا النبي ﷺ بإناء ففرغ فيه من أفواه المزادتين أو السطيحتين وأوكأ أفواههما وأطلق العزالي، ونودي في الناس: اسقوا واستقوا، فسقى من شاء واستقى من شاء، وكان آخر ذاك أن أعطى الذي أصابته الجنابة إناء من ماء وقال: اذهب فأفرغه عليك، وهي قائمة تنظر إلى ما يفعل بمائها، وايم الله لقد أقلع عنها وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملأة منها حين ابتدأ فيها، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا لها» فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعاماً، فجعلوها في ثوب وحملوها على بعيرها ووضعوا الثوب بين يديها، قال

لها: «تعلمين ما رزأنا من مائك شيئاً، ولكن الله هو الذي أسقانا» فأتت أهلها وقد احتبست عنهم، قالوا: ما حبسك يا فلانة؟ قالت: العجب، لقيني رجلان فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابىء ففعل كذا وكذا، فوالله إنه لأسحر الناس من بين هذه وهذه - تعني السماء والأرض - أو إنّهُ لرسول الله حقاً، فكان المسلمون بعد ذلك يغيرون على من حولها من المشركين ولا يصيبون الصِّرْم الذي هي منه، فقالت يوماً لقومها: ما أرى أن هؤلاء القوم يدعونكم عمداً، فهل لكم في الإسلام، فأطاعوها فدخلوا في الإسلام.

ففي هذه الآية العظيمة والأعجوبة المعجزة ما أدّى إلى إدخال قوم بجملتهم إلى الإسلام دون أن يحتاجوا إلى شيء مما يصنع مع غيرهم في قبول الدعوة والتصديق بها.

كان في القرآن غناء عن التحدي بغيره من الآيات الحسية التي قد تجذب إلى الإيمان من لم تبلغ عقولهم رشدها

والحق أن نبينا محمداً ﷺ كان في غنية بالقرآن الكريم - وهو معجزته الخالدة الغامرة القاهرة - عن التحدي بهذه الآيات الباهرات والأعاجيب المعجزات مع ثبوتها في جملتها ثبوتاً لا يشك فيه أهل الإيمان، لأنه لم يثبت بطريق قاطع أنه تحدى بحادث من هذه الحوادث العظيمة، فهي آيات تشريف له ﷺ وتنويه بذكره، وآيات تكريم لذوي الصدق من أمته، وآيات تثبيت لبعض المؤمنين، وآيات ترغيب وتأليف لبعض من في قلوبهم استعداد لقبول الهداية، ولكن عقولهم قد تقصر عن التعمق في فهم دلائل العقل ومرائي القرآن، فتجذبهم بعض هذه الآيات والأعاجيب إلى حظيرة الإيمان حتى تضيء عقولهم وأفئدتهم إلى ظل من الهداية ظليل. روى الترمذي عن ابن عباس قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: بما أعرف أنك نبي؟ قال: «إن دعوت هذا العِذْق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله؟» فدعاه رسول الله ﷺ فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي ﷺ، ثم قال: ارجع، فعاد، فأسلم الأعرابي. فهذا الأعرابي جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب الإيمان والهداية، وهو على أعرابيته لا بد وأن يكون النبي ﷺ قد أدرك بما منحه الله من معرفة صادقة لخصائص النفوس البشرية أن هذا الرجل ليست لديه خصيصة التوجه إلى السمو المعنوي الذي امتاز به

القرآن فكان مناط إعجازه، وإنما هو من ذوي الإحساس المادي والعقل المقيد بأغلال الحواس، فاقتضت الحكمة أن يجري معه على مقدار استعداده، فأجابه إلى ما طلب وأراه هذه الآية التي تجذبه برسن حواسه إلى التصديق، فصدَّق وأسلم، وليس ذلك من التحدي بالمعجزة، ولكنه ترغيب وتأليف ورفع للأشواك من طريق السالكين المتوكئين على عصا الحس والمشاهدة، وهذا الأعرابي مثل لكثير من طوائف الناس وجماعاتهم في كل عصر وجيل.

إخبار أهل الكتاب ومُتحنّفة العرب
بمولد محمّد صلّى الله عليه وسلّم وبعثته

من الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة - التي تستند إلى روايات تاريخية صحيحة ترويها المصادر العالية من كتب الحديث والسنة ودواوين التاريخ، ويؤيدها القرآن الكريم بالإشارة إلى منابعها التي تستقى منها - بشائر أهل الكتاب من اليهود والنصارى وإنباءاتهم بزمن مولده ﷺ ومبعثه، وبحثهم عن بلده وأسرته، وتعرُّف أخباره وأحواله والكشف عن أوصافه ونعوته اعتماداً على ما ذكرته كتبهم المقدسة وتناقله أخلافهم عن أسلافهم من التنويه بذكره والتصريح باسمه ودلائل وجوده وتعيين بعض خصائصه، مما لايقدم على إنكاره إلا ممار مكابر أو معاند جاحد.

وقد كان لذلك من المد والجزر في تيار الرسالة المحمدية ما سجله القرآن الحكيم في كثير من آياته البينات ففيهم نزل قوله تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾[1] فهم قبل أن يستبين لهم حظهم من رسالته كانوا يظهرون ما عندهم من دلائل وأمارات يعرفون بها أمر محمد ﷺ معرفة لا يداخلها شك، ولما طغت عليهم نزغات البغي والحسد دفعتهم إلى كل خبيثة من خبائث الفجور والغدر، وكتمان ما علموا من الحق، وتحريف ما وجدوا من الآيات إلا من عصم الله من خيرتهم الذين استجابوا لله وللرسول.

وكان جهل العرب وشظف عيشهم مما مكن لليهود في حياتهم، فهم

(١) سورة البقرة، آية: ١٤٦.

جهل العرب وشدة فقرهم مكنا اليهود من السيطرة الاقتصادية والعقلية عليهم

منذ نزلوا في جزيرة العرب وحلّوا بين أهلها مهاجرين استطاعوا أن يقبضوا على زمام الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية في يثرب البلد الذي توطنوه مع أهله من الأوس والخزرج، والذي صار فيما بعد مهاجر رسول الله ﷺ ومركز الدعوة الإسلامية وعاصمة الخلافة الراشدة.

كانت مكة محطاً تجارياً للقوافل الغادية والرائحة من الجنوب إلى الشمال، ومن الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق، وبهذا كانت أعظم أسواق العرب ومتاجرهم، يؤمها أكابر التجار الذين كانت لهم صلات تجارية ببلاد الشام في شمال الجزيرة وببلاد اليمن في جنوبها، وقد كان هذان القطران معترك الاستعمار الأجنبي من الفرس والرومان، يتغالبون عليه، فغلب الرومان على الشام وأدخلوا إليه المسيحية التي كانت نيران الحروب مستعرة فيما بينها وبين أشتات اليهودية القابعة في أرض الميعاد، فانتهز أمراء الرومان الحاقدين على اليهود لفسادهم في الأرض فرصة المسيحية ـ الدين الجديد الذين اعتنقوه ـ ليتخذوا منه سيفاً يقضون به على أعدائهم الأقدمين من هؤلاء اليهود المتعصبين المفسدين، وأغرَوا بهم الشعب باسم الدين الجديد وهم من ورائه يمدونه بوسائل الاضطهاد والتعذيب والتقتيل حتى شعر اليهود أنهم في طريقهم إلى الفناء المحقق، فلم يجدوا بداً من الهجرة إلى مأوى بعيد يأوون إليه إبقاء على ما بقي لهم من أثر، فهاجروا إلى أبناء عمومتهم العرب، وكانت يثرب أقرب بلد وأنسبه في الجزيرة لهجرتهم لما فيها من حياة الاستقرار ووسائلها الزراعية والصناعية، واستقرَّ بهم المقام بعيداً عن مبعث الحماسة الدينية في مكة التي قد تحرك عليهم شراً أشد مما فروا منه، فحطُّوا بيثرب رحالهم وسرعان ما أصبحوا سادة الحياة الاقتصادية في هذا البلد العربي وأصبح أهله أجراء عندهم وعمَّالاً لهم يعملون بأجور تسد منهم رمق الحياة.

حياة اليهود التجارية وصلتهم بمكة وتعاليهم بدينهم

وكان من الطبيعي أن تهاجر عصبية اليهود الدينية معهم إلى يثرب لأنها جزء من حياتهم، وكان من الطبيعي أن يرحلوا بتجارتهم إلى مكة أعظم أسواق العرب، ويتخذوا منها متسوقاً لتجارتهم ويقيم بها بعضهم للمضاربة والمرابحة، وكان من الطبيعي ألاّ يتخلَّوا عن شعائر دينهم وأن يقيموها بين

هؤلاء الوثنيين من العرب، وأن يتحدثوا إليهم حديثاً يهمز وثينهم في يسـر ، لا يهيجهم ولا يثيرهم ولكنه يتعالى عليهم في بعض الأمر بالتوحيد والنبوة المتوارثة في بني إسرائيل، وكان من الطبيعي أن ينقل عنهم هذا الحديث وأن يتسمع إليه كثير من الناس بين منكر ومتعجب ومفكر ومتأمل، وكان من الطبيعي أن تكون قريش في مكة هي أشد المتصلين باليهود الوافدين عليها للتجارة لمكانها التجاري والديني، وهما الأمران اللذان يعنيان اليهود حيثما حلُّوا، وإن كانوا أعنى بالناحية التجارية لجانبها المادي الذي يأخذ على اليهود مسالك الحياة فينظرون إليها أبداً من زاويته، ولا يتحرزون أن يجعلوا الدين وسيلة من وسائله إذا رأوا ميزان الحياة المادية يطلب إليهم ذلك.

ضعف اليهود كان يضطرهم للاحتماء بزعماء مكة

ومن المعروف أن رؤوس تجار قريش كانوا من بني عبد مناف ثم من بني هاشم، وكان عبد المطلب جد رسول الله ﷺ سيد بني هاشم، فكان تجار اليهود في مكة يجاورونه ويحتمون بجاهه. قال ابن الأثير: وكان لعبد المطلب جار يهودي يقال له «أذينة» يتجر وله مال كثير، فغاظ ذلك حرب بن أمية ـ وكان نديم عبد المطلب ـ فأغرى به فتياناً من قريش ليقتلوه ويأخذوا ماله، فقتله عامر بن عبد مناف بن عبد الدار وصخر بن عمرو بن كعب التيمي، فلم يعرف عبد المطلب قاتله، فلم يزل يبحث حتى عرفهما وإذا هما قد استجارا بحرب بن أمية، فأتى حرباً ولامه وطلبهما منه فأخفاهما، فتغالظا في القـول حتى تنافـرا إلى النجاشي ثم إلى نفيـل بن عبد العـزى، فنفر عبد المطلب على حرب، فترك عبد المطلب منادمة حرب وأخذ منه مائة ناقة فدفعها إلى ابن عم اليهودي وارتجع ماله إلّا شيئاً هلك فغرمه من ماله.

حرص قريش على وثنيتها حال بينها وبين الإصغاء إلى دين اليهود

وقد أخذت قريش عن عملائها من تجار اليهود بعض ذرائعهم في التكسب والتجارة، فشاعت فيهم المعاملات الربوية والمضاربات الفاحشة، ولكنهم تحامَوا أن يسمعـوا لهم في أمر الـدين لأنهم في وثنيتهم البليدة لا تتحرك عواطفهم إلى أمر الدين إلا من طريق عقائدهم التي تضمن لهم السيادة والشرف في حرمهم، روى ابن كثير أن أمية بن أبي الصلت قال في بعض أسفاره لأبي سفيان بـن حرب: هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء

النصارى إليه يتناهى علم الكتاب نسأله؟ قال أبو سفيان: قلت: لا أرى لي فيه، والله لئن حدثني بما أحب لا أثق به ولئن حدثني بما أكره لأجدنَّ منه، فذهب أمية وخالفه شيخ من النصارى فدخل عليّ، فقال: ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ؟ قلت: لست على دينه، قال: وإن، فإنك تسمع منه عجباً وتراه، ثم قال لي: أثقفي أنت؟ قلت: لا، ولكن قرشي، قال: فما يمنعك من الشيخ فوالله إنه ليحبكم ويوصي بكم.

الاستشراف إلى ظهور نبي أظل زمانه

لكن نفراً قليلاً من متحنفة العرب أضراب ورقة بن نوفل، وزيد ابن عمرو، وأمية بن أبي الصلت، وقس بن ساعدة، وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش، والجارود بن المعلّى، كانوا بفطرتهم وبما يلقفوه من أفواه أهل الكتاب يتطلعون إلى السماء وينكرون بعقولهم وبما معهم من العلم ما عليه قومهم من سخافات وثنية، فكان قُسٌّ يقف بالأسواق والمجامع فيقول: أيها الناس، إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم هذا الذي أنتم عليه، وكان زيد يقول لقريش: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض الكلأ؛ ثم تذبحونها على غير اسم الله. وكانوا إذا سمعوا حديث النبوة والوحي والتوحيد اشرأبّت أنفسهم لتروي ظمأها الروحي في أرض قاحلة من الري العقلي مجدبة من الغذاء السماوي، ولكن اليهود قوم متزمتون أشد التزمُّت في ديانتهم متعصبون أشد التعصب ليهوديتهم لا يعنيهم إلا أن تبقى لهم، فيبقى لهم سلطانها وتراثها، فهم المنفردون في حياة أهل الديانات الذين لم يسعوا لنشر ديانتهم والدعوة إليها ولو واتتهم ألف فرصة وفرصة، فلم يعبأوا لهذا النفر المتعطش إلى التوحيد ليدخلوه في حظيرة ديانتهم، فبقي على فطرته منهم فريق يتطلع ويترقب ويسمع، وساح في الأرض منهم فريق فلقيته النصرانية الداعية لنفسها فعرف منها وأنكر، وهجم فريق فادّرعها وتوقف فريق حتى وافاه الأجل، وكما غلبت المسيحية على يد الرومان اليهود بالشام فدفعتهم إلى الهجرة والاستقرار ببلاد العرب، غلبتهم على يد الحبشة باليمن، ولكنها هنا أفنتهم واستقرت مكانهم، حتى سلط الله عليها الفرس فشتتوا شملها، وطاردوا أهلها فانزوى جمعهم بنجران حتى أدركهم الإسلام.

التغالب بين النصرانية واليهودية

كان لنشاط اليهود المادي أثر في نشر أحاديثهم الدينية

لم يكن للنصارى من الأثر في الجزيرة العربية مثل ما كان لليهود، لأن هؤلاء كانوا على اتصال بالحياة العملية المادية في التجارة والزراعة والصناعة بقدر ما تسمح به تصاريف الحياة، وهذا الاتصال كان أداة فعالة في تأثيرهم والأخذ عنهم والاستماع إليهم، فانتشر عنهم دون قصد منهم شيء عن ديانتهم ولا سيما فيما كانوا يترقبونه من أحداث كونية أخبرت عنها كتبهم، وبشارات بنبي يبعث تحدَّث بها أسلافهم، وأمارات ونعوت لهذا النبي روتها أسفارهم، فلما أظلَّهم زمانه أفصحوا عن مكنون أنفسهم، وأخبروا به علانية، وتناقلت أخباره الألسنة حتى وصل الأمر إلى المتحنفين والمعتافين والكهان، وذاعت القصص والأحاديث، فكان منها الصحيح الثابت، ومنها الضعيف الواهن، ومنها المكذوب الباطل.

أما النصارى فكانوا على عكس إخوانهم اليهود، فإذا كان في اليهود تزمت يرقى إلى الجمود في الدعوة الدينية ففي النصارى بحبحة واتساع، يدعون إلى دينهم ويبشرون به ويرغبون في إدخاله على من استطاعوا من جماعات الناس وإدخال من استطاعوا إدخالهم في حظيرته، بيد أنهم معتزلة منزوون في حياتهم العملية المادية، ولا شك أن أثر الحياة العملية أقوى في تجاوب الأفكار والنحل.

كانت النصرانية أخفت صوتاً في بلاد العرب من اليهودية

ومن هنا كان صوت النصرانية في بلاد العرب أخفت من صوت اليهودية، وكان النصارى فيها أضعف شأناً من اليهود، ولكن ذلك لم يمنع أن تمشي المسيحية إلى بعض القلوب والأفكار، فدان بها بعض المتحنِّفين كقس بن ساعدة وورقة بن نوفل، وتحدثوا بمثل ما كان يتحدث به اليهود من البشارات والأمارات والنعوت التي ذكرتها كتبهم المقدسة ورواها رهبانهم وقسيسوهم، وكثرت القصص والأخبار، فكان منها الثابت القوي، ومنها الزائف الضعيف.

على هذا الأساس قام هذا اللون من الروايات والقصص التي تحتل جانباً من السيرة النبوية متصلة بأسرة محمد ﷺ، ومتصلة بحمله وميلاده ومتصلة بحياته طفلاً وشاباً، ومتصلة به نبياً ورسولاً، وهنا يتحول هذا اللون

إلى ذلك العنف في الجدل والحجاج ويتحول إلى ذلك العنف في الحياة، وهنا عني به القرآن الكريم فقصَّ في شأن اليهود كثيراً وحكى من شأن النصارى كثيراً، وذكر في صراحة قاطعة أن محمداً ﷺ مكتوب في كتبهم بأخص أوصافه، وأنهم يجدونه فيها باسمه «أحمد» ويجدون أصول رسالته ودعائم شريعته، وفي ذلك يقول القرآن الكريم واصفاً للمتقين الذين كتب لهم الله رحمته: ﴿الذين يتبعون الرسولَ النبي الأميَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيباتِ ويحرم عليهم الخبائثَ، ويضع عنهم إصْرَهم والأغلال التي كانت عليهم﴾[1].

القرآن يسجل على الطائفتين يقينهم بمعرفة محمد ﷺ لوجود نعوته في كتابيهم

فالنبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل هو محمد بن عبدالله الهاشمي القرشي سليل إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، واليهود والنصارى يعلمون هذا علم اليقين، والقرآن جبههم بقوله: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنائهم﴾ ولا تزال أسفارهم بعدما أحلُّوا بها من التحريف والتبديل تحمل بعض هذه البشارات التي يسلِّطون عليها فاسد التأويل، وأنت تستطيع أن تأخذ إليك سفر التثنية من أسفار التوراة فتجد فيه هذا النص ﴿أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، واجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به﴾ فأخوة بني إسرائيل هم العرب لأن جدهما إبراهيم عليه السلام، هذا إجماع تاريخي منا ومنهم ومن جميع أهل التاريخ في أرض الله فلا سبيل للشك فيه، ووسط العرب هم قريش ووسط قريش هاشم كما ورد في صحيح مسلم عن واثلة ابن الأسقع عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى هاشماً من قريش، واصطفاني من بني هاشم» ولم يجيء نبي بعد موسى عليه السلام بشريعة كاملة جامعة بين العقيدة والتشريع مستقلة غير محمد عليه الصلاة والسلام، فهو النبي المماثل لموسى الذي خوطب بهذا النص، ولا معنى للأخوة لو كان هذا النبي الموعود

نص صريح من التوراة بأن محمداً ﷺ هو المبشر به

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٧.

من بني إسرائيل كما يزعم المحرِّفون، لأنه حينئذ يكون من أنفسهم لا من إخوتهم، وجعل كلام الله في فمه كناية عن عدم تعاطي الكتابة والاعتماد على الحفظ والتلاوة، وهو معنى الأمية التي هي أخص أوصاف محمد رسول الله ﷺ، ويقول الله تعالى من سورة الصف: ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسولُ الله إليكم مصدّقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾[1] وهذا نص صريح قاطع في أن عيسى عليه السلام بشر قومه برسالة رسول يجيء بعده اسمه أحمد، ولم يزعم أحد قط أن اسم أحمد سمي به رسول جاء بعد عيسى عليه السلام غير خاتم النبيين محمد بن عبدالله ﷺ.

علم أهل الكتاب برسالة محمد ﷺ كان حجة على المشركين

وكما كانت هذه البشارات قائمة على نصوص قاطعة صريحة في التوراة والإنجيل يعلمها أتباعها علماً يقيناً جعل الله هذا العلم آية على صدق محمد ﷺ في رسالته (فقال تعالى): ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَهُم آيَةً أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾[2] فكان علم أهل الكتاب بصدق رسالة محمد لوجود نعته واسمه في كتبهم آية للمشركين على إثبات رسالته.

ومن هنا كانت الإنباءات التي ترويها المصادر المعتبرة بروايات صحيحة عن بعض الأحبار والرهبان، وما نقله عنهم المتحنفة والمعتافون عن زمن ميلاد النبي ﷺ وعن نعته وبعض خصائصه واسمه وبلده وبعثه ومهجره وما يلقى من قومه وما يتم به أمره، من قبيل الآيات والأعاجيب التي أشار إليها القرآن وتأيدت بروايات صحيحة، فهي من الآيات التي لا ترد ولا يتسلط عليها التأويل، ويجري مجراها ما ماثلها من الأخبار التي صاحبت حياة النبي ﷺ في أطواره المتعددة ولا سيما بعد البعثة، ذلك الوقت الذي تنبهت فيه عند اليهود حاسة المحافظة على البقاء نتيجة لتنبه الوعي القومي عند أصحاب الوطن الأصلاء من عرب الأوس والخزرج الذين استغلهم اليهود واستغلوا وطنهم استغلالاً اقتصادياً أنزلوهم فيه منزلة التابع الأجير، فلما لم يُجْدِهم إيقاد نيران

(١) سورة الصف، آية: ٦.
(٢) سورة الشعراء، آية: ١٩٧.

الفتن بينهم والسعي بالإفساد أرادوا أن يستغلوا هذه الظاهرة الدينية التي يتفوقون بها، ظاهرة الإخبار عن نبي يبعث وأن زمانه قد اقترب وأنه يدعو إلى التوحيد، ويحارب الوثنية والوثنيين، وأنهم ينتظرونه ليؤمنوا به ويكونوا في صفه ويكون في صفهم إلباً على هؤلاء العرب الوثنيين يقتلونهم معه، وبدأوا ينشرون هذه البشارات ويذيعون أخبار النبي ﷺ.

شواهد لها دلائلها (١)

روى البيهقي وأبو نعيم عن حسان بن ثابت قال: إني لَغُلام ابن سبع سنين أو ثمان أعقل ما رأيت وسمعت إذا بيهودي يصرخ ذات غداة: يا معشر يهود، فاجتمعوا إليه ـ وأنا أسمع ـ فقالوا: ويلك ما لك؟ قال: قد طلع نجم أحمد الذي يولد به في هذه الليلة.

الشاهد (٢)

وروى الحافظ أبو نعيم في دلائل النبوة عن مالك بن سنان قال: جئت بني عبد الأشهل يوماً لأتحدث فيهم ونحن يومئذ في هدنة من الحرب، فسمعت يوشع اليهودي يقول: أظل خروج نبي يقال له أحمد يخرج من الحرم، فقال له خليفة بن ثعلبة الأشهلي كالمستهزىء به: ما صفته؟ فقال رجل ليس بالقصير ولا بالطويل، في عينيه حمرة، يلبس الشملة ويركب البعير، سيفه على عاتقه، وهذا البلد مهاجره، قال مالك: فرجعت إلى قومي بني خُدْرة وأنا يومئذ أتعجب مما يقول يوشع، فأسمع رجلاً منا يقول: ويوشع يقول هذا وحده؟ كل يهود يثرب يقولون هذا!!. قال مالك بن سنان: فخرجت حتى جئت بني قريظة فأجد جمعاً فتذاكروا النبي ﷺ فقال الزبير ابن باطا: قد طلع الكوكب الأحمر الذي لم يطلع إلا لخروج نبي أو ظهوره، ولم يبق أحد إلا أحمد وهذا مهاجره.

الشاهد (٣)

وروى ابن سعد عن عائشة أم المؤمنين بسند حسَّنه الحافظ ابن حجر في شرح البخاري أنها قالت: كان يهودي قد سكن مكة، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ قال: يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ قالوا: لا نعلم، قال: انظروا فإنه ولد في هذه الليلة نبي هذه الأمة أحمد الآخر، بين كتفيه علامة، فانصرفوا فسألوا، فقيل لهم: ولد لعبدالله ابن عبد المطلب غلام فسماه جده محمَّداً، فالتقوا بعد من يومهم فأتوا اليهودي في منزله، فقالوا علمنا أنه ولد فينا مولود؟ قال: أبعد خبري أم قبله؟ قالوا:

بل قبله، قال: فاذهبوا بنا إليه فخرجوا معه حتى دخلوا على أمه، فأخرجته إليهم فرأى الشامة في ظهره، فغشي على اليهودي ثم أفاق فقالوا: ويلك. مالك؟ قال: ذهبت النبوة من بني إسرائيل وخرج الكتاب من أيديهم، وهذا مكتوب، يقتلهم ويبز أحبارهم، فازت العرب بالنبوة، أفرحتم يا معشر قريش، أما والله ليسطون بكم سطوة يخرج نبؤها من المشرق إلى المغرب.

الشاهد(٤)

وروى أيضاً عن عامر بن ربيعة قال: سمعت زيد بن عمرو بن نفيل، يقول: أنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل ثم من بني عبد المطلب ولا أراني أدركه، وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك مدة فرأيته فأقرئه مني السلام، وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك، قلت: هلمّ، قال: هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بكثير الشعر ولا بقليله، وليست تفارق عينيه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه، ثم يخرجه قومه منها ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره، فإياك أن تخدع عنه فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم فكل من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الدين وراءك، وينعتونه بما نَعَتُّهُ لك ويقولون: لم يبق نبي غيره، قال عامر: فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو وأقرأته منه السلام، فرد عليه السلام ورحَّم عليه وقال: «قد رأيته في الجنة يسحب ذيولاً».

الشاهد(٥)

وروى الطبراني والبيهقي في محادثة طويلة بين أمية بن أبي الصلت وأبي سفيان بن حرب، قال أمية: جئت هذا العالِم (راهباً نصرانياً) فسألته عن أشياء، ثم قلت: أخبرني عن هذا النبي الذي ينتظر، قال: هو رجل من العرب، قلت قد علمت أنه من العرب، فمن أي العرب هو؟ قال: من أهل بيت تحجه العرب، قلت: وفينا بيت تحجه العرب، قال: هو من إخوتكم من قريش، فأصابني والله شيء ما أصابني مثله قط، وخرج من يدي فوز الدنيا والآخرة وكنت أرجو أن أكون إياه، قال أبوسفيان فإذا كان ما كان فصفه لي، قال: رجل شاب حين دخل في الكهولة، بدو أمره يجتنب المظالم والمحارم، ويصل الرحم، ويأمر بصلتها، وهو محوج كريم الطرفين،

متوسط في العشيرة، أكثر جنده من الملائكة. قال أبو سفيان: فقدمنا مكة فقضيت ما كان معي، ثم انطلقت حتى جئت اليمن تاجراً، فكنت بها خمسة أشهر ثم قدمت مكة، فبينا أنا في منزلي جاءني الناس يسلِّمون عليّ، ويسألون عن بضائعهم حتى جاءني محمد بن عبدالله وهند عندي تلاعب صبيانها، فسلَّم عليّ ورحَّب بي، وسألني عن سفري ومقامي ولم يسألني عن بضاعته، ثم قام، فقلت لهند: والله إن هذا ليعجبني؛ ما من أحد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سألني عنها وما سألني هذا عن بضاعته، فقالت لي هند: أوَمَا علمت شأنه؟ فقلت وأنا فزع: ما شأنه؟ قالت: يزعم أنه رسول الله، فوقذتني وتذكَّرت قول النصراني، فرجفت حتى قالت لي هند: مالك؟ فانتبهت، فقلت: إن هذا لهو الباطل، لهو أعقل من أن يقول هذا، قالت: بلى والله إنه ليقولنَّ ذلك ويدعو إليه، وإن له لصحابة على دينه، فقلت: هذا هو الباطل.

قال: وخرجت فبينا أنا أطوف بالبيت إذ بي قد لقيته فقلت له: إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا وكان فيها خير، فسأرسل من يأخذها ولست بآخذ منك فيها ما آخذ من قومي، فأبى عليّ، وقال: إذن لا آخذها، قلت، فأرسل فخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومي، فأرسل إليّ بضاعته فأخذها وأخذت منه ما كنت آخذ من غيره. قال أبو سفيان: فلم أنشب أن خرجت إلى اليمن، ثم قدمت الطائف فنزلت على أمية بن أبي الصلت، فقال لي: يا أبا سفيان قلت: ما تشاء قال: هل تذكر قول النصراني؟ قلت: أذكره، وقد كان، فقال: ومن؟ قلت: محمد بن عبدالله، قال: ابن عبد المطلب؟ قلت: ابن عبد المطلب، ثم قصصت عليه خبر هند، قال: الله يعلم وأخذ يتصبب عرقاً، ثم قال: يا أبا سفيان لعلَّه؟ صفته لهي، ولئن ظهر وأنا حي لأطلبنَّ من الله عز وجل في نصره عذراً، قال أبو سفيان: ومضيت إلى اليمن فلم أنشب أن جاءني هنالك استهلاله، وأقبلت حتى نزلت على أمية بن أبي الصلت بالطائف، فقلت: يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته، فقال: قد كان لعمري، فقلت: فأين أنت منه يا أبا عثمان؟ فقال: والله ما كنت لأؤمن برسول من غير

ثقيف أبداً، قال أبو سفيان: وأقبلت إلى مكة، فوالله ما أنا ببعيد حتى جئت مكة فوجدت أصحابه يُضربون ويحقَّرون، فجعلت أقول: فأين جنده من الملائكة؟ فدخلني ما يدخل الناس من النفاسة.

الشاهد (٦) وكان النبي ﷺ يذكر أمية بن أبي الصلت ويستنشد شعره لما فيه من دلائل التوحيد والثناء على الله تعالى. روى مسلم والإمام أحمد عن عمر ابن الشريد عن أبيه قال: كنت ردفاً لرسول الله ﷺ فقال لي: «أمعك من شعر أمية ابن أبي الصلت شيء؟» قلت نعم، قال: فأنشدني، فأنشدته بيتاً، فلم يزل يقول لي كلما أنشدته بيتاً: «إيه» حتى أنشدته مائة بيت، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن كاد يسلم».

الشاهد (٧) ويحدثنا ابن سعد في طبقاته عن بعض الأنصار أن يهود بني قريظة كانوا يدرسون ذكر رسول الله ﷺ في كتبهم ويعلِّمونه الولدان بصفته واسمه ومهاجره إلينا، فلما ظهر رسول الله ﷺ حسدوا وبغَوا وقالوا: ليس به.

الشاهد (٨) وكان المشركون يَرون أن أهل الكتاب أعلم بهذا الشأن فكانوا يسألونهم، وكان هؤلاء يخبرون بما عندهم، روى ابن سعد عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث بن علقمة، وعقبة بن أبي مُعَيط وغيرهما إلى يهود يثرب. وقالوا لهم: سلوهم عن محمد، فقدموا المدينة فقالوا: أتيناكم لأمر حدث فينا، منا غلام يتيم فقير يقول قولاً عظيماً، يزعم أنه رسول الرحمن، ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، قالوا: صفوا لنا صفته، فوصفوه لهم، قالوا: فمن تبعه منكم؟ قالوا: سفلتنا، فضحك حبر منهم، وقال: هذا النبي الذي نجد نعته ونجد قومه أشد الناس له عداوة.

الشاهد (٩) وقال ابن إسحاق: وكانت الأحبار من يهود والرهبان من النصارى والكهَّان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لَّما تقارب من زمانه، أما الأحبار من يهود والرهبان من النصارى فعمَّا وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه.

الشاهد (١٠) ثم بيَّن ابن إسحاق عن جماعة من الأنصار ما كان يتحدث به يهود

يثرب عن رسول الله ﷺ وسبب بغيهم وحسدهم وإنكارهم ما كانوا يعلنونه ويتدارسونه من ذكره، فقال: وحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه ما كنا نسمع من رجال يهود، كنَّا أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيراً ما نسمع منهم ذلك، فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبنا حين دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة: ﴿ولَمَّا جَاءَهم كتابٌ مِنْ عنْدِ الله مصدِّقٌ لِمَا معهم وَكَانوا من قَبْل يستفتحون على الذينَ كَفَرُوا فلَمَّا جاءَهم ما عَرِفوا كفروا به فلَعْنَة الله على الكَافرين﴾[1].

هذا قليل من كثير من الروايات التي روتها كتب الدلائل النبوية ورواها بعض كتب الحديث والسنة، وقد اخترنا منها، وتحرينا ما وسعنا التحري أن نتحاشى الروايات التي يدخلها التزيد ويحوكها الخيال، فليس من الإنصاف التاريخي أن تهدر هذه الكثرة الغامرة من الروايات في هذا الجانب من السيرة النبوية تحت تأثير الإيهام بمعروف العقول وقضايا العلم وحكم المنطق ومتعارف سنن الحياة، وقد فرغنا من مناقشة هذا الإيهام في صدر بحث الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة، وأقمنا بذلك أصلاً نرد إليه ما يعرض في طريق البحث منه.

(١) سورة البقرة، آية: ٨٩.

محمد صلى الله عليه وسلم في المهد

رضاعه عليه السلام

صبابة عبد المطلب بحفيده محمد ﷺ

كان لموت عبدالله بن عبد المطلب ـ أبي محمد ﷺ ـ في رحلته التي خرج إليها تاجراً وهو في مقتبل شبابه بُعَيْدَ حادث الذبح وبنائه بزوجه آمنة بنت وهب أم محمد ﷺ أثر من الحزن الفادح والألم الممض على نفس أبيه الشيخ، الذي أفنت السنون جَلَده وناء بأثقالها، فلما بشر بميلاد حفيده محمد ﷺ صبَّ به صبابته بأبيه من قبله ـ وكان أبو محمد ﷺ عبدالله أحبَّ أبناء عبد المطلب إليه ـ وحظي محمد ﷺ عند جده حظوة لم تكن لأحد من ولده، فأخذه من مهده بين يديه وطاف به حول الكعبة يباركه ويدعو له، ويستعذب النظر إليه في حنان الأبوة الثاكلة، ثم رده إلى أمه وعاد إلى مكانه في ظل البنيَّة المقدسة يفكر ويقدر، ويطلب له المراضع في نساء البوادي على عادة سكان المدن والقرى من العرب في استرضاع أولادهم في البادية اتقاء لوخامة المدن ووضر الحواضر، وتخريجاً في التعرب والتفاصح، وانتجاعاً لجو البادية صحة، وانطلاقاً مع مظاهر الطبيعة في الأرض والسماء. وكانت المرضعات يردن مكة في المواسم تطلباً للرُّضع الذين يؤملن فيهم جِدَة وسعة من العطاء، وكان في قبائل العرب وبيوتاتهم بيوت وقبائل عُرفت بخصب الدر ونقاء الجو وصفاء الطبيعة وفصاحة اللهجة ونصاعة البيان ونقاء المربى. منهم بنو سعد بن بكر من قبيلة هوازن المعروفة بتعربها وفصاحتها، فلما ورد نساؤها مكة عُرض عليهن فيمن عرض من الرُّضع محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، فأقبلنَ على غيره، وأعرضن عنه، لأنهن عرفنَ أنه يتيم، وكنَّ يرتجين وسيع العطايا وغامر المنح من آباء الأطفال، وكان في نساء بني سعد السيدة حليمة بنت

تطلب المراضع له ﷺ في نساء البادية

عرفان يتمه كان سبباً في عدم سرعة الإقبال لأخذه

عبدالله بن الحارث، ويظهر أنها كانت أرقَّهنَّ حالاً، فلم يرغب فيها آباء الأطفال وذووهم، وأصاب صواحباتها طلبتهن من الرضع وبقي محمد ﷺ بغير مرضع، وبقيت حليمة بغير رضيع، وعرض عليها فجعلت تقول: يتيم ولا مال له، وما عَسَتْ أمه أن تفعل.

حظ حليمة في سعادتها
ترويه قصتها

وهنا نترك الرواية التاريخية تحدثنا على لسان حليمة بما اتفق عليه الرواة أو قريب منه. روى ابن اسحاق بسنده عن جعفر بن أبي طالب قال: حُدّثت عن حليمة بنت الحارث أنها قالت: قدمتُ مكة في نسوة من بني سعد نلتمس بها الرضعاء في سنة شهباء[1]، فقدمتُ على أتان لي قمراء[2] كانت أذمت[3] بالركب، ومعي صبي لنا وشارف[4] لنا والله ما تبض[5] بقطرة، وما ننام ليلتنا أجمع من صبينا ذاك، ما نجد في ثديي ما يغنيه ولا في شارفنا ما يغذِّيه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك، فلقد أذمَّت بالركب حتى شقَّ ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً، فقدمنا مكة، فوالله ما علمتُ منا امرأة وإلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل إنه يتيم تركناه، قلنا: ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه؟ إنما نرجو المعروف من أبي الولد، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا، فوالله ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاق قلت لزوجي الحارث بن عبد العزىٰ: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لأنطلقنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه، فقال: لا عليك أن تفعلي فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة، فذهبت فأخذته فوالله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره، فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلي فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتى روي، وشرب أخوه (ولدها) حتى روي، وقام صاحبي إلى شارفنا تلك فإذا أنها لحافل، فحلب

---

(١) سنة شهباء: لا خضرة أو لا مطر بها، والمراد أنها جدباء لندرة الخصب فيها.

(٢) أتان قمراء: هو من القمرة: لون إلى الخضرة أو بياض تشوبه كدرة.

(٣) أذمت بالركب، حبستهم لإعيائها وانقطاع سيرها. قال في اللسان: وفي حديث حليمة السعدية: فخرجت على أتاني تلك فلقد أذمت بالركب أي حبستهم لانقطاع سيرها.

(٤) الشارف: الناقة المسنة الهرمة.

(٥) هو من قولهم بض الماء يبض إذا سال قليلاً.

ما شرب وشربت حتى روينا، فبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي حين أصبحنا: ياحليمة والله إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه، فلم يزل الله تعالى يزيدنا خيراً، ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا فوالله لقطعت أتاني بالركب حتى ما يتعلق بها حمار، حتى إن صواحبي ليقلنَ ويلك يا بنت أبي ذؤيب هذه أتانك التي خرجت عليها معنا؟! فأقول: نعم والله إنها لهي، فقلن والله إن لها شأناً حتى قدمنا أرض بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعاً لبناً فنحلب ما شئنا وما حوالينا أحد تبضُّ له شاة بقطرة لبن، وإن أغنامهم لتروح جياعاً حتى أنهم ليقولون لرعاتهم ويحكم انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم، فيسرحون مع غنمي حيث تسرح فتروح أغنامهم جياعاً ما فيها قطرة لبن وتروح أغنامي شباعاً لبناً نحلب ما شئنا، فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى بلغ سنتيْن، فكان يشب شباباً لا يشبّه الغلمان، فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جَفْراً[1]، فقدمنا به على أمه ونحن أضنّ شيء به مما رأينا فيه من البركة، فلما رأته أمه قلت لها: دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى فإنا نخشى عليه وباء مكة، فوالله ما زلنا بها حتى قالت: نعم، فأقمنا به شهرين أو ثلاثة، وفي رواية ابن سعد أن أمه آمنة هي التي طلبت رده معهم خشية عليه من وباء مكة، ويظهر أنه ليس بين الروايتين اختلاف حقيقي، لاحتمال أن تكون حليمة قدمت به على أمه زائرة فرأت صبابة أمه به، فخافت أن تحبسه عنها وقد استوفى أقصى أمد الرضاع، فعجَّلت بطلب رده معها لتطمئن، فوجدت من أمه رغبة في رده معهم. قال ابن سعد: قال محمد بن عمر (الواقدي) عن أصحابه: مكث عندهم سنتين حتى فطم وكأنه ابن أربع سنين، فقدموا به على أمه زائرين لها، وأخبرتها

رواية ابن سعد في الطبقات والتوفيق بينها وبين رواية ابن إسحاق

(١) الجفر: الذي استغنى عن الرضاع وقوي على الأكل. وقد ساق ابن منظور في اللسان هذا الحديث فقال: وفي حديث حليمة ظئر النبي ﷺ قال: كان يشبّ في اليوم شباب الصبي في الشهر فبلغ ستاً وهو جفر، ثم قال: والجفر: الصبي إذا انتفخ لحمه وأكل وصارت له كرش، ويلاحظ أن في رواية ابن منظور مخالفة لرواية ابن إسحاق في تقدير الزمن.

حليمة خبره وما رأوا من بركته فقالت آمنة: ارجعي بابني فإني أخاف عليه وباء مكة، فوالله ليكوننَّ له شأن، فرجعت به.

رواية غريبة يحكيها ابن كثير

وحكى ابن كثير رواية فيها غرابة قال: ذُكر أنَّ عبد المطلب أمر ابنه عبدالله أن يأخذه فيطوف به في أحياء العرب ليتخذ له مرضعة فطاف حتى استأجر حليمة على رضاعه، وأقام عندها ست سنين تزيِّره جده في كل عام.

وغرابة هذه الرواية لما فيها من أن أبا رسول الله ﷺ كان موجوداً حين ميلاده، وأنه هو الذي استرضعه في بني سعد واستأجر له حليمة، وهي رواية لا تتفق إلا مع رواية أن أباه عاش حتى بلغ رسول الله ﷺ من عمره سبعة أشهر أو ثمانية وعشرين شهراً على ما ذكرناه سابقاً، وهما روايتان ضعيفتان، والرواية الثانية أن أباه توفي وهو جنين في بطن أمه، وهو قول الجمهور من المؤرخين ومؤلفي السيرة.

رواية لابن سعد

وذكر ابن سعد وغيره أن ظئره حليمة رأت بعد أن رجعت به إلى باديتها ـ وكانت لا تدعه يذهب بعيداً عنها ـ غمامة تظله، إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت فأفزعها ذلك من أمره، فقدمت به على أمه لترده إليها وهو ابن خمس سنين فأضلَّها في الناس، فالتمسته فلم تجده فأتت عبد المطلب فأخبرته، فالتمسه عبد المطلب فلم يجده وجعل ينشده بأبيات من الشعر، فوجده ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش، فأتيا به جده فأخذه على عاتقه وذهب فطاف به يعوذه ويدعو له ثم رده إلى أمه آمنة.

وأخرى له أيضاً

وذكر ابن سعد أيضاً أن جماعة من اليهود مروا على ظئره حليمة ـ وكانت أمه آمنة قد أخبرتها ببعض شأنه وأوصتها بحفظه والحرص عليه ـ فقالت لهم: ألا تحدِّثوني عن ابني هذا، فإني حملته كذا، ووضعته كذا ورأيت كذا ـ كما وصفت أمه ـ فقال بعضهم لبعض: اقتلوه، فقالوا: أيتيم هو؟ فقالت حليمة: لا، هذا أبوه وأنا أمه، فقالوا: لو كان يتيماً لقتلناه، فذهبت به حليمة وقالت: كدت أخرِّب أمانتي..

وكان عمه حمزة مسترضعاً معه في بني سعد عند امرأة أخرى غير ظئر رسول الله ﷺ، قال ابن سعد: كان حمزة بن عبد المطلب رضيع رسول الله ﷺ، أرضعتهما امرأة من العرب، كان حمزة مسترضعاً له عند قوم من بني سعد بن بكر، وكانت أم حمزة قد أرضعت رسول الله ﷺ يوماً وهو عند أمه حليمة. وقد سبق أن ثويبة جارية أبي لهب أرضعتهما وأبا سلمة فهما أخوا رسول الله ﷺ من الرضاع بلبن ثويبة ويزيد حمزة لبن السعدية.

هذه هي قصة رضاعه ﷺ في جملة رواياتها التي ترويها كتب السيرة، ولا يكاد كتاب منها يخلو عن طرف من أطرافها، حتى قال ابن كثير في تاريخه بعد أن روى حديث ابن إسحاق الذي صدَّرنا به ـ وهو أجمعها وأوفاها وعليه معول جمهرة المؤرخين ـ: وهذا الحديث قد رُوي من طرق أُخَر، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي.

تحقيق ينفي الشك في قبول هذه الروايات

وليس في القصة على النهج الذي سقناها فيه ما يباعد بينها وبين الواقع التاريخي، فاسترضاع السادة من أهل الحواضر والمدن أبناءهم في البوادي، ووفود نساء البادية لأخذ الرُّضع، يرتجين الخير وسعة العطاء من آبائهم، وإحجامهن عن يتيم لم يعرف ثراؤه، واندفاع حليمة إلى أخذه بعد أن لم تجد رضيعاً غيره ترجع به مع صواحباتها، وظهور البركة في در حليمة وغُنيمتها وشارفها، وشبابه شباباً ممتازاً في صحته ونموه عن لِداته وأقرانه من الأطفال والغلمان، ورده إلى أمه لزيارتها، وحرص ظئره على بقائه عندها لما رأت فيه من البركة والخير، وحرص أمه على ردِّه مع ظئره إلى البادية خشية عليه من وباء مكة التي تغص في المواسم بالوافدين عليها من الأصحاء والمرضى، وعناية أهل الكتاب من اليهود بشأنه وتطلُّبهم له، وحرص ظئره حليمة على تعرف أحواله، بعد حديث أمه معها عنه وعن مشاهداتها في أيام حمله وحين ولادته وفراستها في أنه سيكون لابنها شأن، ومساءلة حليمة اليهود عنه، وكتمها يتمه لتنجو به من غدرتهم التي انتووها، كل أولئك من الأمور التي لا ينكرها الواقع ولا تأباها سنن الحياة العامة.

ومن هنا نقول: إن هذه الصورة لمهد محمد ﷺ ورضاعه صورة فطرية

إنسانية مكملة لتلك الصورة الفطرية التي صورت حمله وميلاده تصويراً تاريخياً، وكما كان وراء تلك الصورة صورة أخرى مصنوعة لا تعرفها الفطرة الإنسانية ولا توائم السنن العامة للحياة؛ فكذلك وراء صورة مهده ورضاعه صورة لهما مليئة بالأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة، والفيصل في قبول هذه الخوارق هو ما أصَّلناه من النظر الممحص في سندها وصحة رواياتها، فإذا استقام لها ذلك قبلناها على أنها أثر من آثار القدرة الإلهية القاهرة، يكرم الله بها عبده ورسوله ﷺ كرامة تشريف.

تحقيق قصة شق صدره

صلى الله عليه وسلم

السنن العامة في نظام الحياة تأبى ذلك

شق الصدر من الإنسان حسياً، وإخراج قلبه المحس المعروف في التكوين الجسمي للإنسان بأنه لحمة صنوبرية الشكل في داخل القفص الصدري، وسطه مائلاً إلى الجهة اليسرى قليلاً في الأعم الأغلب، وتتصل به مفاتيح الحركة الدموية ومغاليقها، وقنواتها، ثم فتح هذا القلب فتحاً مادياً حسياً، وإخراج علقة دموية منه، وغسله بالماء، ثم إعادته إلى مكانه بعد خياطته، وخياطة الصدر، والتئامه مع بقاء الحياة الإنسانية بعد ذلك كله ـ كانت أموراً تأباها قوانين الحياة العامة، وتنكرها معارف العقول، وتردها أبسط قضايا العلم وبدائه المنطق في تاريخ الحياة.

فإذا وقعت وشهدتها الحياة الوجودية كانت من غير شك جارية على غير ما عرفته العقول من سنن الحياة، وعلى غير ما عرفه العلم التجريبي في قوانين الحياة، بل تكون جارية على سنن خاصة خارقة لمتعارف العقول، متخطية قضايا العلم في تجاربه الحسية.

والسنن الخاصة لا تنكره ولله في تدبير خلقه اختيار الاقتدار يفعل ما يشاء

وهذه السنن الخاصة لا ينكرها العقل، لأنه دائب البحث في أسرار الكون وسنن الله فيه، ولا يزال يكشف عن كثير من هذه الأسرار والسنن مما كان يجهله، ولم يقف هذا العقل عند هذه القضايا العلمية المعروفة له باعتبارها نهايات لمدركاته، ولم يؤمن بأنها هي الغاية لجولاته في الكون المحجب بسحائب الغيب، بل هو مؤمن أشد الإيمان أن وراء ما وصل إليه من حقائق أموراً كثيرة لم تكشف له، وهو دائب العمل في سبيل إدراك المجهول من حقائق الكون وسنن الله المنظمة لوجود هذا الكون العظيم.

والراسخون من علماء الكونيات يرون أن ما وصلوا إليه في الكشف عن بعض أسرار الحياة إنما هو قطرة من محيط العجائب الكونية والسنن الإلٓهية، ولم يدَّع أحد منهم أن العقل يستطيع أن يصل إلى مجهول الأسرار جميعها في هذا الكون العظيم.

وجيلنا اليوم - وهو في آخر القرن الرابع عشر الهجري، وآخر القرن العشرين الميلادي - يشهد أعمالاً في طب الجراحة وزرع الأعضاء الداخلية والخارجية في جسم الإنسان وسائر الحيوان، كانت في الماضي من المحالات في نظر العقل والعلم، ولا نذكر هذا لنفسِّر به المعجزات الإلٓهية التي يجريها الله تعالى على مقتضى سننه الخاصة تكريماً لأنبيائه ورسله؛ لأن شأن هذه المعجزات أن تجري على مقتضى سنن إلٓهية خاصة تختلف في أسلوبها وحقائقها مع أسلوب وحقائق السنن الإلٓهية العامة، وكلها من عند الله.

شأن آيات الله المعجزة فوق شأن العلم التجريبي

ومن ثَمَّ كان وقوع هذا الحدث الخطير لمحمد ﷺ من أعجب الأعاجيب الكونية، وأعظم خوارق السنن العامة، وأضخم الآيات الحسية التي تحيلها عادات الناس ومألوفاتهم، وتستبعدها العقول بالنظر لمعارفها من سنن الحياة العامة المتكررة، وبالنظر إلى قضايا العلم التجريبي.

ومجرد إحالة العادة المألوفة للناس في مجرى حياتهم العامة، ومجرد استبعاد العقول المقيدة بأغلال الحس والحواس، وسنن الحياة العامة المكررة لا يكفي كل ذلك للحكم بعدم الوقوع، وتبقى المسألة في دائر الإمكان، مستندة إلى سلطان القدرة الإلٓهية والإرادة الربانية التي لا تتقيد بسنن الحياة العامة، ومعروف العقول، وقضايا العلم، لأن الله تعالى الذي خلق هذه السنن العامة لنظام الحياة، وأوصل العقول إلى معارفها، وهداها إلى قضايا العلم، هو الذي يخلق سنناً خاصة لأحداث خاصة يجريها في أوقاتها ومناسباتها.

فليس من العدل العلمي، ولا من الإنصاف العقلي تحكيم متعارف العقول، وقضايا العلم، ومألوف الناس في عاداتهم وتجاربهم في سنن الله، وتقييدها بما عرف من قضايا تجريبية أو معارف عقلية.

تحكيم العقل تحكيمًا مطلقاً في إدراك الحقائق يبطل الإيمان بالغيبيات بل يبطل الديانات الإلٓهية

ولو حُكِّم متعارف العقول ومألوف العادات في فهم سنن الله تحكيماً مطلقاً لبطلت أصول الديانات السماوية، لأن العادات، ومتعارف العقول، وقوانين المنطق الإنساني لا تدرك حقيقة النبوة فتحيلها بصورتها الدينية، لأن النبوة قائمة على الوحي، وهو معنى لم تحدد حقيقته بغير الاتصال البشري بالملأ الأعلى الذي هو غيب مطلق في حقيقته، وطريق الاتصال به من قبل البشر، واتصاله بالبشر، وكل ما يعرفه العلم (الديني) عن الوحي أن يتم باتصال فرد من البشر يصطفيه الله لنبوته، بروح علوي، تسميه الشرائع السماوية (مَلَكاً)، وهو أمر يجهل العقل الإنساني حقيقته، وفي هذا الاتصال تتلقى الشخصية البشرية عن هذا الروح العلوي أموراً من قبل الله تعالى، هي شرائعه التي يتعبد بها خلقه، وينظم بها حياتهم ليقوم الناس بالقسط.

وهنا يتساءل العقل الإنساني: كيف يتصل فرد من البشر بما فيه من خصائص البشرية (بملك) بما له من خصائص الملكوتية؟ وكيف يتلقَّى عنه ما يبلغه عن الله تعالى؟.

ثم يتساءل العقل مرة أخرى: كيف يتلقى اَلمَلَـك عن الله عز وجل ما يؤديه إلى آحاد البشر؟.

ولا ريب أن العقل سيقف أمام هذا التساؤل في جانبيه حائراً، لا يحير جواباً يطمئن إليه في حدود معارفه وقضايا علمه وأقيسة منطقه، ولا يخرجه من هذه الحَيْرة إلا التسليم والإقرار بأنه ليس من حقه أن يرفض جميع ما لم يعلم، ولا جميع ما لم يفهم، لأنه أمام نفسه يعلم أنه لم يحط خبراً بكل ما يمكن أن يعلم، وأن ما يجهله من سنن الكون أكثر بكثير مما علمه.

وإذا انتهى العقل إلى هذا الموقف وجب عليه أن يسلِّم بقوة القدرة الإلٓهية على الخلق والإبداع، واتساع سنن الله تعالى في الكون بما يستطيع أن يصل إليه من البراهين القاطعة على قهر القدرة الإلٓهية لقوانين الطبيعة، وما وصل إليه العلم والعقل من سنن الحياة في الكون، وأن يسلم بمطلق تصرفاتها ليسهل عليه الإيمان بما صح الإخبار به من أحداث لم تجر على

مقتضى معروف من العلم، وإنما جرت على مقتضى نمط خاص في سنن الله تعالى.

فالتقيُّد بحكم العادة المتكررة ومتعارف العقول، وقضايا العلم هادم لجميع أصول الديانات السماوية، فالذين يتشبثون بهذا التقييد في فهم حقائق الأحداث الكونية يجعلون من معارف العقل وقضايا العلم حواجز أمام فهم سنن الله تعالى في الكون، وهم عندئذ بين أمرين: إما إيمان ينتهي بهم إلى التسليم بالعجز عن إدراك بعض الحقائق الكونية التي جاءت بها الأديان السماوية بأخبار ثابتة الصحة عن طريق الرواية، وإما إلحاد ينكر جاحداً أصل الديانات الإلهية، فلا يبقى ـ في نظرهم ـ بين الحقائق الوجودية نبوة ولا رسالة من الله إلى الخلق، وهذا ما انتهى إليه ملاحدة الماديين من كل من حكَّم الحس وأنزل العقل عن منزلته إلى هاوية الحس المادي.

وجميع المؤمنين بالديانات السماوية ـ عامتهم وخاصتهم ـ يطمئنون إلى أن هذا اللون من العجز هو محض الإيمان الذي يأخذ بصاحبه إلى ساحة رضا الله تعالى، وهو في حقيقته تكريم للعلم والعقل.

منهج القرآن في فهم قضايا الحياة. والإيمان بها وشواهده القاطعة
(١) قصة زكريا

ورد ما يعتاص فهمه على العقول من الأحداث لعدم جريه على مقتضى معارف العقل وقضايا العلم إلى سلطان القدرة الإلٓهية في الخلق والإبداع، وإلى الإيمان بأن الله تعالى يفعل في ملكه ما يشاء كما يشاء هو نهج القرآن الكريم، ففي قصة زكريا عليه السلام حينما بُشِّر بأن الله تعالى سيرزقه غلاماً، وكان قد بلغ من الكبر سن اليأس والجفاف الذي لا يكون معه ولادة وإنجاب، وكانت امرأته عقيماً لا تلد، فتعجب من أمر نفسه أن يخرج منه ومن زوجه ولد ـ وهما على حالهما التي لا يظهر فيها سبب قريب أو بعيد لإخراج الولد منهما، وعبَّر عن تعجبه بما حكاه الله عنه في قوله: ﴿ قال ربِّ أَنَّى يكوْنُ لي غلامٌ وَكَانَت امرأتي عَاقِراً وَقد بَلَغْتُ من الكِبَرِ عتيًّا ﴾[١] فجذبه الله من دائرة الأسباب والتقيُّد بالسنن العامة، إلى حظيرة الإطلاق، والسنن الخاصة، فقال له: ﴿ كَذَلِكَ الله يَفْعَلُ ما يَشَاء ﴾ أي شأن الله في

(١) سورة مريم، آية: ٨.

الإيجاد والإبداع فوق الأسباب ومتعارف العقول والعادات، وكيف تقيده الأسباب والسنن وهو خالقها ومبدعها، فقدرته تعالى على إبراز الأحداث من الغيب إلى الوجود العيني لا تتقيد بأسباب جرت بها السنن العامة في نظام الكون، لأن وراء هذه الأسباب والسنن العامة أسباباً وسنناً خاصة يفعل بها ما يشاء كما يشاء متى شاء، ولذلك زاد نبيه زكريا تلطفاً في جذبه إلى حظيرة الإطلاق، فنبَّهه إلى ما هو أعظم من إيجاد الولد منه ومن زوجه وهما على حالهما من البعد عن الإنجاب فقال له: ﴿ هُوَ عليَّ هَينٌ وقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شيئاً ﴾.

(٢) قصة مريم وولادتها عيسى من غير أب

وفي قصة مريم عليها السلام حينما بُشِّرت بالولد من غير أب عجبت من أمر نفسها أن تأتي بولد، وليس لها زوج يكون منه الولد في مجرى العادة ومتعارف العقول، وعبَّرت عن عجبها بما حكى الله عنها: ﴿ قالت رَبِّ أنَّى يَكُونُ لي وَلَد وَلَمْ يَمْسَسْني بشر ﴾[1] فنبَّهها الله تعالى إلى مطالع جلاله وعظيم قدرته حتى لا تقف مع الأسباب والسنن العامة ومتعارف العقول ومجريات العادة، فقال لها: ﴿ كذلك الله يَخْلق ما يشاء ﴾ أي أن شأن الله تعالى ألا تتقيد قدرته في إيجاد ما يشاء بما تعرفه العقول وتعهده العادات من أسباب، وإنما مرد أمره في الخلق والإبداع إلى قضائه، فإذا قضى الأمر كان ما قضاه بكلمته وحكمته ﴿ إذا قضى أمراً فإنَّمَا يَقُوْلُ لَهُ كُنْ فَيَكُون ﴾.

(٣) قصة إبراهيم وزوجه سارة

وفي قصة إبراهيم عليه السلام وزوجه أم إسحاق عليه السلام لما بُشِّر بالولد من زوجه العجوز العقيم، وهو شيخ كبير عتا عن الإنجاب، عجبت امرأته من أمرها وأمر زوجها فرحة ضاحكة من شدة سرورها بالبشرى، وقالت معبِّرة عن عجبها لوقوفها آنئذ مع الأسباب والسنن العامة: ﴿ءَأَلِدُ وأنا عَجُوْز وَهَذا بَعْلِي شَيْخَاً إن هَذَا لشيء عَجِيْب ﴾[2] فنبهها الملائكة المبشرون إلى أن هذا الإنعام من أمر الله الذي لا يتقيد بظواهر الأسباب ولا ينبغي التعجُّب من أمر الله، لأن أمره جل شأنه فوق الأسباب والسنن العامة،

(١) سورة آل عمران، آية: ٤٧.
(٢) سورة هود، آية: ٧٢.

ومتعارف العقول، ومجاري العادات في الكون لأن الله تعالى يفعل من الأسباب والمسببات ما يريد.

فعلى الذين يؤلهون العقل، ويتعبَّدون لمعارفه، ويجمدون مع متكرر العادات أن يكفكفوا من غلوائهم في تفسير الأحداث الكونية في الإنسان وفي غيره من سائر الموجودات، فما اتضح لهم تفسيره واطمأنوا إليه قبلوه ـ بحمد الله ـ وإن لم يتضح لهم تفسير بعض الأحداث لاذوا بالتواضع العلمي، ووضعوا نصب أعينهم هذا القانون الإلهي المعبِّر عن أصدق ما وصل إليه العقل والعلم، وما يمكن أن يصلا إليه ﴿ وما أُوتِيتُم مِن العِلْمِ إلا قليلا ﴾.

إن العقل والعلم يقرران مبدأ التواضع في البحث الكوني

وهم يعلمون أن العقل والعلم عجزا عن تفسير كثير من الحقائق الكونية، وهما دائبان على البحث ورائها، عساهما يصلان إلى شيء مما عجزا عنه.

وحسب الباحثين أن يقفوا مع العقل والعلم في أوج توثباتهما الفكرية والتجريبية ليعلموا ـ إن كان هناك وسيلة للعلم ـ ما شأن الحياة بأعم معانيها في الكون؟ وماذا بلغ العقل والعلم من الكشف عن حقيقتها ما هي؟ وما كنهها، والحياة بها كل شيء في الوجود، أو هي كل شيء، فإذا كان العقل والعلم لم يصلا إلى معرفة حقيقتها في عمومها، ولم يصلا إلى حقيقتها في الإنسان خاصة، فكيف يعطى العقل والعلم حق التحكم في تفسير الأحداث الدينية التي تستند إلى أمور غيبية لا تزال محجبة عنهما؟.

للعلم والعقل مكانتهما العظيمة ولكن في غير تبجّح وجموح

إن العلم والعقل لهما مكانتهما التي لا تجحد، وبهما تتقدم الحياة نحو الكشف عن المجهول، وعلى المعتصمين بالعلم والعقل أن يسيروا معهما في حدود مبلغ أمرهما، دون أن يتجاوزوا بهما طبيعتهما في تفسير الأحداث.

ونكرر ما قدمنا أن الفيصل في قبول ما يُروى من أحداث كونية، وأعاجيب دينية خارقة لنواميس السنن العامة في الكون مما جرى على أيدي أنبياء الله ورسله هو صحة الرواية صحة لا تتعرض لطعن في النقل أو تجريح في السند، ثم بعد ذلك وجوب التسليم بما صح الإخبار به، ورد إبداعه إلى الله تعالى، وعظيم قدرته، وبالغ حكمته.

وقصة شق صدر محمد ﷺ سبيلها سبيل هذه الأحداث الكونية الدينية فما شأن الروايات التي تحدثت بها؟ وما مكانها من الاعتبار عند أهل النقد والتمحيص؟.

تُروى هذه القصة في كتب السِّير والمغازي، ودواوين الحديث والسنة، وكتب التاريخ والطبقات بروايات مختلفة في زمانها ومكانها، وطريقة وقوعها، والحالة التي وقعت بها.

رواية شق الصدر الأشرف في حديث حليمة من رواية ابن إسحاق

ويشبه أن تكون كتب السير متفقة على رواية محمد بن إسحاق عن ظئر رسول الله ﷺ حليمة السعدية التي سقنا طرفاً منها عند الحديث عن رضاعه ﷺ، وفيها تتابع حليمة الحديث فتقول - كما في رواية الطبري وابن هشام، وابن الأثير، وابن كثير - : فرجعنا به فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه في بَهْم لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بياض فأضجعاه وشقَّا بطنه وهما يسوطانه، فخرجت أنا وأبوه نشتد فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه، فالتزمته والتزمه أبوه، وقلنا له: ما لك يا بني؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بياض، فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو.. قالت حليمة: فرجعنا إلى خبائنا وقال لي أبوه: والله يا حليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر به ذلك، فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فقالت: ما أقدمك به يا ظئر وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟ فقلت: قد بلغ الله بابني، وقضيت الذي عليّ، وتخوفت الأحداث عليه فأديته إليك، كما تحبين، قالت: ما هذا بشأنك فاصدقيني خبرك!! قالت حليمة: فلم تدعني حتى أخبرتها الخبر، قالت: قد تخوفت عليه الشيطان؟ فقلت: نعم، قالت: كلا والله ما للشيطان عليه سبيل وإن لبنيَّ لشأناً.

تعقيب على هذه الرواية

هذه الرواية ساقها بنصها الإمام ابن كثير في تاريخه، وهو مؤرخ ناقد محص وقد عقب عليها - كما قدمنا - بقوله: وهذا الحديث قد رُوي من طرق أخر، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي، وليس هذا التعقيب تصحيحاً فنياً، فالشهرة والتداول بين أهل السير

والمغازي ليست عنواناً على صحة الحديث فنياً، وكتب السيرة والمغازي لم توصف عند أهل الشأن بالصحة، وربما كان أمرها عندهم أخف في درجات القبول لما فيها من الجمع بين الغث والسمين، والصحيح والسقيم، والقوي والضعيف، وطريق تمييز هذا من ذاك هو الرجوع إلى كتب الحديث المعتبرة وأقاويل رجال النقد في رواة الحديث وسنده، وقبل ذلك لا يصح الحكم على ما فيها والأخذ به أو رفضه ورده.

رواية أخرى لابن إسحاق بعضها في الصحيح

وهذا هو محمد بن إسحاق صاحب هذه الرواية المشهورة المتداولة يروي من طريق آخر كما تنقله عنه المصادر المتقدمة نفسها فيقول: حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا له: أخبرنا عن نفسك، قال: «نعم أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى عليهما السلام، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، واستُرضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا في بَهْم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجاً، فأضجعاني فشقّا بطني ثم استخرجا قلبي فشقّاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج، حتى إذا أنقياه ردّاه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته فوزنني بعشرة فوزنتهم. ثم قال: زنه بمائة من أمته فوزنني بمائة فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته فوزنني بألف فوزنتهم، فقال: دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم. قال ابن كثير معقباً على هذه الرواية: وهذا إسناد جيد قوي.

وإذا كان هذا إسناداً جيداً قوياً فالرواية به رواية جيدة قوية، وهي لا تختلف عن الرواية المشهورة المتداولة في أصل وقوع قصة شق الصدر بصورة معجزة خارقة لجميع ما عرف الناس من سنن الحياة العامة، فهي عاضدة للرواية المشهورة، وتزيد هذه الرواية أنها حديث مرفوع يحدث به النبي ﷺ عن نفسه.

هذه الرواية شاهد صدق على وقوع شق الصدر الأشرف

ومن مجموعهما نرى أن شق الصدر الشريف كان حادثاً واقعياً شهده الوجود بصورته المعجزة في بادية بني سعد، وأنه كان في أول أدوار طفولية محمد ﷺ وهو عند ظئره، والرواية المشهورة أوضح في ذلك، لأنها صرَّحت

أنه ﷺ ذهبت به ظئره لزيارة أمه بعد اكتمال رضاعه في سنتين وأنها استردته معها فردّ، وبعد رده بأشهر وقع حادث شق الصدر، فهو على اليقين بالنظر لهذه الرواية كان في أوائل العام الثالث من عمره ﷺ، وقد ذكر القسطلاني في المواهب أن القصة وقعت بعد مقدم ظئره به راجعة من عند أمه بشهر أو ثلاثة.

وما في الروايتين من اختلاف وراء ذلك فهو اختلاف الإجمال والتفصيل وليس بضارٍ شيئاً في جوهر الموضوع.

وقد جاءت قصة الشق في رواية مطوَّلة جداً من حديث شدَّاد بن أوس رواها أبو نُعيم في الدلائل ورواها الطبري في التاريخ والقسطلاني في المواهب وجمع غيرهم، وقد نقد هذه الرواية ابن كثير من جهة سندها فقال: وقد روى أبو نعيم الحافظ في الدلائل من طريق عمر بن الصبح هذه القصة مطولة جداً، ولكن عمر بن صبح هذا متروك كذاب متهم بالوضع فلهذا لم نذكر لفظ الحديث إذ لا يفرح به، فهذا نقد فني يدل على أن ما ثبت بغير هذا السند صحيح الوقوع.

رواية أخرى لا مطعن فيها

وقد جاءت القصة أيضاً في حديث رواه أبو نعيم والإمام أحمد وصحَّحه الحاكم عن عتبة بن عبدالله أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: كيف كان أول شأنك يا رسول الله؟ قال: كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بَهْم لنا ولم نأخذ معنا زاداً، فقلت: يا أخي اذهب فائتنا بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البَهْم، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأقبلا يبتدراني فأخذاني فبطحاني للقفا فشقَّا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه علقتين سوداوَين، فقال أحدهما لصاحبه: ائتني بماء ثلج فغسلا به جوفي ثم قال: ائتني بماء برد فغسلا به قلبي، ثم قال: ائتني بالسكينة فذرَّاها في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خِطْه، فخاطه وختم على قلبي بخاتم النبوة، فقال أحدهما لصاحبه: اجعله في كفة واجعل ألفاً من أمته في كفة فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي أشفق أن يخرّ علي بعضهم، فقال: لو أن أمته وزنت به لمال بهم، ثم انطلقا فتركاني وفرقت فرقاً شديداً، ثم انطلقت إلى أمي فأخبرتها

بالذي لقيت، فأشفقت أن يكون قد لبّس بي فقالت: أعيذك بالله، فرحلتْ بعيراً لها وحملتني على الرحل وركبت خلفي حتى بلغنا إلى أمي، فقالت: أديت أمانتي وذمتي، وحدثتها بالذي لقيت فلم يرعها، وقالت: إني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام.

تعقيب وتصويب

وهذه الرواية تتفق مع الروايتين السابقتين في جوهر الواقعة، وهو أنه ﷺ شق بطنه وأخرج منه قلبه فشق وغسل ثم أعيد، وخيط عليه وختم بخاتم النبوة، وذلك في أول طفوليته وهو عند ظئره في بادية بني سعد ابن بكر.

وتختلف معهما فيما حكته من أنه ﷺ هو الذي ذهب إلى ظئره وقد فَرِق مما وقع له فرقاً شديداً حتى خشي أن يكون قد لبّس عليه، فسكّنت ظئره روعه، وأعاذته بالله مما أشفق على نفسه منه، وأما الروايتان السابقتان فلم تعرض إحداهما لهذا ولعله من باب الاختصار، وعرضت له الرواية المشهورة فذكرت أن الذي ذهب فأخبر أمه هو أخوه من الرضاع وأن ظئره هي التي خافت عليه وردته إلى أمه بمكة.

أصح الروايات في القصة

قال ابن كثير: وثبت في صحيح مسلم من طريق حمّاد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان... فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب واستخرج منه علقة سوداء. فقال: هذا حظ الشيطان، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعَون إلى أمه - يعني ظئره - فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون.

قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره.

هذه رواية ارتفعت عن جميع ما سبقها من جهة علو السند وصحته وقوته، فحسبك بمصدرها أحد الصحيحين، وحسبك برواتها أنهم ممن اتفق على توثيقهم والرواية عنهم الشيخان البخاري ومسلم، فلا سبيل إلى التشكيك في وقوع القصة بعدها، وهي واضحة في أن القصة وقعت والنبي ﷺ في طفوليته يلعب مع الغلمان عند ظئره في بادية بني سعد.

وروى عبدالله بن أحمد بن حنبل في زوائده على مسند أبيه عن أبي هريرة قال: يا رسول الله، ما أول ما ابتدئت به من أمر النبوة؟ قال: إني لفي صحراء أمشي ابن عشر حجج إذْ أنا برجلين فوق رأسي يقول أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأخذاني فألصقاني لحلاوة القفا، ثم شقّا بطني، وكان أحدهما يختلف بالماء في طست من ذهب والآخر يغسل جوفي، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فإذا صدري فيما أرى مفلوق، لا أجد له وجعاً، ثم قال: اشقق قلبه، فشق قلبي، فقال: أخرِج الغلَّ والحسد منه، فأخرِج شبه العلقة فنبذ به، ثم قال: أدخل الرأفة والرحمة قلبه، فأدخل شيئاً كهيئة الفضة، ثم أخرج ذروراً كان معه فذرَّ عليه، ثم نقر إبهامي، ثم قال: اغد، فرجعت بما لم أغدُ به من رحمتي للصغير ورقتي على الكبير.

رواية متسقة الأسلوب

وفي هذه الرواية مخالفة جوهرية في الزمن والسن التي كان عليها محمد ﷺ وقت وقوع القصة، فهي صريحة في أنها وقعت وسنه عشر سنوات، ولم يقل أحد أنه كان وهو في هذه السن لا يزال في بادية بني سعد، فالصحراء المذكورة هنا هي غير صحراء السعديين الذين كان مسترضعاً فيهم، فالمخالفة بين هذه الرواية والروايات السابقة في الزمان والمكان، ومن ثم جزم بعض العلماء بتعدد القصة، ولا نميل إلى مثل هذا.

تعقيب

ومن الروايات المحددة لسنه ﷺ وقت وقوع القصة رواية الواقدي عن أصحابه كما يرويها تلميذه محمد بن سعد في الطبقات قال: مكث عندهم ـ بني سعد ـ سنتين حتى فطم وكأنه ابن أربع سنين، فقدموا به على أمه زائرين لها وأخبرتها حليمة خبره وما رأوا من بركته، فقالت آمنة: ارجعي بابني فإني أخاف عليه وباء مكة، فوالله ليكوننَّ له شأن، فرجعت به، ولما بلغ أربع سنين كان يغدو مع أخيه وأخته في البَهْم قريباً من الحي، فأتاه الملكان هناك فشقا بطنه واستخرجا علقة سوداء فطرحاها وغسلا بطنه بماء الثلج في طست من ذهب، ثم وزن بألف من أمته فوزنهم، فقال أحدهما للآخر: دعه فلو وُزن بأمته كلها لوزنهم، وجاء أخوه يصيح بأمه: أدركي أخي القرشي، فخرجت أمه تعدو ومعها أبوه فيجد أن رسول الله ﷺ منتقع اللون، فنزلت

به إلى آمنة بنت وهب وأخبرتها خبره، وقالت: إنا لا نرده إلا على جدع أنفنا، ثم رجعت به أيضاً فكان عندها سنة أو نحوها لا تدعه يذهب مكاناً بعيداً.

فهذه الرواية تخالف سابقاتها في تعيين سن محمد ﷺ وقت حدوث شق الصدر بأربع سنوات، وتجعله متصلاً بقصة رضاعه في بني سعد وتجعل باديتهم مكاناً للقصة، فهي موافقة للرواية المشهورة المتداولة فيما عدا تعيين السن، فالرواية المشهورة حددته بسنتين وأشهر، ورواية زوائد المسند حددته بعشر سنين، وهذه بأربع سنوات.

وقد وقف العلماء عند هذا الاختلاف بعد اطمئنانهم إلى سلامة السند في الروايات التي سقناها أن يدخله طعن ينزل بواحدة منها إلى الوضع والكذب، ولكنها تنتهي إلى درجة من الصحة والحسن متفاوتة القوة، فرجَّح فريق منهم بعض الروايات على بعض وجزم بأن القصة وقعت مرة واحدة في طفولية محمد ﷺ، وإلى ذلك جنح القاضي عياض، وهو إمام ضليع الإمامة في الحديث والسيرة ومعرفة الأسانيد، وعارضه الإمام السهيلي مرتضياً أن القصة وقعت مرتين. قال ابن حجر في الفتح: وهو الصواب، ولعل مرد ذلك ما في الروايات من اختلاف جوهري في زمن القصة ومكانها مع عدم ضعف السند ضعفاً يقتضي إهداره وطرحه، وإلى تعدد القصة أكثر من مرة مال القسطلاني في المواهب فقال: وهذا الشق روي أنه وقع له عليه الصلاة والسلام مرات في حال طفوليته إرهاصاً، وتقدم المعجزة على زمان البعثة جائز للإرهاص.

هذه الروايات والنقول والأقاويل كلها تدور على أساس أن شق الصدر وقع له ﷺ قبل بعثته بالرسالة، وأن ذلك كان في طفوليته فيما بين السنة الثالثة إلى السنة العاشرة من عمره المبارك، وأصح ما في ذلك وأهواه بالقبول رواية صحيح مسلم، وهي على إجمالها واضحة في إثبات القصة ثبوتاً لا يعتريه ريب ولا لبس، وواضحة في أن ذلك كان إرهاصاً معجزاً ولا يكون كذلك إلا إذا كان في حال اليقظة على الطريقة التي لا تبقى معها حياة في العادة ومتعارف الناس.

رواية تشعر بأن الأمر كان رؤيا منامية ووجه تأويلها وردها إلى الروايات الصحيحة

غير أن بعض الروايات جاءت فيها ألفاظ ربما كانت مشعرة بأن الأمر في القصة لم يخرج عن كونه رؤيا منام رآها رسول الله ﷺ، فقد جاء في رواية ابن عساكر من حديث عروة بن الزبير عن أبي ذر الغفاري قال: قلت: يارسول الله، كيف علمت أنك نبي حين علمت ذلك واستيقنت أنك نبي؟ قال: يا أبا ذر أتاني ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة، وساق الحديث حتى ذكر شق الصدر وخياطته وجعل الخاتم بين كتفيه إلى أن قال النبي ﷺ، فما هو إلا أن ولَّيا عني فكأنما أعاين الأمر معاينة، فهذا ظاهر في أن الأمر لم يكن معاينة محققة، ولكنه كان شبيهاً بالمعاينة من جهة، وفيه جميع ما جرى له وعدم ذهاب شيء عن وعيه منه، وفي هذه الرواية تعيين لمكان القصة وأنها كانت ببعض بطحاء مكة، ولذلك ذهب بعض العلماء إلى أن هذه قصة أخرى غير قصة بادية بني سعد التي اتفق عليها الرواة، ولعل هذه كانت في مبدأ النبوة، وكان أول ما بدىء به ﷺ الرؤيا الصادقة، فتكون من هذا القبيل، وليس لهذه الكلمة الواردة في هذه الرواية قوة ردِّ جميع الروايات المتقدمة بما فيها رواية صحيح مسلم، وكلها صريحة في أن القصة وقعت وقوعاً مادياً في اليقظة من قبيل الإرهاص والإعجاز. على أن مكان العناية في الأمر أن شق الصدر معجزة من معجزات محمد ﷺ التي لم يقصد بها إلى التحدي ولم تجعل برهاناً على إثبات الرسالة، وأن النبي ﷺ لم يخبرها إلا جواباً لسائل، وهذا القدر ثابت في روايات توشك لكثرتها أن تجعل الحادث متواترة الحديث تواتراً معنوياً.

ومما يجزم الشك ويرفع الاشتباه ويزيل الالتباس ما رواه البخاري في حديث الإسراء عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدِّث أن رسول الله ﷺ قال: فُرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدري ثم أطبقه، وهذا يطابق في المعنى حديث أبي ذر المتقدم.

وقد تكلم العلماء فأوسعوا في شرح ألفاظ القصة، وذكروا حكمتها وحكمة كل فعل روي فيها من الغسل بماء زمزم أو غيره، ونزع العلقة وذر السكينة وإدخال الإيمان والحكمة والرأفة والرحمة بما لا يدع مجالاً لمؤمن في

حقائق التاريخ لا تقيم وزناً لمكابرة «العقلانيين»

التوقف عن قبول القصة والإيمان بها، ولا عبرة بعدم اطمئنان المستشرقين وجماعة «العقلانيين» من الباحثين المعاصرين إلى القصة ووقوعها، فلو لم يكن في رواياتها إلا رواية الشيخين البخاري ومسلم لكانت في أعلى مراتب الصحة من ناحية السند. وأما غمز القصة بطفولية النبي ﷺ واستعظام ما حدث به على سنه في الرواية، فهذا من قبيل الإيهام المضلِّل، لأن تحديد السن لم تتفق عليه الروايات، على أننا نسأل عبيد الاستشراق والمستشرقين: ما قولكم في رواية البخاري وهي صريحة في أن القصة وقعت بعد النبوة ليلة الإسراء؟ والحديث معكم في وقوع القصة لا في زمانها ومكانها، لأن ذلك تحقيق تاريخي لا يضير البحث ألّا تؤمنوا به، وكيف يستعظم تحدثه ﷺ على سنه، والأمر كله من قبيل الإعجاز؟ على أن تحدثه كان وهو نبي رسول، إذ سُئل من بعض أصحابه فأجاب بما جاء في الرواية.

والذي يعني البحث أن قصة شق الصدر حادث كوني ومعجزة عجيبة وقعت لنبينا محمد ﷺ وجاءتنا بها الروايات الصحيحة الثابتة، ولا يردها تشكيك مستشرق ولا مستغرب ولا (متعوقل) ولا متعالم، ولم يتخذ منها النبي ﷺ آية للتحدي والبرهنة على صدق رسالته كغيرها من المعجزات الكونية والخوارق العجيبة قبل البعثة أو بعدها، ونحن نعلم أن هذا اللون من الآيات المعجزة لو لم يذكر في سيرة نبينا محمد ﷺ لم ينقص من جلالها شيئاً، وأن معجزته العظمى الخالدة التي حملت بين طواياها التحدي بها هي القرآن العظيم، ولكن حقائق التاريخ يجب أن يرتفع بها البحث إلى قدس الحق بعيداً عن التعصب الحقود والتقليد الأبله، والتأثر بالنزعات المجافية لطبيعة الدين والإيمان به، وعلى الذين يؤرخون لمحمد ﷺ ويكتبون في سيرته أن يجعلوا نصب أعينهم أن محمداً ﷺ نبي من أنبياء الله ورسول من رسل الله، وأن عظمته في نبوته ورسالته لا في عبقريته وبطولته، فهو بالنبوة والرسالة قد سما على العبقرية والبطولة، وإنما فضله على إخوانه الأنبياء والمرسلين بما منحه الله تعالى من فضل في شريعته التي ختم الله الشرائع بها، وجعلها جامعة لجميع ما جاءت به الشرائع المتقدمة من خير وإصلاح وتهذيب مع زيادة ما يقتضيه تقدم الإنسانية في تفكيرها وعقلها وروحها

عظمة محمد ﷺ في رسالته الخالدة

وضميرها. ولعل هذا هو ما أشار إليه القرآن الكريم بعد أن ذكر أُولي العزم من الرسل في آية ﴿ وَتِلْكَ حجَّتُنا آتَيْنَاها إبْرَاهِيم عَلَى قَوْمِهِ ﴾ فقال تعالى: ﴿ أولئك الّذيْنَ هَدَى الله فبهداهم اقْتَدِه ﴾ فهُدى الجميع هُدى لمحمد ﷺ، فهو الجامع لما تفرق في جميع الأنبياء والمرسلين من الفضائل والمحامد، وإليه ينتهي خيرهم، وفي شريعته تنطوي شرائعهم، فهي خاتمة الشرائع وهو خاتم النبيين وإمام المرسلين.

محمد صلى الله عليه وسلم في طفولته

لعل التصور المقارب للواقع التاريخي يستطيع أن يسعف القلم ليرسم صورة موجزة مقاربة لمطلع حياة طفولية نهدت في لفائف اليتم لأكرم من ضمه مهد في حياة البشرية، حتى يستشف البحث من وراء ذلك حقائق الوجود الواقعي في مشهد الحياة لهذه الشخصية الكريمة التي غيَّرت معالم الحياة في تاريخ البشرية.

يُتْم محمد ﷺ نعمة عظمى في طي محنة مهذِّبة

تولى الله أمر محمد ﷺ منذ أول لحظة حظي فيها الوجود بإشراق طلعته، فنشأه تنشئة جمع له فيها خصائص الفطرة الإنسانية في أعلى مراتبها وأرفع درجاتها، فلم يكله إلى أب يكفله ويربيه، وللأبوة أثرها على الطفولة وتوجيهها في الحياة، ومن ثم كان فقد محمد ﷺ أباه قبل أن يتنسم نسيم الوجود في هذه الدنيا العريضة نعمة من أجلِّ نعم الله، فهو لم يشهد أباه ولم يعرف عنه وعن شمائله وأخلاقه وعاداته ووسائله في عيشه إلا ما حدثته به أمه عنه في طفوليته وهي كسيرة القلب حزينة الفؤاد لفراق ذلك الزوج الحبيب والأب الكريم، ومحمد ﷺ يوم أن عقل هذا الحديث وتصور منه صورة أبيه كان قد أخذ سمتاً في الحياة لا تغيره الأحاديث، ولا تؤثر فيه الصور الذهنية المركبة من مجموعة قصص عمن كان وما كان؛ إلا كما يؤثر بريق التاريخ اللامع في توجيه أمة تكنفها عناصر الحياة بدوافعها الحية المتدفقة، وأي أثر لهذا البريق غير الإعجاب بالماضي الذي ذهب ولن يعود؟.

سوير لعاطفة الأمومة المتجاذبة بالألم والأمل

ولد محمد ﷺ يتيماً، ولم يستشعر عطف الأبوة يفيض به قلب والد فطره الله ـ كغيره من الوالدين ـ على لون من الحنان لم يعطه الله غير قلوب

الوالدين، وللطفولة إلهام تقرأ آياته في نظراتها الحالمة، وبسماتها الساهمة، وفي هذا الإلهام ضرب من الإدراك الخافت الذي يلمس به الطفل حنان الأبوة وعطفها، فترسم على فمه بسمة صادقة وعلى عينيه نظرة صافية صفاء الفطرة الخالية من الرسوم والأصداء، ولقد ارتسمت على فم محمد ﷺ تلك البسمة الصادقة، وطافته بعينيه تلك النظرة الصافية، ونظرت إليه أمه آمنة بنت وهب- وكانت قريبة عهد بفراق زوجها الحبيب- فجدد نظرها إليه في نفسها حزناً مبرحاً وألماً كظيماً، فرأت على ثغره ابتسامة متوهجة وفي عينيه تطلُّع إلى السماء، ولعل خيالها المصور أسعفها فأراها في وجه وليدها المحبوب وجه والده الحبيب، وتنازعتها عاطفتان: عاطفة الوالدة وقد أشرق عليها وجه وليدها وقرة عينها، وعاطفة الزوجة فقدت زوجها الحبيب، ولكنها تتمثله وترى وجهه في وجه هذا الوليد الحبيب، وتغلبت عاطفة الأمومة الحانية على عاطفة الزوجية الودود، وضمت آمنة وليدها إلى صدرها، واختلطت عليها الأحاسيس واستنار وجهها وحن ثديها، فأرضعت ابنها، فكان لبنها أول غذاء غُذي به، ونمت عليه خلاياه، ثم تناولته بين يديها ثويبة أم مسروح جارية عمه أبي لهب فألقمته ثديها فرضع منه ما شاء من ري وشبع، وظل بين أمه وظئره الأولى مدة لم يذكر التاريخ تحديدها حتى أهَلَّ على مكة موسم المراضع، فقدم السعديات إليها يطلبن الرُّضَّع وفيهن حليمة بنت الحارث فكان محمد ﷺ نصيبها وكانت هي من حظه، وحملته وارتحلت به إلى باديتها، وكان الصدر الذي يضمه ليس صدر آمنة أمه، ولكنه صدر حليمة ظئره، وفرق كبير بين العاطفتين: عاطفة الأمومة الوالدة، وعاطفة الامومة المرضعة، فحرم حنان أمه بعد أن مضى القدر فحرمه عطف أبيه.

يُتْم بطرفيه في بيئة توحي بأقصى وثبات العقل في تعرف أسرار الحياة والكون

ذلك لون من اليتم الجديد، قضت به العادات المتوارثة فيها بين العرب، فهو قد حرم عاطفة الأبوة المشفقة، وبوعد من عاطفة الأمومة الحانية، ونشأ بعيداً عن بلده وقومه، وبلده حاضرة البلاد العربية، لها من طبيعة الحواضر ما يسمها بميسم اللين والدعة، وقومه أهل شرف وسيادة في بلده، وللشرف والسيادة آثارهما على الأخلاق والتطبُّع وتوجيه الغرائز والسلوك، نشأ في بادية بين قوم من العرب عرفوا بصفاء البيان، وفصاحة

اللسن، ضاق عيشهم وعصفتهم السنون، يعيشون في بادية ضاحية الأديم، تصهرها الشمس إذا أسفرت، وتتلألأ في سماء لياليها النجوم الزواهر، ويضيئها القمر المنير، ويزمجر في أرجائها الرعد، ويلمع في آفاقها البرق، وتهدر في وديانها العواصف وتطبعها الحياة بطابع قاس متقلب، تنتشر على صفحتها هنا وهناك خيام يأوي إليها فئام من الناس إذا هجع الليل، أو هجّر النهار، يسرحون بالبهم يرتادون لها المراعي وظلال الشجر وأعداد المياه ومجاري الوديان ومجتمع الأنهار والغُدُر، ومساقط الغيث ومنابت الكلأ، وذلك هو كل ما يشغل أهل هذه البيئة، وفيما سواه فراغ لا يملأه من العمل كثير ولا قليل، فهي بيئة تدعو إلى التأمل والتفكر، وتقليب النظر في ملكوت الله تعالى ومظاهر الوجود. ما وراء هذا الفضاء الأفيح؟ وما هذه القبة الزرقاء المتعاظمة في سعة آفاقها؟ وما هذه السابحات المتلألئات في أديمها؟ وما هذا الجرم الفضي الذي يبعث على هذه الأرض بأنواره المظللة بنسائم الأسحار؟ وما هذا اللهب المنبعث مع خيوط الضياء الوهاج من هذا الجرم النهاري السابح في آفاق السماء؟ وما الذي يمسك ذلك ويديره على هذا النظام المحكم البديع؟ وما هذا الصوت الهائل المزعج الذي يصحب دائماً الغيث مبشراً أو نذيراً؟ وما هذا الضوء الخاطف بلمعانه في أطراف السماء؟ وما هذه العواصف المزمجرة؟ وما الذي يهيجها ويحركها؟ وما هذه النباتات والأشجار في أشكالها وألوانها وروائحها وطعومها؟ من أين جاءت وكيف نبتت؟ ثم ما أنا؟ ومن أنا؟ ومن أين جئت؟ وإلى أين أذهب؟ ثم ما هذه الحياة؟ وما هذا الوجود؟ ما مبدؤه؟ وما غايته؟ وهل فوقه قوة تدبره؟ وإرادة قاهرة تحركه؟ وما حقيقة تلك القوة المدبرة الحكيمة، وأنّى لنا بمعرفتها وأسلوب حكمتها وتدبيرها؟

انفعال خواطر محمد ﷺ وتأثر فطرته بجلال الطبيعة وجمال الكون

كل هذه أسئلة لا بد أن تمر على خاطر من يقيم في بيئة مثل البيئة التي كانت مهداً لمحمد ﷺ في بادية بني سعد بن بكر، ولا بد أن تنفعل لها الخواطر التي تمر بها، وتتأثر بها الفطر المصقولة التي جعل الله لها قابلية الانطباع لما يمر عليها، أما النفوس الصدئة والفطر الكثيفة فليس لها من ذلك الانفعال شيء، فكم من نفوس شهدت جلال الصحراء وجمالها كما شهدها

محمد ﷺ في طفوليته، ولكن قليل جداً هم الذين تأثروا بذلك الجلال الوجودي والجمال الكوني، وانفعلت له فطرهم كما تأثر محمد ﷺ وهو طفل لم يجاوز الخامسة من عمره، وحتى هذا القليل لم يكتب له طرف مما كتب التاريخ من تسبيحات الفكر في محاريب الوجود، بل ضلوا وضل ذكرهم في متاهات الصحراء، وبقي محمد ﷺ وحده على ربوة الوجود يجاذبه هذا الجلال ترانيم التقديس في صور من التأملات والتفكير.

رجع محمد ﷺ من بادية بني سعد إلى مكة بعد أن بلغ من عمره سنوات هي سن تبلغ فيها الطفولية أول مراحل الشباب، والشباب حماسة ونشاط وقوة وتطلع إلى معرفة كل مجهول، وأي شيء في حياة الصحراء مجهول؟ أليست الحياة فيها مكشوفة عريانة؟ الأرض وما عليها من جبال ووديان وحيوان ونبات، والسماء وما فيها من شموس وأقمار ونجوم وكواكب، والجو بعواصفه وأمطاره ورعوده وبروقه، كلها أمور مرئية مشهودة، ولكن ما مبلغ علم الناس بها، لا شيء سوى هذه الظواهر المكرورة في كل وقت وحين، أما ما وراء ذلك فهو محجب مغلق، فأي شيء إذاً في حياة الصحراء معلوم؟.

الحيرة الفكرية أمام مطاهر الطبيعة وجلال الكون هي الآية الأولى في سِفر الوجود أمام محمد ﷺ

هذه الحيرة الفكرية هي الآية الأولى التي قرأها محمد ﷺ في كتاب الوجود على صفحة الصحراء، وهي التي رجع بها إلى مكة االسادرة في غي وثنيتها، السكرى بخمر أصنامها، المحجوبة عن التفكير في جمال الكون بتجارتها وأسواقها ومواسمها وأعيادها وعاداتها، فنظرت إليه ونظر إليها، نظرت إليه بمنظار وثنيتها فلم تره يمشي إلى أصنامها لاهياً كما يمشي أطفالها لاهية عابثة، بل رأت فيه طفلاً ينطوي على نفسه وكأنه يحمل من هموم الدنيا وأحزانها ما صرفه عن اللهو واللعب.

وارحمتا لهذا الصبي إنه يتيم، يرى لداته من الأطفال يرتمون في أحضان آبائهم فيضمونهم إلى صدورهم فيملأه الحزن ألّا يرى له أباً بين هؤلاء الآباء، كذلك فكرت مكة في نظرتها إلى محمد ﷺ في صمته وعزلته عن معابثها وملاهيها، ونظر إليها محمد ﷺ من خلال حيرته الفكرية، فرأى

صوراً هزلية، ورأى مسخاً للكرامة الإنسانية، ما هذه الأحجار المنحوتة؟ وما هذا الدوار بها؟ وما هذه القرابين؟ ولمن يتقرب بها؟ وفيم هذه الدماء المسفوكة؟ والمساكين غرقى؟ والفقراء جوعى لا يصلون إلى شيء ولا يصل إليهم شيء. ولكن ما حيلة محمد ﷺ وهو طفل في هذه الهامات الضخمة واللحى المسترسلة والرقاب الغليظة والأصوات المفزعة والمجد الزائف الموروث والشرف المؤثل؟! فهي التي تطوف بهذه الأحجار، وهي التي تدور وتتقرب، وهي التي تهذل وتمسخ، لو كان يسمع له لقال وتكلم، ولعله أن يكون.

وفي حياة محمد ﷺ الخاصة ما يشغله عن صخب مكة ولهوها العابث حول أحجارها وأوثانها، فليذهب إلى أمه ليسكن إلى ضمة صدرها وحنان قلبها، وقد كان يزورها مع ظئره فتخطف له الحديث خطفاً عن أبيه وأسرته وقومه وبلده.

حديث أم ثكلى إلى ولدها الحبيب

فأنت محمد بن عبدالله الكريم بن الكريم، أبوك أنضر فتيان مكة وأشبّها شباباً، وأعلاها ذكراً. هو الذي لم تنسَ مكة حادث فخره في قمة ذبحه، فأين هو؟ إنه.. وتخنق آمنة العبرة فلا تستطيع أن تمضي في الحديث، فينظر إليها وليدها الحبيب، فإذا هي سيالة بالعبرات المكتومة، فيرفع إليها وجهه النضير، أنتِ تبكين يا أماه؟ وتضم آمنة ابنها إلى صدرها ضمة توشك أن تطوي عليه جوانحها، ثم تعود إلى الحديث في طرف آخر منه. وهذا السيد العظيم الذي يلتف حوله الملأ من صناديد قريش يسمعون لقوله، ويبتدرون نظراته هو جدك شيبة الحمد عبد المطلب بن هاشم سيد الحرم وشريف مكة وكبير قريش. وهؤلاء الفتيان البهاليل المساميح حول هذا الشيخ في وقفة الإجلال له إنهم أعمامك وأخوة أبيك. وهؤلاء الصيد الأماجد الذين يملؤون السمع والبصر يغدون في طرقات مكة ويروحون في عنجهية واستعلاء إنهم قريش قومك وعشيرتك. وهذا البلد الأمين بلدك، فأنت ابن الأكرمين أهل الله وجيران بيته وسكان حرمه، تدين العرب بالطاعة لهم، وتسمع لقولهم وتعنو الجباه لحرمة بلدهم.

وعرف محمد ﷺ أنه يتيم وأن أباه ليس في غيبة لها أوبـة، ولكنه مضى إلى حيث لا يعود، ويخرج محمد ﷺ إلى حيث فراش جده في ظل الكعبة، فيلقى أعمامه حافّين حوله، ولما يخرج إليهم الشيخ العظيم، فيذهب ليجلس على مجلس جده ويأبى أن يجلس حيث أعمامه، فيهمّ أولئك الأعمام بتنحيته، ويلقاهم أبوهم في همّهم هذا فيأخذ بيد محمد ﷺ ويجلسه معه، ويمسح ظهره بيده ويظهر له رقة وحباً لم يكونا لأحد من ولده ويقول: دعوا ابني فوالله إن له لشأناً.

سفر محمد ﷺ إلى يثرب ووفاة أمه
وهي عائدة به إلى مكة

رحلة وفاء وتعرّف وصلة رحم

ويرجع محمد ﷺ بعد مجلسه عند جده إلى أمه فتحدثه وتداعبه، وفيم يطيب الحديث بين آمنة وابنها الحبيب؟ إلا عن ذلك الراحل الأريب، ويتصل الحديث عن عبدالله وتختلس آمنة النظر إلى ابنها وفي عينيها عبرات، ويلمح محمد ﷺ وجه أمه تكسوه مسحة من الحزن الصامت وتلتقي عيناه بعينيها فتضمه إلى صدرها الحنون وتنسى أحزانها، وتقبل عليه في ابتسامة تعبر عن آمالها وأحلامها، وتخبره عن رحلة أبيه ووفاته والبلد الذي دفن فيه، وصلته بأهل ذلك البلد في شيء من التفصيل، فكأنما حنَّت نفسه إلى زيارة أقاربه في ذلك البلد الذي يحوي جدث أبيه، وكأنما صادف ذلك من نفس أمه رغبة موافقة ورأت في شبابه ـ وكان قد بلغ سنه ست سنوات ـ قوة على احتمال السفر، فتحملت به ومعه حاضنته أم أيمن التي أورثها له أبوه، فأزارته أخوال جده عبد المطلب، وهناك لعب مع لداته، ورآه يهود يثرب فتحدثوا عنه، وسمعتهم حاضنته فتوجست عليه منهم وأبلغت سيدتها فرحلوا عائدين إلى مكة، ولما كانوا على نحو ثلاثة وعشرين ميلاً من يثرب وقد بلغوا قرية «الأبواء» مرضت آمنة أم محمد ﷺ مرضاً بلَّغها الأجل، ودفنها هناك ابنها الحبيب وحاضنته أم أيمن وعادا على بعيريهما إلى مكة. قال ابن سعد في الطبقات: كان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب، فلما بلغ ست سنين خرجت به إلى أخواله بني عدي بن النجار بالمدينة تزورهم به ومعه أم أيمن تحضنه، وهم على بعيرين، فنزلت به في دار النابغة فأقامت به عندهم شهراً.

وفاة أمه ﷺ ودفنها بالأبواء وهي عائدة به إلى مكة

فكان رسول الله ﷺ يذكر أموراً كانت في مقامه ذلك، لما نظر إلى أطم

«قصر» بني عدي بن النجار بعد هجرته عرفه وقال: «كنت ألاعب أنيسة جارية من الأنصار على هذا الأطم، وكنت مع غلمان من أخوالي نطير طائراً كان يقع عليه» ونظر إلى الدار فقال: «هنا نزلت بي أمي» وفي هذه الدار قبر أبي عبدالله بن عبد المطلب، وأحسنت العَوْم في بئر بني عدي بن النجار».

ذكريات الطفولة لا تمحوها السنون

وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إليه، فقالت أم أيمن: فسمعت أحدهم يقول: (هو نبي هذه الأمة، وهذه دار هجرته) فوعيت ذلك كله من كلامه، ثم رجعت به أمه إلى مكة، فلما كانوا بالأبواء توفيت آمنة بنت وهب فقبرها هناك، فرجعت به أم أيمن على البعيرين اللذين قدموا عليهما، وكانت تحضنه مع أمه، ثم بعد أن ماتت، وقال القسطلاني في المواهب: وقد كانت أم أيمن بركة دايته وحاضنته بعد موت أمه، وكان عليه السلام يقول: (أنتِ أمي بعد أمي).

نفثات حب يتنسمها القلم

لك الله يا سيدي يا رسول الله، خرجت في رفقة أمك الحبيبة شوقاً إلى زيارة بلد ضم جسد أبيك الذي لم يشهد إشراق طلعتك ولم تشهد شخصه في حياته، وكان قدر الله تعالى الحكيم رصداً لوالدتك في طريق عودتها بك إلى بلدك الحرام وجدك الشيخ العظيم، فجمع لك ربك يتم الأبوين، ليستخلصك بالتربية، ويصطنعك بالتأديب حتى تكون نشأتك ربانية وتأديبك إلهياً؛ فتتم لك النعمة وتعظم من الله عليك المنة، فتستأهل للخلود في آيات متعبدة متلوة آناء الليل وأطراف النهار ﴿والضحى والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيمًا فآوى. . . ﴾، فإذا اشتاقت نفسك الكريمة إلى توالي إتحاف الله لك بنعمة فلا يجولن بخاطرك، تلهفاً على ألطاف الملكوت أن ربك ودعك، ولا تتأسى لما يردده الجاحدون، فأنت الحبيب المحبوب، وأنت ربيب إحسان الربوبية منذ أن شرف الوجود بوجود نورك، فكيف يتركك ربك بعد مظهر الاصطفاء الأعظم وأنت فيه واسطة عقد الملكوت وروح الموجود، وما تركك وأنت بعدُ غلام في مكة لم تطالع من سفر الوجود إلا فاتحة الكتاب.

لك الله يا سيدي رسول الله، ألم يجدك ربك يتيماً فآواك إلى كنف عزته، وأي يتم أبلغ في النفس أثراً وأعمق في القلب ألماً من يتم يتلاحق فيه الأبوان قبل أن تشتد لصروف الحياة قناة الوليد؟ وأنت ذلك اليتيم الذي فقد أباه قبل وجوده، وفقد أمه في طلائع طفوليته ونماء عوده، لم تبك لفقد أبيك لأنك لم تكن لفقده شهيداً، ولكن أمك تموت على مشهد من عينك في بلد أنت فيه غريب، فوارحمتا لطفوليتك الغضة يهيضها فادح الأرزاء غربة، «ويتم» يلاحق يتماً. روى أبو نعيم من طريق الزهري عن أسماء بنت رهم عن أمها قالت: شهدت آمنة أم النبي ﷺ في علتها التي ماتت فيها ومحمد عليه السلام غلام يقع عند رأسها، فنظرت إلى وجهه ثم قالت: كل حي ميت، وكل جديد بال، وكل كثير يفني، وأنا ميتة وذكري باق، وقد تركت خيراً وولدت طهراً.

أي أم محمد رسول الله ﷺ، أي سطر في كتاب الوجود أمليته على الكرام الكاتبين فنغّموا لك واستجابوا لقولك مؤمنين؟ وأية آية من سفر الخلود رتّلْتِها ساعة وداعك الدنيا الفانية وفيها ابنك الحبيب محمد ﷺ نور الوجود ورمز الخلود؟ وأي إلهام ألقى عليك هذه الكلمات في ساعة يعصر فيها الوجد قلب الحبيب، إنكِ قلتِ أنا ميتة وذكري باق، فقال الوجود: أجل يا أم محمد، وقلتِ: وقد تركت خيراً وولدت طهراً، فقالت السماء: نعم يا أم محمد، وكفاك ذكراً أنَّكِ أم محمد رسول رب العالمين، وكفاك فخراً أنكِ أم محمد أطهر المطهَّرين وسيد المرسلين.

محمّد صلّى الله عليه وسلّم
في كفالة جده

صبابة جده به وحبه له

ودَفَن محمدٌ ﷺ أمه وعاد إلى مكة ومعه حاضنته وأمه بعد أمه السيدة البرة أم أيمن وقلبه ينفطر أسى وحزناً لفقد أمه التي كان يجد في أحضانها وأحاديثها ومناغاتها غذاء لطفوليته ونشوة لشبابه ، وتلقاه جده الشيخ المُلَقّى عبد المطلب فقرأ على صفحات وجهه أبلغ الحزن وأمضى الأسى، فرق له رقة لم يرقها على ولده، وصب به صبابة شديدة، وكان يقربه ويدنيه ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام، وكان لا يأكل طعاماً إلا قال: عليَّ بابني . وكان يحرص عليه أشد الحرص لما كان يسمع من أهل الكتاب والمعتافين في شأنه. روى ابن سعد أن عبد المطلب قال لحاضنته أم أيمن: يا بركة لا تغفلي عن ابني، فإني وجدته مع غلمان قريباً من السدرة، وأن أهل الكتاب يزعمون أن ابني هذا نبي هذه الأمة. وقال قوم من بني مدلج لعبد المطلب ـ وكانوا أهل عيافة وفطنة في معرفة الأثر والشيات الموروثة ـ احتفظ به ـ يعنون محمداً ـ فإنا لم نَرَ قدماً أشبه بالقدم التي في المقام منه، فقال عبد المطلب لأبي طالب: اسمع ما يقول هؤلاء. وروى ابن سعد عن كندير بن سعيد عن أبيه قال: كنت أطوف بالبيت فإذا رجل يقول:

رَبِّ ردَّ إلي راكبي محمدا   رده إليّ واصطنع عندي يدا

فقلت: من هذا؟ قالوا: عبد المطلب بن هاشم، بعث بابن ابن له في طلب إبل له ولم يبعث به في حاجة إلا نجح، فما لبثنا أن جاء فضمه إليه وقال: لا أبعث بك في حاجة. وروى ابن سعد من طريق خالد بن خداش

عن أبي مجلز قال: إن عبد المطلب ، أو أبا طالب ـ شك خالد ـ لما مات عبدالله عطف على محمد ﷺ، فكان لا يسافر سفراً إلا كان معه فيه، وإنه توجه نحو الشام فنزل منزله فأتاه فيه راهب فقال: إن فيكم رجلاً صالحاً، ثم قال: أين أبو هذا الغلام، فقال عبد المطلب، هأنذا وليه أو قيل: هذا وليه، قال، احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به إلى الشام، إن اليهود حسد، وإني أخشاهم عليه، قال عبد المطلب: ما أنت تقول ذاك ولكن الله يقوله، فرده، قال: اللهم إني أستودعك محمداً ثم إنه مات.

وذكرنا لهذه الرواية هنا ترجيح لجعلها خاصة بعبد المطلب لأنه كان أول كافل لحفيده بعد وفاة أبويه الكريمين، وقد مات عبد المطلب ورسول الله ﷺ غلام لم يجاوز الثامنة من عمره، وعبد المطلب هو الذي شهر بهذه الفواضل التي ذكرت رداً على الراهب في قوله: إن فيكم رجلاً صالحاً، وكان أبو طالب ـ مع شرفه في قومه ـ عائلاً لا تقوم أسباب عيشه بمثل ما كان يقوم به عبد المطلب من المكارم. وأما عمه أبو طالب فقد عاش حتى شرّف الله محمداً ﷺ برسالته ورأى مطالع الدعوة وكانت له في حمايتها قدم راسخة.

وفاة عبد المطلب
وأثرها في نفس محمد ﷺ

بقي محمد ﷺ في كفالة جده عبد المطلب بعد وفاة أمه يرعاه الله ويكلأه بكلاءته ويحفظه بعنايته نحو من سنتين؛ لأن وفاة أمه كانت وهو في السادسة من عمره على أرجح الروايات، فلما بلغ الثامنة كان جده قد نيف على المائة في أشهر الروايات، وحضره أجله فأوصى بالنبي ﷺ إلى عمه أبي طالب يحفظه ويحوطه لأنه كان شقيق عبدالله أبي رسول الله ﷺ، وقد سُئل رسول الله ﷺ: أتذكر موت عبد المطلب؟ قال «نعم، أنا يومئذ ابن ثماني سنين» وقالت حاضنته أم أيمن: رأيت رسول الله ﷺ يومئذ يبكي خلف سرير عبد المطلب.

وكيف لا يبكي محمد عليه السلام وقد فقد بفقده جده عبد المطلب سيد قريش وشريفها وهو في طفوليته التي هي في مسيس الحاجة إلى اليد الحانية والنفس العاطفة والقلب المشفق، وكان قد لقي في جده كل ذلك وأكثر منه ـ الشخص الذي ملأ فراغ الأبوة والأمومة من حياة محمد ﷺ في هذه المرحلة التي تتغذى فيها الطفولية بالعواطف الصادقة والوجدانات المفعمة بالحنان والرحمة.

إن حياة عبد المطلب كانت في هذا الدور من حياة محمد ﷺ المهد الدافىء المظلل بظلال الأبوة الرحيمة والأمومة الوالهة، وقد أنزله من نفسه منزلاً لم ينزله أحداً من ولده، يحوطه بحبه ويرمقه بعطفه ويقدمه على بنيه، ويلازمه صبابة به فلا يفارقه في سفر أو إقامة، ويكون معه في نومه ويقظته لينسيه ألم اليتم ويمسح عنه الأحزان.

إن هذه الدموع المتحدرة من عيني محمد ﷺ وهو يودع جده العظيم في سفره الأبدي آيات من كتاب الوفاء ترتلها نفسه القديسة في صمتها الحزين.

محمّد صلّى الله عليه وسلّم
في كفالة أبي طالب

أبو طالب يتأسى بأبيه عبد المطلب في حفاوته وحبه محمداً ﷺ

أوصى عبد المطلب عند موته إلى ولده أبي طالب أن يكفل محمداً ابن أخيه الذبيح، فكان أبو طالب عند ظن أبيه به في حدبه عليه، بل كان صورة منه في جميع ما كان يوليه من حب وعطف ورعاية، قال ابن سعد عن طريق شيخه الواقدي عن ابن عباس: وكان أبو طالب لا مال له، وكان يحب محمداً حباً شديداً لا يحبه ولده، وكان لا ينام إلا إلى جنبه، وإذا خرج خرج معه، وصبَّ به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشيء قط، وكان يخصه بالطعام دون بنيه، وإذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا، فكان أبو طالب إذا أراد أن يغدي عياله قال لهم: كما أنتم حتى يأتي ولدي، فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا، فيقول أبو طالب: إنك لمبارك. وقال ابن سعد عن ابن القبطية: كان أبو طالب توضع له وسادة بالبطحاء مثنية يتكىء عليها، فجاء النبي ﷺ فبسطها ثم استلقى عليها، فجاء أبو طالب فأراد أن يتكىء عليها فسأل عنها فقالوا: أخذها ابن أخيك، فقال: وحل البطحاء إن ابن أخي هذا ليحس بنعيم.

وهذا كله شبيه بما كان يصنعه عبد المطلب مع رسول الله ﷺ بل هو صورة منه، وكان أبو طالب يرى ذلك كله من أبيه، ويراه يرضى عن كل ما يصنع محمد ﷺ ويحب ذلك منه، فجرى أبو طالب في طريق والده الشيخ وهو القدوة العليا بين أشراف قريش، وقصة وسادة أبي طالب شبيهة بقصة فراش عبد المطلب في ظل الكعبة وجلوس رسول الله ﷺ عليه تطلباً لمعالي الأمور

وسمو المكانة في الحياة، وكثيراً ما يقرأ تاريخ حياة بعض الأطفال من أفعالهم الفطرية التي تبدو في غرائزهم الأولى، وقد رأى عبد المطلب في تسامي حفيده إلى مجلسه المحفوف بالجلال صورة من السمو الذي يكون عليه في مستقبله، ورأى أبو طالب نحو هذا فصوره كل منهما بما ألهمه إحساسه وشعوره.

وكان أبو طالب على غرار أسلافه من بني عبد مناف يشتغل بالتجارة، ويرحل في عيرات قريش وقوافلها في رحلتها إلى الشام واليمن، ويظهر أنه كان قليل الحظ في الربح الكثير، وكان مع ذلك كثير العيال، فشغله ذلك عن القيام بميراث أبيه في الرفادة واكتفى أبناء عبد المطلب بالسقاية التي وليها العباس وهو من أحدث إخوته سناً.

محمد صلى الله عليه وسلم
في رحيله إلى الشام

قصة الراهب وما فيها من الآيات والإرهاصات

ولما بلغ محمد ﷺ اثنتي عشرة سنة كان عمه أبو طالب يتهيأ للرحيل في تجارته إلى الشام، فتعلق به ليأخذه معه فرقّ له أبو طالب واصطحبه وقال: والله لأخرجن به معي ولا أفارقه ولا يفارقني أبداً. روى الترمذي في جامعه عن أبي موسى الأشعري قال: خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت لهم، فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ قال: هذا سيد العالمين، فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً، ولا يسجد إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعاماً فلما أتاهم به وكان هو (رسول الله) في رعية الإبل، قال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه، فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إذا رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه، فالتفت فإذا سبعة قد أقبلوا من الروم، فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا أنَّ هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس، وإنّا قد اخترنا خيرة بعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلفكم أحد هو خير منكم، قالوا: إنما اخترنا خيرة لطريقك هذا، قال:

أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا، فبايعوه وأقاموا معه، قال: أنشدكم الله أيكم وليه؟ قالوا: أبو طالب، فلم يزل ينشده حتى رده أبو طالب، وبعث معه أبو بكر بلالاً وزوده الراهب من الكعك والزيت. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقد صحَّح الحاكم هذا الحديث، ورواه البيهقي وأبو بكر الخرائطي وابن عساكر، قال ابن كثير في البداية: وهكذا رواه غير واحد من الحفاظ من حديث أبي نوح عبد الرحمن بن غزوان الخزاعي مولاهم، ويقال له الضبي ويعرف بقراد، سكن بغداد وهو من الثقات الذين أخرج لهم البخاري ووثقه جماعة من الأئمة والحفاظ ولم أر أحداً جرحه، ومع هذا في حديثه هذا غرابة. قال عباس الدوري: ليس في الدنيا أحد يحدث به غير قراد أبي نوح وقد سمعه منه أحمد بن حنبل رحمه الله ويحيى بن معين لغرابته وانفراده.

رواة الحديث ومخرجوه ودرجته من الحسن أو الصحة

قال ابن كثير: قلت: فيه من الغرائب أنه من مرسلات الصحابة؛ فإن أبا موسى الأشعري إنما قدم سنة خيبر سنة سبع من الهجرة، وهذه القصة كانت ولرسول الله ﷺ من العمر اثنتا عشرة سنة، ولعل أبا موسى تلقاه من النبي ﷺ فيكون أبلغ أو من بعض كبار الصحابة رضي الله عنهم، أو كان هذا مشهوراً مذكوراً أخذه من طريق الاستفاضة، الثاني: إن الغمامة لم تذكر في حديث أصح من هذا، الثالث: إن قوله: وبعث معه أبو بكر بلالاً، إن كان عمره عليه الصلاة والسلام إذ ذاك اثنتي عشرة سنة، فقد كان عمر أبي بكر إذ ذاك تسع سنين أو عشر وعمر بلال أقل من ذلك فأين كان أبو بكر إذ ذاك؟ ثم أين كان بلال؟ كلاهما غريب، اللهم إلا أن يقال: إن هذا كان ورسول الله ﷺ كبيراً إما بأن يكون سفره بعد هذا، أو إن كان القول بأن عمره كان إذ ذاك اثنتي عشرة سنة غير محفوظ، وضعَّف الحافظ الذهبي الحديث لقوله في آخره: وبعث معه أبو بكر بلالاً، فإن أبا بكر إذ ذاك لم يكن متأهلاً ولا اشترى بلالاً، قال الحافظ ابن حجر في الإصابة: الحديث رجاله ثقات، وليس فيه منكر سوى هذه اللفظة فتحمل على أنها مدرجة فيه مقتطعة من حديث آخر وهما من أحد رواته.

نقد ابن كثير لبعض ما ورد في الحديث وإجابته عنه

رأي الذهبي وابن حجر في الحديث

جهابذة المحدثين وحذاق الناقدين قبلوا هذا الحديث ولم يردوه، وأعمقهم تعمقاً وأشدهم تشدداً وهو الحافظ الذهبي كان قصاراه أنه ضعفه من جهة ما فيه من كلمة ظنها لا تتفق مع تاريخ الواقعة، وقد خرّج الحافظ ابن حجر هذه الكلمة باحتمال أنها ليست من هذا الحديث وأنها مدرجة فيه مقتطعة من حديث آخر، وذهب ابن كثير في تخريجها إلى احتمال أن القصة كلها كانت ورسول الله ﷺ كان كبيراً ليتفق سنه مع ما جاءت به الرواية من إرسال أبي بكر الصديق بلالاً معه في طريق عودته، وهذا في نظر هؤلاء الناقدين يقتضي أن يكون أبو بكر رجلاً متأهلاً وبلال مملوكاً له.

ولا ندري ما الذي يوجب ذلك؟ وما الذي يُبْعد أن يكون أبو بكر خرج في هذه السفرة وهو غلام على مثل ما خرج عليه رسول الله ﷺ من تعلقه بعمه أبي طالب، فأخرجه معه صبابة به ومحبة له ورقة عليه، فيكون بعض آل أبي بكر أخرجه معه على نحو قريب من هذا، أو يكون أبو بكر قد آجر نفسه لبعض تجار قريش يكون معه حارساً أو مناولاً أو رسولاً كالذي نراه في متعارف الناس ومتصرفاتهم، وحينئذ فلا استغراب في وجوده في هذه الرحلة. ونظراً لتقارب سنه من سن رسول الله ﷺ كان بينهما من تقارب القلوب والإلفة ووشائج الصداقة ما يكون بين اللدات والأتراب، ولا سيما إذا توافقت المشارب في السفر والغربة، ولعل هذا كان أول شعاع من الضياء انبثق في أفق صداقتهما الخالدة.

وأما بلال فالاحتمال في وجوده في هذه السفرة أرجح وأقرب، إذ ما المانع أن يكون قد خرج في هذه السفرة على صغره ليخدم بعض سادته إذا كان قد استرق منذ طفولته، أو يكون خرج أجيراً مع بعض أهله أو غيرهم، ولما عرض حديث الراهب عن رسول الله ﷺ ونصح عمه أبا طالب ليرجع به إلى بلده خشية عليه من أعدائه الذين يبغونه الغوائل؛ رغب أبو بكر إلى بلال رغبة رفيق إلى رفيق ورضي ولي بلال إسعاداً لأبي طالب أن يكون بلال في صحبة رفيقهما محمداً في أوبته ليؤنسه، وكانت حال بلال تسمح بهذه الصحبة، فرحب بلال ورضي مغتبطاً أن يكون الرفيق الأنيس لمحمد ﷺ.

وهذا وضع طبيعي للحادث لا يحتاج إلى أن يتأهل أبو بكر أو يملك بلالاً أو يُوهِّم الرواة.

قصة الغمامة من الإرهاصات التي استفاض حديثها وهي من سنن الله الخاصة

وعلى أن الطعن في هذه الكلمة من الحديث لا يضير قصة تظليل الغمامة وما ذكر معها من عجائب كونية وخوارق معجزة، لأن جميع الرواة متفقون على صحتها وتوثيق رواتها، وقد قدمنا من البحث ما يكفي في تزييف رأي المتشبثين بسنن الحياة العامة ومعروف العقول وقضايا العلم والمنطق ليخلصوا من ذلك إلى جحود المعجزات الكونية في سيرة محمد ﷺ، بيد أن بعض الباحثين المتحررين من عبودية الاستشراق والتجديد الزائف وقفوا في بحوثهم مع الإنصاف لعقولهم في فهم عوالم الغيب وسنن الله تعالى في الملأ الأعلى، يقول المفكر الشهيد الباحث سيد قطب في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وإذ قُلْنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ يقول: من هم الملائكة؟ من هو إبليس؟ كيف قال لهم الله؟ كيف أجابوا؟ أين كان هذا الحوار؟ ومتى كان؟ وما الأسماء التي علمها الله لآدم؟ مَنْ الذين عرضهم الله على الملائكة فلم يعرفوا أسماءهم؟

هذه وأمثالها في القرآن الكريم مما لم يرد فيه تحديد ولا تفصيل.. كله غيب من الغيب الذي أسلفنا أن العقل البشري عنه محجوب، وأن الإيمان به صيانة للطاقة الفكرية من أن تتبدد في غير مجالها ومن أن تنفق عبثاً بلا جدوى، ومتى آمن العقل بالبديهة الأولى، بديهة أن الجزء لا يمكن أن يدرك الكل، وأن الذي خلق أعلم بما خلق ممن خلق. متى آمن العقل بالقدرة المطلقة وبالعلم المطلق فأولى به إذن أن يدع هذا الغيب الذي لا يملك وسيلة لإدراكه.. أن يدعه لعالم الغيب والشهادة، لا استسلاماً جاهلاً أعمى، ولكن تسليماً بالبديهة العقلية الأولى، وإذا كان العقل لا يدرك هذا الغيب ولا يجد إلى الاطلاع عليه سبيلاً فليس معنى عجزه أن يتبجح وينكر، فالإنكار حكم يحتاج إلى برهان، واحترام العقل ذاته يقتضيه ألا ينكر إلا وقد أحاط علماً بما ينكره واستيقن من عدم وجوده.

إن الاستسلام للوهم والخرافة شديد الضرر والخطورة، ولكن أخطر

منه وأضر التنكر للمجهول كله، وإنكاره، لأنه تنكر لتلك البديهة الأولى، وإنكار لطبيعة العقل وحدوده، وإقحام لهذا العقل في غير مجاله، وتبديد لطاقته في غير مجالها، وتطاول منه على حكم لا يملك أسانيده. إهـ.

تعليق وتثبيت

هذا كلام واضح مستقيم الحجة بيِّن المحجة، يستطيع كل قارىء وكل باحث أن يضعه إلى جانب كل آية كونية ومعجزة خارقة تثبت صحة الرواية وقوعها، فإذا هي حقيقة تاريخية يجب الإيمان بها دون توقف مع سنن الحياة ومعروف العقول وقضايا العلم ومقاييس المنطق، لأن كثيراً من الحقائق الواقعية ولا سيما الحقائق الروحية والمعاني الغيبية العليا التي تتعلق بالله تعالى وصفاته وأسمائه الحسنى ومظاهر ذلك في الحياة والأحياء وما يتصل به من النبوة والرسالة والوحي والملائكة والجن وسائر عالم الغيب والملأ الأعلى لا يخضع لسنن الحياة التي نعرفها ولا لمعارف العقول التي وصلت إليها.

وحديث الغمامة أجمع عليه رواة السيرة، ولم يذكر في كتب الحديث بأصح من رواية الترمذي المتقدمة، غير أن روايات أصحاب السير جاءت كلها خالية من الكلمة التي نقد من أجلها حديث الترمذي.

أوفى وأبسط رواية وفيها تسمية الراهب بما شهر وعرف

روى ابن سعد في الطبقات من طريق عبدالله بن جعفر الزهري وداود ابن الحصين قالا: لما خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه رسول الله ﷺ ـ وهو ابن ثنتي عشرة سنة ـ فلما نزل الركب بصرى من الشام وبها راهب يقال له بحيرا في صومعة له، وكان علماء النصارى يكونون في تلك الصومعة يتوارثونها عن كتاب يدرسونه، فلما نزلوا ببحيرا وكانوا كثيراً ما يمرون به لا يكلمهم، حتى إذا كان ذلك العام ونزلوا منزلاً قريباً من صومعته قد كانوا ينزلونه قبل ذلك كلما مروا، فصنع لهم طعاماً ثم دعاهم، وإنما حمله على دعائهم أنه رآهم حين طلعوا وغمامة تظل رسول الله ﷺ من بين القوم حتى نزلوا تحت الشجرة، ثم نظر إلى تلك الغمامة أظلت تلك الشجرة واخضلت أغصان الشجرة على النبي ﷺ حين استظل تحتها، فلما رأى ذلك نزل من صومعته وأمر بذلك الطعام فأتى به وأرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش وأنا أحب أن تحضروه كلكم ولا تخلفوا منكم صغيراً

ولا كبيراً حراً ولا عبداً، فإن هذا شيء تكرموني به، فقال رجل: إن لك لشأنا يا بحيرا، ما كنت تصنع بنا هذا فما شأنك اليوم؟ قال: فإني أحببت أن أكرمكم ولكم حق، فاجتمعوا إليه وتخلّف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه ـ ليس في القوم أصغر منه في رحالهم ـ تحت الشجرة، فلما نظر بحيرا إلى القوم فلم يرَ الصفة التي يعرف ويجدها عنده، وجعل ينظر ولا يرى الغمامة على أحد من القوم ويراها متخلفة على رسول الله ﷺ، قال بحيرا:

يا معشر قريش لا يتخلفن منكم أحد عن طعامي، قالوا: ما تخلف أحد إلاّ غلام هو أحدث القوم سناً في رحالهم، فقال: ادعوه فليحضر طعامي، فما أقبح أن تحضروا ويتخلف رجل واحد مع أني أراه من أَنْفَسكم، فقال القوم هو والله أوسطنا نسباً وهو ابن أخي هذا الرجل ـ يعنون أبا طالب ـ وهو من ولد عبد المطلب، فقال الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف: والله إن كان بنا للؤم أن يتخلف ابن عبد المطلب من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه وأقبل به حتى أجلسه على الطعام والغمامة تسير على رأسه، وجعل بحيرا يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء في جسده قد كان يجدها عنده من صفته.

فلما تفرقوا عن طعامهم قام إليه الراهب فقال: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما» قال: فبالله إلاّ أخبرتني عما أسألك عنه؟ قال: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله حتى نومه، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عنده، ثم جعل ينظر بين عينيه، ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضع الصفة التي عنده، فقبل موضع الخاتم.

وقالت قريش إن لمحمد عند هذا الراهب لقدراً، وجعل أبو طالب لما يرى من الراهب يخاف على ابن أخيه، فقال الراهب لأبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال أبو طالب: ابني قال: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً، قال: فابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: هلك وأمه حبلى به، قال: فما فعلت أمه؟ قال توفيت قريباً، قال: صدقت، ارجع بابن

أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما أعرف ليبغنه عنتاً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده في كتبنا وما روينا عن آبائنا، واعلم أني قد أديت إليك النصيحة.

فلما فرغوا من تجارتهم خرج به سريعاً. وكان رجال من اليهود قد رأوا رسول الله ﷺ وعرفوا صفته فأرادوا أن يغتالوه، فذهبوا إلى بحيرا فذاكروه أمره فنهاهم أشد النهي، وقال لهم: أتجدون صفته؟ قالوا: نعم، قال: فما لكم إليه سبيل، فصدقوه وتركوه، ورجع به أبو طالب فما خرج به سفراً بعد ذلك خوفاً عليه. وذكر ابن سعد من طريق عبد الرحمن بن أبزى، قال الراهب لأبي طالب: لا تخرجن بابن أخيك إلى ما ها هنا، فإن اليهود أهل عداوة، وهذا نبي هذه الأمة وهو من العرب، واليهود تحسده تريد أن يكون من بني إسرائيل؛ فاحذر على ابن أخيك، ورواية ابن أبزى كالتكملة لرواية الزهري وابن حصين المطولة وهي أوفى الروايات وأضبطها في هذا الباب، وقد رواها الطبري وابن هشام وابن عساكر والبيهقي وأبو نعيم وابن الأثير وأبو الفداء وجم غفير مع اختلاف طفيف في بعض ألفاظها، وقد اخترنا رواية محمد بن سعد لحسن سياقتها ولطف مأتاها واستفائها ما تبعثر في مجموع الروايات سواها.

رواية أخرى لابن سعد تختلف في سياقها مع الرواية السابقة

وفي حديث ابن سعد من طريق محمد بن عقيل رواية تختلف مع هذه الرواية اختلافاً بينا وليس فيها ذكر لقصة الغمامة؛ قال: أراد أبو طالب المسير إلى الشام، فقال له النبي ﷺ: «أي عم إلى من تخلفني ههنا؟ فما لي أم تكفلني ولا أحد يؤويني» فرق له ثم أردفه خلفه فخرج به فنزلوا على صاحب دير، فقال صاحب الدير: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني، قال: ما هو بابنك ولا ينبغي أن يكون له أب حي، قال: ولِمَ؟ قال: لأن وجهه وجه نبي، وعينه عين نبي، قال: وما النبي؟ قال الذي يوحى إليه من السماء فينبىء به أهل الأرض، قال: الله أجل مما تقول، قال: فاتق عليه اليهود، ثم خرج حتى نزل براهب صاحب دير أيضاً، فقال: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني قال: ما هو بابنك وما ينبغي أن يكون له أب حي، قال: ولم ذلك؟ قال: لأن وجهه وجه نبي وعينه عين نبي، قال أبو طالب: سبحان الله، الله أجلّ مما

تقول، وقال: يا ابن أخي ألا تسمع ما يقولون؟ قال: «أي عم لا تنكر لله قدرة».

وجوه اختلاف بين الروايتين

هذه الرواية تذكر الوسيلة التي نفذ بها رجاء محمد عليه السلام إلى قلب عمه فرقّ له وصحبه في سفره، وهي وسيلة فيها من الاستعطاف والاسترحام، ما يثير العواطف ويحرك الرحمة، وأي شيء أنفذ إلى قلب أبي طالب الذي تخيره عبد المطلب دون سائر بنيه وصياً على محمد يكفله ويرعاه من قول محمد عليه السلام: «أي عم إلى من تخلفني ههنا؟ فما لي أم تكفلني ولا أحد يؤويني».

وقفة للعقل مع بلادة الوثنية ليوقظها

وفي هذه الرواية أن أبا طالب مرّ براهب صاحب دير فحدثه عن ابن أخيه وذكر له أنه النبي المنتظر، فسأل أبو طالب: وما النبي؟ وأنّى لأبي طالب وغطارفة قريش أن يعلموا شيئاً عن النبوة والنبي؟ وهم في شغل من وثنيتهم المستحجرة، فلما بيّن له الراهب معنى النبي وأنه هو الذي يوحى إليه من السماء فينبىء أهل الأرض استعظم ذلك لأنه مربوط العقل والروح بالأرض؛ فلا يمكن له أن يعقل صلة أحد من البشر بالسماء، وتذكر الرواية أنه مر براهب آخر فجرى له معه مثل ما جرى مع الراهب الأول، ولكنه في هذه المرة التفت إلى ابن أخيه معجباً: ياابن أخي ألا تسمع ما يقولون؟ ولكن محمداً في طفولته كان ذا قلب يفقه وعقل واسع الأفق درَّاك، فقال لعمه: «أي عم لا تنكر لله قدرة» وهي كلمة العقل الذي أعده الله منذ برأه لفهم الحقائق العليا والمعاني الإلٓهية التي تصله في تفكيره بعالم السماء، وأي عجب أن يتفضل خالق السماء والأرض والإنس والجن والملائكة فيوحي بكلمته إلى من يصطفيه من خلقه رسولاً يبلغها عنه إلى من يشاء؟ بل العجب كل العجب ألا يفعل ويترك خلقه يتعبدون لأحجار لا تبصر ولا تسمع ولا تغني عنهم من الله شيئاً، وتفكير أبي طالب هذا وهو من سادات قريش أرجح قبيلة في العرب ميزاناً يطلعنا على لون من حياة الجاهلية التي كان يحياها العرب قبل مشرق الإسلام، فالجاهلية الجاهلة تعظِّم الله عن أن يتصل بخلقه عن طريق وحيه ولا تعظمه عن التقرب إليه بعبادة الأحجار؟ هذا هو العجب ياابن عبد المطلب، فلا تنكر لله قدرة.

ترجيح أن رواية الراهب بحيرا غير رواية راهب الدير

وليس في هذه الرواية ما يفيد أنها رواية الراهب بحيرا التي تذكر فيها قصة تظليل الغمامة وغيرها من العجائب الكونية والخوارق المعجـزة، ويميل بنا الظن إلى أنها رواية مستقلة في سفرة كانت قبل سفرة الراهب بحيرا، ويرشح ذلك أن أبا طالب كفل رسول الله ﷺ وسنه ثماني سنين، وسفرة بحيرا تذكر روايتها أن سن محمد عليه السلام كانت فيها اثنتي عشرة سنة، ويبعد جداً أن يبقى أبو طالب في مكة أربع سنوات لا يرحل فيها بتجارته وهو رجل قليل المال كثير العيال في حاجة إلى العمل المتواصل في تجارته ليحصل نفقات أولاده وأسرته وواجبات مكانه في قومه، وأيضاً فإن هذه الرواية اشتملت على هذه الكلمة التي توسل بها محمد عليه السلام إلى قلب عمه ليصحبه معه، وهي أقرب إلى أن تكون في مبدأ كفالته له لصغر سنه، وجدَّة أحزانه على جده وأمه، أما إذا بلغ اثنتي عشرة سنة فقد اشتد عوده ومرن على العمل؛ فتبعد أن تكون وسيلته إلى عمه هذا اللون من الاستعطاف الرقيق الرحيم، ولعل رغبـة محمد عليـه السلام في سفـرة الراهب بحيرا كانت لقصد مشاركته في العمل التجاري تمريناً ومساعدة لعمه لأن سنه إذ ذاك كانت مؤهلة للمشاركة والتمرين.

* * *

أثر هذه الرحلة في نفس محمد ﷺ

لم يكن من المعهود في حياة الناس ولا سيما الذين أوتوا عقولاً لماحة وقلوباً يقظة واعية وأرواحاً مشرقة مضيئة أن تمر بهم أحداث في طريقهم، ـ وهم بعيدون عن الجو الطبيعي والاجتماعي الذي عاشوا بين جنباته ـ ولا يكون لهذه الأحداث أثر في أنفسهم؛ خصوصاً إذا كانت الأحداث تمسهم من قريب أو بعيد، فلا بد أن سفر محمد ﷺ إلى الشام كان ذا أثر في نفسه، فهو قد رأى قوماً غير قومه وعادات غير عاداتهم وتفكيراً غير تفكيرهم وعقائد غير عقائدهم ومتعبدات غير متعبداتهم وأخلاقاً غير أخـلاقهم ومعيشة غـير معيشتهم وجواً غير جوهم وبلاداً غير بلدهم، وجرت أحاديث وأحداث كان هو محورها وقطب دائرتها، وكان محمد ﷺ من الذكاء والفطانة ولقانة القلب ولطف الخلق وإشراق الروح وضياء العقل وثقوب الذهن ورجاحة التفكير بالمكان الأرفع، فلا يمكن أن تمر به هذه الصور ثم لا تترك أثراً في نفسه

يرجع به إلى بلده ويأخذ حيزاً من حياته وتفكيره، ولكنه الأثر الذي تتسع له حياة طفل في الثانية عشرة من عمره، نشأ نشأة صقلها اليتم وهذَّبها كرم النحيزة وشرف الأصل وطهارة الأعراق، وعزة المنبت، مع رعاية الله وحفظه عن التدنس بدنس البيئة الجاهلية وأوضارها.

عاد محمد ﷺ إلى مكة من رحلته وقد علم ما تحدث به الرهبان عنه مما دعا عمه إلى الإسراع به خوفاً عليه من غوائل اليهود، فأي صورة ارتسمت في نفس محمد ﷺ لهذه الأحاديث التي تتحدث عن النبوة والوحي، وعن هذا الغلام اليتيم الأمي الذي سيكون نبي هذه الأمة، فما النبوة؟ وما الوحي؟ ومتى؟ وكيف؟ هذه أسئلة من الممكن القريب أن تكون دارت في تفكير محمد عليه السلام وهو عائد إلى مكة، وهو يرى أهلها يسبحون في عمياء الوثنية الجاهلة البليدة، وهو يعْتَزِلهم في أعيادهم ومواسمهم، وينأى بجانبه كارهاً مبغضاً لأصنامهم راثياً لأحوالهم متعجباً من ضلال عقولهم، ولكن هل حظي محمد عليه السلام من داخل نفسه أو مما يحيط به من عوامل وعوالم بجواب عن هذه الأسئلة؟.

ليس في حياته ﷺ قبل البعثة ما يشعر بشيء سوى أنه وُجِّه إلى لون من الحياة يملؤها الإحساس بعظمة الكون وعظمة مدبره جلَّ شأنه، والشعور بسلطان قدرته المبسوط على الوجود، ومن هنا كان جوابه على تعجيب عمه له من أقوال الرهبان وأحاديثهم عنه وعن نبوته «أي عم لا تنكر لله قدرة».

تسببه لعيشه

ورعيه عليه السلام الغنم

حكمة توفيقه ﷺ لهذا العمل في مقتبل رجولته

ومن هنا أيضاً كانت عزلته عن حياة قومه، تلك الحياة الصاخبة الجوفاء، ومن هنا كان ميله إلى الصحراء وفضائها الذي لا يتناهى، فما أشبه هذه الصحراء في امتدادها بالفكرة التي تملأ نفس محمد عليه السلام، ومن هنا كان ميله إلى الهدوء تحت ظلال الأشجار أو على قلل الجبال، ولكن محمداً عليه السلام شاب يستقبل الرجولية فلا بد له أن يعمل ليعيش شريفاً كريماً،فحسب عمه وما يحمل من ثقل عياله، وحسبه ما أسبغ عليه من حب ورعاية أبوية منذ حفظ وصية جده فيه،فليعمل محمد ﷺ بنفسه وليسع ليعيش من كده، فهو شاب كريم الأخلاق قوي البنيان قويم السيرة أمين محبوب بين قومه، كلهم يوده ويحب أن يعمل معه، ولكن أي عمل هذا الذي يرضي هدوء محمد ﷺ؟ إنه وهو طفل في المهد كان يخرج في بيداء بني سعد مع إخوته ولداته يرعون الغنم، فما أيسر هذا العمل وما أقربه إلى نفسه، إنه عمل يتيح له الهدوء الذي تتطلبه نفسه الكريمة، ويتيح له المتعة بجمال الصحراء، ويتيح له التطلع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ويتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل وظلال القمر ونسمات الأشجار، ويتيح له لوناً من التربية النفسية من الصبر والحلم والأناة والرأفة والرحمة والعناية بالضعيف حتى يقوى وزم قوى القوي حتى يستمسك للضعيف ويسير بسيره، وارتياد مشارع الخصب والري وتجنيب الهلكة ومواقع الخوف من كل ما لا تتيحه حياة أخرى بعيدة عن جو الصحراء وهدوئها، وسياسة هذا الحيوان الأليف الضعيف. وهذا لون من الحياة اختاره القدر الإلهي لكل من

اصطفاهم الله لرسالته في سياسة الخلق وتعليمهم شرائع الحياة الصالحة وأدب العبودية ومعرفة الخالق ودلائل قدرته في صنائعه، وقد ذكر القرآن قصة موسى عليه السلام مع بنتي الرجل الصالح وسقيه لهما أغنامهما وانتهاء القصة إلى تأجيره نفسه ثماني حجج يرعى فيها أغنام هذا الشيخ الذي تذكر الرواية التاريخية أنه شعيب نبي الله عليه السلام، وذكر نبينا محمد ﷺ عدداً من الأنبياء عملوا في شبابهم رعاة للغنم، ففي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا راعي غنم» فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط».

وقد أفاد محمد عليه السلام من العمل الكريم خبرة بشؤون البادية ونباتها، فقد روي أن بعض أصحابه مر عليه بثمر الأراك فقال لهم: «عليكم بما اسود منه، فإني كنت أجتنيه إذ أنا راعي الغنم» قالوا: يا رسول الله ورعيتها؟ قال: «نعم، وما من نبي إلا قد رعاها». وعن جابر بن عبدالله من حديث الزهري قال: كنا مع للنبي ﷺ نجني الكباث[1] فقال: «عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه، فإني كنت أجنيه، إذ كنت أرعى الغنم» قلنا: وكنت ترعى الغنم يا رسول الله؟ قال: «نعم، وما من نبي إلا قد رعاها» وروى ابن سعد قال: كان بين أصحاب الغنم وبين أصحاب الإبل تنازع، فاستطال عليهم أصحاب الإبل، فبلغنا أن النبي ﷺ قال: «بعث موسى عليه السلام وهو راعي غنم، وبعث داود عليه السلام وهو راعي غنم، وبُعثت وأنا أرعى غنم أهلي بأجياد»[2].

(١) الكباث: نضيج الأراك.
(٢) أجياد: مكان بمكة كان مخصباً.

محمد صلى الله عليه وسلم بين أترابه

كان ﷺ مثلاً أعلا لكمال الشباب ومكارم الأخلاق

كان محمد ﷺ في طفوليته طفلاً كأحسن ما يكون الأطفال زكاءً ونشاطاً، وطهارة نفس وصفاء قريحة وتوقد ذهن وسرعة بديهة، وكان في شبابه شاباً كأفضل ما يكون الشباب رجاحة عقل وقوة أيِّد واستواء بنية ودماثة خلق، فهو في طفوليته كان يخرج مع إخوته من الرضاعة في بني سعد يلعب معهم كما يلعب الأطفال، ويتحدث عن ذلك بعد بعثته فيقول: «فبينما أنا ذات يوم منتبذ من أهلي في بطن وادٍ مع أتراب لي من الصبيان نتقاذف بيننا بالجلة إذ أتانا رهط ثلاثة».

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يلعب مع الصبيان فأتاه آت فأخذه فشق بطنه، وكان جده عبد المطلب يقول لحاضنته بعد ما رأى وسمع تطلُّع أهل الكتاب إليه وأحاديثهم عنه: يا بركة لا تغفلي عن ابني فإني رأيته مع غلمان قريباً من السدرة. ولما هاجر ﷺ إلى المدينة المنورة رأى ملاعب طفوليته فيها فذكرها وذكر من كان يلعب معه فيها وذكر ألواناً من اللعب والرياضة كان يطيب له ولأترابه من الفتيان والفتيات أن يتريضوا بها، فقد روي أنه لما نظر إلى أطم بني عدي بن النجار عرفه وقال: «كنت ألاعب أنيسة جارية من الأنصار على هذا الأطم، وكنت مع غلمان من أخوالي نطير طائراً كان يقع عليه». وتحدث عن لون من الرياضة كان يظن ألا يعتني بها إلا أهل الأنهار وسكان سواحل البحار، وهي رياضة العوم والسباحة، ولكن الفطر السليمة يحبب إليها حتى في ألعابها كل لون محبب مفيد، وفي ذلك يقول النبي ﷺ متحدثاً عن طفوليته: «وأحسنت العوم في بئر بني عدي ابن

النجار» وكان يتحدث عن حفظ الله تعالى له في صغره ورياضة طفوليته فيقول: «لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمني لاكم لا أراه لكمة وجيعة ثم قال: شد عليك إزارك، فأخذته فشددته عليَّ ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري عليّ من بين أصحابي».

ولم يكن حفظ الله تعالى له عن بعض معايب الجاهلية ليصرفه عن مشاركة لداته وأقرانه من الغلمان والأطفال مع رعاية ما يرشد إليه من الخير والأدب، ففي هذا الحديث تراه يتحدث عن عادة شائعة بين أطفال البوادي والريف هي عادة التكشف والتعري في ألعابهم ورياضاتهم وبعض أعمالهم، وهي عادة تعيبها الآداب الراقية والعادات الحضرية المهذبة، وتنكرها عوارف المجتمعات الفاضلة، ومحمد ﷺ أرادته المقادير الإلٓهية ليكون في تمام رجوليته هادياً ومرشداً، والهداة المرشدون أكمل الناس أدباً وأرقاهم عادة وأحسنهم صنعاً، فطرة يفطرهم الله عليها وتأديباً يؤدّبهم الله به وإعداداً صالحاً يعدّهم له في منشئهم ومرباهم، ولكنه تأديب وإعداد لا يخرجهم عن طبيعة الإنسان التي فطرهم الله عليها. فمحمد ﷺ أخذ مع أقرانه في رياضتهم ينقل الحجارة على الصورة التي ألفها الغلمان في البوادي والحراج، وهم قد ألفوا التعري ليقوا بأزرهم أجسامهم الغضة من ألم الحجارة، فكانوا يضعونها على رقابهم يحملون عليها الحجارة فَأُرشِد بما شاء الله إلى أدب اجتماعي لا يصلح أن يجرد منه الهداة المرشدون في جميع مراحل حياتهم، فأسرع إلى الامتثال وأخذ عليه إزاره وأقبل على رياضته مع أترابه يحمل الحجارة على رقبته وإزاره عليه من بين أصحابه، ولم ينفصل عنهم ويهجر لعبتهم المحببة، بل آثر أن يبقى معهم وأن يستمر في رياضتهم متحملاً ألم حمل الحجارة دون وقاية في سبيل التكمل بهذا الأدب الاجتماعي النبيل.

وهكذا كانت طفولة محمد ﷺ طفولة مرحة محببة يحوطها الله تعالى برعايته ويرعاه فيها بعنايته فشب محفوظاً من أقذار الجاهلية وشناءتها ومعايبها لما يريد الله من كرامته ورسالته.

قال ابن سعد في الطبقات: وشب رسول الله ﷺ مع أبي طالب يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعايبها لما يريد الله به من كرامته، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقاً وأكرمهم مخالطة وأحسنهم جواراً وأعظمهم حلماً وأمانة وأصدقهم حديثاً وأبعدهم من الفحش والأذى، وما رُئي ملاحياً ولا ممارياً أحداً حتى سماه قومه الأمين لما جمع الله له من الأمور الصالحة. وفي سيرة ابن هشام من طريق ابن إسحاق: فشب رسول الله ﷺ والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقاً وأكرمهم حسباً وأحسنهم جواراً وأعظمهم حلماً وأصدقهم حديثاً وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً، حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يشهد حرب كنانة وقيس في يوم الفجار

عظائم وتوافه كانت تثير الحروب

الحرب سُنّة من سنن العرب المألوفة التي قضت بها عليهم حياتهم الاجتماعية والاقتصادية في بيئتهم الطبيعية التي وضعهم الله فيها، وتاريخهم مشحون بالحديث عنها وتعداد أيامها التي شهرت بين قبائلها، وأدبهم شعرُه ونثرُه مفعم بأخبارها نصراً وهزيمة شجاعة وجبناً فروسية وبطولة، حتى كادت تستوعب مناحي الحياة كلها. والمتقصي لأسباب تلك الحروب التي استأثرت بالحياة العربية وشغلت العـرب في جزيرتهم بأنفسهم يجد في كثرتها توافه ما كانت تستأهل أن تكون دوافع إلى تسعير نيران قتال تأكل الرجال أكلاً، وتشرد الأطفال وترمِّل النساء وتذلّ الأعزاء وتفزع الآمنين، ولكنها الطبيعة والفراغ والحاجة هي التي تقف من وراء توافه الأمور فتزكيها ناراً تلتهب، بيد أن أياماً من أيام تلك الحروب كانت أسبابها تتصل بالكرامة القومية أو الدفاع عن النفس، فكانت جديرة أن تثبت في تاريخ العرب لتسجل لهذا الشعب الكريم طبيعة من طبائعه الغلابة، تلك هي طبيعة الأنفة، عن قبول الضيم والتسامي عن الرضا بالذل، كالذي نقرؤه في دواعي حرب ربيعة وبكر التي بدأت بقتل كليب سيد ربيعة في ناقة البسوس خالة جساس بن مرة، فإنه كان يكمن وراء ذلك استذلال كليب لبني عمومتهم من البكريين حتى امتلأت قلوبهم ولا سيما شبابهم بالضغينة والغيظ المحنق، فكان هذا الحادث التافه الصغير منفذاً إلى تلك العظائم المدمرة والحروب المستعرة رداً على كبرياء ربيعة في بطر كليبها وبأوه. وكالذي نقرأ في دوافع قتل حِجْر ملك كندة وأبي امرىء القيس الشاعر، فقد روى التاريخ من تعاليه واسبطراره

على بني أسد ما أحرق أكبادهم عليه غيظاً، فانتقموا بقتله لكرامتهم وشرفهم، واستعرت بين أسد وكنـدة حروب أفنت العديد من القبيلتين.

ومن هذا القبيل يوم فجار قيس وكنانة الذي شهده محمد ﷺ في شبابه مع عمومته، فقد قيل في سببه أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان قد تعود إرسال لطيمة (نوافج المسك) إلى سوق عكاظ لتباع هناك، وكان يتخذ لخفارتها في طريقها على أحياء العرب رجلاً من رجالات العرب مرهوبي السلطان، وكان عنده في مجلسه يومئذ البراض بن قيس الكناني ـ وكان رجلاً فاتكاً خليعاً قد خلعه قومه لكثرة شره ـ وعروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب القيسي المعروف بالرحال، فقال النعمان: من يجير لي لطيمتي هذه حتى يبلغها عكاظ، فقال البراض: أبيت اللعن أنا أجيرها على كنانة، فقال النعمان: إنما أريد من يجيرها على كنانة وقيس، فقال عروة: أكلب خليع يجيرها لك أبيت اللعن؟ أنا أجيرها لك على أهل الشيح والقيصوم من أهل تهامة وأهل نجد، فغضب البراض وقال: وعلى كنانة تجيرها يا عروة؟ قال عروة: وعلى الناس كلهم.

فدفع النعمان لطيمته إلى عروة الرحال وأمره بالمسير بها، فتبعـه البراض وتحينَّ غفلته فقتله، واستاق العير إلى عكاظ، وفي طريقه لقي بشر بن أبي حازم الأسدي الشاعر وأمره أن يلقي بـالخبر إلى عبـدالله ابن جـدعان وحـرب بن أمية في جماعة من رؤوس كنـانة، فـأخبرهم فخرجوا موائلين منكشفين إلى الحرم بعد أن ألقوا إلى سيد قيس البراء ابن مالك ملاعب الأسنة بخدعة حتى لا يستوحش هو وقومه وأهل السوق من خروجهم المفاجىء؟ فلما فشا الخبر واستيقنته قيس قال البراء: ما كنا من قريش إلا في خدعة!! وخرجت قيس في آثار كنانة فأدركوهم وقد دخلوا الحرم، فلم يقع بينهم هذا العام قتال، وقيل: بل أدركوهم قبل الحرم فاقتتلوا حتى دخلت كنانة الحرم مع الليل فحجز ذلك بينهم، وتواعدوا إلى مثل هذه الأيام من العام المقبل، وأخذ كل فريق يجمع جموعه، وفرقت قريش السلاح في كنانة وحلفائها من الأحابيش وخرجوا للموعد على كل بطن منهم قائد، وكان على

بني هاشم الزبير بن عبد المطلب وإخوته أبو طالب وحمزة والعباس ومعهم رسول الله ﷺ،وكانت سنه إذ ذاك فيما يرويه ابن هشام عن أبي عبيدة وأبي عمرو بن العلاء خمس عشرة سنة وفيما يرويه ابن إسحاق وابن سعد عشرين سنة، ولعل هذا الاختلاف منظور فيه إلى بداءة الحرب ونهايتها لأنها كما يقول المؤرخون مكثت أعواماً، فقد تكون سنّه عند بداءتها خمس عشرة سنة وبذلك أخذ ابن هشام، وتكون سنه عند نهايتها بالصلح بين الفريقين عشرين سنة وبذلك أخذ رواة ابن سعد، وقد كانت الجولة الأولى لقيس على كنانة، ثم عادت إلى كنانة فأسرفت في القتل من قيس وقتلوهم قتلاً ذريعاً حتى نادى عتبة بن ربيعة وهو يومئذ شاب ما كملت له ثلاثون سنة إلى الصلح،فاصطلحوا على أن تدي قريش ما قتلت فضلاً عن قتلى قيس ووضعت الحرب أوزارها.

وقد تحدث رسول الله ﷺ عن شهوده الحرب في يوم الفجار. قال ابن هشام: وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم، أخرجه أعمامه معهم، وقال رسول الله ﷺ: «كنت أنبل على أعمامي» أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها، وهذا الموقف يناسب ما ذكر في سنه باعتبار بداءة الحرب، وقد روى ابن سعد أنه ﷺ رمى فيها بأسهم، وهذا يلائم ما ذكر من سنه باعتبار نهاية الحرب. فقد ذكر عن رسول الله ﷺ أنه قال وهو يذكر الفجار: «قد حضرته مع عمومتي ورميت فيه بأسهم وما أحب أني لم أكن فعلت».

محمد صلى الله عليه وسلم يشهد حلف الفضول

كان حلف الفضول أكرم حلف سمع به في الجاهلية وأشرفه في العرب، وكان بعد الفجار بأشهر، وأول من دعا إليه وقام بأمره الزبير ابن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وكان سببه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاصي بن وائل فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف: عبد الدار ومخزوماً وجمحاً وسهماً، فأبوا أن يعينوا على العاصي بن وائل وانتهروا الرجل الزبيدي، فلما رأى منهم الشر أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس - وقريش في أنديتهم حول الكعبة - فنادى بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحِجْر والحَجَر
إن الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام الزبير بن عبد المطلب وقال: ما لهذا، فاجتمعت هاشم وزُهرة وتَيْم بن مرة في دار عبدالله بن جدعان، فصنع لهم طعاماً وتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه ما بلّ بحر صوفة ومارسى ثبير وحراء مكانهما، وعلى التآسي في المعاش، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه، وفي ذلك يقول الزبير بن عبد المطلب:

حلفت لنعقدن حلفاً عليهم وإن كنا جميعاً أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا يعزيه الغريب لذي الجوار
ويعلم من حوالي البيت أنا أباة الضيم نمنع كل عار

ويقول أيضاً:

إن الفضول تعاقدوا وتحالفوا ألا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا فالجار والمعتر فيهم سالم

وقد شهد النبي ﷺ هذا الحلف وسنه عشرون سنة، وأثنى عليه حين ذكره في الإسلام، فقال فيما يرويه الواقدي عن جبير بن مطعم: «ما أحب أن لي بحلف حضرته بدار ابن جدعان حُمْر النعم، وأني أغدر به، هاشم وزهرة وتيم تحالفوا أن يكونوا مع المظلوم ما بل بحر صوفة، ولو دعيت به لأجبت، وهو حلف الفضول». وروى ابن كثير من طريق الحميدي عن سفيان ابن عيينة عن عبدالله عن محمد وعبدالرحمن ابني أبي بكرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً لو دعيت به في الإسلام لأجبت، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها، وألا يعز[1] ظالم مظلوماً».

إقرار هذا الحلف وأمثاله في الإسلام

وقد بقي أثر هذا الحلف في الإسلام وتداعى به الحسين بن علي وعبدالله ابن الزبير والمسور بن مخرمة. روى ابن هشام عن محمد بن إسحاق أنه قال: كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وبين الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان - والوليد يومئذ أمير على المدينة، أمره عليها عمه معاوية بن أبي سفيان - منازعة في مال كان بينهما بذي المروة، فكأن الوليد تحامل على الحسين في حقه لسلطانه، فقال له حسين: أحلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ، ثم لأدعون بحلف الفضول، فقال عبدالله بن الزبير وهو عند الوليد حين قال حسين ما قال: وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعاً، وبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري فقال مثل ذلك، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيدالله التيمي فقال مثل ذلك، فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضي.

(١) يعز، ومنه المثل: من عزيز أي من غلب سلب.

محمد صلى الله عليه وسلم
يعمل في بناء الكعبة

مكان البيت وتعرضه لجوارف السيول

الناظر إلى موضع الكعبة المشرفة من مكة المكرمة يراها في مطمئن من الأرض تحيط بها الجبال من كل جانب؛ مما جعلها في الأزمنة الغابرة قبل أن يعمر ما حواليها بالبيوت والمساكن ومشيد البنيان عرضة لجوارف السيل، وقد حذرت قريش عواقب ذلك وخافت على البيت أن تهدمه السيول، فأقامت ردماً من حوله جعلوه مطلاً على البيت لحمايته، فكانت السيول تأتي من فوق هذا الردم حتى كادت تزيله، وكانت تعلوه حتى تدخل البيت فتصدِّع وخافوا أن ينهدم، وكانت أبواب البيت لاطئة بالأرض فسرقت خزائنه وهداياه التي كانت تهدى إليه فتلقى في بئر بداخله، فاجتمعت قريش وقالوا: لو بنينا بيت ربنا، وكان البيت شرفَهم وعزَّهم، فقسموه أرباعاً واقترعوا عليه، فوقع لبني عبد مناف وزهرة ما بين الركن الأسود إلى ركن الحِجْر، ووقع لتيم ومخزوم ما بين ركن الحِجْر إلى الركن اليماني، ووقع لسهم وجمح وعدي وعامر بن لؤي ما بين الركن اليماني إلى الركن الأسود، وقد شجعهم على بنائه أن سفينة مشحونة بمواد البناء من الرخام والخشب والحديد كان قيصر ملك الروم سرَّحها مع رجل رومي يقال له باقوم إلى بلاد الحبشة لبناء كنيستها التي أحرقها الفرس، فلما بلغت الشعبية وكانت مرفأ السفن قبل جدة لعبت بها العواصف فحطمتها، وتسامعت بها قريش فابتاعوا ما فيها، وكلموا باقوم فقدم معهم إلى مكة.

التفكير في بناء البيت وتقسيمه أرباعاً بين قبائل قريش

تنزيه البيت عن المال الحرام في بنائه

ولما أجمعوا أمرهم على هدم الكعبة وبنيانها قام فيهم أبو وهب عمرو ابن عابد بن عبد بن عمران بن مخزوم، وهو خال أبي رسول الله ﷺ وكان

رجلاً شريفاً ممدحاً فقال لهم: يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيبا، لا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس، ثم أخذوا في البناء على مواضعهم، فلما انتهوا إلى حيث يوضع الركن الأسود من البيت قالت كل قبيلة: نحن أحق بوضعه، واختلفوا حتى خافوا القتال، ثم جعلوا بينهم حكماً أول من يدخل من باب بني شيبة فيكون هو الذي يقضي بينهم، فكان أول داخل عليهم من ذلك الباب محمد ابن عبدالله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين قد رضينا بما يقضي بيننا، ثم أخبروه الخبر، فوضع رسول الله ﷺ رداءً وبسطه في الأرض ثم وضع الحجر فيه، ثم قال: ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل، فكان في ربع بني عبد مناف عتبة بن ربيعة، وكان في الربع الثاني أبو زمعة، وكان في الربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة، وكان في الربع الرابع قيس بن عدي، ثم قال رسول الله ﷺ: ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ثم ارفعوه جميعاً، فرفعوه ثم وضعه رسول الله ﷺ بيده في موضعه، قال ابن سعد: فذهب رجل من أهل نجد ليناول النبي ﷺ حجراً يشد به الركن، فقال العباس بن عبد المطلب: لا، ونحاه وناول العباس رسول الله ﷺ حجراً فشد به الركن، فغضب النجدي حيث نُحِّي، فقال النبي ﷺ: إنه ليس يبني معنا في البيت إلا منا. فقال النجدي: يا عجباً لقوم أهل شرف وعقول وسِن وأموال عمدوا إلى أصغرهم سناً وأقلهم مالاً فرأسوه عليهم في مكرمتهم وحرزهم كأنهم خدم له، أما والله ليفوتنهم سبقاً وليقسمن بينهم حظوظاً وجدوداً.

أعظم مكرمة في الجاهلية كانت خاصة برسول الله ﷺ وحكمته في حسم أخطر أمر

أسس البيت اليوم على أسسه في بناء قريش

وقد بنت قريش البيت على أسسه التي هو عليها اليوم، وأخرجت منه الحِجْر قريباً من سبعة أذرع، وكان داخلاً فيه على قواعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فلما قصرت النفقة بقريش تركوا منه ما تركوا، روى الواقدي فيما ذكره عنه تلميذه محمد بن سعد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن قومك استقصروا من بنيان الكعبة، ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت فيه ما تركوا منه، فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمَّ أريك ما تركوا منه» فأراها قريباً من سبعة أذرع في الحِجْر ثم قالت

عائشة: قال رسول الله ﷺ في حديثه: «ولجعلت لها بابين موضوعين في الأرض شرقياً وغربياً، أتدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟» فقلت له لا أدري، قال: «تعززاً، لا يدخلها إلا من أرادوا» قال الواقدي: حدثني عبدالله ابن يزيد الهذلي عن سعيد بن عمر عن أبيه قال: رأيت قريشاً يفتحون البيت في الجاهلية يوم الإثنين ويوم الخميس، فكان حجابه يجلسون على بابه فيرقى الرجل، فإذا كانوا لا يريدون دخوله دفع فطرح فربما عطب. وقال ابن كثير في البداية: وقد كانوا أخرجوا منها الحِجْر ـ وهو ستة أذرع أو سبعة أذرع من ناحية الشام ـ قصرت بهم النفقة أي لم يتمكنوا أن يبنوه على قواعد إبراهيم، وجعلوا للكعبة باباً واحداً من ناحية الشرق وجعلوه مرتفعاً لئلا يدخل إليها كل أحد، فيدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: «ألم تري أن قومك قصرت بهم النفقة، ولولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً، وأدخلت فيها الحِجْر». ولهذا لما تمكن ابن الزبير بناها على ما أشار إليه رسول الله ﷺ وجاءت في غاية البهاء والحسن كاملة على قواعد الخليل، لها بابان ملتصقان بالأرض شرقياً وغربياً، يدخل الناس من باب ويخرجون من الآخر، فلما قتل الحجاج ابن الزبير كتب إلى عبد الملك بن مروان ـ وهو الخليفة يومئذ ـ فيما صنعه ابن الزبير واعتقدوا أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه، فأمر بإعادتها إلى ما كانت عليه، فعمدوا إلى الحائط الشامي فحصوه فأخرجوا منه الحجر ورصوا حجارته في أرض الكعبة، فارتفع بابها، وسدوا الغربي واستمر الشرقي على ما كان عليه، فلما كان زمن المهدي ـ أو أبيه المنصور ـ استشار مالكاً في إعادتها على ما كان صنعه ابن الزبير، فقال مالك رحمه الله ـ : إني أكره أن يتخذها الملوك ملعبة، فتركها على ما هي عليه، فهي إلى الآن كذلك. قلت: وهي في هذه الأوصاف والنعوت التي ذكرها باقية إلى يومنا هذا سنة **١٣٧١** هجرية ـ حيث متَّعنا الله بالنظر إليها في حجتنا الفريضة ـ زادها الله شرفاً وهيبة وجلالاً.

كان رسول الله ﷺ يعمل في بنائها مع عمومته، وينقل الحجارة إليها، روى البخاري ومسلم من حديث عبد الرزاق عن عمرو بن دينار عن جابر

عمل رسول الله ﷺ في بناء الكعبة مع عمومته وحفظه من أسواء الجاهلية.

ابن عبدالله يقول: لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله ﷺ ينقل الحجارة فقال العباس لرسول الله ﷺ: اجعل إزارك على عاتقك من الحجارة، ففعل فخرَّ على الأرض وطمحت عيناه إلى السماء، ثم قام فقال: «إزاري» فشد عليه إزاره. وروى البيهقي عن عكرمة قال: حدثني ابن عباس عن أبيه أنه كان ينقل الحجارة إلى البيت حين بنت قريش البيت، قال العباس: وأفردت قريش رجلين رجلين، الرجال ينقلون الحجارة وكانت النساء تنقل الشيد، فكنت أنا وابن أخي وكنا نحمل على رقابنا وأزرنا تحت الحجارة فإذا غشينا الناس اتزرنا، فبينما أنا أمشي ومحمد أمامي فخرَّ منبطحاً على وجهه فجئت أسعى وألقيت حجري وهو ينظر إلى السماء، فقلت: ما شأنك؟ فقام وأخذ إزاره فقال: «إني نهيت أن أمشي عرياناً» وكنت أكتمها من الناس مخافة أن يقولوا مجنون، ولما رآه عمه أبو طالب يلبس إزاره قال له: يا ابن أخي اجعل إزارك على رأسك فقال: «ما أصابني ما أصابني إلا من التعري».

سنه ﷺ يوم بنيت الكعبة

وقد اختلفت الروايات في سن رسول الله ﷺ يوم أن بنت قريش الكعبة، فذهب محمد بن إسحاق إلى أنه كان قد بلغ خمساً وثلاثين سنة، وذلك بعد الفجار بخمسة عشر سنة، وكان الفجار بعد الفيل بعشرين سنة، وفي عام الفيل ولد رسول الله ﷺ، وإلى رأي ابن إسحاق جنح جمهور المؤرخين ومؤلفي السير والمغازي، وذهب مجاهد وعروة ومحمد بن جبيرابن مطعم إلى أن سن رسول الله ﷺ كانت حين بنت قريش الكعبة خمساً وعشرين سنة، لأنهم ذكروا أن بناء الكعبة كان قبل المبعث بخمس عشرة سنة، وكان مبعثه ﷺ على رأس أربعين سنة من عمره، ولعل البيهقي في ذكره بناء الكعبة قبل تزويج خديجة ما إلى قول مجاهد ومن معه في وقوع بناء الكعبة سنة التزوج بخديجة، هذا في أول العام وذاك في آخره.

محمد صلى الله عليه وسلم
يتسامى عن دنس الجاهلية

صورة للتسامي الفطري نشأ عليها محمد ﷺ

لو أن قلماً عبقرياً تتبع حياة محمد ﷺ منذ ولادته إلى أن بعثه الله رحمة للعالمين ليضعها في إطار يجمع بين ألوانها ويوحِّد بين أحداثها وحوادثها لإخراجها للحياة صورة إنسانية عربية فطرية؛ تمثل محمّداً ﷺ وقد ولدته أمه يتيماً تلقته بادية هوازن في بني سعد رضيعاً وفطيماً وغلاماً ناشئاً يخرج مع إخوته وأخواته رضاعاً يلعبون وراء بيوت الحي ويرتادون لأغنام قومهم المراعي ومشارع الماء وظلال الشجر، وفي هذه البادية المطلقة ينشأ على فصاحة البيان ورصانة المنطق وخصائص التعرب مما تَمَدَّح به في رجوليته فقال لأصحابه: «أنا أعربكم، أنا من قريش، ولساني لسان بني سعد بن بكر».

وترده البادية بعد أن سما شباباً إلى مكة ليجد أمه وحيدة حزينة، ولكنها تجده غلاماً يسامي الفتيان في شبابه فيملأ سمعها وبصرها ويستحوذ على فراغ قلبها ويسرّي عنها أحزانها، وتحدثه عن أبيه ويغلبها الشوق لزيارة قبره فتتحمل به مع حاضنته إلى مثوى أبيه بيثرب، وهناك ينفسح له مجال الطفولة فيلعب مع لِدَاته وأترابه في ملاعب يذكرها بعد أن صارت يثرب المدينة المنورة بهجرته وهجرة أصحابه ونصرة أهلها لدعوته ورسالته، ويتحدث عن تلك الملاعب حديث الغبطة والتحبب، ويراه يهود يثرب مع حاضنته فيلحظونه، ويطوفون حوله ويتحدثون عنه، ويبلغ حديثهم مسامع أمه فتخشاهم عليه وهي به غريبة عن بلدها وبلده وأهلها وأهله، فتسرع عائدة به إلى مكة، وفي طريق عودتها يشهد محمد عليه السلام مرضها ووفاتها، ويسمع كلامها عنه ناطقة بأسرار الغيب، ويواريها قبرها، ويرجع مع حاضنته

الوفية الأمينة وحيداً بلا أم تكفله ولا أب يؤويه. ويتلقاه جده عطوفاً كريماً فيرعاه ويكفله حتى إذا بلغ ثماني سنين شهد موت هذا الجد العطوف، فبكى خلف سريره وهو يشيعه إلى مقره الأبدي، وعاد ليجد عمه صنو أبيه وشقيقه أبا طالب يفتح له ذراعيه ليضمه إلى صدره ويكون له نعم الكافل الحبيب، وفي هذه الكفالة ومحمد ﷺ شاب في مهد الشباب يبتهج أمثاله بالأعياد والمحافل والمواسم وما يجري فيها من مراسم وعادات وأساطير وخرافات وألعاب وسخافات تمثل العقيدة والأخلاق ومألوف العرف ومنحدر الوراثة، فيعتزلها إلا من مكارمها، ويعيش منطوياً على تفكيره.

ويلحظ أعمامه وعماته عليه انطواءً عن أعيادهم ومحافلهم ومراسم عقائدهم وطقوس عباداتهم، ورأوا فيه بغضة لآلهتهم وتجافياً عن تقديسها كما يقدسونها، فهو لا يطوف بها ولا يتمسح، ولا يتبرك بها ولا يقرِّب إليها، مع أنهم يرونه مع أترابه من الغلمان يلعبون ويمرحون بعيداً عن أعيادهم ومراسمهم، فحدثوه في ذلك حتى رؤي الغضب في وجه عمه ومحبِّه وكافله أبي طالب، وغضب عليه عماته غضباً شديداً فعاتبنه حتى حملنه على المشقة والعنت.

شواهد التسامي المحصن بالحفاوة الربانية

روى ابن سعد في الطبقات من طريق شيخه الواقدي عن عكرمة عن ابن عباس قال: حدثتني أم أيمن قالت: كانت «بوانة» صنمًا تحضره قريش تعظمه، تنسك له النسائك ويحلقون رؤوسهم عنده يوماً إلى الليل، وذلك يوماً في السنة، وكان أبو طالب يحضر هذا اليوم مع قومه، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى رسول الله ﷺ ذلك حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب، وجعلن يقلن: إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا، وجعلن يقلن: ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً!! قالت أم أيمن: فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع إلينا مرعوباً فزعاً، فقال له عماته: ما دهاك؟ قال: «إني أخشى أن يكون بي لمم» فقلن: ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك، فما الذي رأيت؟ قال: «رأيت أني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي:

وراءك يا محمد، لا تمسه» قالت أم أيمن: فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ.

وقد قدمنا في قصة بحيرا الراهب أنه لما رأى قريشاً تحلف باللات والعزى سأل رسول الله ﷺ بهما، فقال له رسول الله ﷺ: «لا تسألني باللات والعزى شيئاً، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما» وكذلك قدمنا قصة تعريه لنقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان وأنه لُكِم لكمة وجيعة ليشد عليه إزاره، وقدمنا حديث البخاري في بناء الكعبة وتعريه مع عمه العباس لنقل الحجارة فلبط به فلما قام شد عليه إزاره، فقال له عمه: ما شأنك؟ فقال: «إني نهيت أن أمشي عرياناً» وروى البيهقي عن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ قال: كان صنم من نحاس يقال له إساف ونائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ بالكعبة وطفت معه، فلما مررت مسحت به، فقال رسول الله ﷺ: «لا تمسه» قال زيد: فطفنا فقلت في نفسي لأمسنه حتى أنظر ما يكون، فمسحته فقال رسول الله ﷺ: «ألم تُنْه» قال زيد: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنماً قط حتى أكرمه الله تعالى بالذي أكرمه وأنزل عليه.

حفظه ﷺ من دواعي الشباب البريئة تصوناً

وقد حفظه الله تعالى في شبابه من نزعات الشباب ودواعيه البريئة التي تنزع إليها الشبوبية بطبعها، ولكنها لا تلائم وقار الهداة وجلال المرشدين. روى ابن إسحاق والبيهقي والطبري عن محمد بن الحنفية عن أبيه علي ابن أبي طالب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين، كلتاهما عصمني الله عزّ وجلّ فيهما. قلت ليلة لبعض فتيان مكة - ونحن في رعاء غنم أهلها - فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان، فقال: بلى؟ فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير، فقلت: ما هذا؟ قالوا: تزوج فلان فلانة، فجلست أنظر، فضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئاً، ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر ففعل، فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فسألت فقيل: نكح فلان فلانة، فجلست أنظر فضرب

الشاهد الأول

الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء، ثم أخبرته الخبر، فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله عزّ وجلّ بنبوته».

الشاهد الثاني

ومن حديث رواه أبو نعيم: أن العباس بن عبد المطلب خرج في تجارة إلى اليمن في ركب فيهم أبو سفيان بن حرب، وكان أبو سفيان يجلس إلى حبر من اليهود، فسأله الحبر عن رسول الله ﷺ فلم يشفه أبو سفيان، قال العباس : فنادى الحبر فجئت فخرجت حتى جلست ذلك المجلس من الغد، وفيه أبو سفيان بن حرب والحبر، فقلت للحبر: بلغني أنك سألت ابن عمي عن رجل منّا زعم أنه رسول الله ﷺ وأخبرك أنه عمه، وليس بعمه ولكن ابن عمه، وأنا عمه وأخو أبيه، قال: أخو أبيه؟ قلت: أخو أبيه، فأقبل على أبي سفيان فقال: صدق؟ قال: نعم صدق، فقلت: سلني، فإن كذبت رد عليّ، فأقبل عليّ فقال: نشدتك هل كان لابن أخيك صبوة أو سفهة؟ قلت: لا، وإلّه عبد المطلب، ولا كذب ولاخان، وإنه كان اسمه عند قريش الأمين.

ولما خرج محمد ﷺ في مال خديجة ليتجر لها حضر سوق بصرى فباع سلعته التي خرج بها واشترى غيرها، فكان بينه وبين رجل اختلاف في شيء، فقال له الرجل: احلف باللات والعزى، فقال رسول الله ﷺ: «ما حلفت بهما قط، وإني لأمر فأعرض عنهما» فصدقه الرجل وقال: القول قولك. وروى ابن سعد عن الربيع بن خُثَيْم قال: كان يُتحاكم إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية ثم اختص في الإسلام.

وكان ﷺ مع تساميه عن دنس الجاهلية ومعايبها يشارك قومه في أعمال الخير والمكرمات، وقد سمعتَ قوله في حرب الفجار التي شهدها مع عمومته، وقوله في حلف الفضول الذي شهده في دار ابن جدعان مع أشراف قريش، وسمعتَ روايات التاريخ وصحيح الأحاديث في عمله في بناء الكعبة. وكان ﷺ كلما تقدمت به سنه واقترب من كمال الرجولية ويرى ما عليه قومه من ضلالة الوثنية زاد انطواء على نفسه، وفرّ من المجتمعات إلى الانفراد والعزلة كراهة لحياتهم وفراراً من أقذارهم وسقطاتهم.

مكان التسامي من الدروة

قال ابن كثير: وإنما كان رسول الله ﷺ يحب الخلاء والانفراد عن قومه لما يراهم عليه من الضلال المبين من عبادة الأوثان والسجود للأصنام، وقويت محبته للخلوة عند مقاربة إيحاء الله إليه صلوات الله وسلامه عليه.
وقال ابن إسحاق عن بعض أهل العلم: وكان رسول الله ﷺ يخرج إلى حراء في كل عام شهراً من السنة يتنسك فيه ـ وكان من نسك قريش في الجاهلية ـ يطعم من جاءه من المساكين، حتى إذا انصرف من مجاورته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة.

وهكذا كانت نشأة محمد ﷺ منذ ولدته أمه إلى أن بعثه الله رحمة للعالمين أكمل نشأة، تولاه الله تعالى فأدَّبه، ورباه فكمَّله، ورعاه فحفظه مما كان يغمر حياة قومه من وثنية وعادات مسترذلة، حتى غدا أكمل إنسان في بشريته، لم يستطع أحد أن يريبه في حياته أو يزن شبابه بغميزة أو ريبة على كثرة الخصوم والأعداء والمتربصين، فضلاً من الله ونعمة والله ذو الفضل العظيم.

محمد صلى الله عليه وسلم
يتجر في مال خديجة

نظر في رواية تخالف ما سبق من الروايات

تختلف الروايات هل خرج محمد ﷺ إلى الشام تاجراً بعد خروجه مع عمه أبي طالب في سفرة بحيرا الراهب، وقبل خروجه عاملاً في مال خديجة بنت خويلد؟ فقد أخرج ابن منده عن ابن عباس أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه صحب النبي ﷺ وهو ابن ثماني عشرة سنة والنبي ﷺ ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشام في تجارة حتى نزل منزلاً فيه سِدْرةٌ، فقعد في ظلها وذهب أبو بكر إلى راهب يقال له بحيرا يسأله عن شيء، فقال له: من الرجل الذي في ظل الشجرة؟ فقال له: محمد بن عبدالله بن عبد المطلب، قال: هذا والله نبي، ما استظل تحت ظلها بعد عيسى إلا محمدﷺ، ووقع في قلب أبي بكر الصديق فلما بعث النبي ﷺ اتبعه. قال ابن حجر في الإصابة: إن صحت هذه القصة فهي سفرة أخرى بعد سفرة أبي طالب، وقد ضعَّف القسطلاني سند هذه الرواية، وضعف السند لا يلزمه انتفاء القصة، ونحن نميل إلى أنها سفرة أخرى بعد سفرة أبي طالب التي كانت فيها سن النبي ﷺ اثنتي عشرة سنة، والجمهور على أن أبا بكر الصديق لم يكن في تلك السفرة، وقد أجزنا وجوده فيها ولم نستبعده، أخذاً برواية الترمذي المتقدمة أما هذه السفرة فقد كانت فيها سن النبي ﷺ عشرين سنة، ولم يذكر فيها أبو طالب عم رسول الله ﷺ وذكر فيها أبو بكر، فالظاهر أن النبي ﷺ خرج في هذه السفرة مستقلاً يتجر لنفسه وكان يصحبه فيها أبو بكر مع من كان في العير من تجار قريش، وكان قبلها منذ عاد به عمه أبو طالب من سفرة بحيرا مقيماً بمكة يشتغل برعي الغنم ويشهد مع عمومته حلف الفضول وحرب الفجار،

فلما بلغ عمره عشرين سنة خرج في هذه السفرة مع عير قومه ليشتغل بالتجارة، ولعل هذه السفرة هي التمهيد الذي وجه خديجة إلى رغبتها في رسول الله ﷺ أن يتجر لها بمالها مع ما عرف به من الأمانة والصدق والعفة والسمو في الأخلاق، روى الطبري وابن هشام وابن كثير عن ابن إسحاق قال:

كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إيّاه بشيء تجعله لهم منه، وكانت قريش قوماً تجاراً، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله منها رسول الله ﷺ، فخرج في مالها ذلك وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام، فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان، فأطلع الراهب رأسه إلى ميسرة فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من قريش، من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلّا نبي، ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها واشترى ما أراد أن يشتري ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة، فكان ميسرة ـ فيما يزعمون ـ إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره، فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعفت أو قريباً من ذلك، وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعما كان يرى من إظلال الملكين.

رواية تخالف رواية بحيرا وهي أحسن وأوفى مساقاً

هذه الرواية تفيد أن خديجة هي التي رغبت في استئجار رسول الله ﷺ، وهي التي طلبت إليه ذلك لما سمعته عن صفاته النبيلة وأخلاقه الحميدة، وتخالفها في ذلك رواية الواقدي عن نفيسة بنت منية أخت يعلى ابن منية، وهي عند ابن سيد الناس في (العيون) أتم سياقاً وأحسن مساقاً قالت: لما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة، وليس له بمكة اسم إلا الأمين لما تكاملت فيه من خصال الخير. قال له أبو طالب: يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان علينا وألّحت علينا سنون منكرة وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت

خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيراتها فيتجرون لها في مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضّلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك، وإن كنت لأكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من يهود ولكن لا نجد من ذلك بداً، وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام فتكون عيرها كعامة عير قريش، وكانت تستأجر الرجال وتدفع إليهم المال مضاربة، وكانت قريش قوماً تجاراً ومن لم يكن تاجراً من قريش فليس عندهم بشيء، فقال رسول الله ﷺ: «فلعلها ترسل إليّ في ذلك» فقال أبو طالب: إني أخاف أن تُوليٍّ غيرك فتطلب أمراً مدبراً، وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له وقبل ذلك ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، فقالت: ما علمت أنه يريد هذا، ثم أرسلت إليه، فقالت: إنه دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك، ففعل رسول الله ﷺ ولقي أبا طالب فذكر له ذلك، فقال: إن هذا لرزق ساقه الله إليك.

فخرج مع غلامها ميسرة حتى قدم الشام وجعل عمومته يوصون به أهل العير، حتى قدم الشام فنزلا في سوق بصرى في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب يقال له «نسطورا»، فاطلع الراهب إلى ميسرة ـ وكان يعرفه ـ فقال: يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال ميسرة: رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي، ثم قال له: في عينيه حمرة؟ قال ميسرة: نعم، لا تفارقه، قال الراهب: هو هو وهو آخر الأنبياء، ويا ليت أني أدركه حين يؤمر بالخروج، فوعى ذلك ميسرة، ثم حضر رسول الله ﷺ سوق بصرى فباع سلعته التي خرج بها واشترى، فكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعة، فقال الرجل: احلف باللات والعزى، فقال رسول الله ﷺ: «ما حلفت بهما قط وإني لأمر فأعرض عنهما» فقال الرجل: القول قولك ثم قال لميسرة ـ وخلا به ـ : يا ميسرة هذا نبي، تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم، فوعى ذلك ميسرة ثم انصرف أهل العير جميعاً.

وكان ميسرة يرى رسول الله ﷺ إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو على بعيره، وكان الله عزّ وجلّ قد ألقى على رسول الله ﷺ المحبة من ميسرة فكان كأنه عبد لرسول الله ﷺ، وباعوا تجارتهم وربحوا ضعف ما كانوا يربحون، فلما رجعوا فكانوا بمرِّ الظهران (واد قريب من مكة) قال ميسرة: يا محمد انطلق إلى خديجة فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك فإنها تعرف لك ذلك؟ فتقدم رسول الله ﷺ حتى دخل مكة في ساعة الظهيرة - وخديجة في علية لها معها نساء فيهن نُفيسة بنت منية - فرأت رسول الله ﷺ حين دخل وهو راكب على بعيره وملكان يظلان عليه فأرته نساءها فعجبن لذلك، ودخل عليها رسول الله ﷺ فخبرها بما ربحوا فسرت بذلك، فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت فقال لها ميسرة: قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام، وأخبرها بقول الراهب نسطورا وقول الآخر الذي خالفه في البيع، وربحت في تجارتها ضعف ما كانت تربح، وأضعفت لرسول الله ﷺ ضعف ما سمّت له.

نظر في رياض هذه الرواية

وفي هذه الرواية ضروب من المعاني التاريخية، فهي تذكر أن أبا طالب هو الذي رغب إلى محمد ﷺ أن يعرض نفسه على خديجة بعد أن مهّد لهذه الرغبة بعذره وقلة ماله، وأن الزمان قد اشتد عليه والسنين المنكرة ألّحت عليه وليس له مادة ثانية في بلده ولا تجارة بعيدة يرجوها، وبيّن له أنه يحرص عليه أشد الحرص ويذكر وصية بحيرا الراهب له في ألا يقدمه الشام حذر اليهود.

وهذا تصوير يقرب القصة من طبيعة النفوس والأشياء فيجعلها أقرب إلى الواقع التاريخي من تصوير رواية ابن إسحاق التي تقول أن خديجة هي التي بعثت إلى رسول الله ﷺ بادىء ذي بدء فعرضت عليه العمل في مالها. وفي هذه الرواية أيضاً لون من تصوير بعض خصائص الخلق الكريم الذي امتاز به محمد ﷺ، فعمه قد عرض عليه رغبته وحفها بلونين من الترغيب والإغراء، لون عاطفي ولون مادي، فالعاطفي تمثل في وصف حال أبي طالب من قلة المال واشتداد الزمان وكلب السنين. والمادي تمثل في إشعار محمد ﷺ أنه لا يرضى له أجراً مثل أجر غيره من الرجال، بل لا يرضى له دون ضعف رجل من الرجال، فما كان من محمد ﷺ إلا أن رد

على عمه في هدوء الرجل الذي يشعر أنه فوق هذه المغريات، فلا يعرض نفسه ولا يطلب من أحد شيئاً إلا أن يكون مكرمة من مكارم الرجال، وقد تلطف مع عمه وترك المجال في يده واكتفى بقوله: «فلعلها ترسل إليّ في ذلك»، ولكن أبا طالب حرصاً على منفعة مواتية يخشى إن هو تأنّى وتلبث أن تفوت فلا تعود، أظهر تخوفه ذلك لمحمد ﷺ عساه يبعث فيه شيئاً من اللهفة والحرص على عرض نفسه كما طلب منه فقال له: إني أخاف أن تُولي غيرك فتطلب أمراً مدبراً.

وبقي محمد ﷺ في موقفه من العزة والتسامي، فبلغ هذا الحوار خديجة، فرأت منفذاً أرسلت منه صوتها تدعو محمداً ﷺ وتعرض عليه العمل في مالها في إطار من التكريم والتعظيم يشعره أنها هي التي تتطلع إلى ذلك ولكنها ما كانت تعلم أنه يريده، فلما بلغ أبا طالب ما كان بين محمد ﷺ وخديجة من اتفاق فرح فرحاً شديداً، وقال لرسول الله ﷺ حين لقيه: هذا رزق ساقه الله إليك.

وفي هذه الرواية أيضاً ما يظهر من حرص عمومة رسول الله ﷺ وحذرهم اليهود، فقد علموا منذ سفرته الأولى وهو غلام في رفقة عمه أبي طالب وكان في العير معهم الحارث بن عبد المطلب من حديث الراهب بحيرا واليهود يعرفونه بأوصافه ويحسدونه على ما يأتيه الله من فضله، فهم يبغونه الغوائل لو قدروا عليه، فمن هنا كان أعمامه يوصون به أهل العير في هذه السفرة حتى يكون بنجوة من كيد اليهود، وقد قال له عمه أبو طالب ذلك في صراحة حين عرض عليه أمر خديجة ولكنه اعتذر إليه أنه لا يجد بداً من سفره، وقد حفظ الله رسوله وحاطه برعايته حتى كانت هذه السفرة بما كان فيها من الخير والبركة ذات أثر مبارك في حياة محمد ﷺ.

رواية في سفرة أخرى بمال خديجة

وذكر أبو جعفر الطبري وابن كثير وابن سيد الناس عن ابن شهاب الزهري أنه قال: لما استوى رسول الله ﷺ وبلغ أشده وليس له كبير مال استأجرته خديجة بنت خويلد إلى سوق حباشة وهو سوق بتهامة، واستأجرت معه رجلاً آخر من قريش، فقال رسول الله وهو يحدث عنها: «ما رأيت من صاحبة لأجير خيراً من خديجة، ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبئه لنا».

ولعل هذه الرواية تعني سفرة أخرى في مال خديجة قبل سفرة الشام التي اتفق عليها جمهور الرواة، فيكون رسول الله ﷺ قد آجر نفسه من خديجة ليعمل لها في مالها تاجراً مرتين، مرة إلى سوق حباشة بتهامة من أرض الجزيرة وهي أولاهما وكان فيها غير منفرد بل كان له رفيق من قريش يشاركه في العمل، ولعل هذا الرفيق هو الذي أشار إليه أبو طالب في قوله لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي قد بلغني أن خديجة استأجرت فلاناً ببكرين ولا نرضى لك بمثل ما أعطته.

ومرة أخرى إلى الشام، وهي الثانية التي كان فيها رسول الله ﷺ مستقلاً بالعمل وليس معه من جهة خديجة سوى غلامها ميسرة لخدمته، ويرشح ذلك ما رواه البيهقي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «آجرت نفسي من خديجة سفرتين بقلوص» فهذا الحديث صريح في أنه ﷺ سافر في مال خديجة سفرتين، ولم تحدد في الحديث الجهة التي كان إليها السفر، ورواية الجمهور حددت الشام، ورواية الزهري حددت سوق حباشة بتهامة، فتحمل كل سفرة على جهة بعينها لتتوافق روايات التاريخ، وظاهر قول أبي طالب المتقدم أن خديجة كانت قد تعاقدت مع القرشي ليسافر بمالها ببكرين، فلما علمت بما دار بين رسول الله ﷺ وعمه وعرفت رغبة أبي طالب في أن يلي رسول الله ﷺ العمل في مالها، واعتذرت عن سبقها إلى استئجار القرشي بقولها: ما علمت أنه يريد هذا، لم تر مانعاً من إشراك رسول الله ﷺ مع القرشي اغتناماً لفرصة استئجاره، حتى إذا أتيحت لها فرصة استقلاله بالعمل أسرعت إلى انتهازها في المرة الثانية وهي التي كان السفر فيها إلى الشام.

* * *

تزوّج محمّد صلى الله عليه وسلم
خديجة رضي الله عنها

ظواهر مرغبة اعتلجت في نفس خديجة رضي الله عنها

كان تقدير خديجة لمحمد ﷺ تقديراً واقعياً دافعاً لها على أن تفكِّر في شأنه تفكيراً آخر أكبر من كونه عاملاً في مالها يتجر لها فيه فتربح ويربح، إنها عرفت محمداً بما عرفه به قومه أميناً صدوق الحديث، عزوفاً عن الدنايا، طموحاً لعوالي الأمور، متسامياً بنفسه عن مغامز المروءة، كسوباً للخير، بل هي قد عرفت محمداً ﷺ أكثر مما عرفه قومه، عرفته عاملاً في مالها وصحبه في سفره غلامها الأمين ميسرة، فحدثها عن أخلاق محمد ﷺ في السفر والعمل، وحدثها عما شهد من دلائل مستقبل هذا الفتى الكريم، وحدثها عن تنبؤات الرهبان، وحدثها عن مظاهر رعاية الله تعالى له، ورأت هي من مظاهر الرعاية ما عجّبت منه نساءها، وذكرت حديثاً كان حدثها به يهودي في نسوة اجتمعن معها في عيد من أعياد قريش يتصل بمستقبل محمد ﷺ في الحياة ومستقبل الحياة على يد محمد ﷺ. قال الزرقاني في شرح المواهب: ذكر ابن إسحاق في المبتدأ قال: كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه، فاجتمعن يوماً فيه، فجاءهن يهودي فقال: يا معشر نساء قريش إنه يوشك فيكن نبي؛ فأيتكن استطاعت أن تكون له فراشاً فلتفعل، فحصبنَه وقبَّحنَهُ وأغلظن له، وأغضت خديجة على قوله ولم تعرض فيما عرض فيه النساء ووقر ذلك في نفسها، فلما أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات وما رأته هي قالت: إن كان ما قال اليهودي حقاً ما ذاك إلا هذا (تعني محمداً ﷺ) ثم هي امرأة خلية من الزوج، شريفة حسيبة، ذات مال كثير، يحتاج إلى يد أمينة تديره وتنميه، ومحمد ﷺ في ذروة الشرف من قومها، أليس هو ابن عبد المطلب شريف

اكتمال الرغبة في نفس خديجة أن تكون زوجاً لمحمد ﷺ

قريش وسيدها؟ وهو أنبل فتى وأعقله، وأعظمه أمانة وأكمله مروءة، وهو خليّ لم يتزوج وقد بلغ سن اكتمال الشباب، فما يمنعها أن تكون زوجاً له وما يمنعه أن يكون زوجاً لها؟ فلتدس إليه صديقة من صديقاتها اللائي يتنسمن رغباتها فتلقي إليه هذه الرغبة إلقاء عارضاً لتعرف مكانها من نفسه.

روى ابن سعد من طريق شيخه الواقدي عن نفيسة بنت منية قالت: كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذ أوسط قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً، وكل قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال، فأرسلتني دسيساً إلى محمد ﷺ بعد أن رجع من عيرها من الشام، فقلت: يا محمد ما يمنعك أن تزوَّج؟ فقال: «ما بيدي ما أتزوج به» قلت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟ قال: «فمن هي»؟ قلت: خديجة، قال «وكيف لي بذلك»؟ قلت: عليّ، قال: «فأنا أفعل» فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليه أن آئتِ لساعة كذا وكذا، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها فحضر، ودخل رسول الله ﷺ في عمومته فزوَّجه أحدهم، فقال عمرو بن أسد: هذا البضع لا يُقدع أنفه. وتزوجها رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وعشرين سنة وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة ولدت قبل الفيل بخمس عشرة سنة.

تلطف نفيسة بنت منية في عرض رغبة خديجة على محمد ﷺ

نظر وتعليق للبيان

في هذه الرواية أن خديجة هي التي تسامت بالرغبة في أن يكون محمد ﷺ زوجاً لها فدست إليه صديقتها نفيسة بنت منية، وفيها أن محمداً ﷺ كان واضح القصد، واضح العذر، فهو لم يتكلف التأبي على الزواج ولم يتظاهر بعدم حاجته إليه، بل لعله أبدى أنه في حاجة إليه ولكن يمنعه من الإقدام أن يده لا تملك ما يتزوج به، لقد وضح الطريق وسهلت مهمة الصديقة الأمينة ودُعِيَ محمد ﷺ إلى الجمال والمال والشرف والعقل والكمال، إلى خديجة بنت خويلد سيدة نساء العالمين فأجاب كفؤاً كريماً، وزوجها عمها وزوج محمداً ﷺ عمه، وكانت خديجة في سن اكتمال الأمومة وكان محمد ﷺ في سن اكتمال الشباب، وفي هذا من أسرار الموافقات

النفسية ما تضيق دون أدائه العبارة، لأن محمداً ﷺ كان ـ بعد ما مضى من عمره فيما قدر الله من ألوان الحياة الصارمة ـ إلى عاطفة الأمومة وحنانها وبرها أدنى منه حاجة إلى عاطفة الزوجة وحبها، وخديجة كانت هي الزوجة في حبها، وهي الأم في حنانها وبرها، ومن ثم كانت خديجة امرأة واحدة لم تتكرر في الحياة.

هذه الرواية في تزوُّج محمد ﷺ بخديجة هي أثبت الروايات وأوفاها، وهي صريحة في أن الذي زوَّجها منه هو عمها عمرو بن أسد، وهذا مروي في حديث عروة عن عائشة وحديث عكرمة عن ابن عباس. ففي حديث عائشة أن عمها عمرو بن أسد زوَّجها رسول الله ﷺ، وأن أباها مات قبل الفجار، وفي حديث ابن عباس: زوج عمرو بن أسد بن عبد العزى ابن قصي خديجة بنت خويلد النبي ﷺ وهو يومئذ شيخ كبير لم يبق لأسد لصلبه يومئذ غيره.

رواية تسند الزواج إلى خويلد أبي خديجة

وروى البيهقي أن عمار بن ياسر كان إذا سمع ما يتحدث به الناس عن تزويج رسول الله ﷺ خديجة وما يكثرون فيه يقول: أنا أعلم الناس بتزويجه إياها، إني كنت له ترباً وكنت له إلفاً وخدناً وإني خرجت مع رسول الله ﷺ ذات يوم حتى إذا كنا بالحزورة أجزنا على أخت خديجة وهي جالسة على أدم تبيعها، فنادتني فانصرفت إليها، ووقف لي رسول الله ﷺ، فقالت: أمَا لصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة؟ قال عمار: فرجعت إليه فأخبرته فقال: «بلى لعمري» فذكرت لها قول رسول الله ﷺ، فقالت: اغدوا علينا إذا أصبحنا، وغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا أبا خديجة حلة، وصفرت لحيته، وكلمت أخاها فكلم أباه، وقد سقي خمراً، فذكر له رسول الله ﷺ ومكانه وسأله أن يزوجه فزوجه خديجة، وصنعوا من البقرة طعاماً فأكلنا منه ونام أبوها ثم استيقظ صاحياً، فقال: ما هذه الحلة؟ وما هذه الصفرة؟ وهذا الطعام؟ فقالت له ابنته التي كانت قد كلمت عماراً: هذه حلة كساكها محمد بن عبدالله ختنك، وبقرة أهداها لك فذبحناها حين زوجته خديجة، فأنكر أن يكون زوَّجه، وخرج يصيح حتى جاء الحِجْر، وخرج بنو هاشم برسول الله ﷺ فجاؤوه فكلموه. فقال: أين صاحبكم الذي

تزعمون أني زوَّجته خديجة؟ فبرز له رسول الله ﷺ، فلما نظر إليه قال: إن كنت زوَّجته فسبيل ذلك، وإن لم أكن فعلت فقد زوَّجته.

رواية أخرى أيضاً مختلفة

وروى الطبري عن ابن شهاب الزهري قال: وكان الذي زوَّجها أباها خويلداً، وكانت التي مشت في ذلك مولاة مولدة من مولدات مكة، وكذلك عند ابن إسحاق، فقد جاء في روايته: لما أخبرها ميسرة بما أخبرها بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له - فيما يزعمون -: يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً، كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليها، فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه حمزة ابن عبد المطلب عمه حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها.

وقد ساق ابن سعد في الطبقات رواية البيهقي مختصرة عن أبي مجلز فقال: إن خديجة قالت لأختها انطلقي إلى محمد فاذكريني له، وإن أختها جاءت فأجابها بما شاء الله، وأنهم تواطؤوا على أن يتزوجها رسول الله ﷺ، وأن أبا خديجة سقي من الخمر حتى أخذت فيه ثم دعا محمداً ﷺ فزوجه، وألقيت على الشيخ حلة، فلما صحا قال: ما هذه الحلة؟ قالوا: كساكها ختنك محمد ﷺ، فغضب وأخذ السلاح وأخذ بنو هاشم السلاح وقالوا: ما كانت لنا فيكم رغبة؛ ثم إنهم اصطلحوا بعد ذلك.

قال ابن سعد: أخبرنا محمد بن عمر - الواقدي - بغير هذا الإسناد أن خديجة سقت أباها الخمر حتى ثمل، ونحرت بقرة وخلقته بخلوق وألبسته حلة حبرة، فلما صحا قال: ما هذا العقير؟ وما هذا العبير؟ وما هذا الحبير؟ قالت: زوَّجتني محمداً ﷺ قال: ما فعلت، أنا أفعل هذا وقد خطبك أكابر قريش فلم أفعل؟.

هذا نقد جيد جداً

قال الواقدي: فهذا كله عندنا غلط ووهل (وهم وضعف)، والثبت عندنا المحفوظ عن أهل العلم أن أباها خويلد بن أسد مات قبل الفجار وأن عمها عمرو بن أسد زوَّجها رسول الله ﷺ.

ونقد الواقدي منصب على جميع الروايات التي أسندت تزويج خديجة من رسول الله ﷺ إلى أبيها خويلد وهو نقد تاريخي نسفها نسفاً ولم يقم لها وزناً، ولو لم ينهض الواقدي به لنادى بزيفها ما فيها من تدليس وخداع تأباه أخلاق العرب عامة، وتنأى عنه مكارم محمد ﷺ وتساميه عن هذه الأساليب المدلسة التي لم يعرف عنه في حياته أنه سلك قط سبيلها أو حام حولها.

رواية أخرى متقاربة القبول

قال الزرقاني في شرح المواهب: وفي سيرة الزهري ـ وهي أول سيرة ألفت في الإسلام ـ أنه ﷺ قال لشريكه الذي كان يتجر معه في مال خديجة: هَلُمَّ فلنتحدث عند خديجة، وكانت تكرمها وتتحفهما، فلما قاما من عندها جاءت امرأة فقالت له: جئت خاطباً يا محمد؟ قال: كلا، قالت: ولِمَ؟ فوالله ما في قريش امرأة وإن كانت خديجة إلا تراك كفؤاً لها، فرجع ﷺ خاطباً لخديجة مستحيياً منها.

وهذه المرأة المذكورة في هذه الرواية تحتمل أن تكون هي أخت خديجة المذكورة في رواية عمار بن ياسر، ويحتمل أنها هي نفيسة بنت منية، ويحتمل أنها المولدة المذكورة في رواية الزهري عند الطبري، وهذا أقرب الاحتمالات لاتفاق مصدر الروايتين فيحمل المطلق منهما على المقيَّد، ويرد المبهم إلى المفسر.

نظر وتوضيح

وهذه الرواية تشير إلى أن حديثاً تهامس به المتصلات بخديجة من صواحباتها، فأرادت هذه المرأة الوسيطة أن يكون الهمس جهراً والرغبة حقيقة واقعية، فحدثت محمداً ﷺ إثر خروجه وصاحبه من عند خديجة لتشعره بالرغبة فيه حتى يقدم في غير تردد، وجعلت خديجة مثلاً في رفعة الشرف، وهي تقصدها بالحديث قصداً لا يشرك معها غيرها، ولكنها صاغت قصدها في عبارة لا يدرك لحنها إلا المفردون من الحذاق، ولما أدرك محمد ﷺ قصدها أدركه من الحياء ما يدرك الرجل الكريم، فرجع على استحياء منه خاطباً خديجة، وعند ابن سعد أن خديجة قالت له: اذهب إلى عمك فقل له: عجِّل إلينا بالغداة، فلما جاء قالت: يا أبا طالب ادخل على عمي فقل له يزوِّجني من ابن أخيك، فقال أبو طالب: هذا صنع الله.

خطبة أبي طالب الإملاكية في زواج محمد ﷺ خديجة بنت خويلد

وذكر المبرِّد أن أبا طالب خطب خطبة الإملاك فقال: الحمدلله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء (أصل) معد، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسواس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوباً وحرماً آمنا، وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبدالله لا يوزن برجل إلا رجح به، فإن كان في المال قل فإن المال ظل زائل وأمر حائل، ومحمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله من مالي عشرين بكرة، وفي رواية: وقد بذل لها من الصداق اثنتي عشرة أوقية ذهباً ونشا أي نصف أوقية، ووفق بعضهم بأن أبا طالب دفع البكرات من ماله ودفع رسول الله ﷺ الذهب من عنده فكان الجميع صداقاً لها، ثم قال أبو طالب: وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، فزوجها.

خطبة ورقة بن نوفل في حفل زواج محمد ﷺ

وفي المنتقى: فلما أتم أبو طالب الخطبة تكلم ورقة بن نوفل - وكان حاضراً في رؤوس مضر - فقال: الحمدلله الذي جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليَّ معاشر قريش بأني قد زوَّجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبدالله على أربعمائة دينار، ثم سكت. فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها، فقال عمها: اشهدوا عليّ يا معشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبدالله خديجة بنت خويلد، وشهد على ذلك صناديد قريش.

وورقة ابن عم خديجة ومن أشراف قومها وذوي أسنانهم، فلا غرابة أن يقدموه في الرد على خطبة أبي طالب، وكأنما أحب أبو طالب أن يوثق العقد ويؤكد الرضا منهم فأحب أن يشارك عم خديجة ابن عمها، فأسرع عمها إلى إجابة أبي طالب إلى طلبته، وفي رواية أن أخاها عَمْراً هو الذي تولى زواجها.

والناظر في هذه الروايات يرى أن بعضها يكمل بعضاً وإن الرواة لما

اختلفت مصادرهم اختلفت عباراتهم ،وأخذ كل راوٍ بطرفٍ من القصة وحكاه كما سمع.

وقد أولم رسول الله ﷺ على زواجه بخديجة، وفرحت خديجة بهذا الزواج فرحاً شديداً، روي أن رسول الله ﷺ لما تزوجها ذهب ليخرج فقالت له: إلى أين يا محمد؟! اذهب وانحر جزوراً أو جزورين وأطعم الناس ففعل، وقال في المنتقى: فأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربن بالدفوف، وقالت: مر عمك ينحر بكراً من بكراتك وأطعم الناس، وهلم فقِل مع أهلك، فأطعم الناس ودخل ﷺ فقال معها، فأقر الله عينه، وفرح أبو طالب فرحاً شديداً وقال: الحمدلله الذي أذهب عنا الكرب ودفع عنا الهموم.

ظَاهِرَتَان فِي حَيَاةِ مُحَمَّد
صلّى اللّه عليه وسلّم

ظاهرتان اجتماعيتان كانتا تسودان حياة محمد ﷺ منذ أن ولد ثم نهد فشب عن الطوق، واستوى غلاماً يافعاً في شباب قريش وفتى سوياً بين فتيانهم، إلى أن اقترن بزوجه الطاهرة الأمينة الوفية السيدة خديجة بنت خويلد، وسنه إذ ذاك على أرجح روايات التاريخ خمس وعشرون سنة.

الأولى: شظف العيش

عرض وتحليل

أما الظاهرة الأولى فهي ظاهرة اجتماعية تسم البيئة العربية كلها بميسمها، وتعنون الحياة فيها بعنوانها، فهي ليست من الظواهر التي تعد من خصائص محمد ﷺ في شبابه إلا كما يحمل الفرد عنوان الجماعة لكونه منها بمكان الطرة من الكتاب، تلك هي ظاهرة شظف العيش وخلو اليد من حطام الدنيا، فقد ولد محمد ﷺ يتيماً لم يرث من أبيه غير خمسة أجمال وغنيمة وجارية، وهي شيء ضئيل بالنظر لما كانت تضطرب به مكة عامة وقريش خاصة من أموال مؤثلة أو تجارات مدبرة تدر الربح في المواسم والأسواق، وقد عرف التاريخ أن أظآر بني سعد ومرضعات هوازن أعرضن عن محمد ﷺ وهو ملتف بلفائفه في مهده، وقلن: يتيم لا مال له، فما عسى أن تصنع لنا أمه أو جده، وعرف التاريخ أن جده وعمه كفلاه حتى اشتدت قناته فآجر نفسه يرعى غنم أهله، وعرف أنه بعد ذلك آجر نفسه من خديجة ليعمل في مالها تاجراً لها، فليس في تاريخ شباب محمد ﷺ فترة تغير فيها وضعه المادي، بل ظل على حالة واحدة لازمته منذ ولادته، بل ربما كانت حاله في طفوليته أيسر منها في شبابه.

ولهذه الظاهرة أثرها العميق في تمحيص خصيصة الإنسانية العليا في الأفراد الذين تلزمهم أيام شبابهم، وهي أيام اجتماع قوى الاندفاع وعناصر الهوى النفسي، ونزغات المراهقات ومنافذ الغرائز المادية النهمة، ومسارب استطالة الشباب وطموحه، وهو تمحيص شاق أشد المشقة، ولاتبصر له إلا نفس قوية التركيب البنائي في جوهر تكوينها، ومن ثم كانت مثله التاريخية آحاداً من الأفذاذ في القرون والحقب، ومن عجائبه أنه يتجاوب في يسر مع النزعات الدينية الداعية إلى الإيمان بالغيب، فتكثر نسبياً أمثلته من النماذج الإنسانية الحية في أوقات تسود فيها الروحانية، فإذا عاشت شخصية إنسانية في عصر مادي وبيئة مادية وحياة مادية، ثم تعرَّضت لهذا الامتحان الفاتن الممحص،وخرجت منه كما خرج محمد ﷺ في شبابه أكمل الناس إنسانية وأعظمهم خلقاً وأضخمهم أمانة، وأبعدهم عما يشين مروءة الرجال، حتى ما يستطيع عدو بَلْه ولياً أن يقول فيه لو ولا وليت،ومن ثم كانت هذه الشخصية هي النموذج الأعلى لكمال خصيصة الإنسانية العليا في فرد من بني الإنسان.

الـظـاهـرة الثـانيـة
تكافؤ الخُلُق

هذه الظاهرة هي معجزة الحياة في الإنسان

أما الظاهرة الثانية فهي ظاهرة التكافؤ الخُلُقي في شخصية محمد ﷺ، ونعني بالتكافؤ الخلقي أن أخلاق محمد ﷺ كانت كلها تنبع من فطرته بنسب متفقة، فصبره مثل شجاعته، وشجاعته مثل كرمه، وكرمه مثل حلمه، وحلمه مثل رحمته، ورحمته مثل مروءته، وهكذا لا تجد له خُلُقاً في موضعه من الحياة يزيد أو ينقص على خلق آخر في موضعه منها، ومن هنا كان جماع أمره عند قومه «الأمين» وهذا اسم يمثِّل التكافؤ الخلقي أصدق تمثيل.

هذا التكافؤ الخلقي في وجوده الواقعي، في شخصية محمد ﷺ يوشك أن يكون معجزة الحياة في الإنسان، لأن التاريخ لم يذكر من النماذج العليا للبشرية من كان هذا التكافؤ الخلقي خليقته العامة سوى محمد ﷺ، وإذا ذكر غيره من النماذج العليا ذكره عنواناً لتبرير جزئي في بعض الأخلاق والفضائل، فهذا مثل مضروب في الصبر، وذاك في الحلم، وثالث في الكرم، ورابع في الشجاعة، وهكذا تتفرق النهايات في الأخلاق والفضائل في نماذج متعددة، ولكنها تجتمع متكافئة في شخصية محمد ﷺ وهذا هو سر الإعجاز الإنساني في حياته ﷺ.

وهذا التكافؤ الخلقي في وجوده الواقعي في شباب محمد ﷺ معجزة الإنسان في الحياة لأن الشباب معترك الغرائز، وهي مختلفة الأغراض والغايات، فالتكافؤ الخلقي في الشباب ضرب من المحالات في متعارف الحياة، فإذا حققه الوجود الواقعي في شباب محمد ﷺ كان وجوده معجزة الإنسان في الحياة.

وهذا التكافؤ الخلقي في وجوده الواقعي في شباب محمد ﷺ مع ملازمة الظاهرة الاجتماعية الأولى لحياته في شبابه ضرب آخر من الإعجاز الإنساني في الحياة؛ لأن تلك الظاهرة الاجتماعية كانت قمينة أن تدعو الشباب إلى طيش الغرائز، فتنقلب به الفضائل إلى رذائل جامحة، فوجود ضابط نفسي يعصم الإنسان من الانزلاق وراء تيارات الغرائز في إبان قوتها العارمة هو الآية الكبرى على أن التكافؤ الخلقي الذي ينبع منه ذلك الضابط النفسي ليس من صنع الإنسان.

هذا التكافؤ الخلقي خصيصة محمد ﷺ

والتكافؤ الخلقي بهذا المقياس لم تعرفه الحياة الواقعية لإنسان غير محمد ﷺ، وهو في شباب محمد ﷺ مفطور مجبول، لم يصنعه علم ولا تثقيف لأن بيئة محمد ﷺ في شبابه لم تكن بيئة علم وثقافة، ومن الطبيعي أن تكون ثمرات هذا التكافؤ الخلقي محدودة بحدود البيئة التي عاش فيها، حتى إذا أتيح له أن يمتد ويتسع مع الرسالة العامة الخالدة امتد واتسع فكان هو العنوان الذي رسم به القرآن الكريم الفضيلة العليا في حياة محمد ﷺ، فقال في معرض الرد عنه مدافعاً ومادحاً: (وإنك لعلى خلق عظيم). وهذا التعبير في موضعه يكافىء تعبير الفطرة الملقى على ألسنة قومه في تسميته (الأمين)، فكما مثل (الأمين) التكافؤ الخلقي هناك أصدق تمثيل مثَّله هنا أي في دور الرسالة العامة الخالدة (الخلق العظيم) أصدق تمثيل، والفرق بين التعبيرين هو الفرق بين محمد المرسل رحمة للعالمين، ومحمد الشاب الأمين، وفي تعبير القرآن الكريم إشارة إلى عمل في التكافؤ فوق عمل الفطرة والجبلة، وهو أثر النبوة والرسالة، وهو معنى ما يشير إليه الأثر الشريف الذي رواه ابن الأثير في النهاية من قوله ﷺ: (أدبني ربي فأحسن تأديبي)، ولهذا الكلام بقية تذكر في شيء من التفصيل المقرون بالأمثلة الواقعية عند الحديث عن أخلاق محمد رسول الله ﷺ، وإنما قصدنا هنا إلى الإشارة العابرة لنبين أن الخلق الأصيل النابع من الفطرة لا تملك المؤثرات الطارئة أن تغيره، وأن هذا الخلق الأصيل النابع من الفطرة يستطيع أن يتغلب على الظواهر الاجتماعية ويوجهها في طريق الفضيلة، حتى تصبح تلك الظواهر عند صاحب هذا الخلق الأصيل النابع من الفطرة فضيلة من فضائله.

بين تعبير الفطرة الملهمة وتعبير القرآن عن خصيصة التكافؤ الخلقي في حياة محمد ﷺ

هكذا يصور التاريخ الواقعي شخصية محمد ﷺ في شبابه، حتى تزوج خديجة، وهي امرأة حسيبة شريفة كثيرة المال، عرفت محمداً ﷺ في شظف عيشه وقلة ذات يده، وعرفته في تكافؤه الخلقي، فرغبت فيه لهذه المعرفة، وتزوجته بعد هذه المعرفة، فأصبح - عرفاً - مالها ماله وثراؤها ثراءه، وغدا محمد ﷺ بين عشية وضحاها من أغنياء قريش، وذوي ثرواتها، ولكن محمداً ﷺ ظل بعد هذا الثراء الغامر كما كان منذ ولد ونهد وشب يعيش في شظف عيشه؛ لا من قلة المال في يده، بل لأن خصيصة التكافؤ الخلقي عنده طبعته على الزهادة في الحياة المادية المترهلة التي كانت تحياها مكة وتعيش فيها قريش، وطبعته على التسامي بنفسه عن المطامع التي تتحلب لها أشداق الماديين إذا هبط عليهم الثراء من غير كد ولا تعب.

لم تغير كثرة المال في يد محمد ﷺ تكافؤه الخلقي

فعملُ التكافؤ الخلقي هنا أبلغ من عمله هناك، لأن حياة محمد ﷺ قبل زواجه خديجة كانت حياة تقلل من الدنيا، لأنها كانت في يده قليلة أو لأنه لم يكن في يده منها شيء، فالفضيلة فيها في قوة الصبر على عدم التطلع إليها وتطلبها بما يُمِيِّل بميزان التكافؤ الخلقي فيبطل عمله، وحياته بعد زواج خديجة حياة تقلل من الدنيا وهي ملء يده، فالفضيلة فيها في قوة الصبر معها عن الانزلاق في غمرات المادية التي تدفع إلى الانزلاق فيها البيئة ومؤثراتها.

ومضى محمد ﷺ في حياته الجديدة أميناً مع نفسه، أميناً مع قومه، أميناً مع زوجه، أميناً لماضيه، أميناً لمستقبله، وبقي يعيش في ظاهرتيه من شظف العيش والتكافؤ الخلقي حتى كأن آخر حياة شبابه منهما صورة من أولها، وظل يتجر في مال زوجه خديجة، ولكن التاريخ لم يحدثنا عن رحلات له خارج جزيرة العرب بعد زواجه.

كان محمد ﷺ يعمل في التجارة ويرد الأسواق الداخلية يبيع ويشتري

وحدثتنا الروايات أنه كان يأتي المواسم والأسواق الداخلية، يبيع ويشتري، ويلتمس معاشه فيها، فقد روى ابن كثير في مساءلة قريش وتعنتهم مع رسول الله ﷺ بطلب أنواع من الآيات وخوارق العادات على وجه العناد أنهم قالوا: إن كنت رسولاً - كما تزعم - فاسأل ربك أن يجعل لنا جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ويغنيك عما نراك تبتغي، فإنك تقوم في

الأسواق وتلتمس المعايش كما نلتمسها حتى نعرف فضل منزلتك من ربك. وفي أحاديث قس بن ساعدة أن رسول الله ﷺ كان قبل البعثة يرد أسواق العرب عكاظ وذا المجاز ومجنة، وأنه رأى قساً فيها وسمع كلامه وهو يدعو الناس ويذكرهم نبياً أظلهم وقته وديناً خيراً من دينهم.

إعجاب أبي سفيان بعظمة خلق محمد ﷺ وعزوفه عن الدنيا

وقد ذكرنا فيما سبق حديث أبي سفيان وقصته مع أمية بن أبي الصلت وأنه قدم إلى مكة بعد سفره إلى اليمن تاجراً، فقال: فبينا أنا في منزلي جاءني الناس يسلمون علي ويسألون عن بضائعهم حتى جاءني محمد بن عبدالله ـ وهند عندي تلاعب صبيانها ـ فسلم عليّ ورحَّب بي وسألني عن سفري ومقامي، ولم يسألني عن بضاعته، ثم قام فقلت لهند: والله إن هذا ليعجبني، ما من أحد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سألني عنها، وما سألني هذا عن بضاعته، قال أبو سفيان: فبينا أنا أطوف بالبيت إذ بي قد لقيته فقلت له: إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا وكان فيها خير فأرسل من يأخذها ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومي فأبى عليّ، وقال: إذن لا آخذها، قلت: فأرسل فخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومي، فأرسل إلى بضاعته فأخذها وأخذت منه ما كنت آخذ من غيره.

تنسكه واعتزاله ﷺ المجتمع للتأمل في جلال الكون ومظاهر الطبيعة

فهذا ونحوه صريح في أن محمداً ﷺ كان في هذه المدة التي تقع بين زواجه وبعثته يتسبب لمعاشه بالتجارة على نهج قومه فيها، يباشرها بنفسه في الأسواق الداخلية ويؤاجر عليها أهل المعرفة في الرحلات الخارجية إلى اليمن أو الشام، ولم نر في شيء من الروايات أنه اشتغل بشيء آخر غير التجارة في التماس معاشه بعد زواجه، وكان كلما تقدمت به الحياة ازداد انطواء عن حياة الناس، وحُبِّب إليه الاعتزال والتنسُّك، فكان يتنسك في غار حراء يطعم المساكين ويفكر في جلال الوجود وعظمة الكون، ويتأمل فيما حوله من حال قومه وإغراقهم في وثنيتهم البليدة وماديتهم المظلمة، وينظر فيرى في طيات هذه الكُسُف الحالكة ومضات من نور تلمع هنا وهناك، في أشخاص هؤلاء المتحنفين ممن خالطوا أهل الكتاب فسمعوا عن الدين الحق شيئاً، فطلبوه عندهم فلم يجدوا معهم إلا أخلاطاً من تحريفات وتأويلات فاسدة لبّست

الحق بالباطل، وطلبوه في مجالات عقولهم وفطرهم فقصرت بهم عن الغاية، ولكنها رفعتهم من حضيض الوثنية إلى ضرب من المعرفة الحائرة أرفع درجاتها ما يتمثل في قول زيد بن عمرو بن نفيل: اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلم، ثم يسجد على راحته، وكان زيد أمثل الطائفة وأعدلها أمراً، وقد كان شام اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئاً منهما، وكان يقول: آمنت بما آمن به إبراهيم، ويقول: أنفي لك عان راغم، مهما تجشمني فإني جاشم، وقد شهد له النبي ﷺ أنه يبعث يوم القيامة أمة وحده.

تعبده صلى الله عليه وسلم قبل البعثة

والذي يلفت النظر ويدعو إلى التأمل أن تتضافر روايات التاريخ بالحديث عن ورقة بن نوفل وتنصُّره، وزيد بن عمرو وتحنفه، وقس بن ساعدة وترهبه، وأمية بن أبي الصلت وتطلعه، ولكنها تسكت عن محمد ﷺ في هذه الفترة من شبابه، فلا تذكر عنه إلا أنه كان من نسك قريش، يخلو بغار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، يطعم من جاءه من المساكين، حتى إذا قضى تحنفه نزل فطاف بالبيت ثم ألم بأهله وتزود لمثلها، وعاد إلى معتكفه.

منهج تعبده ﷺ قبل البعثة وأقوال العلماء

ومن هنا تعددت أقاويل العلماء وروايات التاريخ في تعبده على أي نهج كان؟ هل كان بطريق الاستغراق في التفكير والتأمل في ملكوت الله تعالى، ومظاهر الوجود وعجائبه مما يقطع العقل أنه لا يكون إلا عن قدرة قاهرة وإرادة مدبرة، وحكمة سامية، والخلوة في الغار مما يساعد على ذلك، ويكشف عن البصائر أسجاف القيود والحدود، ويعبر بها إلى آفاق الحقائق العليا حيث الدلائل القاهرة على وجود الله ووحدانيته وصمديته، وهذا هو الذي جنح إليه جمهور الأمة. وحذاق العلماء من السلف والخلف. قال الزرقاني في شرح المواهب: ولم يأت تصريح بصفة تعبده بحراء، فيحتمل أنه أطلق على الخلوة بمجردها تعبداً، فإن الانعزال عن الناس ولا سيما من كان على باطل عبادةٌ، وعن ابن المرابط وغيره أنه ﷺ كان يتعبد بالفكر، وهذا هو قول الجمهور. وقال أيضاً: وفي تعبده قبل البعثة بشريعة أم لا قولان، الجمهور على الثاني أي أنه كان يتعبد بالفكر والاجتهاد فيما يصل إليه فكره من تقديس الله تعالى، وقال ابن كثير: وقد اختلف العلماء في تعبده عليه

السلام قبل البعثة، هل كان على شرع أم لا؟ وما ذلك الشرع؟ قيل: شرع نوح، وقيل: شرع إبراهيم، وهو الأشبه الأقوى، وقيل: موسى، وقيل: عيسى، وقيل: كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به.

وهذا القول الأخير - وإن رجحه بعض الباحثين - لا طائل تحته، لأن الشرع هو ما شرع الله لأنبيائه ورسله بطريق الوحي إليهم، ولم يعرف في جزيرة العرب شرع أوحى الله به إلى رسول من أنبيائه وبقيت آثاره في أحاديث الناس التي يأثرونها سوى ما عرف من شرع إبراهيم وإسماعيل وأثرهما الخالد ببناء الكعبة المشرفة وجعلها بيتاً لله تعالى محجوجاً، يتعبد الناس بالطواف حوله والدعاء والتضرع عنده.

وسوى ما عرف من شريعة موسى وعيسى عليهما السلام عن طريق اليهود والنصارى الذين كانوا يتواطنون أماكن من الجزيرة العربية في شمالها وجنوبها، وكانوا يتحدثون عن شرائعهم متفاخرين بها على وثنية الجمهور من العرب.

ولا طريق لإثبات شرع إلّهي في هذه الجزيرة الحبيسة، بجبالها ووديانها وصحاريها القاحلة الجرداء غير ما كان يسمع من أفواه المتحنفين، الذين كانوا يتطلعون بفطرهم - التي أنكرت سخف ما كان من انحدار العقلية الجاهلية عند سواد الناس إلى وثنية بليدة مزرية بالعقل الإنساني - إلى لون من الهداية يرقى بعقولهم عن مستوى التعبد للأحجار والأشجار.

وغير ما كان يتحدث به رهبان النصارى وأحبار اليهود من أقاويل عن شرائعهم تحدثاً يغلفها بالتحفظ والغموض.

رأينا في تعبده ﷺ قبل البعثه

ونحن نميل مطمئنين إلى أن تعبده ﷺ في خلواته واعتزاله قبل مبعثه كان أساسه التفكر في آيات الله الكونية، والتأمل في مظاهر الطبيعة ودلائل الإبداع الإلّهي في نظام الوجود، وسيره على سنن متناسقة مقدَّرة، تدل على حكمة التدبير.

وكان في جانب منه قائماً على أساس ما ثبت عنده ﷺ من معالم الحنيفية

ملة جديه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ودليل ذلك القاطع ما التزمه ﷺ من تعظيم الكعبة المشرفة والطواف بها على رغم ما كانت تعج به ساحاتها من الأصنام والأوثان التي كانت أبغض شيء إلى نفسه المطهَّرة، ولم يمنعه هذا البغض للأصنام والأوثان من التمسك بما ثبت عنده من شرعة تعظيم بيت الله المحرم الذي رفع قواعده جدَّاه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وهذا التعظيم للبيت لم يكن من قبيل عبادة التفكر التي أساسها سبحات العقل في مظاهر الكون وآياته الباهرة، وإنما كان من قبيل اتباع ملة إبراهيم فيما عرف أنه بقي منها في أعمال الناس وأذهانهم.

والعقل في منطقه بمعزل عن إدراك شرعية هذا التعبد وحكمته، فهو تعبُّد عملي شرعه الله في ملة إبراهيم عليه السلام، وعرفه محمد ﷺ قبل بعثته واطمأنت نفسه إلى شرعيته، فعبد الله به كما عبده بمحض التفكر والتأمل في بديع جلال الكون وما أودع الله فيه من آيات حتى جاءه الحق، وبعثه الله رسولاً إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، على رأس أربعين سنة من عمره الشريف المبارك، فصلوات الله وتسليماته وبركاته عليه وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار ما تعاقب الليل والنهار.

خصائص محمد صلى الله عليه وسلم
في رسالته
لا تزال منهلاً لأقلام المفكرين

أضخم تراث فكري

لم يحفظ التاريخ في سجلاته أن عظيما من عظماء الوجود التاريخي في دنيا الإنسان منذ كانت هذه الحياة كَتب عنه الكاتبون، أو سجلت عنه الأحداث والوقائع مثل أو قريباً مما كُتب أو سُجِّل عن «محمد رسول الله ﷺ» كمًّا وكيفاً، وكثرة وتنويعاً.

فسيرته ﷺ في خصائص رسالته لم تزل ـ منذ بعثه الله رسولاً إلى كافة الناس ـ ميداناً لأقلام الكاتبين، وأسلات ألسن الباحثين، ومنهلاً لأفكار عباقرة المفكرين، ومجالاً فسيح الأرجاء لأحداث الحياة ووقائعها، وموردا لروّاد المعرفة من أفذاذ المؤلفين.

أقلام المؤمنين

فقد كتب عنه ﷺ المؤمنون برسالته من العلماء والمفكرين، وحملة الأقلام من الباحثين، وتغنى بسيرته مداره الفصاحة من الأدباء، ومصاقع الشعراء، ومفوّهو الخطباء، مما استغرق أنفاس حياتهم في مدى ما مر من دوران الفلك، لا يفترون، ولا يستحسرون، تدفعهم أشواق المعرفة إلى الاستزادة من الغوص في أعماق خصائص رسالته، ليكشفوا عن مآثر خلودها في آفاق شمولها، ومواقع عمومها، ويبينوا عناصر الفضائل في سمو إنسانيتها، حتى ودَّعوا أقلامهم راحلين إلى الأبدية، ولمَّا يبلغوا من الحديث عن هذه الخصائص نقطة الانطلاق في بداية مبلغها من الهداية وسمو الغاية.

وقد حفظ التاريخ ـ راغماً على غير عادته مع الأنبياء والمرسلين ـ مما كتبوا في سجلاته شيئاً يجل عن الحصر، والذي فقدته الحياة مما كتبوا أضعاف

ما حفظه التاريخ.

أقلام غير المؤمنين

كما كتب عنه الذين لم يؤمنوا برسالته ﷺ الكثير البالغ قبولاً وإعجاباً، ورداً وانتقاداً، في دراسة باحثة متعمقة، مما حفلت به مكتبات العالم في شرق الأرض وغربها، ولا سيما في أوربّة منذ نهضتها الفكرية التي غزت بها الشرق الإسلامي، وأرضعته أفكارها وثقافاتها، وعلومها ومعارفها، ومظاهر حضارتها، وأخلاقها وعوائدها، وشعاراتها في الحياة، وهي تقود من وراء ذلك جيوشها وأساطيلها، وتجاراتها، وصناعاتها وأموالها لتستأثر بخيرات هذا الشرق، وتستعمر أرضه، وتستعبد أهله.

كتب الطبقات والفهارس ودلالتها على ضخامة التراث

ونظرة في كتب الطبقات وتراجم العلماء والباحثين من أئمة المسلمين وأعلام مفكريهم، تكفي لبيان أن ما كتبه المؤمنون برسالته ﷺ كمًّا وكيفاً، كثرة وتنويعاً مما يفوق الحصر والحساب.

ونظرة في كتب الفهارس قديمها وحديثها، ما كان منها باللغة العربية، أو ما كان منها بلغة غير عربية تكفي لإعطاء المتطلعين إلى المعرفة أروع صورة في تقويم وتقدير مبلغ ما كتب في إطار الرسالة المحمدية، مما يمثل جلال الثروة الفكرية التي حظيت بها الحياة الإنسانية من آثار هذه الرسالة الخالدة.

ولو لم يكن من آثار خصائصها الفكرية إلا هذا الحشد التراثي في مكتبات العالم قديماً وحديثاً شرقاً وغرباً، وفي خزائن العلم والمعرفة التي يملكها الأفراد والجماعات، والهيئات والطوائف في شتى بلاد العالم، لَكَفَى في إبراز القيمة الحقيقية لما بذلته الأقلام من تسجيل وتدوين في مجالات الفكر والعلم والفن، والبحث من كل ما دار حول محور رسالة محمد ﷺ.

وحسب الباحث في باب الإيمان بصدق ذلك أن يتيح لعقله، بل لخياله تصور ما كتب عن خصائص رسالة محمد ﷺ في هديها وإصلاحها، تصديقاً وتبياناً، وبحثاً وانتقاداً، وأخذاً ورداً، وجذباً وشداً، وإذاعة ونشراً، ونقاشاً وجدلاً، وحواراً وتحليلاً، ودرساً وتحقيقاً، ليؤمن إيمان إيقان، ويعرف معرفة صدق أن رسالة محمد ﷺ كانت ولا تزال فتحاً جديداً أمام الفكر

رسالة محمد ﷺ فتح فكري جديد

الإنساني، أتاح له الانطلاق إلى لون جديد من المعرفة، لا يقف عند غاية، ولا تعرف الحياة له نهاية، لا يتوقف أمام عقبات، ولا تحول دون انطلاقه حواجز، ولكنه يقتحم الآفاق، ويثب إلى ذروات الشموخ والتطلع، ويغوص إلى أعماق الكون وأسرار الوجود، متطلعاً إلى مزيد من العلم والمعرفة، وفي وقائع التاريخ ومشهود رواياته ما يؤكد صدق هذه الحقيقة.

دلالة أحداث التاريخ على عظمة التراث الإسلامي ـ اندفاع جحافل التتار المدمرة

وحادثة اندفاع جحافل التتار على عاصمة الخلافة الإسلامية في بغداد ـ بموجاتها الساحقة المدمرة واحدةٌ من أحداث كثيرة حفل بها التاريخ ـ تُصوِّر مدى ضخامة ما كان من التراث الفكري الإسلامي في بغداد عاصمة الإسلام يومئذ، وهي واحدة من أخوات لها في أوطان المسلمين، في مجالات العلم والفكر والمعرفة.

وكان في مكتباتها من آثار أقلام علماء الإسلام ومفكريه وباحثيه، من المفسرين، والفقهاء، والمحدِّثين، والمتكلمين، والأصوليين، واللغويين، والأدباء، والمؤرخين، والناظرين في علوم الأوائل في الفلسفة والفلك، وآثار الفرق والمذاهب، والملل والنحل ما لا يمكن أن يحصره الحساب والتعداد.

عواصم الإسلام وما حوت من ضخامة التراث الإسلامي

وإذا ذُكرت «بغداد» بما كانت تحفل به مكتباتها العامة والخاصة من فنون المعرفة التي هي أثر من آثار الفكر في خصائص رسالة محمد ﷺ، فلا يمكن أن تغيب عن الذكر «القاهرة» و«قرطبة» و«دمشق» و«القسطنطينية» و«فاس» وغيرها من عواصم الفكر في سائر أقطار الإسلام وأوطانه.

وحشية أوربة في عواصم الأندلس الإسلامية

وليس بأهون دلالة على صدق هذه الحقيقة التاريخية في تقدير ضخامة التراث الإسلامي الذي كُتب عن خصائص رسالة محمد ﷺ كمّاً وكيفاً ما وقع على أيدي برابرة «الحضارة» الأوربية الحاقدة في عواصم الأندلس، حينما تألبت عصبيات الحقد الأسود على الإسلام، منتهزة فرصة تميّع الحكم الإسلامي وتفاهة الحاكمين باسم الإسلام في هذا الجانب من العالم الإسلامي، فمزقته شر ممزق، وفي غمرة هذا التمزق، وفي حومة هذا الضعف والهوان استولى أولئك الحاقدون، ومتعصبو الصليبية الحمقاء على ما كانت تعجّ به خزائن الفكر والعلم من آلاف الألوف من مؤلفات المفكرين

والباحثين في شتى مناحي الفكر وجوانب المعرفة، فنهبوا منها ما نقلوه إلى بلادهم وأوطانهم، وأحرقوا منها ما أحرقوا في جنون حاقد، وحقد مجنون، وذهبت هذه الثروة الفكرية الضخمة مع مُلك الأندلس إلى متاهات الفناء والضياع.

والذي وقع من السلب والنهب والتحريق والتدمير في مكتبات عواصم الإسلام الكبرى وقع مثله وأعظم منه في مكتبات العالم وخزائن العلم التي كانت منتشرة في أنحاء العالم الإسلامي وغيره، عندما تعاوت ذئاب الفتن في داخل الكيان الإسلامي على أيدي الزنادقة من القرامطة والزنج والباطنية والروافض والصليبية الداخلية، والدول التي قامت على أنقاض دول غلبتها على أزمة الحكم، فدمَّرت آثارها الفكرية والعمرانية، ومحت من صفحة الوجود آثار علمائها ومفكِّريها، وغيَّرت أوضاعها ونظمها الاجتماعية.

وعلى الجملة فكل أثر فكري يتصل بالإسلام من قريب أو بعيد فهو حصيلة من حصائل الأقلام والأفكار التي كانت خصائص رسالة محمد ﷺ معينها الذي تنهل منه وتعل.

ومن هنا كان كل ما كُتب ويُكتب في مجال البحث الإسلامي بأية لغة من لغات الأمم والشعوب على أية صورة من صور البحث هو في لبابه جانب من جوانب خصائص محمد ﷺ في رسالته.

ازدياد الكتابة وتنوعها بين العلم المؤمن، والكفر الجهول في هذا القرن

فالذين كتبوا، والذين يكتبون في مستقبل الحياة عن «محمد رسول الله ﷺ» عاشوا ويعيشون في ظلال دائمة من نفحات الخلود في رسالته ﷺ التي لا ينضب معينها، ولا ينفد مدادها.

ولقد تضاعفت أضعافاً مضاعفة الكتابة عن رسالة محمد ﷺ في هذا القرن ـ الرابع عشر الهجري، العشرين الميلادي ـ ولا تزال في سمو وازدياد، وجرت أقلام الكاتبين والباحثين في الشرق والغرب من المسلمين وغير المسلمين بألوان من البحوث وضروب من الدراسات المختلفة نوعاً وكثرة، تواردت بين كتابة علمية مؤمنة، صادقة الإيمان عميقة الإدراك والتهدِّي، وكتابة علمية مؤمنة، ولكنها تتجر بالبحث، وتتملق الجماهير.

وكتابة لا تجهل، ولكنها متعصبة كافرة، تلحد في بحثها، حاقدة، سيئة القصد، متحيزة الهوى، تروح وتجيء في أودية من الضلال، تنكر المعروف، وتعرف المنكر، وتثير الشكوك والشبه وتعتصم بروايات الأباطيل الدخيلة تدعم بها أكاذيبها.

وكتابة كافرة جاهلة، تتبع كل ناعق، تنعب بالبهتان، بليدة التقليد، تساق بعصا العصبية العمياء.

وفي هذه الكتابات بألوانها واتجاهاتها كتابات دارسة، مبسوطة، فيها عمق وجدية في بعض جوانبها، وفيها سذاجة ضحلة في بعض نواحيها.

وفيها كتابات تعنى بالصور والشكل وزخرفة الإطار، تنسق اللمع البراقة من الأحداث مهتمة ببريقها، تنسيق بائع الورود ألوانها في الأصيص لتبهر الناظرين.

وهذا اللون من البحث المنسق المزخرف قد يرضي إحساس قارئه، ولكنه لا يرضي عقله، لأنها بحوث لا تبالي بالحقائق أن تجيء في إطارها أو لا تجيء.

وفيها كتابات تلفت نظر الذين يعرضون عن قراءة هذه البحوث في مظانها الأصيلة القديمة لصعوبة المسلك الكتابي في تلك المظان، وعدم العناية بالتنظيم في أسلوب القدامى من العلماء والباحثين، فتجذبهم هذه الكتابات المنسقة بتنظيمها النسقي إلى القراءة، وقد تدفع ببعض القراء إلى حب الاستزادة والتعمق، وربما وقفت بكثير من القارئين على مهيع الإرشاد إلى مفاتيح الهداية في الرسالة الخالدة، رسالة خاتم النبيين محمد ﷺ. وهذا اللون من الكتابة لا يشبع نهم المستشرف لمعرفة الحقائق، المتطلع للبحث الجاد، ولكنها تفيده وتوجهه، وكأنها لافتة إعلان مضيء، يثير شوق القارىء إلى التطلع لمعرفة ما وراءها من حقائق فكرية، وأفكار علمية، وهذا ليس بالقليل من فوائد البحث ومنافعه.

وفيها كتابات أشبه ما تكون بسلعة غريبة تعرض في «السوق» تحت

لافتة لامعة، فإذا عركتها بيد فكرك لتختبر ما فيها من حقائق لم تجد إلا كلمات ملتقطة من هنا وهناك لا تحُلي ولا تُمر.

تسابق الأقلام في مضمار الخصائص المحمدية

ولا تزال أقلام الباحثين والكاتبين تتسابق في مضمار خصائص محمد ﷺ في رسالته وهدايتها، متخذة طرائق شتى من البحث في أسلوب يعتدل أحياناً، ويتعرج أحايين أخرى، وتختلف موضوعات الكتابة في دائرة تلك الخصائص، وإن كانت كلها أشبه بالروافد التي تنبع من منبع واحد، وتسير في أودية مختلفة أشد الاختلاف، فبعضها وسيع مترامي الجوانب، وبعضها ضيق متقارب الأطراف، وبعضها عميق غائص بعيد القرار، وبعضها ضحل قريب المستقر، ولكنها تنتهي كلها إلى مصب واحد، يرمي بزبدها وغثائها جفاء، ويمسك منها خصائل الحق، فيمزج بينها حتى يجعلها حقيقة واحدة، هي لباب الهداية وروح الرسالة في قيادة الحياة.

خلود الرسالة يمد الأقلام بكل جديد

وإذا كان التراث الإسلامي الذي اتخذ من خصائص رسالة محمد ﷺ محوره الذي دار حوله بهذه المثابة من الضخامة والعظمة فالذين يكتبون اليوم وغداً عن هذه الرسالة، وخصائصها وسيرة صاحبها خاتم النبيين ماذا يكتبون؟ أتراهم يجترُّون ما يجتنون من ثمار أولئك الكاتبين من القدامى والمُحْدثين؟ أم أنهم سيجدون لأقلامهم مراتع جديدة لم تنسرب إلى مروجها أقلام من تقدمهم؟.

وحينئذ يكتبون في خصائص رسالة محمد ﷺ وحقائقها، وفنون هدايتها جديداً، يبرزون به كوامن من أسرارها، وأسراراً من كوامن هدايتها، ويكتبون في خصائص محمد ﷺ التي أعده الله بها جبلة وكسباً لحمل عبء هذه الرسالة الشاملة الخالدة، ويكتبون في كشف الكثير مما توارى عن أعين الأقلام الباحثة من هذه الخصائص وراء سحب الإمكان الزمني، واقتدار العقول تحت تأثير البيئات والمجتمعات التي كان لها أثر في إبراز ما ظهر من تلك الخصائص.

أليست هذه الشمس التي تشرق على الحياة في كل يوم بهيئتها وصورتها المتكررة ، ويرى الناس منها أول ما يرون ضوءها الذي يكشف أسجاف

خصائص محمد ﷺ كالشمس تعطي الحياة في كل يوم جديداً

الظلام، لتظهر أمام أبصارهم جوانب الحياة في تقلباتهم على هذه الأرض، ثم يحسون حرارتها الدافئة في خيوط أشعتها الملتهبة ـ لا يعلم العامة منها أكثر من هذه الظواهر التي يفيدون منها في مختلف صوالحهم، وينتفعون بها في شتى منافعهم، في دائرة علمهم المحدود بمستوى ما بلغته معارفهم من حقائق الكون، ومظاهر الطبيعة، ومع ذلك كأنما هم منها في جديد عند إشراقة كل يوم، لم يكونوا يرونه ولا أحسوه من قبل.

فإشراقها على الحياة في جانب من جوانب هذا الكوكب الذي يحيا فوقه الناس حدث واحد في كل وحدة من وحدات الزمن في اصطلاح الحياة، ولكنه يتراءى جديداً يقبل على الأحياء والأشياء بتجدد الحياة وتقلباتها.

واحتجابها عن الحياة وراء الأفق في جانب آخر من جوانب الأرض حدث واحد في وحدة أخرى من وحدات الزمن، يُرى وكأنه جديد، وهو مقبل ومعه رهبة الليل وهدأته وسكونه، لتهدأ فيه الحياة، وتسكن حتى تستجمع عناصر حركتها مقبلة مع إشراقة الشمس من جديد بكل جديد، يتراءى أنه يولد مع الشمس كل يوم في كل مكان تشرق من أفقه.

وهذا الجديد «المتكرر» هو معترك أفكار العلماء والباحثين والمفكرين الذين لا يقفون مع ظواهر الأشياء في عناصر الكون، ولكنهم يحاولون أن ينفذوا إلى مداخلها وأعماقها ليعرفوا حقائقها، فلا يكتفون ـ بما اكتفى به العامة ـ من رؤية ضوء الشمس، يرونه بأبصارهم، ولا بحرارة أشعتها يحسونها بحواسهم، بل إنهم يجهدون في تعرف حقيقتها عن طريق تعرف خصائصها الذاتية التي تنشأ عنها هذه الظواهر.

وقد عرف العلماء والباحثون من خصائص الشمس الذاتية الكثير مما قصرت دون معرفته أنظار العامة بمداركها المحدودة، وهذا الكثير مما عرفه العلماء والباحثون هو الذي يفتح أمامهم في كل آن باباً جديداً من المعرفة والعلم بالمجهول، وكل باب جديد يُفتح يكشف عن منافذ للعلم والمعرفة التي تتجدد على مر الزمان في سائر الأمكنة والأوطان التي يأرز إليها العلم بفنونه وآلاته.

زيادة المعرفة تزيد التطلع إلى المجهول

وهكذا كلما ازداد العلماء والمفكرون معرفة بحقائق الكون ازدادوا تطلعاً إلى أبعد مما وصلوا إليه من العلم بالمجهول، ولا يزال العلم يكشف للفكر الإنساني عن جديد مجهول من خصائص الشمس يزيده علماً ومعرفة بحقيقتها الكونية كنموذج لظاهرة كونية تمد الحياة بقوة الحيوية المخصبة.

والشمس لا تزال ـ مع تعمق البحث وزيادة العلم والمعرفة بخصائصها ـ هي الشمس مشرقة وغاربة، لا تنقطع عنها سبحات الدراسة والبحث، ولا يتوقف العقل الإنساني عن النظر وراء ما يكشفه من خصائصها الكونية.

وهذه الشمس التي يبذل العقل الإنساني جهده في البحث عن خصائصها الكونية ـ ولن يصل إلى نهايتها ـ إن هي إلا شُميسة صغيرة إلى جانب أمهاتها الشموس الكبار، من مجموعة الكواكب والنجوم السابحة في فضاء الكون، محجوبة بأبعادها الشاسعة، وعظمتها الهائلة عن مجال الإدراك الحسي والعقلي، حتى يستطيع العلم ـ وهو سيَّار لا يتوقف ـ بوسائله المعروفة وغير المعروفة إبداع ما يشق طريقه لإخضاعها للنظر والدرس والبحث ليكشف عن خصائصها الكونية، وقد بدأ يعرف طريقه إلى أطراف المجهول، وهو دائب طموح إلى الوصول.

وهذه الشموس الكبار العظام التي تعبر الوجود بكل خصائصها الذاتية المجهولة في غير توقف إن هي إلا ذرات من عناصر هذا الكون الهائل في هذا الوجود العظيم.

وإذا كانت هذه الشموس بعظمتها الكونية مشهودة وغائبة هي ضياء الحياة المادية التي يعيش على ضوئها العالمون، وهم بعد ـ على دأب عالميهم وجدّ باحثيهم في تعمق الدراسة ـ لم يبلغوا من معرفة خصائصها الذاتية وآثارها الكونية ومظاهر عناصرها الطبيعية إلا الشيء القليل الضئيل.

محمد ﷺ شمس الوجود الروحي

فمحمد ﷺ في خصائص رسالته الخالدة، وخصائص إنسانيته السامية هو شمس الوجود الروحي في هذا الكون المحجب بغلائل الجلال الإلٰهي.

حظ العامة منه حظهم من شموس الوجود المادي، رأوا ضوء رسالته بأعين بصائرهم، فمشوا إلى نورها يستبشرون برحمتها، وأحسوا حرارة هدايتها فدلفوا لها يستظلون بعدلها.

والوجود الروحي الذي جعل الله تعالى محمداً ﷺ شمسه هو القوة الربانية المنبثة في ذرات الكون، تبث فيها الحياة، وتحركها حركتها المقدرة في كتاب الغيب، فلا تحيد عنها مسرعة ولا مبطئة.

فكما لا يزال العلماء والمفكرون والباحثون في جديد من شمس هذا الوجود المادي الحسي، يكشفون كل يوم من خصائصها الكونية الشيء بعد الشيء، فكذلك شأن العلماء والمفكرين والباحثين لا يزالون في جديد من خصائص رسالة محمد ﷺ وهدايتها، ولا يزالون في جديد من خصائص محمد ﷺ الروحية وشمائله الإنسانية التي أعده الله بها جبلة وتأدباً، ليكون خاتم النبيين، ورسولاً إلى العالمين برسالة شاملة عامة خالدة، يجد فيها كل جيل في كل زمان وفي كل مكان مطالب حياته الروحية، ومجال عقله وتفكيره ونظام حياته وعيشه، ووشائج علائقه في أفراده وجماعاته وأممه وشعوبه.

لا تزال خصائص محمد ﷺ في رسالته غيباً يمد الأفكار والعقول والأرواح

فما كُتب وما يُكتب عن رسالة محمد ﷺ في شمولها تشريعاً وهدياً، وعمومها زماناً ومكاناً، وأعصراً وأجيالاً، وفي خلودها بمعانيها وحقائقها، وأنظمة الحياة في تقنينها وأحكامها، وحِكَمها ودعائم قيمها الروحية، وأسلوبها في التعبير عن مقاصدها وأهدافها، ووسائلها، وطرائق منهجها في التوجيه والإرشاد لم يسجل إلا نقطة في خط الدراسة والبحث.

وما كُتب وما يُكتب عن شخصية محمد ﷺ في حياته وشمائله وأخلاقه وخلائقه، وإبراز خصائصه الإنسانية التي جبله الله عليها وأدَّبه بها لتكون عدته في اقتداره على حمل عبء رسالته الخاتمة لرسالات السماء، لم يأتِ ولن يأتي إلا على بعض معالم هدايته في رسالته، وإلا على بعض خصائصه في إنسانيته، وما حباه الله به من الكمالات البشرية، لأنه اختاره رسولاً إلى كافة الناس في كافة الأزمنة والأمكنة والأحوال.

فلا بد إذاً أن يكون لكل جيل من البشرية في كل زمان وفي كل مكان، وعلى أية حال من العلم والمعرفة حظُّه من رسالته، وحظُّه منه في دعوته وهدايته ومنهجه وشمائله، مهما اختلفت بالناس مناحي الحيـاة وطرائق التفكير، ومهما «تطورت» العلوم والمعارف ووسائلهما، ومهما تنوَّعت أساليب الحياة الاجتماعية في المجتمع البشري، ومهما بلغ العقل الإنساني من مراتب النضج في التفكير.

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

تنصف النبوة والأنبياء

وترد اعتبارها واعتبارهم

جاء الله تعالى برسالة محمد ﷺ خاتمة للرسالات الإلٓهية، فجعل من خصائصها رد اعتبار النبوة وإنصافها من مظالم التاريخ البشري، ووضعها في مكانها الصحيح من حياة الناس والأشياء.

عناية القرآن العظيم والسنة بالنبوة والرسالات الإلهية

والذين يقرأون كتاب الرسالة المحمدية: القرآن العظيم، قراءة درس وتدبُّر، وبحث متعمِّق في معانيه وحقائقه الكونية وعقائده، وتشريعاته، ونظمه الاجتماعية، وأخلاقياته، ويقرأون السيرة النبوية في مصادرها الوثيقة قراءة إمعان وإنصاف، يعلمون أن هذا الكتاب الحكيم، وهذه السيرة الكريمة عُنيا أكثر ما عُنيا في نصوصهما بالنبوة والرسالات الإلٓهية، فأشادا بهما، وأعظما شأنهما، وجعلا معرفتهما والإيمان بهما شطر الإيمان الصحيح، فلا تكمل حقيقة إيمان مؤمن ـ في شرعة هذا الكتاب الكريم، وفي هَدْي سنة نبيه الأمين ـ إلا بمعرفة النبوة والإيمان بها، وتقديرها حق قدرها، ولا يكمل إيمان مؤمن إلا بمعرفة الرسالات الإلٓهية والإيمان بها، إيماناً لا يفرق بين أحد من رسل الله، ولا يتعصب لأحد منهم.

ونظرة إلى قصص الأنبياء والرسل في القرآن الكريم، وفي أحاديث النبي ﷺ وعليهم، وما أنزل الله عليهم من عقائد التوحيد، والدعوة إلى إخلاص العبودية لله تعالى وحده، وعرض ما جرى لهم مع أممهم وأقوامهم وبيان ما كان في أقوامهم من رذائل الشرك والوثنية، ومنكرات الأخلاق، وسفساف الاجتماع، وتحذير الأنبياء والرسل لهم من عواقب هذه الخبائث، وإنذارهم بطش الله وبأسه، وما رمى الله به تلك الأمم من عذاب استأصل

به الظالمين، وقطع به دابر المعاندين، كما قال الله تعالى: ﴿ فكُلًّا أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلْنَا عليه حاصباً، ومنهم من أخذَته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[1] - تبين مقدار العناية التي أضفاها القرآن العظيم والسنة المطهَّرة على النبوة ومكانتها، وعلى سيرة الأنبياء ومقام الرسالات والرسل من تعظيم وتقدير.

وقلما يجد الباحث سورة من سور القرآن المبين في طِوَله لا يجد فيها ذكراً للنبوة والأنبياء والرسل والرسالات، وقد يطول الحديث عن بعضهم في إسهاب تقتضيه المناسبة يكشف كثيراً من أحداث التاريخ؛ كما في قصص نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، عليهم السلام، وقد يختصر الحديث عن بعضهم في إيجاز معبِّر أصدق تعبير، وفي القرآن سورة تسمى سورة الأنبياء.

القرآن الحكيم لا يكرر الحقائق ولكنه يستكملها في مناسباتها

والقرآن الحكيم لا يكرر الحقائق والمعاني، ولكنه يقصد إلى استكمال الحجة والموعظة عندما يتطلب جوّ الحديث تنويع البرهان والموعظة، فيذكر شيئاً مما جاء في موضع آخر من القصة، يجعله كالتمهيد ليضيف إليه ما لم يذكر هناك حتى تكتمل القصة في جوها ومناسبتها بما يقتضيه مقام الحديث عنها ومن هنا قال علماء البلاغة: لكل مقام مقال.

بَيْد أن الذين يقفون في سفح البحث القرآني ممن ليس لهم القدرة على السبح في محيطه، لا يرتفع نظرهم إلى حقيقة الأسلوب البياني في هذا الكتاب المبين، ولكنهم يرون لأول نظرة عابرة أنهم أمام قصص مكرورة، وسِيَر معادة، وآيات مرددة، وهذا - عند التأمل في سياق كل قصة - يبدو خيالاً واهماً، لا يركن إليه ويعتقده إلا من لم يكن له صبر على البحث لمعرفة الحقائق التاريخية في سير الأنبياء والمرسلين، وإلا من لم يعرف وثيق الوشائج التي تربط بين رسالة محمد ﷺ بكافة نبوات الأنبياء وسائر رسالات الرسل عليهم السلام.

(١) سورة العنكبوت، آية: ٤٠.

ألا ترى إلى هذا الكتاب الحكيم في صنيعه بقصة يوسف عليه السلام ـ وقد نزلت كما تقول روايات أسباب النزول ـ إجابة لطلب قَصّد القصة كاملة ـ فإنه لما استوفى أحداث القصة متكاملة في سورتها تحقيقاً للمطلوب، وإعجازاً للمعاندين، وتصديقاً للنبي ﷺ، لم يعد إليها في سورة أخرى من سورة إلا إشارة ورمزاً.

والقرآن الكريم وهو كتاب هداية وعبرة ـ في وزنه للحياة، وتقديره لحقائقها يقصد في قصص الأنبياء والرسل فيما يقصد إليه من معان وحقائق إلى تنبيه العقول والأفكار إلى ما وقع فيه التاريخ البشري من غمط ظالم لأعظم حقائق الحياة، وتقصير متعمد فيما كان يجب أن يكون في موضع الصدارة من صحائفه.

القرآن ينبه إلى غمط التاريخ حق النبوة

ومن ثَمَّ جعل القرآن الحكيم حديثه في عقائده وعباداته وتشريعاته، وآدابه وأخلاقياته، ونظمه في بيان علاقات الناس الاجتماعية، متصلاً أكمل اتصال بسيرة الأنبياء والمرسلين، لأنهم جميعاً لبنات في بناء الحضارة الإنسانية التي جاءت رسالة محمد ﷺ لتكميلها، كما قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري ومسلم من قوله ﷺ: (مَثَلي ومَثَل الأنبياء من قبلي كَمَثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاَّ وضعت هذه اللبنة؟: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين).

فهذا الحديث الشريف يضع النبوة في أفقها الواقعي من آفاق الحياة، ويضع حَمَلة لوائها من المُصْطَفَين لتلقي كلمات الله في ذروة بناة الحضارة الإنسانية التي تزاوج بين المادة والروح، ، مزاوجة يكتمل بها أثر كل منهما بأثر الاخر، حتى كأنهما حقيقة واحدة، هي التي تصنع الحياة، وتبني الحضارة الفكرية والمادية في صورة إنسانية موحدة الإحساس والشعور والاتجاه.

السنة النبوية تبين عمل النبوة في بناء الحضارة

فالحضارة الإنسانية، أو الحياة الإنسانية المهذبة ـ في معنى هذا الحديث ـ بناءٌ وضع كل نبي من الأنبياء وكل رسول من الرسل لبنة في صرحه حتى استقام مشمخراً سامقاً في أجواز الحياة، مزيَّناً مجمَّلاً إلا موضع لبنة في زاوية

من زواياه لم توضع، وبقي مكانها فارغاً، ينقص من إعجاب الناس بالبناء وهم يطوفون به في «أطوار الحياة» ودورات الفلك، ويتمنون لو أن هذه اللبنة جاءت بحقيقتها وصورتها لتوضع في موضعها ليتكامل حسن البناء ويتم الإعجاب به، وجاءت اللبنة بحقيقتها الجامعة لكل ما في لبنات البناء من طبيعة ذراتها، فكانت دُرَّة البناء الفريدة، وهي محمداً ﷺ في رسالته الخالدة الخاتمة.

وفي حديث آخر يرويه مالك في الموطأ ويرويه أصحاب السنن يقول النبي ﷺ مبيناً ما قدَّمه إخوانه أنبياء الله ورسله للحياة من إصلاح وتقدم يقوم على القيم الروحية والفضائل الخلقية، ومبيناً مكانته منهم في رسالته الخاتمة، مكملاً ما أسَّسوا وما أقاموا من حضارات إنسانية: (إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

وفي هذا الحديث يبيِّن النبي ﷺ أن بناء الحضارة الذي أقامته النبوة بكلمات الله ووحيه ليس بناء مادياً كأبنية الناس في حضاراتهم المادية، ولكنه بناء روحاني يقوم على دعائم الأخلاق والفضائل ومحاسن الشيم والشمائل التي شيدوا بها بناء الحضارة الفكرية والاجتماعية.

وقد أبان الحديث عن عمل النبوة باعتبارها الحقيقة العظمى المسيطرة على التفكير في إقامة صرح البناء الحضاري، بإسهام كل نبي وكل رسول في إرساء هذا البناء حتى جاء محمد ﷺ وكمَّله برسالته الخالدة الخاتمة.

وهذا المعنى الذي أبان عنه الحديث هو إجمال لمعنى الحديث الأول، وفيه بيان المعاني والحقائق التي أقيم بناء الحضارة الإنسانية من لبناتها.

النبوة والرسالة أعظم وأقوى دوافع (التطور) الاجتماعي

والنبوة في عمومها حَرِيَّة أن تكون بمنزلة من التاريخ البشري ترفعها فوق كل منزلة من منازل حقائق الحياة وفضائلها، ورسالات الله تعالى إلى الناس لإخراجهم من ظلمات الضلالات إلى نور الهداية جديرة أن تكون بموضع من مسيرة الإنسانية، يسمو بها إلى أرفع مكان في ذروة تاريخ الحياة.

بَيْد أن التاريخ البشري لم ينصف النبوة، وهي أعظم مراتب الحضارة الفكرية، ولم يعط الرسالات الإلٰهية حقَّها من التقدير، وهي أجلّ صور الحياة في العلم والمعرفة، بل هي أبلغ وأقوى وأثبت دوافع «التطور» الاجتماعي في حياة الإنسانية.

نستعرض التاريخ منذ بدأ يكتب ويسجل أحداث الحياة في المجتمع البشري، فنجده شغل - حتى أتخم - بالفلسفة الوضعية التي هي في كثير من موضوعاتها وقضاياها حصيلة العقل الإنساني - وقد كان هذا العقل في مهد الطفولية الفكرية، لا يزال يحبو - وحصيلة الهَوَس الخيالي الجامح في كثير من مسائلها وبحوثها التي شغلت بجدلها العقيم قسطاً كبيراً من عمر الحياة، وكانت هذه الفلسفات تعج بأوضار الوثنيات التي كانت أساساً لما يسمى (الفن) ولا سيما في دائرة التصوير المجسم والنحت.

العقل وحده لم ولن يحسم من قضايا الفكر شيئاً.

لقد مضى على هذا العقل الإنساني وهو يفكر وينظِّر ويتحرك عشرات الألوف من السنين، ولكنه لم يصل إلى شيء في قضاياه التي استقل بها من شؤون الحياة والكون، بل إنه زادها تعقيداً وشتاتاً، ولم يستطع أن يحسم رأياً فيما شارك فيه من شؤون هذه الحياة ولم يقوَ على البتّ في قضايا الغيب التي جاءت النبوات بحقائقها إخباراً عن واقع مشهود، لأن النبوات تطير إلى هذا الغيب بأجنحة الوحي، والتلقِّي عن الله تعالى خالق الغيب والشهادة، والعقل تعبد للحس وجعل منافذه وسيلته إلى إدراك الحقائق، والحس محدود الجوانب إذا تعداها سقط في هاوية الجحود والتشكيك.

ولو أن هذا العقل خفَّف من غلوائه واستقام على نهج النبوة يهتدي بهديها في موازين إدراكاته لكان له اليوم مع الحياة شأن غير شأنه الذي يعيش به، ويقود الحياة بزمامه، ولا يدري أحد ما تكون نهاية هذه القيادة القاصرة عن إدراك كثير من حقائق الحياة.

وكان بحسب العقل أن يتفقه فيما يقال له من وحي النبوات مما هو وراء الحس المادي، ويلائم بين مدركاته المادية وحقائق الوجود الكونية العظمى، ليظفر بلون من الشفافية والإشراق، يتيح له من معارف الغيب وحقائقه ما يتحرر به من أغلال الحس ومنافذه.

الوثنيات شَغَلت التاريخ بأوضاعها المادية

وإلى جانب شغل التاريخ بالفلسفة الوضعية بجانبيها نجده شغل بالمظاهر المادية في سائر جوانب الحياة، وملأ كثيراً من صفحاته بالحديث عن آثار الوثنيات وأصنامها وتماثيلها وأساطيرها وخرافات أهلها، وتناسى النبوة

وآثارها الفكرية والروحية وقيمها الأخلاقية، وتناسى الرسالات الإلٓهية وعملها في دفع عجلة الحضارة الإنسانية إلى التقدم الأدبي والرقي الفكري والسمو الخلقي، وحفاظها على القيم الأصيلة في توجيه العقل، وأقوم الطرق في (تطور) الفكر.

فكم من صفحات هذا التاريخ البشري الظالم ـ منذ كان ـ شغلها تاريخ النبوة؟ وكم من صفحات هذا التاريخ شغلها عمل الرسالات الإلٓهية في تقدم المجتمع البشري؟ إنها أقل من القليل.

قد يقبل في منطق الوثنيات وفنونها الأسطورية أن يشغل التاريخ البشري ـ وهو من أوضاع تلك الوثنيات ـ عن العناية بالنبوة والرسالات الإلٓهية، ويتعوض عنها الأباطيل والخرافات وأساطير الوثنيات عند الإغريق والفراعنة والكنعانيين، ومن إليهم من الأمم الراسبة في قاع حمأة الوثنيات، لأن النبوة إنما جاءت لتصحح أوضاع الحياة التي شوَّهتها الوثنيات بأباطيلها، وذلك بالقضاء على منطقها المهلهل، لتقيم صرح العقيدة التوحيدية التي تحرر الحياة من عبودية الأحجار والتماثيل تحت عنوان (الفن).

منطق الوثنيات يتغلب على منطق التوحيد عند مَنْ حرفوا كلمات الله

ولكن الذي لا يقبله منطق العقل المستقيم أن يتغلب منطق هذه الوثنيات المتهالكة على عقول الذين أوتوا منطق التوحيد على ألسنة الأنبياء والرسل، ونزلت عليهم كتب النبوات وأسفار الرسالات الإلٓهية، فبدلوا كلمها طواعية وعناداً، وحرَّفوا آياتها قصداً إلى أحط منطق في تاريخ الوثنيات.

فهذه التوراة كتاب موسى نبي الله ورسوله وكليمه، وهذا الإنجيل كتاب عيسى نبي الله ورسوله وروحه وكلمته، وهما اليوم بأيدي أخلاف من أوتوهما، فليرمِ إلى أي منهما أي عاقل بنظره، ليقرأ في صفحاتهما أحط ما يمكن أن تصور به الوثنية من بَهْت للنبوة والرسالات الإلٓهية في تصوير حياة أنبياء الله ورسله.

لم يكتف التاريخ البشري في إهماله أمر النبوات والرسالات الإلٓهية ليتعوض عنها بهذه الوثنيات وأقاصيصها، بل أضاف إليها ـ ليستغرق في ضلالاته ـ أنباء الطغاة من سفاكي دماء البشرية ومدمري عمران الحياة،

التاريخ في ظلمه للحياة جعل من أقاصيص أبطال المدمرين لمعالم الحياة موضع إعجاب وفخر

ومخربي بناء الحضارات الإنسانية، من أضراب الإسكندر المقدوني، وهانيبال، وبخت نصر، ونابليون، فجعل من أحاديثهم في معاركهم الظالمة أقاصيص الإعجاب ومفاخر البطولة، وهي في حقيقتها نزوات من الطغيان الأحمق الذي يرقص على طبول الخراب.

هذا التاريخ الظلوم المظلوم حمل على كاهله طوال أحقاب ما مرّ عليه من دورات الفلك أثقال الوثنيات بكفرياتها وإلحادها ومذاهبها، وأفكارها وأساطيرها، وآثارها المادية في تفصيل مسهب، بل في مبالغة وإغراق وأكاذيب، ولم يسمح بأسطر يكتبها في سجلاته عن النبوات والرسالات الإلٓهية إلا بقدر ما يصلها بهذه الوثنيات في معاركها معها ونضالها ضدها.

أما بيان مكانة النبوة من الحياة، وبيان أعمالها في توجيه الحياة، وتهذيب الغرائز، وإرشاد العقل في سيره، وبيان ما يطيق إدراكه من معالم الغيب وحقائقه، وبيان أقدار الرسالات الإلٓهية وجهاد الرسل في سبيل تقدم الحياة، وإقامة موازين العدالة، وإصلاح ما أفسده الطغاة بطغيانهم ومظالمهم، وكفاح البطولات الروحية، واصطبار المكافحين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من المؤمنين برسالاتهم على محن الجبروت وبلاء الطغيان، وفدائح الظلم ـ فأمر لا يعني هذا التاريخ البشري أن يفرد له بين صفحاته قدراً يعطيه حقه من التقدير والاعتزاز.

التاريخ يضع النبوة في صورة صوفية سلبية تفر من الحياة ومطالبها

وقد صوَّر التاريخ النبوة والرسالات الإلٓهية في أسطره التي سمح بها في سجلاته للحديث عنها وعن حملتها من المصطَفَين على أنها مرشد لمن يريد اعتزال الحياة، ليعيش روحانياً قانعاً زاهداً، قعيد الكهوف والصوامع، جوعان ذا مسغبة، عريان ذا متربة، سموحاً لا يزاحم في معترك العيش، خانعاً في ذلة، مستسلماً لنوازل الحياة، شروداً نفوراً، يحيا ويموت دون أن تحسّ به الحياة.

والتاريخ بهذا التصوير الظالم يضع النبوة والرسالات الإلٓهية في إطار من الصوفية السلبية، لا تعني الحياة في شيء، ولا تعنيها الحياة في شيء.

ومن هنا نشأت فكرة (الدين والدنيا). فالدين ـ عند هذا التاريخ

فكرة الدين والدنيا أثر من آثار تصوير التاريخ للنبوة في صورة سلبية.

الظلوم - هو السلبية الصوفية التي تعيش مع خيالات الأوهام، وأوهام الغيبيات، التي لا تحس ولا تمس، والدنيا - عند هذا التاريخ - هي كل المعاني والحقائق الإيجابية التي قامت على دعائمها فلسفة الوثنيات والإلحاد الفني، والتفكير المادي الكفور، وعلى أساسها قامت الحضارات المادية بكل أسوائها ومحاسنها.

رسالة محمد ﷺ صححت الأغاليط في تصوير حقيقة النبوة في صورة إيجابية نهضت وتنهض بالحياة.

وجاءت رسالة محمد ﷺ الخاتمة الخالدة لتصحح أغاليط التاريخ وتنصف النبوة والرسالات الإلٓهية، وترد اعتبار الحقائق الكونية، فوضعت هذا التاريخ في مواجهة النبوة وأحداثها، ووضعت الحياة كلها أمام الرسالات الإلٓهية وأعمالها، ووضعت الوثنيات وفلسفاتها في مكانها من منازل الجحود، فلم يستطع التاريخ بعد بعثة محمد ﷺ أن يلوي عنقه مشيحاً عن الحديث في النبوة ومكانتها في دنيا الناس والأشياء، ولم تستطع الحياة أن تُنْغِض رأسها متجاهلة مكانة الذين شُرِّفوا بقلائد النبوة من المصطَفين الأخيار، ولم تستطع الحياة أن تصعِّر خدَّها متغافلة متعامية عن أشعة الحق في رسالات رسل الله الذين بعثهم إلى الحياة نوراً يبدد ظلام القلوب، والعقول، والأرواح، ويهذب جموح الغرائز الإنسانية الضارية، ويشذِّب أشجار الأفكار الشائكة بشبهات الجهالة وأغلوطات الضلالة في أدمغة أحلاس هوس الفلسفة بما لا يعني شيئاً غير برطمة التعالي، وبأو الكبرياء المبرطمة في ألغاز مريبة غامضة، وألفاظ مظلمة قاتمة، تسبح في محيط خيالي لا مرفأ له، تستقر فيه حقيقة من حقائق الحياة في واقعها الوجودي الذي جاءت به النبوة والرسالات الإلٓهية، وعرفت الحياة للدين معناه الشامل القويم الذي يعني المعاني والقيم والحقائق الإيجابية في منهج النبوة والرسالات الإلٓهية، وعرفت الحياة ألا تقابل بين الدنيا والدين، وإنما التقابل الحق بين حياتين، هذه الحياة التي يحياها الناس والأشياء، وللدين فيها منهجه الأعم الأشمل، الذي استقاه من معين النبوة والرسالات الإلٓهية، وحياة آتية لا ريب فيها، وللدين فيها معرفته التي تلقاها عن وحي النبوة ورسالات الله.

محمد صلى الله عليه وسلم

بين ميلادين

ميلاد بشرية وميلاد رسالة

بدء الوحي وقداسة النبوة
نظر وتحقيق

تأثر الروايات بجو المجتمع الذي ولد وأرسل فيه محمد ﷺ

الجو الذي بدأت فيه نبوة محمد ﷺ، وأشرقت في أفقه رسالته، بكل ما حوى من بيئة على حالها التي كانت عليها من طبيعة جبلية صحراوية جافة قاسية، يعيش فيها مجتمع بشري بأخلاقه وعاداته، وجهالاته، وبؤس عيشه، وضيق الحياة في وجهه، وتمزق وشائجه الاجتماعية، وتفاهة تفكيره، وبلادة حسه، وجمود مشاعره العقلية، وانغماسه في حمأة وثنيات مزرية، وانصرافه عن النظر في العلم والمعرفة وإخلاده إلى الأرض يعض صخورها، ويتعبد لأحجارها، ويهيم في جنبات وديانها ومفاوزها، ويتوثب ذرى أَجْبُلها تطلعاً إلى أقصى آماله وأعظم أمانيه، إلى نبع ماء، أو منبت كلأ، لا يجاوز نظره مواطىء أقدامه، لا يحس بأحداث الحياة بعيدة عن أرضه ومضارب خيامه، ولا يشعر بتقلبات (التطور) في الأمم والشعوب من حوله، تشغله الحروب الداخلية المتواصلة، تسفك فيها الدماء، وتنهب الأموال، وترمل النساء سبايا، وتيتم الأطفال حيارى، وتتفانى القبائل، وتعيش فيها بقية السيف متربصة للآثار، ويفقد الأمن مع فقد الاستقرار ـ هو الجو الذي ولد فيه محمد بن عبدالله بن عبد المطلب قبل أربعين سنة من بعثته نبياً ورسولاً، من أبوين في أعز أرومة قرشية، بكل ما لهذا الجو من خصائص طبيعية، واجتماعية، وفكرية، وخلقية في جماعاته وأفراده.

وقد خلع هذا الجو بسماته ومعالمه ومظاهر الحياة فيه على ميلاد محمد البشري الكثير من المبالغات المغرقة، والروايات التي تصوغها مؤثرات البيئة في قصص المعجزات والخوارق والآيات والأعاجيب التي رويت وكتبت.

آثار الجو الذي ولد فيه محمد ﷺ على طمس معالم الحقائق في التاريخ

وتُحدِّث بها بعد تشريف الحياة بنبوته ورسالته، كما حققناه في بحث (محمد ﷺ من نبعته إلى بعثته) وبيَّنا الصحيح الذي أثبتته الروايات الصادقة الواعية، وتركنا ما أرسلته العواطف إرسالاً دون سند قوي يدعمه، وأوضحنا هناك أن سيرة سيد الوجود محمد ﷺ ليست في حاجة إلى هذا النحو العاطفي من الروايات المتهافتة التي لا يقيِّم قناتها العلم وصدق الرواية، وذكرنا أن ما صح تاريخياً عن ولادته وحياته الكريمة قبل نبوته فيه أعظم غنية عما سواه، بياناً لكمال بشريته، وتصويراً لمدى ما منحه الله تعالى من فضائل الإنسانية في خلائقه وأخلاقه، فكان بها أكمل البشر إنسانية، وأرفعهم في فضائلها فضيلة، وأشرفهم في أمجادها مجداً وشرفاً، وأزكاهم نفساً، وأطهرهم قلباً، وأصفاهم روحاً، وأعلاهم في المكارم كعباً.

ووحدة الجو بكل ما حوى من خصائص في زمن ميلاد بشرية محمد ﷺ وزمن ميلاد رسالته، وبدء نبوته أضفى على ميلاد رسالته، وأحداث بدء الوحي بنبوته أموراً شبيهة بما أضفاه على ميلاد بشريته من روايات حملت كثيراً من سمات البيئة ومظاهرها التي لم تكن قد تهيأت لفهم حقائق النبوة والرسالات الإلٓهية، فقالت، وتقوَّلت، وحرفت وتأوَّلت، وجمحت وشطت، وبالغت وتزيدت، وأغرقت وأفرطت، وفرطت وأهملت، وجهلت وتجاهلت، وغفلت وتغافلت، واعتدلت وتعرَّجت، واستقامت ومالت، وتاهت الحقائق في منحنياتها، مما يفرض على الباحث في تعاريج هذه المنحنيات ضروباً من النظر الصبور، وضروباً من البحث المتعمق الجسور، وضروباً من الإدراك العليم، حتى يستطيع التقاط الحقائق من بين ركام الروايات، ليضعها نقية موحدة في إطار النبوة، متمثلاً قداستها بما وجب لها من العصمة التي لا يميل بها اختلاف الروايات، دون أن يستسلم عقله لطنطنة رنين أسماء الرواة، وهدير شهرتهم في علو الإسناد.

حاجة الروايات إلى دقة النظر الناقد لتمييز الصحيح من الزائف

بَيْد أن ما أُضفي على أحداث الميلاد البشري من روايات عاطفية تخيلت فتوسعت، لم يجد من عناية العلماء وجهابذة النقدة مثل ما أضفي على أحداث ميلاد الرسالة، لأن أحداث الميلاد البشري لا يضر فيها التكثر العاطفي إلا بمقدار بعده عن منهج الصدق في تصوير الحقائق التاريخية، لأن

حياة المصطَفَين للنبوة وتبليغ رسالات الله إلى عباده يجب أن تحاط من بدئها إلى نهايتها بجو من الصدق الطهور، تبياناً لمناهجهم في الحياة التي لا تقبل التزيد في روايات الأحداث، ولا ترضى عن التفريط في بيان ما كانوا عليه من سلوك وسمت يعكس بواطنهم على ظواهرهم توحيداً لعلانيتهم وسريرتهم، ليؤدوا إلى الحياة صورتهم كاملة في نبوتهم، ويؤدوا إلى الناس مناهجهم في الدعوة إلى الحق في مهايع تبليغ رسالات ربهم، وطرائق هدايتهم إلى معالم الحياة الكريمة الصالحة.

ميلاد الرسالة الإلٰهية لا يقبل وثبات العواطف

أما أحداث ميلاد الرسالة وبدء الوحي فهي أساس النبوة ودعائم الرسالة، والنبوة هي الحقيقة الإلٰهية الكبرى في ميلاد جديد للنبي، ميلاد روحاني، يصور ـ أساساً ـ شخصية النبي بوصفه الجديد، ويصوِّر حياته مع ربه الذي اختاره لتلقِّي كلماته ووحيه، ويصور حياته مع نفسه التي اصطفاها الله لتكون منزل أمره ونهيه، والرسالة هي الحقيقة الإلٰهية العظمى في ميلاد جديد للرسول، فوق ميلاد روحانية النبي، يصور شخصية الرسول بمظهر ولادته الجديدة، ويصور حياته مع ربه الذي اختاره سفيراً بينه وبين من شاء من عباده، يبلِّغهم عنه ضروب هدايته، ويصور حياته مع نفسه رسولاً يخرج الناس من ظلمات الجهالة والضلالة إلى نور العلم والهداية، ويصوِّر حياته مع الناس في طرائق دعوتهم إلى الله، ودعوتهم إلى الحق والخير.

فليس في هذه الأحداث التي يبدأ بها ميلاد النبوة والرسالة مجال ـ أي مجال ـ لغير الحق والصدق، وليس فيها مجال ـ أي مجال ـ للتزيد، والتأويل المحرف للحقائق تحريفاً يبعدها عن ساحة القداسة التي هي وصف ذاتي للنبوة والرسالة، وليس فيها مجال ـ أي مجال ـ لسبحات الخيال، وتخيلات الأفكار، وابتداع الآراء.

وميلاد النبوة والرسالة ببدء الوحي من أحداث الغيب التي أحاطها الله تعالى بقداسة تحميها من تقحم التقول فيها بغير علم، والعلم بها قصره الله على أخبار الأنبياء والمرسلين فلا مجال فيه للعقل وتجارب العلم.

فالروايات التي جاءت بأنباء ميلاد نبوة محمد ورسالته تحتاج إلى نظر

فاحص، وتأمل أمين، وتثبّت في صحة النقل، ولا سبيل إلى قبول ما لم يثبت إسناده إلى النبي ﷺ من وقائعها وأحداثها، والذي يثبت منها بإسناد صحيح يجب -أن يفهم في ظل ما يجب للنبوة والرسالة من قداسة العصمة عن شطحات العقول، وشطط الأفكار، فهمًا لا يخرجها عن دائرة الكمال الإنساني.

ميلاد البشرية قد يحتمل التصورات العاطفية

ومن ثَمَّ يتضح الفرق الشاسع بين النظر في روايات ميلاد بشرية محمد ﷺ وروايات ميلاد نبوته ورسالته.

فإشراق الوجود البشري كان ميلاداً (لمحمد بن عبدالله ابن عبد المطلب) في مهد أمه السيدة آمنة بنت وهب الزهرية القرشية، وإشراق الوجود النبوي ببدء الوحي كان ميلاداً (لمحمد رسول الله) وخاتم النبيين صلوات الله عليه.

وبين الميلادين في الفضل والشرف ما بين طفل خرج إلى الدنيا كما يولد أي طفل ـ في أشرف وأكرم بيت من بيوتات أعز قبيل في العرب ـ ثكل أباه قبل أن يتشرف الوجود بطلعته، وكان هذا الثكل جرحاً في قلب جده عبد المطلب، لأن عبدالله أبا محمد ﷺ كان أعز وأحب بني عبد المطلب عند عبد المطلب، فكان ميلاد محمد ﷺ بلسماً لجرح الثكل في قلب هذا الجد الذي أخذت منه السنون، فلم تبقِ له إلا قلباً يعمره حب بنيه الذين عزَّ بهم يوم أن سامته قريش خسف الذل في أمر زمزم.

وقد استقبل عبد المطلب حفيده ـ الذي ملأ فراغ قلبه من مكان أبيه ـ إذ بُشِّر به، ومعه بنوه بالحب والبهجة، فاغتبط بميلاده شاكراً، وسماه (محمداً).

وبين ميلاد رسالة عامة خالدة، اختار الله تعالى رسولها بعلمه وحكمته، وخلع عليه رداء تعظيمه، فجعله خير رسول لخير أمة أخرجت للناس، وختم به نبوته، وعمَّم برسالته شرائع وحيه، وخلَّد بدعوته الدعوة إلى وحدانيته، وشرف به ملكه وملكوته، وأفاض عليه من خواص غيبه في أخلاقه وخلائقه ما تعجز الأقلام والألسن عن الإحاطة بشيء من فضله، والله ذو الفضل العظيم.

العلم هو العنوان الأول

في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

بدأت رسالة محمد ﷺ بأول وأعظم عنوان للعلم والمعرفة كتبه القدر الحكيم على أبرز لوحات التاريخ، يوم أن قالت السماء لنموذج الرسالات الإلٰهية الأعلى محمد ﷺ (اقرأ) هكذا مطلقة، بصيغة الأمر المطلق الذي لا يتقيد بمقروء معين من علوم البشر ومعارفهم وفنونهم وأفكارهم، ولا تتقيد بقراءة من كتاب مكتوب بما عرف الناس من طرائق الكتابة وأساليب تقييد العلم والمعارف الإنسانية، ولا تتقيد بزمن تقع فيه القراءة، ولا تتقيد بمكان معين تجري القراءة بين جنباته.

فهو طلب قراءة فحسب، والحقائق المطلقة لا يمكن أن تتحقق في واقع الحياة والوجود الحسي إلا في صورة من صور جزئياتها، وليس هنا مقروء معين يتحقق به طلب القراءة في جزئية منها.

بدء رسالة محمد ﷺ بطلب القراءة أعظم شهادة على مكانة العلم فيها

فهذا الطلب المطلق بهذه الصيغة (اقرأ) على ما احتف به من أحوال مفاجأة الوحي وجوّها صريح في تسجيل العنوان الأول لرسالة محمد ﷺ في لوحة الحياة بأخص خصائص خلودها، وشمولها شمولاً كاملاً، لا يفوته جيل من الناس، ولا زمن من الأزمان، ولا مكان من الأمكنة، ولا يندّ عنه علم من العلوم التي عرفها البشر في منحدرات «التطور» الإنساني، أو التي سيُفتح إلى معرفتها سبل لا عهد للعقل الإنساني بها فيما مضى من السنين والأحقاب، ولا تذهب عنه معرفة من المعارف التي كانت في ماضي الحياة، أو التي ستكون في مستقبلها.

ومعناه «كن قارئاً» فالمقروء في رسالة محمد ﷺ تحت عنوانها الأول (اقرأ) مقروء لا يقرؤه الناس، ولكنهم يقرأون عنه، وعلم لا يعلمونه تعلماً، ولكنهم يعلمون عنه، ومعرفة ليست في متعارف معارف الناس، ولكنهم يتطلعون إليها.

هو علم حقائق الموجودات المكتوب في كتاب «الكون» وسفر الحياة، وهو معرفة عناصر الكائنات مسطورة في صحف الطبيعة.

وقد تكرر هذا الأمر المطلق ـ في أول لقاء يقظي بأمين الوحي جبريل عليه السلام، وهو اللقاء الذي بدأت به الرسالة ـ ثلاث مرات، بصورة واحدة، ولما جاء في المرة الرابعة مقروناً بما يقرأ لم يجيء متعلقاً بطلب القراءة على أنه هو المطلوب تحقيق قراءته بالأمر بطلبها، وإنما جاء مؤكداً لإطلاق الأمر وتحقيق القراءة في ذاتها على المعنى الذي ذكرناه.

فالنبي ﷺ في رده على هذا الطلب الغريب على حياته وطبيعة بشريته الخاصة نفى عن نفسه أنه يعرف القراءة، لا طبيعة وجبلّة، ولا تعلُّماً وكسباً، فهو أمي لم يسبق له قط أن قرأ ولا تعلم القراءة، ولا خطّ بيمينه كتاباً، ثم استبان من مخاطبه أمين الوحي (ماذا يقرأ) و(كيف يقرأ).

وليس وراء الأمر بالقراءة في أول وأبرز عنوان في إطار رسالة محمد ﷺ إلا أن يستعين ـ على تحقيق ما لم يعرف، ولا هو في طوقه ـ باسم ربه، وقد أبرز الاسم الكريم متعلقاً تعلقاً مباشراً بفعل الأمر المطلق بالقراءة، مضافاً إضافة تكريم وتشريف خاصة بخطاب مَنْ طلب منه أن يقرأ ما لم يخطه قلم بيمين إنسان، فقيل له (اقرأ باسم ربك).

وفي هذه الإضافة التكريمية لون من الحفاوة السابغة، تبث الطمأنينة ويقين الإيمان في قلب القارىء العظيم الذي سبقت له العناية، فتولته رعاية الربوبية وتعهدته بتربيتها الخاصة، وهو لا يعلم أنه المقصود وأعدته بتعليمه وتأديبه، تعليماً إلهياً، وأدباً ربانياً، لم يثافن معلماً قط، وهيَّأته لما يراد به، وما يراد منه، وهو لا يعلم أنه الرسول خاتم النبيين، فلا نبي بعده

﴿ وكذلك أوحينا إليكَ روحاً من أمرنا ما كنتَ تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾[1].

وعموم المشيئة في الآية الكريمة مخصوص به ﷺ، ولكنها جاءت كما هي في الآية لتمثل إطلاق الألوهية في كمال إرادتها و﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾[2].

معنى طلب القراءة ومقصودها من النبي الأمي

ولباب المعنى كن قارئاً إعجازاً، ولو لم تكن من القارئين تعلماً، اقرأ مستعيناً باسم ربك الذي أعدك بتربيته معلماً للدنيا، ولا تلتفتن إلى الأسباب، واذكر بقلبك وروحك وعقلك مَنْ خَلَقها وسببها، فأنت معلَّم بعلمٍ مِنْ عندنا، عليم بعلم غير مكتوب في كتاب، كما يكتب العلماء المعلِّمون، وأنت قارىء كتابنا الذي كتبناه بقلم كلمتنا الخالقة المبدعة، في صحفنا التي خطَّها قلم قدرتنا في لوح الأزل، لتكون هذه القراءة خصيصتك إلى الأبد (اقرأ باسم ربك الذي خلق) والخلق من الله تعالى إبداع ما لم يشهد الوجود، وإيجاد ما لم يكن له قبل ذلك شهود.

وهذا العموم في المنفعل بالخلق يجعل فعل الخلق المطلق عن التقيد بذكر مفعوله متشوفاً لمتعلقه، لتحقيق معناه، وهو صالح لكل مخلوق، وليس منها فرد جنس أو فرد نوع، أو فرد شخص، بأولى أن يكون متعلقاً لفعل الخلق المطلق - لفظاً - من غيره دون سائر المخلوقات، أجناساً وأنواعاً وأفراداً، فهي كلها كالمذكورة في تعلق فعل الخلق بها، وهذا الإطلاق مغاير للإطلاق في فعل طلب القراءة الذي بدأت به الرسالة الخالدة، لأن فعل القراءة هناك لا يتطلب التقييد ولا يقبله، وفعل الخلق هنا يستدعيه عاماً شاملاً مضمراً كالمذكور.

والمنفعل بالخلق والإبداع عاماً عموماً شمولياً هو (الكون) كله على

---

(١) سورة الشورى، آية: ٥٢.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١٢٤.

إطلاقه وشموله في عناصر تكوينه وإبداعه، فهو بالنسبة لفعل الخلق مفعوله الذي يتحقق به، وبالنسبة لفعل القراءة مقروءه الذي لا يتوقف عليه تحققه، ولكن جوّ الأحداث يفرضه.

وهذه إشارة معيَّنة تشهد - بمقتضى إطلاق فعل القراءة عن متعلَّق معين - أن المأمور بقراءته المستعان عليه باسم (ربك) في اختصاصك بتربية النبوة الخاتمة، وفي تخصيصك بالإضافة التكريمية مع عموم واقع التربية لكل كائن - إنما هو كتاب الخلق والإبداع، وليس ذلك سوى حقائق الوجود مسطورة في كتاب (الكون) البديع.

تحقيق روايات
بدء الوحي

أكمل وأجود رواية في أحاديث بدء الوحي

روى البخاري في الجامع الصحيح في باب كيف بدأ الوحي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: (أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة أو الصادقة - كما في رواية كتابي التفسير والتعبير، من البخاري - في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخَلاء، وكان يخلو بغار حراء، يتحنث فيه، وهو - أي ا لتحنث - التعبُّد - الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال (ما أنا بقارىء) قال: (فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم﴾ الآيات، إلى قوله: ﴿علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: (زملوني، زملوني) فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْع، فقال لخديجة - وفي كتابَيْ التفسير والتعبير - فقال: أيْ خديجة مالي؟ لقد خشيت على نفسي، فأخبرها الخبر (لقد خشيت على نفسي)، فقالت خديجة: كلا، والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد ابن

عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرءاً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم: اسمع من ابن أخيك،فقال له ورقة يا ابن أخي: ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: (أوَمخرجيَّ هم؟) قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلاّ عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي).

إلى هنا ينتهي حديث يحيى بن بكير، عن الليث، عن ابن شهاب الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين، وفي قول ورقة لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي ماذا ترى؟ ما يفيد أن ورقة سبق إليه من العلم بحال النبي ﷺ ما جعله يسأل هذا السؤال عن خصوص ما يرى، وخديجة لم تذكر في حديثها لورقة أن محمداً ﷺ رأى شيئاً، وإنما قالت: اسمع من ابن أخيك، وهذا القول من أبعد احتمالاته أن يفهم منه: اسمع من ابن أخيك حديثه عما يرى، حتى يقول له ورقة: ماذا ترى؟ ولكن حديث أبي نعيم الآتي يدل على أن خديجة رضي الله عنها أخبرت ورقة إجمالاً بما رأى.

قال ابن حجر في الفتح عند شرح قوله:(ماذا ترى؟) فيه حذف يدل عليه سياق الكلام، وقد صرح به في دلائل النبوة لأبي نعيم بسندٍ حسنٍ إلى عبدالله بن شداد في هذه القصة، قال: فأتت به ورقة ابن عمها فأخبرته بالذي رأى، إهـ.

قلت: وهذا يدل على أن خديجة حدَّثت ورقة عن حال النبي ﷺ وعن الذي رآه، لذلك سأله: (ماذا ترى؟).

فمن المرجَّح أن يكون قد وصل إلى علم ورقة شيء عن حال النبي ﷺ في نبوته التي بدأت بالرؤيا الصادقة، وسماع الصوت والكلمة من الوحي، مع الإرهاصات والأعاجيب التي كان يراها النبي ﷺ قبل وحي

الغار في حديث عائشة رضي الله عنها، كتسليم الحجر عليه كما في حديث مسلم.

وقد ورد في حديث أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل ما هو صريح في لقاء النبي ﷺ ورقة، وإخباره أنه إذا خلا وحده سمع نداء: يا محمد، يا محمد، وهذا غير حديث الغار الذي رواه الشيخان البخاري ومسلم، وحديث أبي ميسرة رواه البيهقي في الدلائل، وقال عنه جلال السيوطي في (الإتقان): هذا مرسل رجاله ثقات، ونصه أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمر، فقالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث. فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله ﷺ ثم - أي وليس رسول الله ﷺ موجوداً بالمنزل - ذكرت خديجة حديثه له، وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة، فلما دخل رسول الله ﷺ أخذ أبو بكر بيده، وقال: انطلق بنا إلى ورقة، فقال: (ومن أخبرك؟) قال: خديجة، فانطلقا إليه، فقصّا عليه، فقال: (إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء من خلفي، يا محمد، فأنطلقُ هارباً في الأرض) فقال له: لا تفعل، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول لك، ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه: يا محمد، يا محمد، قل: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، حتى بلغ ولا الضالين، قل: لا إله إلا الله، فأتى ورقة فذكر له ذلك، فقال له ورقة: اثبت، فأنا أشهد أنك الذي بَشَّر به ابن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، وأنك نبي مرسل، وأنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، ولئن أدركني ذلك لأجاهدنَّ معك.

قصة مرسل أبي ميسرة أسبق من قصة الغار.

وقريب من هذه الرواية ما حكاه ابن حجر في الفتح في شرحه لحديث عائشة قال: وقد وقع في رواية أبي الأسود عن عروة عن عائشة قالت: إن النبي ﷺ كان أول شأنه يرى في المنام، وكان أول ما رأى جبريل بأجياد، فصرخ جبريل: (يا محمد)، فنظر يميناً وشمالاً فلم ير شيئاً، فرفع بصره فإذا هو على أفق السماء، فقال: يا محمد، جبريل، جبريل. فهرب فدخل في الناس، فلم يرَ شيئاً، ثم خرج عنهم، فناداه، فهرب، ثم استعلن له جبريل

حديث أبي الأسود من طريق ابن لهيعة عن عائشة

من قبل حراء. فذكر قصة إقرائه (اقرأ باسم ربك) ورأى حينئذ جبريل له جناحان من ياقوت يختطفان البصر. وهذا من رواية ابن لهيعة عن أبي الأسود وابن لهيعة ضعيف.

روايات تؤيد حديث أبي الأسود

وقد ثبت في صحيح مسلم من وجه آخر عن عائشة مرفوعاً (لم أره - يعني جبريل - على صورته التي خلق عليها إلا مرتين) وبيَّن أحمد في حديث ابن مسعود: أن الأولى كانت عند سؤاله إياه أن يريه صورته التي خُلق عليها، والثانية عند المعراج.

وللترمذي من طريق مسروق عن عائشة: لم ير محمد جبريل في صورته إلا مرتين: مرة عند سدرة المنتهى، ومرة في أجياد، وهذا يقوِّي رواية ابن لهيعة، وتكون هذه المرة غير المرتين المذكورتين، وإنما لم يضمّها إليهما لاحتمال أن لا يكون رآه فيها على تمام صورته، والعلم عند الله.

ووقع في السيرة التي جمعها سليمان التيمي، فرواها محمد بن عبد الأعلى عن ولده معتمر بن سليمان عن أبيه أن جبريل أتى النبي ﷺ في حراء، وأقرأه (اقرأ باسم ربك) ثم انصرف، فبقي متردداً، فأتاه من أمامه في صورته فرأى أمراً عظيمًا، انتهى كلام ابن حجر.

ولم يظهرْ لنا وجه قوله: وتكون هذه المرة غير المرتين المذكورتين.

فقصة حديث أبي ميسرة قصة أخرى مغايرة لقصة الغار، وليس في قصة حديث أبي ميسرة لقاء الملك، وإنما فيها سماع النداء، مما كان يحدث من أمور النبوة قبل مفاجأة الملك في غار حراء، فلما حدَّث خديجة بما كان يسمع من النداء باسمه أرادت خديجة أن تخفف عنه روعة النداء المفاجىء الذي يسمعه في خلوته دون أن يرى من يهتف باسمه ويناديه، وذكرت له من أصول الفضائل التي جبله الله عليها ما يجعله بعيداً عن المخاوف التي أحدثتها في نفسه روعة المفاجأة بالنداء، فلما جاء الصديق أبو بكر رضي الله عنه، ولم يكن رسول الله ﷺ ساعتئذ موجوداً في البيت حدَّثته خديجة بخبر رسول الله ﷺ، وقالت له: اذهب مع محمد إلى ورقة، لِمَا كان معروفاً عنه من العلم الأول بالكتب الدينية، فذهب أبو بكر مع النبي ﷺ إلى ورقة،

وأخبره النبي ﷺ بما كان يسمع من النداء باسمه، وانطلاقه هارباً في الأرض، فطلب منه ورقة أن يثبت حتى يسمع ما يقوله له من يناديه، ثم يأتيه ليخبره، وسمع النداء مرة أخرى، وأمره مناديه أن يقول: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، إلخ فاتحة الكتاب، وأن يقول: لا إله إلا الله. فأتى ورقة كما طلب منه وأخبره، فبشره ورقة بالنبوّة والرسالة.

ولسنا نقصد بسياق مرسل أبي ميسرة أن نضعه في ميزان مع مسند الشيخين، ولكنا سقناه لإشعاره بما يوضح قول ورقة ـ في حديث الشيخين ـ: يا ابن أخي ماذا ترى؟ في دلالته على أن ورقة كان على علم قبل انطلاق خديجة إليه مع رسول الله ﷺ ببعض حال النبي ﷺ في نبوته، وما كان يراه ويسمعه قبل أن تبدأ رسالته بقصة الغار المتفق عليها.

ومرسل أبي ميسرة مغاير كل المغايرة لحديث الغار الذي لقي فيه رسول الله ﷺ ملك الوحي يقظة وأقرأه أوائل سورة اقرأ، ففي مرسل أبي ميسرة ذكر النداء فقط دون أن يرى المنادي، وأن مناديه قال له: قل: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين ، إلخ.

ولعل هذا المرسل هو مستند من زعم أن فاتحة الكتاب أول ما نزل من القرآن، وسيأتي تحقيق ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

مواضع سياق حديث بدء الوحي عند البخاري

أخرج البخاري حديث بدء الوحي في مواضع من كتابه (الجامع الصحيح) وسنكتفي بالحديث عن ثلاثة مواضع منها، لأنها أقرب في مواضعها إلى موضوعها.

(١) الموضع الأول: أول الكتاب، باب (كيف بدأ الوحي إلى رسول الله ﷺ وهو ثالث حديث في هذا الباب، الذي افتتحه البخاري بحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه (إنما الأعمال بالنيات) وذكر بعده حديث الحارث بن هشام في سؤاله النبي ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ وثلّث بحديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وهو المقصود بالبحث).

وهذا الموضع الأول لحديث عائشة انتهى عند قوله: وفتر الوحي، ثم

ساق البخاري بعده مباشرة قول ابن شهاب الزهري، موصولاً بإسناد حديث عائشة: وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبدالله الأنصاري، وذكر حديث نزول ﴿ يا أيها المدَّثر، قم فأنذر ﴾ إلى قوله: ﴿ والرجز فاهجر ﴾ فحَمي الوحي وتتابع.

(٢) الموضع الثاني: كتاب التفسير من (الجامع الصحيح) تفسير سورة ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ وهذا الموضع الثاني لحديث عائشة انتهى عند قوله: وفتر الوحي، بزيادة (فترة حتى حزن رسول الله ﷺ) ثم ساق البخاري عقبه مباشرة قول محمد بن شهاب الزهري ـ موصولاً بإسنادين؛ أحدهما إسناد حديث: كيف بدأ الوحي، وثانيهما إسناد لم يذكره البخاري في كتابه في غير هذا الموضع : فأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، وساق حديث جابر في نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾.

(٣) الموضع الثالث: أول كتاب التعبير من (الجامع الصحيح) باب أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، وهذا الموضع الثالث لحديث عائشة رضي الله عنها انتهى عند قوله: وفتر الوحي، وقد ساقه البخاري بالإسناد الأول، عن يحيى بن بكير، عن الليث، عن عقيل، عن الزهري، ثم قرن به إسناداً آخر عن عبدالله بن محمد، عن عبد الرزاق عن معمر، قال الزهري إلخ.

وبعد انتهاء حديث عائشة رضي الله عنها عند قوله: وفتر الوحي، ساق البخاري بلاغ الزهري، وفيه بعد قوله: وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ ـ فيما بلغنا ـ حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل، فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدّى له جبريل، فقال له مثل ذلك.

وواضح أن المواضع الثلاثة تتفق في اعتمادها على يحيى بن بكير شيخ البخاري، عن الليث بن سعد الفهمي فقيه مصر وإمامها، عن عقيل، عن

ابن شهاب الزهري، عن عروة بن الزبير، عن خالته السيدة الجليلة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وتزيد رواية كتاب التفسير من الجامع الصحيح سنداً آخر غير سند يحيى بن بكير، ساق به البخاري الحديث مقروناً بالسند الأول، سند يحيى ابن بكير، فقال بعد أن ذكر السند الأول إلى ابن شهاب: وحدثني سعيد ابن مروان، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن أبي رِزْمة، أخبرنا أبو صالح سليمان ابن صالح الليثي الملقب سلمويه، حدثني عبدالله ـ هو ابن المبارك ـ عن يونس بن أبي يزيد، قال: أخبرني ابن شهاب أن عروة بن الزبير أخبره أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت، ثم ساق الحديث إلى قوله: وفتر الوحي، فترة حتى حزن رسول الله ﷺ.

وهذا السند الذي قرنه البخاري في هذا الموضع بالسند الأول، سند يحيى بن بكير هو الذي قلنا عنه: إن البخاري لم يذكره في كتابه في غير هذا الموضع، وقصدنا السند في جملته بمجموع رجاله وصورته، فإن سعيد بن أبي مروان، وابن أبي رِزْمة، وسلمويه، ليس لهم في البخاري ـ كما قال ابن حجر ـ سوى هذا الموضع، وسعيد بن أبي مروان من طبقة البخاري، وابن أبي رِزْمة من طبقة أحمد بن حنبل، فهو من شيوخ البخاري، وأبو صالح سلمويه كان من أخصَّاء عبدالله بن المبارك المكثرين عنه.

أما بقية رجال السند: عبدالله بن المبارك، ويونس بن أبي يزيد، فهما من رجال البخاري الذين أكثر من ذكرهم.

وتزيد رواية كتاب التعبير من الجامع الصحيح سنداً آخر ساق به البخاري الحديث مقروناً بالسند الأول ـ سند يحيى بن بكير ـ فقال البخاري: وحدثني عبدالله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، قال الزهري: فأخبرني عروة عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة...

ويتضح من النظر في رواية الحديث في مواضعه الثلاثة أن الرواية في

الموضعين الأول والثاني ليس بينها اختلاف جوهري في نص الحديث وسياقه، سوى أن رواية الموضع الثاني التي هي رواية التفسير، تزيد بعد قوله: وفتر الوحي، قولها: فترة حتى حزن رسول الله ﷺ، وتنتهي بذلك.

رواية كتاب التعبير في صحيح البخاري وبلاغ الزهري فيها

أما رواية الموضع الثالث، وهي رواية كتاب التعبير من الجامع الصحيح فتزيد في النص بلاغ الزهري عن حزن النبي ﷺ الذي غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، كما ذكرناه فيما سبق.

قال العلامة ابن حجر في الفتح: وقوله هنا: فترة حتى حزن النبي ﷺ ـ فيما بلغنا ـ: هذا وما بعده ـ أي من إرادة التردي من رؤوس شواهق الجبال ـ من زيادة معمر على رواية عقيل ويونس.

ثم قال ابن حجر: وصنيع المؤلف يوهم ـ أي هنا في كتاب التعبير ـ أنه داخل في رواية عقيل ـ أي وهي الرواية التي ساق بها المؤلف الحديث في باب كيف بدأ الوحي، وليس فيها ـ أي في رواية عقيل هذه الزيادة ـ أي التي جاءت في بلاغ الزهري.

قال ابن حجر: وقد جرى على ذلك ـ أي عدم إدخال هذه الزيادة في رواية عقيل، كما يوهمه صنيع المؤلف ـ الحميدي في جمعه، فساق الحديث إلى قوله: وفتر الوحي، ثم قال ـ أي الحميدي ـ : انتهى حديث عقيل المفرد عن ابن شهاب إلى حيث ذكرنا ـ أي إلى قوله: وفتر الوحي ـ وزاد عنه البخاري في حديثه المقترن بمعمر عن الزهري فقال: وفتر الوحي فترة حتى حزن، فساقه إلى آخره.

ثم قال ابن حجر: والذي عندي أن هذه الزيادة خاصة برواية معمر، فقد أخرج طريق عقيل أبو نعيم في مستخرجه من طريق أبي زُرْعة الرازي عن يحيى بن بكير شيخ البخاري فيه في أول الكتاب بدونها، وأخرجه مقروناً هنا برواية معمر، وبين أن اللفظ لمعمر، وكذلك صرَّح الإسماعيلي أن الزيادة في رواية معمر، وأخرجه أحمد ومسلم والإسماعيلي وغيرهم وأبو نعيم أيضاً من طريق جمع من أصحاب الليث بدونها.

ثم إن القائل (فيما بلغنا) هو الزهري، ومعنى الكلام أن في جملة ما وصل إلينا من خبر رسول الله ﷺ في هذه القصة، وهو من بلاغات الزهري، وليس موصولاً.

* * *

وحديث بدء الوحي خرَّجه أئمة الإسلام من المحدِّثين أصحاب الجوامع، والسنن، والمسندات، ودلائل النبوة، والمستخرجات، والمصنفات، ومدوني السيرة النبوية، وحفَّاظ أحداثها.

اختلاف روايات الحديث تجمعت زبدتها في روايات البخاري.

وقد اختلفت رواياتهم اختلافاً عريضاً، يكاد في بعضه لا يلتقي منه طرف بطرف، فبعضهم يزيد، وبعضهم ينقص، وبعضهم يقتصر على الموصول، وبعضهم يدرج في متن الحديث أشياء من اجتهاده وتفسيره، وبعضهم يلحق بالحديث بلاغات تبلغه عن شيوخه ومن في طبقتهم، ومن هم أعلى منهم، وبعضهم يرسل الحديث إرسالاً، وبعضهم يرفعه وبعضهم يخلط رواية برواية أخرى، وفيهم من يقتصد ويجوِّد.

وهكذا تتسع فجوة الاختلاف بين رواية ورواية، وكتاب وكتاب، بل بين موضع وموضع من كتاب واحد.

وقد انتهى بنا البحث ـ في حدود الاستطاعة ـ إلى أن زبدة الموضوع في أحاديث بدء الوحي تجمعت في روايات إمام الأئمة وشيخ شيوخ المحدثين الإمام البخاري في جامعه الصحيح، وزبدة الزبدة من هذه الروايات تجمعت في روايات المواضع الثلاثة التي بيَّناها فيما سبق.

ومن ثم رأينا أن ندير البحث في إطارها، وإذا عرض أمر لم يذكر في موضع منها، وذكره غير البخاري وكان لهذا الأمر أهمية في البحث عرضنا له، وبيَّنا ما تدعو إليه الحاجة منه، حتى يستوفي البحث أغراضه وينتهي إلى أهدافه في دائرة الإمكان والتوفيق.

أجمعت الروايات في حديث بدء الوحي أن أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة الصالحة، يراها في النوم فتجيء في اليقظة

كاملة تامة، واضحة كما رآها في النوم، لا يغيب عليه منها شيء كأنما نقشت في قلبه وعقله، وقد شبَّهت السيدة عائشة رضي الله عنها - وهي من أقوم أبناء العرب والمسلمين بالبيان العربي - ظهور رؤيا رسول الله ﷺ إذا استيقظ بها في كمال وضوحها بظهور ضوء الصبح ينفلق عنه غبش الظلام، وهو تصوير بياني لا تنفلق دنيا العرب في ذرى فصاحتهم عن أبين منه.

وهذه الرؤيا الصادقة هي أول مراتب النبوة، وكأنما كانت هي الباعث المباشر على حبه ﷺ للخلوة واعتزال ضوضاء المجتمع، والأنس بالوحدة، لاستجماع الفكر والسبح في ملكوت الله وجلال بدائع صنعه، ولهذا جاءت بحرف الترتيب الرتبي المتعاقب في ريث ومهل، فقيل: ثم حُبِّب إليه الخلاء، أي أنه بعد اصطفائه بالنبوة وبدء معالمها بالرؤيا الصادقة حَبَّب الله تعالى إلى نفسه الطاهرة المطهَّرة الخلوة، ليتفرغ قلبه وعقله وروحه إلى ما سيلقي إليه من أعلام النبوة.

خلوة الغار كانت اعداداً لميلاد رسالته ﷺ

وقد اتخذ رسول الله ﷺ من غار حراء مختلى له ومتعبداً، لينقطع عن مشاغل الحياة ومخالطة الخلق، استجماعاً لقواه الفكرية، ومشاعره الروحية، وإحساساته النفسية، ومداركه العقلية، تفرغاً لمناجاة مبدع الكون وخالق الوجود، وتمكيناً لأنوار النبوة من قلبه بالتأمل في مظاهر ملكوت الله.

وقد تحقق له ﷺ بهذه الخلوة من أنوار شهود جلال الله، وجمال قدسه ما كشف عن روحه العلية أغطية الكثافة البشرية، فكان ﷺ يرى الضوء، ويسمع الصوت، ويكلَّم، ويبشَّر، حتى بلغت به الأنوار القدسية آفاق الكمال النبوي، ووقف بها على الدرج الأعلى من مراتب النبوة، وأتم الله تعالى عليه وله نعمة الاستعداد الأسمى لتلقي رسالة الخلود، وجاءه الملك جبريل أمين الوحي مفاجئاً دون تمهيد لهذا اللقاء الذي لا يماثله لقاء قط بين متلاقيين من المخلوقات.

لقاء جبريل برسول الله لقاء بين طبيعتين مختلفتين في الطبيعة والتكوين

فهو لقاء بين طبيعتين مختلفتين في التكوين أشد الاختلاف، بين طبيعة مزدوجة الإبداع والخلق، فهي بشرية روحانية، هي طبيعة محمد نبي الله ﷺ، وطبيعة موحَّدة الإبداع في أعلى درجات الروحانية والاختصاص

العلوي هي طبيعة أمين الوحي جبريل عليه السلام.

وليس بين إنسان من البشر بكل ما فيه من كمال البشرية وطبيعتها، وبين ملك بكل ما في طبيعته من روحانية لها اختصاصها القدسي في الملأ الأعلى - تناسب يقع به اللقاء لتلقي كلمات الله المنزلة من غيب عزه وجلاله، إلا إذا تغلب الجانب الروحاني من الطبيعة المزدوجة على الجانب البشري منها تحقيقاً للتناسب والمشاكلة.

فتحبيب الخلوة إلى النبي ﷺ بعد بدء النبوة بوحي الرؤيا الصادقة أشبه بحضانة لميلاد الرسالة في مهد الإعداد لطور الانتقال إلى تحمل أعبائها، والقيام بحق تبليغها عامة شاملة للإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها، بما يختلف عليها من أجيال متتابعة، لا ينقطع توالدها البشري متواردة على مر الزمن.

ومن هنا يتجلى وجه المفاجأة في مجيء الحق، ولقاء الملَك، وطلب القراءة ممن لم يكن قط قارئاً، واستفراغ بشريته بالغط الملائكي المتكرر مع كل طلب للقراءة التي لم تكن بمفهومها المعهود ممكنة الحصول.

مفاجأة الملك والتماس حكمة الغط المتعدد

وكأن هذا الغط بصورته البليغة البالغة هو في حقيقته إذابَةٌ لروابط العناصر الطبيعية البشرية عند محمد ﷺ دون إفنائها إفناء يفقدها وجودها، وإنما هو تفتيت لترابط عناصرها، حتى يخف وزنها إلى جانب الطبيعة الروحانية، لتشبعها بأنوار الجلال الإلٓهي، حتى تنفرد بالحركة الوجودية في تلقي الوحي اليقظي، وأخذ كلمات الله من حاملها الأمين.

وبقاء الطبيعة البشرية بحقيقتها الأصيلة وراء مشهد تلقِّي الوحي اليقظي ضروري لتبليغ الرسالة، استجابة للتناسب بين الرسول والأمة، لأن كل جنس يأنس بجنسه، والجنس إلى الجنس أميل، وإلى ذلك يشير القرآن الحكيم في قول الله تعالى: ﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ﴾[1] وفي قوله تعالى: ﴿ قُل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من

(١) سورة الأنعام، آية: ٩.

السماء ملكاً رسولاً ﴾[1].

وإنما أقدر الله عزّ شأنه أنبياءه على رؤية الملَك لتلقي الوحي عنه، بخلقه فيهم قدرة خاصة، مكّنهم بها من ذلك معجزة لهم لإبلاغهم رسالات الله، ليبلغوها إلى أممهم، وتلك القدرة هي ما قصدناه بتغليب جانب الطبيعة الروحانية على جانب الطبيعة البشرية، وإذابة روابط عناصرها، وتفتيت وشائجها الغرزية، لتنفرد الطبيعة الروحانية بقوة الوجود الخاص الـذي يتحقق به تلقي الوحي عن الملك المرسل به من عند الله العزيز الحكيم.

وحديث بدء الوحي بدأ في جوّ المفاجأة بلا مهل، فطلب الملك من النبي ﷺ أن يقرأ، دون أن يذكر له مقروءاً يقرؤه، لأنه لم يزده على قوله: (اقرأ) هكذا أمر من فعل القراءة، مطلق عن التقيد بمقروء، أيِّ مقروء، فأجابه النبي ﷺ ـ كما تقضي به البداهة في جو المفاجأة التي لم يسبقها في هذا اللقاء تمهيد مؤنس ـ ينفي معرفته للقراءة، لأنه أمي لا يقرأ، فضمه الملك إليه ضمة شديدة، بالغة الشدة، عصره بها عصراً بلغ منه منتهى جهده وطاقة احتماله البشري، حتى ظن النبي ﷺ أن نفسه تقبض، ثم أرسله الملَك وقال له مرة ثانية: (اقرأ) هكذا فعل أمر من القراءة، مطلق عن التقيد بمقروء ـ أيِّ مقروء ـ فأجابه النبي ﷺ هذه المرة مستفهماً ـ كما وقع صريحاً في مرسل عبيد بن عمير: (ماذا أقرأ؟) فأخذه الملك، وضمّـه إليه ضمـة ضاغطة، بلغت منه منتهى ما تحتمله بشريته، ثم أرسله، وقال له: (اقرأ) هكذا ـ أيضاً ـ فعل أمر من القراءة مطلق عن أي قيد بمفعول معين مما يُقرأ في معهود الحياة، فأجابه النبي ﷺ ـ كما جاء صريحاً في حديث أبي بكر ابن حزم، عند أبي بشر الدَّوْلابي ـ مستفهماً: (كيف أقرأ؟) وأنا لا أعرف القراءة، فكان هذا استفهاماً عن الحالة التي يصير بها النبي ﷺ قارئاً، وهو الأمي الذي لم يعرف القراءة قط، فأخذه الملك، وضمه إليه ضمة بالغة الشدة استفرغت منه جهده وطاقته، ثم أرسله وقال له: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٩٥.

خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

وحدة صيغة الإجابة في حديث عائشة عند البخاري واختلافها في الروايات الأخرى

وحديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري في مواضعه الثلاثة من الجامع الصحيح جاءت فيه إجابة النبي ﷺ بصيغة واحدة في المرات الثلاث التي طلب فيها الملك أن يقرأ، فكان يقول له في كل مرة: (اقرأ)، فيجيب النبي ﷺ: (ما أنا بقارىء)، وظاهر عبارة الإجابة يقتضي أن هذا نفي لمعرفة القراءة في المرات الثلاث.

وقد سلكنا في فهم الحديث مسلك المغايرة بين الإجابة في مراتبها الثلاث، أخذاً من نصوص حديثية كانت الإجابة فيها متغايرة في صيغتها، وكان ذلك موافقاً لما ذهب إليه كثير من باحثي العلماء الذين حاولوا فهم وحدة صيغة الإجابة في حديث البخاري في مواضعه الثلاثة، على أساس تغايرها في معانيها، بما يجعلها متوافقة مع النصوص الصريحة للإجابة المتغايرة في أحاديث أخرى عند غير البخاري، كما أشرنا إليه في حديثي عبيد ابن عمير وأبي بكر بن حزم عند الدُّوْلابي.

فلفظ (ما) في قول النبي ﷺ في المرة الأولى (ما أنا بقارىء) نافية، ومعنى الجواب حينئذ الإخبار بعدم معرفته القراءة بياناً لطبيعة أميته التي ولد بها، ونشأ عليها، أي ما أنا بعارف للقراءة ولا باشرتها قط لأني أمي، لم أكن قارئاً قط، ولا تعلَّمت قراءة حرف قط، كما جاء صريحاً في بعض الروايات (ما أُحْسِن أن أقرأ).

ولفظ (ما) في قول النبي ﷺ في المرة الثانية (ما أنا بقارىء) إستفهامية، يراد بها استبانة ما يقرؤه، ومعنى العبارة حينئذ: أخبرني أي شيء أقرأ؟ كما يوضحه مجيء العبارة بصيغة الاستفهام الصريح استخباراً عما يريد منه أن يقرأه في مرسل ابن عمير، فقد جاء فيه (ماذا أقرأ؟)، ويجب توحيد معنى الروايات وتفسير بعضها ببعض، فيرد المبهم إلى المفسر إتقاءً للتخالف والتضارب.

ولفظ (ما) في إجابة النبي ﷺ في المرة الثالثة بقوله: (ما أنا بقارىء) إستفهامية بمعنى (كيف)، فهي استخبار عن الحالة التي يكون بها النبي ﷺ قارئاً، لأن تحقيق القراءة منه ﷺ بعيد جداً عن حالته التي ولد عليها ونشأ بها، فهو أمي لم يباشر القراءة قط في حياته، ولا عرفها، فكيف يحققها استجابة لطلب طالبها، وقد جاءت العبارة بالاستفهام الصريح بكيف في حديث أبي بكر بن حزم الذي خرجه أبو بشر الدَّوْلابي، فقد جاء فيه: أن جبريل استعلن له، وبشره باصطفاء الله له رسولاً إلى العالمين، حتى اطمأن، ثم قال له: (اقرأ) فقال: (كيف أقرأ؟)، ولهذا جاء رد الملَك عليه بعد هذه المرة مبيناً له الحال التي يكون بها قارئاً، مع بقاء أميته، فقال له: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علَّم بالقلم ﴾ وهذا رد مناسب أكمل المناسبة للاستفهام عن الحال التي يصير بها النبي ﷺ قارئاً بعد بيان أنه لا يعرف القراءة، ولم يباشرها قط في حياته.

ومعنى الرد بهذه الآيات، وليس فيها ما يقرؤه النبي ﷺ استجابة لطلب القراءة المطلق: كن قارئاً إعجازاً وحقق القراءة وأنت على أميتك، مستعيناً باسم ربك الذي ربَّاك، وأعدك لرسالتك الخالدة، وليست قراءتك المطلوبة منك أن تقرأ كما يقرأ غيرك تعلُّماً، وإنما أن تقرأ كما يعلِّمك الله بعلمه الذي ربَّاك به في أحضان كرمه، وهو جلّ جلاله كما علَّم الإنسان بقلم البيان تعلُّماً سيعلمك بقلم الفضل والإحسان، لتكون معلم الدنيا برسالتك الخاتمة لرسالات السماء.

وقد اتفقت كلمة أئمة الإسلام، وأعلام علماء المسلمين في كافة الأعصر والأجيال، وذوي المعرفة من الحكماء في سائر أوطان الإسلام، أن الملَك الذي أخبر حديثُ بدء الوحي في جميع روايته أنه جاء إلى رسول الله محمد ﷺ في غار حراء يقظة مفاجأة، فقال له (اقرأ) هو الروح الأمين، جبريل أمين الوحي إلى سائر المرسلين.

وكان هذا أول لقاء يقظي بوحي قرآني بين سيدنا محمد رسول الله ﷺ والروح الأمين جبريل عليه السلام، وهو لقاء محجب بستور الغيب، لا يعلم

لقاء جبريل للنبي ﷺ في وحي اليقظة كان أكثر ما كان في صورة إنسانية

أحد دون رسول الله ﷺ على أية حال كان، وفي أية صورة لقي عليها الأمينُ الأمينَ عليهما أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

ولعل أقرب الأحوال والصور إلى القبول ـ إذا كان لا بد من الحدس والتظنن، ولا سيما في حال المفاجأة، وفي أول لقاء بينهما مع اختلاف الطبائع الخِلْقية ـ أن يكون هذا اللقاء وقع في صورة إنسانية تشكل فيها جبريل تأنيساً للنبي ﷺ، ورأفة به من شدة وقع المفاجأة، وما ينشأ عنها من الفزع، لرؤية ما لم يكن منتظر الوقوع.

وقد ذكرت الأحاديث الصحيحة ما يشهد لذلك بعد استقرار أمر الوحي، وتتابعه على مدى زمن الرسالة، فقد ثبت أن جبريل عليه السلام كان في بعض الأحيان يجيء إلى النبي ﷺ في صورة إنسانية تعرف للنبي ﷺ، ولمن يكون شاهداً من أصحابه، وقد جاء مرات في صورة دِحْية ابن خليفة الكلبي من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان دِحْية وسيماً وجيهاً، وقد رأت السيدة عائشة رضي الله عنها جبريل في هذه الصورة، فسألها النبي ﷺ عنه، فقالت: هو دحية، فقال لها النبي ﷺ (إنه جبريل).

كما كان يجيء في صورة إنسانية لا تعرف لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ، كما في حديث سؤاله عن الإيمان والإسلام والإحسان، وعلم الساعة، وقول النبي ﷺ: (هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم) كما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، وأخرج مسلم من طريق كَهْمَس في حديث عمر: بينا نحن ذات يوم عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منّا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع يديه على فخذيه.. إلى أن قال في آخر الحديث: ثم مضى فلم يره أحد، فقال النبي ﷺ: «هذا جبريل أتى ليعلمكم دينكم».

ولا شك أن مجيئه مفاجأة في أول مراتب الوحي اليقظي بآيات من القرآن، هي أول ما أنزل على النبي ﷺ من الكتاب الحكيم، أحرى أن

يكون على صورة إنسانية مألوفة، وليس بلازم أن تكون هذه الصورة معروفة للنبي ﷺ.

ولذلك قال العلماء: أنَّ (أل) في لفظ (الملَك) من قوله (فجاءه الملك) لتعريف الماهية، لا للعهد، وأصل الكلام فجاء جاءٍ، وكان هذا الجائي ملَكاً، فأخبر عنه النبي ﷺ بحقيقة جنسه، لا بحقيقة ذاته وشخصه، لأنه لم يتقدم له معرفة به.

وفي التعبير عن أول شيء توجه به الملك إلى النبي ﷺ بقوله: فقال له: اقرأ، بالفاء دليل على سرعة المفاجأة بطلب القراءة، وأنها أعقبت مجيئه بغير فترة، وبهذا تكون المفاجأة تحققت مرتين متواليتين: الأولى في دخول الملك على النبي ﷺ مختلاه ومتعبده، دون تمهيد يشعر النبي ﷺ بأن أحداً سيدخل عليه في الغار، والثانية في أمره بالقراءة عقب دخوله عليه مباشرة، وفي كليهما نوع من المغامضة الباغتة المؤثرة على الطبيعة البشرية بما يهز كيانها هزاً يقحم عليها الرعب والفزع، ومن هنا كان فزع النبي ﷺ فزعاً بشرياً رجفت منه بوادره، وظهرت على بشريته آثاره، حتى هدأت نفسه، فتلقَّى رسالة ربه متثبتاً، مغموراً بأنوار شهود العزة الإلٓهية في يقين لا يداخله أدنى شك في اصطفائه رسولاً بعد اجتبائه نبياً من الصالحين.

عدم ذكر متعلق لفعل (اقرأ) يدل على أن القصد إلى تحقيق القراءة في ذاتها

وفي إطلاق الأمر بالقراءة، وذكر فعله مجرداً عن تعلقه بمفعول معين؛ مع تكرره ثلاث مرات بصورة الإطلاق عن التقييد بمقروء إشارة إلى أن المقصود من فعل الأمر بالقراءة تحصيل مطلق فعل القراءة، ومعناه: حقِّق القراءة، وكن قارئاً دون القصد إلى مقروء معين.

بَيْدَ أن جمهور المفسرين والمحدِّثين ذهبوا إلى أن فعل الأمر الذي فاجأ به الملك النبي ﷺ فقال له: اقرأ مقيد بقيد ملحوظ، قالوا: لأن الأمر بالقراءة يقتضي مقروءاً، وقدروا هذا القيد فقالوا: اقرأ ما يوحى إليك، أو ما نُزِّل عليك، أو ما أمرت بقراءته.

ولم يكن آنئذ قد أوحى إليه شيء يُقرأ، فإن كان مقصودهم ما يوحى

إليه مستقبلاً فلا حاجة لتقديره والأمر به، لأن وحيه إليه ونزوله عليه مقتضٍ لقراءته وتبليغه.

كذلك لم يكن ساعتئذ قد نزل عليه شيء يقرؤه، ولا كان قد أمر بشيء أزيد من لفظ (اقرأ) مجرداً عن قيده بمقروء معين، فأين مكان القيد الملحوظ؟ وأنّى يمكن تعيينه؟ واختلافهم في تعيينه رجم بالغيب، لا يستدعيه النص.

ولذلك قال بعض العلماء: هو أمر لمجرد التنبيه والتيقظ، وهذا معنى انقطاعه عن التعلق بقيد زائد على مجرد الفعل.

حديث عبيد بن عمير لا يدل على قيد ملحوظ يتعلق به فعل القراءة

ولا وجه مطلقاً للتعلق بحديث عبيد بن عمير في أن القيد المتعلق به الفعل (اقرأ) مقدر ملحوظ اعتماداً على تقدم واقعة حديث عبيد زمناً على قصة الغار عند البخاري، بتقدير أن ما جاء في حديث عبيد مما أوحي إلى رسول الله ﷺ، فيكون هو قيداً لفعل الأمر (اقرأ) الذي فاجأ به الملك النبي ﷺ في لقاء الغار، ومعناه في تقدير المتعلقين به: اقرأ ما سبق أن أُوحِي إليك في رؤياك المنامية، قبل لقاء أمين وحينا بك في غار حراء.

لا وجه لهذا التعلق لأن الذي سبق في حديث عبيد بن عمير بوحي الرؤيا المنامية هو عين ما جاء في حديث الغار بوحي اليقظة، فقد جاء في حديث عبيد أن جبريل عليه السلام جاء إلى رسول الله ﷺ وهو نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ وكرر عليه هذا الطلب والْغَتّ ثلاث مرات، ثم بعد المرة الثالثة قال له: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. .﴾ الآيات الخمس من أول سورة العلق ـ إلى قوله: ﴿علّم الإنسان ما لم يعلم﴾ ولا يوجد في هذه الرواية مقروء معين يتعلق به طلب القراءة، حتى يمكن أن يكون قيداً لفعل الأمر بالقراءة في حديث الغار بالإحالة عليه، لأن هذه الآيات هي نفسها التي جاءت في حديث الغار عند البخاري، والأمر في حديث عبيد بالقراءة مكرر ثلاث مرات بإطلاقه عن التعلق بقيد معين.

فلا وجه ـ كما قلنا ـ لتقدير قيد لفعل القراءة الذي بدأ به وحي

لا وجه لتقدير قيد يتعلق به فعل القراءة في طلب جبريل

الرسالة إلى رسول الله ﷺ يقظة في غار حراء، وهو حديث في أعلى درجات الصحة والثبوت لاتفاق جميع أئمة الحديث على روايته، وما جاء في وحي النبوة مناماً سبق اليقظة ـ إذا صح حديث عُبيد ـ وهو مرسل، لأن المقصود من الأمر بالقراءة مجرداً عن قيد بمقروء ـ كما هو نص المتن في الروايتين المنامية في مرسل عبيد، واليقظية في حديث الغار عند البخاري وسائر أئمة الحديث ـ حقّق القراءة، أي كن قارئاً، كما حققناه فيما سبق فيكون الفعل الطلبي (اقرأ) استعمل غير متعد إلى مفعول معين، لعدم تعلق القصد إلى مفعول معين، بل أريد منه توجيه النبي ﷺ إلى عنوان ولباب رسالته في عمومها الفكري، واعتمادها على العلم والمعرفة بأوسع مفهومها الذي جعلت القراءة في أمر النبي ﷺ بها في بدء رسالته علماً عليه وله.

ولعل هذا المعنى هو مراد من قال: إن الفعل (اقرأ) أمر لمجرد التنبيه والتيقظ.

أغرب ما قيل في بيان قول جبريل للنبي ﷺ (اقرأ)

ومن الغريب هنا ما قاله العلامة ابن حجر في الفتح عن شيخه البلقيني: قال شيخنا البلقيني رحمه الله تعالى: دلّت القصة على أن مراد جبريل بهذا أن يقول النبي ﷺ نص ما قاله، وهو قوله: (اقرأ) أي التلفظ بهذا اللفظ (اقرأ)، ومن حق البحث أن يتساءل: ما هو وجه دلالة القصة على أن هذا الذي قاله الشيخ الإمام البلقيني هو مراد جبريل؟ وفي أي موضع منها جاءت هذه الدلالة؟ وهل هذا الاتجاه من قبيل ما قيل: إن المقصود من الفعل (اقرأ) مجرد التنبيه والتيقظ؟ أو هو رأي آخر؟ وحينئذ لا بدَّ من التساؤل: ما الفائدة التي تترتب على ترديد النبي ﷺ هذا اللفظ؟ وأن يقول عين ما قاله الملك له (اقرأ) طالباً تحقيقه، أو تحقيق قيده الملحوظ، وقد كان هذا الأمر وهو صادر من ملك الوحي طلباً موجهاً إلى من هو مطلوب منه، وهو موجه إلى النبي ﷺ، وهذا هو المقصود من مجيء الملك إلى النبي ﷺ.

وإذاً فما شأنه ومعناه حين يردده النبي ﷺ ويقول نص ما قاله الملك له (اقرأ)، ومن هو الموجَّه إليه، المخاطب به، المطلوب منه تحقيقه أو تحقيق متعلقه الملحوظ؟ أهو ملك الوحي؟ أم هو النبي ﷺ؟ والأول من أعجب العجب إذ يصير به المأمور آمراً، والآمر مأموراً، والثاني لا قيمة له إلا أن يكون تأكيداً

لطلبِ الملك منه، كمن يخاطب نفسه تهييجاً لها وحثاً على الاستجابة.

وقد أكثر البلقيني - كما نقله عنه تلميذه ابن حجر - من الاحتمالات والفروض في تقدير متعلق الفعل (اقرأ) الذي فاجأ الملك به النبي ﷺ، وهي احتمالات لم يذكر لها الشيخ سنداً من النقل، فبقيت في مهب التخرصات والظنون.

وقد يكون من أبعدها تقدير: اقرأ القرآن جملة، وبني على هذا التقدير الاحتمالي أن يكون القرآن نزل على رسول الله ﷺ جملة واحدة باعتبار، ثم نزل منجّماً باعتبار آخر.

ولا شك أن هذا الفرض الاحتمالي مناقض بظاهره لقول الله تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبِّت به فؤادك، ورتلناه ترتيلاً ﴾[1].

ومحاولة الإجابة عن هذه المناقضة ضرب من التعسف في التأويل، لا داعي له، ولا مبرر لارتكابه.

حكمة تكرار طلب القراءة والغط

ولما نفى النبي ﷺ عن نفسه الشريفة معرفة القراءة، وأنه لا يحسن أن يقرأ، لأنه أمي لم يباشر القراءة قط، ولم يعرفها في حياته - ضمه جبريل إليه ضمة شديدة استفرغ بها بشريته، وأخلص بها روحانيته من التشابك المادي بالطبيعة البشرية، إخلاصاً استجمع به مشاعره وإحساساته، ومدارك عقله، ونبضات قلبه، وخلجات وجدانه، وإشراقات روحه، تحقيقاً للتناسب الروحاني بينه في طبيعته المزدوجة من البشرية والروحانية، وبين الطبيعة الملائكية الخالصة بروحانيتها، التي يتلقى عنها وحي رسالته، وإعداداً لقواه الذاتية لتقبل أثقال ما ينزل عليه من الوحي، وتهييئاً له لتحمل ما سيلْقَىٰ من مشاق تبليغ رسالته إلى كافة أفراد الإنسانية وجماعاتها، وأممها وشعوبها في أرجاء الأرض، وتوطيناً لنفسه على فدائح الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى، وإخراج البشرية من ظلمات الظلم والجهالة الضالة إلى نور العلم والعدل والهدى والخير.

---

(١) سورة الفرقان، آية ٣٢.

فلما بلغ منه جبريل عليه السلام تصفية طبيعته من كدورات البشرية بهذه الضمة الأولى أرسله وقال له: (اقرأ) هكذا ـ أيضاً ـ أمر مطلق عن التقيد بمقروء، فقال له النبي ﷺ ـ وقد دنا من روحانيته الملائكية بعض الدنو ـ مستخبراً: (ماذا أقرأ؟) كما جاء صريحاً في مرسل عبيد بن عمير، فأخذه جبريل إليه وضمه ضمة، لعلها أشد مما سبقها، بلغت منه غاية جهده وطاقة تحمله، ليستنفد ما بقي عنده من علائق البشرية المقيَّدة بعناصرها المادية انطلاق إشراقات روحانيته عن السبح في عوالم ملكوت الله، لتكميل إعداده لتلقي وحي اليقظة ومواجهة الملك فيما يظهر له من الصور والهيئات.

ثم أرسله، وقال له: (اقرأ) ولم يزده على صيغة الأمر المطلق عن التعلق بمقروء، فاستبانه النبي ﷺ عن الحالة التي يكون بها قارئاً، مع أميته التي ولد بها، ونشأ عليها منذ كان في حياته كلها، فكيف يصير قارئاً؟.

أشد حالات الوحي

فأخذه إليه جبريل، وضمه ضمة عصره بها عصراً ظن منه بنفسه الموت، لتستشف روحه، وهي في علوها وتغلبها على بشريتـه خطرات الوحي، فلا يندّ عنه منه حرف أو شيء، ولو لم يكن هناك تعبير بالألفاظ والكلمات، كما في بعض مراتب الوحي، وأشد حالات الوحي اليقظي التي أخبر عنها النبي ﷺ في حديث الحارث بن هشام عند البخاري، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال».

وهذه الحالة لا تستوعب الأذن المادية التعبير عنها، فهي حالة خاصة، متمحضة للروحانية، وإنما يدرك المقصود منها إدراكاً كاملاً بإشراق الروح، إشراقاً يذيب العلائق البشرية في طبيعة النبي ﷺ المزدوجة، وتبقى الروح في أعلى درجات شفافيتها، لترسم في مرآتها ما يلقى إليها من الملأ الأعلى بمشافهة الروح الأمين جبريل عليه السلام.

يقول العلامة ابن حجر في الفتح: وهي حالة يؤخذ فيها النبي ﷺ

عن حال الدنيا من غير موت، فهو مقام برزخي، يحصل له عند تلقي الوحي، ولما كان البرزخ العام ينكشف فيه للميت كثير من الأحوال خص الله نبيه ببرزخ في الحياة، يلقي إليه فيه وحيه المشتمل على كثير من الأسرار.

وهذا لا يمكن أن يقع في اليقظة لغير النبي ﷺ، وإن كان يقع شيء منه لبعض الصالحين في غيبة منامية، أو غير منامية، استمداداً من المقام النبوي، كما يشهد له حديث (رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة).

شدة وحي اليقظة على النبي ﷺ

ولذلك كانت هذه الحالة اليقظية أشد حالات الوحي كما يدل على ذلك تشبيهها بصلصلة الجرس، وهي صوت متدارك متتابع، لا تتميز وحداته، يسمعه السامع فلا يتبين منه تعبيراً عن حقيقة ما يلقى به من المعاني والحقائق، ولا يمكن أن يعي ما جاء به سوى النبي ﷺ الذي يكون حين هذا التلقي في حالة روحانية خالصة، لا سلطان لشيء من طبيعته البشرية على شيء منها، وبهذه الروحانية الخالصة في صفائها وإشراقها يستوعب كل ما يُلقى إليه من الوحي.

وقد وقع تشبيه هذه الحالة في بعض الأحاديث بِدَوِيّ النحل، كما في حديث عمر رضي الله عنه في وصف مشهد منها، فقال: يُسمع عنده كدوي النحل.

قال العلماء: وهذه الصلصلة أو الدوي هو صوت الملك بالوحي، ولا تعارض بينهما، قال ابن حجر: فدويّ النحل لا يعارض صلصلة الجرس، لأن سماع الدوي بالنسبة إلى الحاضرين، كما قال عمر: يُسمع عنده كدوي النحل، والصلصلة بالنسبة للنبي ﷺ، فشبهه عمر بدوي النحل بالنسبة إلى السامعين، وشبَّهه هو ﷺ بصلصلة الجرس بالنسبة إلى مقامه.

وهي حالة خاصة بالنبي ﷺ تتغلب فيها روحانيته على بشريته ـ كما قلنا ـ ليتصف بصفة الملك، ليقع بينهما التناسب والتجانس ويتم التلقّي على أكمل وجه وأثبته.

وقد اختص النبي ﷺ بكمال إدراكه لما يلقى إليه، وما يسمعه، وما يراه في هذه الحالة، فهو ﷺ ـ على ما يلقى من شدة ـ يكون في أكمل درجات الإدراك والفهم، والوعي والحفظ، وهذا معنى قوله في حديث الحارث بن هشام: (فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال).

وهذه الشدة التي يلقاها النبي ﷺ في هذه الحالة من حالات الوحي كانت أجمع لقلبه، وأوعى لسمعه، وأوعب لمداركه، لغلبة روحانيته فيها على بشريته، فيسمع ويعي بما لا يَعلم طريق إدراكه وفهمه، وأدائه إليه إلا الله رب العالمين.

وبالغطة الثالثة ـ التي ضمه بها إليه ملك الوحي فعصره حتى بلغ الجهد، بعد الاستفهام عن الكيفية التي يكون بها النبي ﷺ قارئاً تحقيقاً للأمر بمطلق القراءة، وهو الأمي الذي لا يحسن القراءة ولا يعرفها ـ كان قد استُكْمِل استعداد النبي ﷺ لتلقي أول مراتب الوحي اليقظي مشافهة بمخاطبة الملك ومواجهته في صورته التي اختيرت له للمجيء فيها إلى رسول الله ﷺ.

القراءة المطلوبة من النبي ﷺ قراءة إعجاز، لا قراءة تعلم.

ولذلك جاءته الإجابة عن هذا الاستفهام، فقال له الملك تبليغاً عن الله تعالى: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق* خلق الإنسان من علق* اقرأ وربك الأكرم* الذي علَّم بالقلم* علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

وهذه الإجابة صريحة في مطابقتها للاستفهام عن بيان الكيفية التي يكون عليها النبي ﷺ قارئاً مع كونه أمياً لا يعرف القراءة، لأن القراءة شأن من تعلم القراءة في الألواح والصحف.

فكأنه قيل له في جواب استفهامه عن الحالة التي يكون بها قارئاً مع قيام موانعها في عرف الحياة ومألوفها: أنت لست كهيئة أحد من الناس، تقرأ بتعلُّم كما يقرؤون، وإنما أنت رسول الله اختارك على عينه، لتحمل إلى الحياة رسالته الخاتمة الخالدة، وجعل أميتك خصيصة نبوتك، وأرفع مظاهر معجزة رسالتك، وأعظم عنوان على صدقك في دعوتك، وأبلغ آية في

تحديك معانديك، فكن قارئاً، لا كما يقرأ الناس من كتب كتبتها أقلام أيديهم، ولكنك قارىء قراءة إعجاز للقارئين وغير القارئين.

هي قراءة فيض رباني، خصك به ربك الذي منه الخلق والإبداع، فهو الخالق المبدع المقتدر الذي ينبئك في أول مراتب وحيه القرآني إليك بأجلّ مظهر من مظاهر إبداعه، فهو الذي خلق الإنسان وأبدعه في أحسن تقويم، خلقه مما لا تتصور العقول - لو تركت لتصوراتها الذاتية - أن يكون منشأ خلقه وإبداعه، خلقه من «عَلَقْ» وهو أبعد ما يكون عن الصورة الإنسانية في تقويمها وخصائص صورتها.

ولكن كرم ربك في فيض رحمته، وسابغ جوده، هو الذي تتفجر منه ينابيع نعمه على جميع خلقه، وهذا تذكير أبدي دائم بنعمة الخلق والإبداع، وهما من أخص صفات الألوهية، جيء به مرتبطاً - في أول منازل الوحي القرآني - بعنوان الرسالة الخالدة (اقرأ) والقراءة تعني في إطلاقها الكلمة المكتوبة، والكلمة المسموعة، وهما أساس العلم والمعرفة بأوسع ما يكون لهما من معنى، وهذا الارتباط بين التذكير بنعمة الخلق والإبداع، وبين القراءة على إطلاقها يوحي بأن جماع الحكمة ولبابها في خلق الإنسان إنما هو العلم في أعلا درجات المعرفة، وأعمق منازل الإدراك، وأشمل مناحي الحياة في هذا الوجود.

ونعمة الخلق المطلق الشامل لكل مخلوق في هذا الكون، ونعمة خلق الإنسان بخاصة وهو المسخَّر له ما في السموات والأرض - أعظم وأجلّ نعم الله التي تستوجب دوام الشكر والتعبُّد لله الأكرم الذي لم يترك هذا الإنسان سدى، ولكنه تولّاه بفضله، وأفاض عليه أجلَّ نعمه، بعد نعمة خلقه، فعلَّمه من العلوم والمعارف ما جعله به سيد الحياة يسخرها بعلمه ويستخرج كنوزها بعقله، ويفيد منها بتجاربه، ويستثمرها بخبرته ومعارفه، ووهب له القلم آية من آيات بدائعه ووسيلة من وسائل حفظ خصيصته الفكرية، مسجلة في صحائف آثار الحياة على مر أزمنة خلودها، حتى لا تتبدد جهود أفكاره، وتذهب آثاره في كشف أسرار الكون ضياعاً.

وقد أخرج الله الإنسان إلى هذه الحياة وليداً ضعيفاً ساذجاً، لا يعلم شيئاً، ومنحه منافذ الإدراك والعلم من الحواس، وأجلُّها السمع والبصر، ووهبه معهما خزانة الفؤاد ليحفظ فيها علومه ومعارفه وتجاربه، فقال عز شأنه ممتناً عليه بهذه النعمة الجليلة ومذكِّراً له بأصل وجوده: ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾(١).

هل كان النبي ﷺ على معرفة بأن مفاجئه في الغار ملك من عند الله

وهنا قد يرد سؤال حام حوله بعض الباحثين من أئمة العلم، وهو: هل عرف النبي ﷺ أنَّ الذي فاجأه في متعبده، غار حراء، وقال له: (اقرأ) ملك مرسل إليه من عند الله؟.

وقد أجاب الذين بحثوا عن هذا السؤال بأجوبة تخمينية، لا تعتمد على أسس علمية نقلية أو عقلية، ولا نرى بنا حاجة إلى ذكرها، وليرجع إليها في مصادرها من يريدها، ونحن نعرض للموضوع من وجهة نظرنا، وعلى طريقتنا في أسلوب بحثنا.

والروايات الحديثية التي استطعنا الاطلاع عليها لم نجد فيها ما يفيد أن النبي ﷺ كان في بدء اللقاء المفاجىء يعرف أن مفاجئه بالدخول عليه في الغار، دون تمهيد، وقال له (اقرأ) ملَك من عند الله تعالى مرسل إليه، ليبلِّغه رسالة ربه.

ولكن قرائن الحال، وجو المفاجأة، وما جرى فيه من حوار، وما وقع من تكرار طلب القراءة بصورة واحدة مع تكرار الغط بحالة بالغة الشدة، ودخول الملَك على صورة لم يعرفها النبي ﷺ فيمن يعرف من الناس، مع سوابق الأحداث ـ يفيد أن النبي ﷺ كان يعرف أن محدِّثه المفاجىء بدخوله وتصرفه الذي وقع منه إليه ليس شخصاً ممن يعرفهم في قومه، أو فيمن رآهم من الناس، وأن مفاجأته بطلب القراءة منه دون تمهيد يؤنسه به، يؤكد تلك الصورة الغريبة التي طافت بخاطر رسول الله ﷺ حين المفاجأة، وبدء الحديث بطلب القراءة.

(١) سورة النحل، آية: ٧٨.

والروايات الحديثية الثابتة تفيد أن النبي ﷺ سبق إليه الوحي المنامي في الرؤيا الصادقة التي كان يراها في منامه فتجيء في يقظته محققة، جلية واضحة، ثابتة كفلق الصبح، وانبلاج ضوء النهار من بين غبش الظلام، كما جاء صريحاً في عدد من الأحاديث الصحيحة والروايات الثابتة التي قد ترتفع إلى مرتبة التواتر في معانيها.

قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في حديثها: أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة ـ وفي رواية: الرؤيا الصالحة ـ في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح ـ إلى أن قالت: فجاءه الملك، فقال له: اقرأ.

النبوة أسبق من الرسالة

ولا شك أن مجيء الملك في غار حراء كان أول مراتب الوحي اليقظي بالرسالة، والتعبير عن مجيئه، بإدخال حرف (الفاء) في قول عائشة: (فجاءه الملك) يفيد أن مجيء الملك إلى النبي ﷺ في الغار كان بعد وقوع الوحي المنامي في الرؤيا الصادقة الصالحة الذي افتتحت به النبوة تأنيساً للنبي ﷺ، وإعداداً له لتلقي ما سيجيئه من وحي اليقظة بمجيء الملَك إليه، فالتعقيب المستفاد من (الفاء) يفيد أن مجيء الملك إلى النبي ﷺ يقظة في غار حراء ـ وهو الذي بدأت به الرسالة ـ كان بعد الإيحاء إليه بالرؤيا الصادقة الذي بدأت به النبوة، فهو ﷺ كان قد نُبِّىء قبل إيحاء اليقظة الذي لقيه به الملك في الغار، وأقرأه أوائل سورة (اقرأ)، فالنبوة سابقة بوحيها ومراتبه على الرسالة بوحيها الذي جمع بمراتبه بين حقيقة النبوة والرسالة.

لم ينزل شيء من القرآن في وحي منامي

ووحي الرسالة بدأ بنزول القرآن، ولم نعلم قط أن وحياً منامياً انفرد بتنزُّل شيء من القرآن الكريم، قال السيوطي في الإتقان: إن الملَك يأتيه في النوم، وهل نزل عليه فيه قرآن أم لا، والأشبه أنه نزل كله يقظة، وحديث كتاب النمط الديباجي الذي رآه النبي ﷺ في منامه، وكان فيه كتاب ـ أي كتابة ـ لم يصرِّح فيه ولا في غيره ـ فيما نعلم ـ بأن ما كان من الكتابة في هذا النمط هو الآيات الخمس من أوائل سورة (اقرأ) أو غيرها من آي القرآن، ولم يذكر فيه أن جبريل حين جاءه مناماً بالنمط المكتوب قال له: اقرأ ما في

النمط من الكتاب، وإنما قال له (اقرأ) دون أن يذكر له مقروءاً، ولهذا كان رد النبي ﷺ على هذا الطلب: (ما أقرأ) وهو محتمل للنفي والاستفهام، وتكرر طلب القراءة مع الغت، وتكرر رد النبي ﷺ بالصيغة عينها (ما أقرأ) وهي على احتمالها لنفي معرفة القراءة، والاستفهام عن أي شيء يقرأ، وفي المرة الثالثة لطلب القراءة أفصح النبي ﷺ صراحة في ردِّه عن استخباره منه عن أي شيء يقرأ، فقال: (ماذا أقرأ؟)، فلو كانت الكتابة التي في النمط هي الآيات الأولى من سورة (اقرأ) ما صح هذا الاستفهام.

ولو سلم أن الكتابة التي في النمط هي الآيات الأولى من سورة (اِقرأ) وكانت هي المقصودة بقول جبريل عليه السلام (اقرأ) لم ينتقض ما قلناه من أنه لم يقع لنا العلم بانفراد الوحي المنامي بشيء من القرآن الكريم قط، لأن هذه الآيات كانت هي أول الوحي اليقظي، وهي التي أقرأها الملك للنبي ﷺ في مفاجأة الغار، فتكون قد نزلت بالوحي التمهيدي، وحي النبوة بالرؤيا الصادقة، ونزلت بالوحي اليقظي في بدء الرسالة، فلم ينفرد بها الوحي المنامي.

على أن حديث النمط مرسل مفرد، فلا تقوم به حجة على ادعاء نزول شيء من القرآن في النوم أمام الأحاديث الكثيرة التي تفيد كلها أن نزول جميع آيات القرآن وسوره كان بوحي اليقظة والمشافهة.

كان وحي النبوة تمهيداً لوحي الرسالة.

ووحي النبوة بالرؤيا الصادقة كان تمهيداً وتوطئة لوحي اليقظة، يحمل في طواياه نوعاً من معرفة النبي ﷺ لمن فاجأه في الغار، ولكنها معرفة لا تحدد صورة اللقاء، ولا تبين المعالم الذاتية لشخصية هذا المفاجىء، ولهذا قال العلماء: إن النبي ﷺ عبَّر عما عرفه فيما بعد أنه ملك، ومعرفته اليقينية به كانت بعد انصرافه من الغار منقلباً إلى أهله، وقد رآه في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء، يقول: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل.

وحينئذ يكون جواب النبي ﷺ عن طلب القراءة في مراته المتعددة وما احتف به من الغط جواب العارف بأن من فاجأه في متعبده غار حراء طالباً منه هذا الطلب الغريب عن طبيعته ونشأته (اقرأ) هو من صور النبوة

المتدرجة في مدارج الوحي ومراتبه: من تمهيد بالمبشرات، والإرهاصات، وعجائب الخوارق والآيات، كتسليم الأحجار والأشجار عليه ﷺ، كما ثبت في حديث ابن عباس عند أبي بشر الدولابي، عن عكرمة أن ابن عباس قال: بعث الله محمداً ﷺ على رأس خمس سنين من بنيان الكعبة، وكان أول شيء أراه إياه من النبوة رؤيا في النوم... فلما قضى إليه الملك الذي أمر به انصرف رسول الله ﷺ منقلباً إلى أهله، لا يأتي على حجر ولا شجر إلا سلّم عليه، سلام عليكم يا رسول الله، فرجع إلى بيته وهو موقن أنه قد فاز فوزاً عظيًما.

وكما ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن).

والرؤيا الصادقة أجل مراتب التدرج في النبوة، وهي تأنيس للنبي ﷺ وتمهيد للقاء اليقظي الذي هو بدء وحي الرسالة.

حديث عبيد بن عمير أوفى روايات وحي النبوة الممهدة لوحي الرسالة.

وأوفى روايات الرؤيا الصادقة التي مهَّدت للرسالة بوحيها اليقظي، وأتمها تفصيلاً، وأوضحها في التوطئة المتصلة برؤية الملك وابتداء نزول القرآن مرسل عبيد بن عمير عند ابن إسحاق، وهو من صحاح المراسيل.

قال الإمام قاضي المدينة المنورة عبيد بن عمير الليثي أحد كبار التابعين: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهراً، وكان ذلك ما تَحنَّث به قريش في الجاهلية - والتحنُّث التبرر - فكان يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاء من المساكين، فإذا قضى جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف قبل أن يدخل بيته الكعبة، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به فيه ما أراد من كرامته، وذلك الشهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، ورحم العباد بها جاءه جبريل بأمر الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: (فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ، قلت: (ما أقرأ) فغتّني به، حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: (ما أقرأ)

فغتّني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: (اقرأ) قلت: (ماذا أقرأ؟) ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع، قال: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ فقرأتها، ثم انتهى، فانصرف عني، وهببت من نومي، فكأنما كتب في قلبي كتاباً.

فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء، يقول: يامحمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، رفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء، يقول: يامحمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً، ما أتقدم أمامي، وما أرجع ورائي، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا مكة ورجعوا إليها، وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني، وانصرفت راجعاً إلى أهلي، حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مفضياً إليها، وفي رواية مضيفاً إليها، فقالت: يا أبا القاسم: أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك، فبلغوا مكة ورجعوا إليّ، ثم حدثتها بالذي رأيت، فقالت: أبشر يا ابن عمي، واثبت، فوالذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة.

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل، وهو ابن عمها وكان قد تنصَّر، وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع، فقال ورقة: قدّوس، قدّوس، والذي نفسي بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له: فليثبت. فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف صنع ما كان يصنع، بدأ بالكعبة، فطاف بها فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة، فقال له: يا ابن أخي: أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ﷺ، فقال له ورقة: والذي

نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولَتُكَذَّبنّه، ولَتُؤْذَيَنَّه، ولَتُقَاتَلَنَّه، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فقبَّل يأفوخه، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله.

نظر وبحث في حديث عبيد بن عمير.

هذا الحديث الذي جوّده القاضي التابعي الثقة عبيد بن عمير يصور رؤيا منامية رآها رسول الله ﷺ، فيها كثير مما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري ومسلم وغيرهما من أئمة المحدثين في لقاء اليقظة بالغار، وفي هذه الصورة المنامية رأى النبي ﷺ جبريل أمين الوحي عليه السلام، ومعه نمط من ديباج فيه كتاب ـ أي كتابة ـ وقال له: اقرأ، فنفى النبي ﷺ عن نفسه معرفة القراءة، فغته جبريل، وكرر عليه الأمر بالقراءة والغتّ كما وقع في حديث الغار، ولكنه لم يقل له: اقرأ ما في النمط من مكتوب، بل قال له في المرة الرابعة: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

كما يصور هذا الحديث رؤية النبي ﷺ جبريل يقظة في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء وذلك بعد أن انتهت الرؤيا المنامية، وهبَّ ﷺ من نومه، ووجد في قلبه ما أُقرىء في نومه كأنما كُتب فيه، وخرج من متعبده منصرفاً إلى أهله، إلى أن توسط الجبل، وسمع صوت جبريل وهو يخاطبه، يا محمد: أنت رسول الله وأنا جبريل.

ولا شك أن هذه الرؤيا المنامية وما وقع فيها من طلب القراءة والغتّ وتكرارهما كانت سابقة على اللقاء اليقظي في غار حراء، وقعت تمهيداً وتوطئة له، وتأنيساً للنبي ﷺ بلقاء اليقظة الذي بدأت به الرسالة، وإنزال القرآن الكريم.

يقول صاحب (عيون الأثر): وفي حديث عبيد بن عمير في خبر نزول جبريل عليه السلام قال رسول الله ﷺ: (فجاءني وأنا نائم) فهذه حالة ـ أي من حالات الوحي ـ وحديث عائشة وغيرها أنه كان في اليقظة، فهذه حالة ثانية، ولا تعارض لجواز الجمع بينهما بوقوعهما معاً، ويكون الإتيان في النوم توطئة للإتيان في اليقظة، وقد قالت عائشة: أول ما بُدىء به عليه السلام

من الوحي الرؤيا الصادقة.

وجليٌّ من حديث عبيد بن عمير أن النبي ﷺ رأى جبريل في رؤياه المنامية، وجاءه بنمط مكتوب فيه كتابة، واستقرأه وغته، وأقرأه أول سورة (اقرأ)، وهذه الرؤيا المنامية درجة من درجات النبوة بمقتضى حديث عائشة وغيرها من أحاديث بدء الوحي.

ويقتضي توافق الروايات أن تكون هذه الرؤيا المنامية سابقة على اللقاء اليقظي في مفاجأة غار حراء، وقد قلنا ـ مكرراً ـ إن الرؤيا المنامية درجة من درجات النبوة، وإن اللقاء اليقظي الذي تم في مفاجأة الغار هو أول مراتب وحي الرسالة.

معنى كلمة رسالة في حديث عبيد

وما وقع في حديث عبيد من قوله: حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها (برسالته) يحتمل أنه يقصد بدأت الرسالة بلقاء اليقظة الذي تم في مفاجأة الغار، بعد وقوع الرؤيا المنامية، ولا مانع من وقوعهما في ليلة واحدة، بدأت بالرؤيا المنامية، وختمت بمفاجأة الغار ولقاء الملك يقظة وبدء نزول القرآن الكريم، أو في ليلتين متتاليتين، والمقصود تقارب الزمن بين اللقاءين.

وتكون رؤية الملك في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء وقعت بعد مفاجأة الغار حين انصراف النبي ﷺ راجعاً إلى بيته وأهله، كما يشير إلى هذا الاحتمال ما جاء في حديث عبدالله بن أبي بكر بن حزم، فإنه ذكر أن النبي ﷺ رأى في المنام رؤيا فشق ذلك عليه... إلى أن قال: ثم استعلن جبريل - أي ظهر للنبي ﷺ علانية يقظة ـ وهذه العلانية التي ظهر فيها جبريل هي لقاء المفاجأة في الغار، بدليل ما جاء في هذا الحديث نفسه من قوله: ثم قال له: (اقرأ) قال: (كيف أقرأ؟) قال: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم ﴾ وهذا عين ما جاء في لقاء الغار مع الاختصار في مرات طلب القراءة.

ويحتمل أن يكون عبيد قصد بكلمة (رسالته) مرتبة الوحي التي بدأت بها النبوة متدرجة في مراحل كمالياتها إلى أن بلغت مرتبة الرسالة، لأن نبوة

النبي ﷺ في مراتب درجاتها، وسبقها الرسالة كانت معبراً لرسالته ووصلة إليها، فأطلق عبيد على أكمل درجات النبوة الممهدة للرسالة عنوان الرسالة وسمَّاها باسمها، نظراً لما وقع في هذه الدرجة من درجات الكمال النبوي، مما أشبه ما وقع فيها ما وقع في أول لقاء يقظي في الغار حيث بدأت الرسالة، ولا سيما طلب القراءة والغتّ الذي انتهى بإقرائه الآيات الخمس من أول سورة (اقرأ)، وهي عينها التي أقرأه إياها جبريل في لقاء اليقظة ومفاجأة الغار، بعد أن كرَّر عليه طلب القراءة والغط، والنبي ﷺ ينفي عن نفسه معرفة القراءة، ويستفهمه ماذا يقرأ، حتى أقرأه الآيات وانصرف عنه.

ورؤية النبي ﷺ لجبريل في حديث عبيد بنوعيها المنامي واليقظي في أوسط الجبل لا تحدد صورة خاصة يمكن الحكم عليها بأنها صورة جبريل في جميع أحوال مجيئه إلى النبي ﷺ يقظة أو مناماً، وإنما هي في كليهما حالة من حالات التشكل التي أعطي الملَك القدرة على التشكل فيها، وهي حالات لا يمكن حصرها في صور وأشكال معينة.

ولهذا لا يعرف أحد غير النبي ﷺ على أية صورة جاء الملك في أول لقاء يقظي في مفاجأة الغار، وصورة مجيئه السابق على مجيء الغار التي وقعت في حديث عبيد بن عمير من أنه كان في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء لا تعين الصورة في كافة حالات مجيئه يقظة أو مناماً.

النبي ﷺ كان على يقين أن مفاجئه في الغار ملك ثم عرف يقيناً أنه جبريل عليه السلام

بَيْد أن الذي يُقطع به أن النبي ﷺ عرف يقيناً أن مفاجئه بالدخول عليه في متعبده وطلب القراءة منه هو ملك مرسل إليه من عند الله، إذ لا يقبل في هذه المعرفة أدنى شك بعد ثبوت النبوة بدرجاتها المتفاوتة في كمالها، وأنه ﷺ عرف يقيناً بعد أن ذهبت عنه روعة المفاجأة، ودهشة ما آحتفَّ بهذا اللقاء أن هذا الملك هو أمين الوحي جبريل عليه السلام.

وذلك ظاهر في حديث عبدالله بن أبي بكر بن حزم عند الدولابي، قال: إنه كان من بدء أمر رسول الله ﷺ أنه رأى في المنام رؤيا، فشق ذلك عليه، فذكر ذلك لصاحبته خديجة بنت خويلد، فقالت له: أبشر، فإن الله لا يصنع بك إلا خيراً، فذكر لها أنه رأى أن بطنه أخرج فطُهِّر وغسِّل ثم

أعيد كما كان، قالت: هذا خير، فأبشر، ثم استعلن به جبريل، فأجلسه على ما شاء الله أن يجلسه عليه، وبشَّره برسالة ربه حتى اطمأن، ثم قال له: اقرأ، قال (كيف أقرأ) قال: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علَّم بالقلم ﴾ فقبل رسول الله ﷺ رسالة ربه، واتبع الذي جاء به جبريل من عند الله، وانصرف إلى أهله، فلما دخل على خديجة قال: «أرأيتك الذي كنت أحدثك ورأيته في المنام فإنه جبريل استعلن»، فأخبرها بالذي جاءه من عند الله عزّ وجلّ، وسمع، فقالت له: أبشر، فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً، فاقبل الذي آتاك الله، وأبشر، فإنك رسول الله حقاً.

فقوله: ثم استعلن به جبريل أي ظهر له علانية يقظة بعد أن رآه مناماً في صورة التشكل التي أعطي القدرة عليها والظهور فيها مناماً أو يقظة، وقوله ﷺ لخديجة حينما دخل عليها: (أرأيتك الذي كنت أحدثك ورأيته في المنام فإنه جبريل استعلن) - نصٌّ صريح قاطع بأن جبريل عليه السلام ظهر علانية يقظة للنبي ﷺ بعد مجيئه إليه في المنام، وأنه في هذا الاستعلان أقرأه أوائل سورة (اقرأ)، وهذا الاستعلان الذي أخبر به النبي ﷺ ظاهر جداً في أنه هو عين اللقاء اليقظي المفاجىء في غار حراء الذي جاء في حديث عائشة وغيرها عند البخاري وغيره، وبدأ به نزول القرآن الكريم، لأن نزول أوائل سورة (اقرأ) لم يرد، ولم يثبت في حديث سوى حديث عائشة رضي الله عنها عند كافة المحدِّثين، وهو حديث أجمع على صحته أئمة الإسلام من المحدثين والمفسرين والفقهاء والمتكلمين، أما حديث عبيد بن عمير في رؤيا المنام وإقراء النبي ﷺ هذه الآيات في النوم فهو حديث مرسل، لا تقوم به حجة على ادّعاء نزول شيء من القرآن مناماً كما أشرنا إليه فيما سبق، فحديث ابن أبي بكر بن حزم المؤيد لمعرفة النبي ﷺ أن مفاجئه في الغار ملك مرسل إليه من عند الله، وأنه هو أمين الوحي جبريل عليه السلام، ظاهر - في جزئه الأخير الذي ذكر فيه استعلان جبريل - أنه وارد مورد حديث عائشة رضي الله عنها في لقاء الغار، لأنه في هذا الجزء أخبر ﷺ عن استعلان جبريل بعد رؤيا شق البطن وتطهيره وغسله في المنام، ويؤكد ذلك ما جاء في رواية ابن لَهيعة عن

أبي الأسود، عن عروة عن عائشة، وفيها: ثم استعلن له جبريل مِن قبل حِراء، فهذه الرواية عينت أن استعلان جبريل كان من جهة حراء.

ولم نعلم حديثاً ذكر ظهور جبريل علانية يقظة للنبي ﷺ، وطلب القراءة، وأقرأه أوائل سورة (اقرأ) سوى حديث عائشة في لقاء الغار المتفق على روايته في جميع دواوين الحديث والسنة.

أما حديث عبيد بن عمير فكان الإقراء فيه مناماً ـ وهو مع إرساله ـ لا مدخل له هنا.

فحديث ابن أبي بكر بن حزم هو عين حديث عائشة رضي الله عنها، سيق مركباً من وحي منامي، ووحي يقظي ـ موجزاً مختصراً ـ مبيناً صورة من صور ما أجمل في حديث عائشة رضي الله عنها، من أن أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، وهي صورة شق البطن، وتطهيره في حديث ابن أبي بكر بن حزم.

فالنبي ﷺ عرف يقيناً أن مفاجئه باللقاء الشخصي يقظة في غار حراء ملك مرسل إليه من عند الله لإبلاغه رسالة ربه، ثم عرف ـ يقيناً ـ بعد ذلك أنه أمين الوحي جبريل عليه السلام، فهو محدثه في الغار، ومستقرئه، ومستفرغ بشريته بالغط المتكرر بتكرر طلب القراءة، مع بالغ الشدة والجهد، ليفرغ في روحانيته من الخصائص العلوية ما يتناسب مع أرفع روحانية الملأ الأعلى، إعداداً له ﷺ لتلقِّي الوحي يقظة على أكمل صوره، وأعلا درجاته، وأرفع مراتبه، التي سيكون من ضروبها التلقي عن الله تعالى بغير واسطة كما جاء في أحاديث المعراج وفرض الصلاة ليلة الإسراء، كما قال الله تعالى: ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾[1].

مراتب الوحي

وللوحي مراتب ودرجات كثيرة فصَّلها العلماء وأئمة البحث من أعلام الإسلام، وجمعها إجمالاً قول الله تعالى: ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، إنه عَلِيٌّ

(١) سورة النجم، آية: ١٠.

حكيم ﴾[1] وقد ثبت منها لنبينا محمد ﷺ أجلها وأرفعها في مقامات القرب، ونحن نذكر منها ما ثبت ثبوتاً بيِّناً بالقرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة:

المرتبة الأولى

إحداها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه ﷺ، وكان ـ كما قالت عائشة رضي الله عنها في حديثها ـ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

المرتبة الثانية

الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه وخاطره من غير أن يراه، كما قال النبي ﷺ: «إن روح القدس نفث في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته».

المرتبة الثالثة

الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً، فيخاطبه حتى يعيَ عنه ما يقول، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً.

المرتبة الرابعة

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه، فيلتبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصَّد عرقاً في اليوم الشديد البرد، كما ثبت في حديث الحارث بن هشام.

المرتبة الخامسة

الخامسة: أن يرى النبي ﷺ الملك في صورته التي خُلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذه المرتبة وقعت للنبي ﷺ مرتين، مرة في الأرض، ومرة في السماء، كما جاء في سورتي النجم والتكوير.

المرتبة السادسة

السادسة: ما أوحاه الله إليه كفاحاً منه إليه دون واسطة ملك، ووقع ذلك للنبي ﷺ وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها من الشرائع والفروض.

في طلب القراءة وتحققها مع الأمية الثابتة إعجاز بليغ

وفي طلب القراءة في وحي اليقظة وبدء الرسالة من النبي ﷺ وهو الأمي الذي لا يعرف القراءة ولا يحسنها، كما هي في مألوف الناس وطبيعتهم، لأنها لا تكون إلا بالتعلُّم والتثقيف، وهو ﷺ بما يقطع به تاريخ حياته لم يباشر تعلُّماً قط، ولم يثافن معلِّماً، ولا ثاقف مثقفاً ـ تنبيه على أن

---

(1) سورة الشورى، آية: ٥١.

قراءته التي يطلب منه تحقيقها لا تجري على سنن مألوف الناس في حياتهم البشرية، وإنما تحقق له القراءة بمحض الفيض الإلٓهي مستعيناً باسم ربه الذي جعل من قراءته وهو أمي معجزة رسالته، وهي رسالة لا تقف عند حدود طبيعته الشخصية في أميته، بل هي رسالة أساسها العلم والمعرفة، وأن علمه ومعارفه اللّذين تعتمد عليهما رسالته الخاتمة لرسالات السماء، الخالدة بخلود الحياة، ليسا مما يتعارض مع وصفه الطبيعي في أميته التي جعلها الله خصيصته في رسالته، وجعلها مناط صدقه في دعوته، ودعامة معجزته في رسالته.

ولهذا فاجأه الملك يطلب القراءة بصيغة فعل الأمر، وكرر عليه هذا الطلب دون تغيير بزيادة متعلق للفعل حتى بلغ إفهامه أنه يكون قارئاً بقراءة لا تتنافى مع بقاء أكرم خصائصه في رسالته بوصف الأمية.

بدء رسالة محمد
صلّى الله عليه وسلّم
كان ميلاداً روحياً جديداً لحياته وحياة أمته

ومن هنا يسهل فهم ما وقع للنبي ﷺ - في ظل قداسة النبوة، وجلال الرسالة المستلزمين للعصمة - من ظواهر استعظام أمر رسالته في صورتها التي بدأ بها وحي اليقظة ومواجهة لقاء الملك، مع ما بينهما من اختلاف بعيد المدى في طبيعة خَلْقهما.

ذلك أنه ﷺ علم يقيناً من هذا اللقاء، وما حف به، أنه قد ولد في يوم ذلك اللقاء ميلاداً روحياً جديداً، هو ميلاد رسالة خاتمة خالدة، تقتضيه طبيعتُها تغيير معالم الحياة كلها، وتجديد خَلْقها، والسير بها في مهايع لم يسبق لها سلوكها، وأنه ﷺ بهذا الميلاد الجديد حمل من الأعباء ما تنوء بحمله السموات والأرض والجبال، وأنه ﷺ سيعيش مدة رسالته بطبيعتين متلازمتين مختلفتين أشد الاختلاف في عناصر تكوينهما وآثارهما في حياته وحياة البشرية كلها في مشارق الأرض ومغاربها، أو أنه ﷺ سيعيش بطبيعة مزدوجة في خصائص جانبيها الروحي والبشري.

كمال بشرية محمد
صلّى الله عليه وسلّم
كان مهداً لميلاد رسالته

الطبيعة الأولى: طبيعة بشريته التي ولد بها ميلاداً بشرياً، ونشأ عليها نشأة إنسانية، كما خلقه الله بخصائصها المادية، وعناصرها العقلية، ومداركها الفكرية، وحيويتها الروحية، على أكمل ما تكون طبيعة إنسان من الكمالات والفضائل الإنسانية، والمعالم البيئية، والمظاهر الاجتماعية في المجتمع الذي نهد فيه، وعاش بين أجوائه وتقلباته وأخلاقياته.

هذه الطبيعة هي التي عاش ويعيش بها ﷺ إنساناً مع الناس في حياتهم، يعاشرهم، ويتبادل معهم مطالب الحياة التي تقتضيها طبيعة البشر في دائرة أفضل الكمالات التي يمكن أن يكون عليها إنسان في حياته مع الناس والأشياء.

وهذه الكمالات الإنسانية هي التي نشأ عليها، وعرفت له في قومه وبلده، فتزوج وولد له بنون وبنات، وقام على رعاية أولاده وزوجه، وأصهر إلى أكرم قومه، وتعاون في أمور العيش وتكاليف الحياة وأعبائها مع أهله وجيرانه، وسائر قومه، يواسي قرابته، ويحسن إلى خدمه، ويكرم ضيفه، ويبر إخوانه وأصدقاءه، ويأكل، ويشرب، وينام ويصحو، ويغضب ويرضى ويحب ويكره، ويمرض ويستشفي، ويبيع ويشتري، ويستسلف ويستدين، ويعطي ويأخذ، ويسافر ويحضر، ويهدي ويقبل الإهداء، ويثيب على ما يقدم إليه من خير أفضل منه، ودود كريم، حيي حليم، رؤوف رحيم، يصدق الحديث، ويؤدي الأمانة، وفيّ بالعهد، سليم الصدر، يعين الضعفاء،

ويضمد جراح المساكين، أغنى الناس بالقناعة، وأجودهم بالعطاء، يألف ويُؤلف، عزوف عن الدنيا، لا يزاحم عليها ولا يخاصم في شيء منها، رعى الغنم واتجر، أمين محبوب، يلجأ إليه قومه ويرضونه لحل معضلاتهم، ويشاركهم في أعمال الشرف والمروءة.

وهو ﷺ في ذلك كله من مآثر طبيعته البشرية لا بد أن يكون دائباً على تبليغ رسالة ربه، يدعو الناس ـ كل الناس ـ إلى الله تعالى، وإلى معرفته وتوحيده، والتعبُّد له وحده، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، يحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، يرغبهم في الخير، ويحببهم فيه، ويعدهم عليه عظيم ثواب الله، ويرهبهم من الشر وينفرهم من مقارفته، ويوعدهم على مواقعته بأليم عذاب الله وسخطه، يحبِّب الخلق في الخالق، ويعظِّم في أنفسهم نعمه عليهم، لايُؤيسهم من رحمته، ولا يقنطهم من فضله وإحسانه، يستغفر للمذنبين ويفتح لهم أبواب الرجاء ويدعوهم إلى الإنابة والتوبة، ويحضهم على العمل لدنياهم كحضه لهم على أداء واجبات دينهم، يبغِّضهم في الكسل ويحبِّبهم في الكسب الحلال، ويقول لهم: (اليد العليا خير من اليد السفلى)، يكرم العلماء، ويعلِّم الجهلاء، ويعلي مكانة العلم والمعرفة ويقول: «إنما بعثت معلِّماً».

يجاهد أعداء الله، ويقيم للناس موازين العدل، وينشر بينهم رحمة الله، ويربط بين الأفراد والجماعات بأواصر الإخاء والمحبة، والتعاطف والمودة، ويدعو إلى المساواة، وإلى التعاون والإيثار، يعفو ويصفح، ويأمر بالصبر على الأذى، يرد السيئة بالحسنة، ويقابل الجهل بالحلم، إن كان في الناس كان كأحدهم يشاركهم أحاديثهم، ويضحك مما يضحكون منه، ويألم لما يألمون له، إلا أن تُنتهك حرمات الله، وإن كان وحده كان الله تعالى أنيسه، يتفكر في جلاله، ويتمثل عظمته، ويقرأ في كتاب الكون آثار اقتداره ورحمته.

وهكذا كان يقوم في ظل طبيعته البشرية بكل ما تتطلبه حياة الناس بما كان لهم من أعراف عادلة، وعادات فاضلة، وأخلاق عالية، وخلائق نبيلة،

في حدود كمالاته الإنسانية التي نشأ عليها جبلّة وتخلّقاً، مع عظيم قيامه بحق تبليغ رسالته، فلم يقع منه في حياته البشرية ما يفسد الفطرة الأصيلة النقية الطاهرة، لم يقع ما يغمط حق العقل الإنساني في إدراكاته ومعارفه، ولم يقع منه قط ما يخدش وجه الفضيلة، فهو ﷺ أكمل البشر خَلْقاً وخُلقاً، وأعدلهم عملاً، أرسله الله رحمة للعالمين بالهدى ودين الحق.

وهذه الطبيعة البشرية تعني شخصية محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، التي عرفه الناس عليها، وعرفته الحياة كلها بها، وعرفه التاريخ بخصائصها إنساناً من الناس، اصطفاه الله نبياً ورسولاً، بلَّغ الناس رسالة ربه، فهدى الله به من شاء من عباده ويهدي لرسالته من يشاء من خلقه.

فهي أحد جانبي طبيعته المزدوجة من عناصر البشرية وخصائصها المادية والروحية العامة التي لا يكون الإنسان إنساناً إلا بتكامل تلك الخصائص الإنسانية بشقيها المادي والروحي العام.

وبهذا التصوير يتبين وجه اعتبارها جانباً من جانبي الطبيعة المزدوجة لشخصية (محمد رسول الله)، وبالفواصل الخصائصية بينها وبين الجانب الروحاني يتبين وجه اعتبارها طبيعة مستقلة بالنسبة إلى خصائص الجانب الروحاني الذي اعتبرناه بالنظر إلى خصائصه طبيعة مستقلة، ولكن الوشائج التي تربط بين الجانبين أو الطبيعتين أقوى من الفواصل الخصائصية بينهما، فالجانبان أو الطبيعتان هما طبيعة واحدة تؤلف من عناصرهما شخصية (محمد رسول الله).

ميلاد رسالة محمد ﷺ

كان ميلاداً للحياة جدد معالمها

الطبيعة الثانية: طبيعة روحانية خالصة في روحانيتها هي التي ولد بها (محمد رسول الله) ﷺ ميلاداً روحانياً جديداً يوم أن تمَّ له أول لقاء بملك الوحي يقظة في غار حراء، ذلك الميلاد هو ميلاد رسالته بخصائصها في أكمل الكمالات الروحانية، وأعظم إشراقاتها العقلية، وأنوارها العلية، وتناسباتها الملائكية.

هذه الطبيعة الروحانية هي الميلاد الجديد، ميلاد (محمد رسول الله) ﷺ وإن شئت قلت: هي ميلاد رسالة محمد ﷺ، ذلك الميلاد الذي كان في الحقيقة ميلاداً للحياة، تجددت به معالمها، وتغيَّرت به طرائقها، واستقامت على سننه هداياتها، وقامت على دعائم منائره موازينها، واستنارت بنوره مسالكها، متدرجة في مراحل نموها الحضاري والفكري.

هذه الطبيعة الروحانية هي التي تلقَّى ويتلقَّى بها (محمد رسول الله) ﷺ عن الله تعالى ما يلقيه إليه الملك في وحي اليقظة والمواجهة، وهو ﷺ على أكمل مراتب إحساساته، وأتم درجات شعوره ويقظة مشاعره، وأعلى إدراكات عقله، وأضوأ إشراقات روحه، وأقرب منازل قربه.

وبهذه الطبيعة الروحانية كان يَلْقى محمد رسول الله ﷺ أمين الوحي جبريل عليه السلام في صور وتشكلات ملائكية مختلفة المظهر، تجلّ عن مدارك العقول، فلا يستطاع تحديدها بصورة معينة أو بشكل خاص يلتزمها في جميع لقاءاته بمحمد ﷺ.

وبهذه الطبيعة كان ﷺ يتقبل ما يُلقى إليه من ضروب الوحي في رسالته ليبلغه إلى الناس هداية ورحمة، ونوراً وبراً، وعدلاً ومحبة، وإخاء ومساواة، وإيثاراً ومواساة.

وهذه الطبيعة الروحانية باستعلائها على الطبيعة البشرية تذيب خصائص البشرية المادية عند رسول الله ﷺ؛ اتقاء لاستحواذها عليه وتغلب الخصائص الروحانية لتكون كاملة التجلِّي الباطن، مشرقة الشفافية، ليتحقق بها التناسب بين طبيعة الملك التي يلقاه عليها الروح الأمين في أكثر حالات وحي اليقظة، وبين طبيعة البشر التي تبقي للنبي ﷺ مظاهرها كاملة في تلقي وحي المشافهة إبقاء على مرتبة التناسب البشري في التبليغ.

المزاوجة بين الروحانية والبشرية خصيصة النبوة الخاتمة

هذه المزاوجة بين الطبيعة البشرية والطبيعة الروحانية خصيصة النبوة الخاتمة والرسالة الخالدة، رسالة محمد ﷺ، فلا تحجب قوة الإشراق الروحاني عنده منافذ الحس البشري من شخصيته، بل يبقى لكل طبيعة خصائصها عند التبليغ، فالنبي ﷺ في هذه المزاوجة بين الطبيعتين بشري المظهر، ملائكي المخبر، فهو مع الناس ببشريته الكاملة، وهو مع الملأ الأعلى بروحانيته الكاملة.

فهذه الطبيعة الروحانية مع أنها تذيب خصائص البشرية عند رسول الله ﷺ وتغلب عليها الخصائص الروحانية كاملة التجلي الباطني، والإدراك العقلي، والإشراق الروحي - لا تفقد بها بشريةُ رسول الله ﷺ عناصر الإدراك الحسي، والإحساس الشعوري، ولا تتأثر منافذ التصور بها، بل إن هذه المنافذ تكتسب قوة تكون بها في أكمل حالات التنبه، وأعلى مراتب الوعي، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في حديث الحارث بن هشام من رواية أم المؤمنين عائشة عند البخاري وغيره أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال».

وهذه الحالة التي تمثلها الطبيعة الروحانية عند النبي ﷺ أشبه في

تمثل الملك رجلا عكس لصورة التناسب عند النبي ﷺ وهو يتلقى الوحي

صورتها العكسية بحالة الملك حين يتمثل رجلاً فيكلم النبي ﷺ كما يكلم الرجل الرجل، فيعي عنه ما يقول، وهي الحالة المقابلة لحالة مجيء الملك في صورته الملائكية، وقد عبَّر عن هذه الحالة أيضاً رسول الله ﷺ في حديث الحارث عن عائشة رضي الله عنها فقال: (وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول).

والبحثُ عن تمثل ملك الوحي في صورة رجل ـ كيف يكون؟ وعلى أية حالة يقع، مما سبح فيه خيال بعض أهل العلم ـ خارجٌ عن نطاق التكليف العلمي، وهو بالتخرصات والتظنن أشبه.

وقد أشرنا ـ فيما سبق ـ إلى أن حالة تمثل الملك رجلاً أشبه عكسياً بحالة النبي ﷺ في تغلب روحانيته على بشريته، حين يلقى أمين الوحي جبريل عليه السلام مواجهة في اليقظة، ويشافهه بالوحي، ويكون التصرف والحكم حينئذ للطبيعة الروحانية التي يتلقى بها الوحي في هذه المرتبة من مراتبه، وتبقى الطبيعة البشرية كامنة كاملة للقيام بحق التناسب في تبليغ الوحي إلى الأمة.

وهذه الحالة التي عبَّرنا عنها بالمزاوجة بين الطبيعتين، الطبيعة البشرية والطبيعة الروحانية عند رسول الله ﷺ، أكمل في الوجود الواقعي، والعمل في التبليغ والأداء، لاحتفاظها بجانبي التلقِّي عن الملك والتبليغ إلى الأمة.

وتمثُّل جبريل عليه السلام في صورة رجل اختيار لشكل بشري تتغلب فيه مظاهر الطبيعة البشرية على مظاهر الطبيعة الملائكية التي هي باقية كامنة كاملة، كما بقيت طبيعة البشرية كامنة كاملة عند رسول الله ﷺ حين تلقي وحي اليقظة والمواجهة، وهذا التمثل يقع تأنيساً للنبي ﷺ.

ولعل هذه الحالة هي الحالة التي جاء بها الملك في غار حراء إلى رسول الله ﷺ في أول لقاء له به، فاستقرأه واستفرغ بالغط المتكرر بشريته، وأقرأه أوائل سورة (اِقرأ).

وتغلُّبُ مظاهر البشرية في حالة تمثل الملك رجلاً لا يقتضي تحول

روحانية الملك إلى طبيعة بشرية بعناصرها المادية، ونوافذ إدراكاتها الحسية، ولا يقتضي فناء الحقيقة الملائكية، بل إن طبيعة الملك الروحانية باقية حال التمثل في صورة بشرية على أكمل حالاتها التي لها في الملأ الأعلى، لكنها تكون حين التمثل مقيدة بالصورة التي اختار الملك التشكُّل فيها عند مجيئه إلى رسول الله ﷺ ليبلغه عن الله تعالى ما أمر بتبليغه ولا سيما إذا كان هذا التبليغ يتعلق بتعليم الناس أمر دينهم، وينتهي تقيُّدها بالصورة التي تمثلت في إهابها بانتهاء التبليغ والتعليم، كما ثبت في حديث تمثل جبريل عليه السلام في صورة رجل أعرابي، وسأل النبي ﷺ عن معالم الدين وأصوله، وكان الصحابة يهابون رسول الله ﷺ أن يسألوه، فلما استكمل ما جاء به لتعليمه الصحابة انصرف، فلم يُعرف أين ذهب، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم».

حقيقة الملكية كامنة في صورة تمثل الملك رجلاً

وقد كانت حالة تغلُّب الطبيعة الروحانية عند النبي ﷺ على الطبيعة البشرية أشد ما كان يلقاه رسول الله ﷺ في حالات الوحي، وهي التي عُبِّر عنها بصلصلة الجرس، ودوي النحل، وهي لا تكون إلا في وحي اليقظة.

بعض النصوص التي تصور شدة الوحي اليقظي.

وقد عبَّرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن هذه الشدة، فقالت: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصِم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

وعبَّر عنها ما رواه هشام بن عروة قال: إن النبي ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها، فما تستطيع أن تحرك حتى يسري عنه.

وعبَّر عنها ما جاء في حديث أبي أروى الدَّوسي عند ابن سعد قال: رأيت الوحي ينزل على النبي ﷺ وإنه على راحلته، فترغو وتفتل يديها، حتى أظن أن ذراعها ينقصم، فربما بركت، وربما قامت موتدة يديها حتى يسري عنه من ثقل الوحي، وإنه ليتحدر منه مثل الجُمان.

وعبَّر عنها ما جاء في حديث زيد بن ثابت قال: أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي، فكادت ترض فخذي.

وعبَّر عنها ما جاء في حديث عبدالله بن عمرو عند الإمام أحمد قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: (أسمع صلاصل، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض).

وعبَّر عنها ما جاء في حديث عبادة بن الصامت: أن النبي ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي كرب وتربد وجهه.

وأجمل حديث ابن عباس عند البخاري التعبير عنها فقال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، ويشير إلى هذه الشدة قول الله تعالى: ﴿ إنَّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾[1] قال العلماء: عنى به الوحي بنزول القرآن عليه، وثقله فيما كان يجده من الشدة في تلقيه.

تعلق الملاحدة وأعداء الإسلام بمظاهر الشدة في وحي اليقظة

وقد تعلَّق بهذه الشدة التي كان يلقاها رسول الله ﷺ عند نزول الوحي عليه في يقظته ومواجهة الملك على حالة ملائكية، وما كان يظهر من آثار تلك الشدة على بشريته ﷺ ـ من نَحْو ارْبِدَاد وجهه الكريم، وما يعتريه من الكرب والبرحاء وتفصد جبينه بالعرق في اليوم الشديد البرد ـ قوم من أحلاس الشرك والنفاق وعبيد الإلحاد والكفر والاستشراق، قديماً وحديثاً، فنبذوا النبي ﷺ بألقاب السوء، وقالوا مجنون يُصرع، وتقوَّلوا عليه ليشككوا في نبوته ورسالته، مما أوحت به إليهم شياطينهم، من الكذب وقول الزور افتراء على الله ورسوله.

رد الله تعالى لهذه الفرية

وقد رد الله تعالى عليهم فريتهم وأكاذيبهم، بعد أن حكاها عنهم في مواضع متعددة من القرآن الكريم، يقول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يتفكروا ما بصاحبهم من جِنَّة إن هو إلا نذير مبين﴾[2]، ففي هذه الآية الكريمة تصوير لتجني هؤلاء الفجرة من طغاة الكفرة، وجهالتهم الضالة، وأنهم قوم بُهْت، لا يصدر منهم القول عن نظر وتدبر ليعرفوا الحق من الباطل، وليست لهم بصائر يتفكرون بها في مبادىء الأمور وعواقبها، وقد أبرزت الآية الكريمة

(١) سورة المزمل، آية: ٥.
(٢) سورة الأعراف، آية: ١٨٤.

ذلك في أسلوب إنكاري مفعم بالتقريع والتوبيخ لما أهدروه من مدارك عقولهم، ولِدَمغهم بالكذب والبهتان، والتسجيل عليهم أنهم قالوا قولاً باطلاً، لو تفكروا فيه، وتدبروا مداخله ومخارجه لعلموا بطلانه بداهة.

ذلك أن مَنْ به مس من الجنون يصرعه ويتخبطه لا يمكن أن يصدر عنه كلام في أعلا درجات البراعة البيانية باعتراف غطارفة الفصاحة فيهم، وهو مع ذلك يحمل في عباراته أجلّ المعاني الإنسانية، وأسمى الحقائق الكونية، وأدق النظم الاجتماعية، وأصدق القضايا العقيدية، وأزكى الآداب الخُلقية، وأفضل الشرائع التعبدية، ثم يبقى دهره كله على أرفع سنن الاستقامة، وزكانة الرأي، وجودة التفكير، لا يخالف قولَه فعلُه، ولا تختلف آدابه وأخلاقه، يعرف له أعداؤه أمانته وصدق حديثه، وبره ووفاءه، وشجاعته ومكارم أخلاقه.

القرآن يتحدى الملاحدة

وها هوذا القرآن الحكيم، الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ منزلاً من عند الله قائم بين أظهركم وفي متناول أيديكم وعقولكم، فاقرأوه وتعمقوا فهمه، وحاولوا بكل ما أوتيتم من قوة، وادعوا معكم شهداءكم من شياطين الإنس والجن لتستخرجوا معنى متهافتاً يشعر بأن من أتى به بعيد عن استقامة المدارك العقلية، وقد تحدَّاهم القرآن بآياته فقال: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[1] والتدبُّر طلب المعنى بالقلب والعقل، وذلك هو ما يسميه منطق الفلسفة بالنظر والتعقل، ونتيجته هي العلم واليقين.

وتاريخ محمد ﷺ في حياته ورسالته آية صدق على كماله

وها هوذا تاريخ محمد ﷺ وأحاديثه وسننه وآدابه وأخلاقه وشريعته تحت أنظاركم فانظروا وتفكروا في جوانب ذلك كله، واستخرجوا منه - ولن تستطيعوا - ما يقيم عوج دعاواكم، وأود أباطيلكم، ولكنكم علمتم أن محمداً ﷺ أرسله الله تعالى ليقوض بنيان الكفر والنفاق، ويهدم صرح الإلحاد، وينذر الذين لووا رؤوسهم عن قبول الحق بعذاب الله وبأسه، والذين ينغضون اليوم رؤوسهم جحوداً وعصبية عمياء ببطش الله وعقابه

(١) سورة محمد، آية: ٢٤.

﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[1].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جِنَّة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾[2].

وهذه الآية الكريمة تجري في مَهْيَع أختها آية الأعراف، وتبدأ ببيان مهمة محمد ﷺ في رسالته التي أمر بتحقيقها في الحياة، فهو مرسل ليعظ الناس أن يقوموا لله الواحد الأحد على قدم العبودية، بإفراده بالتعبد له وحده، لا يشركون به شيئاً، جماعات وأفراداً، وهذه قضية فطرية من بدائه العقول، لا تحتاج إلا إلى موقف تذكير وكلمة واعظة، تحرك القلب إلى اليقظة والعقل إلى التنبه، فإذا استيقظ القلب، وتنبه العقل، وعادت الفطرة إلى استقامتها في توحيد الله فانظروا حينئذ في شأن محمد ورسالته، نظر تدبر وتفكر لتصلوا بهذا التدبر إلى العلم الذي لا يدخله شك، ويتجلَّى لكم أن محمداً أصح الناس عقلاً، وأصدقهم حديثاً، وأهداهم هدى، وأرشدهم رشداً، أليس بين أيديكم ما جاء به من شرائع وآداب، ونظم وأخلاق؟ فهل تجدون فيها ما يدلُّ من قريب أو بعيد على أن محمداً نزل عن ذروة الكمال العقلي، والآداب الاجتماعية التي عرفتها البشرية منذ كانت للكملة من المصطفين لرسالات الله تعالى؟.

ولكنه ﷺ بعثه الله نذيراً بين يدي عذاب شديد لمن أعرض عن النظر في آيات الله ولم يؤمن بربه وهو يرى ما بثه في الكون من دلائل وحدانيته وقهر قدرته وبالغ حكمته.

يقول الإمام الرازي في تفسيره: كان النبي ﷺ عند نزول الوحي تغشاه حالة عجيبة، فيتغير وجهه ويصفرّ لونه، وتعرض له حالة شبيهة بالغشي، فالجهال كانوا يقولون إنه جنون، فالله تعالى بيَّن في قوله تعالى:

(١) سورة النمل، آيتا: ١٣ ـ ١٤.
(٢) سورة سبأ، آية: ٤٦.

﴿ أَوَلَمْ يتفكروا ما بصاحبهم من جِنَّة ﴾ أنه ليس به نوع من أنواع الجنون، وذلك لأنه عليه السلام كان يدعوهم إلى الله، ويقيم الدلائل القاطعة والبينات الباهرة بألفاظ فصيحة، بلغت في الفصاحة إلى حيث عجز الأولون والآخرون عن معارضتها، وكان حَسَن الخُلق طيِّب العشرة، مرضي الطريقة، نقي السيرة، مواظباً على أعمال حسنة صار بسببها قدوة لعقلاء العالمين، ومن المعلوم بالضرورة أن مثل هذا الإنسان لا يمكن وصفه بالجنون، وإذا ثبت هذا ظهر أن اجتهاده على الدعوة إلى الدين إنما كان لأنه نذير مبين، أرسله رب العالمين لترهيب الكافرين وترغيب المؤمنين.

ومن لطائف القرآن الكريم هنا أنه ذكر محمداً ﷺ في هذا المقام بعنوان (الصحبة) ليذكرهم بأنهم أعرف الناس به، وأنه لم يفارقهم، ولم يفارقوه، بل صحبهم وصحبوه، ولازمهم ولازموه، فهل عرفوا عنه طول حياته بينهم شيئاً يخدش إدراكاته العقلية وإحساساته ومشاعره الإنسانية؟ لقد صدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ فإنهم لا يكذبونك، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾[1].

* * *

شعور النبي ﷺ بضخامة عبء رسالته

وقد شعر رسول الله ﷺ في حياته الجديدة التي بدأت بميلاد رسالته في مهد الوحي ، غار حراء شعوراً ملك كل جوانب نفسه، وملأ عليه كل ذرة من ذرات حسه وإدراكاته في كل حركة من حركات وجوده، منذ هذا اللقاء المفاجىء في غار حراء الذي بدأ به ميلاد رسالته ـ بضخامة العبء الذي أُلقي على عاتقه في تحمُّل أثقال الوحي اليقظي وشدائده التي تخرجه في أكثر أوقات رسالته إلى روحانية، تخلعه عن بشريته في شدة بالغة الجهد، تبلغ آثارها به أن يظن في كل مرة يوحى إليه وحي يقظة ومواجهة أن نفسه تقبض، وهذا وصف لشدة ما يلقاه النبي ﷺ من الغط واستفراغ بشريته.

وهو ﷺ قد أوتي من قوة الاحتمال والصبر على فوادح الشدائد ما لم

(١) سورة الأنعام، آية: ٣٣.

يؤته أحد من البشر، فأي فوادح تلك التي تجعله ﷺ يظن عند نزولها به مع نزول الوحي أن الموت ينزل به؟.

إنها بلا شك شدائد ليس لبشر قوة على احتمالها، فهي ليست من جنس شدائد الحياة وفوادحها التي تقع للناس، فيصبرون عليها أو لا يصبرون.

امتنان الله تعالى على حبيبه محمد ﷺ بتخفيف عبء الرسالة عليه

ولكنها شدائد أثقال النبوة وأعباء الرسالة، ولعلها هي النعمة العظمى بعد نعمة النبوة والرسالة التي امتنّ الله عليه بوضع أثقالها عن عبده ورسوله وحبيبه، بعد أن استقرّ به المسير النبوي ووطّن نفسه على أن يعيش لرسالته، ويحتمل في سبيلها كل ما تأتي به الحياة من شدائد وفوادح، فقال تعالى: ﴿ ألم نشرح لك صدرك. ووضعنا عنك وزرك. الذي أنقض ظهرك ﴾ وهذه السورة من المكيات السوابق، نزلت بعد سورة (والضحى) وفي بعض الروايات أنهما نزلتا معاً بكمالهما بعد فترة قصيرة من الوحي، ليلة أو ليلتين أو ثلاثاً، وعند بعض الشيعة أنهما سورة واحدة، ونسب هذا إلى طاوس وعمر ابن عبد العزيز، وردّه الرازي بحجة لا تسلّم له، والمعنى أن الله جل ذكره يقول لنبيه محمد ﷺ ممتناً عليه: فلتهدأ نفسك وتقرّ عينك، فقد شرحنا لك صدرك، ووسعناه، بأنوار اليقين، فانفسح لتحمل أثقال الوحي، وأقدرناك على تحمُّل وزره وأعبائه مما لحق بك من الهيبة وفزع المفاجأة في أول لقاء بأمين وحينا جبريل، وقويناك على احتمال أعباء النبوة وأثقال الرسالة، بعد ما ناءت قوى بشريتك باحتمالها، فحططنا عنك أثقال فوادحها التي أثقلت أحمالها ظهرك، وجعلناك حمَّال آياتها بما آتيناك من قوى روحانية دعمت قوى بشريتك، وأقدرناك على القيام بتبليغ رسالتنا إلى خلقنا (ورفعنا لك ذكرك) فجعلناك خير رسول لخير أمة.

قال الفخر الرازي في تفسير (ووضعنا عنك وزرك) المراد تخفيف أعباء النبوة التي تثقِّل من القيام بأمرها وحفظ موجباتها، والمحافظة على حقوقها، فسهل الله تعالى ذلك عليه، وحط عنه ثقلها بأن يسَّرها عليه حتى تيسَّرت له.

وقال الشوكاني في تفسيرها: والمراد الامتنان عليه ﷺ بفتح صدره وتوسيعه حتى قام بما قام به من الدعوة، وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوة التي تثقل الظهر من القيام بأمرها، فسهَّل الله ذلك عليه، حتى تيسَّرت له.

إيمان النبي ﷺ برسالته أساس وجوب متابعته

هذا الشعور الذي غمر كيان رسول الله ﷺ بعظمة رسالته، وأثقال أعبائها، وحقوق أدائها، وواجبات تبليغها عامة شاملة للزمان والمكان والأجيال ـ هو الإيمان الخاص الذي امتدحه الله به، وجعله ذروة العوامل والأسباب في وجوب متابعته في عموم رسالته، فقال تعالى داعياً سائر المكلفين ممن تبلغهم دعوته: ﴿ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾[1].

فقد ذكره الله تعالى في مقام الإشادة بذكره، والثناء عليه ومدحه، والدعوة إلى متابعته بأخص أوصافه في رسالته (النبي الأمي)، ثم بيَّن الله تعالى أن هذا النبي هو القدوة العامة العليا للإنسانية كلِّها، فيما دُعوا إليه من الإيمان، وأنه السابق إلى ذروته، فهو (الذي يؤمن بالله وكلماته) وكلمات الله هي شرائعه التي أنزلها متدرجة في مدارج الكمال في رسالاته إلى أنبيائه حتى انتهت إلى أكمل كمالها في الرسالة الخالدة، رسالة هذا (النبي الأمي) الذي يؤمن بكلمات الله كلها، وهي التي دُعِي كافة الناس إلى الإيمان بها، واتباع حاملها إليهم، ليسيروا في إيمانهم على نهجها، ليكونوا من المهتدين إلى الاستمساك بعروة الإيمان الوثقى التي لا تنفصم طاقات فتلها، وفي ذلك يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إلّه إلا هو يُحيي ويميت، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾[2].

وهذا الإيمان الخاص به ﷺ غير الإيمان العام الذي يتصف به كل نبي

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٨.
(٢) الآية نفسها.

ورسول من أنبياء الله ورسله، لأن الإيمان الخاص يمتاز عن الإيمان العام بخصائص تخصه ﷺ.

تشريف الأمة بوراثة التبليغ ومشاركتها في المدح والثناء

وهذا الشعور الغامر هو المظهر الأعلى للإيمان الخاص الذي كان به محمد ﷺ القدوة القصوى لأمته، ليسلكها معه في رياض نهجه في رسالته، لتكون داعية بدعوته ووارثة عنه تبليغ رسالته، كما قال تعالى لمجموع الأمة: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهَون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون ﴾[1].

ومعنى الآية الكريمة: كونوا جميعاً[2] ياأيها الذين آمنوا بهذا النبي الأمي ـ الذي يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحل الطيبات ويحرم الخبائث، ويضع عن أمته أثقال ما كان في الشرائع السابقة، ويرفع عنها أغلال أحكامها وشدائد تشريعاتها ـ دعاة إلى الخير وسماحة العمل، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، بقدر استطاعة كل مستطيع منكم، وراثة عن رسولكم النبي الأمي الذي جعله الله قدوتكم العظمى، ثم ضمَّن وعدَه بفلاحهم بُشرى قيامهم بما أمروا به، وذلك بإبراز الجزاء في صورة الإخبار المحقق الواقع.

ولهذا أشرك الله الأمة مع نبيها، وأدخلها في رياض الثناء عليه فيما أنزله مدحاً له ولها بهذا الإيمان الخاص، فقال تعالى: ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ﴾[3].

وإيمان الرسول أصل بذاته، متلقى عن الله جلّ ذكره بالوحي، وإيمان الأمة فرع عنه متلقى عن الرسول ﷺ بالتبليغ، فهو مرتبة تعليم منه وتعلُّم منها، تتدرج بالأمة في مدارج العلم والمعرفة، وتتفاوت على حسب منازل

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤

(٢) هذا المعنى قائم على أساس أن مِنْ في قوله (منكم) بيانية لا تبعيضية لأن شريعة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تترك أحداً من الأمة دون تكليف ينهض به قدر طاقته واستعداده.

(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٥.

الأفراد من الاستعداد والتلقي، وفي حدود هذا العلم يكون وزن الإيمان، ويكون التكليف.

تفاوت إيمان المؤمنين بتفاوت درجاتهم في العلم والمعرفة بالله تعالى

ومن هنا كان إيمان أبو بكر الصديق رضي الله عنه وازناً برجاحة إيمان جميع الأمة، لرسوخ علمه بالله تعالى رسوخاً كان به أثبت المؤمنين قلباً، وأشجعهم نفساً يوم زلزلت أقدام الأكابر، الفاروق عمر بن الخطاب فمن دونه، ومن هنا كان تكليفَ الصدِّيق بالخلافة عن رسول الله ﷺ، والبيعةُ في الإسلام تكليفٌ، فقام بالأمر قيام ثاني اثنين في تاريخ الدعوة إلى الله، فقد ردّ رسن الإسلام على غربه، وجمع الله به ما تفرَّق، ولمَّ به ما تشعَّث في كارثة الكوارث، بفراق رسول الله ﷺ دنيا الناس إلى الرفيق الأعلى، ثم انبعاث الفتنة القاصمة، فتنة الردة، والمسلمون من باهظ صدمة الكارثة في ذهول مذهل، ومن مفاجأة الفتنة كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية.

وفي هذا الإطار تتوارد درجات سائر الصحابة في تفاوتها منزلة، وهم في جملتهم أبرّ الناس إيماناً، وأهداهم قلوباً، وأعلمهم بمعالم الإيمان وموجباته، وأرشدهم طريقة، وأسدهم منهجاً، وأحسنهم سمتاً، وأعرفهم بالله تعالى.

ومن تبعهم في إحسان التلقي علماً وعملاً، ومضى على سبيلهم من سائر المسلمين في صدق اليقين، والدعوة إلى الله، وإخلاص العبودية له، كان حظه من منازل الإيمان على قدر ما عنده من العلم والمعرفة.

إيمان النبي ﷺ إيمان شهود.

والتلقي عن الله عز شأنه بالوحي مرتبة من مراتب الإيمان، قد تكون أعلى مراتب الشهود التي تبلغ بصاحبها أرفع منازل القرب، بل هي أرفع هذه المراتب على الإطلاق حيث يشهد المتلقي عن الله حقائق الموجودات مسطورة في سجل الغيب مشدودة بأسباب المخلوقية إلى أفق الخالقية، فيؤمن بها إيمان من يشهد وجودها بروحه وعقله، وحسه ووجدانه إيماناً يبدو فيه الاختيار كالاضطرار، والتفصيل كالإجمال.

ومن هنا صحّ عن النبي ﷺ فيما يرويه الحاكم في مستدركه عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ آمن الرسول بما أنزل

إليه من ربه والمؤمنون﴾ على النبي ﷺ قال عن نفسه الكريمة (حُق له أن يؤمن) وفيما يرويه الطبري عن قتادة قال: ذكر أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: (ويحق له أن يؤمن) وجماع ما يمكن تَنَوره من هذا الحديث في روايتيه ـ وراء ما يطوي من أسرار تعجز الأقلام عن تصويرها ـ أن قوة روحانية النبي ﷺ بعد ميلاد رسالته بلغت من الشفافية والاستجلاء مرتبة انفرد بها النبي ﷺ في الاطلاع على حقائق الموجودات في الملأ الأعلى، حيث منازل شهودها، وذاك هو الإيمان الذي لا يحتاج إلى برهان، إذ ليس وراء يقين الشهود يقين.

هذا الإيمان هو الأساس في تلقي الوحي وتبليغ الرسالة

فإيمان النبي ﷺ برسالته، وتقديره لعظمتها، وعرفانه بأثقال أعبائها هو الأساس الذي يقوم على دعائمه بناءُ رسالته الخالدة، ولا أساس لها غيره، وقد بلغ النبي ﷺ بإيمانه أعزّ وأرفع مراتب المرسلين.

أخرج ابن أبي حاتم عن حكيم بن جابر قال: لما نزلت﴿آمن الرسول﴾ . . . الآية قال جبريل للنبي ﷺ: (إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك، فَسَلْ تُعْطه).

وهذا الإيمان هو القوة التي أمد الله تعالى بها رسوله ﷺ منذ ميلاد رسالته، في أول لقاء يقظي لجبريل أمين الوحي في غار حراء، ليقويه ويقدره على تحمُّل أعباء رسالته، فحملها مؤمناً بها أشد وأقوى ما يكون إيمان، مغتبطاً بفضلها أعظم ما يكون اغتباط، وقام بأعبائها صبوراً شكوراً، صفوحاً كريماً، وفياً بعهدها وما يجب لها، دؤوباً على تبليغها ونشر هدايتها.

وإدخالُ الأمة مع رسولها في إطار الإيمان بأعباء الرسالة، ليسلكها معه في رياض نهجه في رسالته حفاوةٌ بالغة بهذه الأمة، وتكليف لها تكليف رسولها في وراثتها له في القيام بواجب الدعوة والتبليغ.

ونهج رسالة محمد ﷺ يطالب الرسول أصالة والأمة وراثة بتغيير حياة العالم كله في عقائده وتعبداته وأخلاقه، ونظمه الاجتماعية، وطرائق عيشه، وروابط أفراده وجماعاته، وأممه وشعوبه، وأنظمة حكمه، ومناهج سياسته، وتبصيره بحياته وما فيها من انحرافات، وتوجيهه إلى مسالك الهداية،

وإرشاده إلى منائر العدالة، وعقد أواصر الإخاء والمحبة، والتواسي بين سائر أبناء البشرية، وتوجيه الإدراكات العقلية في انطلاق متحرر إلى آفاق الكون على اتساع مداه، لتكشف عن آيات الله في عناصر هذا الكون وتماسك ذراته ومعرفة ما أودع الله في كل ذرة منها من خير ونفع للبشرية، لتتخذ من هذه المعرفة معراجاً إلى معرفة كمالات الله.

عوامل ارتياع رسول الله ﷺ

ومن هذا التكليف الذي حمل عبأه رسول الله ﷺ وحده في حياته، منفرداً بالقيام بأدائه، مؤمناً به أقوى ما يكون إيمان بعقيدة، وأرسخ ما تكون عقيدة آمن بها صاحبها، إيمان مشاهدة وشعور، وإدراك امتزج فيه عمل الحس بعمل العقل، وإشراق الروح بنور القلب والوجدان، مؤيداً بنصر الله، وبالقلة الصابرة المجاهدة من المؤمنين السابقين، الذين اتخذوا من إيمان رسول الله ﷺ معراجاً إلى السمو، استعذبوا فيه ما رمتهم به الحياة من بلاء الفوادح - يتجلى سر ما اعترى رسول الله ﷺ أول ما فوجىء بمعالم هذا التكليف، من رجفة فؤاده، ورعدة بوادره، وخشيته على نفسه من كل أثر رجع به من مفاجأة الغار إلى بيته وأهله ومأنسه، كما جاء في روايات الحديث، وهو ﷺ على يقين فوق كل يقين أنه نبي مرسل من عند الله لكافة الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها.

وفي بعض ما وقع له في هذه المفاجأة من عظائم الأحداث، بَلْه جميعه ما يجعله جديراً بأن يحدث هذه الهزة العنيفة في كيانه البشري ﷺ.

العامل الأول مفاجأة الملك على صورة لم تعلم حقيقتها بادىء الأمر

فالمفاجأة بالملك في خلوة الغار على صورتها الجاهدة المجهدة، التي لم تعلم حقيقتها، والنبي ﷺ مستغرق في سبحات تعبداته بالتفكر في جلال الله وعظمة ملكه وملكوته، وبديع خلقه، وعجيب صنعه، وما احتف بها من شدائد الغتّ، أو الغط، الضاغط، ببالغ عصراته، وتكراره بصورة متناهية في العنف إلى أقسى ما يطيقه احتمال رسول الله ﷺ، حتى كان يجيبه بما أجابه به عن استقرائه، افتداءً منه أن يعود إليه بمثل ما صنع به - حريةٌ أن تحدث من الآثار على بشرية النبي ﷺ ما أحدثت مما لم يمس روحانيته ومدارك عقله

بشيء قط، فقد كان وعيه لما ألقي إليه أكمل ما كان، وشعوره بما حدث له أتم ما كان.

العامل الثاني
استحضار أعباء تبليغ الرسالة

واستحضارُ رسول الله ﷺ أعباء ما كُلِّفه، وأثقال ما ينتظره في تبليغ رسالته إلى الخلق، التي لم يكن حينئذ قد بلغ تصوره نهايات جلالها، وعظمة امتدادها في عمومها وخلودها، وفي طبيعة عناصرها، وسائر مقوماتها، وضخامة آثارها في توجيه الحياة، وتغيير أحوال الأفراد والجماعات، والأمم والشعوب، التي أصبحت كلها مدعوة إلى الإيمان برسالته، لتكون دستورهم المحكم في كافة جوانب حياتهم ـ حريٌ أن يحدث من الهزة في كيانه البشري ما أحدث، وهو ﷺ نَهَدَ، وشب، وعاش حياته كلها قبل مبعثه، ثم نُبِّىء وبُعث رسولاً بين قوم كانوا أبعد ما يكونون عن الاستجابة إلى دعوته، وقبول هدايته، والإيمان برسالته، التي تتعارض كل التعارض، وتتناقض أشد التناقض مع ما كانوا عليه من الانغماس في رذائل الوثنية، وجهالة البلادة العقلية، وفساد التفكير، ومهانة الشرك، وشرور المظالم، وبأو العنجهية، وجبروت الطغيان، وتفكُّك الروابط الإنسانية، وتحلل الوشائج الاجتماعية، وسفك الدماء لأتفه الأسباب، ونهب الأموال اغتصاباً، وانحلال الأخلاق، وانتشار الرعب غلاباً والانحطاط الاجتماعي، وضراوة البؤس وشراسة الفقر، وضراعة الذل خوف الاستبداد، وذل الضراعة خشية الطغيان، واستعباد الضعفاء، واستذلال العاجزين، واستغلال المحتاجين، والتعصب القبلي، وتغطرس الكبرياء فيمن يملكون حطام الدنيا من الأموال والمتاع، وشيوع عبيّة الجاهلية ومذامها، والتفاخر بِجِيف الآباء والأجداد، والتعظم برذائل الأخلاق، يقتلون أبناءهم خشية الإملاق، ويمنعونهم أن يؤاكلوهم خشية الفقر، يئدون البنات، ويقتلونهن أحياء على أبشع صورة تسمح بها أغلظ الأكباد وأجمد القلوب، خيفة العار، زعموا، يأكلون الميتة والدم وخشاش الأرض من الخنافس والجعلان والديدان، يجعلون لله تعالى ما يكرهون، وتصف ألسنتهم الكذب، إلى غير ذلك من أسواء الجاهلية وشرورها ومفاسدها التي سجلها التاريخ.

حالة المجتمع العربي في مطلع بعثة محمد ﷺ

وعموم رسالة محمد ﷺ يقتضيه أن يعد نفسه لمعرفة كافة الأمم أفراداً وجماعات في أرجاء الأرض، معرفة علم وخبرة، يعرف عقائدهم، وأخلاقهم، وعوائدهم، ونظمهم الاجتماعية، وطرائق عيشهم وتعاملهم، بل يقتضيه أن يعرف مداخل نفوسهم وطبائعهم ليكون تبليغ رسالته إليهم، ودعوتهم لهدايتها، وتطبيق تشريعاتها ملائماً لما يجب أن يكونوا عليه في ظل هذه الرسالة والإيمان بها، حتى لا تكون هناك نفرة تباعد بينهم وبين الاستجابة لها.

وليس من اليسير على من يدعو إلى إصلاح الحياة إصلاحاً جذرياً في الأمم والشعوب يبدأ من الأساس، من تصحيح العقيدة بتوحيد الله، وإفراده بالتعبُّد له تعالى، وتغيير النظم والأخلاق، وإقامة موازين العدالة والمساواة، وبث روح الثقة والإخاء، وتحقيق المحبة والمواساة بين الناس - إخراجُ الأمم والشعوب مما رسخ في طبائعهم، وقامت على دعائمه حياتهم سنين وأحقاباً، من العقائد والأخلاق والنظم، وإبدالهم به محاسن الشيم والفضائل؛ إلا إذا كان الداعية لهذا الإصلاح العام الشامل على أكبر قدر - يسمو به فوق أقدار من يدعوهم إلى رسالته - من الحكمة، والحنكة، والعلم، والخبرة بالنفوس والطبائع، مؤيداً بقوة قاهرة لقوى الحياة، قوياً في نفسه على تجرع مرارة الصبر، صبوراً على تحمل أفداح ما يلقى من بلاء وإيذاء، عليماً بما سيلقى في سبيل دعوته مقدراً جسامة ما يلقى، معداً له ما يقابله في مواجهة إيجابية، من غير عزلة وتنحّ عن ملاقاة الأحداث.

حالة المجتمع البشري خارج الجزيرة العربية

والذي وصفنا من حال قوم رسول الله ﷺ مَنْ دنا منهم ومَنْ بَعُدَ، لا يمثل إلا أقل القليل من أحوال غيرهم من سائر الأمم والشعوب الذين عاصروهم، فكانوا أسوأ حالاً من قومه الذين نهد بين أحضانهم، ثم بعثه الله فيهم رسولاً إلى الناس جميعاً برسالة عامة خاتمة خالدة، فأولئك كانوا أفسد عقيدة، وأحط أخلاقاً، وأعوج سيرة، وأبعد من الخير والصلاح طرقاً، لأن هؤلاء البعداء أضلَّهم الله على علم، فهم أشد عناداً، وأقسى قلوباً، وأكثر غروراً، وأعمق في الباطل أثراً، وأكثر في الكفر جدلاً، وآنس بالفجور، وآلف للمظالم والشرور، أولئك شرّ مكاناً وأضل سبيلاً.

ففي الشرق كان الفرس وزندقتهم الإباحية، وعبوديتهم للأباطرة، وكفرهم المغرور، وحضارتهم المادية، ووثنيتهم المتهاوية المتهدمة، في بقايا باهتة من الحكمة العقلية التي تناقلوا ألفاظها عن حكيمهم زرادشت وأضرابه ممن عاصره أو سبقه، ولكنهم ضلُّوا عن معانيها وأهدافها.

وفي الغرب الرومان ونظامهم الاجتماعي القائم على الإقطاع الفظيع، والاسترقاق الشنيع، في عقيدة كافرة، يغلِّفها الغموض وتحوطها الظلمات، مع شيوع الترف الفاجر، إلى جانب الفقر المهلك في ظل من التقنين الجائر، والتشريع المستعبد الظلوم.

ووراء هاتين الدولتين أو الأمتين ـ اللتين كانتا تتداولان سلطان الحكم في حياة الناس ـ قطعان من البشرية منتشرة هنا وهناك في الشرق والغرب لا تستهدف من حياتها شيئاً، تعيش وكأنها لا تعرف الحياة، ولا تعرفها الحياة، أشبه بسائمة الأنعام في مراعي الصحارى والوديان.

فما عسى محمد ﷺ يصنع بهذه المجتمعات الإنسانية الشاردة عن حظيرة الهداية الإلّهية، الغارقة في بحار الضلال، السادرة في ظلام الغواية، لينقلها من حال ضلالها إلى هداية رسالته، وهو ﷺ وحيد مفرد، لا يجد إلى جانبه سمَّاعين لكلمة الحق، كلمة الله، قادرين على نصر الله ورسوله، مهتدين بهدى الله وهدى رسوله؟ وما تغني القلة القليلة المستضعفة التي سبقت إلى الإيمان به وبدعوته، وهم يسامـون سوء العذاب ولا يستطيعون الدفع عن أنفسهم، فضلاً عن نصرة عقيدتهم ورسالة رسولهم ﷺ.

موقف المجتمع في الداخل والخارج من رسالة الإسلام

وليت هذا المجتمع الشرير الفاسد وقف منه ﷺ موقفاً سلبياً، فكف عنه وعن الذين آمنوا به على خوف من قومهم يده فلم يؤذه، ولم يؤذهم، بل إنه ﷺ وجد عناداً جاحداً، وجحوداً عنيداً، واستكباراً في الأرض بغير الحق، ومقاومة جائرة، وتألباً ظالماً، وطغياناً ضارياً، وعداوة شرسة، ولدداً كافراً، وخصومة فاجرة، وإعراضاً مدبراً، كأنَّ في آذانهم وقراً، وكأن الحق والهدى عليهم عمى، يثنون صدورهم ليستخفوا منه، صُمٌّ بُكْم عُمْي فهم لا يعقلون.

ورسالته ﷺ تقوم على أساس تقويض بنيان الوثنية بجميع صورها، وكافة أشكالها ـ وثنية الأصنام والأحجار، ووثنية التماثيل والأوثان، ووثنية الحيوان والأشجار، ووثنية الشموس والنجوم والأقمار، ووثنية الرهبان والأحبار، ووثنية الملوك والأباطرة، ووثنية الزعامات والرياسة، ووثنية الاستبداد في الحكم، ووثنية المشيخات وتقديس الأشخاص، ووثنية التقاليد والوراثة، ووثنية المال والثراء الكفور، ووثنية الترف والانحلال، من كل ما يصرف القلب والعقل عن معرفة جلال الله، ويُظْلم الروح فلا ترى نور الله ـ لتبدلهم بكل ذلك عقيدة التوحيد الخالص لله تعالى، فلا يعبد سواه ﴿ ألاَ لله الدين الخالص ﴾.

ولا بد لرسالة محمد ﷺ من أن تقف حاجزاً قوياً يحول بين كافة الناس في أرجاء الأرض وبين رذائل الأخلاق المنتشرة في مجتمعاتهم، لتحويل هذه الرذائل إلى فضائل إنسانية، يحيون بها، ويعيشون في ظلالها، وتحيل تفككهم الاجتماعي روابط أخوية، تجمع كلمتهم على العدل والمساواة في الحقوق والواجبات، يتراحمون بها ويتواسون، ولا بد لها أن تخرجهم من ظلمات الجهالة الفكرية، وخرافات الأساطير، وفراغ الحياة العقلية إلى نور العلم والمعرفة، ونهوض العمل الجادّ الذي يملأ فراغ الحياة بكل خير.

ولا بد لرسالة محمد ﷺ من أن تثير في عقول الناس حركة متحفزة لتبدل الجمود الفكري ثورة عقلية، تنهض بالعقول والأفكار إلى آفاق الكشف عن أسرار الكون وما أودعه الله فيه من عبر وآيات وأسرار.

ولا بد لرسالة محمد ﷺ من أن تطفىء ما يشتعل بين الناس من نيران الفتن والحروب بالقضاء على عواملها وأسبابها من التنافس المتظالم على وسائل العيش من أسوأ طرائقه بغير عمل شريف ولا كسب كريم، فتوجههم إلى التغلب على البؤس والفقر بالعمل الجاد الكريم في شتى مظانه الطيبة.

ولا بد لها أن تغرس في النفوس حب العدالة الاجتماعية، فيعرف كل فرد حقه وواجبه، وتعرف كل جماعة حقها وواجبها، وتعرف كل أمة كرامتها، وتعمل جاهدة على المحافظة عليها، وحمايتها.

ولا بد لها من تربية الناس على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، بالعلم والعمل، والقدوة الحية التي يرى فيها المثل الأعلى للهداية والإصلاح حتى تقوم الفضائل بين الناس مقام القانون.

تمثُّل هذه الأعباء في خاطر رسول الله ﷺ كان سبباً فيما وقع له من الارتياع

هذا التصور الذي ملأ خواطر رسول الله ﷺ لعبء الرسالة، وضخامة مسؤولياتها - إلى جانب مفاجأة المَلَك في الغار، وما حفَّ بها من شدائد - هو الذي بعث في نفس رسول الله ﷺ الانفعال الذي هزَّ كيانه فرجف منه فؤاده، وأُرعدت بوادره، وخشي على نفسه بعد ارتياعه من المفاجأة الملائكية ألّا تقوى بشريته التي لا بد له من أن يواجه الناس بها في تبليغ دعوته على تحمُّل أعباء ما شرّفه الله به من رسالته.

وقد تمثل في خاطره ﷺ ما لا بدّ له من التعرُّض له في سبيل قيامه بحق دعوته من عداوة الذين جعلوا من الشرور ومفاسد الحياة عُدَّتهم وعتادهم، وقد يكون دار في خلده ﷺ تساؤل مع نفسه بعد هذا التصور الضخم، المتزاحم بصور الأحداث، هل تقوى طبيعته البشرية التي يواجه بها الناس في دعوتهم إلى الاستجابة للإيمان برسالته وتقبل هديه على تحمُّل ما يصيبه من فوادح البلاء والمحن؟.

وهل يستطيع أن يصبر على ما يلقى من أذى، يبلغ به ما يبلغ في سبيل تبليغ رسالة ربه إلى كافة الناس في أرجاء الأرض، وهل يستطيع أن يدافع الذين يقفون في سبيله - وهو ماض في دعوته إلى الله - معوقين سير رسالته؟ وهل يستطيع أن يقاوم الذين يقاومون رسالته بكل ما يملكون من قوى شريرة ظالمة؟.

تصوير وتفسير ارتياعه وخشيته على نفسه ﷺ

كل ذلك - منذ اللحظة التي فَجِئه فيها الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيما لم يُعلم من الصور والشكول والأحوال وبغته بطلب القراءة والغط ثلاث مرات، حتى بلغت منه ما بلغت من الجهد، إلى تصوره ﷺ لعبء عموم رسالته الذي توالت عليه نصوصه وأوامره في كثرة من السور المكية السوابق، فكانت من أول الأمر مقصورة التبليغ، مرعية الأعباء، وتصوره لحالة المجتمع البشري الخاص بقومه، والعام في أرجاء الأرض،

الذي يوجه إليه دعوته، ويبلغه رسالته، وتصوره ﷺ لما يجب عليه من القيام بحق تبليغ رسالته، وما يجب أن تحققه هذه الرسالة في حياة المجتمع من إخراجه من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية ـ هو الذي رجف من أجله فؤاد رسول الله ﷺ، وهو الذي أُرعدت من تصوره بوادرُه، فرجع بما حُمِّلت نفسه الكريمة من آثار ذلك كله إلى بيته، وزوجه الأمينة، وزيرة الصدق، ومأنس الوفاء، يبدي لها ما ساور نفسه ودار بخَلَده، ومارأى وما سمع، وما سيلاقي في غمرة حياته الجديدة، حياة النبوة والرسالة بكل ما فيها من محن وشدائد وأهوال تذيب رواسي الجبال.

وهذا هو ما خشي على نفسه منه ﷺ، فقد أرعبته مفاجأة المَلَك، وهو ﷺ في سكون خلوته، وهدوء متعبده، وسَبْح فكره في ملكوت الله، واستغراق روحه في أنوار مطالعة بدائع صنع الله فهزَّت هذه المفاجأة بشريته ﷺ هزة عنيفة، وحُق لها أن تهزها، لأن اللقاء المفاجىء بين طبيعتين بينهما غاية التباين في عناصر تكوينهما لا يمكن أن يتحقق دون مظهر من مظاهر عدم التكافؤ في قوى الطبيعتين ومجلى صور لقائهما.

فإحدى الطبيعتين المتلاقيتين لقاء مغافصة روحانيةٌ عالية خالصة، لها في الملأ الأعلى وعالم الروحانيات مكانها الأسمى، ومقامها الأعلى، هي طبيعة الروح الأمين جبريل عليه السلام الذي وصفه القرآن الكريم بأنه (شديد القوى ذو مِرَّة) ووصفه بـ (ذي قوة عند ذي العرش مكين).

والطبيعة الثانية بشرية، لها خصاص الطبائع البشرية المادية، بروحانيتها المقيدة بخصائص البشرية المادية، وهذه الروحانية هي مبعث الحياة في الطبيعة البشرية، تمدها بألوان من خصائصها الروحية في الإدراك، والتفكير، والشعور، هي طبيعة محمد بن عبدالله ﷺ الذي وصفه القرآن الكريم بأنه ﴿ رؤوف رحيم ﴾.

وقد حفَّ بهذه المفاجأة أمور من شدائد هذا اللقاء التي لا تطيقها طبيعةٌ بشريةٌ مهما كانت قوتها في دائرة بشريتها، كل أمر منها بمفرده حريّ أن يفزع ويرعب أقوى القوى البشرية، وهي قد اجتمعت على محمد ﷺ في

مفاجآت متتاليات متتابعات عرف منها أن الله تعالى اصطفاه رسولاً إلى الناس كافة، ليخرجهم من ظلمات حياتهم المتراكمة في حظائر الشرور والفساد إلى نور الهداية والرشاد.

وفي غمرة هذا الفزع الطبيعي، وقد تيقَّن محمد ﷺ اصطفاءه للرسالة العامة الخالدة، استوعبت مداركه وإحساساته ومشاعره تصور أعباء القيام بحق ما اختير له رسولاً، فخشي ألا يقوى على القيام بحق تبليغ رسالته، وخشيَ أن يشغله ما سيقع بينه وبين الناس حين يدعوهم إلى الله وإلى هَدْيه - وهم على ما هم عليه من ضلالة ضالّة - عن مطالعات تجليات شهود جلال الله والاستغراق في أنوار جماله العلي، بعدما تذوَّق بروحانيته الخاصة الوليدة في جو المفاجآت، بميلاد رسالته لذائذ هذا الشهود.

فرجف فؤاده، وأُرعدت بوادره، واهتز كيان بشريته، وأخذته سبحات فكرية في التطلع إلى فضل الله ورحمته يلتمس في حناياها برد عين اليقين، بتنزل إنعام الله عليه بالعون المسدد والنصر المؤزر، والنُّجح المؤثل.

* * *

لا يُفسَّر كلُّ ما يتعلق بالنبوة والوحي إلا في دائرة عصمة الأنبياء عليهم السلام

فكل ما كُتب، وكُل ما قيل في بيان أسباب رجفة فؤاده ﷺ وإرعاد بوادره، وكل ما قيل في تفسير ما أبدى لزوجه الأمينة الوفية السيدة خديجة حين عودته إليها من متعبده الذي حدث له فيه ما حدث، من خشية على نفسه غير ما قدمناه وما يجري مجراه في الحفاظ على قداسة النبوة وجلال الرسالة، كلام لا يليق ولا ينبغي أن يدوَّن في سجل نبوة محمد ﷺ خاتم النبيين، وسيد المرسلين، ولا يليق ولا ينبغي أن يكتب في صحائف رسالته الخالدة.

كما لا يليق ولا ينبغي أن يروى الكثير مما قيل تفسيراً لأحداث بدء الوحي، وميلاد الرسالة الخاتمة الخالدة مضافاً إلى الأحاديث النبوية، تزيداً بشيء لم يثبت عن النبي ﷺ أنه قاله أو حدَّث به عن نفسه، مهما يكن شأن قائله، وراويه.

وهذا موقف ضنك، صعب المرتقى، زلق المنحدر، لا يعرف ما دار فيه إلا صاحب شأنه محمد ﷺ، فإما علم عن يقين، وإما صمت أمين.

وفي بعض ما قيل هنا كلام لا يقوله من يرجو لله وقاراً في شرف النبوة عامة، ونبوة محمد ﷺ خاتم النبيين خاصة، ولا يقوله من يقدِّر جلال رسالات الله حق قدرها، ويعرف للمشرَّفين بها من المصطفين الأخيار مكانتهم عند الله.

التحذير من الانزلاق في قبول أغلاط الأكابر

وقد تحسن المقاصد والنيات، وتخطىء الأفكار والتصورات، وأغلاط الأكابر كبائر مَغْفُوَّة حملاً لها على سلامة القصد، ولكن لا يجوز ـ ديناً وعقلاً ـ أن تترك هذا الأغلاط تمشي إلى عقول الناس وقلوبهم فتهز عقائدهم، وتعرِّض إيمانهم لأعاصير الشكوك والريب، وتفتح للمتقوِّلين على الله ورسله، الجاحدين للديانات من أعداء الحق والخير، الحاقدين على رسالة الخلود، الخاتمة لرسالات السماء، رسالة محمد ﷺ، وما أكثرهم في حرد البهتان ـ أبواب المطاعن، والأباطيل، ومنافذ لتشكيك الذين لم تنفذ عقولهم إلى أعماق التفقه في فهم رسالات السماء، من الشباب الغض الذين لم يتح لهم دراسة دينية واعية، من أنصاف المثقفين الذين أخذوا ثقافتهم عن الملاحدة الملفقين.

النبوة أجل مراتب الحياة فلا يختار لها إلا الكملة الأعلون

فالنبوة أجلّ مراتب الحياة الإنسانية، وأعظم منازل المقربين عند الله، والله تعالى في جلال عزه وكَبرياء قدسه لا يصطفي لنبوته ورسالاته من الناس إلا أكملهم عقولاً، وأقواهم نفوساً، وأضوأهم أرواحاً، وأنورهم قلوباً، وأثبتهم جأشاً، وأقدرهم على القيام بحق ما اختيروا له من النبوة والرسالة، فلا يمكن أن يعرِّضهم لما يخدش كمالاتهم البشرية، أو يمس من قريب أو بعيد مشاعرهم وإحساساتهم، أو ينقص من أقدارهم في خصائص البشرية السوية، في استقامة الخَلق والخُلق، وحسن العمل، ونظافة السلوك، وطهارة الباطن، لأنهم القدوة التي أمر الناس بمتابعتهم في جميع ما يصدر عنهم مما يدخل في دائرة التكاليف الشرعية، فلا يجوز مطلقاً أن يصدر عنهم أو ينسب إليهم ما يجعل الاقتداء بهم شرخاً في بناء الاستقامة السلوكية، يجعل شرائع

الله ورسالاته عرضة لطعن الطاعنين، وانحراف المنحرفين، ويشبّه على الناس طرائق الاقتداء في الخير والهدى والرشاد.

رسالة أكمل الأنبياء أكمل الرسالات الإلهية

ورسالةُ أكمل الأنبياء محمد خاتم النبيين ﷺ أكمل رسالات الله إلى خلقه، فلا يمكن لمن يعرف لهذه الرسالة الخالدة قدرها أن يتصور في المرسل بها، وحامل أمانتها أن يتعرض لما يمس كمالات بشريته، ولا أن يمس أي جانب من جوانب شخصيته في أطوار رسالته وتكاليفها.

وفي قول الله تعالى: ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ عقيب قوله تعالى: ﴿ ما قَدَروا الله حقَّ قدره إن الله لقوي عزيز ﴾[1] إشارة لمّاحة إلى أن تجويز ما يمس قدسية رسالات الله في أشخاص حملتها من المصطفين من الناس بعيد أقصى البعد عن معرفة جلال الله، وقدره ـ سبحانه ـ حق قدره في علمه بحال من هم موضع حفاوته، واختيارهم سفراء بينه وبين خلقه، يبلّغونهم رسالاته، ويدعونهم إلى معرفته وتوحيده والعمل بأحكام شرائعه، وحياطة لأقدارهم، وحفظه لكمال ما كملهم به من أفضل الفضائل وأكمل الكمالات.

فما بالنا برسالة أكملهم كمالاً، وأفضلهم فضلاً، وأعلاهم قدراً، وأشرفهم شرفاً، وأقربهم قرباً، وأرفعهم منزلة، وأعلمهم بالله، وأتقاهم لله، وأخشاهم لله، وأكرمهم على الله، وأعزهم عند الله، وأهداهم سبيلاً، وأعمهم رسالة، وأشملهم دعوة إلى الله، وأحكمهم حكمة، وأيسرهم هدى، محمدٌ رسول الله ﷺ، خاتم النبيين وسيد المرسلين.

* * *

أم المؤمنين السيدة خديجة كانت أعرف بقدر محمد ﷺ

لقد كانت أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها الزوجة الأمينة الوفية بفطرتها الأصيلة أعرف الناس بقدر محمد رسول الله ﷺ، وأعلمهم بجلال رسالته، وعظمة نبوته، وأشدهم إيقاناً بمقامه عند الله.

فهي رضي الله عنها إذ يعود إليها ﷺ من متعبده وخلوته إثر مفاجأة الملَك

(١) سورة الحج، آيتا: ٧٤ ـ ٧٥.

له في غار حراء، ويتحدث إليهم، بعد أن استراح متزملاً، متدثراً في فراشه لتهدأ نفسه الكريمة من هول ما كابدت من عناء المفاجـأة وما احتف بها من الغط الجاهد المجهد، الذي هز بشريته هزاً بالغ الأثر في بدنه، ويقول لها: «أي خديجة: مالي؟ لقد خشيت على نفسي» ويخبرها خبر ما رأى وما سمع، يخبرها عن مجيء المَلَك له في غار حراء، ومفاجأته بهذا المجيء، وما جرى له معه من طلب القراءة والغتّ، وتكرار ذلك بأقصى ما تحتمل طاقته البشرية، وهو ﷺ ـ بلا شك ـ كانت بشريته ترزح تحت وطأة التعب المادي من شدة ما لقي في هذا اللقاء المفاجىء من هزة وارتياع، بمقتضى دواعي الطبيعة البشرية أينما كانت وكيفما كانت من الحياة في أرض الله ـ تسارع إلى إيمانها الفطري، وإلى معرفتها بسنن الله تعالى في خلقه، وإلى يقينها بما يملك محمد ﷺ من رصيد في مكارم الأخلاق، وفضائل الشمائل، ليس لأحد من البشر رصيد مثله في حياته الطبيعية التي يعيش بها مع الناس، وإلى ما ألهمت بسوابق العناية الربانية التي شهدت آياتها من حفاوة الله تعالى بمحمد ﷺ في مواقف لم تكن من مواقف النبوة والرسالـة، ولا من إرهاصاتها المعجزة، وأعاجيبها الخارقة، ولكنها كانت من مواقف الفضائل الإنسانية السارية في حياة ذوي المكارم من أصحاب المروءات في خاصة البشر.

فتقول له ـ مستلهمة إيمانها الفطري، ومعرفتها بسنن الله في الخلق، وما يملك محمد ﷺ من رصيد المكارم الإنسانية ـ: كلاَّ، أي لا تخشَ شيئاً يعوقك عن الوصول إلى ما أُريد بك من الخير والشرف، وإنك لبالغ من فضل الله وإنعامه ما يبلغك أهداف ما حملت من أعباء الحق والهدى، ولن يخزيك الله أبداً، لأنه أعدك بما ألبسك من خلع المكارم الإنسانية، لتكون موضع نظره الرباني، ورعايته الصمدانية، فقد جمَّلك بأصول المكارم التي لا يمكن ـ في شرعة سنن الله الكونية ـ أن يخزى من يُحلَّى بها.

كلمات النور عنوان على الكمال المحمدي

إنك لتصدق الحديث، وتصل الـرحم، وتحمل الكَـلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وتؤدي الأمانة.

وهذه الكلمات المشرقة بنور الإيمان الفطري، النابعـة من ضمير

الغيب، إلهاماً من وحي اليقين بمخايل الحقيقة الكبرى في تصور مستقبل محمد ﷺ، تضيف إلى يقين النبي ﷺ وثباته أمام الأحداث، ورباطة جأشه في ملاقاتها، تثبيتاً يزيده قوة إلى قوته، ويسرّي عنه ما ألمَّ بخياله، ويمسح عن خواطره ما عسى أن يكون طاف بها من تخوف العقبات في سبيل انطلاقه برسالته، بل إن خديجة رضي الله عنها تريه بهذه الكلمات المشرقة أنها تستبعد كل الاستبعاد ما هجس في نفسه ﷺ إشفاقاً أن تضعف قواه البشرية عن تحمل أثقال ما حُمِّل من أعباء الرسالة، وحرصاً منه ﷺ على تمكنه من تبليغ رسالة ربه، وتخطي ما تصوره من العقبات في سبيل ذلك التبليغ.

وتضيف هذه الكلمات المشرقة إلى ما تحلَّى به ﷺ من قوة اليقين والصبر ضروباً من المصابرة تزيد في شحنة عزيمته على المضي قدماً في طريق أداء واجبه نحو هذه الإنسانية المعذبة في الأرض، ليخرجها من ظلمات العبودية الوثنية بصورها وأشكالها الكافرة بتوحيد الله تعالى، وإفراده بالتعبد له وحده، إلى نور التحرر والمساواة الإنسانية في الحقوق والواجبات.

وكانت كلمات الإيمان الفطري ـ من الزوجة الأمينة الوفية، وزيرة الصدق، ومأنس القلب والروح، أعقل نساء العالمين ـ تستشرف أفق مستقبل محمد رسول الله ﷺ في أطوار رسالته بأمل فسيح أفيح، موصول بأخص عناصر حياته الخلقية، وأفضل فضائل الإنسانية النبيلة مجموعة في طبيعة إنسان، ولد بها، وشب واكتهل عليها فكانت معالم لشخصيته بين قومه، يعرفونه بها عَلَماً مفرداً في اكتمالها فيه، وكماله فيها ولم يعرف فيهم أحدٌ اجتمعت له هذه الخصال دون أن يشوبها إفراط يخرج بها عن مقاييس الفضائل، أو يلحقها تفريط يقصِّر بها عن مدى محاسن الشمائل.

والماضي ـ أبداً ـ في حياة المصطفين المخلصين صحيفة تكتب فيها الحياة بقلم الغيب المكنون أنباء معالم مستقبلهم في رسالاتهم، والقادرون على قراءة ما كتب قلم الغيب في صحيفة المصطفين ليقرأوا في ضوئها معالم مستقبلهم أندرُ في وجودهم من وجود العقل الشفيف الذي يستشف بخاصة إدراكه ما وراء الحجب، فيلمح خيط القدر الحكيم، وهو يربط ماضي من

اختير لحمل أعباء الرسالة الإلّهية بمستقبله المشرق بنور المدد الإلّهي، ولن تظهر لهذا العقل الشفيف في استشفافه نقط المحن وفوادح النوازل على رقعة حياة هؤلاء المخلصين، لأن أشعة العزائم المنبعثة من آفاق رسالاتهم، وقوة الحق الممددة لأرواحهم تغطّي بظلالها النورانية نقط المحن ونوازل البلاء، فلا يراها الناظرون إلا ريثما يتحفز المخلصون إلى وثبات الإقدام في طريق عزائمهم المؤيدة بقوى الحق والخير، المستضيئة بنور الهدى والرشاد.

تفاضل الأنبياء والرسل بتفاضل رسالاتهم

ويتفاضل المخلصون في ذلك بتفاضل رسالاتهم، كما أخبر بذلك القرآن الكريم فقال الله تبارك وتعالى: ﴿ تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض ﴾[1] وقال عزَّ شأنه: ﴿ ولقد فضّلنا بعض النبيين على بعض ﴾[2] فيعطي كل صاحب رسالة من الفضل وقوة الصبر والمجاهدة على قدر رسالته، وما جعل الله فيها من عموم الخير والإصلاح والهداية، فعموم رسالة محمد ﷺ تشريعاً وزماناً ومكاناً، وأجيالاً، وإصلاحاً جعلها أفضل الرسالات الإلهية، وجعل رسولها أفضل رسل الله، وجعل أمته أفضل الأمم كما قال تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾[3] وذلك لما أعطيت من فضيلة الوراثة في التبليغ ضماناً لخصيصة العموم والخلود في رسالته، فكان له ﷺ من فضل قوة الصبر والاحتمال ما تميز به في مستقبل دعوته.

ومن ثم قال ربه تبارك وتعالى: ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾[4] فهو ﷺ مكلَّف أن يجمع إلى صبره صبر جميع أولي العزم من المرسلين، وإلى عزيمته في القيام بحق رسالته قُوى عزائمهم في قيامهم بحق رسالاتهم.

ومن هنا قيل له بعد ذكر الأكابر من المرسلين في معرض الثناء عليهم، والحفاوة بهم، وأن الله آتاهم الكتاب والحكم والنبوة: ﴿ أولئك الذين هدى

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٣.
(٢) سورة الإسراء، آية: ٥٥.
(٣) سورة آل عمران، آية: ١١٠.
(٤) سورة الأحقاف، آية: ٣٥.

الله فبهداهم اقْتَدِه ﴾[1] فهو ﷺ مأمور من ربه أن يجمع إلى هداه هدى أولئك الأكابر من المصطَفين المخلصين.

فالسيدة خديجة رضي الله عنها كانت صفوة الندرة في إلهامها قراءة ما كتب قلم الغيب في صحيفة ماضي محمد ﷺ من أنباء معالم مستقبله في رسالته، فترجمت بكلماتها النورانية عنوانات تلك المعالم في مستقبله نبياً ورسولاً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

ولهذا كانت السيدة خديجة رضي الله عنها في سجل الرسالة المحمدية نفحة من نفحات المدد الإلهي لم تتكرر ولن تتكرر، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

* * *

نظرات تحليلية في كلمات النور

قالت خديجة لمحمد ﷺ - وهي ترد على تساؤله الذي بدا فيه من الإشفاق على مستقبل دعوته التي كُلِّف تبليغها إلى الأحمر والأسود، تستبعد ما عسى أن يكون قد خطر في خواطره -: كلاَّ، يا أكمل الكملة، لن يقع لك ما تتخوفه على نفسك الزكية العلية من ضعف عن تحمل أعباء ما شرفك الله به من رسالة الخلود، ولن تعجز عن القيام بموجبات تبليغها، لأن الله تعالى هو الذي اختارك لها، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وقد فطرك على أفضل ما فطر عليه أحداً من خلقه، فلن يخزيك أبداً، ولن يحزن قلبك العظيم بوقوع شيء مما تشفق منه وتخافه على نفسك، لأن فيك من خصال الجبلَّة الكمالية ومحاسن الأخلاق الرضية، وفضائل الشيم المرضية، وأشرف الشمائل العلية، وأكمل النحائز الإنسانية ما يضمن لك الفوز ويحقق لك النُجح والفلاح، وستظفر بطلبتك وتؤدي رسالتك، ويخلد ذكرك.

النورانية الأولى صدق الحديث

(١) فأنت الصدوق المصدَّق، وأنت الصادق الأمين، تصدق الحديث سجية، فلا يرد لك قول بشبهة مجانبة الحقيقة والواقع، فإذا قلت، قالت

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٩٠.

الدنيا من حولك: صدقت، فما جرب عليك أحد كذباً، فلا يماريك أو يجادلك فيما تقول ممار أو مجادل.

كيف وقد عرف لك ذلك قومك على صلفهم وعنجهيتهم، وخلافك عليهم في عوائدهم ووثنيتهم، فدعوك بينهم (الأمين) لا يعرفون لك لقباً غيره، وقد جهروا علانية في جمعهم معترفين له بهذه الخصلة النبيلة، خصلة الصدق في الحديث، شاهدين على أنفسهم له بها، حينما جمعهم لينذرهم قياماً بأمر الله في قوله تعالى: ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾[1] فيما يرويه البخاري عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: «يا صباحاه» فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم».

وقد اعترف له بها طاغية الشرك، وقائد جحافله لحربه قبل أن يسلم: أبو سفيان بن حرب، كما جاء في حديث هرقل عند البخاري، قال أبو سفيان يحكي سؤال هرقل له عن أحواله وخلائقه ﷺ: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: قلت: لا، ثم قال هرقل يستعيد أسئلته لأبي سفيان وأجوبة أبي سفيان عنها، على مسمع وبينة من مشهد ركب قريش ليؤكد ما قيل: وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت: أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن لِيَذَر الكذب على الناس، ويكذب على الله.

وقد سجل القرآن الكريم على هؤلاء المعاندين الذين يعترفون بالحق، وهم يكفرون به جحودهم وعنادهم بطراً واستكباراً، روى الطبري وغيره من حديث طويل أن الأخنس بن شريق التقى بأبي جهل، فخَلَا به فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد، أصادق أم كاذب؟ فإنه ليس ها هنا من قريش غيري وغيرك، يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك والله إن محمداً

(١) سورة الشعراء، آية: ٢١٤.

لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لقريش، فذلك قول الله تعالى: ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾[1].

وفي حديث أبي ميسرة أن رسول الله ﷺ مرَّ بأبي جهل وأصحابه، فقالوا: يا محمد والله ما نكذبك، وإنك عندنا لصادق، ولكن نكذب ما جئت به، فنزلت الآية.

وصدقُ الحديث ينزل من الفضائل الإنسانية ـ التي تتخذها الحياة معبراً إلى إدراك قصى الغايات للنفوس السامية، المتسامية بسموها عن مطالب الأرض، وصغار الأماني ـ منزلة العنوان من الكتاب، يستسرع الناظر إليه إلى تعرف ما طوي عليه الكتاب من حقائق الفكر في متقلبات الحياة، أو منزلة الطرة من ناصية الغيداء، تجذب إليها أنظار المتطلعين الذين يستشرفون أنوار الجمال من آفاق الحياة.

فإذا كان الصدق سجية في حياة إنسان كان صدقه الذي لا تشتبه معالمه آية من آيات الله على أنه إنسان اكتملت خصائصه، واتسقت عناصر إنسانيته، فلا تميله الأهواء، ولا يخدعه غرور الحياة، فكلمته فصل، وقوله فرقان مبين.

وهكذا كانت سجية صدق الحديث في حياة محمد ﷺ، وهو يعيش بين أحضان مجتمعه إنساناً كغيره من رجالات قومه، لا يميزه عن آحادهم في عيشه وكده في سعيه ثراء مالي، ولا بطش بدني، ولا تسلط فكري، وإنما كان امتيازه بينهم أنه المثل الأعلى لمعالي المكارم، ومكارم المعالي، يعرفونه بالصادق الأمين أكثر مما يعرفونه باسمه، لا يمسهم في محافل رذائلهم، ولا يقرُب من أندية وثنياتهم، ولا ينزل من علياء استقامته إلى مباءات مفاسدهم وشرورهم، تسامى بنفسه ـ وهو بينهم كأحدهم ـ عن كل ما يخدش سيرته، أو يقتحم عليه سريرته، عاشرهم في شوارف حياتهم، وخالطهم فيما يأثرون من مفاخر الفضائل الإنسانية فيهم.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٣٣.

فكانت سجية صدق الحديث فيه عنواناً على ما طوى الغيب في كتاب مستقبله في رسالته الخالدة، وكشفت إشراقات إيمان أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها عن مضامين ما طواه العنوان من جميل صنع الله به في أفضاله عليه بإحسانه إليه، وإسباغه أجلّ نعمه عليه، إذ أرسله رحمة للعالمين.

وكشفت تجارب هرقل في مخابر علمه ومعرفته بالعلم الأول وبشائر العارفين من أحباره ورهبانه عن أثر القوة المعبِّرة في تقمص الفطرة الصافية لفضيلة صدق الحديث في دلالتها على ما استبان له من صحة دعوة محمد ﷺ أنه رسول من الله إلى العالمين، فأنطقه الله تعالى بكلمة الحق، حيث قال لأبي سفيان ومن معه من قريش في مشهد من حاشيته وبطارقته: لم يكن - أي محمد ﷺ - لِيَذَر الكذب على الناس ويكذب على الله، ثم قال هرقل تأكيداً ليقينه في صدق محمد ﷺ: فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشّمت لقاءه؛ ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

وكان القضاء لسوابق الأقدار، فبقي هرقل - مع هذا اليقين بصدق محمد ﷺ في نبوته ورسالته - مسربلاً بنصرانيته، مغلولاً بسلاسل ملكه.

وطارت خديجة رضي الله عنها بأجنحة الإيمان، وصدق المحبة، ويقين التوسم إلى ربض عليين، حيث أعد الله لها ما أعده للصديقين، والله يهدي من يشاء من عباده بفضله ويضلّ من يشاء بعدله وهو العزيز الحكيم.

النورانية الثانية صلة الرحم

(٢) وأنت يا أبا القاسم - صلوات الله وسلامه عليك - وصول للرحم، وصلةُ الرحم فضيلة إنسانية من أفضل وأشرف الفضائل الاجتماعية التي تربط الأفراد والأسر بوشائج الود والإخاء، تقرِّب البعيد، وتدني القصيّ، وترد الشارد، وتغسل الأحقاد، وتزرع المودات.

وتتجلى هذه الفضيلة الإنسانية في حسن المعاملة، وإحسان العشرة، ومشاركة البر، ومواساة الإحسان، وإيثار الفضل في المنافع، مع نقاء السريرة وبهجة العلانية، ومعاونة المحتاج، وتبادل الخيرات، والعفو عن الزلات.

وهي أقدر الفضائل على توثيق عرى المحبة بين ذوي القربى، تجمع

القلوب على الصفاء وتشدّ أواصر التآخي، تجمع حول من يتحلى بها، ويبذل في سبيلها الجود والرحمة، ينفق مما ملكت يمينه، ويبذل في غير مَنّ ولا رياء ـ ذوي رحمه وقرابته، بالتعاطف والتراحم، وسماحة المكارم، فيحبونه، ويحبون الخير عنده، يدافعون عنه إذا حاول أحد النيل منه، يبادلونه المنافع في غير أثرة ولا طمع، يخلصون له الود، ويشاركونه بأساءه ويقاسمونه سراءه يفرحون لفرحه، ويألمون لألمه، إن أحزنه شيء تعرفوا مصادره فدرؤوها عنه إن استطاعوا، فإن لم يستطيعوا كانوا معه في أحزانه حتى يسرّى عنه.

كذلك كانت هذه الفضيلة الاجتماعية مغروسة في خلائق محمد ﷺ، تجلَّت آثارها واضحة في حياته قبل نبوته، فأحبه قومه، وأخلصوا الودّ له، يتنافسون في التقرُّب إليه، وهم أشرف أرومات العرب الذين تدين لهم بطونها وقبائلها بالإعزاز والاحترام.

والتفوا حوله بعد نبوته وهم لم يؤمنوا برسالته، وقد صدقوا في استجابتهم لدواعي هذه الفضيلة من محاسن شمائله، فدخلوا معه في حصار الشِّعب، مَنْ آمن منهم بدعوته، ومن لم يؤمن، وصبروا على بلاء هذا الحصار الظلوم وجهده، واحتملوا فيه ما حُملوا من الإجاعة والقطيعة وجهد البلاء، لا لمجرد العصبية القبلية والنخوة الجاهلية، فقد أبى أن يشارك في هذه المحنة القاسية أقرب أقربائه، وهم أشد العرب حمية جاهلية وتعصُّباً قبلياً، ولكن الذين قبلوا أن يستظلوا بلوائه في الترابط الرحمي إنما صنعوا ذلك تحقيقاً لمقتضيات التواصل مع من عرفوه أوصل الخليقة للرحم، وأبرّ الناس بذوي القربى، محمد ﷺ الصادق في وده ووصله، الأمين في حفاظه لوشائج القربى والرحم.

وفي حديث مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فعمَّ وخصَّ، فقال: «يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت

محمد أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً، إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلالها». ومعنى ذلك أن كفركم وعدم قبولكم لدعوتي، والإيمان برسالتي، لا يمنعني من صلة رحمكم في الدنيا، ولا أغني عنكم في الآخرة من الله شيئاً لأن صلة الرحم ومودة ذوي القربى من أصول المكارم الإنسانية التي لا يحول دونها ـ في شرعة الفضائل ـ كفر ولا عصيان.

وفي حديث آخر أن النبي ﷺ قال: «بُلُّوا أرحامكم ولو بالسلام» وهذا من لطيف الاستعارة وجوامع الكلم، يقول ﷺ: ندّوا أرحامكم وصلوها بالمودة والإحسان، ولو بأدنى ما لا يعجز عنه أحد، ولا تقطعوها فتيبس وتجف وشائجها، قال ابن الأثير في النهاية: وهم يطلقون النداوة على الصلة، كما يطلقون اليبس على القطيعة، لأنهم لما رأوا بعض الأشياء يتصل ويختلط بالنداوة، ويحصل بينها التجافي والتفرق باليبس استعاروا البل لمعنى الوصل، واليبس لمعنى القطيعة.

ولأمر ما جاء التنويه بشأن هذه المكرمة من أصول مكارم الأخلاق لموضعها من سجايا رسول الله ﷺ في القرآن الكريم في قول الله تبارك وتعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾[1]، فقد جعلت الآية الكريمة المودة في القربى وصلة الرحم أقصى ما يطلبه رسول الله ﷺ أجراً ومكافأة من قومه على ما جاءهم به من هدى وخير، فهو لا يسألهم مالاً يرزؤهم به، ولكنه يطلب إليهم أن يوادّوه ويصلوا رحمه بأرحامهم. قال الإمام ابن كثير في تفسير الآية: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالاً تعطونيه، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني وتذروني أبلغ رسالة ربي، إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة. وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال لهم رسول الله ﷺ: «لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تودوني في نفسي لقرابتي منكم، وتحفظوا القرابة بيني وبينكم» وروى البخاري عنه قال: إن

(١) سورة الشورى، آية: ٢٣.

النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة.

وهذا تعظيم لفضيلة صلة الرحم، وهي خليقة من خلائق محمد ﷺ التي وصفته بها زوجه الأمينة الوفية خُلقاً قبل أن يبعث للناس رسولاً.

وقد جاءت رسالته ﷺ تحمل في هدايتها، وآدابها، وأخلاقها ترغيباً في التخلق بهذه المكرمة العظيمة بما لم تظفر به فضيلة من الفضائل الإنسانية التي ينتظمها عقد الفضائل الاجتماعية التي تربط وشائج المجتمع بأوثق عرى المودة والمحبة، فالقرآن الكريم يقرن تعظيم هذه الفضيلة بتعظيم الله جلّ شأنه في طلب اتقائه فيقول في مفتتح سورة النساء: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾، ويجعل قطعها وعدم وصلها عنواناً على الفساد في الأرض الذي تتقطع به حبال المودات والتآخي الإنساني، مما تتولد عنه الضغائن والأحقاد وسفك الدماء والمغالبة على المنافع والتظالم في جمعها، فيقول الله عزّ شأنه: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطِّعوا أرحامكم﴾[1]، وقد فسَّر النبي ﷺ الآية بما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ: «خلق الله تعالى الخلق، فلما فرغ منه، قامت الرحم فأخذت بحقوي الرحمن عزّ وجلّ ـ هذا تمثيل لمقام المستجير بمن يجيره من البغي والظلم ـ فقال: مَهْ: فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة ـ هذا يفسر التمثيل السابق ـ فقال تعالى: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاكِ لك. قال رسول الله ﷺ (اقرأوا إن شئتم ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطِّعوا أرحامكم﴾ وفي رواية للبخاري أن الذي قال: اقرأوا إن شئتم، وتلا الآية؛ هو أبو هريرة رضي الله عنه.

وقد جعل النبي ﷺ عقاب قطيعة الرحم عِدْلاً لعقاب البغي وفجور الظلم، أخرج الأئمة أحمد، والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه عن النبي ﷺ

---

(١) سورة محمد، آية: ٢٢.

قال: «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخـرة من البغي وقطيعة الرحم».

وعلى الجملة فهذا التعظيم لشأن فضيلة صلة الرحـم التي جاءت في كلمات النور، إلهاماً للسيدة خديجة رضي الله عنها وصفاً لما تحلّى به محمد ﷺ من أصول المكارم التي لا يخزي الله جلّ ذكره من حلاه بها جبلة وطبعاً ـ ليس فوقه تعظيم لمكرمة من أصول المكارم الجبليَّة التي يهبها الله خُلُقاً وطبعاً لمن يشاء من عباده، لتكون له في حياته منائر يهتدي بها إليه المهتدون.

النورانية الثالثة تحمُّل الكَلّ

(٣) وتحمل الكل ؛ كلا، يا أبا القاسم ـ صلى الله عليك وسلم ـ فليفرغ روعك، ولتهدأ نفسك، فلن يخزيك الله أبداً، ولن يحزنك الله أبداً، وإنك لبَالغ بتوفيق ربك ما كتب لك في لوح الغيب من رفعة الذكر وبلوغ الأمل، فقد حلاّك منذ خلقك فريداً في نحائزك ومكارم أخلاقك بما جعل لك به في كل قلب مكاناً من السؤدد والسمو والحب.

أليس قد حلاك بمجامع الرحمة، ومعاقد الرأفة، وعواطف الإحسان والإيثار، والشفقة على خلقه؟ فجعل في مكارم أخلاقك الكريمة أنك (تحمل الكَلّ) الضعيـف الذي أعجزته الأيام والليالي، وأقعدته صروف الحياة عن النهوض بحال نفسه، فلم يستطع مزاحمة الضاربين في الأرض سعياً وراء متطلبات الحياة، ولم يستطع أن يقوم بضرورات عيشه إلا إذا أعانه ذو مقدرة من أهل المروءات وأصحاب المكارم، الذين يفعلون الخير لأنهم يرونه خيراً، وأنت يا أبا القاسم ـ صلى الله وسلم عليك ـ ذلك الكريم الذي فطره الله رؤوفاً رحيماً، فلن ترضى نفسك الكريمة وقلبك الرحيم أن ترى ضعيفاً أثقلت كاهله الحياة، فتخلف عن مسيرتها دون أن تمد إليه يد الرحمة بما ينعشه وينهض به في غير مَنّ ولا أذى.

والإحسان ـ أبداً ـ آسر لمن يقع عنده موقعه، وهؤلاء الضعفى الذي تنعشهم يـدك الرحيمة، وتمسح عن كـواهلهم أثقال العيش، وتُحيي في أنفسهم موات الأمل، وتنعش في أرواحهم رغائب العمل هم عدة الإيمان، لأن الإيمان يملك من رصيد الخير ما يعوض به هؤلاء عما فقدوه من قوة

الاقتدار على مماشاة الحياة، وهؤلاء الضعفى أملك للعمل الشكور يردون به الجميل، فالإحسان إليهم بحمل ضعفهم لينهضوا، أو ليُحفظوا من الضياع فضيلة مشكورة عندما تحين فرصة شكرها من غير الجاحدين لفضلى المكارم والمروءات.

وهؤلاء الضعفى هم أتباع الرسل، كما جاء في حديث هرقل مع أبي سفيان وركب تجار قريش إذ قال مؤكداً حواره معهم: وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل.

وفي هذا التوافق بين ما حمله الإلهام النوراني بالفراسة الصادقة، والتجربة الحكيمة في كلمات وزيرة الصدق الزوجة البرة الأمينة السيدة خديجة رضي الله عنها، قبل أن تنتشر في آفاق الحياة أشعة شمس النبوة ـ وبين ما صدر من نبع المعارف الهرقلية العليمة بما في كتب الأحبار، وأناجيل الرهبان، وأنباء المبشرات بميلاد رسالة جديدة، قد أظل الناس زمانها ـ دلالة على أن السيدة خديجة كانت تستملي في كلماتها النــورانية التي مسحت بها عن جبين رسول الله ﷺ قطرات العرق التي ساقطتها متاعب بشريته، وقد هاضها روع المفاجأة، وتصور أعباء الرسالة وفوادح تبليغها ـ صحائف الغيب التي قرأت في سطورها بنور إيمانها الفطري، وصادق فراستها، دلائل ما فطر الله تعالى عليه رسوله وحبيبه محمداً ﷺ، من التخلق بمعالي الأخلاق، وأحاسن الشمائل على معالم مستقبله في رسالته الخاتمة الخالدة.

ولأمر ما ربط الله تعالى بين مكارم أخلاقك الفطرية ـ يا أبا القاسم ـ قبل أن يبعثك للناس رسولاً، وبين حياة هؤلاء الضعفى في المجتمع البشري الظلوم، فجعلك ـ صلوات الله عليك ـ آسياً لجراحهم، وجابراً لكسير قلوبهم، أفينسَون أيادي رحمتك بهم، وهديك الفطري في الإحسان إليهم، بعد أن صرت هادياً نبياً، وداعياً رسولاً، تدعو إلى الله وحده، وإلى عدله ورحمته، وأنت في هداية فطرتك ومكارم أخلاقك، وفي هداية نبوتك ورحمة رسالتك لا ترجو منهم جزاء ولا شكوراً، ولا كانوا هم بمستطيعين لأحد جزاءً ولا شكوراً.

هذا ـ يا أبا القاسم ـ تدبير الغيب، ما كان لأحد فيه اختيار، فالله تعالى هو الذي فطرك رحيماً، خِلْقة لا كسباً، وطبعاً لا تطبُّعاً، وهو الذي جمَّلك بخُلق الشفقة على الخلق كافة، وهو الذي أوجدك في مجتمعك الذي نَهَدْت فيه، ونشأت بين أحضانه، وهو مجتمع يعيش في حياة تجعله أخصب أرض لزرع الإحسان والمكارم، لأنه مجتمع جهل حياة العدل، وعاش على جهالة الحياة وروابطها الاجتماعية الفسيحة، مجتمع استأثر بخبراته حفنة من غلاظ الأكباد، يأخذون ولا يعطون، ينهبون ولا يرعوون، فلا قانون يردع، ولا نظام يحكم.

فإذا جاءهم الله بك رحمة وهدى لتنقذ المعذَّبين في الأرض من ظلم الطغاة، وتقيم الحياة الإنسانية على دعائم الإخاء والمساواة، والرحمة والمواساة، يهجس في خاطرك أنك قد تضعف عن تحمل أعباء ما كلفته من عظائم الأعمال..

كلا، يا أبا القاسم ـ صلوات الله عليك ـ لن يخزيك الله أبداً، ولن يحزنك الله أبداً، فأنت قبل أن يأتيك أمر ربك برسالته حملت عبء الضعفى برحمتك الفطرية، فنهضت بهم، ورشتهم، ونعشت نفوسهم بالأمل في مستقبل يرفع خسيستهم، فكيف بك وأنت في هدى نبوتك ورسالتك رحمة مهداة للعالمين؟.

النورانية الرابعة تكسب المعدوم

(٤) وتكسب المعدوم ـ كلَّا، يا أبا القاسم، لن يخزيك الله أبداً، ولن يحزنك الله أبداً، وكيف تخشى على نفسك الزكية بقاء أثر من رجة المفاجأة الملائكية، وتخشى على نفسك أن تُعوَّق دون تبليغ رسالتك، وأنت حبيب الله، صنعك على عينه، وطبعك على أخلاقه.

أليس قد جعل في أزله أن يكون القرآن الكريم ـ قبل أن يتشرف الوجود بسماع كلماته الإلَهية ـ خُلُقك؟ وماذا في القرآن الحكيم غير أخلاق الله، وآدابه، وشرائعه، وحكمه وأحكامه؟.

فأنت ـ يا أبا القاسم صلوات الله عليك ـ الصورة المتحركة للقرآن

الناطق في صمته وسكونه، وأنت ـ يا أبا القاسم ـ القرآن المعلِّم حينما تهتز أسلات الألسن بآياته، مضيئة بنور القلوب والعقول والأرواح فهماً لرسالتك وهديك.

أوَليس من أخلاق القرآن سخاء الجود إلى ذروة الإيثار، وقد وصف به الرعيل الثاني من أخص صحابتك، فقيل فيهم ـ ثناء عليهم في مواساتهم لإخوتهم في الإيمان من الرعيل الأول ـ: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[1].

فما بال الدنيا بك أنت الذي أدَّبتهم فتأدبوا بأدبك؟ وقد تأدبت أنت بأدب الله الذي تولَّاك ـ منذ كنت ـ بفواضل أدبه فأحسن تأديبك؟.

ومن في الوجود الكوني على خُلقِك الفطري الذي فطرك الله عليه من مكارم الجود؟ فأنت أجود الناس، ولأنت أجود بالخير من الريح المرسلة، أولست أنت الذي تظاهرت عليك بيِّنات الألسن بأنك تعطي عطاء من لا يخشى الفقر؟ أولست أنت الذي عرف لك قومك قبل أن يبعثك الله للناس رسولاً أن زادك في متحنثك شركة بينك وبين المساكين؟ لا، بل هو لهم منك، فإن أفضلوا أصبت منه ما يسد الرمق، ففي حديث عبيد بن عمير، وهو يحدث عن جوارك في غار حراء للتحنث شهراً أن من تحنثك وتعبدك في جوارك إطعامك من جاءك من المساكين.

وقد تعهد الله تعالى هذا الخلق الكريم في أخلاق محمد ﷺ بعد بعثه رسولاً، فكان أكرم من مشى على الأرض، وأجود من أعطى وهو يملك وسيلة للإعطاء، لا، بل إنه يعطي وهو لا يملك، ولكنه يحمل على نفسه، فيستسلف ويستدين حتى لا يقول (لا)؛ ففي الحديث أن رجلاً جاءه ﷺ فسأله، فقال له النبي ﷺ: «ما عندي شيء ولكن ابتع عليّ، فإذا جاءنا شيء قضيناه» فقال عمر: ما كلَّفك الله ما لا تقتدر، فكره النبي ﷺ ذلك من قول عمر، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله: أنفق ولا تَخَفْ من ذي

---

(١) سورة الحشر، آية: ٩.

العرش إقلالا، فتبسَّم رسول الله ﷺ، وعرف البِشْر في وجهه، وقال: «بهذا أُمرت» وفي حديث مسلم: ما سُئل رسول الله ﷺ شيئاً إلا أعطاه، فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال لهم: يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر.

يقول الإمام القسطلاني في (المواهب): وقد كان جوده ﷺ كله لله وفي ابتغاء مرضاته، فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو محتاج، وتارة ينفقه في سبيل الله، وتارة يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه، وكان يؤثر على نفسه وأولاده، فيعطي عطاء يعجز عنه الملوك، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا توقد في بيته نار، وربما ربط الحجر على بطنه الشريف من الجوع.

هذا هو محمل نورانية قول السيدة خديجة في كلمات النور التي استأنست بها من أخلاق محمد ﷺ الفطرية لتزيده تثبتاً في حلبة إنعام الله عليه برسالاته، فقالت له: إنك تكسب المعدم، أي أنك مفطور على السخاء والجود والكرم، فتعطي ذوي الحاجة المعدمين ما لا يمكن أن يمنحه غيرك، ولا تسمح به نفس غير نفسك العلية، فأنت أكرم العالمين، وأسخى الأكرمين.

والكرم مجمعة للقلوب، ومجلبة لمحبة النفوس، والكريم لا يضام، ولا يخزى، ولا يخذل، يملك بكرمه زمام محبة الأفئدة، ويستأسر مَنْ أكرمهم بإحسانه وفواضله، فيؤثرونه بمودتهم على كل محبوب، ولهذا كان أسرع الناس استجابة لدعوته ﷺ الفقراء والمساكين الذين وجدوا عنده المواساة والإيثار والرحمة، فأخلصوا له، وتقبلوا هديه بروح فدائية، قدموا لفدائها أرواحهم، وباعوا لله في سبيلها أنفسهم، وتحمَّلوا من فوادح الإيذاء والتعذيب ما لم يكن في طاقة بشر.

وقد كانوا بإخلاصهم في طليعة المؤمنين هم الأثر الحي - الذي صاحب الدعوة إلى الله في مراحلها وشدائدها، وانتصاراتها - لخلقه ﷺ ومكارم جوده الذي عبّرت عنه السيدة خديجة رضي الله عنها في كلمتها

النورانية المتوسمة في صحائف الغيب بالتأمل الشفيف الذي يقرأ كتاب المستقبل البعيد في لوح الماضي القريب.

النورانية الخامسة
تقري الضيف

(٥) تقري الضيف ـ كلاَّ، يا أبا القاسم، صلوات الله عليك، لن يخزيك الله أبداً، وكيف يخزيك ويحزنك وأنت في مكارم أخلاقك التي فطرك الله عليها أرفع الناس منزلة في مجتمع تهزه أريحية النبل في سباق المكارم؟.

فلئن كنت يا أبا القاسم، صلوات الله عليك، أسخى الناس في شمول الجود وعموم الكرم، فأنت أجود من نفسك في أخص مجالات السخاء الآسر للقلوب والأرواح.

وهل يملك النفوس الأبية إلا تقليدها قلائد المجد في سخاء يملك عليها نخوتها التي تتمثل في لقاء الضيف ـ وهو يقبل على استحياء ـ ببشاشة الطبع البسام لمغارم المكارم؟.

ومغارم الجود عند ذوي الطبع الكريم مغانم، إذا انهملت غيوثها على أرض أصيلة التربة طيبة الأصالة، ولكنها خاشعة ظمئة، وهل أطيب أرضاً من قلب ضيف يقبل طامعاً، ولكنه متردد يخشى الجفلة، ويخاف الجفوة، فإذا سمع مرحباً تناهت عنده إليه المكارم.

ومن ثمَّ كان إكرام الضيف من أعظم الفضائل الإنسانية الاجتماعية، وهي وإن تداخلت في عموم مكارم الجود لكنها بخصائصها مستقلة الأثر في قوة اجتذاب القلوب، وأسر النفوس، ولا سيما إذا كانت في بيئة مثل البيئة التي نهد فيها محمد ﷺ، بيئة الصحارى والجبال، والوديان والقفار، الشحيحة بمطالب العيش، ووسائل الحياة.

ولهذا كانت فضيلة قرى الضيف موضع منافسة المتنافسين في صنائع المعروف، وكانت مما يتمدح بها أجواد العرب، ويتخذها شعراؤهم ممادح لأجاويدهم، يتخذون بها قلائد من الفضل المأثور في أعناق الذين يقصدون مكارمهم تحبباً إليهم، ونشراً لحسن الأحدوثة عنهم بين أقوامهم.

والضيف في البيئة العربية عابر سبيل، يبيت هنا، ويصبح هناك،

ويتحدث حيث يكون، والحديث مع الناس وإلى الناس فنون، وأحب فنونه إلى الأسماع، وأحلاها في الأذواق ما كان عن المكارم وصانعيها، وروادها، تنفسح لهم القلوب، وتهش لهم النفوس، وتهفو نحو من تحله المكارم ذراها، وتشتاق إلى لقائه ورؤيته، وتتمنى لو كانت من حزبه أو أهله، وتتطلع إلى مشارف مكانه من حسن الأحدوثة، وتتحدث مع نفسها أحاديث الآمال المرجوة أن لو كانت تستطيع أن تكافئه على صنائعه، ولو لم يكونوا هم موضع إسدائها المباشر لأن الخير حبيب إلى كل نفس كريمة، والمكارم أواصر خلقية لا تعرف العصبية لدم، ولا لجنس، ومن يصنع الخير لا يعدم جوازيه.

فإكرام الضيف فضيلة اجتماعية تجمع القلوب على محبة من يتحلَّى بها في غير تكلف ولا مراءاة، وتستجيب إلى دعوته إذا دعا إلى خير، وترهف الآذان إلى صوته إذا نادى إلى نجدة أو غوث، وتُصغي إلى قوله إذا تكلم، وتؤمن على رأيه إذا ارتأى، فهي من أصول المكارم التي تكسب صاحبها مودات القلوب، يحبه من يعرفه ومن لا يعرفه.

فإذْ تذكر السيدة خديجة رضي الله عنها هذه المكرمة في خلائق محمد ﷺ التي نهد بها، وعاش في مجتمعه على التخلق بخلقها، فإنها تقصد إلى أن الله تعالى في جلال حكمته، لا يمنحها إلا لمن يعلم أنه حقيق بآثارها الاجتماعية في التأييد والتوفيق، فيما يدعو إليه من الخير والهدى، فالمتحلي بها مع سائر أصول المكارم لن يخزيه الله أبداً، ولن يَخْذُلَه الله أبداً، وإن محمداً ﷺ لبالغ ـ بما طبعه الله عليه من أصول مكارم الأخلاق ـ ما كتب الله له في لوح حياته من قيامه بحق تبليغ رسالته على أبلغ وأقوى ما تؤدى به رسالة إلٰهية ناطها الله برسول أعده لأعباء هذه الرسالة.

النورانية السادسة
الإعانة على نوائب الحق

(٦) وتعين على نوائب الحق ـ كلَّا، يا أبا القاسم، صلوات الله عليك، لن يخزيك الله أبداً، وكيف يخزيك ربك وهو الذي وهبك ـ منذ شَرَّف الوجود بطلعتك ـ فطرة جامعة لكل مكرمة وفضيلة؟ ولن يحزنك الله أبداً، وكيف يحزنك وهو الذي أعدك لحمل عبء أفضل رسالة خالدة، ختم بها رسالاته إلى خلقه؟ أليس الله عزّ شأنه هو الذي آواك إلى كنف رعايته،

وهو الذي تولّى تربيتك بأخص إنعاماته وفواضل إحسانه، فأدَّبك بأرفع آدابه، وهو الذي طبعك على أكرم خلائق الإنسانية، لتكون هادياً بإذنه، وداعياً إلى عدله ورحمته، ونصيراً للمظلومين من عباده، معواناً على إقرار الحق في موضعه، تردُّ إليه الشاردين عن ساحته، وتفرضه على الطغاة الذين يبغون في الأرض عتواً وكفراً.

كذلك أنت يا أبا القاسم ـ صلوات الله عليك ـ من أخص صفاتك أن تعين على نوائب الحق، فطرة فطرك الله عليها، وخليقة جبلك بها، فكيف يخزيك؟ وكيف يحزنك؟ والإعانة على نوائب الحق فضيلة الفضائل، ومكرمة المكارم، فهي أجمع الفضائل لسائرها، وهي أجمع موارد الخير ومصادره، وهي منقبة مناقب البر والمعروف.

يقول الإمام ابن حجر في الفتح: وقولها: وتعين على نوائب الحق، هي كلمة جامعة لأفراد ما تقدم من أصول المكارم وما لم يتقدم.

وقد كانت هذه الخليقة خُلقاً لمحمد ﷺ منذ شب عن طوق الطفولية، ومشى إلى الشباب مشاركاً رجالات قومه في صنع المكارم، فهو ﷺ ـ وكان في عنفوان الشباب، ابن عشرين سنة ـ يسمع أن عمه الزبير ابن عبد المطلب، يدعو إلى عقد حلف لنصرة المظلوم، والتآسي في المعاش، فاجتمعت له بنو هاشم، وزهرة، وتيم، في دار عبدالله بن جدعان، فيسرع ﷺ إلى مشاركتهم هذه المكرمة النبيلة، يدفعون بها الظلم عن المظلومين، ويعينون على نوائب الحق، ويتعاقدون متعاهدين بالله ليكونن مع المظلوم حتى يؤدَّى إليه حقه ما بل بحر صوفة، وسمّت قريش ذلك التعاقد (حلف الفضول).

وقد امتدح محمد ﷺ بعد بعثه رسولاً إلى الناس كافة هذا الحلف، وأخبر أنه حضره في دور إنشائه وشارك فيه قبل نبوته، ففي حديث جبير ابن مطعم عند ابن سعد في الطبقات قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحب أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حُمْر النَّعَم، وأني أغدر به، هاشم وزهرة

وتيم تحالفوا أن يكونوا مع المظلوم ما بل بحر صوفة، لو دعيت به لأجبت، وهو حلف الفضول».

ومن شواهد هذه المكرمة، ومدد هذه الفضيلة ـ مكرمة إعانة محمد ﷺ على نوائب الحق، ونصرة المظلوم حتى يراح الحق إليه في رحاله ـ خبر الأراشي الذي ابتاع منه فرعون قريش أبو جهل إبلاً، ومطله أثمانها، ابتغاء بخسها أو غصبها، وقد وقف هذا الأراشيّ على ملأ القوم يستنصر غطارفتهم، ويستنجد أكابرهم لينصفوه من طاغيتهم، فدلّه شياطينهم على محمد ﷺ ـ استهزاء منهم ـ لما يعلمون من شدة العداوة بينه وبين فرعونهم الطاغية الظلوم، وكان رسول الله ﷺ لا يزال في مبتدأ دعوته، ومطلع رسالته، لم يستجب له إلا قلة قليلة من المستضعفين المضطهدين من أصحابه، وذهب الأراشي صاحب الإبل إلى محمد ﷺ وشكى إليه ظلم قريش في نموذجها الظلوم أبي جهل، قال ابن إسحاق: وخرج رسول الله ﷺ حتى جاء أبا جهل إلى بيته، فضرب عليه بابه، فقال أبو جهل: من هذا؟ فقال رسول الله ﷺ مجيباً له «محمد» فخرج إليه أبو جهل وما في وجهه من رائحة، قد انتقع لونه ـ وكذلك يفعل جبن المستكبرين ـ فقال له رسول الله ﷺ: «أعطِ هذا حقه» قال أبو جهل: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له، فدفعه إليه. وهذه الحادثة من أعظم دلائل شجاعة محمد ﷺ في الحق وللحق، فهو ﷺ إذْ يشكو الغريب المظلوم إليه ألد أعدائه، وأشْرَسَهم خلقاً، وأعتاهم ضراوة وشراً، وأطغاهم طغياناً وكفراً مستغيثاً به ـ لا يتلبث أن ينهض معه في سرعة وقوة لإعانته على ما نابه من تعرض حقه للضياع، وهذا هو معنى أنه يعين على نوائب الحق.

وإذا تأمل الناظر في هذه الحادثة علم أن لها من الآثار الاجتماعية ما يجعلها وأمثالها عَلَماً على المكارم التي يتغنى بها المجتمع فيما يأثره من أصول المكارم لمن نهض بعبئها، فكيف يخزي الله أو يخذل من طبعه على هذا الخلق الأكرم الذي يجمع القلوب على محبة صاحبه؟.

ومن شواهد هذه الفضيلة، فضيلة الإعانة على نوائب الحق، ما رواه

الواقدي عن يزيد بن رومان، قال: بينا رسول الله ﷺ جالساً في المسجد مع رجال من أصحابه أقبل رجل من زبيد، يقول: يا معشر قريش: كيف تدخل عليكم المادة، أو يجلب إليكم جلب، أو يحل تاجر بساحتكم، وأنتم تظلمون من دخل عليكم في حرمكم؟ يقف على الحِلَق، حلقة، حلقة، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ في صحبه، فقال رسول الله ﷺ: «من ظلمك؟» فذكر أنه قدم بثلاثة أجمال، كانت خير إبله، فسامه بها أبو جهل ثلث أثمانها، ثم لم يسمه بها لأجله سائم، فأكسد عليّ سلعتي وظلمني، قال رسول الله ﷺ: «وأين أجمالك؟» قال: هي هذه بالحَزْوَرَة، فقام رسول الله ﷺ، وقام معه أصحابه، فنظر إلى الأجمال فرأى أجمالاً فُرها، فساوم الزبيدي حتى ألحقه برضاه، فأخذها رسول الله ﷺ، فباع جملين منها بالثمن، وأفضل بعيراً باعه وأعطى ثمنه أرامل بني عبد المطلب، وأبو جهل جالس في ناحية من السوق لا يتكلم، ثم أقبل إليه رسول الله ﷺ فقال: «يا عمرو، إياك أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الإعرابي، فترى ما تكره» فجعل أبو جهل يقول: لا أعود يا محمد، لا أعود يا محمد، فانصرف رسول الله ﷺ.

وفي هذه الحادثة من دلائل ما تحلّى به محمد ﷺ من أصول المكارم جبلة وطبعاً، أنه كان نهَّاضاً لنجدة المظلوم، وخُلُق النجدة شعبة من شعب مكرمة الإعانة على نوائب الحق، فهو ﷺ إذ يسمع استغاثة الرجل الغريب، يُظْلم في حرم الله، ينهض لإنصافه، لا يبالي أن يكون من ظلمه أطغى طغاة قريش، وأشر شريرها.

وهو ﷺ أملك الناس للغضب، لا يندفع مستغضباً يثير الحفائظ، ولكنه يسلك في إنصاف من ظلم في حرم الله طريق العدل والحق في هدوء الواثق، فيذهب إلى السوق، وينظر إلى الأجمال، ويساوم صاحبها سوماً يلحقه بالرضا، فيشتريها بالثمن الذي ارتضاه، ثم يبيعها فيربح ثمن بعير منها، ويعطي هذا الثمن أرامل بني عبد المطلب جرياً على نهجه في مكرمة صلة الرحم التي كانت من أصول المكارم التي جبل عليها رسول الله ﷺ، ثم يذهب ﷺ إلى الطاغية أبي جهل على سمع الملأ وبصره وهو جالس في

ناحية من السوق، ينظر ما صنع رسول الله ﷺ ويسمع سومه للزبيدي صاحب الأجمال، في ذلة ومهانة فلا ينبس بكلمة.

ولكن رسول الله ﷺ لا يتركه يستريح في خذلانه وذلته، بل يذهب إليه محذِّراً منذراً عاقبة طغيانه ومغبة ظلمه الغرباء الذين يفدون على مكة بلد الله الحرام، يبيعون ويشترون، ويقضون لباناتهم في أسواقها، فما كان من هذا المستكبر في الأرض فجوراً إلا أن تهانف تهانف الأطفال، وتهاوى على نفسه في مهانة الجبناء، وهو يرى قوة الحق تعلو في إنذار رسول الله ﷺ وتحذيره أن يعود لمثل صنيعه الكفور مع الغرباء الذين ليس في مكة قوة يستنصرون بها على من يظلمهم، وهو يقول: لا أعود يا محمد، لا أعود يا محمد.

والذين لا يعرفون قدر ما أكرم الله به محمداً ﷺ من الشجاعة في الحق ونجدة المستصرخين لطلب الغوث، والإعانة في نوائب الحق؛ يصرفون ما يُرى من هذه الأحداث إلى مجالات العجائب والمعجزات، ولسنا ممن ينفي ما يثبت منها بطريق صحيح.

ولكنا نرى أن وزن الأحداث بموازين طبيعة الاجتماع، وخصائص المجتمع الذي تقع تلك الأحداث في جنباته أسدّ وأحكم في مخاطبة الذين يجادلون في آيات الله اغتراراً بما يتقلبون فيه من علو متعَالِم واستكبار متفلسف، فمحمد ﷺ فنن من النبعة الهاشمية، وهم أعز وأرسخ قدماً في مماشي العرب وقبائلها من بني مخزوم قوم أبي جهل، على ما كان لهم من مكانة يسندها الثراء المالي المعروف لهم، فلا غرابة أن يعتز الحق بمحمد الهاشمي ﷺ، ويذل باطل أبي جهل المخزومي، فإن جاءت المعجزة مع ذلك إكراماً من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ، وتأييداً له في قيامه لنصرة الحق، ودفع الظلم، وإنصاف من لجأ إليه يستنصره مستصرخاً لما أصابه في البلد الحرام الذي جعله الله تعالى أمناً لمن دخله من فجاج الأرض، لا يهاج ولا يفزَّع ـ كان ذلك توكيداً لفضل الله تعالى فيما جبل عليه رسوله محمداً ﷺ من مكارم الأخلاق التي جعلها بحكمته أساساً لقوة احتماله أعباء رسالته الخاتمة الخالدة، ولله تعالى أن يؤيد رسوله بما شاء من الآيات المعجزة.

النورانية السابعة أداء الأمانة

(٧) وتؤدي الأمانة ـ كلاَّ، يا أبا القاسم، صلوات الله عليك، لن يخزيك الله أبداً، وأنت الذي فطرك الله على مكارم الأخلاق، وجمع لك أصولها التي تتفرع منها سائر الفضائل الإنسانية، فكيف يخذلك في أمره الذي اصطفاك للقيام به من بين سائر خلقه؟ وكيف يخزيك وأنت أمينه ورسوله إلى كافة خلقه، لتبلغهم رسالته وتدعوهم إلى وحدانيته، وتهديهم طريق الاستقامة في حياتهم، ليعيشوا في ظل عدله ورحمته، إخوة متحابين، يتواصلون بالصدق والأمانة في معاملاتهم وتعاشرهم، ويتواسَون بالرحمة والإحسان، ويتعاونون على البر والتقوى لا يتظالمون ولا يتخاونون.

ذلك منهجك في رسالتك ـ يا أبا القاسم ـ فمن أين يأتيك الخذلان؟ كلاَّ، يا أبا القاسم، فأنت الأمين في السماء، وأنت الأمين في الأرض، وقد رفع الله لك ذكرك، وسمَّاك على ألسنة قومك ـ ولما تُبعث فيهم رسولاً، ولما يكن أمر الإيمان بهَدْي رسالتك عندهم مذكوراً ـ (الأمين) والأمانة أجمع مكرمة لمكارم الأخلاق، ولن يكون أميناً قط من يفقد في أخلاقه مكرمة من المكارم، فالأمين هو ذو الخلق العظيم، الجامع لأشتات الفضائل، والأمين هو الكامل في استقامته مع نفسه، ومع جميع الخلق، تجمع القلوب على محبته، ويثق به من يعرفه ومن لا يعرفه، من شهده ومن غاب عنه، وهذه الثقة تظهره على أسرار الناس، فيعرفها كما يعرف علانيتهم، لا تخفى عليه منهم خافية يحفظهم في غيبهم كحفظه لهم في شهودهم، يأنسون به ويركنون إليه في أعمالهم ومصالحهم، ويأمنونه على أعز ما عندهم من ودائعهم المادية والقلبية، تهجس في خواطرهم الفكرة تريد متنفساً بالكلمة، فيخافونها إلا إذا كانت همساً لك، فإن رأيت خيراً أعنت عليه، وإن رأيت شراً نصحت وحذَّرت، وحجزت دون وقوعه، ويملك أحدهم الثمين من الأشياء، ويخشى عليه الضيعة، فلا يجد موثقاً أشد في نفسه يقيناً من مكارمك، وأنت (الأمين) فيودعه عندك، وقد يخفي أمره عن أمه وأبيه وصاحبته وبنيه.

كلاَّ، يا أبا القاسم، صلوات الله عليك، لن يخزنك الله أبداً في تبليغ رسالتك، وإنجاح هديك وكيف يخزنك وأنت الأمين عند الله وعند الناس؟

وقد كان خُلُق أداء الأمانة خُلُقاً أثيراً في مكارمك، فلم يعرف لقب (الأمين) على إطلاقه إلا لك.

وهل يوجد في تاريخ البشرية أقوى دلالة على تميزك بأداء الأمانة من إجماع بطون قريش على الرضا بحكمك وهم يبنون الكعبة المشرّفة أعز مفاخرهم، وقد اختلفوا اختلافاً شرعت فيه السيوف للقتال، فيمن يتولى وضع الحجر الأسود مكانه من ركنه في البناء؟ ثم توافقوا على أن يحكموا أول داخل عليهم من أبواب الحرم، فكنت أنت يا أبا القاسم، صلوات الله عليك، محظوظ العناية الربّانية، ذلك المُحَكَّم، ولم تكن يومئذ إلا محمد ابن عبدالله بن عبد المطلب غصن النبعة الهاشمية، فلا نبوة، ولا رسالة، فلما رآك القوم تهللوا بالبشر الوثيق، واطمأنت قلوبهم الواجفة في صدورهم، وسكنت إلا من خفقة الرضا، وقالوا بلسان موحد الثقة والقبول: هذا (الأمين) رضيناه حَكَماً، وحكمت بحكمتك حكماً أطفأ نيران الفتنة، وأصلح ذات بينهم، وجمع شملهم.

فهل كان ذلك لك إلا بفضل ما فطرك الله عليه من مكرمة المكارم، وفضيلة الفضائل، خُلُق الأمانة وأدائها؟ ذلك الخُلُق الذي تعارفه لك الناس في بلدك الحرام، عامتهم وخاصتهم، فجعلوك موئل ودائعهم، ومثوى أسرارهم، فوسعتهم صدقاً وأمانة وبراً، روى الإمام أحمد من حديث عليّ رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ جمع النبي ﷺ من أهل بيته فاجتمع له ثلاثون، فأكلوا وشربوا، وقال لهم: «من يضمن عني دَيْني ومواعيدي، ويكون معي في الجنة، ويكون خليفتي في أهلي؟» فقال رجل: يا رسول الله أنت كنت بحراً، من يقوم بهذا؟.

وفي أحاديث الهجرة عند ابن إسحاق أن النبي ﷺ أخبر علياً بمخرجه، وأمره أن يتخلف بعده حتى يؤدي عنه الودائع التي عنده للناس، قال ابن إسحاق: وليس بمكة أحد عنده شيء يخاف عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته.

وفي هذين الحديثين أصدق دلالة على أن مكرمة أداء الأمانة بصورتها

الغامرة القوية التي لم تكن بها عند أحد من البشر فضيلة خُلُقية كانت في طبيعة محمد ﷺ التي ولد بها، ونهد عليها، ونشأ مفطوراً بفطرتها، لم يكسبها بنبوته ورسالته، وإن تكن النبوة والرسالة قد وثقتاها في خُلُقه، وزادتا من مظاهرها في أعماله وسلوكه، وجعلتاها دعامة من دعائم دعوته، وأساساً لهديه في رسالته.

فحديث عليّ رضي الله عنه عند الإمام أحمد ـ ورواه بمعناه بألفاظ تختلف قليلاً أو كثيراً، جمهور المحدِّثين ـ ظاهر في أن قصته كانت في مطلع الدعوة، وأوائل خطواتها، وأن مكرمة أداء الأمانة بقوتها الغامرة كانت معروفة بصورة عريضة عند كافة الناس في مجتمع محمد ﷺ الذي عاش فيه خُلُقاً له، قبل أن يبعث للناس رسولاً، وأنه كان في هذه المكرمة وسيع الباع، لا يدرك ذرعه، عظيم الأكناف كالبحر لا يدرك عمقه، ولهذا لما قال رسول الله ﷺ للقوم ما قال في شأن دَيْنه ومواعيده، قال له رجل من القوم، ينفي أن أحداً من الناس يستطيع أن يضع قدمه في ساحة مفاخر المكرمات موضع قدم رسول الله ﷺ: يا رسول الله أنت في مكارمك بحر، من يقدر أن يقوم مقامك في دَيْنك ومواعيدك؟ استعظاماً لما كان متصفاً به من المكارم، ولا سيما مكرمة أداء الأمانة التي جعلت منه موئلاً لأمانات الناس وودائعهم.

وحديث الهجرة ظاهر في بيان أن رسول الله ﷺ، وهو يمر بأحرج مرحلة مرت بها دعوته، وأصعب موقف مرَّ عليه في حياته، موقف ينتهي في أدمغة أحلاس الشرك وعبيد الوثنية، وتفكيرهم في التخلص من هذه الدعوة وصاحبها إلى أخبث تدبير ماكر، تحوكه أحقادهم، ومرحلة تنتهي في نظرهم إلى أبشع كيد متآمر على حياة أطهر من أقلَّته الأرض وأظلَّته السماء، محمد الأمين صلوات الله وسلامه عليه، أجمع فيها غطارفة الإجرام، وطغاة الكفر على اغتياله، وهو نائم على فراشه في بيته، لأنه يدعوهم إلى توحيد الله، وإقامة منائر عدله، ونشر آثار رحمته فيأتيه النبأ من السماء، ويستعد للخروج من داره وبلده مهاجراً إلى حيث يجد متنفساً لدعوته، وأرضاً طيبة لنشر رسالته، وقلوباً نقية لتقبل هديه، ونفوساً طاهرة مستعدة لنصرته ـ كان

موضع ثقة لدى سائر من عرفه مؤمناً برسالته أو غير مؤمن بها، ولكنهم جميعاً وأكثرهم إلْب عليه، يحاربون دعوته ويؤذونه وأصحابه ـ يأمنونه على أسرارهم وودائعهم من كل ما يخافون عليه، فهو (الأمين) منذ كان فيهم، لم تغيِّر دعوته التي نافروه من أجلها من أمانته، بل زادت هذه الدعوة الخيِّرة المباركة الموحِّدة خلق الأمانة عنده ظهوراً ورسوخاً.

وها هوذا يفارقهم مُخْرجاً منهم، لأنه لم يجد فيهم بصائر تهتدي بهديه، بل لم يجد عندهم سلاماً يطمئن إلى العيش في ظله، ويخلّوا بينه وبين الناس يبلغهم دعوته، وينشر فيهم هديه ورسالته، وعنده أمانات وودائع لأعدائه وغير أعدائه، ولا بد في شرعة المكارم من ردِّها إليهم، فيخلِّف صفيَّه ورضيع تربيته علياً رضي الله عنه بعده ليؤدي عنه الودائع والأمانات التي عنده للناس.

فراسة الإلهام في كلمات السيدة خديجة

قال العلماء: إن خديجة رضي الله عنها لوثيق معرفتها بأخلاق محمد ﷺ الفطرية التي خبرتها فيه بتجاربها وفراستها، وبما كان يخصه به مجتمعه من الإكبار وحسن الأحدوثة ـ أقسمت على أن الله تعالى لن يخزيه، وأكَّدت ذلك بلفظ التأييد، واستدلت بوحي عقلها الرصين على ما أقسمت عليه بأمر استقرائي، فوصفته بأصول مكارم الأخلاق، قالوا:

وإنما كان ما ذكرته خديجة أصولَ المكارم لأن الإحسان إما إلى الأقارب كما في صلة الرحم، وما يتفرع عنها من التعاطف والتراحم، أو إلى الأجانب، وذلك فيما عدا صلة الرحم وفروعها، من صدق الحديث وأداء الأمانة، وكسب المعدوم لمن يحتاج إلى المعونة من الضَّعَفَة، وإما على من يستقل بأمره، كما في مكرمة الإعانة على نوائب الحق، أو من لا يستقل بأمره كما في حمل الكَلّ الضعيف الذي لا يقوم بأمر نفسه.

وهذا الذي ذكره العلماء إجمال لما بسطناه في تحليل الكلمات النورانية التي تضم بين جوانحها من الحقائق والمعاني الكثير مما لا يمكن استقصاؤه، وهي التي استنبطت خديجة من اتصاف محمد ﷺ بحقائقها أنه لن يتعرض في

حياته للخزي قط. لأن الله تعالى فطره على مكارم الأخلاق، وضربت المثل بما ذكرته من أصولها الجامعة لكمالاتها.

ولم تعرف الحياة في سنن الكون الاجتماعية أن الله تعالى جمَّل أحداً من عباده بفطرة الأخلاق الكريمة، ثم أذاقه الخزي في حياته، ومحمد ﷺ بلغ من المكارم ذروتها، فطرة فطره الله عليها، لا تطاول ولا تسامى.

وقد كانت كلمات السيدة خديجة رضي الله عنها نوعاً من فراسة الإلهام الذي ينظر إلى ما وراء الحجب، خففت بها عن رسول الله ﷺ ما شعر به من آثار المفاجأة الرهيبة، وقد آب إليها من خلوته ومتعبده في حراء، فرأت منه ﷺ حالاً من مشقة الجهد، لم تكن تراها عليه من قبل في أوباته إليها، ليتزود لخلوته، ويجدد ببيته وولده وزوجه عهد الحنان والحب الذي يعطيهأفضلما يعطي عامل من عوامل القوة النفسية من مدد يعينه على تحمل مشاق الوحدة في خلوته التي أحبها أشد الحب، لما يجد فيها من مجال لسبحات روحه وفكره في أجواز ملكوت الله، وجلال بدائع صنعه، وجلس إليها بعد أن هدأت نفسه، وحدَّثها وحدَّثته، وسمعت منه جديداً، لم تكن من قبل تسمعه منه، وكان في هذا الحديث نغم هامس بروحانية جديدة، تتلمس دفء الحنان في أحضان الوفاء.

فهو ﷺ منذ بلغ سن الرجولية كانت بشائر الغيب وإرهاصات النبوة تتوالى عليه قبل أن يُنَبأ، وكانت خديجة رضي الله عنها على علم بالكثير من ذلك، وقد ثبت أنها رأت الغمامة تظلله ﷺ، وهو قادم بتجارتها من الشام، قبل أن يتزوجها، وحدثها غلامها ميسرة ـ وكانت قد بعثته معه ليقوم بخدمته في سفره ـ بما رأى وما شهد من الأعاجيب والآيات التي وقعت له ﷺ.

ثم نُبِّىء ﷺ بوحي الرؤيا الصادقة، يراها في منامه، فتجيء إذا استيقظ مثل فَلَق الصبح جلاءً ووضوحاً وإشراقاً، وتتابع وحي النبوة عليه في مراتبه المنامية والمبشرات، ولم يكن يبدو عليه من مشقة الإجهاد وتأثر بشريته مثل ما بدا عليه اليوم، وقد جاءها يرجف فؤاده وترعد بوادره، ويقول: زملوني دثروني.

آمال الفراسة النورانية وإلهام التوسم تتحقق

وكانت آمال خديجة رضي الله عنها منذ صارت زوجة محمد ﷺ في فضل الله عليه أعظم من أن تقف عند وحي النبوة برؤيا منام، بل كانت مشاعرها تحلق حوله في آفاق تطلعاتها إلى تجليات الملأ الأعلى له ﷺ في لقاء المواجهة ووحي اليقظة.

وها هو ذا صلوات الله عليه اليوم يُبعث للعالمين رسولاً، فيجيئه الحق، ويفجؤه المَلَك رسولاً إليه من ربه، وإذا هو أمين الوحي جبريل عليه السلام، جاء مستعلناً في يقظته بعد أن جاءه ممهداً في منامه، ومحمد ﷺ مستغرق في سبحات تفكيره، وحيد في خلوته، لا يتوقع مما وقع له شيئاً، وإذا بالمفاجأة الأخرى تأتي بعد مفاجأة البغتة في دخوله عليه خلوته بغير مهلة، فيقول له: اقرأ، وأنّى لمحمد صلوات الله عليه، وهو الأمي الذي ما عرف القراءة قط في حياته أن يقرأ؟ وماذا يقرأ؟ وكيف يقرأ؟ فما كان منه ﷺ إلا أن يقول الحق مبيناً عن ذات نفسه، ذاكراً حقيقة حاله بالنظر إلى ما طلب منه، وهو أمر لا يدخل في استطاعته: (ما أنا بقارىء).

وجاءت المفاجأة الجديدة في عنفها وشدتها، ويضمه الملك إليه ضمة غطه بها غطا بلغ منه أقصى ما في طبيعته من الطاقة والاحتمال، وخلص جبريل الأمين بروح محمد الأمين صلوات الله عليهما نجياً ليستفرغ بشريته، ويفرغ في روحانيته مزيداً من أنوار الملأ الأعلى ليخفف من الوشائج المادية التي تقيد سبحات روحه في إطارها البشري، لترتفع روحانيته بإشراقها المتجدد إلى ذروة المجانسة لطبائع الملأ الأعلى، لتتلقى أحاديث السماء في مشافهة الملك ولقاء اليقظة، واكتمال الحس والشعور.

ثم عاد إليه يطلب منه أن يقرأ، والموقف عند رسول الله محمد ﷺ هو الموقف منذ بدأت المفاجأة وكانت إجابته هي إجابته (ما أنا بقارىء) وعاد إليه بالغتّ والغط، وطلب القراءة ليظهره من أول وهلة على سر رسالته ليكون فيها الهادي العليم والرسول المعلم.

وسرّ رسالة محمد ﷺ المسطور في لوح الوجود - كما أسلفنا - هو العلم بأوسع وأعمق ما يتصور العلماء والمفكرون من أي أنحاء الحياة، ومن أي

العلم هو سر الرسالة الخاتمة الخالدة المسطور في لوح الوجود

جوانب الكون، وعلى أي نهج في التفكير.

ولهذا قال له جبريل عليه السلام ـ بعد أن أنهى ما أرسل به إليه في أول لقاء المواجهة بوحي اليقظة من إعداده روحانياً للنفوذ من حجب الغيب إلى الحقائق العليا، مسطورة في صفحة الوجود ـ: اقرأ، وأنت أنت على خصيصتك في أخص أوصافك من نعت (الأمية) مستعيناً باسم ربك الخالق المبدع، الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهو أعز خلقه وأكرمهم، وجعله بما علّمه سيد الحياة المسخرة له ﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم﴾.

فكان هذا بياناً لما طُلب منه مكرراً مؤكداً، وهو تحصيل حقيقة القراءة، دون نظر إلى الأسباب المألوفة عند القارئين المعلّمين العالمين، مستعيناً باسم من سبق إليك إحسانُه، فرباك على موائد فضله وإنعامه، ورعاك بكرمه قبل أن يتشرف الوجود بطلعتك، وهو ربك الأكرم الذي تجلّت مظاهر أكرميته في ظلال أسرار رسالتك العليمة المعلّمة، وهو الذي علّم بالقلم من تأهّل بفكره ليكون في زمرة العالمين، وذلك هو الإنسان مُظهرُ الإبداع الإلّهي الأعظم في الوجود، فقد علّمه ما لم يعلم، وعلمك أنت، وجعلك مظهر الإشراق الروحاني الأكمل، ـ كما علّم الملأ الأعلى ـ بغير قلم ولا مداد، خصيصة لك، لتكون أميتك المظهر الأعظم في إعجاز رسالتك المعلمة، وجعل علمك بغير قلم مَدَدا لمن تعلموا بالقلم، تعلموا مما علمت، وهم صفوة الإنسانية، بل صفوة الوجود كله، فالتعليم بالقلم أعظم مظاهر الكرم الإلّهي السابغ، ومن ثم كانت المنة بالتعليم بالقلم أعظم منن الله تعالى على الإنسان في الحياة، وكان الامتنان بها علَيه في أول ما نزل من القرآن الكريم.

يقول الإمام قتادة: القلم نعمة من الله عزّ وجلّ عظيمة، لولاها لم يقم دين، ولم يصلح عيش، فدلَّ على كمال كرمه بأن علَّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبَّه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دُونت العلوم، ولا

قُيدت الحِكَم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كُتُب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين ولا أمور الدنيا.

تحليل تفسيري لأول آيات نزلت من القرآن الكريم.

فقول الله جلّ ذكره في أول كلمة نزلت على رسول الله ﷺ:(اقرأ) أمر بتحصيل القراءة، وتحقيقها في وجود الحياة، وقوله عزّ شأنه:(وربك الأكرم) جملة مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به ﷺ من قوله:(ما أنا بقارىء) وهو يريد أن القراءة شأن من يتعلّمها، وأنا أمي ما كنت قارئاً قط، فقيل له: اقرأ، وربك الذي أمرك بتحصيل القراءة، وتحقيق وجودها هو الأكرم، فالأمر هنا بتحصيل القراءة تأكيد للأمر السابق في قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ والاستئناف بقوله: ﴿وربك الأكرم﴾ توجيه له ﷺ بأن يستمد العون على تحمل أعباء حياته الجديدة في رسالته التي ستكون بمقتضى إرهاصات المفاجأة وشدتها مليئة بالمفاجآت الفادحة، ومفعمة بكل جديد شاق، ولعل من أشقها وأصعبها العلم بكل ما ينبغي أن يعلم وهو خصيصة رسالتك المميزة لطبيعتها الهادية المنيرة - من ربه الأكرم الذي تعهده بتربيته وهو في غمرات مجتمعه، فصفّاه من غله، وطهّره من أدرانه، برعايته له في نشأته وليداً في مهده، فهيأ له رضاعاً في أكرم بادية في خير بيوتها خُلُقاً، وآواه طفلاً يتيماً، وتولاه بتأديبه وتربيته، وزرع محبته في قلوب جدّه وعمومته، فحنَوا عليه حدباً وإشفاقاً، وكنفه بكنفه، فكان شاباً أريباً، وحلّاه في رجوليته بأكمل خصائص الفضائل، فكان في قومه الصادق الأمين، وأعده لحمل أعباء رسالته، وهو مستغرق في وحدته بفكره وعقله وروحه في جلال الملكوت لا يعلم ما يراد به، حتى أبرزه للحياة درة يتيمة في كمال صفاته وأخلاقه ومكارمه وإشراق روحه، واستخلصه لنفسه نبياً حبيباً واصطفاه رسولاً رحمة مهداة للعالمين.

حديث هامس بشرح عظمة عبء الرسالة

وحدّث رسول الله ﷺ زوجه الوفية الأمينة عن خلجات ضميره وما هجس في حنايا نفسه وما شغل تفكيره إزاء ما ينتظره في مستقبل حياته من عظائم أمور، وكبريات الأحداث، وما يتطلبه هذا المستقبل من عمل دؤوب، وعزيمة صارمة، يجب أن تَقْهر الأحداث بقوتها، وصبر مشمر عن

طاقة من الإحتمال دونها طاقة الأرض والسماء، وقد مضى وقت النوم ﴿يا أيها المدَّثِّر قم فأنذر﴾.

ونهض ﷺ مستجيباً لأمر ربه، مشمِّراً عن عزيمة لا تفل، نُهُوض من لا يعرف السكون إلا متحفزاً ليتحرك، ولا يتحرك إلا وهو يفكر في مسالك ما حُمِّله من أعباء رسالة، ليس كمثلها رسالة من رسالات من سبقه من الأنبياء والمرسلين.

فالناس كلهم في مشارق الأرض ومغاربها، من دنا منهم ومن بَعُدَ هم أمةُ دعوته، مكلف تبليغ رسالته لهم، واجب عليه أن يدعوهم إلى الإيمان بها ما بلغتهم دعوتها ﴿ وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾[1] فهو رسول إلى العالمين، منذ اللحظة الأولى لتنزّل رسالته.

أهداف الدعوة ومقاصد الرسالة

ودعوته تستهدف إخراج الناس ـ كل الناس، بل إخراج الحياة بما فيها ومن فيها ـ من ظلمات الشرك وأوضار الوثنية في جميع صورها وأشكالها إلى نور التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى وحده، مطهرين في عقائدهم وأفكارهم وتعبداتهم، نقية عقولهم وقلوبهم من دنس مواريث الآباء والأجداد، مصفّاة أرواحهم من ران الشرور والفساد، وإخراجهم من ظلمات التظالم والفساد إلى نور العدل والإصلاح.

وتستهدف دعوته ﷺ إلى جانب ذلك تخليصهم من رذائل الأخلاق، ليكونوا ربَّانيين في حياتهم وأخلاقهم، متحلِّين بالفضائل الإنسانية الكريمة، مستقيمي السلوك، خيِّرين في أعمالهم.

وتستهدف دعوته ﷺ تخليصهم من شراسة القسوة الطاغية التي يصب المتجبرون في الأرض سياط عذابها على الضعفاء والمستضعفين؛ اغتراراً بما في أيديهم من لعاعات الدنيا، واستجابة لما في دخائل أنفسهم من شرور الأنانية والاستئثار.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٩.

وتستهدف دعوته ﷺ تخليصهم من مساوىء الأنانية، وسيطرة الغرائز المادية في رغائبها وشهواتها، لتقيمهم أئمة في مشاهد الإيثار والإفضال في جوّ من الإخاء الإيماني الذي لا يعرف: هذا لي، وهذا لك، ولكنه يعرف مايقرؤه في دستور رسالته الخالدة ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾، والأخوة معناها المشاركة في جلب المنافع ودفع المضار، فالحياة ـ في شرعة الإخاء الإيماني ـ للناس جميعاً، لا يستأثر بشيء منها أحد، فمن احتاج منها أخذ بقدر حاجته وطاقته، ومن وجدها في يده جاد بها وأعطى.

هذه أهداف رسالة محمد ﷺ، وغاياتها ومقاصدها، جعلت العلم بجميع فنونه المادية والفكرية، والمعرفة بأنواعها التجريبية والعقلية وسيلة تحقيقها، لكن المجتمع البشري الذي أرسل فيه وإليه محمد ﷺ بجميع أممه وشعوبه، وجماعاته وأفراده لم يكن يعرف هذه الأهداف، ولا يحاول أن يعرفها، بل كان هذا المجتمع يعيش على نقائض هذه الأهداف الإصلاحية، التي تطلب في قوة حازمة وعزيمة صارمة من حاملي أمانتها، ووارثي تبليغ رسالتها أن يعملوا بكل ما أوتوا من طاقات وقوى على كسر حدة تلك النقائض، ليخرجوا الحياة بمن فيها وما فيها من ظلمات الأثرة وظلم الأنانية إلى نور الإيمان والهداية، وعدل المساواة والمواساة، بتطبيق دستور هذه الرسالة الخالدة في واقع الحياة، فكيف السبيل إلى ذلك؟ وما المخرج؟.

فداحة العبء

عبء فادح، وتكليف شاق، وجهد مثقل، ومفاجأة دون تمهيد، ولكنه تشريف دونه كل شرف في هذه الحياة، فهل في طاقة محمد ﷺ، وهو وحيد، محدود القوى البشرية أن يقوم بهذا العبء على بهظه؟ وهل في قدرته ﷺ احتمال مشقة هذا التكليف على رهقه؟ وهل، وهل، وهل، مما توارد على خواطره وشغل حيِّزاً من نفسه الشريفة، وتحدث به إلى زوجه، ومأنس نفسه، الوفية الأمينة السيدة خديجة رضي الله عنها، حديث المتطلع إلى توكيد يقينه في فضل ربه ممن عرف سمو عقلها وفضل حبها، والثقة بفراستها وتوسمها، وسوابق تطلعاتها فيما كانت تشجعه وتسري به عنه.

وكانت منه ﷺ في حديثه إلى زوجه الكلمةُ المعبِّرة أبلغ وأصدق تعبير

عن كل هاجس هجس به ضميره ﷺ في صدد ارتياعه من مفاجأة الغار وتحمل أعباء الرسالة: (أي خديجة: مالي؟ لقد خشيت على نفسي) هكذا رواها مطلقة عن ذكر أي سبب لخشيته على نفسه، ودواعي تلك الخشية شيخ الدنيا في صدق الرواية، وفقه الحديث النبوي الإمام البخاري في ثلاثة مواضع من جامعه الصحيح: في باب (كيف بدأ الوحي) وفي كتاب التفسير ﴿سورة اقرأ﴾ وفي كتاب (التعبير)، فمن أين تسللت التقحمات التفسيرية لدواعي الخشية وأسبابها، ومن أي باب دلفت إلى ساحة القداسة النبوية التخرصات التفسيرية بالجنون تارة، وبالكهانة أخرى، ومحمد ﷺ نبي أوحي إليه بنوع أو أنواع من مراتب وحي النبوة قبل حادث الغار بثلاث سنوات ـ ومع النبوة العصمة ـ وحادث الغار هو الذي تحدث عنه إلى زوجه، وقال لها: (لقد خشيت على نفسي) بل لقد كان في بعض مراتب وحي النبوة بالرؤيا الصادقة أنه ﷺ ـ كما في حديث عبيد بن عمير ـ جاءه جبريل في منامه وأقرأه عين الآيات الخمس من أول سورة (اقرأ) التي أقرأها له في وحي اليقظة في غار حراء، مصحوبة بالغتّ، وتكرار طلب القراءة.

فهل يقيم العلم الصحيح وزناً لهذه الآراء التفسيرية والأقاويل التخرصية التي يقذف بها أصحابها ـ مهما كان شأنهم بين أهل العلم، وهم ليسوا بمعصومين ـ هنا وهناك، فتصيب النبوة في قداستها، ثم يأتي من بعدهم خلف حسنت نياتهم في قائلي تلك الأقاويل، فيتأولونها، ويتعسفون في التأويل، لتخريجها تنزيهاً لقائليها عن وصمة الخطأ في الرواية والنقل، أو الخطأ في قبول وتسليم ما قيل دون تأمل في معناه، وما يترتب عليه من عواقب وخيمة؟.

فهل كان مقام أصحاب تلك الأقاويل التخرصية في تنزيههم عن وصمة الخطأ والتماس المخارج لأقاويلهم أجلُّ وأعظم من مقام النبوة في صونها وتنزيهها عما يخدش قداستها ويمس جلالها؟.

وإذا كان النبي ـ أي نبي ـ بمعرض لهذه التقحمات التخرصية بعد تحقق نبوته بوحي ثابت فماذا بقي له من شرف الاصطفاء وقداسة النبوة

وما يجب لها من العصمة عن المزالق التي تهز الثقة بها؟ وكيف تمكن الثقة به وبما يقوله مبلِّغاً عن الله تعالى ما دامت هذه التخرصات تلاحقه في نبوته؟.

سبق بعض أجلة العلماء في تزييف هذه التخرصات المقحمة.

إننا لا نتردد في الجهر بالقول: أنه يجب ألا يقام لهذه التخرصات الاحتمالية - التي لم تستند إلى قول قاطع قاله رسول الله ﷺ - وزن في شرعة العلم ومنهاج النبوة، وسنن الله تعالى مع النبيين والمرسلين.

ولنا في بعض الأجلّة من حذاق المفكرين في معارف الإسلام ومبادئه أسوة في الجهر ببطلان هذه الأقاويل المتخرصة، ولكن من غلب عليهم حسن الظن وسلامة الطوية تشبثوا بهذه الأقاويل، وراحوا يتأولونها ويخرجونها، ويلتمسون لها التوجيه، يقول الإمام ابن حجر في الفتح: والخشية المذكورة اختلف العلماء في المراد بها على اثني عشر قولاً، وقد ساقها ابن حجر سرداً دون توجيه أو نقد، فيما عدا القول الأول، فقد نقده وأيد رأي أبي بكر بن العربي الفقيه في قطع الحكم ببطلانه، ولكن ابن حجر ساق كلام الإسماعيلي في توجيه هذا القول الباطل وقبوله، ونحن نورد هذه الأقوال مع التعليق والنقد والتوجيه لما يمكن أن يوجه منها، ونقف مع القول الأول بالبحث والإبطال، لأن الإمام ابن حجر لم يقتصر على موافقته وتأييده لأبي بكر بن العربي الفقيه في قطع الحكم ببطلان هذا القول، ولو فعل لكان في اقتصاره على البطلان تحصين عامة الباحثين من بعده عن الانزلاق في هاوية الاستسلام لهذه الأباطيل، ولكنه ساق بعد تأييده لرأي ابن العربي كلام الإسماعيلي في الدفاع عن هذا القول المتخرص، وتسويل قبوله.

ضرر هذه التخرصات وخطر الدفاع عنها

والإسماعيلي إمام له مكانته المرموقة، وشهرته بين أهل العلم، ولا سيما بين المحدثين ورجال الرواية، وحسبه أن الحاكم يقول عنه: كان واحد عصره، وشيخ المحدثين والفقهاء وأجلّهم رياسة.

وهذه المكانة العلمية لهذا الإمام هي التي توجب علينا مناقشة كلامه، وإبطال ما ينبغي إبطاله، خشية أن يستغله أعداء الإسلام من الملاحدة متشبثين بمكانة الرجل في فضله وعلمه، ويفتح لهم منافذ الطعن في النبوة

ورسالات الرسل عامة، ورسالة الإسلام خاصة، وأعداءُ الرسالات الإلّهية في هذا العصر المادي الكفور أكثرُ من أن يحصَوا دولاً وشعوباً، وأفراداً وجماعات، وحكاماً وزعماء، وهم أجرأ على الباطل الجَحود وأكفر، ولا يزال الإسلام يعاني من تعصب بعض المستشرقين المتسترين بغلالات العلم والبحث، ومن ورائهم سائر المبشرين بالصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين، ولهؤلاء وأولئك مريدون وتلاميذ مقلِّدون، من أبناء جلدتنا، يتعالون تعالياً، ويتهانفون تقليداً، ينفخون في أبواق مدربيهم، وينشرون سمومهم في أفئدة الشباب المسلم ليفسدوا إيمانه وعقيدته.

لأن هذا الشباب ليس له من وسائل الحماية لإيمانه وعقيدته وأفكاره ما يمكِّنه من نقد الفِكَر الملحدة، وهو في كثرته الكاثرة لم يدرس مبادىء الإسلام في عقيدته وشريعته، ولم تتح له فرصة لهذه الدراسة، فجامعات الوطن الإسلامي شرقاً وغرباً لاتدرس الإسلام على حقيقته ولاتعرفه، وأساتذة هذه الجامعات تلاميذ أولئك المتعصبين ضد الإسلام، غرسوا في أفئدتهم الإلحاد الجهول، فلقنه هؤلاء لتلاميذهم الأغرار المخدوعين.

قال ابن حجر - رحمه الله - في سرد أقوال العلماء في المراد بالخشية:

الأقوال التي قيلت في المراد من الخشية وتوجيه ما يمكن أن يصح منها.

أولها - الجنون، وأن يكون ما رآه من جنس الكهانة، جاء مصرّحاً به في عدة طرق، وأبطله أبو بكر بن العربي، وحق له أن يبطل، لكن حمله الإسماعيلي على أن ذلك حصل له قبل حصول العلم الضروري له أن الذي جاءه ملَك، وأنه من عند الله تعالى.

وهذا الكلام بسياقته صريح في أن ابن حجر جعل الجنون والكهانة أمراً واحداً، وقولاً واحداً، وهما في الواقع أمران، وقد يمكن اعتبارهما قولاً واحداً، قال بهما فريق من البُله الحمقى، على معنى تجويز هذا، وهذا، أي أنه ﷺ خشي على نفسه الجنون، أو خشي أن يكون ما رآه في الغار من جنس الكهانة، والجنون لا يجتمع مع الكهانة في شخص واحد، في زمن واحد، لأن الكهانة دهاء مشعبذ، يضحك من الناس ويشعوذ عليهم، فصاحبها شرير من أغزر الناس دهاء ومكراً، والجنون ذهاب العقل

واضطراب وتخليط في التفكير والعمل، ولو كانت الكهانة جنوناً ما استطاع أصحابها أن يضحكوا من الناس، ويلعبوا بعقول العقلاء، والكهانُ كانوا في الجاهلية محكَّمين في أمور الناس وحياتهم.

وكيفما كان الأمر فهما في مقام بيان المراد بالخشية من أبطل الباطل، وأمحل المحال منفردين أو مجتمعين.

ثانيها ـ الهاجس، ومعنى ذلك أن الخشية التي اعترت النبي ﷺ كانت من قبيل ما يهجس في النفس، أي يعرض لها بما يخيفها، عرضاً خاطراً، دون تحقق شيء مخيف، قال ابن حجر: وهذا باطل أيضاً، لأن الهاجس لا يستقر، والذي وقع للنبي ﷺ كان أمراً مستقراً ثابتاً، بدليل حصول المراجعة بينه وبين جبريل، والمراد مراجعته في طلب القراءة بقوله ثلاث مرات: (مَا أنا بقارىء).

ثالثها ـ الموت من شدة الرعب، ومعنى هذا أن النبي ﷺ حصل له من المفاجأة وما حف بها رعب شديد، بلغ به أنه خاف على نفسه الموت من شدة ما كابد وعانى في الغط، وقد يؤيد هذا القول ما ورد في مرسل عبيد ابن عمير من قوله ﷺ: فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ، قلت: «ما أقرأ» «فغتني به حتى ظننت أنه الموت» فظن الموت من شدة الغتّ توجب شدة الرعب، فتكون خشية الموت من شدة الرعب الذي ترتب على شدة الغتّ جائزة الوقوع سائغة القبول.

ويكون إخباره ﷺ خديجة أنه خشي على نفسه معناه أنه خاف على نفسه الموت من شدة ما وقع له من تكرار الغط وشدته التي بلغت منه أقصى جهده واحتماله، نظير ما وقع له في رؤيا النوم.

رابعها ـ المرض، وقد جزم بهذا القول ابن أبي جمرة، ولعل معنى هذا القول أن النبي ﷺ خشي من شدة ما لقي من أثر المفاجأة وتكرار الغط البالغ نهاية الشدة ـ على نفسه المرض، وأن يقعده ذلك عن القيام بما كُلفه من تبليغ رسالة ربه، فيرجع هذا القول إلى معنى العجز عن حمل أعباء الرسالة، وهو بهذا التوجيه سائغ مقبول.

خامسها ـ دوام المرض، ويشبه أن يكون هذا القول هو القول السابق بتوجيهه الذي ذكرناه، ولم يعرف عن النبي ﷺ أنه كان يشكو مرضاً في أيام جواره في الغار حتى يخشى على نفسه دوام المرض، وإنما معنى هذا القول أن ما وقع له ﷺ من شدة الغط وروعة المفاجأة نال من بشريته بما أتعبه وأمرضه، وخشي على نفسه أن يدوم هذا المرض، فيعجز عن حمل أعباء الرسالة.

سادسها ـ العجز عن حمل أعباء الرسالة، وهذا هو القول السديد الذي ينبغي أن تؤول به الخشية، والروايات بمنطوقها ومفهومها وجو الأحداث تؤيده، كما بيناه فيما سبق.

سابعها ـ العجز عن النظر إلى المَلَك من الرعب، وهذا القول يفيد أن الملك فاجأه بصورة غير بشرية فرعب منه، وخشي على نفسه أن يعجز عن النظر إليه لتلقي الوحي منه، وقد يتأيد هذا بما وقع للنبي ﷺ من الغَشْي حينما رأى جبريل عليه السلام على صورته التي خلق عليها، وحينما رآه سادّاً الأفق وهو جالس على كرسي بين السماء والأرض.

ثامنها ـ عدم الصبر على أذى قومه، وهذا القول يدخل في حيز القول بخشية العجز عن حمل أعباء الرسالة، فهو بسبب من أسبابه فهما كالقول الواحد.

تاسعها ـ أن يقتله قومه إذا بلَّغهم رسالة ربه، قال القسطلاني في المواهب وشارحه الزرقاني: ولا غرو في خشيته ذلك وإن كان سيد أهل اليقين، لأن ذلك مما يرجع إلى الطبع، فإنه بشر يخشى من القتل والأذية، كما يخشى البشر، ثم يهوِّن عليه الصبر في ذات الله كل خشية، ويجلب إلى قلبه كل شجاعة وقوة.

وهذا القول ـ في رأينا ـ يرجع أيضاً إلى خشية العجز عن حمل أعباء الرسالة وعدم الصبر على أذى قومه.

عاشرها ـ مفارقة الوطن، وهذا مما يمكن أن يكون قد دار في خلد

رسول الله ﷺ، وألمَّ بخاطره، فإن مجيئه لقومه بما يخالف ما هم عاكفون عليه، منغمسون في حمأته من وثنية وعوائد فاسدة وأخلاق مرذولة ونظم ظالمة، يجعلهم يضيقون به وبوجوده بينهم ليغير حياتهم وينقلهم إلى حياة تباعد بينهم وبين هذا الفساد الذي ألفوه وارتضوه لحياتهم وعاشوا به، فلا أقل من محاولة التخلص منه بإبعاده عنهم، وإخراجه من بلده ودياره، وذلك من أشق ما يكون على النفس، بدليل ما جاء في حديث ورقة بن نوفل حينما قال للنبي ﷺ: ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فاستعظم النبي ﷺ ذلك استعظاماً كبيراً، فقال منكِراً متعجباً: (أومخرجيّ هم؟) وهذا القول في بيان المراد من الخشية مما لا يمتنع قبوله.

حادي عشرها ـ تكذيبهم إياه، وهذا أمر طبيعي الوقوع، فخشيته ﷺ أن يكذِّبوه في دعوته وسيلة إلى توقع الأذى منهم، وحينئذ يدور في خواطره تساؤل: هل يصبر على أذاهم، ويقوى على الدأب في تبليغ رسالة ربه، غير مبال بما يكون منهم؟ أو لا يصبر على الأذى؛ فيعجز عن حمل أعباء رسالته؟.

ثاني عشرها ـ تعييرهم إياه، وهذا قول لا محصل له، لأن خشية التعيير لا تكون إلا إذا كان التعيير بأمر معيب، يسوء الإنسان في أخلاقه وسلوكه، والنبي ﷺ قد أتى قومه، وأتى العالمين بما لم يأت أحد من الأنبياء والمرسلين بمثله خيراً وبراً وهُدى وعدلاً ورحمة وطهارة عقيدة وسمو أدب، فَبِمَ يعيرونه؟ حتى يخشى هذا التعيير، ولا يمكن أن يقع ذلك منه ﷺ إلا إذا كان على معنى مجرد مخالفتهم لما كانوا عليه من سوء العقيدة ورذائل العادات التي ألفوها، وأصبح من العسير عليهم خروجهم منها، وقد يتأنس لذلك بخشيته ﷺ من تعييرهم إياه بمخالفتهم في كثير من أعرافهم وعاداتهم الباطلة كما وقع ذلك في خشيته ﷺ تعييرهم له بزواجه امرأة مولاه زيد بن حارثة الذي كان يدعى فيهم زيد بن محمد، فأخفى في نفسه ما أظهره الله زواجه بها قطعاً لدابر عادة فاسدة، وعرفه أنه سبحانه أحق بالخشية من الناس لأن الله يقول الحق، ويشرع لعباده الحق والعدل، وأولئك القوم الذين تخشاهم كانوا أولياء الشيطان شرع لهم الأباطيل والأضاليل، فتمسكوا بها وتأصلت في نفوسهم.

ولكن رسول الله ﷺ هو القدوة للمؤمنين في هدم أباطيل الشرك وأضاليل الوثنية ورذائل الجاهلية ومفاسدها، ولهذا جعله الله المثل المشهود في هدم هذه العادة الظالمة من عاداتهم المتأصلة في أخلاقهم، فزوجه السيدة زينب بنت جحش التي كانت زوجة لمولاه زيد الذي كان يدعى زيد بن محمد بالتبني بعد أن طلقها زيد، فكانت بهذا التشريع الحكيم إحدى أمهات المؤمنين.

ترجيح ابن حجر غير راجح

قال ابن حجر بعد سوقه لهذه الأقوال بهذا الترتيب التي أوردناها على نهجه: وأولى هذه الأقوال بالصواب، وأسلمها من الارتياب، القول الثالث واللذان بعده، وما عداها فهو معترض.

وبالتأمل في توجيهنا لهذه الأقوال يعرف القارىء ما في كلام الحافظ ابن حجر من ترجيحه القول الثالث، وهو كما في ترتيبه القول بأن المراد بالخشية الموت من شدة الرعب والقولين بعده في الترتيب، أي القول الرابع، بأن المراد بالخشية المرض، والقول الخامس في الترتيب بأن المراد بالخشية دوام المرض.

وهذه الأقوال التي رجحها الحافظ ابن حجر من أضعف الأقوال الاثني عشرة التي ذكرها، وقد يلمح الباحث أننا في توجيهنا سابقاً ولاحقاً نرجح القول السادس في ترتيب الحافظ، وهو أن المراد بالخشية العجز عن تحمل أعباء الرسالة، والقيام بتبليغها إلى الأمة، ويليه في ترجيحنا القول الثامن، وهو أن المراد بالخشية عدم الصبر على أذى قومه، وهذا القول متصل بمضمونه بخشية العجزِ عن تحمل أعباء الرسالة.

ولا ضير مطلقاً أن يخشى رسول الله ﷺ بعد يقينه في لقاء الغار أنه كُلِّف ما لم يكلفه أحد قبله ـ وقد بسطنا القول في ذلك ـ أن تقوم في سبيله بعض العوائق والعقبات التي قد تعجزه عن القيام بموجبات تبليغ رسالته وحماية دعوته، فأبدى ذلك لزوجه وسَكَن نفسه، الوفية الأمينة، فأخبرته بما ترى بفراستها وتوسمها في حياته وجبلته التي فطره الله عليها من المكارم الخلقية التي لا يخزي الله من حلّاه بها طبعاً وفطرة، فزادته تثبيتاً على ثباته،

ويقيناً على يقينه، فكأنها رضي الله عنها قد كشفت له عن أصالة فطرته في المكارم التي كان على أكمل يقين منها، وأتم معرفة بها، ظناً منها رضي الله عنها أن ما نال بشريته من روع المفاجأة وشعوره ببهظ ما كُلِّفه قد ضخّم في خواطره الأعباء التي تنتظره في مستقبل دعوته، بصورة جعلته ﷺ يخشى العوائق والعقبات، وهذا أمر طبيعي في البشرية فيما هو دون ذلك بمراحل ومراحل، وأحق من يزن الأحداث بميزان تقديرها حق قدرها رسل الله وأنبياؤه، وأحقهم بذلك أعمهم رسالة وأعظمهم دعوة خاتم النبيين محمد ﷺ.

ومن غريب ما وقع في هذا الموضع أن العلامة الزرقاني شارح مواهب القسطلاني ذكر القول في بيان المراد بالخشية: تعييرهم إياه قولاً رابعاً في الترتيب، ثم قال: قال الحافظ ـ أي ابن حجر ـ: وهذان القولان ـ أي القول بالموت من شدة الرعب، والقول بتعييرهم إياه ـ أولى بالصواب، وأسلمها من الارتياب، وهذا خلاف ما صرح به الحافظ ابن حجر في الفتح، وقد نقلنا عبارته قبل هذا التنقيح للأقوال، وقد رجح فيها القول الثالث والرابع والخامس في ترتيب سياقه، وقد أوضحنا ما يقتضيه البحث العلمي في هذه الأقوال.

وحسب القلم من حديث عن هذه الأقوال التي قيلت في بيان المراد من قوله ﷺ: (قد خشيت على نفسي) ما نثر من رشح مداده، فإن فيه ري الظمأ، وثلج البيان.

وقفة ناقدة في بيان زيف وبطلان القول الأول

بيد أن أول هذه الأقوال ـ في ترتيب الحافظ ابن حجر كما نقلناه عن الفتح، وهو القول الأحمق الذي زعم زاعمه أن المراد بالخشية الجنون، وأن يكون ما رآه ﷺ من جنس الكهانة ـ يشد القلم إليه لبيان زيفه وبطلانه، وحماقة قائله، وبَلَه من يقبله ويرتضيه قولاً، ويحكى في أعطر سيرة لأفضل الأنبياء وأشرف المرسلين مهما كانت شهرة قائله.

وقد كان في نقد الحذّاق من أئمة العلم لهذا القول الأحمق، وإبطاله وتزييفه ما يكفي لراحة القلب من همه وغمه، فقد أبطله الإمام الحاذق الفقيه

المفسر أبو بكر بن العربي، ولم يقم وزناً في موازين العلم لقائله، ولم يعبأ به باحثاً من الباحثين المفكرين، وقد شدّ أزر ابن العربي وأيده في قطعه الحكم ببطلانه الإمام الحافظ العلامة ابن حجر، فقال بعد أن ذكر إبطال ابن العربي له: وحق له أن يُبطل.

غير أن ابن حجر لم يشأ أن يترك هذا القول الأحمق تهوي به عواصف الإهمال إلى أودية الفناء، ولكنه أداء لحق استيفاء البحث ذكر أن هذا القول جاء مصرحاً به في عدة طرق، ولم يبين ما هو وزن هذه الطرق التي جاءت مصرحة بهذا القول الأحمق، ومن هو الذي أسند إليه التصريح به؟

وسيرى القارىء أن من هذه الروايات والطرق المتهافتة المتهاوية التي صرحت بهذا القول ما رواه ابن سعد عن شيخه الواقدي، وسنبين وزنها في نظر جهابذة المحدثين.

وإلى هنا ليس في أمر هذه الأقوال ما يحمل القلم على إطالة الوقوف معها، فقد بان أمرها، وانكشف سرها، وهان خطرها، ولكن الحافظ ابن حجر مع تأييده لبطلان هذا القول الأحمق ـ على رغم قوله: جاء مصرحاً به في عدة طرق، فلم يرفع لهذه الطرق رأساً، ولم يعبأ بها بحثاً، وابن حجر في عدم عبئه بهذه الروايات والطرق التي صرحت بهذا القول هو من هو في وزن البحث الحديثي، فموقفه هذا يكشف عن زيف هذه الطرق ويكشف عن زيغها، لأنه ليس من المعقول، ولا من المقبول في شرعة البحث العلمي أن تكون هذه الطرق أو بعضها يستند إلى شبه دليل يقيها التهافت والضعف، بل الزيف والبطلان، ثم يقف منها الحافظ ابن حجر موقف عدم الاعتداد بها وإهمالها، والجزمُ ببطلان القول التي جاءت مصرحة به ـ أعطى لهذا القول وزناً يخدع الأغرار الذين يقبلون أقوال الرجال بوزن أسمائهم في طبقات العلماء، لا بوزن آرائهم وأفكارهم في سجل البحث العلمي الذي يستهدف الحق، فنقل عن أبي بكر الإسماعيلي شيخ عصره في الحديث والفقه ـ كما يقول عنه الحاكم ـ أنه حمل هذا القول على أنه ـ أي خشية الجنون، وأن ما رآه ﷺ من جنس الكهانة ـ حصل للنبي ﷺ قبل أن

يحصل له العلم الضروري أن الذي جاءه ـ أي في الغار ـ ملك من عند الله .

مناقشة أبي بكر الإسماعيلي في تلمسه توجيه أفسد هذه الأقوال

ونحن عبر القرون نتخطى درجات الزمن، ونسأل الإمام أبا بكر الإسماعيلي ، ومن يعتد بدعمه لهذا القول بعده من المفكرين والباحثين إلى يومنا هذا، وإلى يوم تتهدد فيه مكانة العقل الإنساني في جدية البحث العلمي ، ولا سيما فيما يختص بأخطر أمور الدين والنبوة والرسالة عامة، ونبوة ورسالة الإسلام خاصة ، ليكشف لعقلاء المفكرين عن حقيقة قوله : إن ذلك ـ أي خشية الجنون والكهانة ـ حصل للنبي ﷺ قبل أن يحصل العلم الضروري له أن الذي جاءه ملك، وأنه من عند الله تعالى، فنقول: في كم شهر، أو في كم سنة، يحصل العلم الضروري ـ أي الملجىء ـ للنبي ﷺ أن الذي جاءه في الغار ملَك، وأنه من عند الله تعالى؟، وأن ما رآه في الغار، وسمعه، وكابده من روعة المفاجأة، وطلب القراءة منه، وهو الأمي الذي لم يقرأ قط، وما تبع ذلك من الغط الشديد الذي بلغ منه الجهد حتى ظن أنه الموت، وتكرار ذلك ثلاث مرات، وإقرائه في المرة الرابعة خمس آيات من الكتاب الكريم، هي أوائل سورة (اقرأ) وهي أول ما نزل من القرآن العظيم، ورَجْعه بها إلى أهله محفوظة مذكورة ـ ليس من جنس الكهانة والجنون، وتلبيس الشياطين؟ .

وقد كانت نبوة نبينا محمد ﷺ ثابتة قطعاً بأكثر من مرتبة من مراتب وحي النبوة، وأثبت هذه المراتب وأقواها وحي الرؤيا المنامية التي اتفقت عليها جميع الطرق والروايات وأجمعت عليها الأمة إجماعاً لم يعرف له مخالف، وكانت هذه المرتبة من وحي النبوة مع غيرها من المبشرات والإرهاصات أسبق زمناً ـ بمدة أقلها ستة أشهر كما خرجه البيهقي ، وأكثرها ثلاث سنوات كما في حديث إسرافيل عند الشعبي ـ من حادث الغار الذي تلقّى فيه رسول الله ﷺ وحي المواجهة واليقظة بمفاجأة الملك، وطلب القراءة، والغط والمراجعة وبدء نزول القرآن العظيم بنزول أوائل سورة (اقرأ) مما بدأت به رسالة النبي ﷺ.

وأشهر روايات وحي النبوة بالرؤيا المنامية وأصحها ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري وغيره إذ تقول فيه: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة - وفي رواية الصالحة - في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح.

وهذا التعبير في أسلوب السيدة عائشة رضي الله عنها لا يقال في بيان الفصحى فيما وقع مرة أو مرتين وإنما يقال فيما يفيد الكثرة والتكرار.

الرؤيا الصادقة أول مراتب وحي النبوة

ومعنى هذا أن الرؤيا الصادقة كانت أول مرتبة في مراتب وحي نبوة محمد ﷺ، فكان ﷺ نبياً منذ بدأه الوحي بالرؤيا الصادقة، وقد ذكر البيهقي تحديداً لمدة وحي الرؤيا المنامية بستة أشهر، وهذا التحديد مما لا سبيل فيه للرأي والاجتهاد، ولا يمكن أن يقال بالظن والاستنباط، ولا بد في إثباته من النقل الصحيح عن رسول الله ﷺ، فهو وحده الذي يعلمه ويخبر به، ومنزلة البيهقي في السنة وعلوم الحديث وفنون الرواية أرفع قدراً من أن يقول ذلك تقحماً وتخرصاً دون أن يكون قد ثبت عنده رفعه إلى رسول الله ﷺ.

حديث الشعبي يثبت النبوة قبل حادث الغار ثلاث سنوات

وقد روى ابن سعد في الطبقات، وابن سيد الناس في (عيون الأثر) وغيرهما من أئمة الحديث عن الشعبي بأسانيد متعددة، وطرق مختلفة قال عنها القسطلاني في المواهب نقلاً عن روض السهيلي: فقد ثبت في الطرق (الصحاح) أن رسول الله ﷺ وكِّل به إسرافيل، فكان يتراءى له ثلاث سنين ويأتيه بالكلمة من الوحي، ثم وُكِّل به جبريل فجاءه بالقرآن والوحي.

قال ابن سعد: فذكرت هذا الحديث لمحمد بن عمر - الواقدي - فقال: ليس يعرف أهل العلم ببلدنا أن إسرافيل قرن بالنبي ﷺ، وأن علماءهم وأهل السيرة منهم يقولون: لم يقرن به غير جبريل من حين نزل عليه الوحي إلى أن قبض ﷺ.

وقد اعتمد السهيلي حديث الشعبي، ورجّحه ابن حجر على كلام الواقدي، فقال: إن الشعبي مثبت والمثبت مقدَّم على النافي.

وأنّى للواقدي أن يقرن بالشَّعبي أو يكون معه في ميزان؟ وكلام النقدة

وأهل الجرح والتعديل في الواقدي وضعفه معروف مشهور، وعدم معرفة أهل العلم ببلده أن إسرافيل قرن بالنبي ﷺ لا يصلح دليلاً على عدم صحة حديث الشعبي، فقد يكون هذا من العلم الذي لم يصل إلى أهل العلم في بلد أو وصلهم ولم يصل إليه منهم، وكم من العلم كان في بلد من بلاد الإسلام لم يصل إلى بلد آخر، وهذا النحو كان من مصادر اختلاف العلماء في الاجتهاد.

وترائي إسرافيل عليه السلام للنبي ﷺ وإتيانه إياه بالكلمة من الوحي - كما في حديث الشَّعبي - نبوة لا شك فيها، وإلا فكيف تُلقى الكلمة من الوحي لغير نبي؟.

حديث البيهقي يثبت النبوة قبل حادث الغار بستة أشهر

وإذا تجاوزنا عن التمسك بحديث الشَّعبي - وقد بيَّنا اعتماد السهيلي وتصحيحه وترجيح ابن حجر له - وهو صريح في أن مدة قرن إسرافيل به ﷺ، يظهر له، ويأتيه بالكلمة من الوحي - ثلاث سنوات كان فيها محمد ﷺ بيقين نبياً معصوماً، يوحى إليه، ولا سبيل للشك إلى قلبه، ولا سبيل للشيطان عليه، إذا تجاوزنا عن ذلك كان أثر البيهقي في تحديد مدة وحي الرؤيا المنامية بستة أشهر قائماً مستمسكاً يثبت نبوة محمد ﷺ وعصمته بما لا يدع مجالاً للشك، قبل وقوع المفاجأة في الغـار - ووحيها اليقظي الذي جاءت في روايته (الخشية) وتقحّم المتخرصين في تفسير المراد منها ما تقحموا - بزمن طويل يكفي لأن يحصل فيه العلم الضروري وأكثر منه بأن ما رآه وسمعه وكابده في الغار أمر من عندالله ووحيه، لا يخشى منه على نفسه جنوناً ولا كهانة.

وقد بينَّ حديث عبيد بن عمير، وحديث عبدالله بن أبي بكر بن حزم بصورة واضحة أسبقية وحي الرؤيا الصادقة؛ بما يشعر بطول مدتها قبل نزول وحي اليقظة في غار حراء الذي جاءت في قصته (الخشية)، فيكون فيهما تأييد لأثر البيهقي.

أفلا تكفي ستة أشهر - بَلْه ثلاث سنوات التي في حديث الشَّعبي - في أنوار النبوة ووحيها وإرهاصاتها وآياتها لحصول العلم الضروري للنبي ﷺ أن

الذي جاءه في الغار مفاجئاً، وغطَّه وأقرأه خمس آيات من القرآن العظيم هي أول ما نزل منه في أول سورة (اقرأ) ملَك، وأنه رسول من عند الله إليه، وأن هذا الرسول هو أمين الوحي جبريل عليه السلام، كيف وقد قال النبي ﷺ لخديجة رضي الله عنها كما ثبت في حديث ابن حزم: «أرأيتك الذي كنت أحدثك ورأيته في المنام فإنه جبريل استعلن».

وفي دلائل البيهقي من طريق أبي ميسرة مرسلاً أن النبي ﷺ قصَّ على خديجة ما رأى في المنام، فقالت له أبشر، فإن الله لن يصنع بك إلا خيراً، ثم أخبرها بما وقع له في النوم من شق البطن، فقالت له: أبشر إن هذا والله خير، ثم استعلن له جبريل، فقال لها: «أرأيتك الذي كنت رأيت في المنام فإنه جبريل استعلن لي بأن ربي أرسله إليّ» وأخبرها بما جاءه به، فقالت: أبشر، فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً، فاقبل الذي جاءك من الله، فإنه حق وأبشر فإنك رسول الله حقاً.

حديث أبي ميسرة يثبت أن النبي ﷺ كان على أكمل اليقين في علمه بأن من جاءه في الغار ملك من عند الله

وقد فرَّع الحافظ ابن حجر من هذا الحديث مسألة في أسبقية خديجة رضي الله عنها على جميع الناس إيماناً برسول الله ﷺ؛ مما يدل على قبوله عنده ـ وحسبك به في هذا المجال ـ فقال: هذا أصرح ما ورد في أنها أول الآدميين آمن برسول الله ﷺ.

فحديث أبي ميسرة عند البيهقي صريح في أن النبي ﷺ كان على أكمل اليقين بأن الذي جاءه في المنام وشق بطنه وأعاده، ثم استعلن له في مفاجأة الغار هو ملَك، وأنه رسول إليه من عند الله، بل كان على أكمل اليقين أنه هو أمين الوحي جبريل عليه السلام، وهذا موافق تمام الموافقة لحديث ابن أبي بكر بن حزم، وهذه الموافقة تؤكد أن النبي ﷺ كان على أكمل العلم الضروري بأن الذي جاءه في الغار ملك، وأنه من عند الله، بل إنه هو جبريل أمين الوحي عليه السلام.

كيف وقد رآه معاينة، وشاهده جهرة عقب رؤياه مناماً في رؤيا نمط الديباج، وأقرأه الآيات الخمس التي أقرأه إياها في مفاجأة الغار كما ورد في حديث عبيد بن عمير من قوله ﷺ: «فخرجت حتى إذا كنت في وسط من

الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل».

أفلا يكفي ذلك كله لحصول العلم الضروري عند محمد ﷺ أنه نبي يوحى إليه، وأن الله تعالى أرسل إليه الروح الأمين في صور من مراتب الوحي المنامي واليقظي ليخبره أنه رسول الله، وأن الذي يراه ويحدثه هو حامل كلمة الله إليه جبريل عليه السلام؟.

أولا يكفي ذلك كله لتحقيق العصمة العامة التي يجب أن يتصف بها كل نبي لله تعالى، فلا يعتريه مسّ من الشك في نبوته ووحي الله إليه، ولا يكون للشيطان عليه سبيل، يلبس عليه أمر ربه في وحيه ونبوته؟.

أولا يكفي ذلك كله ليملأ قلب محمد ﷺ يقيناً فوق مستوى العلم الضروري، فلا يختلج في نفسه أن رؤيته لملَك الوحي معاينة مواجهة - يحاوره ويراجعه، ويضمه إليه استفراغاً لبشريته مرات، ويشافهه بما أنزل عليه، فيقرئه خمس آيات بينات من القرآن المبين، هي في موضوعهن معجزة المعجزات - جنون أو من جنس الكهانة وعبث الشياطين.

صرخة في أذن التاريخ لتصحيح الأغاليط

يا أئمة العلم، يا سدنة الإيمان: ألا سمعتم إلى صوت العقل العليم، والإيمان الكريم، وهما يقولان لكم: انظروا عمن تتحدثون؟ وفيم تتحدثون؟ وإلى من تتحدثون؟ إنكم تتحدثون عن محمد رسول الله ﷺ، خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وهو الذي صنع منكم سدنة لكعبة الإيمان في أمته، وهو الذي أطلعكم شموساً من آفاق دعوته وبه كنتم هداة بهداية رسالته، وأورثكم بعده نور شريعته، لتنيروا الطريق أمام الحياة، وتدرأوا عن العقول المشابه والشكوك، وهو الذي قعدتم باسمه وهَدْي نبوته مقاعدكم على ذرى التبجيل والإعزاز.

أفليس من بدائه حقه ﷺ في أعناقكم خاصة أن تقدِّروه حق قدره؟ وأن تعرفوا له مكانه من العصمة في وحي الله إليه منذ أول لحظة اصطفاه الله

فيها لنبوته؟ واستنبأه فيها بوحيه، وأن تعرفوا له منزلته من عين اليقين في كل ما رأى وسمع وكابد في أول مفاجأة بوحي اليقظة الذي بدأت به رسالته، ونزلت عليه في هذا الوحي اليقظي آيات من القرآن الحكيم بعد نبوته التي ظل مغموراً بأنوارها ثلاث سنوات، كما في حديث إسرافيل عند الشعبي، أو ستة أشهر، كما رواه البيهقي؟.

يا أئمة الهُدَى، وسدنة الإيمان، ألا قدَّرتم حين تحدثتم عن رسالة محمد ﷺ في أول مراتب وحيها أنكم لا تتحدثون عن مسألة فقهية يسوغ فيها اختلاف الاجتهاد، وقد يخف فيها الخطأ، ولكنكم تتحدثون في الوحي الذي تثبت به رسالات الله تعالى إلى المصطفين من أنبيائه ورسله ليكونوا سفراءه إلى خلقه، يبلغونهم عنه شرائعه وهداياته، وهذا الوحي لو دخله شيء ـ أدنى شيء ـ من الشك واحتمال التلبيس لما أمكن لأكثر العقول أن تطمئن إلى حصول يقين يزيح هذه الشكوك.

وقد انتهى الوحي لسائر الأنبياء والمرسلين إلى الوحي لخاتمهم محمد ﷺ، فإذا تعرض هذا الوحي المحمدي لأدنى شبهة لم يكن من الممكن استفتاح القلوب والعقول لهداية الرسالة الخاتمة لرسالات جميع المرسلين.

وإذا تعرض صاحب هذه الرسالة لشبهة شك في تلقيها ـ بَلْه الكَهانة والجنون ـ لم يكن هناك سبيل للإيمان بدعوته وتقبُّل هدى رسالته؛ لأن ضباب الشك يحجب أشعة العلم بالحق، ومع وجود هذا الضباب كيف يمكن إقناع الناظرين بوجود أشعة الحق من وراء هذا الضباب؟.

يا أعلام الهدى؟ هل فكَّرتم حين تحدثتم عن الوحي في مطلع رسالة محمد ﷺ، وهو ينزل عليه بآيات بينات افتتح بها نزول القرآن الكريم أنكم تتحدثون إلى المسلمين أمة محمد ﷺ في مشارق الأرض ومغاربها، وإلى خاصتهم وعامتهم، علمائهم ومتعلميهم، وأغمارهم، وكل هؤلاء وضعوا في أذهانهم صوراً لكم من الإعجاب، وأحاطوها بالقداسة والإجلال، فكيف بهم وبكم وهم يرون بعضاً ممن ينتسب إلى الذروة في أمة محمد ﷺ رضي لدينه وعلمه وعقله أن ينسب إلى محمد ﷺ أنه شك في وحي ربه إليه

ـ ولو لحظة ـ وأنه خشي أن يكون هذا الوحي إليه جنوناً أو كهانة؟.

إن هذا التقحم المتخرص في تفسير بعض الألفاظ يفتح الأبواب لمن ولجوا إلى ساحة الإيمان ليخرجوا منها حتى يجدوا اليقين فيعودوا إليها معه، وأنّى لهم باليقين مع احتمال الشك والتلبيس؟.

أعداء الإسلام يتسقطون هذه الفلتات الخاطئة

يا قادة الفكر في الإسلام، هلَّا مددتم أنظاركم إلى آفاق الدعوة الإسلامية الشاملة أقطار الأرض وأجيال الإنسانية أينما حلوا وحيثما وجدوا، وعلمتم أن أحاديثكم التي تتحدثون بها بألسنتكم وأقلامكم عن رسالة الإسلام وحياة رسولها محمد ﷺ لا تقف عند مسامع المجتمع المسلم الذي قد يكون له من إيمانه بقداسة الرسالات الإلٓهية ما يحميه من الريب والاضطراب في عقيدته، ولكنه ينتشر في آفاق الحياة، فتسمعه آذان غير مسلمة، ويدخل عن طريقها إلى قلوب قد تحمل البغضة والعداوة للإسلام، ورسول الإسلام، وأصحاب هذه القلوب الحاقدة يقفون متربصين بهذا الدين ورسالته دوائر الفلتات الخاطئة التي تنزُّ بها أقلام وألسنة من وُضعوا من الإسلام موضع القيادة الفكرية، فإذا عثروا على فلتة خاطئة تنادَوا إليها، وطاروا بها فرحاً، وتجمعوا حولها، وجعلوا منها قضية فكرية يهاجمون بها الإسلام في رسالته وفي حياة رسوله، ولا سيما إذا كانت تلك الفلتة الخاطئة مما يتعلق بأصل أصول الإسلام، بالوحي الذي بدأت به رسالة الإسلام، ويتخذون منها مورداً للمطاعن التي تقوض دعائم الإيمان في نفوس الذين لم يرسخ إيمانهم، بله الذين في قلوبهم مرض من الذين يكثر بهم سواد المسلمين (الجغرافيين) وهم غثاء كغثاء السيل، لا يستطيعون رد شبهة ولا إقامة حجة.

وإذا كان هذا موقف الحاقدين على الإسلام، الشانئين لرسوله ﷺ كفراً وحسداً من عند أنفسهم من فلتات أقلامكم وألسنتكم فهناك موقف من لم تبلغهم دعوة الإسلام أصلاً، أو بلغتهم بلاغاً مشوّهاً محرفاً عن حقيقتها تحريفاً وشَوَهاً يصدان عن سبيلها والنظر في حقائقها ـ وما جاءت به من عقيدة نظرية وعبادات عملية، وآداب خلقية وتشريعات نظامية ـ تبغيضاً

فيه، وطعناً في رسالته التي جاء بها محمد خاتم النبيين صلوات الله عليه.

وهؤلاء الذين لم تبلغهم دعوة الإسلام، أو بلغتهم في شَوَه وتحريف أسمع إلى صناديدهم، ومَنْ وسموه بالعلم والمعرفة من أحبارهم ورهبانهم وكهنتهم ممن يتزيا بزي أهل المعرفة، ويتسربل بسربالهم من مرتزقة الاستشراق والتبشير بالأضاليل الذين يتسقطون الفلتات الخاطئة من أقلام وأفواه الغافلين ممن اتسموا بسمات العلم في الإسلام، ويتلقفون الأخطاء يرجفون بها إرجاف الحقد الظلوم، يتزيدون فيها، وينشرونها هنا وهناك منسوبة إلى قائلها في جوّ من التهويل والطنطنة بأسماء من زعموا أنهم يمثلون الفكر المسلم.

هذه الفلتات الخاطئة تعصف بالعقول وتحرق القلوب

وتنزل آثار هذه الفلتات الخاطئة على قلوب المؤمنين برسالة الإسلام صواعق تحرقها، وعلى عقولهم عواصف تهزها بالشك المدمر، فتذيب عقائدهم، وتشرّد من طريق الإيمان برسالة الإسلام من لم تبلغه دعوته، وتتوتّد عقبة كؤوداً في سبيل الداعين إلى هدايتها، يعسر عليهم زحزحتها ما دامت تلك الفلتات الخاطئة تحف بها.

يا سدنة الإيمان، ما كان يضركم في دينكم وعلمكم لو أنكم حبستم هذه الفلتات الخاطئة في داخل هواجسكم ولم تسمحوا لها أن تطل برأسها على الحياة الفكرية في معارف الإسلام؛ حتى لا يفتتن بها ضعاف العقول من الذين يخلعون عليكم جلابيب القداسة في عالم الإسلام، وحتى لا تكون فتنة تشعل نيران الحقد في مرضى القلوب الذين يتربصون بالإسلام الدوائر من أعدائه المتعصبين عليه وعلى أمته وأوطانه؟.

ومرة أخرى ما كان يضركم لو رددتم هذه الفلتات الخاطئة على من تولى كبرها، وتقحّم تخرصها مهما كان شأنه؟ أكان ينقص رسالة الإسلام شيء تخافونه عليها لو لم تشت هذه الفلتات الخاطئة في تفسير بعض كلمات قد تكون مروية في بعض روايات الحديث، ولها مخارج من التفسير يبعدها عن نهج العصمة الواجبة للأنبياء، وتنأى بها عن مواقع الريب والشكوك في وحي الرسالة الخاتمة لرسالات السماء.

وكم من أحاديث وروايات سُمعت ورويت ثم أهملت ولم يقدَّر لها أن تثبت في سجل المعارف الإسلامية؟ وكم كان يحفظ شيخ الدنيا في الحديث الإمام البخاري من الروايات والأحاديث؟ وكم كان يحفظ غيره من شيوخه وتلاميذه، ومن سبقهم، ومن جاء بعدهم؟ إنهم وإنه كانوا يحفظون مئات الألوف مما يجل عن الحصر، وما الذي سجلوه في جوامعهم ودواوينهم مما حفظوا، إنه أقل من القليل وليس كل ما لم يثبتوه كان موضوعاً مكذوباً.

أفلو كانت هذه الفلتات التفسيرية أهملت عن قصد أو عن غير قصد أكان إهمالها وتركها يضر بالدين والعلم؟

يا هادي الطريق جرت، إنما هو والله الفجر أو البجر!!.

الإلحاد اليوم أطغى وأفتك بعقيدة المسلمين.

يا سدنة الإيمان، لو كنتم تعرفون ما تقاسي أمة الإسلام اليوم، وما يعانيه الإسلام من هجوم الإلحاد وطغيان الكفر «الجديد» ما رضيتم أن تثبتوا هذه الفلتات الخاطئة ولأرحتم أمتكم من آثارها القاسية.

إننا اليوم ـ حيث لا أنتم ـ نعاني من شدائد الإلحاد الحقود، والعداوة الكفور لإسلامنا ما لم يعرف مثله في تاريخ الإسلام، إننا اليوم حيث لا تستطيعون ـ وقد فارقتم الدنيا ـ تبيين ما نزَّت به ألسنة وأقلام، شحنت بها كتب التراث الإسلامي، تبييناً يرفع عنها الاحتمالات الضارة بالدين والدنيا، ويسد منافذ الشكوك في قداسة النبوة وجلال الرسالة الإلهية، ويذود عن حمى عصمة الأنبياء والرسل، ويطهر ساحة الرسالة المحمدية الخاتمة عن دنس الأباطيل ورجس التلبيس والشك مما قد يتعلق به أعداؤها ـ وما كان أكثرهم ـ من شبهات وأضاليل تنزُّ بها تخرصات متقحمة ـ نقول جهرة بصورة عامة: إن من أوجب واجبات علماء الإسلام في يومنا هذا أن يعملوا جادين مسرعين على تنقية التراث الإسلامي ومؤلفاته في سائر فنونه، ولا سيما فن الحديث والسنة النبوية، وفن تفسير القرآن من الفلتات الخاطئة والأكاذيب الضالة المضلَّة، التي دُسّت على الإسلام، أو قبلت رواياتها عقول بالغت في حسن الظن بالرواة والناقلين.

واجب علماء الأمة وأئمة الإسلام اليوم أن ينهضوا لتنقية التراث الإسلامي من الأغاليط والأضاليل

ولأن نخطىء في حذف ما عسى أن يكون صحيحاً ولكنه عسر الفهم، صعب التأويل خير من أن نبقى على فلتة خاطئة واحدة، أو دسيسة دخيلة واحدة، يتخذها أعداء الإسلام من ملاحدة العصر الكفور ذريعة للهجوم على حقائق الإسلام العقائدية أو التعبدية أو النظم الاجتماعية.

وبصورة خاصة إن كل ما قيل حول ما جاء في روايات بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ من كلام يشعر بأدنى شك في يقين رسول الله ﷺ بأن مَنْ جاءه في غار حراء يقظة، وأقرأه من القرآن أول ما أنزله الله تعالى عليه من أوائل سورة ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق﴾ هو جبريل أمين الله على وحيه إلى الأنبياء والمرسلين ـ هو كلام باطل لا تقبله عقول المؤمنين، وتقحّم في التأويل، وتخرص في الاستنباط يجب طرحه وإهماله، وتخليص دواوين السنة النبوية منه، تنزيهاً للرسالة المحمدية مما يخدش سموها وقداستها.

لم ترد كلمة خشيت على نفسي في أكثر الروايات

والكلمة التي وردت في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري: (لقد خشيت على نفسي) وزَعْمُ مَنْ زعم في تفسيرها ردّها إلى الكهانة والجنون لم ترد في كثير من روايات أحاديث بدء الوحي، فورودها في بعض الروايات مهما تكن مكانة وشأن من أوردها في روايته، ـ وهو غير معصوم عن الخطأ ودخول الخديعة عليه ـ لا يجوّز مطلقاً أن يلصق بها في تفسيرها وبيان المراد منها، وهو أمر ـ لو كان قد وقع ـ من أخص ما يجول في داخل نفس النبي ﷺ وهو لم يفصح عنه، ولا طريق لعلمه وراء ذلك ـ ما يتنافى مع ما يجب بداهة لمعنى العصمة، من التقحمات التفسيرية والتخرصات الباطلة، ما دام لها من منادح التأويل العَقُول والتفسير السويّ الطهور، ما يضعها موضعها من العلم والدين، ويصون قداسة النبوة بما يجب لها من الإعزاز والتكريم، ويحفظها عن الانزلاق في مهاوي الانحراف الذي يفتح على المسلمين منافذ التشكيك بما يلقيه أعداء الإسلام من المطاعن اعتماداً على تلك التخرصات التفسيرية الخاطئة والتقولات الباطلة.

ونحن نورد من الأحاديث التي وردت في موضوع بدء الوحي، وليس

فيها هذه الكلمة (خشيت على نفسي) أو ما يقرب من معناها ما يدغدغ الثقة بورودها حيث وردت، لأن عدم ذكرها في عدد من الأحاديث التي تتحدث عن بدء الوحي يجعل موقف الأئمة الذين لم يوردوها في رواياتهم موقف المتحفظ الذي لا يروي إلا ما ثبت عنده، وفهم معناه واهتدى إلى تأويله، وهذه الكلمة: إما أنها لم تثبت عندهم أصلاً، أو وردت عليهم ولكنهم لم يفهموا المقصود منها، لخفاء ذلك عليهم، إذ هو معنى يستقر في نفس النبي ﷺ، لم يفصح عنه في حديث صحيح، فكانوا بسكوتهم عن ذكرها أحوط لأنفسهم في دينهم وعلمهم، وأحوط للمسلمين في حوطهم من تسرب فتنة الشك إلى عقولهم وقلوبهم.

والكلمة ـ خشيت على نفسي ـ في ذاتها لا يتعلق بها غرض فكري أو شرعي، فتركها على فرض ثبوتها ـ لا يضير في نقص شيء من مهام الدين، فهؤلاء الذين تركوا هذه الكلمة في رواياتهم قد أقفلوا أمام المتربصين بالإسلام وأمام المتقولين عليه الباطل أبواب الأوهام والشكوك التفسيرية التي تثير الفتن الفكرية، وتهزّ العقيدة في إيمان جماهير المسلمين هزاً قد يقتلع جذورها من عقولهم وقلوبهم، ولا سيما الذين لم يتحصنوا فكرياً حصانة تصون الإيمان من لفحات العواصف الإلحادية والتعصُّب الحقود.

والذين ذكروا هذه الكلمة ـ خشيت على نفسي ـ في رواياتهم ـ وقد يكونون أرجح في ميزان الرواية ـ لثبوتها في منهجهم قد أدوا أمانة العلم، ولم يقتحموا سحائب الغيب ليقرؤوا ما عسى أن يكون لها من تقحم وتخرصات تفسيرية تهز العقيدة وتعصف بالإيمان.

وليس على واحدة من الطائفتين من سبيل، إنما السبيل على الذين تقحموا متخرصين في تفسير المراد من الخشية، حتى زعم بعضهم في تفسيرها وبيان المراد منها بما كان ويكون أمضى سلاح في يد أعداء الإسلام، ورسالة الإسلام ورسول الإسلام، وعلى الذين ظلموا أنفسهم فشمروا لتوجيه هذه المزاعم الفاسدة والدفاع عنها بما هو أفسد منها، وقد اخترنا سياقة ابن سيد الناس لهذه الأحاديث لجودتها.

حديث عبدالله بن أبي بكر بن حزم من رواية أبي بشر الدولابي

(١) روى ابن سيد الناس في (عيون الأثر) ـ وهو من أثبت علماء السيرة النبوية تحقيقاً وفقهاً في رواياتها، وأحاديثها ـ عن أبي بشر الدولابي بسنده إلى عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أنه كان من بدء أمر رسول الله ﷺ أنه رأى في المنام رؤيا فشق ذلك عليه، فذكر ذلك لصاحبته خديجة بنت خويلد فقالت: أبشر، فإن الله لا يصنع بك إلا خيراً، فذكر لها أنه رأى أن بطنه أخرج فطُهِّر وغسل، ثم أعيد كما كان، قالت: هذا خير فأبشر، ثم استعلن به جبريل، فأجلسه على ما شاء الله أن يجلسه عليه ـ وفي بعض الروايات ـ فأجلسني على درنوك ـ أي بساط له خمل ـ فيه الياقوت واللؤلؤ، وفي مرسل الزهري: فأجلسني على مجلس كريم معجب ـ وبشره برسالة ربه حتى اطمأن، ثم قال: اقرأ، قال: (كيف أقرأ؟) قال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علَّم بالقلم﴾ فقبل رسول الله ﷺ رسالة ربه، واتبع الذي جاء به جبريل من عند الله، وانصرف إلى أهله، فلما دخل على خديجة قال: (أرأيتك الذي كنت أحدثك ورأيته في المنام فإنه جبريل استعلن) أخبرها بالذي جاءه من الله عزّ وجلّ، وسمع، فقالت: أبشر، فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً، فاقبل الذي آتاك الله، وأبشر، فإنك رسول الله حقاً.

تعليق وتحليل وبيان

فهذا الحديث الذي لم يطعن فيه أحد، ليس فيه أن رسول الله ﷺ لما انصرف إلى أهله، قال لخديجة وهو يحدثها بما رأى علانية، وما سمع جهرة (خشيت على نفسي)؛ بل هو صريح في أن النبي ﷺ عرف معرفة يقينية، وعلم علماً فوق العلم الضروري الذي يقع في إدراك الناس أن الذي سبق أن جاءه في النوم، وحدث به خديجة هو أمين الوحي جبريل عليه السلام، قد استعلن له ـ أي ظهر له علانية في اليقظة ـ فأجلسه مجلساً عجيباً معظماً لقدره، وبشره مشافهة برسالة ربه حتى اطمأن رسول الله ﷺ، وأقرأه جبريل أوائل سورة (اقرأ). والاطمئنان في أسلوب العربية أجل من العلم الضروري الذي قد يقع نتيجة للبداهة التي قد تقتضيها العادات والأعراف السائدة في أي مجتمع من المجتمعات البشرية، أو نتيجة للبرهنة العقلية أو إدراك الحس ، وهذه أمور قد يعرض لها ما يحيلها علماً نظرياً يدخله الشك حتى

تدركه برهنة عقلية أخرى.

أما الاطمئنان فهو مشاهدة الحقائق كما هي في عين اليقين، فلا يمكن أن يدخله ما يغيِّر من حقيقة مدركه في واقعه الوجودي، ولذلك لما سأل الخليل إبراهيم عليه السلام ربه أن يريه: كيف يحيي الموتى، قال له الله جلّ شأنه: ﴿أوَلَم تؤمن؟﴾ أي أنت في خِلّتك، ومكانتك من النبوة والرسالة أكمل الناس إيماناً، فالاستفهام معدول به عن حقيقته الاستخبارية، لأن ذلك محال في حق الله تعالى، وإنما أريد به التقرير والتعجيب، ولذلك قال إبراهيم عليه السلام: (بلى) أي أنا مؤمن بعقلي إيماناً لا يخالجه أدنى شك لما أريتني من آياتك في ملكوت السموات والأرض، ولكني أريد من مزيد فضلك ما هو أجلّ وأرفع درجة من الإيمان بالعقل الذي هو حظ كافة الأنبياء والمرسلين والحكماء من سائر المؤمنين، وأنا أريد إيمان الاطمئنان القلبي بشهود الروح في مرتبة عين اليقين.

أفكان خليل الله إبراهيم عليه السلام في إيمانه الذي طلب معه مرتبة الاطمئنان القلبي بشهود إبداع الله تعالى في إحياء الموتى غير حاصل له العلم الضروري في إيمانه بأن الله تعالى يحيي الموتى؟ هذا ما لا يمكن أن يهجس به خاطر مؤمن، ولا يقوله عاقل.

ولقد كان خليل الله إبراهيم عليه السلام في رسوخ إيمانه على أرفع درجات العلم الضروري، ولكنه عليه السلام طلب من الله عز شأنه مرتبة الاطمئنان القلبي، وهي مرتبة شهودية، أجلّ وأرفع مما يحققه العلم الضروري في رسوخ الإيمان، لأنه طلب من ربه عزّ شأنه أن يريه رؤية شهود كيفية إحيائه ـ جلّ ذكره ـ الموتى، وهذه مرتبة فوق مرتبة رسوخ الإيمان الذي ينتهي في تعاظمه إلى أكمل اليقين.

وهذا الاطمئنان القلبي في أكمل درجاته ـ الذي طلبه خليل الله إبراهيم عليه السلام، وهو مرتبة فوق مرتبة رسوخ الإيمان، وهي التي يعبِّر عنها الشهوديون أرباب القلوب بمرتبة «عين اليقين» ـ كان حال نبينا محمد ﷺ في لقائه بأمين الوحي جبريل عليه السلام يقظة في غار حراء، وهو اللقاء الذي

بدأ به نزول القرآن الكريم، وبدأت به رسالة محمد ﷺ.

وقد كان ﷺ منذ اتخذه الله نبياً بوحي الرؤيا الصادقة، وما تلاها من مراتب وحي النبوة أرسخ الأنبياء والمرسلين إيماناً، وكان في مرحلة نبوته يزداد يقيناً بفضل الله عليه فيما يرى ويسمع ويحدِّث حتى فجأه الحق، وجاءه الملك جبريل الأمين في غار حراء مستعلناً، مبشراً إياه برسالة ربه، حتى اطمأن، ثم قال له: اقرأ، قال: (كيف أقرأ؟) قال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علَّم بالقلم﴾.

فمرتبة الاطمئنان ـ كما هو نص حديث ابن حزم ـ تجددت له ﷺ مع رسوخ إيمانه عند استعلان جبريل له وتبشيره برسالة ربه حتى اطمأن، وصار مغموراً بأنوار الرسالة مكيفاً بخصائصها الروحانية، وهذا هو معنى ما جاء في حديث ابن حزم: فقبل رسول الله ﷺ رسالة ربه، واتبع الذي جاء بهجبريل من عند الله.

إذ لا معنى لقبوله رسالة ربه إلا التكيُّف الروحاني بخصائصها، ولا معنى لاتباعه الذي جاء به جبريل من عند الله إلا النهوض للقيام بواجبات الرسالة عملاً وتبليغاً.

فحديث عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم هو حديث الغار في جانب منه، دخله الاختصار في الرواية، ومفاجأة الملَك في الغار للنبي ﷺ ـ كما في حديث عائشة عند البخاري ومسلم ـ هي الاستعلان الذي جاء في حديث ابن حزم، وأخبر به النبي ﷺ خديجة في قوله: (أرأيتك الذي كنت أحدثك ورأيته في المنام فإنه جبريل استعلن).

وفي هذا الاستعلان بشَّر جبريل محمداً ﷺ برسالة ربه حتى اطمأن رسول الله ﷺ إلى أن الله تعالى اصطفاه لرسالته، واطمأن إلى أن الذي رآه في المنام هو عين الملك الذي استعلن له في الغار، وأقرأه ما نزل من آيات القرآن، وهو أمين الوحي جبريل عليه السلام.

ويؤكد ذلك من نص الحديث اتصالُ طلب جبريل من النبي ﷺ

القراءة، ومراجعة النبي ﷺ له بقوله: (كيف أقرأ؟) فقال له: ﴿اقرأ باسم ربك ـ إلى قوله: علَّم بالقلم﴾ بالاستعلان بحرف الترتيب (ثم) المقيد للربط بين الاستعلان والإقراء، ففي عبارة الحديث: ثم استعلن به جبريل، فأجلسه على ما شاء الله أن يجلسه عليه، وبشره برسالة ربه حتى اطمأن، ثم قال: اقرأ.

وقد حققنا أن نزول أوائل سورة (اقرأ) لم يذكر قط في حديث صحيح متصل الإسناد غير حديث الغار، وبيَّنا أن ما جاء في مرسل عبيد بن عمير عند ابن إسحاق من نزولها في المنام لا يوازن ما أجمعت عليه جوامع الأئمة ومسانيد جهابذة المحدثين، وأوضحنا أن نزول جميع آيات القرآن الكريم لم يقع إلا في وحي اليقظة، ولم ينزل منه شيء في المنام، وما زُعم غير ذلك فهو ضعيف.

كما يؤكده ما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها من رواية ابن لَهيعة عن أبي الأسود وعن عروة قالت: كان ﷺ أول ما رأى جبريل بأجياد، وصرخ: يا محمد، فنظر يميناً وشمالاً فلم يرَ شيئاً فرفع بصره فإذا هو على أفق السماء، فقال جبريل: يا محمد، فهرب فدخل في الناس، فلم يرَ شيئاً، ثم خرج عنهم، فناداه فهرب، ثم استعلن له جبريل من قبل حِرَاء، وذكر قصة إقرائه ﴿اقرأ باسم ربك﴾.

وهذا يكاد يكون نصاً في إفادة أن حديث ابن حزم هو حديث عائشة في قصة الغار، في الجانب الأساسي منه، لقوله: ثم استعلن له جبريل من قبل حِراء، وذكر قصة إقرائه ﴿اقرأ باسم ربك﴾.

فاستعلان جبريل للنبي ﷺ من قبل حراء هنا هو ظهوره مفاجئة للنبي ﷺ في الغار، وإقرائه أوائل سورة (اقرأ) لم يقع إلا في أول لقاء يقظي، هو الذي فاجأ به جبريل رسول الله ﷺ في غار حراء، وطلب منه أن يقرأ، وراجعه النبي ﷺ بقوله: (ما أنا بقارىء)، وتكرر طلب القراءة مع الغط الذي بلغ الجهد ثلاث مرات، وانتهى في المرة الرابعة إلى نزول خمس

آيات من أول سورة اقرأ، ورجع بها رسول الله ﷺ إلى أهله قرير العين، مغموراً بأنوار رسالته، مطمئناً أكمل الاطمئنان إلى اصطفاء الله له اصطفاء كان به سيد العالمين.

أما احتمال أن يكون استعلان جبريل له ﷺ هو ظهوره له في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء كما جاء في حديث عبيد بن عمير عند ابن اسحاق ـ من قوله ﷺ: (فخرجت حتى إذا كنت وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، رفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء، يقول: يا محمد: أنت رسول الله وأنا جبريل) ـ فهو احتمال بعيد، لأن ظهور جبريل للنبي ﷺ بعد خروجه إلى وسط الجبل في الصورة التي جاءت في مرسل عبيد لم يتصل بقصة إقرائه ﴿ إقرأ باسم ربك ﴾ كما اتصل الإستعلان من قبل حراء بها في حديث ابن حزم، واتصال الاستعلان بقصة الإقراء هو البرهان على أن استعلان جبريل للنبي ﷺ في حديث ابن حزم هو ظهور المَلَك المفاجىء في الغار كما جاءت به رواية عائشة عند البخاري ومسلم وغيرهما.

حديث ابن عباس

(٢) ثم روى ابن سيد الناس من طريق الدولابي أيضاً بسنده إلى ابن عباس قال: بعث الله عزّ وجلّ محمداً على رأس خمس سنين من بنيان الكعبة، وكان أول شيء أراه إياه من النبوة رؤيا في النوم.

قال ابن سيد الناس: فذكر نحو ما تقدم ـ أي مما جاء في حديث ابن حزم من قصة شق البطن، واستعلان جبريل للنبي ﷺ، وتبشيره برسالة ربه، حتى اطمأن، وإقرائه أوائل سورة (اقرأ) ـ ثم قال ابن سيد الناس: وفي آخره ـ أي آخر حديث ابن عباس ـ فلما قضى ـ أي جبريل ـ إليه ـ أي إلى رسول الله ﷺ ـ الذي أُمِر به ـ أي من الوحي والإقراء ـ انصرف رسول الله ﷺ منقلباً إلى أهله، لا يأتي على حجر ولا شجر إلا سلَّم عليه: سلام عليك يارسول الله، فرجع إلى بيته وهو موقن أنه فاز فوزاً عظيمًا.

وهذا الحديث إلى ما فيه من التوافق بينه وبين حديث ابن حزم ـ في استعلان جبريل للنبي ﷺ وقصة إقرائه أوائل سورة (اقرأ) وعدم ورود كلمة (خشيت على نفسي) أو أي لفظ يحمل معناها ـ فإن فيه أصرح ما عبَّر عن ثبات جأش رسول الله ﷺ وكمال اطمئنانه على أن ما رأى وسمع في يقظته أمر من عند الله، جاء به إليه ملَك، هو أمين الوحي جبريل عليه السلام، كما يدل عليه قول الحديث: (فلما قضى إليه الذي أمر به انصرف رسول الله ﷺ منقلباً إلى أهله، موقناً أنه فاز فوزاً عظيماً).

تعليق وتحليل

أفيوقن رسول الله ﷺ بالفوز العظيم وهو شاكٌّ في حاله، وفيما رأى وسمع وقرأ، مُلَبَّس عليه، حتى يخشى على نفسه أن يكون ما كان له في وحي اليقظة من جنس الكهانة أو الجنن؟.

هذا من أبطل الباطل، وأمحل المحال، وما هو إلا تقحُّم على قدس النبوة، وجلال الرسالة بما لا ينبغي لحقهما من حرمة، بل هو تخرص على مقام رسول الله ﷺ في أكرم مواقفه.

حديث عبيد بن عمير

(٣) ثم روى ابن سيد الناس حديث عبيد بن عمير، وهو عند ابن إسحاق في السيرة، قال: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهراً ـ وكان ذلك مما تحنَّث به قريش في الجاهلية ـ والتحنث التبرر ـ فكان يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف قبل أن يدخل بيته الكعبة، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به فيه ما أراد من كرامته، وذلك الشهر رمضان، خرج رسول الله ﷺ إلى حِراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، ورحم العباد بها جاءه جبريل بأمر الله تعالى.

قال رسول الله ﷺ: (فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ، قلت: (ما أقرأ) فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني،

فقال: اقرأ، قلت (ما أقرأ)، فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: (ماذا أقرأ؟) ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع، قال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علَّم بالقلم. علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ فقرأتها، ثم انتهى، فانصرف عني. وهببت من نومي، فكأنما كتب في قلبي كتاباً، فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء، يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، رفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء، يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم، وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك. فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي، وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً إلى أهلي، حتى أتيت خديجة، فجلست إلى فخذها مفضياً إليها، فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثتُ رسلي في طلبك، فبلغوا مكة ورجعوا إليّ، ثم حدثتها بالذي رأيت، فقالت: أبشر يا ابن عمي واثبت فوالذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها، وكان قد تنصَّر وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع، فقال ورقة: قُدّوس قُدّوس، والذي نفسي بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له: فليثبت، فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة.

فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف صنع ما كان يصنع، بدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة، فقال له: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ﷺ، فقال له ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتُكذَّبنّه، ولتُؤذَيَنّه ولتُقاتلنّه، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم

لأنصرنَّ الله نصراً يعلمه، ثم أدنى رأسه منه، فقبل يأفوخه، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله.

تعليق وتحليل

هذا الحديث من أشهر روايات أحاديث بدء الوحي، ومن أوفاها بذكر الأحداث، وأكثرها تفصيلاً للوقائع منذ بدء وحي النبـوة بالـرؤيا الصادقة.

وقد ذكرت فيه أشياء لم تذكر في غيره من الأحاديث، ولعل من أشدها على التأويل ما جاء فيه من إقراء النبي ﷺ في رؤيا المنام الآيات الخمس من أوائل سورة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وهي الآيات التي بدأ بها نزول القرآن في وحي اليقظة بغار حراء، كما ثبت في حديث عائشة رضي الله عنها عند الشيخين وغيرهما.

توجيه وتأويل وبحث

وحديث عبيد بن عمير مرسل فلا يقاوم مسند عائشة الذي أجمع الأئمة على قبوله، ولعل ما ورد في حديث عبيد من قوله ﷺ: (فجاءني وأنا نائم) قاصر على رؤيا نمط الديباج وما فيه من كتابة، ويكون قوله: فقال: (اقرأ) إلى آخر قصة إقرائه الآيات الخمس كلام غير متصل بقصة رؤيا النمط في النوم، وإنما هو بيان لما حدث بعد أن هبّ من نومه ﷺ، واستعلن له جبريل، وطلب إليه أن يقرأ، وراجعه النبي ﷺ، وتكرر ذلك مع الغتّ، ثم أقرأه الآيات الخمس في وحي يقظي، كانت فيه المفاجأة ومجيء الحق، ثم خرج رسول الله ﷺ بعد أن قضى إليه جبريل الذي أُمر به وانصرف عنه، منقلباً إلى أهله، حتى إذا كان في وسط من الجبل تجلى له جبريل عليه السلام في صورة ملائكية، ليزيده تثبيتاً في أمر رسالته، وخاطبه مؤكداً له ما كان منه إليه في الغار، وأنه هو جبريل جاءه برسالة ربه.

وبهذا التوجيه يتفق مرسل عبيد في أصل مضمونه مع حديث عائشة رضي الله عنها في أن إقراء جبريل عليه السلام للنبي ﷺ الآيات الخمس من أوائل سورة﴿اقرأ باسم ربك﴾ إنما كان في وحي اليقظة كغيره من جميع آيات القرآن الكريم).

قد يغلط الثقة

ويحتمل أن تكون عبارة (وأنا نائم) في حديث عبيد بن عمير من قبيل ما جاء في أول حديث الإسراء والمعراج من رواية شريك بن عبدالله بن أبي نمر من عبارة (وهو نائم في المسجد الحرام) وما جاء في آخره من عبارة (فاستيقظ وهو في المسجد الحرام) اللتين تفيدان أن الإسراء والمعراج كانا مناماً، قال الإمام ابن القيم في (الهدي النبوي): وقد غلَّط الحفاظ شريكاً في ألفاظ من حديث الإسراء. وقال الإمام النووي: وقع في رواية شريك لحديث الإسراء أوهام أنكرها العلماء.

ومما ذكر في حديث عبيد بيان أن الذي جاءه في متعبده مناماً هو أمين الوحي جبريل عليه السلام بغير شك ولا تلبيس، وكانت هذه الرؤيا الصادقة تمهيداً لاستعلانه له ولقائه في وحي اليقظة الذي جاءت قصته مفصلة في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري ومسلم وغيرهما.

من فوائد حديث عبيد ابن عمير

ومما ذكر في حديث عبيد تعيينه شهر جوار رسول الله ﷺ تحنثه في غار حراء الذي بدأ فيه وحي اليقظة بعد وحي الرؤيا الصادقة، وأن الله تعالى أكرمه برسالته في ليلة من لياليه، هي الليلة المباركة، وهي ليلة القدر، كما سماها القرآن الكريم بأخباره أن إنزاله بدأ فيها، وأن جبريل أمين الوحي لقيه يقظة جهرة مستعلناً له، وهو خارج من متعبده في حراء، وكلمه مشافهة مخبراً إياه أنه رسول الله، وأن محدثه منذ اليوم في النوم واليقظة هو جبريل عليه السلام.

ومما ذكر في حديث عبيد رؤيا النبي ﷺ نمط الديباج الذي جاء به إليه جبريل، وما فيه من كتاب لم يصرِّح بحقيقتها ومضمونها، وليس في الحديث أن هذه الكتابة هي الآيات الخمس من أوائل سورة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ التي أقرأها إياه جبريل في وحي اليقظة بغار حراء.

ومن ثم يحتمل أن يكون الكتاب الذي كان في نمط الديباج شيئاً آخر من وحي الله تعالى إلى النبي ﷺ غير آيات سورة (اقرأ)، وهذا يتمشى مع

مذهب جمهور العلماء في أنه لم ينزل شيء من آيات القرآن الكريم في النوم، وأن القرآن جميعه نزل في وحي اليقظة.

وفي حديث عبيد أن النبي ﷺ لما وصل إلى بيته جلس إلى زوجه الوفية الأمينة التي كانت تنتظر أوبته في لهفة الشوق والقلق لتأخره عن موعد أوبته إلى أهله ـ جلسة الزوج المتلطف بزوجه مفضياً إليها، متحنناً عليها، متشوقاً إلى حنانها تسكبه في نفسه لتبدد عنه مظاهر روعة المفاجأة، فأخبرته بما كان منها من إرسال رسلها في طلبه، بعد أن أشعرته بلهفة الحرص عليه بقولها: يا أبا القاسم أين كنت؟ لأنها استبطأت عودته إلى بيته وأهله في موعده الذي كان يؤوب إليهم فيه.

وهنا بعد أن سكن روعه، وهدأت نفسه قال: (ثم حدثتها بالذي رأيت) فبشَّرته، وأعربت له عن ذات نفسها في رجاوتها أن يكون نبي هذه الأمة.

وهذا الموضع من حديث عبيد هو المقابل للموضع الذي جاءت فيه عبارة (أي خديجة: مالي لقد خشيت على نفسي) في حديث عائشة عند البخاري، ولم تذكر فيه بنصِّها، ولا بأية عبارة تشعر بما تضمنته من خوف رسول الله ﷺ على نفسه أن يكون ملبساً عليه في أمره، وأن ما رآه وما سمعه أمور من جنس ما يرى ويسمع الكهان في وحي الشياطين إليهم، أو أنه كان نتيجة تغير في قواه العقلية كما زعم المتخرِّصون من متقحِّمي تفسير عبارة (لقد خشيت على نفسي) إذا صح ورودها في الحديث.

فهذا الحديث في خلوه من هذه العبارة (خشيت على نفسي) كغيره من الأحاديث التي لم ترد فيها بنصها ولا بما يحمل معناها أو يشتمل على مضمونها، وهي أحاديث كثيرة، متعددة الطرق والأسانيد، سليمة من الطعن بأنها باطلة موضوعة، وهو مستوعب لقصة بدء وحي النبوة بالرؤيا الصادقة في النوم، إلى بدء وحي الرسالة في اليقظة ببدء نزول القرآن الكريم، في أضخم عنوان لأعظم خصائص هذه الرسالة الخالدة ﴿ اقرأ

باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علّم بالقلم * علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ واستعلان جبريل له ﷺ في صورة ملائكية وتأكيده له أنه رسول الله، وأن محدِّثه في النوم واليقظة هو أمين الوحي جبريل - يحمل في سياقته الدليل القاطع على أن ما اعترى رسول الله ﷺ من الروع الذي رجع به من متعبده إلى أهله، ترجف بوادره إنما كان أثراً من آثار المفاجأة التي ظهر له فيها جبريل بصورته الروحانية العليا، وأثراً من آثار الغط بقوة هذه الروحانية، ليستفرغ بشريته ويعده لمجانسة الملأ الأعلى في كمال روحاني لا تقيده وشائج البشرية، ليكون دائماً على أهبة اللقاء الروحاني في أعلا درجاته وأكمل مراتبه، وأرفع حالاته، وهو ﷺ على أكمل اليقين وأرسخ الاطمئنان باصطفاء الله تعالى له نبياً ورسولاً للعالمين.

في حديث عبيد دليل على براءة ساحة رسول الله ﷺ من الخشية على نفسه بالمعنى الذي جنح إليه المتخرصون

فلا خشية على نفسه داخلته لتمس قلبه وروحه، ولا خوف اعتراه من تلبيس عليه يحوم حول مداركه وقوى عقله، بل رجع من متعبده في حراء إلى أهله، وهو موقن أنه قد فاز فوزاً عظيماً.

مما يسترعي النظر في حديث عبيد

وفي هذا الحديث نكتة تسترعي نظر الفكر المتطلع إلى الحقائق ولو جاءت من وراء الكلمات، ذلك أن خديجة رضي الله عنها لم تكد ترجع إلى رسول الله ﷺ - وكان لا يزال في بيته ينتظر أوبتها من لقاء ابن عمها ورقة ابن نوفل لتؤكد بما تسمع منه - وكان ورقة عليماً بالمبشِّرات، وأنباء البعثة - فراستها، وأخبرت النبي ﷺ بما جرى بينها وبين ورقة من حديث بشأن ما رأى رسول الله وما سمع، فازداد ﷺ نوراً إلى نور يقينه، لما يعلمه من مكانة ورقة في العلم والمعرفة بما في التوراة والإنجيل من المبشرات ببعث رسول قد أظل الحياة مخرجه.

وعاد رسول الله ﷺ إلى جواره في متعبده بحراء، وهو الذي حدث له فيه ما حدث من مفاجأة اللقاء الملائكي يقظة، ولولا حلاوة هذا اللقاء في مذاق الروحانية التي أُشربها رسول الله ﷺ، ولولا عظم ما في هذا اللقاء

الملائكي من التجليات الربانية والأنوار العلوية، ولولا تطلعه ﷺ إلى مزيد من أنوار هذا اللقاء الملائكي، ما كان ليسرع بالعودة إلى هذا المتعبد، ولكنه ﷺ وهو مستغرق بأنوار رسالته التي بدأت بهذا اللقاء أراد أن يستعيد مع نفسه مشاهد هذا اللقاء، ويترقب المزيد من الأنوار.

فهل في منطق العقل أن يكون رسول الله ﷺ خشي على نفسه ما تخرص به المتخرصون، ثم يسرع إلى العودة إلى المكان الذي لقي فيه ما خشيه على نفسه في زعم المتخرصين؟.

إن بداهة العقل تأبى أن تقبل ذلك، وتنادي بأن أي إنسان توجَّس خيفة من شر حادث وقع له في مكان لا يمكن أن يعود إليه، وفي سرعة، وهو يملك الاختيار والإرادة.

ولكن رسول الله ﷺ عاد إلى غار حراء مسرعاً بُعَيد أن قضى حق أهله كعادته في خلواته، وهذا هو صريح الحديث في قوله: فلما قضى رسول الله ﷺ جواره ـ أي بعد عودته من بيته، وبعد مقابلة خديجة ورقة بن نوفل، وبعد إخبارها النبي ﷺ بما قال وانصرف ـ صنع ما كان يصنع من البدء بالطواف بالكعبة فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة.

وهذا صريح في أن النبي ﷺ رجع ـ بعد إلمامه بأهله وتزوده لخلوته إلى جواره بغار حراء، وأنه أكمل مدة تحنثه التي اعتادها، ولم يذكر شيء وقع له ﷺ في مدة هذا الجوار.

وعودته ﷺ إلى جواره في متعبده بعد كل الذي جرى له من رؤية الملك مناماً ويقظة، وما رآه من عظمة خلق جبريل عليه السلام، وما سمعه منه من أمر الله ووحيه، وما حدَّث به زوجه الوفية الأمينة، وما قاله ورقة لها، وما قاله لرسول الله ﷺ في لقائه له وهو يطوف بالكعبة ـ دليل قاطع على ثباته ﷺ ورباطة جأشه، واطمئنانه ويقينه بفوزه برسالة ربه، ولقائه أمين الوحي جبريل عليه السلام، وأنه لم يشكّ قط في أمره، ولا لُبّس عليه لحظة

واحدة في شأنه، وأنه ﷺ في ثباته وهدوء نفسه، وهو راجع من جواره، يجري على سنته التي استنها منذ حُبّب إليه الخلاء في غار حراء، في صنع ما كان يصنع من قبل، يبدأ بالكعبة فيطوف بها قبل أن يدخل بيته، ويلقاه في هذا الطواف ورقة بن نوفل، ويطلب إليه متلطفاً أن يخبره بما رأى وما سمع، تأكيداً لما كان بينه وبين خديجة حين ذهبت إليه قبل هذه المرة، فيخبره رسول الله ﷺ وهو هادىء النفس مطمئن الخاطر - بالذي وقع له كما أخبرته به خديجة من قبل، فيصدقه ورقة، ويؤكد له ما أكده لخديجة في لقائها له، بأنه نبي هذه الأمة، ويزيده إخباراً ببعض ما سيلقاه في مستقبل رسالته من قومه من العداوة، وأنه سيُكذَّب، ويؤذى، ويقاتل، ويخرج من بلده ووطنه، مما كان رسول الله ﷺ يتوقع الكثير منه موطِّناً نفسه على الصبر والمصابرة.

بحث ونظر

رواية تقلب المعنى

جاء في رواية الحموي والمستملي في كتاب (التعبير) من الجامع الصحيح، وهي التي اعتمدها القسطلاني وعوَّل عليها في (المواهب): فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: (يا خديجة: مالي؟) وأخبرها الخبر، وقال: (قد خشيت عليّ) بياء مشددة هي ياء المتكلم، وهي رواية تسترعي النظر المتأمل، والبحث المتعمق، لأنها تحمل بأسلوبها المبادرة إلى أن تكون هذه الجملة خطاباً استفهامياً للإنكار التعجبي، وجهه النبي ﷺ إلى خديجة زوجه الوفية الأمينة، وهي أعرف الناس به، حينما عاد إليها بعد لقاء المَلَك في مفاجأة الغار وما جرى فيها من طلب القراءة والغط، وتكرار ذلك، وعليه آثار الروع والمشقة، حتى هدأت نفسه وذهب عنه أثر ما كان يجد، أخبرته خديجة بما كان منها من قلق الانتظار، والحرص واللهفة على أوبته في موعده الذي جرى عليه في خلواته، ولعلها قد دارت بخواطرها الهواجس، وخشيت عليه أن يكون قد حدث له من أحداث الحياة ما أخَّر أوبته في موعده، فقالت له معبِّرة عن حرصها ولهفتها: أين كنت يا أبا القاسم؟ وأخبرته أنها أرسلت رسلها في طلبه، ولكنهم عادوا إليها دون أن يعلموا عنه شيئاً، فزاد ذلك في قلقها عليه، ورأى رسول الله ﷺ ذلك على سيماء وجهها

ونظراتها المتلهفة، فقال لها ليخفف عنها ما ألمّ بها (مالي؟) استفهاماً إنكارياً لما بدا عليها من آثار القلق، ومعناه: لا شيء يستدعي منك هذا القلق الذي دعاك إلى إرسال رسلك في طلبي، وها أنت ذي ترينني على أكمل حال، لولا بعض أثر جهد ما أخبرتك من مفاجأة الملك في حراء (قد خَشِيتِ عليَّ) بتاء المخاطبة المتصلة بفعل الخشية فاعلًا له، وبالياء المشددة مدخولة حرف الجر (على) وحذف همزة الاستفهام، أي أخشِيْتِ أنت علي أن يكون قد حدث لي شيء من أحداث الحياة عوَّقني عن الأوبة إليكم في موعدي؟.

كانت الخشية على رسول الله ﷺ من السيدة خديجة.

فالذي وقعت منه الخشية هو السيدة خديجة رضي الله عنها، ولهذا جاء ردها: كلا، أي لم أخشَ عليك شيئاً يضرك أو يسيء إليك، فأنت من لا يخشى عليه، لأنك الكريم الصدوق، الأمين المحبوب، الشجاع الذي لا يهاب الأحداث، الوَصول للرحم الذي يعطي فيغني، ويعين فيرفع، ويعطف فينعش، يكرم الضيف فيملكهم بإحسانه، فكيف أخشى عليك وقد جمع الله لك مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وفضائل الشمائل التي تحببك للقلوب، ولن يخزيك الله أبداً، ولن يصنع بك إلا خير ما يصنع بأحب عباده إليه.

ثم حدثها بعد أن طمأنها بما رأى وما سمع، وما كابد، وحدثها عن استعلان جبريل له، ومجيئه إليه بوحي ربه ورسالته ليسرها ويبشرها بتحقق رجاوتها بأنه نبي هذه الأمة، فابتهجت بما سمعت منه، وأرادت أن تزداد يقيناً فانطلقت - أولاً - حتى أتت غلاماً لعتبة بن ربيعة نصرانياً من أهل نينوى، يقال له عداس - كما عند سليمان التيمي وموسى بن عقبة - فقالت له: أذكرك الله إلاّ ما أخبرتني هل عندكم علم من جبريل؟ فقال عداس: قدُّوس، قدُّوس، يا سيدة نساء قريش، ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التي أهلها أهل أوثان؟ فقالت: أخبرني بعلمك فيه، قال: هو أمين الله بينه وبين النبيين، وهو صاحب موسى وعيسى.

ثم انطلقت بعد حديثها مع عداس إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، لما

شهر عنه في مكة من العلم بما في التوراة والإنجيل وتباشير الأحبار والرهبان بما جاء في الكتابين من أوصاف محمد وبعثه نبياً ورسولاً للعالمين، وأن وقته قد أظلَّ الحياة بنفحاته، فأخبرت ورقة بخبر رسول الله ﷺ، وما رآه في غار حراء وما سمعه من الملَك، فصنع ورقة ما صنع عدّاس من التقديس، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، وتمنى ورقة أن يعيش حتى يدرك انتشار الإسلام وجهاده ليكون جندياً من جنود الله، يجاهد في ظل لواء النبي ﷺ في سبيل إعلاء كلمة الله، ولكنه أدركته منيته، فلم يلبث بعد بعث النبي ﷺ إلا قليلاً، ثم توفي وفتر الوحي.

وجه إفادة رواية (خشيت عليَّ) ما فهمناه منها.

وموضع النظر في هذا البحث الجانبي أن أسلوب العبارة في رواية الحموي والمستملي التي عوَّل عليها الإمام القسطلاني في مواهبه، ومجيئها في قوله ﷺ: (خَشِيتِ عليّ) بياء المتكلم مدخولة لحرف الجر (على) يكاد يوجب اتجاه الفهم إلى أن هذا خطاب استفهامي حذف منه حرف الاستفهام، يوجهه النبي ﷺ إلى السيدة خديجة إنكاراً تعجبياً لحالها في قلقها ولهفتها على أوبته في موعده الذي ألفت عودته فيه في أوباته كلِّها من جواره إلى بيته وأهله ليتزود لعودته إلى جواره.

فإنه لم يعهد في أساليب العربية أن يقول الإنسان معبراً عما حدث له، وما يخشاه على نفسه وهو يخاطب غيره (خَشِيتُ عليّ) وإنما المعهود في أساليب الفصحى أن هذا التعبير يكون في أسلوب الاستفهام عما في نفس المخاطب بالنسبة للمتكلم بعبارة (خشيتِ عليّ) بحذف همزة الاستفهام، وهو حذف سائغ كثير الورود في أصح النصوص العربية الفصيحة.

وإنما جعلنا هذا الفهم بحثاً جانبياً لأننا لم نر أحداً من باحثي القدامى والمحدَثين اتجه إليه، فلم نرَ الجزم به رأياً اجتهادياً، ولكنا جعلناه بمعرض البحث، لعل أحداً من الباحثين يجد في روايات الحديث أو في كلام الشراح ما يؤيد هذا الفهم.

وأما رواية (خشيت على نفسي) فيمكن تأويلها ورجعها إلى ما فهمناه

رد رواية خشيت على نفسي إلى رواية خشيت عليّ لتوافق المعنى في القصة

في رواية (خشيت عليّ) لأن التعبير في مخاطبة من ظهرت عليه أمارات القلق واللهفة إنكاراً لهذا القلق والتلهف، وتعجباً من حصولهما بغير موجب يقتضيهما بعبارة (خشيتُ على نفسي) خطاباً استفهامياً إنكارياً محذوف حرف الاستفهام ـ سائغ الورود في فصيح الكلام، ويكون حينئذ من باب الإظهار في مقام الإضمار لنكتة بيان مورد الإنكار وسببه، فكأنه قيل لخديجة رضي الله عنها: (خشيتِ على نفسي؟) كيف وأنتِ أعلم الناس أن نفسي في قوة تكوينها الجبلِّي وما طبعت عليه من مكارم الأخلاق أبعد من أن تخشي عليها أن يصيبها من أحداث الحياة ما يضيرها أو يسيء إليها ولا سيما بعد قوله: (مالي؟) المعبر بأسلوب الاستفهام الإنكاري عن سلامته، وأنه لم يقع له شيء مما خشيته عليه، فجاءت الجملة (خشيت عليّ؟) بخطاب الاستفهام التعجبي تأكيداً له.

وكأن الحديث يمر في أسلوب الخطاب الموجه للسيدة خديجة رضي الله عنها، ويجيء معبراً عما رأته من آثار ارتياعه ورجف بوادره، وطلبه أن يدثَّر ليستريح وتهدأ نفسه، ويسترجع راحته، وكأنه قيل لها: أما ما رأيته من مظاهر المشقة والجهد فذلك أثر من آثار ما كنت حدثتك أني رأيت في منامي، وكان الذي رأيت ملَك الوحي جبريل أرسله إليّ ربي بوحي النبوة ثم استعلن لي، وبشَّرني بأني رسول الله حقاً، وأخبرني عن نفسه بأنه جبريل وأقرأني من كتاب ربي ما قرَّت به عيني.

وهذا التأويل لعبارة (خشيت على نفسي؟) يردها إلى تأويل عبارة (خشيت عليّ) باعتبارهما خطاباً إنكارياً تعجبياً موجهاً إلى السيدة خديجة رضي الله عنها، فيتوافق المعنى في الروايتين، ويسلم الحديث من احتمالات التخرصات، ويبعد جداً رجع عبارة (خشيت عليّ) إلى عبارة (خشيت على نفسي) باعتبارهما معبِّرتين عن الإخبار بحال رسول الله ﷺ، وما أصابه من الروع والدهش لمفاجأة الملك له وغطه وإقرائه أول ما نزل عليه من كتاب الله تعالى.

وبهذا الفهم للعبارة في رواية الحموي والمستملي يسلم الحديث من أول

وهلة عن تقحمات تفسير المراد من الخشية باعتبارها أمراً وقع لرسول الله ﷺ، وأخبر به عن نفسه، لأنها في روايتها تخرج عن هذا الاحتمال، وتأخذ مكانها الصحيح في قصة بدء الوحي.

وسلامة الحديث من مصدر استنباط المستنبطين لأسباب الخشية ـ من الشك وأباطيل الكهانة وأكاذيب الجنن التي يجب تنزيه ساحة النبوة عن حومان هذه التقحمات حولها ـ بصرف هذا المصدر إلى أقرب احتمالاته، ويغني عن تخرصات المتخرصين، ويحفظ للنبوة قداستها، ويصون العصمة النبوية عن التقول بالباطل من أعداء الإسلام.

اختلاف الروايات لا ينافي وحدة الموضوع

والظاهر عند إمعان النظر في روايات الأحاديث الواردة في موضوع (بدء الوحي) أنها كلها تتحدث عن موضوع واحد، لكنها اختلفت في الروايات بالزيادة والنقص، وبعضها يكمل بعضاً، فيما يجب قبوله من معانيها وحقائق ما تتحدث عنه بما يتفق مع ما يجب للنبوة من قداسة، وما يجب للأنبياء من عصمة عامة في جانب التوحيد والإيمان، ومعرفة جلال الله وكمالاته، منذ تعهدهم الله تعالى بالتربية والرعاية، قبل أن يبعثهم برسالاته، وهذا ما يقضي به ويوجبه قول الله تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ لأنه يتضمن في معناه وغايته أنه لا يمكن أن يجعل الله رسالته فيمن تدنس باطنه بالشك في أمر الله ووحيه، ولا من تدنس ظاهره بعبث الكهانة ووحي الشياطين، ولا من كانت قواه العقلية والروحية بمعرض التأثر المخل بموجبات الاستقامة ويقين الإيمان.

الحق لا يعرف بضخامة أسماء الرجال

ولا اعتبار بشذوذ من شذّ، فضلّ الطريق في تفسير نحو قول الله تعالى: ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ فقال مقالة بشعة لا يقولها من يرجو لله في رسالاته ورسله وقاراً، ولا يقولها من يعلم من حياة محمد ﷺ ما تواتر من نمط نشأته في أرفع المكارم، وطهارة القلب والبعد عن دنس الجاهلية في عقائدهم وأخلاقهم، حتى بعثه الله تعالى رحمة للعالمين.

وهذه مقالات شاردة عن أصول الإسلام، فيجب نبذها وبهرجتها، وإظهار بطلانها، ولا وزن للهالات التي تحوط أسماء أصحابها، لأن الحق حق

مهما تكن ضآلة مكانة قائله في هذه الحياة، والباطل باطل مهما تكن طنطنة اسم قـائله، والله تعالى يقول: ﴿ فليعلمن الله الذين صـدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾[1] و«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى».

فالنبي ﷺ قبل أن يفاجئه جبريل في غار حراء بوحي اليقظة كان نبياً بوحي الرؤيا الصادقة التي عرف بها معرفة يقين واطمئنان أنه نبي يوحى إليه، وأن الله تعالى اصطفاه لنبوته، وأن الذي كان يراه في منامـه يلقي إليه من أمر الله ما يُرسل به إليه من عند الله هو أمين وحي الله للأنبياء جبريل عليه السلام، وأنه هو الذي فاجأه في الغار يقظة وطلب إليه أن يقرأ، وغطه حتى بلغ منه الجهد، وكرر عليه طلب القراءة والغط، بدليل قوله ﷺ لخديجة كما في حديث ابن أبي بكر بن حزم: (أرأيتك الذي كنت أحدثك أني رأيته في المنام فإنه جبريل استعلن).

جبريل هو ملك الوحي في حالي النوم واليقظة

فجبريل عليه السلام بمقتضى هذا الحديث كان واسطة الوحي في الحالين: حال الرؤيا الصادقة في النوم التي تجيء في وضوحها مثل ضوء الصبح ينفلق عنه غبش الظلام، وهي أولى مراتب وحي النبوة. وحال اليقظة التي كانت أولى مبتدآتها لقاء الغار الذي بدأ به وحي الرسالة، وهو لقاء ثبت قطعاً أنه وقع للنبي ﷺ وهو نبي يوحى إليه بوحي الرؤيا الصادقة التي جاءه فيها جبريل بأمر ربه، وهي سنة الله مع سائر النبيين، فقد روى أبو نعيم في الدلائل عن علقمة بن قيس صاحب عبدالله بن مسعود أنه قال: أول ما يؤتى الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحي في اليقظة، وهذا الذي يقوله علقمة مما لا سبيل فيه للرأي والاجتهاد، ولا بد ـ إذا صح ـ من وروده عن النبي ﷺ، فهو في قوة المرفوع.

ولا يمكن أن يكون لقاء الملك في غار حراء للنبي ﷺ يقظة بعد تحقق نبوته في دائرة الشك والتلبيس على نحو ما رمرم به القشاشون من المتقحمين بالتخرصات الباطلة في تفسير بعض الكلمات الموهمة.

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٣.

النبوة لا يدخلها الشك والتلبيس

هذا من أبطل الباطل، لأن النبوة يجب أن تكون منذ أول مراتبها على أكمل درجات اليقين، وثلج الإيمان ورسوخه، وطمأنينة القلب التي لا تقبل أدنى شك أو تشكيك، ولا يدخل عليهـا تلبيس، ولا سيما في أخص خصائصها وأساس وجودها، وهو الوحي اليقظي الذي بدأت الرسالة به، فإذا جاءت بعض العبارات الموهمة لما لا ينبغي لجلال الرسالة في رواية صحيحة وجب صرفها عن احتمال إيهامها، وإعطائها معنى لائقاً بمكانها من كلام النبوة، وعبارة (خشيتُ على نفسي) وردت في بعض روايات البخاري مطلقة عن التفسير، وبيان سبب هذه الخشية، ولم يذكر معها ما يخدش حصن النبوة، فلا كهانة ولا جنن، ولا شك ولا تلبيس.

رواية واهية

بيد أننا وجدنا محمد بن سعد يروي في الطبقات عن شيخه محمد ابن عمر الواقدي بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: فبينا رسول الله ﷺ على ذلـك وهو بأجياد إذ ملَكاً واضعاً إحدى رجليه على الأخرى في أفق السماء، يصيح: يا محمد: أنا جبريل، يا محمد: أنا جبريل، فذعر رسول الله ﷺ من ذلك، وجعل يراه كلما رفع رأسه إلى السماء، فرجع سريعاً إلى خديجة، فأخبرها خبره، وقال: (يا خديجة: والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئاً قط، ولا الكهان، وإني أخشى أن أكون كاهناً) قالت: كلا، يا ابن عم، لا تقل ذلك، فإن الله لا يفعل ذلك بك أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وإن خلقك لكريم، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل، وهي أول مرة أتته، فأخبرته ما أخبرها به رسـول الله ﷺ، فقال ورقة: والله إن ابن عمك لصادق، وإن هذا لبدء نبوة، وإنه ليأتيه الناموس الأكبر، فمريه أن لا يجعل في نفسه إلا خيراً.

نقد وتحقيق

وهذه الرواية لا تَسْلم من النقد والاعتراض، فهي غير مقبولة، والبحث فيها من وجوه:

الأول ـ أن الواقدي ـ وهو محور هذه الرواية ـ مشهود عليه بالضعف، لا يعـول عليه جهابذة المحدثين، فروايته محل نظر، ولا سيما إذا خالفت غيرها من روايات الثقات، وهي قد خالفت جميع الروايات التي لم يرد فيها

عبارة (خشيت على نفسي)، وخالفت رواية البخاري وغيره من الأئمة الذين أوردوا في رواياتهم عبارة (خشيت على نفسي) مطلقة عن التفسير دون أن يذكر معها بغض الأصنام أو خوف الكهانة.

ثانياً ـ إن ما ذكر في هذه الرواية الواقدية بالنظر إلى لبّ الموضوع، وزبدة قصة (بدء الوحي) هو عين ما ذكر في غيرها من الروايات، لأن القصة واحدة في موضوعها، ووقائِعُها متلاحقة متقاربة في حقائقها، وأغلب الروايات الثابتة لم يرد فيها (خشيت على نفسي) بتة، فضلاً عن إلصاق الكهانة وبغض الأصنام، وهذه الروايات أصدق سنداً وأحكم معنى، وأجود سياقاً من رواية محمد بن سعد عن شيخه الواقدي، فلا وجه مطلقاً لقبول هذه الرواية المخلِّطة، لأنها لم توافق أصح الروايات، وهي رواية الشيخين: البخاري ومسلم في ورود عبارة (خشيت على نفسي) مطلقة عن تفسير المراد منها، ولم توافق سائر الروايات في عدم ورود عبارة (خشيت على نفسي) فيها أصالة، ولكنها خالفت ذلك كله وجاءت بشيء باطل منكر، وهو ذكرها للخشية مفسرة بالكهانة، ونسبة ذلك إلى النبي ﷺ أنه قاله لخديجة، وهذا هو الذي تشبَّث به المتخرصون في بيان سبب الخشية والمراد بها في رواية من ذكرها مطلقة كالبخاري ومسلم، مع إلصاق حديث بغض الأصنام والكهان، وهو حديث نافر الموضع، شاذ الجَلَب، قلق المستقر.

ولعل هذه الرواية الواقدية ومثيلاتها هي التي قصدها الإمام العلامة ابن حجر بقوله في شرح البخاري، وهو يحكي أقوال العلماء في بيان المراد من الخشية: أولها الجنون، وأن يكون ما رآه من جنس الكهانة، جاء مصرحاً به في عدة طرق، وقد عرفنا مما سبق أن حذّاق العلماء لم يعبأوا بهذه الطرق، وأبطلوا ما جاءت به من فرية ما فيها مرية، وكان ابن حجر في طليعة من صدق على بطلانها، فلتذهب مع أمثالها من الأباطيل الموضوعة الكاذبة، لتبقى ساحة النبوة مطهرة مقدسة بعصمة الأنبياء والمرسلين.

ثالثاً ـ كيف يخشى رسول الله ﷺ على نفسه أن يكون كاهناً، وهو كما تقول الرواية الواقدية يبغضها بغضاً لم يبغضه شيئاً قط؟ وهذا البغض وإن

كان واقعاً راسخاً في خلق رسول الله ﷺ مركوزاً في طبعه وفطرته التي فطره الله عليها؛ تنزيهاً له عن شوائب الأباطيل والأضاليل، منذ تولاه الله برعايته وتربيته ـ لكن هذا البغض في مكانه من الرواية الواقدية جاوز موضعه من فطرة رسول الله ﷺ، واتخذ وضعاً مريباً واهناً في لحظة تاريخية من حياة رسول الله ﷺ، لأن هذه الرواية جعلت هذا البغض أبطولة يخشاها رسول الله ﷺ على نفسه، وهو في ذروة الطهر ويقين الإيمان، وهو يتلقّى وحي رسالته رحمة للعالمين.

رابعاً ـ ألا سأل الذين يتكثرون بهذه الروايات الباطلة، والذين يتخرصون في بيان المراد من الخشية أنفسهم، أين تقع الكهانة وزمزمتها، وأكاذيبها وأضاليلها من ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علَّم بالقلم * علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ وهي الآيات البينات التي رجع بها رسول الله ﷺ إلى أهله، ترجف بوادره من استفراغ بشريته، وإفراغ روحانية الملأ الأعلى في روحانيته العلية، حتى تتم له مجانسة الروح الأمين في قوة روحانيته الملائكية ليتلقى منه وحي ربه له برسالته وآيات كتابه المبين؟ وهو ﷺ أعظم الناس عقلاً، وأطهرهم قلباً، وأزكاهم إدراكاً، فلا يعقل أن يرجع إلى أهله بهذه الآيات البيِّنات في سمو معانيها، ثم يداخله أدنى هاجس في كهانة.

خامساً ـ ما وجه إقحام هذه الرواية الواقدية بُغْضَ رسول الله ﷺ الأصنام بغضاً لم يبغضه شيئاً قط؟ هل خشي رسول الله ﷺ على نفسه أن يكون ما رآه في الغار من مفاجأة الملك، والغط وإقرائه آيات من كتاب الله متصلاً بالأصنام كصلة الكهان بها، وأن ذلك من قبيل ربط الكهانة بالأصنام في تلقي زمزمتها وأكاذيبها، فخشي ﷺ على نفسه أن يكون كاهناً تسيِّره الأصنام؟.

إن اعتقاد ذلك من أكفر الكفر وأبطل الأباطيل، وبغض رسول الله ﷺ للأصنام أمر متعالم في حياته ونشأته قبل أن يبعث للناس رسولاً، يعرفه له العدو والصديق، ولم يتهم قط بأنه ﷺ مسّ صنماً، أو تمسح بوثن،

فلا معنى لذكر هذا البغض المتعارف في مقام تلقي رسول الله ﷺ وحي رسالة ربه وما حدث له في هذا المقام من مفاجآت انتهت بفوزه ﷺ فوزاً عظيماً برسالة ربه رحمة للعالمين.

سادساً ـ إذا كان النبي ﷺ يبغض الكهان والكهانة بغضه للأصنام، وهو بغض لم يبغضه شيئاً قط، وهذا واقعه ﷺ في حياته ـ فكيف يخشى على نفسه أن يكون كاهناً؟.

هل الكهانة أمر ينزل بالإنسان كرهاً منه، على غير رغبة منه فيه؟ والمعروف في تاريخ الكهانة عند سائر الأمم الجاهلة أن الكهانة منصب وثني شيطاني، مرموق عند أحلاس الشرك وعبيد الوثنيات، يطلبها ويحتال على كسبها ذوو الحيلة الخبيثة والشعوذة الخادعة الماكرة، ومن تستغويهم مردة الشياطين من ذوي الفطر الدنسة، والقلوب الفاجرة، والنفوس الشريرة، فكيف يخشى رسول الله ﷺ على نفسه أن يكون كاهناً في أرفع لحظات حياته، وهو أطهر الأطهار، وأصدق الصادقين، وهو الذي قال له أعدى أعدائه: ما جرَّبنا عليك كذباً قط، والكذب أخص خصائص رجس الكهانة، وهو ﷺ الذي أجمع قومه على تلقيبه بالأمين، والأمانة في صورتها الخُلقية الكريمة أبعد صفات الإنسانية عن الكهانة والكهان، فلا يمكن أبداً أن يكون قد داخل خاطر رسول الله ﷺ شيء من هذه الأباطيل.

فهذه الرواية وضريباتها مما شحنت به بعض كتب التراث الإسلامي، يجب طرحها وتنقية السيرة النبوية من أوضارها، ويجب التنبيه على أضرارها وبطلانها.

* * *

مسلك حذاق العلماء في فهم العبارات الموهمة

وقد تنبه بعض حذَّاق العلماء من أئمة المحدِّثين إلى ما تنطوي عليه تقحمات المتخرصين في تفسير بعض الكلمات الموهمة من أضرار على عقيدة التوحيد، وتعريض قداسة النبوة والرسالات الإلهية، وعصمة الأنبياء والرسل لهزات التأويل المتعسف الذي قد ينقلب إلى تحريف، يتشبث به الذين في

قلوبهم مرض، ويزعزع الإيمان في نفوس الذين لم تكن لهم القدرة على دفع الشبه والتشكيكات المضلة من عامة المسلمين، ولا سيما شباب المسلمين المثقفين ثقافة أجنبية عن الإسلام وأصوله، وهم في هذا العصر كثرة غامرة، نشأوا في ظل ضعف المجتمع الإسلامي وجهالته بدينه وتاريخه، ونُشِّئوا تنشئة غريبة عن أصول الإسلام وآدابه وشرائعه ونظمه، فكانوا غرباء عنه، وكانت تعاليمه غريبة عنهم.

فإذا تراءت لهم عن قصد أو غير قصد ألفاظ موهمة في بعض روايات الحديث المتعلقة بالعقيدة، أو أُرُوها لزعزعة ركائز الإيمان في أنفسهم، كان عجزهم عن دفع ما فيها من إيهام وسيلةً عاصفة، تعصف بعقائدهم، وتذيب إيمانهم، وإذا رأوا في كتب التراث الإسلامي، أو أُرُوا روايات تحكي أموراً لا تتفق مع أصول الإسلام، ولم تجد نقداً يبهرجها ويظهر زيفها، بل قد تجد دفاعاً عنها، وتعسفاً في تأويلها من بعض من حسنت ظنونهم فيمن ينقلون عنهم هذه الروايات، كانت تلك الروايات فتنة لهم في دينهم، تهز إيمانهم وتملأ قلوبهم وعقولهم شكـوكـاً وأوهـامـاً.

تنبه هؤلاء الأجلاء من أعلام علماء الإسلام إلى ما في الاتجاه المستسلم ـ الذي يقبل كل ما يُـروى لمجرد صحة السند في نظرهم ـ من خطر على العقيدة، وقصارى هؤلاء المستسلمين أن يتعسفوا في التأويل تعسفاً يزيد من بُعد المعنى، ويقلب التأويل إلى التحريف والتشويه.

بَيْد أن أولئك الأجلاء من حذّاق أعلام العلماء تصرفوا في توجيه ما ثبت من هذه الكلمات الموهمة توجيهاً يضعها في موضعها من معـالم الإيمان، ويصرفها عن مزالق التحريف الموبق إلى مدارك الملاءمة لما ينبغي أن يكون لها من دلالة على معنى يستقيم مع أصول الإسلام، ولا يتنافى مع قداسة النبوة والرسالات الإلّهية، وعصمة الأنبياء والمرسلين.

يقول القاضي عياض: إن الخشية على نفسه ﷺ وقعت له أول ما رأى التباشير في النوم، ثم في اليقظة، وسمع الصوت، قبل لقاء الملك، فأما بعد مجيء الملك فلا يجوز عليه الشك، ولا يخشى من تسلط الشيطان.

ومن العجيب أن ينتهض الإمام النووي لتضعيف قول عياض، بحجة أن قول عياض خلاف صريح الحديث الذي بين سياقه أن الخشية كانت بعد الغط، وإتيانه (اقرأ).

وهذا التضعيف الذي ذهب إليه الإمام النووي هو الضعيف المردود، لأن ورود الخشية: في الحديث بعد الغط وإتيانه (اقرأ) لا يلزم منه أن الخشية على نفسه ﷺ كانت بعد الغط، وإتيانه (اقرأ) بل يحتمل - كما يقول الإمام بدر الدين العيني - إنه ﷺ أراد بإخبار السيدة خديجة رضي الله عنها بما كان قد حصل له سابقاً، حين كان يرى الضوء، ويسمع الصوت من التباشير والإرهاصات التي لم تكن معها نبوة، قبل مجيء الملك له في النوم بالرؤيا الصادقة التي بدأت بها النبوة، وفي اليقظة بلقاء الغار الذي بدأت به الرسالة.

لا أنه ﷺ خشي على نفسه حين لقاء الملَك في وحي اليقظة بالغار، وظلت معه تلك الخشية ملازمة له إلى حين رجوعه إلى أهله، وإخبار خديجة بما رأى وما سمع وما أُقرِىء، وأنه قد فاز برسالة ربه.

ولا شك أن قول القاضي عياض هو القول الحق في هذا المقام، لأنه يتمشى مع أصح روايات الحديث في ورود عبارة (خشيت على نفسي) وهي رواية الشيخين، ويضع الخشية في موضعها ومودها الذي ينبغي أن ترد إليه، حيث لم تكن النبوة بعصمتها قد جاءته، ولا غرابة في وقوع الخشية منه ﷺ وهو يرى الضوء، ويسمع الصوت، وتسلم عليه الأحجار والأشجار قبل النبوة وعصمتها، إرهاصاً لما سيقع.

وهذه الخشية في موردها الصحيح أثر بشري يقع للأفراد إذا رأوا أو سمعوا أمراً غريباً، وقد ثبت في عدة أحاديث أنه ﷺ كان يسمع التسليم عليه من بعض الكائنات التي ليس من شأنها أن تتكلم كالأحجار والأشجار - وحسب البحث حديث مسلم في تسليم الحجر عليه ﷺ - فينظر يميناً وشمالاً، فلا يرى متكلماً، وهذا شيء قد يهز البشرية ويروعها، وهو ما عبَّر عنه بالخشية، وهي في موردها الصحيح على قول القاضي عياض، ولا يمكن

أن يقبل في تأويلها وبيان المراد منها ما زعمه المتخرصون من الكهانة والجُنُن، كيف والله تعالى يقول لإبليس: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾[1] وهذا عقد سابق من الله تعالى أيأس به إبليس من أن يكون له في نَظِرته وتأخير بقائه في الدنيا للإغواء والإضلال سلطان على أحد من خواص عباد الله، وقد استثناهم إبليس نفسه من الوقوع في حبائل إغوائه فقال كما حكاه الله تعالى عنه: ﴿ إلا عبادك منهم المخلَصين ﴾[2] فكيف بأخص الخواص، وأفضل الأفضلين، محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين؟!.

ويدل لما ذهب إليه القاضي عياض، ويؤيده تأييداً واضحاً ما رواه ابن سعد في الطبقات بسند ليس فيه شيخه الواقدي، وهو من رواية عروة ابن الزبير قال: إن رسول الله ﷺ قال: «يا خديجة: إني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً، لقد خشيت أن أكون كاهناً» فقالت: إن الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبدالله، إنك تصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتصل الرحم.

ووجه دلالته على ما ذهب إليه عياض، وتأييده له أن هذا الحديث صريح في أن خشيته ﷺ أن يكون كاهناً جاءت في إخباره خديجة رضي الله عنها بها عقب رؤيته الضوء، وسماعه الصوت، وهما من التباشير والإرهاصات وذلك قبل أن يوحى إليه بالنبوة، ولين الحديث وضعفه لا يمنع التأييد، لأننا لم نسق هذا الأثر لإثبات أصل المسألة.

دعائم تأييد مسلك حذّاق العلماء

ويدل له أيضاً ويؤيده تأييداً قوياً ما رواه ابن سعد في الطبقات بسند ليس فيه الواقدي، قال: أخبرنا يحيى بن عباد، وعفان بن مسلم، قالا: حدثنا حماد بن سلمة ـ أحسبه عن ابن عباس ـ أن النبي ﷺ قال: «يا خديجة: إني أسمع صوتاً وأرى ضوءاً، وإني أخشى أن يكون فيّ جُنُن» فقالت: لم يكن الله ليفعل بك ذلك يا ابن عبدالله، ثم أتت ورقة بن نوفل فذكرت له ذلك، فقال: إن يك صادقاً فهذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن يبعث وأنا حي فسأعزره، وأنصره، وأومن به، وفي قول ورقة: فإن

(١) سورة الحجر، آية: ٤٢.
(٢) سورة الحجر، آية: ٤٠.

يبعث وأنا حي دلالة على أن ذلك كان قبل البعث والنبوة.

ووجه دلالة هذا الحديث على ما ذهب إليه عياض، وتأييده له أن الحديث صريح في أن النبي ﷺ أخبر خديجة عن شيء من الإرهاصات والتباشير، يسمع الصوت، ويرى الضوء، ولا يرى صاحب الصوت ولا مصدر الضوء، وهذا شيء غريب على النفس الإنسانية، ولا سيما إذا كان الإنسان في خلوة بنفسه وعزلة عن الناس، مما يوجب الخشية والارتياع بمقتضى الطبع البشري، قبل مجيء النبوة، وتحقق عصمتها.

فهذان الحديثان ـ وقد سَلِم سندهما من ضعف الواقدي ـ صريحان في أن الخشية التي شعر بها النبي ﷺ، وأخبر بها خديجة رضي الله عنها كانت عند رؤية التباشير والإرهاصات، قبل أن يوحى إليه بالرؤيا الصادقة، وهي أول مراتب وحي النبوة، وحيث لم تكن النبوة؛ فلا مانع أن يخشى رسول الله ﷺ على نفسه من هذه الأمور الغريبة التي يراها ويسمعها، ولا يرى مصادرها، وذلك طبيعي بمقتضى الطبيعة البشرية التي كان يعيش بها رسول الله ﷺ في حياته إنساناً مع الناس، يخالطهم، ويتأثر بما يتأثرون، ويحوطه الله تعالى بحفظه ويتولاه برعايته من عواقب ذلك التأثر الطبيعي.

وكانت خديجة رضي الله عنها الزوجة الوفية الأمينة، مأنسه ﷺ، يجد في قلبها أصدق الحب والحنان، فحدثها بما رأى وسمع، وأخبرها بما شعر وأحس في مداخل نفسه الكريمة، ليجد عندها الكلمة الباسمة، تسرّي بها عنه، وتمسح بأهداب حنانها ما عسى أن يكون قد ألمَّ به، حتى إذا جاءته النبوة بأول مراتب وحيها في الرؤيا الصادقة، وغمرته أنوارها لم يبق عنده من أثر تلك الخشية شيء.

فإذا جاءه ﷺ الحق من ربه بأعظم رسالاته، وبعثه رحمة للعالمين، وخاتماً للنبيين، وافتتح رسالته بأجلّ ما أنزله على المرسلين ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علَّم بالقلم. علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ وعاد إلى أهله من متعبده وخلوته قرير العين، رابط الجأش، راسخ اليقين، مطمئن القلب بفوزه بأعظم نعم الله

على الوجود بمن فيه وما فيه ـ قال المتخرصون ما قالوا من التحـريفات والتأويلات الفاسدة؟!.

ولكن حسبه ﷺ قول الله الرؤوف الرحيم: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم،عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ وقوله عزّ شأنه: ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾.

أقصوصة التردّي من شواهق الجبال

أبطولة زائفة مُضلّة

تلك هي الأبطولة التي تنسب إلى رسول الله ﷺ محاولة قتل نفسه في مدة فترة الوحي التي تقول الأبطولة: إنه حزن فيها حزناً يائساً، حمله على عزيمة إلقاء نفسه من ذرا شواهق الجبال ليقتلها، وهي أبطولة هزيلة منكرة، ألصقت إلصاقاً بأعظم وأجلّ كتب الحديث ودواوين السّنة المطهرة.

أبطولة لم تجد من ينكرها

ـ ذلك الفحل، لا يقدع أنفه، صحيح البخاري ـ وسارت بسيرورته إلى عقول المسلمين، وشهرت بشهرته فيهم، ولم نعلم أن أحداً من علماء الأمة وأعلامها ـ على مدى القرون المتطاولة، منذ جمع البخاري صحيحه ـ رفع رأسه بإنكارها، أو أجرى قلمه بإبطالها، أو أطلق لسانه بتزييفها، وهي من أنكر المنكر، وأبطل الباطل، ينتشي فرحاً بها وبأمثالها أعداء الإسلام المتربصون به الدوائر، ويطرب لسماعها الملاحدة الجاحدون، الذين يتلمسون سقطات الروايات، تجري على أسلات الأقلام والألسنة في تراث الإسلام ولا سيما إذا سقطوا على تلك السقطات في كتب لها في أنفس المسلمين قدرها واحترامها، وتنزل من قلوبهم منزلة التقديس والإعزاز، مروية عن أشخاص لهم هالات الإجلال والإكبار في تاريخ الإسلام.

أبطولة يجب رفضها وإنكارها

هذه الأبطولة ونظائرها مما يجب التوقف في قبولها، بل مما يجب رفضها وإبطالها، وإن تكن قد ألصقت بحديث ارتفع بصحة سنده ومكانة راويه ومخرجه عن مثارات الضعف الحديثي والوهن في الرواية.

جاءت هذه الأبطولة ـ بلاغاً ـ في رواية كتاب (التعبير) من الجامع

الصحيح للإمام البخاري، ملصقاً بحديث (بدء الوحي) عن معمر، أو عن شيخه ابن شهاب الزهري، قال: وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ - فيما بلغنا - حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدّى له جبريل، فقال: يا محمد: إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه وتقرّ نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدّى له جبريل فقال مثل ذلك.

هذا البلاغ اللصيق بحديث بدء الوحي باطل زائف، وذلك من وجوه:

وجوه إبطال هذا البلاغ الزائف - الوجه الأول -

الأول: أن القاضي عياضاً - وهو من جهابذة الحديث وأعلام أئمة السنة النبوية المطهرة، وهو صاحب الموقف السديد المحكم في توجيه عبارة (لقد خشيت على نفسي) الواردة في الحديث وتقحم المتخرصون في تفسيرها وبيان المراد منها كل صعب منكر، حتى جاءها عياض ووضعها في مكانها من قصة بدء الوحي - ضعّف هذا البلاغ بأن صاحبه: معمر أو الزهري لم يسنده، وهذا مطعن فيه من جهة سنده، فلا وجه لقبوله، بل ينبغي طرحه ورفضه، ودعوى أن عدم إسناده لا يقدح في صحته - كما يقول الزرقاني في شرح المواهب - دعوى واهية لا تقوم على قدم صحيحة، ولكنها تعتمد على فرض احتمالي بأن صاحب هذا البلاغ بلغه عن الثقات، لأنه هو ثقة، وكون صاحب البلاغ ثقة لا يدفعه عن جواز قبوله ما لم يكن، توهماً أنه كان، لأنه يحدِّث عمن سمع، وحسنُ الظن بمن يسمع منه قد يحجب موضع النقد فيما يسمع، وهذا الاحتمال قائم في حق الثقات الذين بلغه عنهم، - لو ثبتت ثقتهم - وتجرد ثقة من روى عنهم عنده لا يثبت الثقة له عند عموم المحدثين والنقاد، فقد يروى الثقة عن غير الثقة، لأنه في نظره وتقديره ثقة، وهو عند غيره ضعيف لا تُقبل روايته، على أنه لو كان من روى عنهم هذا الثقة ثقات عنده لَمَ دَلَّسهم وأخفاهم ولم يسمّهم وهو حافظ قادر على هذه التسمية؟ وهذه الأقصوصة سيقت بلاغاً، فهي من مرسلات الزهري وفي مرسلاته كلام عند النقاد، ومن أشدهم وأوثقهم في رفضها

وعدم قبولها إمام النقدة يحيى بن سعيد القطان، وسعة حفظ الزهري وإمامته في هذا لا يمنحه العصمة عن الغلط والوهم. والعصمة عن الخطأ والغلط والتوهم مفقودة في جميعهم، والمحكَّم في ذلك ليس مجرد الثقة فيمن يسمع منه بل يجب أن يكون المعوّل عليه مع ثقة من يسمع منه عدم مناقضة النص المسموع من الثقة لأي أصل من أصول الإيمان، فصحة المتن شرط مع صحة السند في قبول النص المسموع، بمعنى أن الحديث يجب أن يكون صحيح السند مروياً عن الثقات الضابطين، ويجب مع ذلك أن يكون صحيح المتن، أي النص الوارد بذلك السند الصحيح، فلا يتعارض مع أصل من أصول الإيمان المتفق عليها بين أئمة الدين والعلم، ولا يتعارض مع الدلائل الظاهرة التي تخالف مدلول النص المروي بالسند الصحيح.

هذا البلاغ يتعارض مع أصول الإيمان بالنبوة

وهذا البلاغ اللصيق ـ مع تسليم صحة سنده ـ بحجة أن صاحبه ثقة فلا يروي إلا عن الثقات يتعارض أولاً مع أصل أصول الإيمان، وهو عصمة الأنبياء والرسل، بمعنى حفظ الله ظواهرهم وبواطنهم، وتفكيرهم وخواطرهم، وسائر أعمالهم، حفظاً كاملاً، فلا يقع منهم قط ما يشكك في نبوتهم ورسالاتهم، وهذا البلاغ المعمري أو الزهري لم يبق لعصمة النبي ﷺ مكاناً في مدة الحزن اليائس التي تقول أبطولة هذا البلاغ إنه ﷺ مكثها وهو يغدو مراراً كي يتردى من شواهق الجبال، ولا سيما على مذهب من يرى أن مدة فترة الوحي ـ وهي مدة الحزن اليائس ـ قد طالت إلى ثلاث سنوات، أو سنتين ونصف سنة، أو ستة أشهر، وفي هذا البلاغ الزائف تصريح بأن صاحبه يذهب مذهب من يرى طول مدة فترة الوحي، وهي مدة الحزن اليائس الذي زعمه هذا البلاغ الباطل على رسول الله ﷺ، لأن ما ذكر فيه من الغدو مراراً لكي يلقي بنفسه من ذرا الشواهق يقتضي طول المدة، ولا سيما مع تمثل جبريل له وقوله: أنا جبريل وأنت رسول الله حقاً أكثر من مرة.

ويتعارض هذا البلاغ ثانياً مع ما يجب أن يكون عليه النبي ﷺ من

رسوخ الإيمان بنبوته، وأكمل اليقين برسالته، ولا شك أن ما جاء في هذا البلاغ الباطل ـ من تبدِّي جبريل عليه السلام للنبي ﷺ كلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منها نفسه، وقوله له: يا محمد: أنت رسول الله حقاً، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدَّى له جبريل عليه السلام، فقال مثل ذلك ـ يصور مدى ما بلغه ذلك الحزن اليائس ـ في زعم قائليه ـ من نفس النبي ﷺ حتى جعله يتشكك في تبدِّي جبريل له، وفي إخباره أنه رسول الله حقاً، فالنبي ﷺ ـ كما تصرح به عبارة هذا البلاغ ـ لم يكد يسكن جأشه لتبدي جبريل له وإخباره أنه رسول الله حقاً ـ حتى يعود إلى عزيمته في إلقاء نفسه من ذرا شواهق الجبال، فيتبدى له جبريل مرة أخرى، ويقول له: يا محمد، أنت رسول الله حقاً.

فأين سكون جأشه الذي أحدثه في نفسه تبدِّي جبريل له وإخباره أنه رسول الله حقاً؟ وأين رسوخ إيمانه برسالة ربه التي شرفه بها قبل فترة الوحي وأنزل عليه في أول مراتب وحيها في غار حراء قرآناً يتلى، وعاش في أنوارها أي أنوار نبوته التي سبقت رسالته ﷺ طول هذه المدة، وهو ـ كما يقول البلاغ الزائف ـ يعود إلى عزيمته لإلقاء نفسه من ذرا شواهق الجبال إذا طالت عليه فترة الوحي.

وليس في هذا النقاش ـ الذي يكشف عن زيف هذا البلاغ، ويبين بطلان ما يحكيه من هذه الأبطولة الأسطورية، بياناً لتسامي ساحة رسول الله ﷺ عن هذه الترهات الباطلة ـ ما يخيف بعض مهزوزي الفكر التقليديين، من فتح أبواب التشكيك في روايات الثقات من أئمة الدين والعلم، الذين حفظوا على الأمة نصوص دينها، ونقلوا إليها سنّة نبيِّها ﷺ نقلاً نقياً محكماً، لأن أولئك الأئمة الأعلام لم يغفلوا عما قد يعتري الإنسان مهما كانت مكانته من الثقة، من الوَهَل والنسيان والغلط، وهم الذين وضعوا ـ استنباطاً من الكتاب والسنّة ـ قواعد قبول النقول والروايات حماية للنصوص أن تدخلها الأباطيل، عن قصد أو عن غير قصد، إيماناً منهم بالقوة الذاتية للأصول الإسلامية التي لا يهزها نقد رواية، ولا إظهار خطأ راوٍ مهما كانت مكانته من الثقة والضبط.

لنا أسوة في مواقف الأئمة من عدم اعتدادهم بصحة السند وحدها

ونحن في نقاشنا هذا البلاغ إنما اقتدينا بأولئك الأئمة الأعلام فيما أسسوه من أصول وقواعد محكمة النسج، في ظلها وصلت إلينا نصوص السنة النبوية مصفّاة نقية من غلس الأباطيل، فإذا ندّ من شباك قواعدهم خيط من الشك والتلبيس وجد من تلك القواعد الأصولية منافذ لمن يلاحقه بحثاً ونقداً حتى يلقي به من ذرا شواهق الشكوك إلى مسارب الأباطيل، وأودية الفناء.

وحسبنا أن نذكر هنا ـ تأييداً لنقدنا في نقاشنا هذا البلاغ الزائف ـ موقف الإمام النووي من حديث جابر بن عبدالله الأنصاري في أن أول ما نزل من القرآن ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ إذ يقول: وأما ما روي عن جابر وغيره: أن أول ما نزل ﴿ يا أيُّها المدَّثر ﴾ فهو ضعيف، بل باطل بطلاناً ظاهراً، ولا تغتر بجلالة من نقل عنه، فإن المخالفين له هم الجماهير، ثم ليس إبطالنا قوله ـ أي قول جابر بن عبدالله ـ تقليداً للجماهير، بل تمسكاً بالدلائل الظاهرة. إهـ.

فأنت ترى أن الإمام النووي قد قطع الحكم ببطلان حديث جابر ـ ولم يقف عند تضعيفه ـ في أن أول ما نزل من القرآن ﴿ يا أيُّها المدَّثر ﴾ وهو حديث من رواية أوثق الثقات، فهو صحيح السند بلا أدنى ريب، وفي ذلك يتساءل الزرقاني في شرح المواهب فيقول: فإن قلت كيف حكم النووي وغيره بالضعف، بل بالبطلان على المروي عن جابر مع صحة الطريق إليه؟ كيف وهو في أرفع الصحيح مروي الشيخين، قلت ـ أي الزرقاني مجيباً عن تساؤله: حكمه ـ أي النووي ـ إنما هو على نفس القول الذي صحت نسبته لقائله بصحة سنده إهـ.

وهذا الجواب عن التساؤل هو معنى قولنا: إن صحة المتن ـ أي النص ـ شرط مع صحة السند في قبول النص المسموع، فإذا صح السند وناقض المتنُ أصلاً من الأصول الإيمانية، أو خالف الدلائل الظاهرة ـ كما يقول النووي ـ فقد وجب الحكم ببطلان الحديث وعدم قبوله، ولا يغتر بجلالة

من نقل عنه، لأن جلالة من نقل عنه النص لا تفيد أكثر من توثيق السند وصحته، وذلك لا يكفي في قبول متن الحديث ونصه.

فالإمام النووي حكم ببطلان حديث جابر لمخالفته الدلائل الظاهرة، ومخالفته لما ذهب إليه الجماهير من العلماء، وحديث جابر من مسندات أرفع الصحيح، ونحن حين ناقشنا هذا البلاغ الزهري الزائف، وقطعنا ببطلانه ـ مع فرض تسليم صحة سنده، وقد علمنا أن القاضي عياضاً، وهو من جهابذة أئمة الحديث، قد طعن فيه بالضعف لأنه لم يسند ـ لم نقطع بهذا البطلان تقليداً لأحد، بل تمسكاً بالدلائل الظاهرة التي كان من أظهرها مخالفة هذا المتن لعصمة النبوة، وهي أصل من أصول الإيمان، ولِمَا يؤدي إليه هذا البلاغ من وجود الشك عند النبي ﷺ في تبدِّي جبريل له وإخباره بأنه رسول الله حقاً؛ بماكان منه بعد هذا التبدي والإخبار من العودة إلى عزيمة إلقاء نفسه ﷺ من ذرا شواهق الجبال.

وفرق كبير جداً بين الحكم بإبطال بلاغ لم يسلم من الطعن في سنده، وإن كان قد ألصق بأحد الصحيحين، وبين الحكم بإبطال حديث مسند من مرويات أرفع الصحيح، ينتهي إلى أحد أعلام الصحابة رضي الله عنهم.

وفرق كبير جداً بين قطع الحكم بإبطال بلاغ مطعون في سنده، ولا سبيل إلى تأويله، وصرفه عن مدلوله الذي يناقض العصمة التي لا تتحقق رسالة الرسل، ونبوة الأنبياء إلا بتحققها، ويناقض ما يجب أن يكون عليه النبي ﷺ من رسوخ الإيمان بنبوته، وأكمل اليقين في رسالته، وقد جعله هذا البلاغ الزائف ـ على رغم تبدي جبريل له وإخباره بأنه رسول الله حقاً ـ يعود بعد هذا التبدي والإخبار إلى عزيمته لكي يتردى من شواهق الجبال ـ وبين قطع الحكم بإبطال حديث موثق السند، وللعلماء منادح في تأويله، ومذاهب في تصحيح مدلوله بما يتفق مع مذهب الجماهير ويتفق مع الدلائل الظاهرة.

فلا يهولنَّ الناظرَ في بحثنا هذا نقاشُنا لهذا البلاغ وإبطالنا له، فيسد

على عقله منافذ الوصول إلى الحقيقة التي تنزه ساحة الرسالة الخالدة الخاتمة من هذه الأباطيل.

الحق لا يعرف بأقدار الرجال وإنما يعرف بنصاعة البرهان

وفي موقف الإمام النووي من حديث جابر زيادة نكتة من المعارف الإسلامية تدل على أن أصول الإسلام لا تقبل أن تتدخل مكانة من نقل عنه الحديث في قبوله، مهما كانت تلك المكانة في جلالتها، وهل هناك أجل في الرواية وأرفع في ثقة النقل من مكانة الصحابة، وخاصة أعلامهم الأجلّاء الذين يأتي في سلكهم الصحابي الجليل جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنهما؟ وقد أبنّا موقف إمام من أئمة الدين والعلم ورواية الحديث، هو الإمام النووي، ومعه غيره من الأئمة من حديث جابر.

فلا موازنة بين بلاغ مطعون في سنده، مغلق عن التأويل متنُه ومدلول نصه الذي لا سبيل فيه لمحض الرأي، مروي عن تابعي صغير لم يسنده إلى قائل ـ كما هو صريح قوله ـ فيما بلغنا ـ دون أن يفصح عمَّن بلغه، وبين حديث موثق السند، مروي في أرفع الصحيح مسند إلى صحابي مشهور بالعلم، ولهذا الحديث مذاهب وطرق في التأويل، وتصحيح المدلول، كما سيأتي في بحث (أول ما نزل من القرآن).

ولا موازنة بين صحابي من أعلام الصحابة، أسند إليه الحديث الموثق في سنده، وبين تابعي صغير هو الإمام ابن شهاب الزهري أو تلميذه معمر، ولئن أمكن دخول الخطأ والوَهَل على الصحابي فدخوله على التابعي أو تلميذه أيسر وأقرب، فنقد هذا البلاغ وأمثاله من مدخول العلم لإبطاله، والكشف عن زيفه ليس بِدْعاً في معارف الإسلام وبحوث أئمته، بل هو أمر متعارف في تاريخ البحث الإسلامي، معبّد الطريق، محمود العاقبة.

والذي يمعن النظر في كتب الرجال، ودواوين الجرح والتعديل، وغربلة الحديث النبوي، وتنقية السنّة المطهَّرة من غلس الأباطيل، ووهَل الرواة يرى من ذلك العجب العجاب.

وقد عد العلماء هذا الاتجاه في النقد والبحث أحد مفاخر الأمة

الإسلامية التي حفظت عليها نقاء نصوصها وصحة نقولها، ولم يصبها من جرائه ما يخشاه عليها المهزوزون في تفكيرهم، التقليديون في علومهم ومعارفهم، وقد ثبت في صحاح الأحاديث أن بعض الصحابة وَهَّمَ بعضاً، فمن ذلك ما رواه أبو داود عن ابن عباس أنه قال: إن ابن عمر ـ والله يغفر له ـ أوهم.

أوثق الثقات في الإسلام الصحابة وقد وهّم بعضهم بعضا

كما ثبت في موطأ الإمام مالك رضي الله عنه أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها غلَّطت أبا هريرة رضي الله عنه في قوله بإفطار الصائم إذا أصبح جنباً: فقالت ـ وقد ذكر لها أن أبا هريرة يقول: من أصبح جنباً أفطر ذلك اليوم ـ ليس كما يقول أبو هريرة؛ فأشهد على رسول الله ﷺ أنه كان يصبح جنباً من جماع غير احتلام، ثم يصوم ذلك اليوم، فلما ذكر لأبي هريرة قولُها قال: لا علم لي بذلك، إنما أخبرنيه مخبر، قال الإمام الفقيه أبو الوليد الباجي في شرح الموطأ: وقول عائشة رضي الله عنها: ليس كما قال أبو هريرة، هو الواجب من الرد، ليس فيه أذى لأبي هريرة، ولا تقصير عن إنكار الباطل.

أفكان أبو هريرة رضي الله عنه في سماعه ما سمع ممن أخبره بهذا الحكم غير ثقة؟ وهل كان مَنْ سمع منه أبو هريرة هذا الحكم الباطل غير ثقة؟ كلا، فأبو هريرة كان من أوثق حملة حديث رسول الله ﷺ وفقه السنة النبوية، فلا يحدِّث إلا عن ثقة، وقد عُرف باسمه وشخصه مَنْ سمع منه أبو هريرة ذلك الحكم، وهو الفضل بن العباس رضي الله عنهما، وهو نبع في رياض الصدق والثقة، ولكنه غير معصوم فأوهم، وتبعه في هذا التوهم أبو هريرة لثقته في صدقه وضبطه وفقهه في الدين، ولم ينقص ذلك من قدر الفضل في فضله، ولا حطّ من قدر أبي هريرة في علمه، وهل كانت عائشة رضي الله عنها في إنكارها على أبي هريرة ما قال من حكم باطل متجنية عليه، أو أنها قامت بما يجب عليها من إنكار الباطل.

بل ثبت فيما يرويه ابن سعد أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وهّلت الفاروق عمر، وابنه عبدالله بن عمر، لما قال الطبيب لعمر رضي الله

عنه بعد طعنته القاتلة: اعهد يا أمير المؤمنين بكى عليه القوم حين سمعوا، فقال: لا تبكوا علينا، من كان باكياً فليخرج، ألم تسمعوا ما قال رسول الله ﷺ: «يعذب الميت ببكاء أهله عليه»، فمن أجل ذلك كان عبدالله بن عمر لا يقر أن يُبْكى عنده على هالك من ولده ولا غيرهم، وكانت عائشة أم المؤمنين زوج النبي ﷺ تقيم النوح على الهالك من أهلها، فَحُدِّثت بقول عمر عن رسول الله ﷺ، فقالت: يرحم الله عمر وابن عمر، فوالله ما كذبا، ولكن عمر وهَّل، إنما مرَّ رسول الله ﷺ على نُوَّح يبكون على هالك لهم، فقال: (إن هؤلاء يبكون، وإن صاحبهم ليعذب).

لا خوف على السنة خاصة وعلى الشريعة عامة من توهيم الأكابر في بعض ما رووا

وتغليط الأكابر بعضهم بعضاً نهج إسلامي، يقوم على دعائمه إحقاق الحق وإنكار الباطل، وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها قولها: وَهَّل ابن عمر، أي ذهب وهمه إلى شيء غير مراد، أو سها وغلط، وثبت أن عبدالله ابن عمر قال في أنس بن مالك: وَهَّل أنس، أي غلط، فهؤلاء الأعلون في آفاق الثقة والصدق لم يروا في تخطئة بعضهم بعضاً ما يمس مكانتهم في الفضل، لأنهم يرون أنهم بمقتضى إنسانيتهم ليسوا معصومين عن الخطأ والوهم، ولم يفتح ذلك منافذ الخشية والخوف على رواية هؤلاء الأكابر ونقولهم، كما يزعم التقليديون مهزوزو التفكير، بل فتح أبواب الإعجاب والإجلال، ورسوخ الإيمان بعظمة الإسلام الذي ربى أهله على حب البحث لمعرفة الحق ببراهينه وموارده، وإنكار الباطل مهما كانت مصادره.

ومن لطائف الموافقات أن الإمام ابن شهاب الزهري نفسه صاحب بلاغ الحزن اليائس وَهَّل نافعاً مولى عبدالله بن عمر، وغلَّطه فيما حدَّث به عن مولاه في تفسير قول الله تعالى: ﴿نساؤكم حَرْث لكم﴾... الآية قال القاضي أبو بكر بن العربي: ويُرْوى عن الزهري أنه قال: وَهَّل العبد - يعني نافعاً - فيما روي عن ابن عمر في ذلك، ونافع في مكانته من الثقة والضبط - ولا سيما على مولاه عبدالله بن عمر - حلقة في سلسلة الذهب التي اتفق المحدثون على توثيق رجالها ورفع درجاتهم فوق سائر الثقات، ولم يمنع ذلك الإمام الزهري من الحكم عليه بالوهل والغلط، وليس الإمام الزهري على علو إمامته بأرفع

من درجة نافع في الثقة والضبط، فإذا غلَّط الزهري نافعاً ووهَّله في النقل عن مولاه عبدالله بن عمر، فلا عجب أن يُغلِّط الزهري ويوهِّم في بلاغ الحزن اليائس، دون أذى له، أو تقصير عن إنكار الباطل في بلاغ يناقض ما يجب للنبوة المرسلة من قداسة وعصمة، وما يجب لمحمد سيد الأنبياء وإمام المرسلين من توقير وإعظام في إيمانه بنبوته ويقينه برسالة ربه.

وللزهري أغلاط أخذها عليه الأئمة وليس لها مخرج إلا أنها من أوهامه. قال ابن عبد البر: وأما قول ابن شهاب الزهري أن المتكلم مع النبي ﷺ في حديث السهو في الصلاة أنه ذو الشمالين فلم يتابع عليه، وحمله الزهري على أنه المقتول يوم بدر وغلط فيه والغلط لا يسلم منه أحد.

وقال البيهقي: وَهَم الزهري في قوله ذي الشمالين وإنما ذو اليدين. وقال السهيلي في الروض: روى الزهري حديث التسليم من الركعتين وقال فيه: فقام ذو الشمالين، لم يروه أحد هكذا إلا الزهري ـ هو غلط عند أهل الحديث، وقال النووي: ذو اليدين اسمه الخرباق، وأما ذوالشمالين فهو عمير الخزاعي وهو غير المتكلم في حديث السهو. هذا قول جميع الحفاظ إلا الزهري وقد اتفقوا على تغليط الزهري في ذلك.

الوجه الثاني في إبطال هذا البلاغ الزائف

الثاني ـ هذا الوجه متفرع على الأساس الذي قام عليه الوجه الأول، وهو أن هذا البلاغ ضعيف لم يسنده صاحبه ـ كما قال القاضي عياض ـ والقول بأن عدم إسناده لا يقدح في صحته، اعتماداً على أن صاحبه ثقة لا يروي إلا عن الثقات، لا يدفع الاحتمال في ضعفه لعدم إسناده، ومجرد هذا الاحتمال كافٍ لرده وعدم قبوله، ولو كان راويه من أوثق الثقات الذين يفرض فيهم أنهم لا يروون إلا عن الثقات، لأن هذا الفرض لا يرفع أصل الاحتمال، ولو سُلِّم رفع الاحتمال وصح له سند موثق يبقى وراء ذلك احتمال وَهَل الثقة صاحب البلاغ، وتوهمه غلطاً وقوع ما لم يقع، أو احتمال وَهّل الثقة الذي سمع منه صاحب البلاغ، وقد أثبتنا ذلك عن بعض أكابر الثقات من أجلّة الصحابة وكبار التابعين، وأن بعضهم وَهَّل بعضاً ووهَّمه في مسائل أقل شأناً من هذا البلاغ الذي يجب إنكاره

وإبطاله، لأنه يتعلق بأصل إيمان النبي ﷺ بنبوته ويقينه برسالته التي يجب أن يقوم الإيمان بها على أكمل اليقين القاطع الذي لا يعتوره شك في أية لحظة من اللحظات، وهذا يقتضي رد بلاغ الحزن اليائس، وإبطاله وعدم قبوله ولو كان صحيح السند لمناقضته لأصول الإيمان والعقيدة.

فحمله على التوهم والغلط أدنى درجات رده وعَدمِ قبوله، إعمالاً لحسن الظن ـ بأن روايته في صحيح البخاري ـ وإن كانت بلاغاً ـ يعصمه عن تعمد الكذب.

الوجه الثالث في إبطاله

الثالث ـ أن ما جاء به هذا البلاغ الزائف من قوله: وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ ـ فيما بلغنا ـ حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من شواهق الجبال إلى آخره، مختلف فيه، هل هو من زيادة معمر على رواية عقيل عن ابن شهاب، أو هو داخل في رواية عقيل كما يوهمه صنيع البخاري.

قال العلامة ابن حجر في الفتح: وقد أبان ذلك الحميدي، فساق الحديث إلى قوله: وفتر الوحي، ثم قال: انتهى حديث عقيل المفرد عن ابن شهاب، وزاد عنه البخاري في حديثه المقترن بمعمر عن الزهري، فقال: وفتر الوحي فترة حتى حزن، فساقه إلى آخره.

ثم قال ابن حجر: والذي عندي أن هذه الزيادة خاصة برواية معمر، فقد أخرج طريق عقيل أبو نعيم في مستخرجه من طريق أبي زرعة الرازي عن يحيى بن بكير شيخ البخاري فيه في أول الكتاب بدونها، وأخرجه مقروناً هنا برواية معمر، وبين أن اللفظ لمعمر، وكذلك صرح الإسماعيلي أن الزيادة في رواية معمر، وأخرجه ـ أي الحديث ـ أحمد ومسلم والإسماعيلي وغيرهم، وأبو نعيم أيضاً من طريق جُمَيع من أصحاب الليث بدونها.

فهذا البلاغ الذي اشتمل على هذا التخرص الباطل لم يرد في طريق من طرق الحديث على كثرتها وكثرة من روى الحديث من الأئمة إلا في رواية معمر، وهذا التفرد يوجب ـ على الأقل ـ التوقف في قبوله، بل يوجب ردَّه وإبطاله لما فيه من القوادح، بتعريض النبوة لهزة الشك والارتياب، وتعريض

النبي ﷺ لقلق النفس واضطراب الضمير، وهزة الإيمان وحيرة اليقين.

الوجه الرابع في إبطال هذا البلاغ الزائف

الرابع ـ أن ما تضمنه هذا البلاغ الزائف يشمل أمرين:

أحدهما ظاهر محسوس، تمكن مشاهدته، والحكم بوجوده أو عدم وجوده بمقتضى إمكان مشاهدته حساً، وثانيهما باطن محجوب في داخل النفس، لا تمكن معرفته لأحد إلا بإخبار صاحبه الذي دار في نفسه أو إخبار من أظهرهم عليه بنقل ثابت عنه.

فذهاب النبي ﷺ إلى أعالي الجبال وشواهقها التي ألف الصعود إليها في أزمان خلواته وتطلعاته للتفكر في عجائب آيات الله الكونية، وبدائع ملكوته ، أمر محسوس، يمكن الحكم عليه برؤيته ومشاهدته، ولا حرج في أن يكون النبي ﷺ قد حزن في فترة الوحي اشتياقاً لأنوار الشهود الروحاني الأعلى الذي كان يغمره في أوقات نزول الوحي، ونزول آيات القرآن المبين ـ حزناً كان يغدو منه إلى ذرا الجبال التي كانت مأنس روحه، تطلعاً إلى آفاق أشواقه لشهود تجليات أمين الوحي جبريل عليه السلام الذي سبق له أن تجلى في آفاقها بصورته الملائكية الروحانية العالية.

وكون هذا الذهاب إلى ذرا شواهق الجبال لقصد التردي منها ليقتل نفسه ـ كما هو نص عبارة البلاغ الزائف ـ أمر باطن محجوب بأستار الضمير في حنايا النفس، لا يعلمه ولا يطلع عليه إلا الله علاّم الغيـوب، وإلا صاحبه الذي دار في حنايا نفسه، وعزم على تحقيقه عملياً، وإلا من يظهره عليه صاحبه العليم به بإخبار منه إليه.

ولم يثبت قط في حديث صحيح أن النبي ﷺ أخبر عن نفسه أنه كان في مدة فترة الوحي يذهب إلى قنن الجبال الشواهق وذراها ليرمي نفسه من فوقها انتحاراً لحزنه على فتور الوحي.

ولهذا كانت نسبة ذلك إلى النبي ﷺ منكراً من القول، وباطلاً من المحالات التي لا يقبلها عقل، ولا تتلاءم مع أصول الإيمان.

وما ورد في حديث ابن عباس عند ابن سعد والإمام أحمد من قوله ـ

ما جاء في حديث ابن عباس من قصة البلاغ الزائف غير مسلم

أي ابن عباس ـ مكث النبي ﷺ (أياماً) بعد مجيء الوحي لا يرى جبريل، فحزن حزناً شديداً حتى كان يغدو إلى ثبير مرة وإلى حراء أخرى، يريد أن يلقي نفسه، غير مسلَّم من وجوه.

أولها ـ أن حديث ابن عباس من رواية الواقدي، وهو معروف بالضعف، لا يقبل الجهابذة من المحدِّثين روايته إلا إذا اعتضدت بروايات الثقات.

ثانيها ـ إذا صح سند الحديث إلى ابن عباس رضي الله عنهما فابن عباس لم يرفعه إلى النبي ﷺ، ولا إلى من سمعه من النبي ﷺ، فهو اجتهاد لا يعلم معتمده في أمر لا سبيل إلى معرفته إلا بإخبار من النبي ﷺ ولم يثبت هذا الإخبار، فالحديث موقوف على ابن عباس، فيكون في منزلة بلاغ الزهري ـ كما يؤخذ من كلام ابن حجر ـ يجب رفضه كرفض بلاغ الزهري، وإبطاله كإبطاله، ولعل هذا الحديث الضعيف في سنده الباطل في متنه ونصه هو مستند بلاغ الزهري، والزهري إمام موثق، فلا درك على البخاري في إلحاق بلاغه بجامعه من جهة توثيق السند، على أن البخاري لم يلحقه بجامعه إلا في موضع واحد فقط من مواضع حديث بدء الوحي، وهي متعددة فيه بالإسناد نفسه مقروناً بإسناد آخر تارة، وغير مقرون تارة أخرى، ولم يرد في تلك المواضع ذكر لهذا البلاغ الزائف إلا في كتاب (التعبير) بلاغاً، لا تأصيلاً.

وقد بيَّنا أن توثيق السند بتوثيق الرواة لا يلزم منه صحة متن الحديث، وقد استأنسنا بكلام الإمام النووي في قطعه الحكم بإبطال حديث جابر بأن أول ما نزل من القرآن ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ وهو من أرفع الصحيح، إذ هو مروي الشيخين، وله منادح في مجال التأويل.

ثالثها ـ أن حديث ابن عباس اشتمل على نص صريح في بيان المراد من فترة الوحي بأنها عدم رؤية النبي ﷺ جبريل عليه السلام في مدتها، وهذا مخالف لما جزم به ابن حجر في الفتح من أن المراد بفترة الوحي تأخر نزول القرآن فقط، لا عدم مجيء جبريل إلى النبي ﷺ، وهذا أمر لا مدخل

فيه للاجتهاد والرأي، ولا يقال إلا عن نقل، فلا بد أن يكون ابن حجر قد اطَّلع على علة لضعف حديث ابن عباس، واطَّلع على نص فيما جزم به وذهب إليه.

رابعها ـ أن حديث ابن عباس جعل مدة فترة الوحي (أياماً) وأكثر الروايات لم يفصح عن مقدارها غير مرسل الشعبي الذي فهم منه بعض الناظرين أن مدة السنين الثلاث المذكورة فيه هي مدة فترة الوحي، وقد استبعدنا ذلك، وغير ما ذكر السهيلي أن مدة فترة الوحي جاءت في رواية مسندة أنها كانت سنتين ونصفاً، وهذا اختلاف يحتاج إلى ترجيح، فإن لم يكن فقد وجب الوقف عن إعمال بعض وترك الآخر.

* * *

تحدث رسول الله ﷺ عن فترة الوحي ولم يشر بكلمة واحدة عن قصة البلاغ الزائف

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ تحدث عن فترة الوحي، ولم ترد في كلامه كلمة واحدة، تشعر بما تقحَّمته هذه التخرصات الباطلة، والمزاعم الفاسدة التي جاءت في بلاغ الحزن اليائس من أنه ﷺ كان في مدة فترة الوحي يغدو إلى ذرا شواهق الجبال ليرمي نفسه من فوقها، لما انتابه من حزن يائس على فتور الوحي، ومعاذ الله أن يكون هذا المنكر قد دار في خلد محمد رسول الله سيد الخلق ﷺ.

أخرج الشيخان البخاري ومسلم وغيرهما من الأئمة عن ابن شهاب الزهري قال: سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن يقول: أخبرني جابر ابن عبدالله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثم فتر الوحي عني فترة، فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت[1] منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي، فقلت لهم (زمِّلوني، زمِّلوني، فزمَّلوني)، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها المدَّثر قم فأنذر﴾ إلى قوله: ﴿والرجز فاهجر﴾ ثم تتابع الوحي».

---

(١) أي رعبت حتى وقعت على الأرض.

ولعل الناظر في هذا البحث يعجب أن يكون هذا الحديث الصحيح، وهو يقص ما حدث للنبي ﷺ في فترة الوحي - وهي فترة الحزن اليائس في نص البلاغ الزائف - يرويه الزهري نفسه، وهو صاحب بلاغ التردي من ذرا شواهق الجبال، وليس في حديثه المسند الموثق بصحة سنده كلمة واحدة تشعر من قريب أو بعيد بما جاء في تخرصات البلاغ الذي لم يسند، فكيف، ومن أين عرف المتخرصون أن النبي ﷺ كان يغدو في فترة الوحي إلى ذرا شواهق الجبال ليرمي نفسه من فوقها؟ وهـو ﷺ وقد تحدث عن فترة الوحي لم يقل شيئاً من تلك المزاعم التي جاء بها البلاغ الزائف، ولو كان ﷺ قال شيئاً مما تخرص به ذلك البلاغ لنقل مرفوعاً إليه ﷺ نقلاً متواتراً أو مشهوراً، لا بلاغاً غير مسند؟ كيف ولو كان لذلك وجود في حياة النبي ﷺ لكان من أعظم الأحداث التي تتضافر الرواة والنقلة على روايته ونقله، ولكنه لم ينقل مرفوعاً، ولا روي مسنداً، فهو باطل منكر، ما كان ينبغي أن يلحق بالجامع الصحيح.

ولقد عرف أن النبي ﷺ كان يأنس إلى زوجه الوفية الأمينة السيدة خديجة رضي الله عنها، أُنساً لم يأنسه بأحد سواها، فيحدثها بما يكون قد رأى وسمع في خلوته، بمتعبده أو في مرجعه إليها من غرائب الأحداث، وعجائب الآيات، وخوارق الإرهاصات التي كانت تتراءى له تبشيراً، فيجد عندها من مشاعر صدق الود والحنان ما يخفف من آثار ما عسى أن يكون قد شق عليه، فهل ثبت أنه ﷺ حدثها، أو هي قد عرفت من تغيرأحوال أنسه ولطفه أنه قد حزن - بعد أن جاءته رسالة ربه، ونزلت عليه آيات القرآن الكريم، ثم فتر عنه الوحي فترة - حزناً غدا منه مراراً إلى ذرا شواهق الجبال ليرمي نفسه من فوقها؟ كلا، لم يثبت، ولم يُرْوَ شيء من ذلك، وكانت السيدة خديجة في مكانتها من حياته ﷺ أقرب الناس وأجدرهم أن تعلم من حاله ﷺ ما يخفى على سائر الناس. وإذا لم يكن رسول الله ﷺ قد تحدث إلى مأنسه وزوجه الأمينة الوفية عن هذا الحزن اليائس المزعوم، حرصاً على شعورها من صدمة هذا الحزن المرير، فأين عُصبة أسبق السابقين إلى الإيمان برسالته ﷺ الذين لم تكن لهم في إيمانهم كبوة نَظِرة ولا كان لهم تلبث لحظة:

الصديق أبو بكر، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وسواهم من الصفوة الذين لازموا رسول الله ﷺ ملازمة لا يخفى عليهم معها من أمره وأحواله شيء، والبلاغ المزعوم يقول إن فترة الحزن اليائس قد طالت وتعدد فيها غدوه ﷺ إلى ذرا الشواهق ليلقي نفسه من فوقها.

فهل ثبت عن واحد من هؤلاء السابقين كلمة واحدة تشعر بشيء ـ مما زعمه بلاغ الحزن اليائس؟!.

إن أمر هذا البلاغ عجب من العجب لا يرويه أحد من أخص أخصاء السابقين الأولين ولا مَنْ جاء بعدهم في ملازمة رسول الله ﷺ، وبقي سراً مكتوماً حتى جاء معمر وشيخه الزهري فَكُشِف لهما حجابُه وتبدى لهما سِرُّه!!

إنه ﷺ لم يتحدث في حديث جابر حين تحدث عن فترة الوحي حتى عن مجرد حزن لحق به تأسفاً على هذه الفترة، بَلْه حزناً غدا منه مراراً إلى ذرا شواهق الجبال ليلقي نفسه من فوقها انتحاراً. إن حديث جابر في فترة الوحي تُرى فيه أقربُ المناسبات الأسلوبية للحديث عن الحزن على فترة الوحي، ففي قوله ﷺ: (ثم فتر عني الوحي فترة) مناسبةٌ لأن يقول ـ لو كان شيء مما زُعِم قد كان ـ فحزنت حزناً شديداً ضاقت عليّ فيه نفسي حتى كدت أن... ولكن أنَّى لشيء لم يكن قط أن يتحدث عنه أصدق الصادقين، ونحن لا نرى حرجاً أن يكون النبي ﷺ قد اعتراه شيء من الحزن في مدة فترة الوحي لانقطاع أنوار الشهود الروحي، ولا نرى حرجاً في أن النبي ﷺ كان يغدو إلى ذرا الجبال تطلعاً إلى آفاق أشواقه لتجليات أمين الوحي الذي عهد لقاءه في هذه الذرا.

وغدوُ النبي ﷺ إلى أعالي الجبال أمر محسوس يمكن الحكم بوقوعه لمن شاهده ببصره، أما كون هذا الغدو كان لقصد أن يلقي نفسه من شواهقها ـ كما هو زعم البلاغ الكاذب ـ فأمر باطني لا سبيل إلى معرفته إلا بالإخبار عنه منه ﷺ، وهذا ما لم يثبت قط.

الخامس ـ أن مدة فترة الوحي ـ وهي كما يجب أن تكون بمقتضى ما يفيده التعبير عنها بفترة الوحي المفيد بمنطوقه ومضمونه أن الوحي سبقها

الوجه الخامس في بيان إبطال هذا البلاغ الزائف

بالنزول، ثم توقف وفتر فترة، ثم نزل بعد هذه الفترة وتتابع - هي الزمن الذي تأخر فيه الوحي عن رسول الله ﷺ بعد نزوله عليه يقظة في مفاجأة الغار، ونزول أوائل سورة (اقرأ) وقبل عوده إليه وتتابعه، ونزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ أي هي زمن لم ينزل فيه الوحي، يقع بين زمنين، نزل في كل زمن منهما وحي يقظي بآيات من القرآن، فالزمن الأول الذي سبق فترة الوحي وتوقفه هو الزمن الذي بدأت فيه الرسالة بوحي اليقظة في مفاجأة الغار، التي نزل فيها خمس آيات من أول سورة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ والزمن الثاني الذي تأخر عن فترة الوحي، وعاد فيه وحمي وتتابع، هو الزمن الذي بدأ فيه الأمر بالإنذار، والتشمير عن عزيمة النهوض والجد في تبليغ الرسالة، وقرع قلوب المشركين بزواجرها بنزول خمس آيات من أول سورة ﴿ يا أيها المدَّثر قم فأنذر ﴾ - هذه المدة مختلف فيها اختلافاً غريباً، متباعد الأطراف، عـريض الأكناف، وهو اختلاف شمل مقدار زمنها، كثرة وقلة، وطولاً وقِصراً، وشمل تعيين وقتها، متى كانت.

زعم أن فترة الوحي هي السنون الثلاث التي وردت في مرسل الشعبي يفيد جداً

ومن أغرب وأبعد أطراف هذا الاختلاف القول بأن مدة فترة الوحي هي المدة التي وردت في مرسل الشَّعْبي الذي خرّجه ابن سعد في الطبقات بطرق متعددة، تنتهي كلها إلى داود بن أبي هند، ورواه صاحب (عيون الأثر) ولم يذكر له إسناداً، بل اكتفى بقوله: وعن الشعبي أن رسول الله ﷺ وكِّل به إسرافيل، فكان يتراءى له ثلاث سنين، ويأتيه بالكلمة من الوحي، ثم وكّل به جبريل فجاءه بالقرآن.

وهذا القول الغريب البعيد في تحديد مدة فترة الوحي صرح به القسطلاني في المواهب، ويؤخذ من قول ابن حجر في الفتح إذ يقول: وليس المراد بفترة الوحي المقدرة بثلاث سنين، وهي ما بين نزول (اقرأ) ونزول (يا أيها المدَّثر) عدم مجيء جبريل إلى النبي ﷺ، بل المراد تأخر نزول القرآن فقط.

وابن حجر يسوق هذا الكلام للرد على من ذهب إلى أن المراد بفترة الوحي عدم مجيء جبريل إلى النبي ﷺ كما جاء مصرحاً به في حديث ابن

عباس عند ابن سعد من طريق الواقدي، قال: إن رسول الله ﷺ لما نزل عليه الوحي بحراء مكث (أياماً لا يرى جبريل).

بيد أن ابن حجر لم يقتصر في كلامه على القدر الذي يتضمن الرد الذي يقصده، ولكنه زاد في عبارته ذكر المدة المقدرة بثلاث سنين، وزاد تعيين وقت هذه المدة فقال: وهي ما بين نزول ﴿اقرأ﴾ ونزول ﴿يا أيها المدَّثر﴾.

وهذا يفيد أن ابن حجر يرى أن مقدار مدة فترة الوحي هو ثلاث سنين، ويفيد أنه يرى أن وقت هذه المدة هو ما بين بدء الرسالة بنزول أول سورة (اقرأ) في مفاجأة الغار بوحي اليقظة، وبدء الأمر بالإنذار وتبليغ الرسالة بنزول أول سورة ﴿ يا أيها المدَّثر قم فأنذر ﴾.

ووجه غرابة هذا القول وبعده أن مدة الثلاث سنين لم ترد ـ فيما نعلم ـ في غير مرسل الشعبي، وهذا المرسل صريح في أن هذه المدة كانت في مبتدأ النبوة، قبل قصة المفاجأة في الغار، ونزول أوائل سورة (اقرأ) بزمن طويل، فهو يقول كما جاء في رواية ابن سعد: إن النبي ﷺ أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فكان معه إسرافيل ثلاث سنين ثم عزل عنه إسرافيل وأقرن به جبريل، وكما جاء في تاريخ الإمام أحمد عن الشعبي: أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين وكان يعلمه الكلمة والشيء، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل عليه السلام، فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة، فقوله في رواية ابن سعد ثم عزل عنه إسرافيل، وأقرن به جبريل صريح في أن قَرْن إسرافيل به ﷺ كان قبل قرن جبريل به، وقرن جبريل به بدأ بمفاجأة الغار التي ابتدأ فيها إنزال القرآن، ويؤكد هذا قوله في رواية تاريخ أحمد بن حنبل: فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل عليه السلام، فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة.

ومن العجيب مع هذه النصوص الصريحة ما ذكره الزرقاني في شرح المواهب تعليقاً على قول القسطلاني مستدركاً على ابن القيم في ذكر مراتب الوحي: لكنه ـ أي ابن القيم ـ (لم يذكر نزول إسرافيل إليه بكلمات من

الوحي) فيقول الزرقاني: (بعدما أوحى إليه جبريل يأتيه بالكلمة من الوحي والشيء من الأفعال والآداب التي يعلمه إياها، كان بعد قرن جبريل به، وبعد نزول﴿اقرأ﴾وهذا مخالف لصريح نص مرسل الشعبي، فلا ندري من أين أخذه الزرقاني؟.

فهل هناك من ذهب إلى أن فترة الوحي ـ وهي كما يجب أن تكون، وكما عينها ابن حجر في عبارته ـ المدة التي بين نزول﴿اقرأ﴾ونزول سورة﴿يا أيها المدَّثر﴾ كانت ثلاث سنين مثل المدة التي وردت في مرسل الشعبي، ولكنها غيرها، ومتأخرة في الزمن عنها؟ وقول ابن حجر في عبارته: وليس المراد بفترة الوحي المقدرة بثلاث سنين ـ مَنْ قدرها بذلك؟ ـ وهي ما بين نزول﴿اقرأ﴾ونزول ﴿يا أيهاالمدَّثر﴾ يشعر بأنها غير المدة المذكورة في مرسل الشعبي، وهي مختلفة معها زمناً وموضوعاً وهذا مما يزيد في غرابة هذا القول وبعده، ولا ندري من أين أخذه ابن حجر، وهو الإمام العلامة الثبت المؤمَّر في علم الحديث، وهو أجل من أن تذهب به خواطره إلى أن المدة المقدرة بثلاث سنين في مرسل الشعبي هي المدة التي كانت فيها فترة الوحي، وهي ما بين نزول﴿اقرأ﴾ونزول ﴿يا أيها المدَّثر﴾ لأن مرسل الشعبي صريح في أن المدة المذكورة فيه كانت قطعاً قبل حادث الغار الذي نزلت فيه (اِقرأ) بزمن طويل، وأنها كانت في مبتدأ النبوة كالتمهيد للرسالة، وأن الذي وكل بالنبي ﷺ فيها هو إسرافيل، كان يتراءى له، ويأتيه بالكلمة من الوحي، وذلك قبل أن يوكل به جبريل ويجيئه بالقرآن، فهل أخذ ابن حجر ذلك من صنيع الإمام السهيلي الذي قال عنه ابن حجر إنه قد جمع به المختلف في مكثه ﷺ بمكة، وقوله ـ أي السهيلي ـ إنه جاء في بعض الروايات المسندة أن فترة الوحي كانت سنتين ونصفاً، وفي رواية أخرى إن مدة الرؤيا ستة أشهر ـ فجمع مدة ما قيل في الفترة من أنها سنتان ونصف إلى ما قيل في مدة الرؤيا الصادقة من أنها ستة أشهر، فخرج له ـ أي للسهيلي ـ ثلاث سنين، لكن هذا لا يفيد في توجيه كلام ابن حجر أن مدة فترة الوحي كانت ثلاث سنين كما هو صريح عبارته، لأن مدة الرؤيا الصادقة المقدرة في كلام السهيلي بستة

صنيع السهيلي
لا يحل المشكلة

أشهر كانت قطعاً قبل فترة الوحي بتحديد ابن حجر بزمن طويل باتفاق لا خلاف فيه.

والإمام السهيلي لم يقصد في صنيعه الذي جمع به المختلف في مكثه ﷺ بمكة إلى بيان مدة فترة الوحي، وهي التي كانت بين نزول ﴿اقرأ﴾ ونزول ﴿يا أيها المدَّثر﴾ وأنها كانت ثلاث سنوات، كما في تقدير مدة مرسل الشعبي، فلا يزال التساؤل قائماً، من أين أخذ ابن حجر هذا القول الغريب؟ لعل أحداً من الباحثين يرشدنا إلى مأخذه، أو إلى حل مغلقه، وقد تبع القسطلاني في المواهب ابن حجر فقال: وكانت مدة فترة الوحي ثلاث سنين، ونقل شارحه الزرقاني أقوالاً في مدة الفترة حكاها عن مغلطاي في الزهر، ففي تفسير ابن عباس أنها كانت أربعين يوماً، وفي تفسير ابن الجوزي ومعاني القرآن للزجاج أنها كانت خمسة عشر يوماً، وفي تفسير مقاتل أنها كانت ثلاثة أيام، قال مغلطاي: ولعل هذا هو الأشبه بحاله عند ربه.

تنبه ابن حجر إلى ما في كلامه من قلق

وكأن ابن حجر تنبه إلى ما في كلامه من القلق، فقال: «فائدة» وقع في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشعبي أن مدة فترة الوحي كانت ثلاث سنين، وبه جزم ابن إسحق، ولعل ابن حجر يقصد بهذا القول ذكر مستند لقوله في عبارته السابقة عن فترة الوحي أنها المدة المقدرة بثلاث سنين، ولكنه رجع فقال: ثم راجعت المنقول عن الشعبي من تاريخ الإمام أحمد بن حنبل، ولفظه من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي: أنزلت عليه النبوة، وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشيء، ولم ينزل عليه القرآن بلسانه.

وهذا نص في أن المذكور في تاريخ الإمام أحمد عن الشعبي هو عين مرسله عند ابن سعد، وجميع طرقه عنده تنتهي إلى داود بن أبي هند، كطريق الإمام أحمد في تاريخه مما يدل على أنه هو هو.

وإذا كان ذلك كذلك بطل النقل الذي قال عنه ابن حجر: «فائدة» وقع في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشعبي أن مدة فترة الوحي ثلاث سنين، لأن الثلاث سنين التي ذكرت في مرسل الشعبي ليست مدة فترة الوحي، بل

هي مدة سابقة عليها بزمن طويل، كانت في مبتدأ النبوة، وكان الموكل فيها بالنبي ﷺ هو إسرافيل، ومدة فترة الوحي كانت بعد أن وكل به جبريل، وبعد أن نزلت عليه آيات القرآن بلسانه قبل مدة فترة الوحي وبعدها، ومما يؤكد بطلان نقل ما وقع في تاريخ أحمد بن حنبل الذي ذكره ابن حجر على أنه «فائدة» أن المنقول عن الشعبي الذي راجعه ابن حجر من تاريخ أحمد ابن حنبل ليس فيه عبارة: وجزم به ابن إسحق،التي جاءت في نص الفائدة التي ذكرها ابن حجر، ويزيده تأكيداً أن ابن سيد الناس في كتابه (عيون الأثر) قال: وفتر الوحي فترة لم يذكر لها ابن إسحاق مدة معينة، وهذا ينفي أن يكون ابن إسحق جزم بأن مدة فترة الوحي ثلاث سنين، وابن سيد الناس من ثقات رواة السيرة النبوية، ومن أقعد مدونيها في تحقيق أحداثها.

فالمدة المذكورة في حديث الشعبي عند ابن سعد هي نفس المدة المذكورة في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشعبي، كما ثبت في مراجعة ابن حجر للمنقول عن الشعبي عند الإمام أحمد في تاريخه، وهذه المدة لا مدخل لها مطلقاً في مدة فترة الوحي التي تحدث عنها بلاغ الحزن اليائس في رواية معمر عن الزهري.

وقد تنبه إلى ذلك ابن حجر فصحَّح الوضع في أن مدة الثلاث سنين المذكورة في مرسل الشعبي لا علاقة لها بقدر مدة الفترة، فقال بعد أن ساق مراجعته للمنقول عن الشعبي من تاريخ الإمام أحمد بن حنبل، الذي هو نفس مرسله عند ابن سعد: فيحسن بهذا المرسل ـ إن ثبت ـ الجمع بين القولين في قدر إقامته ﷺ بمكة بعد البعثة، ولا يتعلق ذلك بقدر مدة الفترة.

شغل الباحثون من الأئمة عن تحقيق أمد فترة الوحي ووقتها بأمر جانبي

ومما يثير العجب أن يشغل الباحثون من المحدثين شراحاً ورواة لأحداث السيرة النبوية عن تحقيق فترة الوحي وقتاً وأمداً، بتحقيق مدة إقامة النبي ﷺ بمكة بعد بعثه وقبل هجرته، وتحديد سنه يوم جاءته النبوة، وتحديد سني عمره المبارك من يوم ميلاده إلى يوم انتقاله للرفيق الأعلى، مما كان سبباً في اضطراب البحث في فترة الوحي، وهي فترة أحق بتحقيق البحث العليم تحقيقاً يقطع فيها دابر الاختلاف، ويضعها في مكانها من تاريخ الأحداث في

السيرة النبوية لأنها هي فترة الحدث الذي اكتنفته أبطولة بلاغ الحزن اليائس، وأحاطته بأسطورة غدو النبي ﷺ مراراً إلى أعالي شواهق الجبال ليرميَ نفسه من ذراها انتحاراً لفتور الوحي عنه، خشية أن يكون هذا الفتور عقوبة من الله بسبب أمر مخالف وقع منه ﷺ، وهو لا يعلمه، ففعل ذلك بنفسه، كما يقول من لم ينكر بلاغ الحزن اليائس، فما كان ينبغي أن يطغى على بحثها وتحقيقها بحث وتحقيق سن النبي ﷺ يوم بدىء بالنبوة، وما يتصل بذلك من تحديد مدة إقامته ﷺ بمكة بعد المبعث وقبل الهجرة وتحديد سني عمره المبارك ﷺ، فيشغل محققي الباحثين من العلماء عن الوصول إلى كلمة الفصل فيها، ليظهر بتحقيقها مدى تخرص المتخرصين على مقام النبوة وقدس الرسالة.

* * *

سن النبي ﷺ يوم بعث ومدة إقامته بمكة وجملة عمره المبارك

ونحن لا ننكر أهمية وفائدة هذا البحث في سيرة محمد رسول الله ﷺ، وتحقق أحداثها، ولا يمكن أن يدور بخلدنا أن يخلو بحثنا من صورة لما قال علماؤنا في تحقيق سنه ﷺ يوم بدأت نبوته بالرؤيا الصادقة، وهي أول مراتب وحي النبوة، وتحقيق مدة إقامته ﷺ بمكة بعد بعثه رسولاً إلى العالمين وقبل هجرته من مكة إلى المدينة، وتحديد عمره المبارك منذ ولد ﷺ إلى أن فارق الدنيا إلى الرفيق الأعلى. والاختلاف في سنه ﷺ يوم نبىء، وفي مدة إقامته بمكة بعد البعثة وقبل الهجرة، وفي تحديد سني عمره المبارك غريب، متباعد الأقطار، ونحن نذكر في تحقيق رواياته هنا استطراداً ما يوفق الله له.

فقد أخرج ابن سعد في الطبقات عن أبي غالب الباهلي أنه شهد العلاء بن زياد العدوي، يسأل أنس بن مالك قال: يا أبا حمزة؟ بسن أي الرجال كان رسول الله ﷺ إذ بعث؟ قال أنس: كان ابن أربعين سنة، قال العلاء بن زيـاد ثم كان ماذا؟ قال أنس: كان بمكة عشر سنين، وبالمدينة عشر سنين، قال: هذا قول أنس إنه كان بمكة عشر سنين، ولم يكن يقوله غيره، ودعوى أن هذا لم يكن يقوله غير أنس غير مسلَّمة، فقد روي في البخاري عن عائشة وابن عباس في (باب وفاة النبي ﷺ) وأخرج هذا الحديث مسلم في صحيحه، فقال أنس فيه: بعثه الله على رأس أربعين سنة، فأقام بمكة عشر سنين.

فهذا الحديث صريح في تقرير أن البعث كان على رأس أربعين سنة من عمره ﷺ من يوم ميلاده، وهذا قول جمهور العلماء من الصحابة والتابعين وغيرهم من السلف والخلف، قال السهيلي: هو الصحيح عن أهل السير والعلم بالأثر، وقال النووي: هو الصواب، وهو مروي في الصحيحين عن ابن عباس وأنس، وروي عن عطاء وابن المسيِّب، وجُبير بن مطعم، وروي عن قباث بن أشيم الصحابي.

مذهب الجمهور في سنه ﷺ يوم بعث

وقال ابن القيم في (الهدي): فلما كمل له أربعون سنة أشرقت عليه أنوار النبوة، وأكرمه الله تعالى برسالته، وبعثه إلى خلقه، واختصه بكرامته، وجعله أمينه بينه وبين عباده.

وخالف ذلك فريق من العلماء، اختلفت مذاهبهم، وافترقت كلمتهم، قال الزرقاني في شرحه مواهب القسطلاني: وفي تاريخ يعقوب ابن سفيان وغيره عن محكول أنه ﷺ بعث بعد اثنتين وأربعين سنة، وقال الواقدي، وابن عاصم، والدولابي: بعث ﷺ وهو ابن ثلاث وأربعين سنة، وفي كتاب العتقي: بعث ﷺ وهو ابن خمس وأربعين سنة، قال بعض العلماء: وقول الواقدي ورفيقيه، وما في كتاب العتقي شاذان، والثاني أشد شذوذاً.

مذاهب أخرى في ذلك غريبة بعيدة

وعند الإمام أحمد عن ابن عباس قال: أنزل على النبي ﷺ - أي القرآن - وهو ابن ثلاث وأربعين سنة، وعندنا أن هذا ليس قول الواقدي ورفيقيه، لأن ابن عباس قال: أنزل عليه، وهذا بلا شك إنزال القرآن، وهو قد ابتدأ بمفاجأة الغار ونزول (اقرأ) وهذا مسبوق بالنبوة التي بدأت بوحي الرؤيا الصادقة، وقد حدد هذه المدة السابقة على إنزال القرآن مرسل الشعبي بثلاث سنين، فيكون ابتداء النبوة على رأس الأربعين من سنه ﷺ، وهذا موافق لحديث ابن عباس في الصحيحين، وهو قول الجمهور، أما قول الواقدي ورفيقيه فهو صريح بأن البعث كان وهو ابن ثلاث وأربعين، والبعث بإنزال النبوة كان قبل بدء الرسالة وإنزال القرآن الكريم.

أما تحديد مكثه ﷺ بمكة بعد بعثه وقبل هجرته، فقد اختلف فيه -

مدة إقامته ﷺ بعد البعثة واختلاف العلماء في ذلك.

أيضاً ـ اختلافاً عريضاً، لا يقل غرابة وبعد أطراف عن الخلاف في سنه ﷺ يوم جاءته النبوة، ففي حديث أنس بن مالك عند مسلم وابن سعد: أنه ﷺ أقام بمكة عشر سنين ـ أي بعد ابتداء نبوته، وقبل هجرته ـ وهذا موافق لحديث ابن عباس عند الإمام أحمد، كما قدمناه في كلامنا على سنه ﷺ عند بعثه وفيه: فمكث بمكة عشراً، وموافق لحديث عائشة وابن عباس عند البخاري في باب (وفاة النبي ﷺ) وفيه لبث بمكة عشر سنين ينزل عليه القرآن، وهو مخالف لحديث ابن عباس عند مسلم أنه ﷺ مكث بمكة خمس عشرة سنة، ومخالف لحديثه الآخر عند البخاري ومسلم الذي جاء فيه أنه ﷺ مكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه.

قول الجمهور أصح الأقوال

وهذا قول جمهور العلماء من السلف والخلف، قال ابن حجر في الفتح: حديث ابن عباس: فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة أصح مما عند أحمد من وجه آخر عنه: أنزل على النبي ﷺ وهو ابن ثلاث وأربعين سنة، فمكث بمكة عشراً، وأصح مما أخرجه مسلم من وجه آخر عنه: أنه ﷺ أقام بمكة خمس عشرة سنة.

وفي صحيح مسلم رواية أخرى غير الرواية التي يقصدها ابن حجر في كلامه، لكنها متفقة معها في التصريح بأن مدة إقامته ﷺ بمكة خمس عشرة سنة، وهي من رواية عمار مولى بني هاشم، قال: سألت ابن عباس: كم أتى لرسول الله ﷺ يوم مات؟ فقال: ما كنت أحسب مثلك من قومه يخفى عليه ذلك، قال: قلت: إني سألت الناس فاختلفوا عليّ فأحببت أن أعلم قولك فيه، قال: أتحسب؟ قال: قلت: نعم، قال: أمسك، أربعين بعث لها، خمس عشرة يأمن ويخاف، وعشراً من مهاجره إلى المدينة. وقد وفق الطبري بين قول الجمهور وبين قول من قال: أقام بمكة بعد بعثه عشراً، فقال: فلعل الذين قالوا: كان مقامه بمكة بعد الوحي عشراً عدّوا مقامه بها من حين أتاه جبريل بالوحي من الله عزّ وجلّ، وأظهر الدعاء إلى توحيد الله، وعدّ الذين قالوا: كان مقامه ثلاث عشرة سنة من أول الوقت الذي استنبىء فيه وكان إسرافيل المقرون به، وهي السنون الثلاث التي لم يكن أمر فيها بإظهار الدعوة.

الخلاف في جملة عمره ﷺ وأصح الأقوال في ذلك

والخلاف في تحديد عمره المبارك ﷺ من ميلاده إلى أن فارق الدنيا وانتقل إلى الرفيق الأعلى، متفرع على الخلاف السابق في موضعين - أي في تقدير سنه يوم نبىء، وتقدير مدة إقامته بمكة - ففي صحيح مسلم عن أنس ابن مالك روايتان مختلفتان، إحداهما تقول: وتوفاه الله على رأس ستين سنة، والثانية تقول: قبض رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة، وهذه الرواية الثانية موافقة لما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري قالت: إن رسول الله ﷺ توفي وهو ابن ثلاث وستين سنة، وموافقه لحديث ابن عباس برواية عكرمة عند البخاري: قال: بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة - أي من ميلاده - فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة، فهاجر عشر سنين - أي أقام مهاجراً عشر سنين - ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة، وموافق لحديث ابن عباس - أيضاً - برواية عمرو ابن دينار عند البخاري، قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة.

قال ابن حجر في الفتح: وهذا موافق لقول الجمهور، ثم قال ابن حجر: والحاصل أن كل من روي عنه من الصحابة ما يخالف المشهور، وهو ثلاث وستون جاء عنه المشهور، وهم ابن عباس، وعائشة، وأنس، ولم يختلف على معاوية أنه عاش ثلاثاً وستين، وبه جزم سعيد بن المسيب، والشعبي، ومجاهد، وقال الإمام أحمد: هو الثبت عندنا.(ثم قال ابن حجر: وأكثر ما قيل في عمره أنه خمس وستون سنة أخرجه مسلم من طريق عمار ابن أبي عمار عن ابن عباس، ومثله لأحمد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس، قال: قبض النبي ﷺ وهو ابن خمس وستين سنة.

والقول بأن النبي ﷺ عاش خمساً وستين سنة كثرت روايته، عن ابن عباس، وتعددت طرقه، وهي طرق صحيحة ففي مسند الإمام أحمد من رواية حماد بن سلمة، قال: أخبرنا عمار بن أبي عمار عن ابن عباس قال: أقام النبي ﷺ بمكة خمس عشرة سنة، بسبع سنين يرى الضوء والنور، ويسمع الصوت، وثماني سنين يوحى إليه، وأقام بالمدينة عشراً، فإذا أضيف

إلى ذلك أربعون سنة من ميلاده، بعث على رأسها كان جملة عمره المبارك خمساً وستين سنة، وفي المسند أيضاً من رواية خالد الحذاء عن عمار بن أبي عمار عن ابن عباس قال: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وستين سنة.

وفي المسند أيضاً من رواية يونس بن عبيد عن عمار بن أبي عمار قال: سألت ابن عباس: كم أتى لرسول الله ﷺ يوم مات؟ قال ابن عباس: ما كنت أرى مثلك في قومه يخفى عليه ذلك؟ قال عمار: قلت: إني قد سألت الناس فاختلف عليّ، فأحببت أن أعلم قولك فيه، قال ابن عباس: أتحسب؟ قلت: نعم، قال: أمسك، أربعين بعث لها، وخمس عشرة أقام بمكة يأمن ويخاف، وعشراً مهاجراً بالمدينة.

وهذا الحديث من أبين الأدلة وأقواها في أن جملة عمره المبارك ﷺ في هذه الدنيا خمس وستون سنة، فهو صحيح السند، وفي أسلوبه ما يشعر بأنه كان أمراً متعالماً معروفاً، لا يخفى على مثل عمار في قومه، وفي أسلوبه ما يفيد أن عماراً كان حفياً بهذا الأمر، حريصاً على معرفته، فهو قد سأل أهل العلم فاختلفوا عليه، فأحب أن يعرف قول ابن عباس فيه، وابن عباس من أقوم قومه بالعلم والمعرفة، ولا سيما فيما يخص شأن النبي ﷺ في أمر قد يكون أهل بيته أعرف به وأقوم.

وقد تعددت طرق هذا الحديث في مسند أحمد، ورواه مسلم في صحيحه؛ فالقول به قول ينافس قول الجمهور في الصحة والقبول، وهو أقوى من قول أنس بن مالك في إحدى الروايتين عنه عند مسلم، من أن النبي ﷺ عاش ستين سنة الذي اقتصر عليه ابن سيد الناس في (عيون الأثر)، فقال بسنده إلى الأوزاعي قال: حدثني ربيعة بنّ أبي عبد الرحمن، قال: حدثني أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ بعث على رأس الأربعين وقبض على رأس الستين، وما في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء.

وشذ قوم ذهبوا إلى أن عمر النبي ﷺ لم يبلغ ثلاثاً وستين سنة، وهؤلاء اختلفوا، فقالت طائفة: إنه ﷺ عاش اثنتين وستين سنة ونصفاً كما أخرجه ابن عساكر، وقالت طائفة أخرى كما روي عن عمر بن شَبَّة:

أنه ﷺ عاش إحدى أو اثنتين وستين سنة، ولم يعول الأئمة من السلف والخلف على هذه الأقوال لضعف رواياتها.

هذا الاختلاف أثر من آثار البيئة العربية قبل الإسلام

وهذا الاختلاف الكثير مترامي الأطراف ـ الذي صوَّرته الأقوال والمذاهب والروايات المتعددة في تحديد مقدار عمر النبي ﷺ، وتحديد مدة إقامته بمكة بعد البعثة وقبل الهجرة، وتحديد سنه ﷺ يوم أن جاءته النبوة، من كل ما دعت المناسبة للاستطراد بذكره ـ نجده في أكثر الحوادث التي وقعت في حياته ﷺ منذ ميلاده إلى أن استقرت دعوته في المدينة المنورة، حيث بدأت حياة المجتمع الإسلامي تأخذ سمتاً جديداً من النظام الاجتماعي المترابط بوشائج الحقوق والواجبات، ذلك النظام الذي اقتضى تمييز الحقائق بأوقاتها وآمادها، وضبط الحوادث وتاريخ الوقائع بالكتابة أو ربطها بالمناسبات الكبرى التي لا تنسى، وقد تدرج ذلك في مدارج الدعوة وأحداثها ووقائعها ومن ثَمَّ عني الناس بضبط الوقائع وتأريخها، فقلَّت الخلافات، وأمكن الترجيح عند وجودها.

وواضح أن السبب الأقوى في كثرة الاختلاف، وآتساع أطرافه بين الرواة ونقلة الحوادث قبل استقرار حياة المجتمع الإسلامي بالمدينة المنورة هو ما كان معروفاً من طبيعة الأمة العربية في جاهليتها من عدم عنايتها بتسجيل الحوادث كتابة اعتماداً على ما وهبها الله من قوة الحفظ ونصاعة الذاكرة، فهي أمة أمية، لا تكتب ولا تقرأ، ولا تحسب، ولم تعرف لها أثارة من علم إلا ما كان موروثاً بالتجارب.

وقد تكاثرت عليها الوقائع والأحداث بمجيء الدعوة الإسلامية التي أذهلتها وأحدثت في حياتها جواً من الجذب والشد وعنف الحركة فكرياً ومادياً، فاضطرب حبل الرواية ونقل الحديث، وعسر ضبط الحوادث وتاريخها التي لم يخبر عنها رسول الله ﷺ، أما ما ثبت إخباره ﷺ عنه فهو كما أخبر عنه، ومثاله إخباره ﷺ عن يوم ولادته، ففي صحيح مسلم عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ سُئل عن صوم يوم الاثنين فقال: «فيه ولدت، وفيه أنزل عليّ» فهذا نص صريح من أصح رواية عن تعيين يوم مولده ﷺ وهو ـ

مما يغلب على الظن ـ أنه من قبل الوحي فلا مجال فيه لرأي أحد من الناس.

* * *

ما ذكر في مرسل الشعبي لا يصلح أن يكون هو مدة فترة الوحي

وقد بيَّنا بما لا يدع مجالاً للشك أن مدة السنين الثلاث المذكورة في مرسل الشعبي لا تصلح أن تكون هي مدة فترة الوحي المقصودة في بلاغ الحزن اليائس، كما يُفهم من صنيع الإمام السهيلي في جمعه بين مختلف الأقوال في تحديد مدة إقامته ﷺ بمكة بعد البعثة وقبل الهجرة، وكما يفهم من كلام ابن حجر ونقاشه مع السهيلي.

وقد أشرنا إلى ما قد يبدو في كلام ابن حجر من التضارب، وبيَّنا أنه تنبه إلى ذلك وصرح بأن المدة المذكورة في مرسل الشعبي لا علاقة لها بقدر مدة فترة الوحي.

فالتحقيق أن مدة فترة الوحي التي كانت بين نزول (اقرأ) ونزول (يا أيها المدَّثر) كانت (أياماً) كما يظهر من ميل ابن حجر إليه؛ بل جزم به في تفسير سورة (والضحى) إذ قال: والحق أن الفترة المذكورة في سبب نزول والضحى غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي فإن تلك دامت أياماً، وهذه لم تكن إلا ليلتين أو ثلاثاً، مستدلاً بحديث ابن عباس عن ابن سعد الذي جاء فيه نحو ما جاء في بلاغ الزهري.

ونحن لم نسلِّم هذا الحديث، وناقشناه كما ناقشنا بلاغ الزهري إنكاراً لما جاء فيه من أبطولة الحزن اليائس وما رتب عليها من أسطورة التردي من شواهق الجبال.

بيد أن عدم تسليمنا له لا يمنع من ترجيحنا لجنوح ابن حجر إلى أن مدة فترة الوحي كانت (أياماً)، بقطع النظر عن تمسكه في الاستدلال بهذا الحديث، وأنها كانت قطعاً بعد مفاجأة جبريل للنبي ﷺ في غار حراء ونزول أوائل سورة (اِقرأ) وقبل نزول أوائل سورة (يا أيها المدثِّر).

والتعبير عن مدة فترة الوحي بأنها (أيام) ظاهر في إفادة تقليل المدة التي كانت زمناً لفتور الوحي، كما يدل لذلك ويؤكده ما جاء في حديث جابر

تقليل مدة فترة الوحي هو المناسب لحكمتها الصحيحة.

عند مسلم من قول النبي ﷺ: «ثم فتر عني - أي الوحي - فترة» فتأكيد الفعل بمصدره المنكر ظاهر في تقليل مدة الفترة.

وإذا كانت مدة فترة الوحي فيما حققناه، وفيما جنح إليه ابن حجر، ودلّ عليه صراحة حديث ابن عباس، وأكده حديث جابر، لا تعدو أن تكون (أياماً)؛ فهي بمعزل عن الطول الذي يحمل على الحزن اليائس ويدفع إلى محاولة قتل النفس بصـــورة يتأبى القلم عن وصفها، وهي أبعد من أن تبلغ هذا الطول، ولو كانت قد بلغته لكان الأقرب في التعبير عنه التصريح به ليكون أوفى بالتحديد والتقدير.

وإذا كانت مدة فترة الوحي في الاحتمال القريب الراجح أقل من أن تبلغ شهراً فهي أبعد من أن يقال فيها: (فإذا طالت عليه فترة الوحي) كما جاء في بلاغ معمر عن الزهري، وإذا بعدت عن استئهال وصفها بالطول فقد بعد جداً أن تبلغ الرغبة في تتابع الوحي بالنبي ﷺ حتى لا يفتر عنه (أياماً) أن يحزن حزناً يملؤه يأساً، حتى يغدو مراراً إلى ذرا شواهق الجبال ليرمي نفسه من فوقها.

بلاغ الحزن اليائس يقلب حكمة الله في التلطف بنبيه ﷺ.

ومن أعجب العجب أن يقلب هذا البلاغ حكمة الله تعالى في فتور الوحي، وتلطفه بنبيه وحبيبه ﷺ ليجمَّ نفسه، ويريح مشاعره وحواسه، ويمسح عنه آثار روع المفاجأة التي رجف منها فؤاده، وليـزيده قـوة في روحانيته، بما يعتلج بقلبه من التشوف وشدة الشوق إلى مطالع أنوار الملكوت وسبحات الشهود - إلى مأساة حزينة محزنة، وعقوبة قاصمة باخعة.

وقد يتساءل متسائل: هل روي أن النبي ﷺ حاول مثل هذه المحاولة بطريقة أخرى غير طريقة التردي من شواهق الجبال؟.

على شدة جهد البحث لم أعثر على شيء من ذلك في رواية صحيحة أو ضعيفة، وهنا يأتي تساؤل آخر: فلماذا إذاً هذا التصميم على هذه الطريقة؟ ولماذا استمر الاستمساك بها دون غيرها من المحاولات إذا كان القصد هو التخلُّص من الحياة حزناً على فتور الوحي؟، وهذا يؤكد أنه لم يقع شيء من

ذلك قط، وأن بلاغها أكذوبة باطلة.

الوجه السادس في إبطال البلاغ الزائف

السادس - كيف تبقى دوافع العزيمة على التردي من شواهق الجبال قائمة في نفس رسول الله ﷺ بعد أن تبدَّى له أمين الوحي جبريل عليه السلام، وهو يقول له: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن جأشه، وتقرّ نفسه، فيرجع عما كان قد عزم عليه من قاصمة عصمة النبوة، ومبددة معالم الإيمان بها، ثم يقال بعد ذلك في بلاغ الحزن اليائس: فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك؟.

أفما كان يكفي للقضاء نهائياً على دوافع عزيمة التردي من شواهق الجبال - لو كان لهذه العزيمة وجود في واقع حياة رسول الله ﷺ - تبدِّي جبريل في عظمة روحانيته، وجلال ملائكيته، ومقامه في الملأ الأعلى، وما أوتيه من قدرة التشكل في صور التجليات العظمى، وهو يقول لسيد الوجود: يا محمد، إنك رسول الله حقاً وأنا جبريل، ورسول الله ﷺ كان على أكمل اليقين في معرفته بعد مفاجأة الغار، وإنزال آيات القرآن، ولكن بلاغ الحزن اليائس لا يرى ذلك كافياً، بل يمضي في نسج خيوط الأبطولة فيقول: فإذا طالت على رسول الله ﷺ فترة الوحي غدا إلى ذرا الشواهق ليلقي نفسه من فوقها، ويدركه الأمين جبريل مرة أخرى، ويتبدى له بصورته الملائكية العظمى قائلاً: يا محمد، إنك رسول الله حقاً، وأنا جبريل، حتى عاد الوحي وتتابع.

ماذا يسمى كل هذا في شرعة الإيمان؟ بَلْهَ في حق النبوة وقدر الرسالة حق قدرها؟.

أفٍّ للعقول التي لا ترتفع بإيمانها عن حضيض سبخات الأرض التي لا تنبت كلأ ولا تمسك ماء؛ وأفٍّ للقلوب التي لا ترى عنوان كمال النبوة إلا على نونصة فتائل مصابيح العقول التي نفد زيتها، فهي تمتص عصارة ما علق في خيط الفتائل، وتمضي إلى حيث تلفظ آخر برقة في حياتها مستسلمة لأحضان الظلام في محيط الفناء.

لست أدري كيف أدخل إمام الدنيا في علم الحديث وفقهه، وتعمق

إلحاق البخاري هذا البلاغ الزائف في جامعه ليس دليلاً على صحته

أسراره الإمام محمد بن إسماعيل البخاري هذا البلاغ المعمري الزهري في جامعه، أصح جوامع الحديث، وأقوم دواوين السنة؟!

هل كان ذلك لمجرد الثقة بالإمام العليم محمد بن شهاب الزهري، وتلميذه معمر، وهما أهل للثقة في سعة حفظهما وضبطهما لما يرويانه مسنداً، بيد أنهما لم يسندا هذا البلاغ؟.

ولكن ألا كان في فقه البخاري، وغوصه على أسرار الحديث النبوي، وتبحره في معرفة نصوصه ومتونه، وما يمكن أن يكون قد دخل فيها من الوهل والوهم على بعض الرواة، مهما يكن شأنهم في سعة الحفظ والضبط، وهم غير معصومين من الخطأ والغلط والسهو والالتباس - ما يقف حاجزاً دون إدخاله هذا البلاغ في جامعه العظيم، الذي اتخذته الأمة الإسلامية كلها في مشارق الأرض ومغاربها، إماماً في دينها، ومعرفة وقائع وأحداث حياة نبيها، خاتم النبيين محمد ﷺ من أوثق طريق؟.

وقد أوضحنا بإسهاب الأدلة والبراهين التي توجب إنكار أن يكون مضمون هذا البلاغ قد وقع أصلاً في حياة الرسالة الخالدة الخاتمة، رسالة سيد الخلق محمد ﷺ.

فسبحان من تفرَّد بالكمال المطلق، ربنا الله الملك الحق المبين، وسبحان من خص أنبياءه ورسله وأصفياءه بالعصمة أن يقع منهم أو لهم في نبوتهم ورسالاتهم ما يمس جلال يقينهم ورسوخ إيمانهم بما أوتوا من ربهم.

وسبحان من خص سيد المرسلين وخاتم النبيين بكمال الروحانية في رسالته الخالدة، فكشف له بهذا الكمال ما أشهده من حقائق آيات الله في الكون، وعصمه في روحانيته من زلق الدهش وحيرة المفاجأة، وثبَّت فؤاده لتلقي كلمات الله العلي الأعلى، وأثنى عليه بكمال ما أدَّبه ثناء لم ينله غيره من الأنبياء والمرسلين، فقال جلّ شأنه يصف ما كمَّله به من أدب الشهود: ﴿ ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾.

وليس لاختلاف الزمن في جلال النبوة وقدس الرسالة وزن يجعل

أولها غير آخرها في عصمة اليقين ورسوخ الإيمان، ومهمة التبليغ ووجوب المتابعة، لأن النبوة قبس من ومض الاصطفاء الإلّهي، يبدو في مشرقه خفياً، ثم يتبدى في إشراقه نوراً مبيناً، لا يختلف في حقيقته مبتداه عن منتهاه.

وكبوة الأكابر لا لعا لها، وعثرتهم قاصمة الظهر، وزلتهم مزلقة السالكين، ومدحضة الواردين، أُمِرنا باتقائها، فاللهم غفراً.

وكان من طلائع البداهة أن يشعر أولو العلم والفكر من باحثي الإسلام بما في هذا البلاغ الزائف من خطر مدمر لدعائم الإيمان، ولكنهم كعّوا عن إنكاره وإبطاله تهيباً لمس هالات الأكابر، وهم يتصورون ما يخلفه وراءه من مطاعن في أصل أصول الإيمان في النبوة، وعصمة الأنبياء في الرسالات الإلّهية والإيمان بها، في النبي ﷺ، وتصديقه في دعوته أنه رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق، بل في إيمانه هو ﷺ بدعوته، وتصديقه نفسه في رسالته، بل لقد انتهض فريق منهم للدفاع عن هذا البلاغ الزائف وماجاء فيه من تقحم على حمى النبوة وقدس الرسالة، نبوة محمد خاتم النبيين، ورسالة محمد سيد المرسلين ﷺ.

أبو بكر الإسماعيلي يحمل لواء الدفاع لتسويغ ما تضمنه بلاغ الحزن اليائس

وقد حمل لواء هذا الدفاع أبو بكر الإسماعيلي الجرجاني، وقد سبقت لنا معه جولة طويلة في موقفه من تفسير (الخشية) التي وردت في قول النبي ﷺ لخديجة: (أي خديجة، مالي؟ قد خشيت على نفسي) تفسيراً يستوجب الشك والارتياب عند النبي ﷺ في نبوته ورسالته حتى احتاج إلى أن يشكو إلى خديجة حاله لتثبته، واحتاج إلى سماع كلام وَرَقَة ليوقن بالحق ويعترف به.

إن هذا الشك - كما يقول الإسماعيلي في تصويره لتمويه الطاعنين بزعمه - إذا جاز في حق النبي ﷺ مع معاينته للوحي ونزول القرآن عليه، فهو في حق غيره من المؤمنين والكافرين ممن لم يعاينوا معاينته، ولم يشاهدوا مشاهدته، أحرى بالجواز، وكان على الإسماعيلي أن يقول:

بل هو أحرى أن يفتن الناس، ويفسد عقائدهم، ويرعبل رغبات الراغبين في الإيمان، بل هو أحرى أن يعجز العقل عن تقبُّل الإيمان بصاحب

هذا الشك الذي يشك في أمر نفسه، وأحرى أن يعجز المنطق عن قدرة الدفاع عنه، وأحرى أن يفتح للملحدين أبواب الطعن في أعظم دعائم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهي أصول الديانات السماوية كلها، بل هو أحرى أن ينسف أصول الإيمان نسفاً لا يبقي منها ولا يذر.

شمر أبو بكر الإسماعيلي للدفاع عن تفسير (الخشية) المريب المتقحم، وعن الدفاع عن بلاغ الحزن اليائس في كلام ساقه ابن حجر في الفتح، وقد استوفينا الرد على الإسماعيلي، وبهرجة مزاعمه في توجيه تفسير الخشية المتقحم ـ فيما سبق ـ بيد أن كلامه الذي ساقه ابن حجر تضمن تصويراً لتمويه الطاعنين على المحدثين في رواياتهم مثل هذا البلاغ الباطل، وفي إقحامهم تفسيرات باطلة على كلمات رويت عن النبي ﷺ، ولكن هذا التصوير الذي سماه الإسماعيلي (تمويهاً) لم يلق من أبي بكر الإسماعيلي إلا رداً متهافتاً، يتهاوى على نفسه ضعفاً وفساداً.

وقد رأينا استكمالاً للبحث أن نعرض لبيان تهافت كلامه وفساده، وأن نسوق عبارته كما ذكرها ابن حجر، ثم نبيِّن زيفها وتهافتها، وما فيها من المغالطة بضرب الأمثلة التي لا تستقيم مع الموضوع، حتى لا يفتن بها من يطلع عليها من المؤمنين والملحدين، لأن الأمر أمر النبوة، نبوة سيد الخلق نبينا محمد ﷺ، فلا يحتمل السلبية ولا المجاملة من أجل هالات فوق أسماء الرجال.

تصوير الإسماعيلي لطعن الطاعنين وإجابته عن ذلك.

قال الإسماعيلي: موّه بعض الطاعنين على المحدِّثين، فقال: كيف يجوز للنبي أن يرتاب في نبوته حتى يرجع إلى وَرَقَة، ويشكو لخديجة ما يخشاه، وحتى يوفي بذروة جبل ليلقي منها نفسه على ما جاء في رواية معمر، ثم قال الإسماعيلي: ولئن جاز أنه يرتاب مع معاينة النازل عليه من ربه، فكيف ينكر على من ارتاب فيما جاءه به مع عدم المعاينة؟.

قال الإسماعيلي: والجواب أن عادة الله جرت بأن الأمر الجليل إذ قضى بإيصاله إلى الخلق أن يقدمه ترشيح وتأسيس، فكان ما يراه النبي ﷺ

من الرؤيا الصادقة، ومحبة الخلوة والتعبُّد من ذلك، فلما فجئه الملك فجئه بغتة أمرٌ خالف العادة والمألوف، فنفر طبعه البشري منه، وهاله ذلك ولم يتمكن من التأمل في تلك الحال، لأن النبوة لا تزيل طباع البشرية كلها، فلا يتعجب أن يجزع مما لم يألفه وينفر طبعه منه، حتى إذا تدرج عليه وألفه استمر عليه، فلذلك رجع إلى أهله التي ألف تأنيسها له فأعلمها بما وقع له، فهوَّنت عليه خشيته بما عرفته من أخلاقه الكريمة، وطريقته الحسنة، فأرادت الاستظهار بمسيرها به إلى ورقة لمعرفتها بصدقه ومعرفته وقراءته الكتب القديمة، فلما سمع كلامه أيقن بالحق واعترف به، ثم كان من مقدمات تأسيس النبوة فترة الوحي، ليتدرج فيه، ويمرن عليه، فشق عليه فتوره إذ لم يكن خوطب عن الله بعد إنك رسول من الله ومبعوث إلى عباده، فأشفق أن يكون ذلك أمر بدىء به، ثم لم يرد استفهامه، فحزن لذلك حتى تدرج على احتمال أعباء النبوة والصبر على نقل ما يرد عليه فتح الله له من أمره بما فتح.

ثم قال الإسماعيلي: ومثال ما وقع له في أول ما خوطب ولم يتحقق الحال على جليتها مثل رجل سمع آخر يقول: الحمد لله، فلم يتحقق أنه يقرأ، حتى إذا وصلها بما بعدها من الآيات تحقق أنه يقرأ.

وكذا لو سمع قائلاً يقول: خلت الديار، لم يتحقق أنه ينشد شعراً، حتى يقول: محلها ومقامها.

ثم قال الإسماعيلي: وأما إرادته - أي النبي ﷺ - إلقاء نفسه من رؤوس الجبال بعدما نبىء فلضعف قوته عن تحمل ما حمله من أعباء النبوة، وخوفاً مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعاً، كما يطلب الرجل الراحة من غم يناله في العاجل بما يكون فيه زواله عنه، ولو أفضى إلى إهلاك نفسه عاجلاً، حتى إذا تفكر فيما فيه صبره على ذلك من العقبى المحمودة صبر واستقرت نفسه..

نَظَرٌ وَنَقْد

الناظر في كلام أبي بكر الإسماعيلي ـ وتصويره لطعن الطاعنين الذي سمَّاه تمويهاً على المحدثين في روايتهم لهذا البلاغ اللصيق بالسيرة النبوية العطرة، وذكرهم تفسيرهم بعض كلمات وردت في بعض الأحاديث كتفسير المراد من كلمة (خشيت على نفسي) في حديث عائشة رضي الله عنها، بما تقحَّموه من معنى مستبشع فاسد مفسد، وإجابته عن طعن الطاعنين في المحدثين ـ يرى بشيء من التأمل المحكم المنصف أن هذا الطعن الذي نسج خيوطه أبو بكر الإسماعيلي في صورته المعبِّرة، يصور شيئاً من بعض ما يجول في حنايا أفكار أعداء الإسلام من الملاحدة، وأحلاس الوثنية العصرية، ويصور شيئاً من تفاهة التفكير عند ضعفاء الإيمان الذين قالوا آمنا بأفواههم وراثة (جغرافية) ولم تؤمن قلوبهم إلا إيمان جهالة بحقيقة الإسلام، وهم الكثرة الغامرة من مثقفي شباب المسلمين، ثقافة لا تعرف عن الإسلام إلا صورة شوهاء، محرفة بالأساطير والخرافات، مغلفة بالأضاليل والأباطيل.

ويصوِّر شيئاً من الألم الممض الكظيم في أنفس صادقي الإيمان من الغُيُر على كرامة الغر الميامين، الغطارفة البهاليل من أئمة المحدثين، حماة السنة المطهَّرة، ومداره الشريعة المكرمة الذين عرَّضهم بعضُ من حفظوا بعض تراثهم، ولم يتفقهوا فيه فقههم، فقالوا وتخرصوا وتقحَّموا، وأبوا إلا أن تكون أقوالهم وتفسيراتهم ورواياتهم التي لم تُسند سنة من السنة يجب قبولها وعدم التردد في الاطمئنان إليها.

ويرى الناظر بشيء من التأمل العليم المؤمن أن إجابة أبي بكر الإسماعيلي عن هذا الطعن الذي سمَّاه تمويهاً ضعيفة متهافتة، لا تصلح أن تكون رداً على ما صوَّره الإسماعيلي نفسه من مآخذ فيها فرضه كلاماً للطاعنين على المحدِّثين، وذلك من وجوه:

الوجه الأول في بيان ضعف وتهافت كلام الإسماعيلي

الأول: إن تصوير أبي بكر الإسماعيلي لمطاعن الطاعنين على المحدِّثين قد اكتسب قوة من واقع ما اكتسبته تلك المطاعن من قوة الإلزام للذين أقحموا على حمى السيرة النبوية المطهَّرة في مطالع اختصاصها بجلال النبوة وقدس الرسالة، تلك التخرصات في بلاغ الحزن اليائس، وفي تفسير (الخشية) بما يجب أن تنزَّه ساحة النبي ﷺ عن حومان مثله حول حصنها المنيع، ولا سيما في بلج صبحها، ومشرق نورها، فهو تصوير واقعي محكم، لا أثر للتمويه فيه، لأنه يمثل ما يهجم على العقول والقلوب بمجرد الشعور فيما يأتي:

أولاً ـ أن يكون النبي ﷺ، وقد اصطفاه الله لنبوته ورسالته ﴿ والله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ بمعرض الضعف النفسي إلى درجة أن يخاف أن يكون كاهناً أو مجنوناً، عقب أشرف لحظة مرت على إنسان في الوجود، لحظة لقاء ملك الوحي في مفاجأة الغار، ونزول آيات القرآن الكريم في هذا اللقاء، وبعد أن يتبدَّى له الروح الأمين مخاطباً مرتين قائلاً: يا محمد!! أنت رسول الله، وأنا جبريل، وذلك قبل أن يرجع إلى أهله، ويخبرهم بما حدث له من الشرف العظيم، فلا يكفيه ذلك كله في التثبيت وحصول الإيقان بالحق، والاعتراف به، بل يحتاج إلى أن يشكو حاله إلى خديجة، فتهوِّن عليه خشيته، وتستظهر لهذا التهوين بكلام وَرَقَة الذي يسمعه النبي ﷺ منه، وعندئذ ـ فقط ـ يوقن بالحق، ويعترف به، كما يقول أبو بكر الإسماعيلي في جوابه عن مطاعن الطاعنين على المحدثين.

هذا من أعجب العجب، وأغرب ما يطلب إلى العقول أن تقبله وتصدق بوقوعه في حياة سيد الخلق محمد ﷺ، وهو أمر ظاهر البطلان،

مظلم الأفق، لا يحتاج إلى نقاش لو تخلَّت بعض العقول عن تعصب التفكير الطائفي في تخصصات العلوم والأفكار.

فهل كان كلام ورقة أعظم أثراً في إيجاد الإيقان وتحصيله للنبي ﷺ واعترافه بالحق من وحي النبوة بالرؤيا الصادقة، وما صحبها وتتابع بعدها من الآيات والإرهاصات ومراتب الوحي، ونزول القرآن، واستعلان أمين الوحي، ومخاطبته لرسول الله ﷺ جهرة مشافهة بأنه رسول الله، وقد أخبر النبي ﷺ خديجة باستعلانه له بعد رؤياه في منامه، فقال لها: «أرأيتك الذي كنت أحدثكِ أني رأيته فإنه جبريل قد استعلن».

وبهذه القوة الإلزامية التي اكتسبها تصوير أبي بكر الإسماعيلي لمطاعن الطاعنين على المحدِّثين كان تصويراً لا أثر فيه للتمويه، بل كان تصويراً واقعياً يمثل ما يهجم على العقول والقلوب بمجرد الشعور:

ثانياً ـ إن تصوير الإسماعيلي يقتضي أن رسول الله ﷺ حزن لفتور الوحي حزناً ملأه يأساً كظيماً مغلقاً، دفعه إلى أن يغدو مراراً إلى شواهق الجبال لكي يتردى من فوق ذراها تخلصاً من حياته الحزينة اليائسة، ويتبدّى له جبريل كلما أوفى بذروة جبل بعظمة خلقه الملائكي، وجلال روحانيته العليا، التي لا يمكن أن يشتبه بها الشيطان ليلبِّس على النبي ﷺ أمره.

ولم يقتصر تبدي جبريل على مجرد ظهوره، بل إنه يخاطب النبي ﷺ قائلاً: يا محمد!! إنك رسول الله، فيرجع رسول الله ﷺ عما كان قد عقد عليه عزمته ليقتل نفسه بالصورة التي رسمها بلاغ الحزن اليائس، ولكن رسول الله ﷺ لا يجد ـ على ما زعمه الإسماعيلي ـ في تبدي جبريل ومخاطبته في علانية وصراحة بأنه رسول الله ـ الإيقان والاعتراف بالحق الذي جاءه من عند ربه، اعترافاً وإيقاناً يمنعانه من معاودة العزيمة على التردي من قمم الشواهق (إذا طالت عليه فترة الوحي ـ في زعم قائليها ـ) فيتبدَّى له جبريل مرة أخرى، ويقول له: يا محمد، إنك رسول الله.

وعبارة بلاغ الحزن اليائس تقتضي بنصها الصريح تكرار الغُدُوّ إلى

شواهق الجبال للتردي من فوقها، وتقتضي تكرار تبدي جبريل للنبي ﷺ ومخاطبته بأنه رسول الله، فكم مرة غدا رسول الله إلى الشواهق كي يتردى من ذراها ليقتل نفسه؟ وكم مرة تبدّى له جبريل وخاطبه بأنه رسول الله؟ وفترة الوحي طويلة، طويلة في زعم بلاغ الحزن اليائس، فبكم يوم أو شهر أو سنة يقدر طولها، والنبي ﷺ فيها يغدو على تطاولها إلى شواهق الجبال ليرمي نفسه من أعاليها؟ وكم مرة تبدى له جبريل وهو يخاطبه: يا محمد إنك رسول الله؟! ومع ذلك كله - في زعم بلاغ الحزن اليائس - لا يجد رسول الله ﷺ الإيقان الذي يبدد من نفسه الشك في نبوته، وفي تصديق أمين الوحي في قوله مراراً له: إنك رسول الله، وكان رسول الله ﷺ قد وجد الإيقان واعترف بالحق حين سمع كلام ورقة - كما يقول أبو بكر الإسماعيلي في إجابته عن طعن الطاعنين على المحدِّثين.

وأين ذهب هذا الإيقان والاعتراف بالحق الذي حصل للنبي ﷺ عقب سماعه كلام ورقة الذي لم ينشب أن توفي - كما في حديث البخاري - فلم يدرك فترة الوحي التي كانت بعد وفاته قطعاً، كما يدل على ذلك نص حديث عائشة الذي ألصق به بلاغ الحزن اليائس إلصاقاً غريباً، في قوله: ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي، وهذا صريح في أن فترة الوحي كانت بعد وفاة ورقة، وبعد أن حصل للنبي ﷺ الإيقان والاعتراف بالحق بسماع كلام ورقة، وفترة الوحي المتأخرة عن حصول الإيقان والاعتراف بالحق هي التي زعم فيها بلاغ الحزن اليائس ما زعم من تكرار غدوّ النبي ﷺ إلى الشواهق ليتردّى من أعاليها، وتكرار تبدي جبريل له، وتكرار قوله في مخاطبته له: إنك رسول الله.

فهل كان هذا الإيقان والاعتراف بالحق موجودَين عند النبي ﷺ في فترة الوحي، ومع وجودهما وقع فيها منه ما زعمه بلاغ الحزن اليائس؟.

وإذاً فما يسمى هذا في شرعة النبوات والرسالات الإلٓهية؟ أو كان ذلك الإيقان والاعتراف بالحق غير موجودَين عند النبي ﷺ في فترة الوحي - وفيها

كان نبياً رسولاً قطعاً - بل هما قد ذهبا بذهاب ورقة؟ وإذاً فماذا بقي من النبوة والرسالة؟.

إن بلاغ الحزن اليائس أبطولة منكرة، كسيحة، لا تقوم على ساق من واقع الحياة النبوية الطاهرة المطهَّرة، ونعوذ بجلال الله العلي الكبير أن نقبلها، فضلا أن نعتقدها في إيماننا بسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً، ورضائنا بالإسلام ديناً، وبالعلم هادياً وإماماً، وبالعقل قائداً ومرشداً.

الوجه الثاني في بيان تهافت كلام الإسماعيلي

الثاني: - إن تجويز أدنى شك وارتياب على النبي ﷺ في رسوخ إيمانه بنبوته ورسالته، بعد ثبوت النبوة له بوحي الرؤيا الصادقة الصالحة، وسبحه في غمرات أنوارها أمداً طويلاً، يوحى إليه فيه بمراتب وحيها، يُعلَّم، ويُكلَّم، ويسمع، ويرى من أعاجيب ربه، وآياته، مما أثبتته الأحاديث المسندة الصحيحة، وبعد ثبوت الرسالة له بلقاء أمين الوحي جبريل عليه السلام علانية في غار حراء في وحي اليقظة، وبدء نزول القرآن الكريم عليه، بخمس آيات من أوائل سورة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ - لا يُبقي لغيره من كافة الخلق المرسل إليهم لدعوتهم إلى الإيمان به وبدعوته، دعوة الحق والتوحيد، ووجوب متابعته في كل ما يأمر به أو ينهى عنه، خيط عنكبوت يتعلقون به في قبول هذا الإيمان، بله صونه وحفظه من معاول الشبه والأضاليل، والدفاع عنه، ورد الأباطيل عن ساحته المنيرة بنور اليقين.

ذلك لأن صاحب الدعوة المعصوم بمقتضى ثبوت نبوته قبل لقاء الغار المفاجىء، إذا لم يكن عنده أكملُ اليقين في نبوته ورسالته وهو قد عاين ما ينزل عليه من آيات ربه، فكيف يستمسك بالإيمان به وبدعوته من لم يعاين شيئاً مما عاين صاحب الدعوة من الآيات، ونزول الذكر الحكيم، وهو يجد صاحب الدعوة يشك في حاله ويطلب التثبيت من غيره؟.

هذا ضرب من المحال في متعارف العقول، وهل للمرتاب في حاله، الشاك في أمر نفسه، اليائس في حزنه، يأساً دفعه مراراً إلى أن يحاول قتل نفسه للتخلُّص من حياته - قوةٌ من صدق الإيمان بدعوته، ينهض بها إلى

مواجهة الناس ودعوتهم للإيمان برسالته، وهي معلقة في فضـاء الشك والحيرة؟

لكن محمداً ﷺ كان أرسخ العالمين بالله إيماناً، وأعمقهم يقيناً، إيماناً ويقيناً كانا جناحَي نهضته بدعوته الخالدة، الخاتمة لدعوات السماء، فآمن به من آمن استجابة لصدق يقينه في دعوته وراسخ إيمانه برسالته.

الوجه الثالث في بيان تهافت كلام الإسماعيلي

الثالث: إن إجابة أبي بكر الإسماعيلي عن مطاعن الطاعنين على المحدِّثين بأن الله تعالى إذا قضى إيصال أمر جليل إلى الخلق قدم إليه ترشيحاً وتأسيساً، مسلَّمة في جملتها، ولكنها ضعيفة في تعليلها ودعامتها.

والأمر الجليل الذي قضى الله تعالى إيصاله إلى الخلق هنا هو رسالة محمد ﷺ، قد قدَّم لها النبوة بوحي الرؤيا الصادقة وغيرها من مراتب وحيها، والنبوة سبقت الرسالة بأمد طويل، قيل إنه ستة أشهر كما حكاه البيهقي في الدلائل، وقيل إنها ثلاث سنين كما في مرسل الشعبي، وقيل إنها سنتان ونصف سنة، كما قال السهيلي إنه مروي مسند.

وأيما كان فهي ـ في أقل تقديرها ـ مدة كافية في أن تملأ قلب النبي ﷺ يقيناً لا يزعزعه شيء مهما كان هائلاً مفزعاً، في أنه نبي أوحي ويوحى إليه، وأنه لا بد أن يكون قد شاهد من وحي النبوة وأحداثها العظام في مداها قبل مجيء الرسالة إليه عجائب من آيات الله وعظائم أمره الإلّهي مما لا يبعد عن مجانسة أو مقاربة ما رآه في مفاجأة الغار.

فإذا فاجأه الوحي اليقظي بما يخالف مألوف الناس، ومألوفه هو ﷺ في وحي النبوة بالرؤيا الصادقة وغيرها من مراتب وحيها، فلا مانع أن يفزع ويرعب للمفاجأة وهولها فزعاً معتصماً بنور النبوة، وقوة روحانيتها، ورعباً محفوفاً بالعصمـة التي تجب له منذ أول لحظة كان فيها نبياً اصطفاه الله لوحيه.

لكنه لا يجـوز عليه قط أن يفزع فزعاً ينسيه أنه نبي، ولا يجوز عليه أن يرعب رعباً يسلبه في لحظة من اللحظات اصطفاء الله له لنبوته ووحيه بما

يخرجه عن يقين الأنبياء إلى ارتياب المرتابين.

النبوة لا تمنع الأعراض البشرية التي لا تنافي العصمة

والنبوة مرتبة فوق جميع مراتب الكمال البشري، والرسالة مرتبة فوق جميع مراتب النبوات، فإذا ثبتت النبوة لمن يصطفيه الله تعالى لمرتبتها، ثم جاءه من ربه جلّ شأنه ـ وهو نبي يوحى إليه ـ ما ليس مألوفاً لبشريته قبل النبوة، فلا مانع أن يلحقه شيء من الفزع والرعب البشري، لكنه فزع أو رعب لا يمكن أن يكون كفزع ورعب من لم يكن نبياً.

وكذلك إذا ثبتت الرسالة لمن يصطفيه الله عزّ وجلّ من أنبيائه رسولاً، ثم جاءه من عند الله تعالى ما ليس مألوفاً لبشريته قبل أن يكون رسولاً فلا مانع أن يفزع ويرعب فزعاً ورعباً تقتضيه دواعي بشريته، لكنه لا يمكن أن يصل إلى درجة تخطِّي عصمة النبوة والرسالة، وقد بيَّنا أن هذا الفزع مرجعه خشية النبي ﷺ ألَّا يستطيع القيام بحقوق رسالته لما يقام في طريقه من عوائق وعقبات.

ومحمد ﷺ ثبتت له النبوة ـ قطعاً ـ قبل مفاجأة الغار، وقبل فترة الوحي، فإذا روي أنه فزع من هول المفاجأة وما حف بها فلا يجوز قط أن يقال: إنه فزع فزعاً أذهله عن مقام نبوته فلم يتمكن من التأمل، وخشي على نفسه أن يكون كاهناً أو أن يكون به جُنُن.

كما لا يجوز قط أن يقال عنه: إنه حزن على فتور الوحي حزناً أخرجه عن عصمة النبوة والرسالة، وحمله على محاولة قتل نفسه، وفترة الوحي طالت أو قصرت شأن من شؤون الله التي ينفرد بحكمتها.

ولا شكّ أن من بدائه العلم بالنبوة والرسالة، والإيمان بهما العلمَ بجلال الألوهية وإطلاق الإرادة الربانية في اختيارها وتصرفها الذي لا يحدّه أمر من الأمور، والأنبياء والرسل أعرف العارفين بجلال الله، فلا يتصور أن يقف منهم أحد، وفي طليعتهم سيد العالمين محمد خاتم النبيين، يعارض مشيئة الله تعالى ومطلق إرادته، وخصيصة الأنبياء والمرسلين التسليم المطلق لإرادة الله تعالى، والرضا بما تأتي به مشيئته عز شأنه.

وهذا مما يؤكد تأكيداً قوياً زيف بلاغ الحزن اليائس، ويشجب التفسير المتخرص للخشية في قوله ﷺ:(خشيت على نفسي)، ويرد ما كان من الحزن والخشية إلى مألوف الحياة في نوازع الطبيعة البشرية في خصائصها الإنسانية المجردة عن عوامل السمو الروحاني المتعالي عن تأثرات الغرائز البشرية والضعف الإنساني.

ولا ندري كيف لم يتمكن النبي ﷺ من التأمل في تلك الحال ـ كما يقول أبو بكر الإسماعيلي في جوابه عن طعن الطاعنين على المحدِّثين ـ وهـو ﷺ قد عاد إلى أهله بعد فجأة الغار وما جرى فيه، وطلب أن يلجأ إلى فراشه مزملاً مدثراً، ليستجم ويستريح من أثر غط الملك غطاً بلغ منه الجهد حتى ظن أنه الموت، ثم هدأت نفسه وربط جأشه، وحدَّث أهله بما رأى وما سمع، وما كان من شدة لقاء الملك، وما أقرأه من آيات القرآن الكريم.

ولا شك أنه ﷺ بعد هذا الهدوء النفسي قد زالت عنه ـ أو خفت ـ مشقة المفاجأة والغط الذي استفرغ بشريته وأكسبه قوة روحانية كان بها في أكمل مراتب اليقين بنبوته ورسالته.

بيد أن مفاجأة الغار قد أضافت إلى يقينه برسالته إمعاناً في التفكير للقيام بأعباء الرسالة التي عرف بهذا اللقاء اليقظي أنها أثقل تلقياً وأشد عبأ من النبوة، وعرف أنها أفدح تحملاً في التبليغ والدعوة، وهذا هو الذي بثه إلى خديجة رضي الله عنها، فشجعته بكلماتها النورانية، وفراستها الفطرية.

وإذا كانت النبوة لا تزيل طباع البشرية كلها ـ كما يقول أبو بكر الإسماعيلي، وهو حق لا يجادل فيه ـ لكنها تخلِّص الروح من أعظم علائقها المادية المعوقة للاتصال بالملأ الأعلى في شيء من المجانسة الروحانية ليحصل التناسب الروحاني عند بدء الرسالة بتلقي الوحي اليقظي ونزول القرآن الكريم.

فالنبوة وإن لم تزل طباع البشرية كلها، لكنها لا بد أن تزيل قدراً منها يحرر القوة الروحانية من سيطرة قوى الحس المادي في عناصر البشرية حتى

الفزع مما لم يُؤلف طبيعة بشرية بخلاف النفور فإنه صد شعوري ينافي اليقين.

تتمكن من مجانسة الملأ الأعلى في روحانيته العليا، لتتلقى عنه ما يأتي به الوحي اليقظي في مراتبه المختلفة.

وهذا العذر لا يمنع طروء الفزع والرعب مما لم يؤلف في الطباع البشرية، وفرق كبير جداً أن يُفزع مما لم يؤلف، وبين أن ينفر الطبع مما لم يؤلف، فالنبي ﷺ فزع ورعب مما لم تألفه بشريته من المفاجأة والغط والإقراء، ولكنه لم ينفر طبعه من ذلك، بل لقد كان هذا الذي فزع منه محبباً إليه شديد الرغبة فيه، والسبح في مشاهده، بدليل ما قدمناه من الأحاديث التي تثبت أن النبي ﷺ على أثر هدوء نفسه، وتحدثه إلى أهله بما حدث له، وتشجيعها له بكلمات النور الرباني، وذهابها به إلى ورقة، وسماعه كلام ورقة ـ عاد ﷺ إلى متعبده غار حراء، وهو المشهد الذي فاجأه فيه ملك الوحي وحدث له فيه ما حدث، فلو كان رسول الله ﷺ نافر الطبع مما وقع له في غار حراء لم يكن ليسرع إلى عودته إلى متعبده الذي شهد فيه ما حدث له من المفاجأة والإقراء، بل لو لم يكن رسول الله ﷺ محباً، شديد الرغبة والتشوّف إلى تلك المشاهد ما كان يعود إليها في مشهدها وساحة وقوعها في غار حراء، والنبي ﷺ سبق له أن رأى وشاهد من العجائب والإرهاصات قبل النبوة وبعدها ورأى من الآيات والمعجزات بعد النبوة ولم ينفر عنها طبعه، فقد سمع الأشجار والأحجار، ورأى تظليل الغمام، ورأى وسمع الصوت دون أن يعلم مصدر ما يرى وما يسمع، وهذه كلها أشياء لم يألفها طبعه، ولكن طبعه لم ينفر منها، بل كانت له مؤيدات ومبشرات.

قد يفزع النبي ﷺ من هول المفاجأة، وقد يرعب من رؤية الملك أول ما رآه عياناً في الصورة التي جاء بها إليه، ولا بد أن يكون فيها ضرب من الملائكية والروحانية العليا، وقد يرتاع من شدة الغط المتكرر الذي بلغ به جهده في كل مرة حتى إنه ظن الموت ـ كما ثبت في بعض الروايات ـ وقد يدهش فلا يتمكن من التأمل في جو المفاجأة وما تتابع فيها من الأحداث في حالته، ولكنه لا يمكن أن يستمر معه عدم التمكن من التأمل في حالته فيصل إلى أن يحصل له الشك في نبوته التي ثبتت له يقيناً، وعاش في أنوارها،

ومراتب وحيها ومشاهدها، ويحتاج إلى أن يشكو إلى خديجة رضي الله عنها حاله، ويخشى على نفسه أن يكون كاهناً أو أن يكون به جُنُن من تفسيرات المتخرِّصين للخشية، ويحتاج إلى أن يسمع من ورقة ما يثبِّته حتى يوقن بالحق ويعترف به، وأي باطل أبطل من تجويز ذلك على رسول الله ﷺ في مشرق رسالته؟

الوجه الرابع في بيان تهافت كلام الإسماعيلي

الرابع: ـ كيف تكون مدة فترة الوحي من مقدمات تأسيس النبوة، وهذه الفترة عبارة عن تأخُّر الوحي مدة من الزمان ليستجم فيها النبي ﷺ، ويذهب عنه ما كان وجده من روع المفاجأة ومكابدة الغط وهوله، وهذه المدة متأخرة جداً عن مجيء النبوة وتأسيسها، لأنها كانت باليقين القاطع بعد مفاجأة الغار ونزول أوائل سورة (اقرأ) وقبل نزول سورة (يا أيها المدَّثر).

والنبوة بوحي الرؤيا الصادقة وغيرها من مراتب وحيها كانت مؤسسة ثابتة، مكتملة العناصر والمظاهر، قبل حادث الغار الذي أنزلت فيه آيات من أول سورة (اقرأ) بزمن مديد، وحادث الغار كان مبدأ لرسالة النبي ﷺ ونزول القرآن عليه.

ثم كيف تشق فترة الوحي على النبي ﷺ ـ وهي فيما رجحه المحققون لا تتجاوز (أياماً) معدودات، كما جاء صريحاً في حديث ابن عباس ـ وقد كان النبي ﷺ في أشد الحاجة إليها، ليستريح من أثر ما لقي من شدة في حادث الغار، ويستجمع قواه الروحانية العالية التي أُفرغت عليه في لقاء الغار وضمة الملك، وإقرائه أول ما نزل من القرآن الكريم، استعداداً لتتابع الوحي ونزول القرآن وشرائع الإسلام؟

والحق أن فترة الوحي في زمنها الذي وقعت فيه، وفي مقدار أمدها كانت رحمة من الله تعالى بنبيه ﷺ، وتلطُّفاً به، وتشويقاً له، لتتشوف نفسه الكريمة إلى منازل القرب وتتابع الوحي، فهي ضرورة من ضرورات التدبير الإلَهي الحكيم المحكم، ولون من التربية الخاصة التي تعاهد الله عزّ شأنه بها نبيه في حياته نبياً ورسولاً.

فلا مشقة في فترة الوحي على رسول الله ﷺ، ولكن رحمة ولطف

وتربية وإعداد لما ينتظر النبي ﷺ في مستقبل رسالته من شدائد التنزيل والتبليغ.

والمشقة إنما كانت أثراً من آثار مفاجأة الغار، وما وقع فيها للنبي ﷺ، وأما الحزن الذي جاء ذكره في حديث عائشة عند البخاري في تفسير سورة (اقرأ) فقد جاء مجرداً عن قصة محاولة التردي من شواهق الجبال، ففي هذا الحديث جاء قوله: (وفتر الوحي حتى حزن رسول الله ﷺ) وهو حزن تشوّف وشوق، لا حزن تخوف وشك.

الوجه الخامس في بيان تهافت كلام الإسماعيلي

الخامس: ـ كيف يمكن ـ بعد ثبوت النبوة له ﷺ قبل فترة الوحي بزمن طويل، وبعد استعلان جبريل له، ومخاطبته عياناً، وقد تجلّى له في وسط الجبل وهو عائد إلى أهله، بعد أن هبّ من رؤيا نمط الديباج قائلاً: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل، كما ثبت في حديث عبيد بن عمير ـ أن يقال: إنما شق عليه فتور الوحي إذ لم يكن خوطب عن الله بعدُ إنك رسول الله؟ وإذاً فما شأن النبوة الثابتة له ﷺ قبل فترة الوحي بزمن طويل؟ أفلا يكفي ثبوتها له ﷺ في تثبيته واصطباره حتى يأتيه أمر من عند الله الذي اصطفاه بنبوته واختاره لرسالته؟.

وما شأن الأحاديث التي تثبت أن جبريل عليه السلام استعلن له قبل فترة الوحي، وتبدّى له في صور ملائكية مختلفة، مناماً ويقظة قبل حادث الغار وعقيبه مباشرة، وهو عائد إلى أهله، وخاطبه جهرة في يقظته قائلاً: يا محمد: أنت رسول الله وأنا جبريل؟ وكيف يكون الخطاب المقصود من قول أبي بكر الإسماعيلي: (إنما شق عليه فتور الوحي إذ لم يكن قد خوطب بعدُ إنك رسول الله)؟ كيف وقد خوطب أكثر من مرة أنه رسول الله، وأن الذي رآه في المنام ثم استعلن له هو أمين الوحي جبريل عليه السلام، وقد ذكر القسطلاني في المواهب كلام أبي بكر الاسماعيلي في تعليل حزن النبي ﷺ ولم ينسبه إليه، وردّه شارحه الزرقاني فقال: وقول المصنف: أو حزن على ما فاته من بشارة ورقة ولم يخاطب عن الله بأنه رسول الله ومبعوث إلى عباده. فيه ـ أي في كلام القسطلاني ـ أن في مرسل عبيد بن عمير عند ابن إسحاق أن جبريل ناداه: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل.

الوجه السادس في بيان تهافت كلام الإسماعيلي

السادس: ـ ما معنى قول أبي بكر الإسماعيلي:

ثم كان من مقدمات تأسيس النبوة فترة الوحي ليتدرج فيه، ويمرن عليه، فشق عليه فتوره إذ لم يكن خوطب عن الله بعد إنك رسول الله، فأشفق أن يكون ذلك أمراً بدىء به، ثم لم يرد استفهامه، فحزن لذلك حتى تدرج على احتمال أعباء النبوة والصبر على ثقل ما يرد عليه فتح الله له من أمره بما فتح؟.

قد بيَّنا أن فترة الوحي أبعد ما تكون زمناً ووضعاً وموضوعاً من أن تكون مقدمة من مقدمات تأسيس النبوة، لأن فترة الوحي متأخرة جداً في زمن وقوعها ووضعها في إطار الرسالة بزمن مديد طويل عن ثبوت النبوة وتحققها بجميع عناصرها ومظاهرها، والمتأخر زمناً لا يصلح بداهة أن يكون تأسيساً للمتقدم.

وكذلك فترة الوحي أبعد ما تكون في موضوعها وحكمتها عن التدرج بالنبي ﷺ في الوحي ليمرن عليه، لأن الوحي وسائر شؤونه ليست من الشؤون الكسبية التي يتدرج الإنسان في مراتبها ودرجاتها حتى يمرن عليها، ولأن التدرج والمران يقتضيان تعدد فترات الوحي، حتى يتحقق المقصود منها، والمقطوع به أن فترة الوحي لم تتكرر، ولم تقع بصورتها المشهورة المقصودة عند الإطلاق إلا مرة واحدة.

فترة الوحي للمرض غير فترته في البلاغ الزائف.

أما فترة الوحي قبيل نزول سورة (والضحى) فهي فترة من نوع آخر كان سببها على الصحيح أن النبي ﷺ اشتكى فلم يقم لصلاته في جوف الليل، ليلة أو ليلتين، وكانت العوراء أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان وزوج أبي لهب جارة سوء للنبي ﷺ، فلم تسمع صلاته حين اشتكى، فقالت كلاماً خبيثاً تعير به النبي ﷺ وتشمت به أن الله تعالى ودَّعه وقلاه، فأنزل الله تعالى حفاوة بنبيه ﷺ وردًّاً لقالة السوء الخبيثة التي قالتها خبيثة أبي لهب، وهما من أعدى أعداء النبي ﷺ. سورتي (والضحى، وألم نشرح) كاملتين، روى البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي عن جندب ابن سفيان البجلي رضي الله عنه قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو

ثلاثاً، فجاءت امرأة، فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قَرِبك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عزّ وجلّ﴿والضحى والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى﴾ وفي رواية فأنزل الله والضحى وألم نشرح بكمالهما.

وقد عرفنا بطلان قول أبي بكر الإسماعيلي: إذ لم يكن خوطب عن الله بعد أنك رسول من الله، وأثبتنا أنه كان قد خوطب بذلك قبل فترة الوحي، وقبل أن يأتي إلى أهله في عودته من مفاجأة الغار وتكرار الغط، وبعد أن أقرىء أوائل سورة ﴿اقرأ باسم ربك﴾، وذكرنا ردّ الزرقاني شارح المواهب على مؤلفها الإمام القسطلاني الذي ساق كلام الإسماعيلي ولم ينسبه إليه، مستدلاً على أن النبي ﷺ خوطب بأنه رسول الله بحديث عُبيد بن عمير عند ابن إسحق، وهوحديث وإن كان مرسلاً لكنه صحيح كما نص عليه الأئمة.

أما قول أبي بكر الإسماعيلي: فأشفق أن يكون ذلك أمراً بدىء به، ثم لم يرد استفهامه، فحزن لذلك، فهو كلام لا محصل له، لأنه مبني على ما أبطلناه من قضية التدرج والمران على الوحي، وعلى دعوى أنه لم يخاطب بأنه رسول الله.

ولم يتعين لنا مرجع اسم الإشارة في قول الإسماعيلي: فأشفق أن يكون ذلك أمراً بدىء به، هل مرجعه بدء النبوة التي كان من مقدمات تأسيسها فترة الوحي؟ - في زعمه - وإذا كان ذلك كذلك كان المعنى أن النبي ﷺ فقد معالم النبوة، أو نسيها، أو ذهل عنها في غمرة الحزن اليائس المزعوم، فأشفق - حيث لا عاصم من نبوة - أن يكون فتور الوحي انقطاعاً أبدياً لأمر النبوة التي بدىء بها ثم صرفت عنه؟ ويدل لهذا ما ذكره ابن حجر من أن إرادة ترديه في المرة الأولى كانت - كما في صريح الخبر - حزناً على ما فاته من الأمر الذي بشّره به ورقة، وهذا الأمر هو النبوة والرسالة، وقد ذكره القسطلاني.

أو أن مرجع اسم الإشارة فتور الوحي الذي شق على النبي ﷺ؟ وإذا صح هذا كان المعنى أن النبي ﷺ توهم أو قدَّر في نفسه شيئاً، فلما فتر

الوحي حزن حزناً يائساً على فوات ما توهم أو قدر، وأيما كان الأمر فهو أمر خطير تتزلزل له أقدام الراسخين، ولا يمكن أن تتقبله عقول العالمين، فكيف بعامة العقلاء وكافة المؤمنين.

الوجه السابع في بيان تهافت كلام الإسماعيلي

السابع: ـ ما قيمة هذا التمثيل الذي جاء به أبو بكر الإسماعيلي ليبين عدم تمكن النبي ﷺ من تحقق حاله على جليتها حينما وقع له ما وقع في مفاجأة غار حراء، ورجع بآثار ما رأى وسمع وكابد من الفزع والروع إلى أهله، وطلب إليهم أن يدثروه في فراشه لتهدأ نفسه، ثم أخبر أهله بخبره وأبدى لخديجة رضي الله عنها وهي زوجه ومأنسه خشيته من ثقل ما كلفه من حمل أعباء الرسالة، فذكرت له ما هو عليه من مكارم الأخلاق وسواء الفطرة، واستقامة الجبلّة مما جرت سنة الله تعالى ألا يخزي من حلّاه بها، ثم أرادت خديجة أن تزداد تثبتاً وتقرّ عين رسول الله ﷺ بما يسمع من أهل العلم بالمبشرات، فتوجهت به إلى من عنده علم الكتاب الأول، إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان بذلك عليماً، فحدثه النبي ﷺ، فصدّقه ورقة، وبشره بأن ما رأى وما سمع حق من عند الله، فليثبت لأمر الله، فإنه رسول الله ونبي هذه الأمة.

فهل حال النبي ﷺ في نبوته الثابتة بوحي الرؤيا الصادقة وغيرها من مراتب الوحي قبل مفاجأة الملك له في غار حراء بمدة متطاولة، أقلها ستة أشهر، كما ذكره البيهقي في الدلائل ـ مثل حال من سمع شخصاً يقول: الحمدلله، ثم لم يتابع القراءة، فلم يَعلم سامعُه أنه يريد أن يقرأ إلا إذا وصلها بما بعدها من الآيات، فاذا وصلها تحقق أنه يقرأ؟ أو حاله ﷺ حال من سمع قائلاً يقول: خلت الديار، ولم يتابع الإنشاد، فلم يتحقق سامعُه أنه ينشد شعراً إلا إذا تابع الإنشاد وقال: محلها ومقامها.

غرابة ما ضرب به الإسماعيلي من الأمثلة وعدم فائدته

هذا تمثيل عجيب غريب، وقياس لا محل له، فالنبي ﷺ نبيء وعرف معالم نبوته معرفة يقينية، ملأت عقله وقلبه، وروحه، قبل أن يفاجأ بلقاء الملك في غار حراء، وقد مضى على حاله في نبوته زمن طويل قبل هذا اللقاء، فهو ﷺ كان حين لقاء الملك في الغار وبعده متحققاً حاله على

جليتها، وأنه على أكمل اليقين أنه نبي اصطفاه الله بوحيه، وأيده بآياته، وتولاه برعايته.

فالذي سمعه ورآه وكابده في الغار من مشقة الغط، وبغتة اللقاء، وإقرائه آيات من القرآن ما هو إلا ضرب من ضروب الوحي ومشاهده التي ألف الكثير من شدائدها وهو مغمور بأنوار النبوة.

وإذا كانت شدة وحي النبوة بالرؤيا الصادقة وغيرها من مراتب الوحي قبل مفاجأة الغار لا تبلغ أن تكون في مثل شدة وحي الرسالة ونزول القرآن التي كابدها النبي ﷺ في أول لقاء له بالملك يقظة، فان هذا التفاوت في الشدة وثقل التحمل مهما بلغت فوارقه لا يمكن أن يُذْهِب عن النبي ﷺ معالم نبوته التي رسخت في عقله وقلبه وروحه، حتى يتشكك ويرتاب فيما جاءه من وحي الرسالة، ويخشى أن يكون ما رآه في الغار من قبيل الكهانة، أو الجُنن، ويحتاج إلى أن يشكو حاله إلى خديجة رضي الله عنها، ويحتاج إلى سماع كلام ورقة ليحصل له الإيقان ويعترف بالحق.

فالنبوة بما يجب لها من العصمة وأرفع درجات اليقين، والمعرفة بأمر الله، تمنع منعاً باتاً أن يكون النبي ﷺ غير متحقق من حاله في أي مرتبة من مراتب الوحي مهما بلغت شدتها.

والذي حصل لرسول الله ﷺ من الفزع والروع لم يكن قط لفراغ نفسه من اليقين والمعرفة الحقة الصادقة بأنه نبي اصطفاه الله لوحيه، وإنما كان لما لقيه في وحي اليقظة من استفراغ بشريته من العلائق المادية التي تقيد الانطلاق الروحي لحصول المجانسة للملأ الأعلى في روحانيته العالية، حتى يتسنى تلقي وحي المشافهة عن أمين الوحي جبريل.

فأي محصل لهذا التمثيل؟ لا، بل نقول في تساؤل وتعجب دَهِش: هل يليق هذا التمثيل في موضعه وتحقيق المقصود منه؟

فهل حال النبي ﷺ في عدم تحققه حاله على جليتها في أول ما خوطب في وحي اليقظة ومفاجأة ملك الوحي في غار حراء، وقد كان ﷺ

في أرفع درجات اليقين بنبوته التي ثبتت له ثبوتاً قطعياً، وعاش في أنوارها وآياتها وعجائبها، قبل مفاجأة ملك الوحي، ويجري له معه ما جرى من طلب القراءة وتكرار الغط المجهد بشدته البالغة، وإقرائه أول ما أنزل الله عليه من القرآن الحكيم ـ كحال من سمع قائلاً يقول: الحمد لله، فلم يتحقق أنه يقرأ حتى يصل قوله: الحمد لله بما بعده من الآيات، فعندئذ فقط يتحقق سامعه أنه يقرأ؟.

كيف وبين الحالين من التفاوت والفروق ما بين يقين المعرفة، بما سبق لها من أسباب وطيدة راسخة، وبين جهالة تامة لا شعور معها بأي شيء سابق يتصل بقول القائل: الحمد لله، فسامع من قال الحمد لله، ليس لديه أدنى شعور بحال القائل: الحمد لله، إن كان يقرأ، أو كان يحمد الله، فقط، لأن جملة: الحمد لله، صالحة في ذاتها أن تكون بدءاً لقراءة، وصالحة أن تكون مجرد جملة لذكر الله بحمده، فسامعه في جهالة كاملة بحاله، لأنه لا يعرف شيئاً عن جلية حاله، إلا إذا وصل جملة: الحمد لله بما بعدها من الآيات، وحينئذ فقط يتحقق سامعه أنه يقرأ.

والنبي ﷺ كان قبل لقاء ملك الوحي في غار حراء، ومخاطبته على يقين كامل بأنه نبي اصطفاه الله بوحيه، وأيّده وكرّمه بآياته ومعجزاته، فإذا جاءته مرتبة من مراتب الوحي أشد وأثقل تحملاً من سائر مراتب وحي النبوة التي مرّ بها قبل هذا اللقاء المفاجىء في اليقظة، فلن يمحو ذلك من عقله، وقلبه وروحه أنه نبي معصوم، وأنه يعرض أن يأتيه من الوحي درجات ومراتب لم تسبق له في نوعها وطريقتها وشدتها.

فلا تماثل قط من قريب أو بعيد بين من يجهل الأمر جهلاً كلياً، ويسمع جملة محتملة لأن تكون بدء قراءة، ولأن تكون مجرد ذكر لله تعالى ـ فلا يتحقق سامعها أن قائلها يقرأ من القرآن إلا إذا وصلها قائلها بما بعدها من الآيات.

أو من يسمع جملة من بيت شعر، وهو يجهل حال قائلها جهلاً تاماً، فلا يتحقق أن قائل هذه الجملة ينشد شعراً حتى يقول قائل الجملة ما بعدها

من بيت الشعر، لأن سامع الجملتين: الحمد لله، وخلت الديار، في جهالة تامة بحال قائلهما، فهو معذور بجهله إذا لم يتحقق جلية أمر قائلهما - وبين حال من اصطفاه الله نبياً، وأوحى إليه ما أوحى، وعلمه من أمره ما شاء أن يعلمه، وأضفى عليه كامل رعايته في جميع لحظات حياته، وغمره بيقين الإيمان بنبوته في جميع أحواله، فلم ينسها أو يذهل عنها، أو يغفل عن مشاهدها.

فهذا التمثيل المغالط المغلوط ضربٌ من الإصرار على أن النبي ﷺ يجوز عليه أن يقع تحت وطأة الشك في نبوته، وأنه قد تخلَّت عنه عواصم النبوة، وخشي على نفسه أن يكون كاهناً أو أن يكون به جُنن، لمجرد أن الوحي تدرج به من مراتب النبوة ووحيها إلى مراتب الرسالة ووحيها، ففوجىء بما ارتاعت له بشريته ساعة المفاجأة وشدة الغط، ولكنه سرعان ما هدأت نفسه، وذهب عنه الروع، وهو على يقينه من أمر ربه، ومعرفة حق رسالته.

ويتابع أبو بكر الإسماعيلي كلامه في هذه القضية الشائكة العصية، ويمضي في طريقه بعد أن أنهى القول فيما ظنه تشييداً لتأويل المراد من الخشية في قول النبي ﷺ لأهله بعد أن رجع إليهم مرتاعاً ترجف بوادره من هول ما رأى وسمع: (أي خديجة: مالي؟ خشيت على نفسي) بأبطل ما قيل في تأويلها وتفسيرها؛ إلى بيان الدوافع وراء ما زعم من إرادة النبي ﷺ إلقاء نفسه من ذرا شواهق الجبال ليقتلها تخلصاً من حياته حزناً على فتور الوحي، فيقول: وأما إرادته إلقاء نفسه من رؤوس الجبال بعدما نبىء فلضعف قوته عن تحمل ما حمله من أعباء النبوة، وخوفاً مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعاً، كما يطلب الرجل الراحة من غم يناله في العاجل بما يكون فيه زواله عنه، ولو أفضى إلى إهلاك نفسه عاجلاً، حتى إذا تفكر فيما فيه صبره على ذلك من العقبى المحمودة صبر واستقرت نفسه.

الأنبياء أقوى الناس عزائم وأقوى الأنبياء عزيمة محمد ﷺ.

وهذا كلام موغل في التهافت والضعف، والغفلة عن عزائم النبوة وعواصمها التي يقيم الله تعالى على دعائمها بناء شخصية من يصطفيه لشرفها من عباده المخلصين.

ونبينا محمد ﷺ قد اصطفاه الله تعالى لنبوته الخاتمة ورسالته الخالدة،

وحقق له في بناء شخصيته الروحانية وطبيعته البشرية أكمل وأرفع ما أعطى نبياً من أنبيائه من القوى والاستعداد ليجانسه بالملأ الأعلى في شهوده آيات الله في ملكوته، وبهذه القوى التي أعده بها روحياً علم من أمر الله ما لم يعلم أحد من البشر، ورأى من الحقائق الكونية ما لم يرَ مثله أحد من الأنبياء والمرسلين، وسمع عن الله تعالى ما خصه به من أسرار الخلق.

وقد ظلت هذه القوى الروحانية العليا في نماء وازدياد، وعلو واطراد، تنتقل به في مراتب الوحي، وتجليات الشهود، ومنازل القرب، حتى بلغ من فضل الله عليه أعلاها مقاماً، وأرفعها سمواً، وأجلها رفعة وتعظيماً، فكان خاتم النبيين وسيد العالمين، وإمام المرسلين.

فلا يقبل من أحد كائناً مَنْ كان في دَويّ اسمه، وهالات رسمه أن يحاول - من أجل (بلاغ) لا سند له، أُلحق بجامع البخاري في موضع واحد من روايات حديث (كيف بدأ الوحي) مع تعدد مواضعه في الجامع الصحيح، وفي غيره من كتب الجوامع ودواوين السنن والمسندات، إلحاقاً أشبه بإلحاق اللصيق الذي لا يعرف مورده - جرجرة الحديث في عماية مظلمة، فيقول عن سيد العالمين محمد ﷺ - **إنه بعد ما نبىء - أراد أن** يقتل نفسه حزناً على فتور الوحي.

وما قيمة النبوة التي اعترف بها أبو بكر الإسماعيلي في قوله: بعدما نبىء - إذا لم تعصم مَنْ تحلَّى بها عن تكرار عزيمة ارتكاب أشنع جرم في نفسه حزناً على ما فاته، ليتخلص من حياته، وخروجا على مجريات قضاء الله وقدره، والإيمان بقضاء الله وقدره، والتسليم لله فيما يشاء، والرضا بما يختار، من بدائه العلم لعامة المؤمنين، بَلْه الأنبياء المصطفين المخلصين.

وأي دافع يختلج في حنايا أنفس مزيفي الإيمان، تافهي الشخصيات، مظلمي الأرواح، ضعاف العقول، مرضى القلوب الذين يقتلون أنفسهم يأساً من حياتهم في لحظة تأزم نفسي، تمر عليهم فيها شدة من شدائد الحياة، تنوء بها أعصابهم، وتتهاوى قواهم أكثر مما زعم المتخرصون على سيد الوجود محمد ﷺ.

إن هذا التخرص لمن أبطل الباطل، وأنكر المنكر، وأوغل التقحم في متاهات المحال.

يستحيل أن يختار الله تعالى لرسالته ضعاف العزائم

وإذا كانت قوة النبي ﷺ تضعف عن تحمل ما حمل من أعباء النبوة فكيف اختاره الله تعالى لها، وهو سبحانه يقول فيما أنزله عليه: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾.

إن الذين يزعمون ضعف قوة محمد ﷺ عن تحمل ما حمله الله تعالى من أعباء النبوة وأثقالها إلى درجة يفقد معها مقومات البصر بعواقب الأمور - بَلْه عواصم النبوة - فيستولي عليه حزن اليأس القاتل؛ يقرؤون في تاريخ البشرية منذ كانت الحياة عن شجاعة وصبر، أو تشاجع وتصبُّر كثير ممن يوصفون بالبطولة أمام عواصف الأحداث، وعظائم الكوارث حتى تنجلي عنهم غمائمها، ويقرؤون في تاريخ كثير من علماء هذه الأمة وقواد جهادها كيف صبروا للفوادح والبلايا وهي تأخذ بحلاقيمهم، فلم تتزعزع شخصياتهم، ولم تضعف قواهم، ولم يجد الحزن اليائس سبيلاً إلى أنفسهم، وكيف تسامى كثير منهم في حومة المحن القاصمة عن اهتزاز قلوبهم هلعاً، واضطراب عقولهم جزعاً حتى مضوا صابرين موقنين بما حملوا من أمانة من أعباء الإيمان وأمانة الحق.

حسن الأحدوثة يحمل على الصبر والتصبر في البطولات البشرية فما الظن بالنبوة؟

ونجزم بمقتضى ما جبل الله تعالى عليه الطبائع البشرية من التّولّه بحسن الأحدوثة والتمدّح أنه لو قيل عن أحد هؤلاء الزاعمين ما زعموا - وكثير منهم أصحاب أسماء عريضة الدوي في آفاق التاريخ ودنيا الناس - أنه حزن حزناً يائساً يدفعه إلى قاصمة الظهر، منهية الحياة، من أجل مهم فاته، أو ظن أنه سيفوته أو خاف فواته، فعزم على قتل نفسه بأبشع ما يقتل به إنسان نفسه، وشرع في تنفيذ ذلك - لانتفض صارخاً متبرئاً مما أبِن به، وزعم لنفسه أنه أشجع من أن تضعف شخصيته هذا الضعف الذليل، وأنه أصبر على الرزايا وعض الأحداث له بأنيابها من أن تخور عزيمته فيهرب من مواجهة أقداره.

فكيف استقام لهؤلاء الزاعمين حزن اليأس - وهم من هم في أمة

محمد ﷺ ـ أن يُزِنّوا سيد الخلق بضعف قوته عن تحمل ما حمل من أعباء النبوة ضعفاً يذهب بكل خصيصة في شجاعة قلبه وروحه، ويذهب بعواصم النبوة، ويذهب بجميع آثار وحيها وتأييد الله لها بالآيات والمعجـزات، ويذهب بصبره وتصبره، ويزلزل كيان بشريته، فيحزن حزناً بلغ به مبلغاً غدا معه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، ويتبدى له أمين الوحي جبريل عليه السلام، فيخاطبه عياناً مشافهة: يا محمد، إنك رسول الله حقاً، فيرجع عن عزيمته، ولكنه لا يلبث حتى يعود لمثل ما صنع، فيتبدّى له جبريل، ويقول له: يا محمد، إنك رسول الله حقاً.

إن هذه الأبطولة المتهافتة، والأسطورة الباطلة، والأضلولة التافهة، أبطولة البلاغ الزائف وأسطورة الحزن اليائس، وأضلولة التخرص المتقحِّم التي تنسب عزيمة التردِّي من ذرا الشواهق إلى سيد الوجود خاتم النبيين محمد ﷺ، لا يجوز في شرعة العقول السليمة فضلاً عن شرعة الإسلام المنيرة أن تسوّد بها صحائف أعطر سيرة لأعظم إنسان وأطهر مخلوق عرفته السماء والأرض، فيجب طرحها من أماكن تسويدها من صحائف النبوة الخاتمة والرسالة الخالدة، نبوة محمد أكرم الأولين والآخرين على الله، ورسالة محمد أعزّ خلق الله عند الله، مهما كان شأن من أقحمها على دواوين السنة وجوامع تحرير الحديث ـ بلاغاً ـ أو وصلاً مسنداً، ومداخل الغلط والخطأ والوهل والتوهم على الأكابر أكثر من أن تحصى.

والأصول الإسلامية تأبى هذه الأضلولة الأسطورية، وتشمئز من أسواء تعسفات تأويلاتها، وبذلُ أي جهد في تلمس مخرج لها جهـدٌ باطل، وعمل ضائع ووقت مهدر، ولم يجعل الله العصمة عن الخطأ المخدوع والغلط الخادع في الدين أصولاً وفروعاً لأحد كائناً من كان سوى الأنبياء والمرسلين.

ولو أن أبا بكر الإسماعيلي اقتصر في تعليل ما نُسب إلى النبي ﷺ من عزيمة التردي من ذرا الشواهق بعدما نبىء ـ حزناً على فتور الوحي (أياماً) على قوله: خوفاً مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعاً ـ لكان غير مقصي عن منازل التأويل المتعسف الذي ينزل في أدنى منازل

القبول الممرِّض، فيقال فيه (لا بأس) إن كان لا محيص عن قبول تأويل متعسف.

وأبو بكر الإسماعيلي يخلط بين ما يمكن أن يكون تأويلاً مقبولاً للخشية في قوله ﷺ: (خشيت على نفسي) عقيب عودته إلى أهله من مفاجأة الغار، فسقط في هاوية تأويلها مَنْ تقحم متخرصاً أن المراد بها أن يكون ما رآه في الغار من الكهانة أو الجنون، وانتهض الإسماعيلي لتلمس تسويغ هذا القول الفاسد والدفاع عنه بما ناقشناه فيه طويلاً، وأبطلناه إبطالاً دامغاً ـ وبين مالا يمكن أن يصلح تعليلاً لما نسب إلى النبي ﷺ من عزيمة التردي من ذرا الشواهق.

تمثيل مفسد فاسد لا محصل له

فقوله هنا: خوفاً مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعاً، يمكن أن يكون تأويلاً سائغاً للمراد من الخشية، فمكانه هناك، لا هنا.

ولكن الإسماعيلي يأبى إلا أن يؤكد التزامه قبول بلاغ الحزن اليائس، وتسويغ ما جاء فيه فيضرب لذلك مثلاً، فقال: كما يطلب الرجل الراحة من غم يناله في العاجل بما يكون فيه زواله عنه، ولو أفضى إلى إهلاك نفسه عاجلاً، حتى إذا تفكر فيما فيه صبره على ذلك من العقبى المحمودة صبر واستقرت نفسه.

والعجيب أن أبا بكر الإسماعيلي ـ وهو من أئمة المحدثين ـ لا يقيم أبداً في مُثُله التي يضربها لبيان ما يقصد إليه وزناً لخصائص النبوة في امتيازاتها وآثارها، فالنبي ﷺ لا يزيد في مُثُل الإسماعيلي المضروبة عن رجل، أي رجل يطلب الراحة من غم ناله، فأراد أن يتخلص منه ويرتاح، ولو بإهلاكه نفسه، حتى إذا تفكر فيما يؤدي إليه الصبر من العواقب المحمودة، فإنه حينئذ يصبر وتستقر نفسه، ويعدل عن عزيمته، ولو كانت عزيمة الانتحار.

أليس هذا هو حال كل إنسان من المعرضين في الحياة لنزول الهموم والغموم بهم، وحلول الرزايا والبلاء بساحتهم، فيضيقون بها ذرعاً، وتضعف أنفسهم عن احتمالها، وتسد أمامهم أبواب الخلاص منها، ويملأ الحزن اليائس أفئدتهم، وتسود الحياة في أنظارهم، وتطفىء نور الإيمان ـ إن كانوا مؤمنين ـ من قلوبهم، وتظلم أرواحهم فلا يجدون سبيلاً لمواجهة الحياة

فيعمدون إلى الخلاص من حياتهم، ويقدِّمون على التي لاشـوى لها، فيقتلون أنفسهم.

وقد تتدخل أمور وعوامل لا مـدخل لـلإرادة فيها، فتـدرك هذا الإنسان، وهو يمشي إلى عزيمته، فتوقف سيره، وقد يطلع على هذه العزيمة وهي تمضي إلى طريق آثارها الفاجعة من يحاول ردّ صاحبها عن تنفيذها بما يهون عليه من شأن عواملها الباغتة، أو بما يعلمه من تكذّب ظنونه وأوهامه عليه، فيتنبه صاحب الحزن اليائس ويفيق من غمرات خواطره السوداء، ويعتصم بالصبر على ما نزل به مؤملاً في عاقبته المحمودة.

هذا تمثيل جانبه التوفيق، وباعدته الاستقامة، لأنه تمثيل مجحف أشد الإجحاف بما يجب للنبوة من قداسة وإجلال، وأبسط درجات تقديسها وإجلالها في أول مراتبها من الوحي استحضار أن الله تعالى استوجب العصمة لمن اصطفاه لها، فجعله معصوماً في باطنه وظاهره عن أي انحراف في غير جادتها، وحفظه عن الانزلاق لما ينافي موجبات القداسة والإجلال.

تمثيل يهدر خصائص النبوة

فكيف صحَّ تمثيل النبي ﷺ في محنة فترة الوحي برجل ـ أي رجل ـ كما هو صريح المثل المضروب، وهو ﷺ كان قد نبىء قبل هذه المحنة، ولكن المثل المضروب لم يفرض لوجود النبوة أثراً من الآثار الواقية من الانزلاق في هاوية الشك والارتياب.

ذلك الشك الذي يقتضيه لزوماً تفسير المراد من (الخشية) في حديث عائشة (قد خشيت على نفسي) بما تخرّصه المتخرصون في قول منحرف المنزع، إلى درجة إهدار عواصم عموم الإيمان عند عامة المؤمنين برسالة نبيِّنا محمد ﷺ، بل إلى درجة إهدار عواصم النبوة وقداستها.

بل يُزنُّ النبي ﷺ ـ وهو منبأ ـ بأنه خشي أن يكون ما رآه في مفاجأة الغار ولقاء ملك الوحي جبريل عليه السلام، وإقرائه ما أنزل عليه من القرآن ـ من قبيل الكهانة أو الجنون.

وقد عرفنا أن أئمة الهدى والعلم أنكروا هذا القول الفاسد أشد

الإنكار، وأبطلوه أبلغ الإبطال، وقال عنه الإمام ابن حجر: وحق له أن يبطل، ولكن أبا بكر الإسماعيلي يندب نفسه وقلمه وفكره وعلمه للدفاع عن هذا القول الباطل، ويلتمس له تعاريج المسوغات في عماء ظلمات (العلم الضروري).

وقد بيَّنا أنه يستحيل تحقيق (العلم الضروري) بأكثر مما تحققه النبوة بوحيها وعواصمها، ولكن النبوة لم توضع في ميزان (العلم الضروري) في دفاع أبي بكر الإسماعيلي عن القول الزائف في بيان المراد من تفسير الخشية في قوله ﷺ لخديجة: (قد خشيت على نفسي).

وذلك الشك الذي يقتضيه لزوماً قاطعاً بلاغُ الحزن اليائس، وما تضمنه من تخرّصات على أشرف الخلق وأكرم المرسلين، محمد خاتم النبيين، تلك التخرصات التي جعلته ﷺ يعيش - بعدما نبىء وأرسل - زمناً لا يتهم بالقصر وقلة الساعات والأيام والشهور، بل ربما السنين، هو زمن فترة الوحي، بعد ابتداء نزول القرآن - يغدو في رائعة النهار مراراً وتكراراً إلى شواهق الجبال لكي يرمي نفسه من فوقها ليقتلها تخلصاً مما هو فيه من حزن يائس، ويتجلَّى له أمين الوحي جبريل عليه السلام عياناً في صورة ملائكية بروحانيته العليا، ويقول له: يامحمد!! إنك رسول الله حقاً، فلا يثنيه ذلك عن عزيمة التردِّي من الشواهق إلا ريثما يرجع، ويتوارى جبريل، ثم يعود إلى غدوِّه إلى الشواهق ليرميَ نفسه من فوقها، ويعود جبريل إلى التجلي والظهور مرة أخرى قائلاً له جهرة مشافهة: يامحمد!! إنك رسول الله حقاً.

تساؤل يشجب أثر المغالطة في هذا التمثيل

ومن حق أي عاقل - ولو لم يكن مؤمناً برسالة محمد ﷺ - أن يتساءل: هل كان النبي ﷺ وهو يغدو مراراً للتردي من شواهق الجبال موقناً بأنه نبي الله ورسوله إلى عباده؟ وهل كان لهذه النبوة المرسلة موجبات وعواصم تقتضيها طبيعتها الإلّهية التي جعلها الله من خصائصها، لتحفظ النبي ﷺ في تلقِّيه الوحي عن الله، وفي تبليغه إلى عباده ليتابعوه في تطبيق أحكامه وشرائعه، عن الانحراف عن جادة النبوة؟.

وجواب هذا التساؤل قطعي لا يعتريه ارتياب، فالنبي ﷺ مبلِّغ عن الله، تجب متابعته في كل ما يبلِّغه، فلو لم يكن في جميع لحظات حياته نبياً على أكمل اليقين بنبوته لجاز عليه أن لا يوقن بما يتلقاه من الوحي، ولو جاز عليه أن لا يوقن بما يتلقاه من الوحي لجاز أن يبلِّغ ما لا يوقن بأنه من عند الله، ولو جاز ذلك لانعدم اليقين بالشريعة كلها أصولها وفروعها، وهذا هو المحال بعينه. والباطل بمفاسده.

إذاً فكيف يجوز أن يقع ما زعم المتخرصون بتفسير (الخشية)، وبقبول بلاغ الحزن اليائس أنه وقع للنبي ﷺ من كل ما عرضنا له في البحث، وأبطلناه إبطالاً لا يترك له أثراً في محصلات العقول.

ويتفرع على هذا التساؤل تساؤل آخر، هل كان النبي ﷺ موقناً بأن الذي تجلَّى له وخاطبه: يا محمد إنك رسول الله حقاً مرتين أو مرات ـ كما يقتضيه قول المتخرِّصين في نص عبارة البلاغ الزائف، كلما أوفى بذروة جبل تبدّى له جبريل ـ هو أمين الوحي جبريل عليه السلام؟ وهذا ما يقتضيه صريح الحديث، وإذا كان موقناً بذلك فكيف عاد إلى عزيمة التردّي؟.

وإذا لم يكن النبي ﷺ موقناً بأن الذي تبدّى له هو أمين الوحي جبريل، فكيف تلقَّى عنه ما نزل من آيات القرآن في مفاجأة الغار قبل فترة الوحي؟ هل تغير عليه حاله؟ فعرفه وتيقن به في مفاجأة الغار، ولم يعرفه كلما أوفى بذروة جبل ليلقي نفسه من فوقها؟ وكيف اطمأن إلى حقيقته ووثق بالوحي يتلقاه منه بعد أن حمي الوحي وتتابع؟.

رواية تؤكد زيف بلاغ الحزن اليائس

ومما يؤكد بطلان بلاغ الحزن اليائس أن الإمام أبا جعفر الطبري يروي في تاريخه عن طريق النعمان بن راشد عن ابن شهاب الزهري نفسه ـ وهو عماد بلاغ إرادة التردي من شواهق الجبال حزناً على فتور الوحي ـ ما يفيد أن ما نسب للنبي ﷺ من إرادة إلقاء نفسه من رؤوس الجبال لا علاقة له بفترة الوحي، ولم يكن أثراً لحزن يائس يـدفع النبي ﷺ إلى التخلُّص من حياته، وإنما كان متقدماً في زمنه على فتور الوحي، لأنه ـ كما يقول ابن حجر أخذاً من كلام الإسماعيلي ـ كان في ابتداء مجيء جبريل إلى

النبي ﷺ، قال ابن حجر في الفتح: وأما المعنى الذي ذكره الإسماعيلي - أي تعليله لإرادة النبي ﷺ إلقاء نفسه من رؤوس الجبال لضعف قوته عن تحمل ما حمله من أعباء النبوة، وخوفه مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعاً - فوقع قبل ذلك - أي قبل فترة الوحي - في ابتداء مجيء جبريل، ويمكن أن يؤخذ ما أخرجه الطبري من طريق النعمان بن راشد عن ابن شهاب، فذكر نحو حديث الباب، وفيه: فقال لي: يا محمد أنت رسول الله حقاً، قال: (لقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل).

وذلك يحتمل أن يكون وقوعه في موضعين من مواضع قصة (بدء الوحي).

الموضع الأول - عند استعلان جبريل وظهوره علانية يقظة للنبي ﷺ عقب رؤياه المنامية وشق بطنه، كما جاء في حديث ابن أبي بكر بن حزم، قال: ثم استعلن به جبريل، وبشَّره برسالة ربه حتى اطمأن.

والموضع الثاني - عقيب خروجه من متعبده في حراء عائداً إلى أهله بعد قضاء جواره، كما جاء في حديث عبيد بن عمير، قال: «فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل، رفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء، يقول: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل».

وكل واحد من هذين الموضعين متقدم في زمن وقوعه على فترة الوحي المعينة بزمن واقع بين نزول أوائل سورة (اقرأ) وبين نزول أوائل سورة (يا أيها المدَّثر) وهذا الزمن الواقع بعد نزول (اقرأ) وقبل نزول أوائل (يا أيها المدَّثر) هو الزمن الذي زعم فيه وقوع الحزن اليائس، وإرادة التردي من شواهق الجبال.

هل اختلف الأمر على الزهري أو على راوييه

فابن شهاب الزهري عينه في روايتي راوييه: معمر في حديث البخاري من كتاب (التعبير) من الجامع الصحيح، والنعمان بن راشد في حديث

الطبري، اختلف على نفسه، فأخبر مرة بلاغاً بما رواه عنه معمر، وأخبر مرة أخرى إرسالاً عن رسول الله ﷺ بما رواه عنه النعمان بن راشد، أو اختلف عليه راوياه: معمر والنعمان، فمعمر يروي عن الزهري بلاغاً أن الوحي فتر ـ بعد نزول أوائل (اقرأ) في أول لقاء يقظي مفاجىء للنبي ﷺ بجبريل في مفاجأة الغار ـ فترة حزن فيها النبي ﷺ حزناً غدا معه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، وهذا صريح في أن ما نسب للنبي ﷺ من إرادته إلقاء نفسه من رؤوس الجبال إنما كان في زمن فترة الوحي.

والنعمان بن راشد يروي عن الزهري نفسه مرسلاً عن رسول الله ﷺ أنه حين استعلن له جبريل وقال له: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل، قال: (لقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل) وهذا صريح في أن ذلك كان قبل فترة الوحي، ولا مدخل لهذه الفترة في أن يقول النبي ﷺ ذلك، فإن كان ما زعموا قد كان فليس زمن فترة الوحي زمناً له، وقد جعل في حديث معمر زمناً له، فتناقض واختلف.

ولا شك أن الاختلاف في الرواية والنقل عن شخصية واحدة في موضوع واحد إلى درجة التناقض الزمني يضعف من قيمة الرواية، ويرفع الثقة بها ويقضي بعدم قبولها، وإذا كان الأمر يرجع إلى الترجيح بين الروايتين فالمرسل الثقة أرجح من البلاغ، وهذا لا ينفي أن يكون المرسل ضعيفاً من جهة أخرى.

ولا نتوهم قط أن عاقلاً يذهب إلى تكرار الواقعة، فتكون كل رواية من الروايتين تحكي عن الزهري واقعة مستقلة بزمنها وموضوعها، لأن ذلك يتعاظم على الخيال أن يتصوره، فضلاً عن أن يصدقه ويتقبله، وإلا كانت حياة سيد الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ أعجوبة في حياوات الناس، بَلْه الأنبياء والمرسلين، لأنه بمقتضى هذا التوهم يفقد كل خصيصة من خصائص النبوة، فكلما حزبه أمر أو اشتد عليه حادث لجأ إلى التخلص من الحياة، والنبوات كلها شدائد متتابعة، ومحن لازمة، وفدائح لازبة، وبلايا متوالية، وعدتها الصبر الصبور، ونبيِّنا محمد ﷺ سيد الصابرين: جمع الله له في خصائصه

صبر أولي العزم من الرسل، وأمره أن يتحلى به فقال له: ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ فمن المحال أن يقع له ما زُعم عليه بلاغاً أو إرسالاً، بَلْه أن يتكرر.

وجه تأكيد إبطال حديث النعمان بلاغ الزهري.

ووجه أن ما جاء في حديث النعمان بن راشد عند الطبري يؤكد بطلان بلاغ الحزن اليائس - زيادة على أن اختلاف الرواية عن شخصية واحدة وموضوع واحد يرفع الثقة بها ويوهنها - أن استعلان جبريل للنبي ﷺ في صورته الملائكية الهائلة، وهو يخاطبه عياناً يمكن أن يكون قد أفزع النبي ﷺ وأدهشه، لأنه منظر هائل لم يألفه النبي ﷺ قط في حياته قبل النبوة، ولا هو داخل قط في مألوف البشر قاطبة.

فليس من المستبعد أن يدهش ويفزع من هذا المنظر بمقتضى طبيعته البشرية، ولا سيما عقيب إفاقته ﷺ من روع شق بطنه الذي رآه في منامه، كما جاء في حديث ابن أبي بكر بن حزم، وهو الموضع الأول من مواضع احتمال وقوع ما ذكره الإسماعيلي في رأي ابن حجر، أو بعد خروجه من غار حراء عائداً إلى أهله بعد أن أتم جواره وبعد رؤياه نمط الديباج الذي غته به الملك حتى بلغ منه الجهد، وبعد إقرائه في تلك الرؤيا أوائل سورة (اقرأ) تمهيداً لمفاجأة الغار واللقاء اليقظي فيه، وهو الموضع الثاني من مواضع احتمال وقوع ما ذكره الإسماعيلي كما جاء في حديث عبيد بن عمير.

فالنبي ﷺ كان في هذين الموضعين معرضاً للدهش والفزع بمقتضى دوافع الطبيعة البشرية، فإذا لاحقه ﷺ وهو في دهشه وفزعه منظر تجلي جبريل وظهوره له في صورته الملائكية الهائلة، يخاطبه: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، ليخرجه من غمرة دهشه وخواطر فزعه البشري إلى حقيقة واقعه الروحاني، وموجبات رسالة ربه إلى عباده لم يكن غريباً أن يشتد دهشه، ويتضاعف فزعه في دائرة بشريته، ولكن لا يمكن أن يطغى دهشه وفزعه على موجبات نبوته التي يعيش في أنوارها، فهو ﷺ كان ساعتئذ نبياً يوحى إليه من ربه، يُكلَّم ويعلَّم، ويرى ويسمع من أنباء الغيب وعجائب الكون، فيجب أن يكون عنده من اليقين بنبوته ما يستحيل معه أن يبلغ به

الدهش والفزع من هول المنظر في ظهور جبريل له بصورته الملائكية ومخاطبته بأنه رسول الله، درجة تدفعه إلى ما لا يكون من الجزع والهلع عند كثير من خواص المؤمنين، بَلْه الأنبياء والمرسلين، فضلاً عن خاتم النبيين محمد ﷺ.

نبو كلمة الهمّ بالتردي وقلقها في حديث النعمان

فإقحام حديث النعمان بن راشد عن الزهري أبطولة تقويل النبي ﷺ وجبريل يخاطبه أنه رسول الله هذه الكلمة (فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل) بيّن القلق جداً في موضعه من الرواية، إذ لا يظهر لذكره هنا بعداً عن فترة الوحي، متقدماً عليها سبب يسوغ مجيئه سوى مجرد الدهش والفزع من هول منظر جبريل في تجليه وظهوره على صورته التي ظهر بها، وهذا وإن سوّغ شدة الدهش والفزع لأنه منظر لم تألفه الطبائع البشرية، لكنه لا يسوغ الإخبار دون مناسبة بما نسب للنبي ﷺ في زعم من قال: (لقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل) لأنه لا ارتباط مطلقاً بين ما يمكن أن يحصل من الفزع لرؤية صورة هائلة لملك الوحي وبين هذا القول المنسوب إلى النبي ﷺ بأنه قد هم أن يطرح نفسه من حالق جبل.

ولا شك أن شدة الدهش والفزع من رؤية الغرائب الهائلة المفزعة للطبيعة البشرية له آثاره التي تقع لكل من يشاهد شيئاً من هذه الغرائب المفاجئة.

وقد ذكر مرسل عبيد بن عمير الآثار الطبيعية المعقولة التي وقعت للنبي ﷺ من رؤيته منظر جبريل في صورته التي تبدَّى له فيها وهو خارج من جواره، حتى إذا كان في وسط من الجبل سمع صوتاً من السماء فرآه فقال النبي ﷺ: «فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم، وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي، وما أرجع ورائي».

هذا هو الأثر الطبيعي المعقول لما يقع من الدهش والفزع عند مفاجأة المناظر الهائلة الغريبة.

أما أن يُلصق بالوقائع ما ليس معقولاً، ولا تقتضيه طبيعة الأحداث، فهذا ما لا تقبله العقول السليمة، ولا تقره الفطر النقية.

فترة الوحي كانت لطفاً من الله ورحمة بنبيه ﷺ

وإذا كانت المواضع التي يمكن أن تقع فيها شدة الدهش والفزع لأسبابها المعقولة لا تحتمل قط حديث التردي من شواهق الجبال، ففترة الوحي (أياماً) بمقتضى حديث ابن عباس، وكما جزم به ابن حجر في الفتح أبعد ما تكون عن ذلك، فهي إنما كانت لطفاً من الله بنبيه ﷺ ورحمة به، ليستجم من عناء ما لاقى من روع المفاجأة، وشدة الغط، لاستفراغ بشريته ليزداد تشوفاً وشوقاً إلى تتابع الوحي، وأخذه بقوة روحانية مجانسة لروحانية الملأ الأعلى وتثبيتاً له ﷺ، وتقوية لروحانيته على احتمال ما يتوالى من الله إليه حتى يتم استعداده لتبليغ رسالته إلى الخلق بصبر وقوة وشغف، ويقين لا يدانيه يقين في أن الله تعالى سيتم عليه ﷺ نعمته، فلم تكن مستوجبة لحصول هذا الحزن اليائس الذي يدفع إلى التخلص من الحياة بصورة تنفر منها طباع النفوس البشرية المستقيمة، فضلاً عن نفوس المصطفين لرسالات الله، وهداية الخلق، وفضلاً عن نفس سيد المرسلين محمد ﷺ.

أما ذكر الهمّ بالطرح من رؤوس الجبال منسوباً إلى النبي ﷺ في حديث النعمان بن راشد عن الزهري فقد يكون له تخيل وجه مناسبة، وهو الفزع المفاجىء من هول منظر جبريل في صورته التي تجلى بها للنبي ﷺ، لكن تحقق النبوة بمراتب وحيها وإشراق أنوارها، وموجبات قدسها وعواصم خصائصها كان عاصماً للنبي ﷺ من وقوع ذلك، فذكره في الحديث وَهْل عن عواصم النبوة وموجبات قداستها.

موقف تثبيت وبشارة لا موقف تغضب ويأس

ومما يزيد في نبوِّ القول المنسوب للنبي ﷺ وقلقه في موضعه من حديث النعمان أنه جاء عقب قول جبريل له: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل، فلا مناسبة له في هذا الموضع الذي هو موضع غبطة وطمأنينة، ومسرة بإنعام الله، وبهجة بما نال من فضله، فكيف يجيء هذا القول المتغضب في موقف الرضا والشكر، فهل كان فزع النبي ﷺ من رؤية جبريل في صورته التي ظهر بها في أفق السماء هو الحامل له ﷺ على هذا القول، كيف وقد سبق للنبي ﷺ أنه رأى جبريل مناماً ثم استعلن له وبشَّره برسالة ربه حتى اطمأن، كما جاء في حديث ابن أبي بكر بن حزم وقد حدَّث خديجة بهذا

الاستعلان مغتبطاً به فقال لها: «أرأيتكِ الذي كنت أحدثك ورأيته في المنام، فإنه جبريل استعلن لي بأن ربي أرسله إليّ» كما في رواية أبي ميسرة عند البيهقي، وقد بيَّنا أن الفزع وإن كان ممكن الوقوع لكنه لا يمكن أن يبلغ درجة تذهب معها عواصم النبوة.

وحديث النعمان بن راشد عند الطبري عن ابن شهاب الزهري يرى فيه ابن حجر أنه في أصل موضوعه وقصته هو عين حديث معمر عن الزهري عند البخاري في كتاب التعبير من الجامع الصحيح فيقول: وأما المعنى الذي ذكره الإسماعيلي ـ أي في تعليله لإرادة إلقاء نفسه من رؤوس الجبال بضعف قوته عن تحمل ما حمله من أعباء النبوة، وخوفه مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعاً ـ فوقع قبل ذلك في ابتداء مجيء جبريل، ومعنى ذلك أن هذا التعليل أنسب بأن يكون تفسيراً لقول النبي ﷺ وهو يحدث أهله بخبر ما وقع له في غار حراء عند أول لقاء يقظي بجبريل: (قد خشيت على نفسي) ولا معنى لجعله تعليلاً ـ في زعم الزاعمين ـ لإرادة إلقاء نفسه من رؤوس الجبال، وقد بيَّنا في صدر البحث أن تفسير الخشية بذلك هو أرجح الأقوال من المراد منها، وإن كان ابن حجر رجَّح عليه غيره من الأقوال، وقد استوعبنا البحث في مكانه.

ثم قال ابن حجر: ويمكن أن يؤخذ مما أخرجه الطبري من طريق النعمان بن راشد عن ابن شهاب فذكر نحو حديث الباب، وفيه فقال لي: يا محمد أنت رسول الله حقاً، قال: (فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل).

وهذا هو موضع الدلالة من كلام ابن حجر على أنه يرى وحدة الموضوع والقصة في حديثي معمر والنعمان عن الزهري، وما يرى من الاختلاف بين الروايتين هو الحامل لابن حجر على التعبير بقوله: (فذكر نحو حديث الباب) إيثاراً للدقة في التعبير وأداء المعنى المقصود.

وفي ذلك ترشيح لما ذهبنا إليه من وحدة موضوع (بدء الوحي) وقصته في جميع الروايات مع اختلافها في تناول الوقائع والأحداث، وإن هذا

الاختلاف ليس اختلافاً في أصل الموضوع، وإنما هو أسلوب في الأداء أدَّت به كل رواية ما أتيح لراويها من القصة، وهي في مجموعها يكمل بعضها بعضاً، ويتألف منها جميعاً وحدة موضوعية تجمع وقائع القصة كلِّها.

اختلاف الروايات في قصة بدء الوحي لا ينافي وحدة الموضوع

ومن لطائف التوفيق أن الباحث لا يكاد يعثر على موضع من صميم الحقيقة اختلفت فيه الروايات، ويكاد يكون الاختلاف بينها محصوراً في الأمور التي أقحمت إقحاماً على موضوع القصة وحقائق أحداثها، مما نبهنا عليه وناقشناه في إسهاب، كتفسير (الخشية) والاختلاف في بيان المراد منها، وكأبطولة إرادة التردي من شواهق الجبال، وكنزول آيات أوائل سورة (اقرأ) مناماً، وما يجرى هذا المجرى في اختلاف الروايات، أو مما لم تكن البيئة مساعدة على تحقيق الحق فيه، كالاختلاف في سن البعث والإقامة بمكة، وجملة العمر النبوي المبارك مما حققناه بإسهاب رواية ومعنى، والتكلان على التوفيق.

موقف الأستاذ الشيخ محمد عبده من بلاغ الحزن اليائس

ومن أعجب ما عجبنا له في سبحات هذا البحث أن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ـ وهو حامل لواء الثورة الإصلاحية الدينية في هذا العصر على دعاة الأساطير والأبطولات الملصقة إلصاقاً بأصول الإسلام وفروعه في عقائده وتعبداته وتشريعه ـ يتقبل أبطولة الحزن اليائس، ويحكي مصدِّقاً أقصوصة إرادة التردي من رؤوس شواهق الجبال المنسوبة إلى رسول الله ﷺ في بلاغ معمر بن راشد عن شيخه ابن شهاب الزهري: ملحقاً بموضع واحد فقط من مواضع رواية البخاري في الجامع الصحيح المتعددة لحديث عائشة رضي الله عنها في (بدء الوحي).

والأستاذ الإمام محمد عبده كان من أعرف الناس بآثار هذه الأبطولات التي أقحمت إقحاماً على المعارف الإسلامية وروايات السنة المطهَّرة، وكان من أحق أهل العلم والمعرفة برعبلة وإنكار هذه الأقصوصة وبهرجتها وإظهار بطلانها، بما كان له من فضل في رجحان عقله، وسعة علمه، وثقافاته الأجنبية، ومخالطاته لدعاة تلك الثقافات، وبحوثه معهم فيما يتقولونه على الإسلام ونبي الإسلام ﷺ، وما يهتبلونه من وجود هذه الأبطولات التي

تنسب لنبيِّنا خاتم النبيين محمد ﷺ أشياء هو منها براء، وهي أبعد ما تكون عن ساحته، وما كان ويكون لأمثال هذه الزائفات من خطر داهم على عقول الخاصة والعامة، ولا سيما ما ينشر عن طريق الاستشراق والمستشرقين والتبشير والمبشرين من أكاذيب وافتراءات تعتمد على أمثال هذه الأبطولات ووجودها في كتب إسلامية لها اعتبارها ولها قدرها العلمي في ميزان المعارف الإسلامية.

فالشيخ محمد عبده يقول في تفسير سورة (والضحى): وقد جاء في الصحيح أن النبي ﷺ حزن لفترة الوحي حزناً غدا منه كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، ولكن كان يمنعه تمثل الملك له وإخباره بأنه رسول الله حقاً.

وأبطولة إرادة التردي من شواهق الجبال لم تكن حديثاً مسنداً موصولاً، وإنما هي بلاغ حكاه معمر عن شيخه الزهري دون إسناد، وقد أشبعنا القول في مناقشة هذه الأبطولة وبيان بطلانها سنداً ومتناً في بحثنا مع أبي بكر الإسماعيلي.

موقف ينبو عنه مقام الشيخ في علمه وفضله

فتسليم الشيخ محمد عبده لرواية هذه الأبطولة وتقبلها وإطلاق حكايتها عن الصحيح لم يكن مما يلايم مكانة الشيخ في فضله وعلمه واستنارة عقله، وعرفانه بالآثار السيئة والأخطار الداهمة لهذه الأبطولات على العقول التي تنظر في معارف الإسلام، لتعرف منها خصائص رسوله ورسالته الخاتمة لرسالات السماء، عسى أن تهتدي بهديه وهديها.

وكيف رضي الشيخ عبده لعقله وتفكيره أن يتقبل ويسلِّم أن النبي ﷺ وهو نبي ورسول من عند الله أن يبلغ به الحزن على فتور الوحي درجة تفقده معالم نبوته وعواصم رسالته، فيحاول أن يقتل نفسه يأساً من حياته؟.

هذا من أعجب العجب، وأعجب منه أن يجيء من عالم ملأ اسمه قلوب المتطلِّعين إلى تنقية دواوين الإسلام وكتبه مما أقحم عليها، وأدخل فيها بحسن نية أو بسوء نية، من الشيخ الإمام محمد عبده في عصر يحس فيه المسلمون في شتى أقطارهم بحاجتهم الشديدة إلى النهوض إلى معرفة دينهم

معرفة صحيحة خالصة من الشوائب الدخيلة، كما أتاهم به نبيهم محمد ﷺ، وتلقّاه عنه أصحابه صافياً نقياً من الأساطير والأباطيل.

وللشيخ الإمام مواقف محمودة كثيرة، كان فيها أسوة للذين يحاولون أن يردوا الدين إلى نقائه وحيويته في النهوض بالأمة، اجتهد فيها لدينه ولأمته، فليس يكفي في قبول الحديث عنده صحة سنده، بل لا بد في قبول ذلك من صحة المتن بعدم معارضته لدلالة العقل.

ومن ذلك أنه توقف في قبول حديث لبيد بن الأعصم في سحر النبي ﷺ الذي رواه البخاري، بل صرَّح برفضه والإنكار له فقال في تفسير الفلق: وأما الحديث فعلى فرض صحته هو آحاد، والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد، وعصمة النبي من تأثير السحر في عقله عقيدة من العقائد، لا يؤخذ فيها إلا باليقين، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون.

فهل كانت عصمة النبي ﷺ من تأثير السحر أعظم مقاماً ومكانة في العقيدة من عصمته من تأثير حزن يفقده معالم نبوته وعواصم رسالته، فيجعله يغدو مراراً لكي يقتل نفسه بإلقائها من أعلى شواهق الجبال حتى بعد أن تمثل له الملك وأخبره بأنه رسول الله حقاً؟ فإنه لم يكد يمتنع عما عزم عليه لتمثل الملك له، وإخباره له بأنه رسول الله حقاً حتى يعود مرة ومرة ليتردَّى من حالق جبل، كما يقول بلاغ الحزن اليائس.

وكلام الشيخ الإمام في موضعيه من تفسير سورة (والضحى) وتفسير سورة (العلق) صريح في إفادة أن فترة الوحي ـ التي زُعم فيها على النبي ﷺ أنه حزن حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من شواهق الجبال ـ هي الفترة التي كانت في ابتداء الوحي بعد مفاجأة الغار، ونزول أوائل سورة (اقرأ)، فليست هي الفترة التي كانت سبباً لنزول سورة (والضحى)، وأن هذه الفترة غير تلك كما تدل عليه ظواهر الحديث، وهو الذي ذهب إليه جمهور العلماء، قال الإمام ابن حجر في الفتح: والحق أن الفترة المذكورة في سبب نزول سورة (والضحى) غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي، فإن تلك دامت أياماً، وهذه لم تكن إلا ليلتين أو ثلاثاً.

تأثر الشيخ بكلام بعض السابقين في مدة فترة الوحي

بيد أن من يمعن النظر في كلام الشيخ محمد عبده قد يظهر له منه ما يفيد أنه جعل فترة الوحي الذي حزن فيها النبي ﷺ حزناً غدا منه مراراً للتردي من رؤوس الجبال هي فترة الوحي التي سبقت نزول سورة (والضحى) وكانت سبباً لنزولها، ، فَهُما في رأيه عند التأمل فترة واحدة، قال الشيخ: اتفقت الروايات على أن سبب نزول هذه السورة ـ أي سورة (والضحى) ـ هو حصول فترة في توالي الوحي على النبي ﷺ فظن أو توهّم، أو قيل إن الله تركه وقلاه. . . إلى أن قال الشيخ: وقد جاء في الصحيح أن النبي ﷺ حزن لفترة الوحي حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس الجبال، ولكن كان يمنعه تمثل الملك له وإخباره بأنه رسول الله حقاً.

فسوق الشيخ قوله: وقد جاء في الصحيح إلخ دليل على أنه يرى أن الفترة التي كانت سبب نزول سورة (والضحى) هي الفترة التي جاءت في الصحيح بلاغاً عن الزهري، وفيها الحزن اليائس الذي غدا منه النبي ﷺ مراراً كي يتردى من شواهق الجبال.

غلط الشيخ في سبب نزول سورة والضحى

ثم يقول الشيخ الإمام محمد عبده: إنه ليس في نسق السورة ـ أي سورة (والضحى) ـ ما يشير إلى أن المشركين أو غيرهم كان بعرض من الخطاب، ومن أين للمشركين أن يعلموا فترة الوحي فيقولوا أو يطعنوا؟.

أما الإشارة في نسق السورة ـ أي سورة والضحى ـ إلى أن المشركين كانوا بعرض من الخطاب، وإن كانت المواجهة به كانت لرسول الله ﷺ، وأنهم علموا فترة الوحي، فقالوا وطعنوا، فهي موجودة في أسلوب السورة وعبارتها وألفاظها.

ذلك أن القرآن الكريم كلام الله الحكيم الخبير، فأسلوبه وعباراته وألفاظه لا تقف عند سنن الإحسان البشري في براعة البيان، ولكنها تعلو فوق ذلك إلى درجة الإحسان الإعجازي، فلا يمكن أن يحل لفظ من خارج ألفاظ القرآن مكان لفظ من ألفاظه في نسقه البياني، لأن ألفاظ القرآن في نسق آياته هي التي وقع بها التحدي، وتم بها الإعجاز، فلا بد أن تكن ألفاظه متسقة أكمل اتساق مع المعاني التي قصد أداؤها بها، حتى كأن بين اللفظ

والمعنى نسباً وقربى دانية، وهذا يستبين بالموازنة بين أساليب البيان القرآني في تأدية مقاصده، فأسلوب البيان الزاجر المتوعد مغاير تمام المغايرة في ألفاظه القارعة لأسلوب البيان الموعد المرغب في ألفاظه الهامسة.

يلمح ذلك ويشعر به الناظر ذو الحس المرهف، والنظر الغواص المتعمق، فيحسُّه في جرس اللفظ ونسق العبارة واسترسال الأسلوب.

تحليل بياني يكشف عن سبب نزول سورة والضحى

فسورة (والضحى) بدأت بقسم من الله العلي الأعلى بأمرين متقابلين أكمل ما يكون التقابل: الضحى بإشراق ضوئه المشبوب المشع كالمتوقد، والليل في سجوه وتغطيته الحياة برداء إظلامه السّهوم، لتسكن بمن فيها وما فيها، وتخلد إلى أحضان الهدوء.

والقسم في القرآن الحكيم تنبيه وإيقاظ للمشاعر تدليلاً على أكمل العناية بالمقسم عليه لعزته وعلو شأنه عند المقسم ليكون كذلك عند المقسم له، وجاء المقسم عليه ردف القسم، فكان نفياً لتوديع أو ودع الله تعالى نبيه ﷺ، ونفياً لبغض الله العلي المتعالي لحبيبه محمد ﷺ.

والتوديع ترك خاص، فيه مفارقة وقطيعة بعد اجتماع ووصال، والودع ترك يشعر بالإهمال وعدم المبالاة، والقلى أشد البغض وأنكره، قد جعله القرآن الكريم عنواناً على أفظع أنواع الاشمئزاز والنفرة وأبشع الكراهية والبغض، فأجراه على لسان نبي الله ورسوله لوط عليه السلام في إنكاره على قومه واستبشاعه ما تسربلوه من أفحش الفحش وأسوأ السوء، فقال لهم: (إني لعملكم من القالين).

وإذ كان ذلك كذلك فلا يتسق مع جلال الأسلوب القرآني في روعة بيانه أن يخاطب الله تعالى نبيه محمداً ﷺ، وقد فتر عنه الوحي لسبب لا دخل لإرادته فيه، والوحي هو وصلته بالملأ الأعلى وطريقه إلى مشاهد ملكوت الله، واستجلائه آيات إبداعه في الكون ـ مغافصة دون تمهيد، مقسِماً أعز قسم بأنه لم يترك نبيه وحبيبه ترك قطيعة وإهمال، ولا أبغضه بغضاً يباعده عن مقامات قربه ومنازل شهوده، بعد أن أحبه حباً لم يُنله أحداً غيره

من خلقه؛ لمجرد أن الله تعالى أراد أن يلقيَ الطمأنينة في نفس نبيه ﷺ - كما يقول الشيخ الإمام - وهذه الفترة للوحي التي كانت سبباً لنزول سورة (والضحى) لم تكن هي فترة القلق والخوف والفزع عند النبي ﷺ حتى تحتاج إلى إلقاء الطمأنينة في نفس النبي ﷺ، ولو فرضنا أن تكون به ﷺ حاجة إلى إلقاء الطمأنينة في نفسه، فليس مما يتسق مع سنة الله تعالى في مخاطبته نبيه محمداً ﷺ أن يفاجئه الوحي إثر فترة لم تكن أسبابها باختياره بهذه الشدة التي يشعر بها التعبير بلفظ (ودّع) و(قَلَى) وإن كانتا في حيز النفي، والنبي ﷺ كان في حاجة إلى التلطف به في الخطاب لمسح ما ألمّ به من قلق وخوف وفزع - كما يقول الشيخ الإمام -.

والشدة التي لاقاها النبي ﷺ في بدء الوحي ومفاجأة الغار إنما كانت لاستفراغ بشريته من العلائق المادية، وإعداده روحياً لتلقي وحي اليقظة ونزول القرآن الكريم، وشهود عوالم الملأ الأعلى، الذي أنست نفسه الشريفة بمطالعة أنواره وشهود آيات إبداعه.

وقد تم ذلك كله له ﷺ على أتم وأكمل مراتب الوحي اليقظي والمنامي، وصار ﷺ يعيش حياته كلها متشوقاً إلى لقاء أمين الوحي جبريل عليه السلام، متشوقاً إلى ما يلقيه إليه من وحي الله وأمره ووصاياه، ولذلك قال النبي ﷺ لما نزل عليه جبريل بسورة (والضحى) بعد فترة خفيفة فترها الوحي، لم يأته جبريل فيها «ما جئت حتى اشتقت إليك» فقال له جبريل: وأنا كنت أشد إليك شوقاً. ولكني عبد مأمور.

وليست فترة الوحي القصيرة الخفيفة التي نزلت بسببها سورة (والضحى) تنافح عن رسول الله ﷺ وتنضح عنه رشح تقولات أعدائه من المشركين، كالفترة السابقة في بدء الوحي، وهي التي طالت وحزن فيها النبي ﷺ حزن تشوق وتطلع إلى مثل ما رأى وما فهم عن الله، وما ذاق من حلاوة الاتصال بوحيه، لا حزن يأس - كما زعمه الزاعمون - في تقبل بلاغ الزهري ومنافحتهم عنه.

وإذا كان الشوق يصحبه بمقتضى الطبيعة البشرية قلق نفسي، والقلق

يشوبه خوف وإشفاق، ألا تكون النهزة بلقاء المحبوب قد حانت، وقد يبلغ ذلك بصاحب الشوق والإشفاق مرتبة من التحذر وتأرجح التطلعات، وترقُّب الفرص شديدة، قد تبلغ به مضايق اليأس والقنوط، فتدفع إلى ما تدفع إليه من مواقف تخلخل الشخصية واهتزاز روابط التماسك في حيوتها، وتنزلق إلى عزيمة التخلص من الحياة.

عواصم النبوة أعظم من آثار القلق والإشفاق مهما كان مبلغها.

بَيْدَ أن هذا إن جاز على أي فرد من أفراد البشرية في مستوى الطبيعة التي لا يميزها عاصم من عواصم الامتياز المتسامي عن الانزلاق في حمأة الضعف البشري، فلن يكون أبداً مع تحقق النبوة وعواصمها، فالنبي ﷺ وإن كان بشراً من الناس في طبيعته الإنسانية، لكنه امتاز على سائر البشر بالوحي إليه واصطفائه بالنبوة، ولا بد أن يكون لهذا الامتياز أثره الواقي من انزلاقات الطبيعة البشرية، فلا يجوز عليه ﷺ ما جاز على غيره من أفراد البشر الذين لم تكن لهم خصائص هذا الامتياز الذي كانت النبوة والوحي عنواناً عليه، على ما جاء في القرآن الحكيم في قوله تعالى: ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ ﴾.

وما جاء في الصحيح من الحزن اليائس الذي زُعم على النبي ﷺ، وما رتبوه عليه من آثار في إرادته التردي من شواهق الجبال، لم يكن حديثاً مسنداً إلى النبي ﷺ بسند موصول موثق، ولا إلى أحد من السابقين الذين عاشوا مع النبي ﷺ هذه الفترة، وإنما جاء بلاغاً عن ابن شهاب الزهري رواه عنه تلميذه معمر بن راشد، وألحقه البخاري بجامعه إلحاقاً في موضع واحد من مواضع روايته حديث (بدء الوحي) عن عائشة رضي الله عنها، وهي مواضع متعددة، ولم يروه غير البخاري من الأئمة الثقات وجهابذة المحدثين، وقد أبطلنا هذا البلاغ الزائف في قول مسهب، ربما لا يخلو من تكرار بعض النصوص لتأكيد زيفه وبهرجته، لما يؤدي إليه من أضرار ومفاسد، كما أوضحناه في كلامنا مع أبي بكر الإسماعيلي.

وقول الشيخ الإمام: ومن أين للمشركين أن يعلموا فترة الوحي، فيقولوا أو يطعنوا؟ مردود بحديث جندب البجلي الذي رواه أصحاب

إنكار الشيخ علم المشركين بفترة الوحي التي كانت سبب نزول والضحى مردود بحديث البخاري وغيره.

الصحيح: البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن جرير.

ونحن نتوقف في الحكم على الشيخ الإمام أنه اطّلع على هذا الحديث المتفق على صحته، وترك العمل به، إذ لا مقتضى لذلك، ولو اطّلع الشيخ على هذا الحديث وعلى غيره مما يجري مجراه في هذا الباب لعلم يقيناً أن من المشركين من كان جيران سوء وعداوة للنبي ﷺ، وكان في طليعتهم عمه أبو لهب وزوجه العوراء الخبيثة أم جميل بنت حرب، أخت أبي سفيان، حمالة الحطب، كما سماها القرآن، وكان هؤلاء الأعداء جيران السوء يؤذون رسول الله ﷺ ويتسمعون عليه، ويرقبون مدخله ومخرجه، وصحوه ونومه، وسائر حركاته وسكناته، وبيوت العرب يومئذ لم تكن كثيفة الحجاب، تمنع المتسمع من السمع، وتحجب الناظر من اللمح، وتحول دون المترقب أن يعرف، وكانوا يسمعون إلى قراءته في جوف الليل إذا قام لصلاة التهجد، فلما اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم لصلاته ليلتين أو ثلاثاً، وفقد جيران السوء صوته ﷺ بالقراءة في هذه الفترة ظنوا به ظن السوء، وتقوَّلوا عليه بالبهتان ما تقولوا من الشماتة والطعن، فأنزل الله تعالى عليه سورة (والضحى) تنافح عنه، تلطفاً به وتثبيتاً لفؤاده، وردّاً لتقوُّلات أعدائه وشانئيه، وتحريكاً لعوامل الشوق والتشوف إلى مثل ما عهد ورأى وسمع وذاق من حلاوة الاتصال بالملأ الأعلى من طريق الوحي.

ونحن نسوق حديث جندب بلفظ البخاري ليتبين منه أن المشركين كانوا قد علموا بفترة الوحي التي كانت سبباً لنزول سورة (والضحى)، قال البخاري: حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا الأسود بن قيس، قال: سمعت جندب بن سفيان رضي الله عنه قال: اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة، فقالت يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قَرِبك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ والضحى والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى ﴾.

وهذا الحديث وإن لم يصرّح فيه بتعيين المرأة التي قالت للنبي ﷺ ما

قالت، لكن تعيينها بوصفها الخاص قد جاء في رواية الحاكم من طريق إسرائيل عن أبي إسحق، عن زيد بن أرقم قال: قالت امرأة أبي لهب لما مكث النبي ﷺ أياماً لم ينزل عليه الوحي: يا محمد: ما أرى شيطانك إلا قد قلاك، فنزلت ﴿والضحى﴾.

وما نظن أن الاختلاف الكثير بين الروايات في هذا الموضع هو الذي عدل بالشيخ الإمام عن الأخذ بهذا الحديث في إفادة علم المشركين بفترة الوحي، فقالوا ما قالوا، فأنزل الله تعالى ﴿والضحى والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى﴾ حفاوة بنبيه ﷺ، وردّاً لافتراءات أعدائه، لأن هناك قدراً يكاد يكون متفقاً عليه بينها، وهو أن سورة (والضحى) نزلت بسبب فترة الوحي أياماً قلائل لأمر عرض لرسول الله ﷺ، فتحدث بذلك المشركون، حديث الشامت العائب المعيِّر، وتحدث غيرهم من المؤمنين حديث المشفق، وشق ذلك على رسول الله ﷺ، فتداركه الله بلطفه وتثبيته وتكذيب أعدائه وشانئيه، وتطمين أحبابه المؤمنين بهديه ورسالته بإنزال هذه السورة الكريمة التي تجبّه المفترين بنفي ما زعموه، وتعدد نِعم الله الخاصة على نبيه وحبيبه، وتبشِّره بأنه ﷺ لا يزال يزداد شرفاً في رفعة قدره، وفضلاً في علو شأنه، وأن مستقبل أمره أجلّ قدراً وشرفاً من حاضره وماضيه، وأن إنعام الله عليه في نهاياته أعظم من إنعامه عليه في بداياته، وأن الحفاوة به في مدارج رسالته، ومصاعد حياته خير له من مطالع اصطفائه، وكأن الله تعالى يقول له ﷺ:

تتمة تحليلية لبيان روعة الحفاوة بالنبي ﷺ في سورة والضحى وألم نشرح

فأنت أيها الحبيب لا تزال في إنعام يتلوه إنعام، ونعمة تتبعها نعم، منشورة مذكورة، تتحدث بها الحياة معك، لتكون قرة عين لك، ولمن صدقوا الإيمان بك، وغصصاً تعترض أنفاس شانئيك وجاحدي قدرك حسداً من عند أنفسهم ليموتوا بغيظهم، ويشرقوا بغصصهم، ألم أرفع لك ذكرك، فلا أذكر في أشرف مواضع ذكري إلا ذكرت معي؟ أوَلم أجعل الإيمان بك وتصديقك في رسالتك مشاطراً للإيمان بإلاهيَّتي فلا أقبل توحيدي إلا مقروناً بالاعتراف برسالتك، ولا أقبل تعبُّدي إلا من طريق دعوتك، أنت عبدي ورسولي إلى خلقي، اخترتك يتيماً فآويتك وتوليتك بكنف ربوبيتي، وحليتك

برحمتي، وجعلت خيرتك في أودية عبادتي، وقد عرفتني رباً كريماً وإلهاً أحداً فهديتك بنبوتي إلى محابِّ عبادتي، وباعدت بينك وبين الدنيا فلم أشغلك بها عني، فكنت فقيراً من حطامها فأغنيتك بي عنها، فكنت لي وحدي، فاليتامى ولائد نفسك، والسائلون ربائب حسك، فاعلم وعلِّم وتحدَّث بنعمة ربك ما شاءت لك عظمة خُلقك ﴿ وإنَّك لعلى خُلُق عظيم ﴾.

مِنْ غَارِ حِرَاء إلى غَارِ ثَوْر

سير الرسالة إلى غايتها
فـــي مـــدى هـــذه الخطـــوات المعـــدودة
تم بناء أعظم رسالة إلى الحياة
الكفاح الصبور والصبر المكافح هما مادة بقاء هذه الرسالة
وعنصر نمائها وسر خلودها

بين حراء وثور تم بناء صرح الرسالة الخالدة الخاتمة

بين طرفي مكة من الشمال إلى اليمين على قيد خطوات فلكية من غار حراء ـ على نحو فرسخين من شمال مكة على طريق الذاهب منها إلى منى ـ إلى غار ثور ـ على نحو ميلين من يمين مكة، على طريق الذاهب منها إلى اليمن ـ مشى الزمان بخطا يسرع مرة فيوسعها ويتئد أخرى فيقيدها، وهو يشهد بكل ما فيه من وعي وقوة ويقظة بناء صرح الرسالة الخاتمة الخالدة، رسالة محمد ﷺ، عقيدة وتأصيلاً في كفاح صبور وصبر مكافح على مدى عشر سنين، منذ بدأت أنفاس الرسالة تستهل وجودها في الحياة، وتتنزل آياتها على قلب محمد رسول الله ﷺ في أعظم لقاء وأخطر مواجهة، تمت بين مصطفى الملأ الأعلى أمين أمناء الوحي جبريل عليه السلام، ومصطفى الكمال البشري أمين أمناء الله في تلقي كلمته محمد ﷺ؛ بعد اكتمال نبوته في مرحلتها الانفرادية بمراتب وحيها الخاص في مدى ثلاث سنين قبل استهلال الرسالة، لتكون تمهيداً لانطلاق الإنسانية إلى غايتها المقدورة لها في مدارج الكمال الفكري والاجتماعي مظللاً بإشراق الروح واستقامة العقل.

ولما اكتمل البناء العقيدي لهذه الرسالة الخالدة، ورسخت دعائمه، وتضافرت دلائله وبراهينه وتظاهرت آياته، تهاوت في سفحه الوثنيات متهالكة، تلفظ آخر أنفاسها، وقامت منائر التوحيد تعلن عن جلال الله تعالى وكبريائه، سامقة سامية، مشرقة مضيئة ـ تنادى الشرك بوثنياته

مستصرخاً جنده، جند الشيطان في بأس بليد، وتدبير جازم أثيم، وعناد جحود، توهماً من ذوي الرؤوس الخاوية والبطون المكتظة أن يصدوا بنفخ أفواههم تيار الإيمان بالحق، وهو يجري في محيط الحياة مزمجراً كاسحاً أوضار الوثنيات البليدة، شامخاً بعرنينه الأشم، باذخاً بفضله، فتخيلوا وخالوا، وتوهموا، وائتمروا وتجمعوا ليبلغوا أرباً صورة الحقد الكفور.

وكان رب محمد ﷺ لهم بالمرصاد، فأبلغه مكرهم وكيد تدبيرهم، وحاطه بعنايته، وتولاه برعايته حتى أبلغه مأمنه، وآواه إلى كنفه، وكنفه بمعيته في نهاية المقام التأسيسي لرسالته، وأدخله آمناً، بصحبة صدِّيقه في غار ثور على بعد خطوات من غار حراء حيث بدأ نور الرسالة يسطع هادياً مشرقاً، إذ بشَّره بنصره وإعلاء كلمته ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه، وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى وكلمةُ الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾[1].

الدعامة الأولى للرسالة الخالدة هي الكلمة بأكمل أوصافها

كانت الدعامة الأولى في بناء صرح الرسالة الخاتمة الخالدة، رسالة محمد ﷺ هي (الكلمة)، وهذه (الكلمة) في حقيقتها الإلَهية، ومكانها من الرسالة، وواقعها من تاريخ الحياة كانت أضخم عنوان لأعظم حقيقة في وجود الحياة الإنسانية (وتطورها). هذه الحقيقة هي (العلم) بأوسع ما يمكن أن يتصوره خيال، أو يتسع له واقع الحياة في الوجود.

وكانت تلك (الكلمة) التي قام عليها بناء الرسالة الخالدة (اقرأ) وهي كلمة تعني في بنائها الخَلْق والإبداع، وتعني الخالق المبدع، وتعني مسرى هذا الخلق والإبداع.

وهي دعامة غريبة عجيبة، لم يسبق لها وجود في بناء الرسالات الإلَهية التي سبقت رسالة محمد ﷺ، ولم يعرف تاريخ الرسالات الإلهية أن رسالة منها قام أساس بنائها على (الكلمة)، وهي في منطوقها كلمة واحدة، ولكنها بمضمونها تنطوي على حقائق الحياة والكون.

---

(١) سورة التوبة آية (٤٠).

هذه الكلمة (اقرأ) التي كانت مفتتح وحي الرسالة الخاتمة الخالدة، وكانت دعامة صرحها هي في نظر العقل دعامة عجيبة غريبة في جو مجيئها، لأنها كانت نبعاً نميراً في صحراء الحياة القاحلة الجدبة حساً ومعنى، فقد تفجرت من هذا النبع النمير عيون حياة جديدة، عريضة مخصبة، مادة وفكراً وروحانية، وسعت الدنيا بأقطارها وحذافيرها، عدلاً، ورحمة، وهدى، ونوراً، وعلماً، ومعرفة، وإصلاحاً، وخيراً، وبركة.

بل كانت تلك (الكلمة) بذرة دوحة في غيضة معشوشبة بغير زهر ولا ثمر، ولكنها ـ وهي تسقى من السماء ـ نمت جذورها، وتسامت أفنانها، وسمقت أغصانها وأزهرت فروعها، وأينعت ثمارها، وآتت أكلها كل حين بإذن باريها ومبدعها.

بل كانت تلك الكلمة شمساً في أفق الحياة أشرقت بأضوائها آفاق الكون، فأنارت الوجود على رحبه، وأدفأت المقرورين بحرارة أشعتها، وهَدَت الحيارى الشاردين من لفح المظالم في لذعات سموم الطغيان والاستبداد الظلوم، إلى ظل من العدل المواسي والتعاون المبرور والإخاء الكريم.

وهي دعامة عجيبة غريبة عن طبيعة الحياة التي اختيرت أرضها لتكون مثابة لبناء صرح هذه الرسالة الخاتمة الخالدة، تلك هي أرض العرب ومستوطنهم في شبه جزيرتهم عامة، وأرض مكة في حجاز الجزيرة خاصة، وهي أرض لم تسمع آذان أهلها قط هذه الكلمة، ولا عرفوا معناها ومرماها، ولا خطّت شناترهم حرفاً من حروفها، فهم أمة أمية شبوا وعاشوا على المعارف الفطرية لا يقرؤون ولا يكتبون.

وهي دعامة عجيبة في اختيارها ليرتكز عليها بناء أعظم رسالة إلهية عامة، تخرج من أودية أمة أمية، لتخاطب دنيا الإنسانية في جميع أبنائها أينما وجدوا من أرجاء الأرض، لتخرجهم من ظلمات الجهالة إلى نور العلم وضياء المعرفة، وفي أرض الإنسانية بعيداً عن هذه الجزيرة اليابسة في تفكيرها، الجافة في عيشها، علمٌ ومعرفة ونظم.

وهي دعامة عجيبة غريبة عن طبيعة النشأة التي نشأ عليها من اختير لحمل أمانة شرفها في بيئته وبلده، وقومه ومجتمعه، ذاك الأمين الأمي محمد ابن عبدالله القرشي المكي، الذي شرَّفه الله مخاطباً بهذه الكلمة (اقرأ) فجأة دون تمهيد في أغرب وأعجب لقاء مع أمين أمناء الوحي جبريل عليه السلام، إذ يدخل عليه في متعبده من جبل حراء، وهو وحيد، يسبح بفكره متأملاً في ملكوت الله، مطالعاً آيات ربه في مظاهر الكون وعجائبه، فيقول له أول ما يواجهه (اقرأ).

وليسبح الخيال ما شاء في تصوير هذا الموقف وأثره من الدهشة الصادقة، ولكنه لن يجد في موقف محمد ﷺ الهزة التي تقتضيها غرابة المفاجأة، ومفاجأة الطلب، بل سيجد رسوخاً في هدأة الرد على هذا الطلب العجيب الغريب، متمثلاً في صراحة الصدق، وصدق الصراحة، إذ يقول ما يجب أن يقال، متمشياً مع الحقيقة في واقع الحياة التي شب عليها في بيئته العامة والخاصة: (ما أنا بقارىء) يقصد إلى بيان أمره، ويترجم عن حاله في بيئته وبلده ومجتمعه، ونشأته إزاء هذا الطلب العجيب الغريب، وكأنه ﷺ يقول في رده الصادق الهادىء: «أنا ما كنت قط في حياتي قارئاً، وما كان لي من علم بقراءة، ولا خط يميني بقلم على قرطاس حرفاً قط، فكيف يُطلب مني أن أقرأ؟». وجاءه الرد الحاسم بعد مخض الإعداد، فقيل له: ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ فقرأ مستعيناً باسم ربه من لم يكن قارئاً بتعلُّم، وأصبح الأمي الذي لم يتعلم كما يتعلم الناس علِيماً معلِّماً للدنيا، وصار (الأمي) بفطرته ونشأته صاحب سر الكتاب في كلمته (اقرأ)، وكانت قراءته إعجازاً تكوينياً، جمعت في لفظها المفرد جميع ما في سطور كتاب الكون من فيض ومدد.

* * *

تبيان وتحليل لاختيار الكلمة دعامة للرسالة الخالدة

والكلمة المقروءة لا بد أن تكون مكتوبة، ومن هنا كان اختيار كلمة (اقرأ) لتكون بما فيها من ومض الروحانية العليا دعامة لأساس رسالة محمد ﷺ، وهي رسالة عامة شاملة، خاتمة مهيمنة، فلا بد أن يقوم صرح بنائها على دعامة لها سر خلودها، دعامة فينانة، لا ينفد ماء نبعها، ولا

ينقطع مددها، أبدية الرفد، سرمدية الصفد، لا ينضب معينها، ولا ينشف عودها، ولا تيبس جذورها، فهي غضة نضرة ما بقيت الحياة، وهي دانية القطوف، ولود ودود، ظلُّها ممدود، وأثرها في الحياتين محمود.

وكان لا بـد للاستعانة على تحقيق ما ليس بممكن نشأة وفطرة من تهيئة الجو للوجود إبداعاً، والإبداع أبلغ في الاقتدار، وأوسع مدى من إمكان النشأة والفطرة، ولهذا قيل للأمي بنشأة الفطرة: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق ﴾ فمجيء اسم (الرب) في مقام الاستعانة هنا له خصيصة الإيجاد المتدرج، والإبداع المترسل، لأن مادة لفظه مشتقة من نبعة التربية، وهي التي يرمز إليها إيجاداً وإبداعاًوعملاً اسم (الرب) المقتضي بمعناه تتابع التكوين المتدرج في تعهد مصلح، ورعاية سابغة.

وفي إضافة الاسم الكريم إلى عنوان الخطاب الموجه لأخص مخاطَب سرٌّ الاختصاص في مقام الاصطفاء.

ووصفُ (الرب) في شمولِ ما دلَّت عليه مادة اللفظ من التربيـة والتعهد المصلح؛ بأنه الذي خلق، والخلقُ في مقام عدم الإمكان الفطري إبداع لم يسبق بمثال ـ تأنيسٌ بإمكان تحقيق ما ليس بممكن في مألوف الطبائع لتقبله النفوس مطمئنة إلى قهر الاقتدار الإلٓهي والإبداع الرباني مع ودادة اللطف وتحبب الرحمة.

ودائرة الإطلاق فسيحة الجنبات، مترامية الأطراف في تصور الخيال، وسيعة الأرجاء في ساحة الإمكان، ربما تاهت في معالمها ذاكيات العقول، وقُرّح الفِكَر، بل ربما ضل في متائهها ومنعرجات مسالكها حذاق الأدلاَّء، وبصراء الخرِّيتين، فتقييد دائرة الإطلاق ببعض منازله وأقرب منادحه تقريب لآفاق الرجاء في الوصول إلى منائر الهداية ومعالم الرسالة.

وأقربُ منادح الخلق إبداعاً، وأدنى منازله إيجاداً خَلْقُ الإنسان، لأنه أقرب إلى نفسه وأدنى إلى حسه من كل دان قريب.

ومن هنا جاء تقييد الخَلْق في هذا المقام بخلق الإنسان، فقيل بعد

الإطلاق (خلق الإنسان)، وخلقُ الإنسان قد يساق على أنه إعجاز في الاقتدار، وقد يساق على أنه آية اقتدار في مقام الاستدلال ومنطق البرهان، واقتدارُ الإعجاز خارج عن دائرة منطق البرهنة والاستدلال، فلم يستدعه المقام. والاقتدارُ في مقام البرهنة ومنطق الاستدلال هو المقصود هنا بالبيان، ومن ثَمَّ جاء التقييد بعد الإطلاق، فقيل ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾.

ومهما تصرفت العقول والأفهام في معنى «العلق» لغة ومعرفة، ومهما كشف العلم من حقائق خلق الإنسان، ومنشئه في تقدير الله تعالى من هذه المادة، فإن خلقه منها ـ وجعلها مصدر إبداعه ـ وهو الكائن الذي خلقه الله في أحسن تقويم وأجمل صورة، وأعطاه فوق ذلك من سبحات إدراك عقله، وإشراق روحانيته، واستضاءة قلبه بنور الإيمان إذا لم تختلسه خُنَّس الشياطين ـ أمرٌ بيِّن في دلالته على الاقتدار الذي يقرب إلى مدارك العقول إمكان تحقيق ما كان من طلب ما لم يكن فطرة وتعلُّماً، فكان إعجازاً ومنَّة حققها الاقتدار الرباني بكرم الإنعام والرحمة.

وفي تخصيص الإضافة هنا بخصيصة الخطاب عينُ ما كان فيها عند مطلع المفاجأة بطلب القراءة؛ حيث قيل للمخصوص بالخطاب: ﴿اقرأ باسم ربك ﴾ من سر الاختصاص بالاصطفاء المحمدي لحمل أمانة شرف الرسالة الخاتمة الخالدة.

واختلافُ القيد هنا باختلاف الوصف عنه هناك آيةٌ على أخص مراتب الرعاية الربانية بمحمد ﷺ في مشرق رسالته، توطيداً لأكمل مراتب اليقين في نفسه ﷺ، حتى يكون إيمانه برسالة نفسه آية إعجازه في مستقبل حياته وإعداداً له لتحمل ما سَيَلْقى في سبيل تبليغ رسالته.

فقد كان الوصف هناك للاسم الكريم (الرب) في مطلع المفاجأة وطلب القراءة بالخالقية إطلاقاً وتقييداً، ليكون مظهراً للاقتدار الإبداعي، والإعجاز الامتناني. وجاء الوصف هنا للاسم الكريم (الرب) ببسط أردية الكرم الرباني على الحبيب المصطفى في أبلغ صوره وأعلى منازله، تحقيقاً لأرفع درجات الرعاية الروحانية والحفاوة السابغة التي لا تنتهي إلى غاية، تيسيراً

بأبدية التأييد الأكرم في خلود الرسالة، فقيل له: ﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾.

ثم جاء الوصف الثاني هنا بما يجري في طبيعة الحياة مجرى الإلف والتعلم بالتعليم مع الامتنان بوسيلة هذا التعلم بالتعليم، وحذف متعلق فعل التعليم، فلم يذكر المتعلم إخراجاً للامتنان عن دائرة التخصيص إلى آفاق التعميم المطلق، إظهاراً لفضل رب محمد ﷺ الأكرم على أمة محمد ﷺ ـ وأمة محمد هنا في مقام الدعوة والامتنان الأعم الأشمل هي الإنسانية كلها ـ انسياباً من فضله عليه، فقيل: ﴿ الذي علَّم بالقلم * علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

فهذا امتنان عام على الإنسانية كلها ـ وهي مدعوة إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ، أينما وجد منها فرداً وجماعة ـ منذ علَّم الله تعالى أنموذجها الأول آدم عليه السلام، تعليم استعداد مفطور، جعله في جبلته، واستجلى ظهوره في ذريته جيلاً بعد جيل.

بيد أن الله تعالى ادخر التعبد بشكره على هذه النعمة الشاملة لتقوم به خير أمة أخرجت من ضئضىء آدم عليه السلام، لتكون حاملة لأرفع أمانات التكليف التعبدية وهي أمانة (العلم) في أوسع مستوياته وأرحب ميادينه، وأعم فنونه ونظرياته، وأعمق حقائقه الكونية، وما عُبِد الله تعالى، ولن يُعبد بأجل وأعظم من عبادته بالعلم المؤمن.

* * *

وقد جرينا في بحثنا على أنَّ نزول الآيات الخمس من أول سورة (اقرأ) كان بدءاً لرسالة محمد ﷺ واستهلالاً لميلادها، ومفتتحاً لوحي نزول القرآن يقظة وهو أجلّ مراتب الوحي.

تقدم النبوة على الرسالة

وكانت نبوة محمد ﷺ متقدمة بمراتب وحيها وبين يدي رسالته، وكانت الرؤيا الصادقة في النوم أولَ مراتب وحي النبوة ـ كما هو صريح حديث عائشة في كيف بدأ الوحي ـ وقد تتابع وحي النبوة في دائرتها وزمنها حتى جاء وحي الرسالة في اليقظة بنزول القرآن الكريم وفجىء الحق، ومجيء الملك في

غار حراء، فاستقرأه وغطه، وأوحى إليه ما أوحى من آيات القرآن الكريم.

فالنبوة كانت توطئة وتمهيداً للرسالة، وإعداداً لشخصية النبي ﷺ روحياً لتلقي وحي الرسالة والاقتدار على حمل أمانتها تنزلاً في جميع مراتب وحيها، وتبليغاً في عمومها وشمولها زمناً ومكاناً وأجيالاً وأحوالاً وحقائق عقيدية، وتشريعات تعبدية ونظماً اجتماعية، وطرائق سلوكية، ومعارف فكرية، وتجارب عملية.

حقيّة النبوة وحقيقتها

والنبوة حالة شخصية من التربية الإلٓهية بالوحي الخاص إلى من يصطفيه الله تعالى لمقامها من عباده، فهي تقصد إلى تربية بعض الأفراد وتهذيبهم تهذيباً يرفعهم فوق مستوى أفراد بيئاتهم وأحوال مجتمعاتهم في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، ليكونوا بسلوكهم أسوة لمن تؤهله فطرته للتأسي بهم في حياتهم وموارد سلوكهم ومصادره.

فهي صورة من صور الوحي الإلٓهي لا تعتمد تكليف التبليغ الذي إذا وقع فلا يقصد به الدعوة الواجبة وجوب التكاليف العقيدية والتعبدية، والتزامُ أصول الفضائل عملاً إيجابياً واجتناب الرذائل كفاً سلبياً، فالتبليغ إذا لم يكن شرطاً في تحقيق وحي النبوة فإن عدمه ليس شرطاً في وجود النبوة.

فالنبي ـ مطلق النبي ـ إنسان يختصه الله بتربيته وتهذيبه والإيحاء إليه بالتزام شرع إلٓهي موجود، أو منشأ إنشاء ليعمل به في نفسه، مرتفعاً بها عقيدة وسلوكاً إلى آفاق تضعه فوق مستوى الفضائل الإنسانية في قومه ومجتمعه.

بيد أنه لا يمكن أن يتصور أن يوجد نبي في بيئة ومجتمع بشري منحرف في عقائده وتعبداته وسلوكه الاجتماعي، وتشيع في جنباته المظالم والفواحش والأسواء وهو يرى ويسمع وهو قادر على أن يأمر بالخير وينهى عن الشر ثم يسعه السكوت والاعتزال، فهذا بعيد عن التصور، ولا مناص لمن يَعْلم الخير والشر بتعليم الله تعالى من أن يدعو إلى فعل الخير وينفر من مقارفة الشر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولو كان غير مكلف تكليفاً تبليغياً خاصاً بهذه الدعوة.

فالنبوة ليست مرتبة سلبية من مراتب السلوك في الحياة، ولكنها مرتبة عملية إيجابية خاصة ليس لها أثر تكليفي بوجوب التبليغ، وإنما أثرها المباشر في التهذيب الخاص والتربية الشخصية، وقد يتعدى أثرها صاحبها بالتأسي به والاقتداء بأعماله وسلوكه في عموم دعوته إلى الخير والتنفير من الشر دون تكليف بالتبليغ.

كلام ابن تيمية في النبوة

يقول الإمام ابن تيمية في كتاب (النبوات): فالنبي هو الذي ينبئه الله وهو ينبىء بما أنبأه الله - أي دون تكليف تبليغ - فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول، قال الله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾[1] وقوله: ﴿ من رسول ولا نبي ﴾. فذكر إرسالاً يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول، فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله... فأولئك الأنبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلون ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم، لكونهم مؤمنين بهم، كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول.

فالأنبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره، وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله به من الخبر والأمر والنهي، فقوله: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ﴾ دليل على أن النبي مرسل، ولا يسمى رسولاً عند الإطلاق، لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفون أنه حق كالعالم ولهذا قال النبي ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء».

* * *

حقيقة الرسالة ومعناها والفرق بينها وبين النبوة

أما الرسالة فهي إعداد وتكليف، إعداد لمن يصطفيه الله تعالى لهذه المكانة السامية من مراتب السمو البشري، بتعهده وتربيته تربية سلوكية يكون بها أكمل مجتمعه في خصائصه النفسية وفضائله الإنسانية، وخلائقه

(١) سورة الحج آية (٥٢).

البشرية، وهذا الإعداد هو معنى قوله تعالى: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾.

وتكليف يلزمه العمل عقداً وحركة بجميع ما يوحى إليه، وتبليغ ما يؤمر بتبليغه من حقائق رسالته إلى من كُلِّف تبليغهم.

وتبليغ الرسالة ليس مجرد عرض لهدايتها وحقائق وحيها، وإنما هو عرض يستلزم بياناً يبلغ من العقول مكامن اليقين والإقناع الذي لا تبقى للشبهة معه مكان، ومن هنا كان تبليغ الرسالة أول مراتب الجهاد، فهو جهاد بالحجة، وهو جدل تتوالى دلائله وتتّابع براهينه في جانبي الأمر والنهي، والطلب والترك، والإيجاب والسلب، سلباً في النهي عن الانحرافات العقيدية والتعبدية، والسلوك الاجتماعي في الأخلاق والمعاشرة والمعاملات بما يجب أن يفضي إلى القضاء على الانحرافات، ويقوض أسسها، ويهدم دعائمها المعشثة في أوهام المدارك، ويمسح آثارها من لوح الحياة وواقع الوجود.

وإيجاباً في الأمر وطلب ما يجب أن يملأ فراغ العقول والقلوب والأرواح من عقيدة مستقيمة النهج يسيغها العقل ويثبتها، وينصرها الحس ويهضمها، ويرحب بها الوجدان ويتقبلها، ويهش لها الضمير الإنساني ويتشربها، وتعبدات ترتاح لها الفطر السليمة النقية، وأخلاق يرتضيها الشعور الإنساني المهذب، ومعاملات يسودها العدل ومودة الإخاء الإنساني، ومساواة في الحقوق والواجبات الإنسانية، وتراحم مواس، مع التذرع بالصبر المكافح، وعزيمة احتمال الأذى وفادح البلاء.

وقد يفضي الأمر بالمرسلين إلى جهاد المدافعة لأعداء الله وأعداء رسالاته المتربصين لتعويق سير دعوتهم إلى أهدافها من العقول والقلوب والأرواح.

وجهاد المنحرفين المعوقين لسير دعوات الرسل شرعة جميع الرسالات الإلهية، لكنها قد تختلف في أسلوب هذا الجهاد، وتتفاوت في تقدير أسبابه وعوامله وطبيعته وآثاره ونتائجه التي يقف عندها.

دليل تقدم نبوة نبينا محمد ﷺ على رسالته

وتقدم نبوة نبينا محمد ﷺ على رسالته مذهب كثير من أئمة العلم في الإسلام، وفي حديث عائشة رضي الله عنها الذي يدور عليه (بدء الوحي) ما يدل صراحة على هذا التقدم، فقد جاء فيه قولها رضي الله عنها: كان أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخَلَاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة ويتزود لمثلها حتى فجئه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال (اقرأ).

وموضع الدلالة من هذا الحديث على سبق النبوة وتقديمها زمناً على الرسالة واضح في قول عائشة رضي الله عنها: كان أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة - أو الصالحة - وهذه الرؤيا هي أول مراتب وحي النبوة التي دخل بها محمد ﷺ ساحة الامتياز البشري والإعداد الروحاني الخاص توطئة وتمهيداً لمجيء الرسالة وتحمل أثقالها، ويؤكد هذه الدلالة قولها رضي الله عنها: ثم حُبِّب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء.

تحبيب الخلاء إلى النبي ﷺ بعد النبوة إعداد نفسي خاص لتلقي الرسالة

وهذا الخلاء الذي حُبِّب إليه ﷺ بعد أن نبىء كان لوناً من الإعداد الخاص، وتصفية النفس من علائق المادية البشرية إلى جانب تعهده الخاص بالتربية الإلٓهية والتأديب الرباني في عموم أحواله، وهذا الإعداد الخاص أعظم درجة في آفاق الترقي الروحاني مما روي عنه ﷺ أنه كان يخلو قبل نبوته للتعبد بالتفكر - فيما رجحناه - في بديع ملكوت الله، والنظر في آياته الكونية الدالة على بديع صنعه ووحدة وجوده، وعظيم اقتداره، ومحكم تدبيره، وعظيم إبداعه، وبما بقي نقياً من آثار شريعة جـديه ابـراهيم وإسماعيل، وأخص ذلك وأعرفه ما كان يداوم عليه ﷺ من تعظيم الكعبة المشرفة، بالطواف حولهـا إذا عاد من خلوته كما جاء في حديث عبيد ابن عمير: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهراً، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية - والتحنث التبرر - وكان يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من شهره ذلك

كان أول ما يبدأ به انصرافه قبل أن يدخل بيته الكعبة فيطوف سبعاً أو ما شاء الله، ثم يرجع إلى بيته.

لأن هذا الخلاء الذي كان قبل التحنث الخاص قبيل مجيء الملك كان أثراً من آثار طهارة الفطرة التي فطر عليها النبي ﷺ، وسلامتها ونقائها من تأثرات البيئة، أما خلاؤه في غار حراء الذي حُبِّب إليه بإلهام إلهي بعد أن نبىء فهو وسيلة ربانية اختارها الله تعالى لعبده محمد ﷺ، طريقة من طرائق التعهد التربوي لإعداده ﷺ لتحمل ما ينتظره من أعباء الرسالة، وأثقال تنزلها وفدائح تبليغها، ولهذا جاء التعبير عنه في الحديث بـ(حُبِّب إليه) للإشعار بأنه أمر روحاني، وجه إليه ﷺ توجيهاً إلهياً خاصاً، وإلهاماً ألهمه ليكون تمهيداً للقاء الملك، وليس امتداداً للخلاء الفطري، الذي كان يقصد به ﷺ اعتزال قومه، وتنائيه عن جاهليتهم، وكأن هذا الاعتزال تعبير منه ﷺ عن إنكاره لما كان ينغمس فيه مجتمع الجاهلية من ضلالات الشرك والوثنية، وتباعد عن أسوأ اعتقاداتهم وأباطيلهم كما كان يفعل بعض الحنفاء فيما يرويه التاريخ.

حكمة اختصاص غار حراء لخلوة النبي ﷺ

وقد ذكر القسطلاني في المواهب اللدنية ناقلاً عن ابن أبي جَمْرة حكمة اختصاص تحبب الله تعالى إلى رسوله ﷺ الخلاء في غار حراء دون غيره من الأماكن التي تصلح للخلوة، وهي كثيرة في جبال مكة ووديانها فقال مع بعض التصرف للبيان:

أولاً ـ إن غار حراء منزوٍ في انعطاف وميل عن طرق مرور الناس عليه، وهذا الوضع يزيد في تمكن المختلي فيه من البعد عن الناس وضوضاء الحياة، ويساعده على عدم مخالطتهم والتفرغ للتعبُّد، وهي أمور كان يقصد إليها النبي ﷺ في خلائه وتعبده بالتفكر في مصنوعات الله وبدائع ملكوته.

ولا شك أن البعد عن الناس وحركاتهم في تقلباتهم لطلب مصالحهم ومعاشهم أجمع للفكر وخواطر القلب، وأبلغ في عمق التفكر والتأمل، وأقرب إلى التهدي.

ثانياً ـ إن هذا الغار يقع في موقع يبصر منه المعتكف فيه بيت الله

المحرم ـ الكعبة المشرفة ـ والنظر إلى البيت الحرام عبادة، تذكر بأعظم متعبد بقي على تقلبات الحياة وصروفها، وقد طاول الزمن وغالبه، فاستطال عليه وغلبه، لأنه الأثر الثابت تاريخياً من تراث أبي الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، وابنه إسماعيل، وهما جدّا محمد الأعلَيَان، إليهما يرتفع نسبه الشريف المحقق.

وقد بقي التعبد بتعظيم هذا البيت، والطواف حوله سنة متبعة من سنن الرسالات الإلٰهية التي أحيت رسالةُ محمد ﷺ معالمها الأصيلة، فجعلت من الطواف حول هذا البيت وتعظيمه أحد أركانها وشرعة في منهاج تعبداتها.

وبالتأمل فيما ذكرنا يتبين أن الخلاء في غار حراء يجمع ثلاث عبادات كانت كلها محققة ومقصودة للنبي ﷺ في خلائه به.

أولاها: الخلوة التامة التي لايعكر صفوها صخب الحركة وضوضاؤها، يقول الزرقاني وهو يفسر الخلوة ويوضح ثمارها ونتائجها: هي أن يخلو عن غيره، بل وعن نفسه بربه، وعند ذلك يكون ـ أي المختلي ـ خليقاً بأن يكون قالبه ممراً للواردات من علوم الغيب، وأن يكون قلبه مقراً لها، وناهيك بالخلوة من عبادة!! لأنها تفرغ القلب من الشواغل، وتقطع المختلي عن الخلائق، وتريحه من شواغل الدنيا، وتفرغ المختلي لله تعالى، فيجد الوحي فيه متمكناً.

ثانيتها: التحنث، وفسر في حديث عائشة بالتعبد، وتقييده في الحديث بالليالي ذوات العدد ليس قيداً في حقيقته، وإنما هو قيد لواقعه في تحنث النبي ﷺ، وفسر في حديث عبيد بن عمير بالتبرر، ومعناه فعل البر والطاعة، وهو بمعنى التعبد.

ثالثتهما: النظر إلى بيت الله المحرم، وهذا النظر عبادة، لأنه مذكر برب البيت، ومذكر بأعظم عمل مبارك قام به خليل الله إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام في رفع قواعد هذا البيت المعظَّم، استجابة لأمر الله تعالى.

وفيه سر آخر يكمن في اختصاص هذا البيت بنسبته الخاصة إلى رب العزة عزّ شأنه وإجذاب القلوب إليه، وتعلق الأرواح به. وقول القسطلاني في شرحه لصحيح البخاري: إنما كان يخلو بغار حراء دون غيره لأن جده عبد المطلب كان أول من كان يخلو فيه من قريش - وكانوا يعظِّمونه لجلالته وسنه، فتبعه على ذلك، فكان يخلو بمكان جده - كلام ما كان ينبغي أن يذكر، ولا يستأهل أن يعرج عليه في سيرة أكرم الأنبياء محمد ﷺ، لأن الله تعالى عصمه منذ تولاه برعايته وآواه إلى كنفه عن متابعة جد أو أب أو عم ممن عاشوا وماتوا قبل بعثته.

وتعظيم قريش عبد المطلب جده ﷺ لمكانته بينهم وسنه فيهم إنما كان تعظيماً قومياً جاهلياً، لا يعبأ الله به، فلا يمكن أن يترك الله نبيه ﷺ؛ وهو الحفي به، المتولي بلطفه ورعايته تأديبه وتسديده في حياته كلها من مهده، وليداً وطفلاً، وناشئاً، وشاباً، ورجلاً كهلاً، ونبياً ورسولاً، ليتابع جده ويتأسى به في تعبده ومعرفة جلال خالقه، فيختار مكان تعبد هذا الجد - إذا صح أن هذا الجد كان يتعبد في هذا المكان - ليتحنث فيه، ولا سيما في التحنث الذي حُبِّب إليه بعد الرؤيا الصادقة التي جاءته بها النبوة.

وإذا كان عبد المطلب قد شهر بتعظيم قومه له لمكارم قومية وأخلاق عربية كان يتصف بها بينهم، فلم يعرف أنه كان من المتحنفين المشهورين في الجاهلية بمخالفة قومهم، ولو أنه عرف بذلك فلم يكن ليتخذه النبي ﷺ قدوة له ليتابعه في اتخاذ مكان تحنثه الجاهلي متعبداً له يحببه الله إليه بعد أن نبىء بوحي الرؤيا الصادقة إعداداً لملاقاة الملك في وحي الرسالة.

نبوة محمد صلى الله عليه وسلم
كانت أول مراتب اصطفائه

كانت نبوة نبينا محمد ﷺ أول مراتب الاصطفاء المتسامي فوق مستوى آفاق البشرية المطلقة، تمهيداً لتلقي وحي الرسالة.

النبوة تمهيد وإعداد لوحي الرسالة

والنبوة مرتبة إعداد وتربية، وتوجيه وإرشاد، ويتنزل فيها الوحي بمراتبه الخاصة بها مناماً أو يقظة، معلِّماً هادياً، ليس فيه تشريع تكليف، ولا تكليف إبلاغ تشريع، وإنما هي خطوات من الإعداد التربوي لمن يصطفيه الله تعالى لمقامها متتابعة، ومعالم من التعليم والتأديب متتالية، وخطوات من إشراق التمهيد متوالية، أساسها الأصيل وهدفها الأخير في توطئتها لدعوة الرسالة بناءُ شخصية الرسول بناءً جديداً، تُطَوَّع فيه الطبيعة البشرية بكل ما أودع الله فيها من قوى مادية، خاصة وعامة، ظاهرة وباطنة، لتنفعل أمام القوى الروحانية العليا التي تفاض على الرسول في ميلاد رسالته، والتي يقصد الإعداد التربوي الخاص إلى إيجادها في شخصية الرسول في أقوى صورة علوية، يجانس الملأ الأعلى في قوة رحمانيته، ليتسنى له بهذا التجانس أن يتلقى كلمة الله ورسالته من أمين وحيه، وهو على درجة من قوة الروحانية المزاوجة للطبيعة البشرية، إبقاء على التجانس الملائم للتبليغ.

وهذه المزاوجة بين القوى الروحانية والطبيعة البشرية هي التي تمد الرسول بأعظم درجات الاحتمال لأعباء الرسالة، وأثقال تنزلها، وهي التي تمنحه قوة الصبر والمصابرة على فدائح التبليغ، وهذا هو فيصل الفرقان فيما بين النبوة والرسالة.

ومن هنا يظهر السر في ثقل وفداحة وحي الرسالة، وشدة وطأته على بشرية النبي ﷺ في جميع مراتبه، وفي يسر وحي النبوة، آثاره في سائر مراتبه.

شدائد وحي الرسالة ولا سيما في نزول القرآن

ولذلك كان بدء وحي الرسالة مستهل ميلادها، ومطلع شمسها ـ في مفاجأة الغار أول لقاء يقظي لأمين الوحي جبريل عليه السلام ـ أشد ما لقي النبي ﷺ من عنف وفداحة في مراتب الوحي.

ويتجلى ذلك في فجأة اللقاء، وبغتة الخطاب، وطلب القراءة، وهي أول كلمة يسمعها محمد ﷺ منذ ميلاده البشري في موضوعها، كلمة تلقى إليه في هذا اللقاء المفاجىء (اقرأ) دون توطئة أو تمهيد لهذا اللقاء وما جرى فيه، وأنَّ لمحمد ﷺ أن يقرأ، وهو الأمي الذي نهد في قوم أميين، من أمة أمية، لا تقرأ ولا تكتب، وهو الذي لم يعرف قط قراءة، ولا سمعت أذنه قط أن قيل له قبل هذه المفاجأة (اقرأ).

ويأخذه الملك ـ بعد أن أبان ﷺ عن طبيعته الأمية بقوله: (ما أنا بقارىء) ـ ويضمه إليه ضماً شديداً، يعصره عصراً، ويغطه غطاً ضغط بشريته حتى بلغ منه جهد هذه البشرية وذروة طاقتها، حتى ظن رسول الله ﷺ أن نفسه تقبض، كما جاء في حديث سؤال عبدالله بن عمرو عند الإمام أحمد رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أسمع صلاصل، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض».

ثم يرسله الملك من قبضته، ويعيد عليه طلب القراءة، والغط الضاغط العاصر المجهد، ويحاول رسول الله ﷺ أن يفتدي نفسه منه، ومما يلاقي من فداحة وشدة، كما جاء في حديث عبيد بن عمير إذ قال النبي ﷺ وهو يرد على طلب القراءة منه في المرة الثانية: «ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع». والملك لا يتركه حتى يستفرغ بشريته من علائقها المادية، ويفرغ في قلبه وروحه إشراقاً من الروحانية العالية، يعده به لتلقي وحي الرسالة وتنزل آيات القرآن الكريم، وهو أجلّ مراتب الوحي وأفدحها ثقلاً على طبيعة رسول الله ﷺ البشرية، كما أخبر بذلك

القرآن الكريم في قول الله عزّ شأنه: ﴿ إنَّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾.

وثقل القرآن ليس أمراً حسياً توحي به ظلال العرف التي ظللت بها الكلمة، وإنما هو أمر معنوي، يرجع إلى سر إلٰهي وأمر روحاني لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى، وإنما الذي يظهر ويحس آثاره فيما كان يجده رسول الله ﷺ من ضروب الشدة، وقد أخبر الله تعالى به نبيه ﷺ تأنيساً له من وحشة ما يجده من الشدة التي كانت تعتريه حين تُلقى إليه آيات القرآن الكريم.

وأما الآثار الحسية التي كانت ترى على بشرية النبي ﷺ في وجهه الشريف وغيره من أعضاء بدنه في بعض مراتب الوحي، ولا سيما وحي آيات الوعيد والإنذار فمردها إلى حال حامل الوحي وأمينه ومؤدي رسالته إلى رسول الله ﷺ، وإلى الصورة التي كان يظهر فيها حين يلقي إليه الوحي، كما جاء في حديث سؤال الحارث بن هشام عند البخاري: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّه عليّ» وكما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصّد عرقاً.

* * *

أدلة تقدم النبوة وانفرادها قبل مجيء الرسالة

الدليل الأول: حديث إسرافيل عليه السلام في مرسل الشعبي ـ وقد صحّحه الأئمة ـ يفيد صراحة أن نبوة نبيِّنا محمد ﷺ متقدمة على رسالته، وقد استغرقت في تقدمها بمراتب وحيها مدة ثلاث سنين، وهي المدة التي قرن فيها بالنبي ﷺ إسرافيل، منذ نبىء وهو ابن أربعين سنة، فكان إسرافيل عليه السلام يتراءى له، ويأتيه بالكلمة من الوحي والشيء من الأعمال والآداب، ثم استهلت رسالته بأول لقاء يقظي لقيه فيه جبريل عليه السلام في مفاجأة الغار، التي بدأ بها تنزل القرآن الحكيم بنزول أوائل سورة (اقرأ).

ويدلّ على تقدم نبوته ﷺ وانفرادها بمراتب وحيها قبل رسالته عدة أدلة:

نذكر منها ما تلوح دلالته ظاهرة، وقد سقنا أول هذه الأدلة، وهو مرسل الشعبي.

الدليل الثاني

الدليل الثاني: ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث ـ وهو العمدة في قصة بدء الوحي ـ أن أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة ـ أو الصالحة ـ وهذا بيانٌ لبدء النبوة، وقد بيَّن حديث إسرافيل في مرسل الشعبي مدة النبوة التي سبقت بها الرسالة، كما بيَّن أسلوب التربية الإلٓهية والتعهد الرباني، والإعداد الروحاني، والتعليم الملائكي على يد إسرافيل عليه السلام في مدة النبوة، تمهيداً وتوطئة لوحي الرسالة الذي بدأ بنزول مطالع سورة (اقرأ).

فقد جاء في هذا الحديث: أنزلت النبوة عليه ـ محمد ﷺ ـ وهو ابن أربعين سنة، وعيَّن حديث عائشة رضي الله عنها بدء وحي النبوة بالرؤيا الصادقة ـأوالصالحةـ، ثم قال حديث الشعبي: فقرن به إسرافيل، وهذا التعبير المبدوء بفاء الترتيب والتعقيب واضح في إفادته أن نبوته ﷺ منذ بدأت بالرؤيا الصادقة في النوم قرن به فيها إسرافيل، فكان يتراءى له ثلاث سنين، يأتيه بالكلمة من الوحي، والشيء من العمل والآداب، ولم ينزل عليه قرآن على لسانه.

وفي حديث عائشة المتفق عليه بيان للغاية التي انتهى إليها انفراد النبوة بمراتب وحيها الخاصة، ومن هذه الغاية بدأت الرسالة بوحي اليقظة ونزول القرآن الحكيم، إذ قالت رضي الله عنها ـ بعد أن بينت معنى الرؤيا الصادقة التي بدأ بها وحي النبوة، بتفسيرها بوضوح تأويلها في واقع الحياة والأحداث ـ: حتى فجئه الحق، فجاءه الملك ـ أي جبريل ـ كما جاء مفسراً في حديث الشعبي إذ يقول: فلما مضت ثلاث سنين قرن به جبريل، فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة.

وهذا ظاهر جداً في بيان الغاية التي انتهى عندها انفراد النبوة بمراتب وحيها الخاصة، وانتهى بها قرن إسرافيل به ﷺ، وهو أيضاً ظاهر جداً في

بيان بدء الرسالة، وأنه كان يقرن جبريل به، وبدء نزول القرآن على لسانه إلى تمام كمال رسالته ﷺ.

ومن ثَمّ توحّد وحي النبوة ووحي الرسالة، فدخلت مراتب وحي النبوة في مراتب وحي الرسالة، وبهذا التوحُّد بين مراتب وحي النبوة ومراتب وحي الرسالة، يقظة أو مناماً صار سيد الخلق وإمام الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ نبياً رسولاً، وبه ختم الله تعالى النبيين والمرسلين.

الدليل الثالث

الدليل الثالث: ما جاء في حديث عبدالله بن أبي بكر بن حزم بعد أن ذكر بدء أمر رسول الله ﷺ بالرؤيا الصادقة، وأن جبريل استعلن به، بعد تلك الرؤيا، فأجلسه على ما شاء الله أن يجلسه عليه تعظيماً له وتشريفاً لقدره، وبشّره برسالة ربه، حتى اطمأن رسول الله ﷺ، وأقرأه أوائل سورة (اقرأ)، فقبل رسول الله ﷺ رسالة ربه، واتبع الذي جاء به جبريل من عند الله.

فاستعلان جبريل، وظهوره يقظة للنبي ﷺ، وتعظيم مجلسه، وإقراؤه ما نزل إليه من القرآن هو عين ما جاء في حديث عائشة عند البخاري ومسلم، في مفاجأة الغار بتصرف في الأسلوب، وهذا لا تكاد تخلو منه روايات الحوادث والوقائع التي غلب عليها الرواية بالمعنى، فيؤدي كل راوٍ بأسلوبه وطريقته ما استقر عنده من المعنى الذي لا يختلف في جوهر الحديث عن رواية غيره.

بل إن في حديث ابن أبي بكر بن حزم تصريحاً لا يحتمل التأويل، ولا يقبل التظنن والشك، وذلك قوله: وبشره برسالة ربه حتى اطمأن، ولا يمكن أن يبشره برسالة ربه قبل أن يُرسل، ويؤكد ذلك قوله في الحديث: فقبل رسول الله ﷺ رسالة ربه، واتبع الذي جاء به جبريل من عند الله.

أفكان رسول الله ﷺ قد قبل شيئاً لا وجود له؟ وإلى أي شيء اطمأن ﷺ إذا لم يكن هذا الشيء هو الرسالة التي بشره بها أمين الوحي جبريل، واتبعه فيما جاء به من عند الله؟.

ومحور الدلالة من هذا الحديث أن استعلان جبريل بالنبي ﷺ وتبشيره بالرسالة التي قبلها النبي ﷺ، واطمأن بها، وإقراءه أوائل سورة (اقرأ) هو عين ما جاء في حديث مفاجأة الغار، وهذا إنما كان بعد أن ثبتت النبوة منفردة بوحي الرؤيا الصادقة التي افتتح بها وحيها، سابقة على مجيء جبريل بالرسالة في ظهوره واستعلانه وتبشيره بالرسالة وإقرائه ما نزل إليه من القرآن كما جاء في الحديثين، حديث عائشة في مفاجأة الغار، وحديث ابن حزم في الاستعلان والتبشير والإقراء.

الدليل الرابع

الدليل الرابع: حديث ابن عباس، قال ابن سيد الناس في (عيون الأثر): وروينا من طريق الدولابي عن محمد بن عائذ، حدثنا محمد ابن شعيب، عن عثمان بن عطاء الخراساني، عن أبيه عطاء بن أبي مسلم، عن عكرمة عن ابن عباس قال: بعث الله عزّ وجلّ محمداً ﷺ على رأس خمس سنين من بنيان الكعبة، وكان أول شيء أراه إياه من النبوة رؤيا في النوم. **فذكر نحو ما جاء في حديث ابن أبي بكر بن حزم، وفي آخره: فلما قضى إليه** الذي أمر به انصرف رسول الله ﷺ منقلباً إلى أهله، لا يأتي على حجر، ولا شجر، إلا سلم عليه، سلام عليك يا رسول الله، فرجع إلى بيته وهو موقن **أنه قد فاز فوزاً عظيماً.**

ووجه الدلالة من هذا الحديث على تقدم النبوة وانفرادها بمراتب وحيها الخاصة قبل مجيء الرسالة، أنه صريح في أن أول شيء بدأ الله تعالى به رسوله ﷺ هو ما أراه إياه من النبوة، رؤيا في النوم، وهذا موافق تمام الموافقة لحديث ابن حزم في أن الرؤيا المنامية، وهي أولى مراتب وحي النبوة كانت سابقة على ظهور جبريل واستعلانه للنبي ﷺ، وتبشيره إياه برسالة ربه، وإقرائه أول ما نزل من آيات القرآن.

بل إن عبارة حديث ابن عباس أصرح في بيان أن الرؤيا التي أريها **النبي ﷺ من النبوة، كما هو ظاهر قوله: أول ما أراه إياه من النبوة رؤيا في** النوم، وهو موافق لحديث عائشة المتفق عليه في قولها: إن أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة... حتى فجئه الحق وجاءه الملك،

وقال له: (اقرأ) فقولها رضي الله عنها (من الوحي) في مقابل قوله (من النبوة).

الدليل الخامس

الدليل الخامس: ما جاء في حديث عبيد بن عمير من قوله ﷺ «فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء، يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل».

وهذا بين في دلالته على تقدم النبوة بوحي الرؤيا في النوم على الرسالة التي بدأت بوحي اليقظة ونزول القرآن الكريم، كما يستفاد من قوله: (فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل) فإن معنى هذا الخروج المتبادر هو الخروج من غار حراء منصرفاً إلى أهله، وذلك أن النبي ﷺ كان في خلائه ومتعبده في حراء، ورأى في منامه ما رأى، ثم هب من نومه لينصرف إلى أهله، فلما توسط الجبل سمع النداء: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل.

وقد بيَّنا فيما سبق أن قصة بدء الوحي واحدة في موضوعها وأحداثها، لكن الروايات اختلفت في سوقها، فزاد بعضها وفصَّل، ونقص بعضها وأوجز، وكلها يكمل بعضها بعضاً، وهذا الاختلاف في التفصيل والإجمال، والإسهاب والإيجاز لا يخرجها عن وحدة موضوعها.

خلاصة هذا البحث

ذكرنا خمسة أدلة لبيان تقدم النبوة زمناً على الرسالة، وهذه الأدلة منتزعة من أحاديث نص الأئمة على صحتها، ولكنها رويت بأساليب مختلفة في تفاصيلها، متفقة في حقائقها وجملتها بيد أن هذا الاختلاف في التفصيل لا يذهب بوحدة الموضوع وخلاصته ـ كما قدمنا ـ.

والروايات كلها تفيد صراحة أن النبي ﷺ أنزلت عليه الرسالة بعد أن نُبِّيء بثلاث سنين ـ كما في مرسل الشعبي ـ أو أقل من ذلك، كما في غيره من الأحاديث ونصوص الأئمة.

ومرسل الشعبي صريح في أن إسرافيل قرن بالنبي ﷺ منذ بدأت نبوته

بالرؤيا الصادقة واستمر قرنه به ثلاث سنين، ولم ينزل على النبي ﷺ قرآن على لسان إسرافيل في مدة قرنه به، وإنما كان يلقي إليه الكلمة من الوحي، ويعلمه ما يؤمر به من الأدب والعمل.

ولما مضت سنوات قرن إسرافيل به بدأت رسالته وقرن به جبريل، وأنزل عليه القرآن نجوماً آيات وسوراً على لسانه مدة رسالته حتى رفع إلى الرفيق الأعلى.

وحديث عائشة المتفق عليه، وحديث عبيد بن عمير، وحديث ابن أبي بكر ابن حزم، وحديث ابن عباس كلها صريحة ومتوافقة في أن أول ما أنزل وأقرأه إياه جبريل عليه السلام في غار حراء خمس آيات من أول سورة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ ثم فتر الوحي فترة لم يتفق على تحديد مدتها، بل وقع فيها اختلاف متباعد الأطراف جداً، وقد بسطنا القول في ذلك عند مناسبته وموضعه، ورجحنا أن هذه الفترة لا تعدو أن تكون أياماً معدودة، وذكرنا هناك أن العلّامة مغلطاي وهو من أئمة العلم وحفاظ السيرة النبوية ووقائعها وأحداثها، رجح في كتاب (الزهر) أنها ثلاثة أيام فقط، وقال: ولعل هذا هو الأشبه بحاله عند ربه، وهذا التحديد مذكور مروي عن مقاتل في تفسيره، كما ذكره الزرقاني في سوقه عبارة مغلطاي التي نقلها للرد على السهيلي في زعمه تصحيح أن مدة فترة الوحي كانت سنتين ونصفاً، وهو ردٌّ بالأولى على تصريح مؤلف المواهب اللدنية العلّامة القسطلاني في قوله: وكانت مدة فترة الوحي ثلاث سنين.

وهذا الاختلاف الواسع العريض في تباعد أطرافه، وترجيح مغلطاي أنها ثلاثة أيام فقط يؤكد لنا أبطولة بلاغ الحزن اليائس في هذه الفترة، وما احتف بها من تكرار الغدو للتردي من شواهق الجبال، وهي أسطورة باطلة، أشبعنا القول في بيان بطلانها بالأدلة الناصعة والبراهين القاطعة.

ضعف كلام من ضعَّف مرسل الشعبي

والحكم على مرسل الشعبي بالضعف ـ مع تصحيح الأئمة إسناده إليه، وهو إمام أئمة هذا الشأن ـ لمجرد الإرسال مجازفة وتسرع في الحكم على النصوص، لا يستند إلى دليل، وإنكار الواقدي لهذا الحديث رده العلامة

الحافظ ابن حجر بأن الشعبي مثبت، والواقدي نافٍ، والمثبت مقدم عندهم على النافي إن لم يصحبه دليل نفيه.

وقد عرفنا أن إنكار الواقدي إنما يعتمد على مجرد أن أهل العلم ببلده لا يعرفون أن إسرافيل قرن بالنبي ﷺ، وأن علماء بلده، وأهل السيرة منهم يقولون لم يقرن بالنبي ﷺ غير جبريل من حين أنزل عليه الوحي إلى أن قبض ﷺ.

وقد رددنا كلام الواقدي ـ بالإضافة إلى رد العلاَّمة الحافظ ابن حجر ـ بأن عدم معرفة أهل العلم ببلده أن إسرافيل قرن بالنبي ﷺ لا يدل على عدم وقوعه، لأن عدم المعرفة لا يدلّ على عدم الوجود، إذ لا تلازم بينهما، وأهل العلم ببلد الواقدي طائفة من علماء الإسلام وأئمته لم تنته إليهم جميع ضروب العلم ومسائله وقضاياه، ولم تنته إليهم معرفة جميع الوقائع الإسلامية، فكم من علم بكثير من القضايا والحقائق عند بعض العلماء لا يوجد عند غيرهم، وبلد الواقدي ـ على كثرة أهل العلم فيه ـ لم يخرج عن كونه بلداً من بلاد العالم الإسلامية المليئة بالفضل والفضلاء من أئمة الإسلام وعلمائه، نتيجة تفرق أهل العلم فيها، وقد أخذ أهل كل بلد منهم ما انتهى إليهم من العلم والمعرفة.

وقرن جبريل بالنبي ﷺ منذ نزل عليه الوحي ـ كما في عبارة الواقدي ـ قد يعني وحي الرسالة الذي بدأ بنزول القرآن الكريم في مفاجأة الغار، وهذا مسلَّم، واحتماله قائم، ولكنه لا ينفي قرن إسرافيل به ﷺ في مدة نبوته، وهي متقدمة على رسالته التي استهلت بالإقراء في مفاجأة الغار.

وَهْي زعم السيوطي وردّ ما يوهي أثر الشعبي

ولا وجه لرد الحافظ جلال الدين السيوطي على شيخ شيوخه العلامة الحافظ ابن حجر في ترجيحه مرسل الشعبي على إنكار الواقدي قرن إسرافيل بالنبي ﷺ بأنه ورد ما يوهي أثر الشعبي، وهو ما أخرجه مسلم، والنسائي، والحاكم، عن ابن عباس، قال: بينما رسول الله ﷺ جالس وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً من السماء فوقه، فرفع جبريل طرفه إلى السماء، فقال: يا

محمد، هذا ملك قد نزل، لم ينزل إلى الأرض قط، فجاء - أي الملك - إلى النبي ﷺ، فسلم عليه، فقال: أبشر بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبيٌ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة.

وقد ساق ابن كثير في مقدمة تفسيره حديث مسلم الذي اعتمد عليه السيوطي في وهي مرسل الشعبي فقال: روى مسلم في صحيحه، والنسائي في سننه من حديث أبي الأحوص، سلام بن سليم، عن عمار بن زريق، عن عبدالله بن عبس بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب فتح من السماء، ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ حرفاً منها إلا أوتيته. قال ابن كثير: هذا لفظ النسائي.

وادّعاء الحافظ السيوطي وَهْي مرسل الشعبي بهذا الحديث ادعاء عجيب، وزعم جد غريب، وإلاّ فأين موضع وَهْي أثر الشعبي - الذي صحح الأئمة إسناده إليه، والشعبي إمام مجمع على توثيقه، وعلو كعبه في صدق الرواية - من هذا الحديث؟ وهل يجوز أن يوهّى حديث ثبتت صحة إسناده إلى راويه المتفق على توثيقه بمجرد قول جماعة من العلماء - كما يقول الزرقاني في شرح المواهب - إن هذا الملك الذي نزل بهذه البشرى إلى النبي ﷺ، ولم ينزل قبل ذلك إلى الأرض هو إسرافيل، دون أن يرد لإسرافيل ذكر أي ذكر في الحديث؟ فمن أين لجماعة من العلماء الذين اعتمد السيوطي على قولهم أن هذا الملك هو إسرافيل؟ وهذا أمر لا سبيل إلى الاجتهاد فيه بالرأي، لأنه من الغيب الذي لا يُعلم إلا بإعلام الله تعالى لنبيه ﷺ ولم يثبت من طريق صحيح أن النبي ﷺ أخبر بذلك، وهو ﷺ الطريق الوحيد لإثبات هذا الإخبار.

ولعل الشبهة جاءت إلى الحافظ السيوطي، وإلى جماعة العلماء الذين اعتمد على قولهم، من حديث ابن عمر عند الطبراني، الذي ساقه الزرقاني

نقلاً عن السيوطي، فقال: عن ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لقد هبط عليَّ ملك من السماء ما هبط على نبي قبلي، ولا يهبط على أحد بعدي - وهو إسرافيل - فقال: أنا رسول ربي إليك، أمرني أن أخبرك إن شئت نبياً عبداً، وإن شئت نبياً ملكاً، فنظرت إلى جبريل، فأومأ إليّ أن تواضع، فلو أني قلت: نبياً ملكاً لسارت معي الجبال ذهباً).

قال السيوطي: وهاتان القضيتان بعد ابتداء الوحي بسنين كما يعرف من سائر طرق الأحاديث، وهما ظاهرتان في أن إسرافيل لم ينزل إليه قبل ذلك، فكيف يصح قول الشعبي: أنه أتاه في ابتداء الوحي؟

وهذا أيضاً استنتاج غريب لأن حديث مسلم الذي رواه النسائي والحاكم قضية قائمة بذاتها في سندها وراويها من الصحابة، وهو ابن عباس، وفي معناها، ولم يذكر فيه شيء قط عن إسرافيل، باسمه أو نعته الخاص الذي يعيّنه من بين الملائكة المكرمين، وإذاً فلا دلالة في هذا الحديث من قريب أو بعيد على ما يوهي أثر الشعبي الصحيح إسناداً ورواية، فإقحامه للتدليل على ضعف أثر الشعبي مجازفة غريبة، بعيدة عن سداد العلم واستقامة البحث والاستدلال.

أما حديث ابن عمر الذي رواه الطبراني - إذا صح - فلا دلالة فيه مطلقاً على أن إسرافيل لم يقرن بالنبي ﷺ قبل قرن جبريل به منذ بدأ وحي الرسالة ونزول القرآن، وبالتالي لا دلالة فيه على أن إسرافيل لم يسبق له نزول على النبي ﷺ، وما جاء في الحديث منسوباً للنبي ﷺ من جملة «وهو إسرافيل» يحتمل أنه مدرج، وليس من كلام النبي ﷺ.

ولو سلمنا رفع هذه الجملة إلى النبي ﷺ، وأنها من كلامه، فليس في الحديث دلالة على مدَّعى الحافظ السيوطي وَهْي مرسل الشعبي، لأن النبي ﷺ قال - كما في عبارة الحديث ونصه - : «لقد هبط عليّ ملك من السماء ما هبط على نبي قبلي، ولا يهبط على أحد بعدي» وهذا لا ينافي أن هذا الملك هبط على النبي ﷺ قبل نزوله هذا، وأنه قرن به مدة نبوته، لأن المنفي هبوط هذا الملك على نبي قبل نبيِّنا ﷺ، أما هبوطه عليه ﷺ فلم

يُنْفَ، لأن العبارة النبوية صادقة بنفي هبوطه على نبي غيره من الأنبياء قبله، ونفي هبوطه على أحد بعده، وهذا على تسليم صحة نسبة القول (وهو إسرافيل) إلى النبي ﷺ.

وواضح أن حديث الطبراني مخالف كل المخالفة لحديث مسلم والنسائي والحاكم في سنده وراويه ومعناه، لأن حديث مسلم مروي عن ابن عباس، وحديث الطبراني مروي عن ابن عمر، واختلافهما في المعنى ظاهر، لأن حديث مسلم والنسائي والحاكم وارد في إبلاغ بشرى وتكرمة للنبي ﷺ بأن الله تعالى اختصه بفاتحة الكتاب؛ وخواتيم سورة البقرة، ولأن حديث الطبراني وارد في تخيير النبي ﷺ بين أن يكون نبياً عبداً، أو نبياً ملكاً.

فالقضيتان مختلفتان أشد الاختلاف، فلا جامع بينهما للدلالة على وَهْي مرسل الشعبي، وذكر إسرافيل لم يرد قط في حديث مسلم والنسائي والحاكم، وهو قطعاً أصح وأرفع من حديث الطبراني إذا ثبتت صحته.

وكون هاتين القضيتين بعد ابتداء الوحي بسنين لا يفيد شيئاً في الموضوع، فذكره لا محصل له، وقول الحافظ السيوطي: وهما ظاهرتان في أن إسرافيل لم ينزل إليه قبل ذلك غير صحيح، وقوله أيضاً: فكيف يصح قول الشعبي: أنه ـ أي إسرافيل ـ أتاه في ابتداء الوحي؟ غير متجه ولا مسلّم.

وقد بيّنا وجه صحته، ووجه عدم تنافي الحديثين ـ حديث مسلم، وحديث الطبراني ـ لما يقتضيه أثر الشعبي من أن إسرافيل قرن بالنبي ﷺ في مدة نبوته منذ بدأ وحيها بالرؤيا الصادقة في النوم، قبل أن يفجأه الحق بمجيء جبريل له في غار حراء وقرنه به منذ يومئذ، ونزول القرآن على لسانه في عشرين سنة، مفتتحاً بأوائل ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾.

بُدء نزول القرآن العظيم

كان أول خطوات الرسالة

كانت فجأة الحق بمفاجأة أمين الوحي جبريل عليه السلام للنبي ﷺ في خلائه متعبداً لربه في غار حراء، يَسْبح بفكره وإشراق روحه في آفاق التأمل في بدائع ملكوت الله ـ هي نقطة التحول في خط الاصطفاء من وحي النبوة إلى وحي الرسالة، إذ هي النقطة التي انتهى عندها خط انفراد النبوة بمراتب وحيها في مرحلة التميز الإنساني الذي اختص الله تعالى به عبده محمداً ﷺ في طبيعته الروحانية على سائر الطبائع البشرية، تخلقاً، وفكراً، وعملاً، وسلوكاً واستقامة نهجٍ في الحياة، بما حُبي به من وحي النبوة.

وكانت مفاجأة جبريل للنبي ﷺ بطلب القراءة ـ في أول لقاء يقظي بينهما إذ قال له (اقرأ) دون تمهيد لهذا الطلب الغريب على النبي ﷺ في حياته وطبيعته التي نهد وشب عليها ـ بدءاً لأول خطوات رسالته ﷺ، وإيذاناً بتحقق أعظم معجزاته، وأي معجزة أجلّ وأعظم، وأبقى على الدهر خلوداً من أن يصير الأمي بالفطرة قارئاً عليماً بغير تعلّم دراسي، يثافن فيه المعلمين، ويثاقف العلماء؟.

وقد نوَّه القرآن الحكيم بهذا الإعجاز الذي يدور على محور أمية محمد ﷺ، منكراً على الذين لجوا في العناد الجَحُود، مجبهاً بوخز التقريع للذين لم يتيحوا لعقولهم فرصة التفكر في حياة محمد ﷺ التي كانت الأمية أظهر مظاهرها، وأبين خصائصها، وهم أعرف الناس به، مدخلاً، ومخرجاً، ظاهراً، وباطناً، وفيما صار إليه بعد بعثه رسولاً إلى العالمين، من العلم

الرباني الذي تلقّاه من وحي الله تعالى إليه، في شتى مناحي الحياة، عقيدة، وتعبداً، وهداية، وتوجيهاً، وإرشاداً، وتأسيساً لنظم الاجتماع والعدالة التي تقوم عليها روابط المجتمع البشري، أفراداً وجماعات، مع استقامة السلوك معتمداً على دعائم أفضل الفضائل الإنسانية وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا: ائت بقرآن غير هذا أو بدِّله، قل ما يكون لي أن أبدِّله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يُوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم * قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به؛ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾[1] ويقول عزّ شأنه: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم * صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[2].

وكان من الطبيعي أن يكون رد النبي ﷺ - وهو في غمرة المفاجأة على هذا الطلب الغريب المفاجىء بقوله: «ما أنا بقارىء» - إرهاصاً لتبين مناط التحدي بمعجزة قراءته، وتقريراً برهانياً على صدقه في دعوته، وأساساً وطيداً لإيمانه برسالة نفسه واستظهاراً لمعالم التحدي، واستكشافاً لمنائر الهداية في سير الرسالة في آفاق التبليغ.

إيمان الرسول برسالته أرفع مراتب اليقين وأقوى دعائم النجاح في التبليغ

وإيمان الرسول برسالة نفسه أرفع مراتب اليقين وأعلا درجات التثبت، وأقوى دعائم المعرفة الكاشفة لجميع مصادر الرسالة ومواردها، وأجلى لجميع مداخل ومخارج الحقيقة الكبرى التي يؤمن بها الرسول بإيمانه برسالة نفسه.

ولا يبلغ هذا الإيمان مداه الذي يؤذن عنده للرسول - إذا بلغ إيمانه برسالته هذا المدى أن يبلِّغ عن الله جلّ جلاله، وعن أمناء وحيه من خواص الملأ الأعلى، وعلى رأسهم جبريل عليه السلام ما يوحى إليه من ربه - إلا إذا

(١) سورة يونس آيتا (١٥ - ١٦).
(٢) سورة الشورى آيتا (٥٢ - ٥٣).

عرف الرسول ربه تبارك وتعالى معرفة تكشف له عن حقيقة إرساله ورسالته انكشافاً شهودياً، لا يحتاج معه إلى دليل حسي أو برهان عقلي، حينئذ تكون المعجزة في دلالتها على صدق الإرسال والرسالة باباً من أبواب الشهود الفكري المطابق للشهود الروحي، وإلا إذا عرف الرسول الملأ الأعلى بأخصّ صفاتهم التعبدية طبعاً جبلياً، وتطبعاً تكليفياً، وهذا خاص برسالة الخلود الخاتمة لرسالات السماء وهي الرسالة الوحيدة في سجلّ الرسالات الإلّهية التي تناول عمومها التكليفي عوالم الملأ الأعلى تعبداً مفطوراً بما يلائم طبيعتهم من شرائعها وتعبداتها.

إيمان الرسول برسالته هو المعجزة العظمى التي تدعم التحدي بأية معجزة أخرى

وإيمان الرسول برسالة نفسه على هذا الطراز الشهودي هو في الحقيقة المعجزة الكبرى التي يستند إليها الرسول في قوة التحدي بالمعجزة المميَّزة بخصائصها الإعجازية في المعجزات الحسية المادية المتقضّية بتقضي مهمتها في زمنها ورسالتها، أو الخصائص الفكرية الروحانية في المعجزة العلمية الخالدة، وهي القرآن الكريم.

لذلك كان إيمان الرسول برسالة نفسه نابعاً من داخل نفسه وطبيعته الروحانية التي يمدّه الله تعالى بها فوق طبيعته البشرية المفطور عليها إنساناً له أكمل الخصائص البشرية، تميزاً على كافة من يشاركه في أصل الفطرة الإنسانية من أفراد البشر، ليكون مُتَنزَّلاً لوحي الرسالة، ومهبطاً لكلمة الله، تلقى إليه من وراء حجب البشرية، بلاغاً له خاصة، أولاً ليوقن إيقاناً شهودياً يسمو به إلى تجليات إلّهية، يستحيل أن يعتريها أدنى توقف من حيرة أو شك، وتكليفاً تبليغها إلى جميع أمته أفراداً وجماعات، مباشرة منه إليهم أو ألْسِنة ورثته من الدعاة القائمين على تبليغ رسالته ونشر دعوته.

فالرسول نفسه مدعو من نفسه بتكليف من الله تعالى للإيمان برسالة نفسه، بل هو أول مدعو لهذا الإيمان، وهو بعد هذا مكلَّف دعوة أمته على عمومها لتؤمن برسالته، إيماناً يدفعها إلى التصديق والإقرار والعمل بما يبلغها من شرائع هذه الرسالة التي آمن بها قبلها.

وهذا المدد ضرب من المدد الروحاني الذي يمد به الرسول، ليكون

معْبراً ممدوداً على متن الطبيعة البشرية المصطفاة، ليعبر الوحي على معبر استعدادها الشهودي إلى قلب الرسول ليعلم ما لم يكن يعلم، ويعلِّم ما علم و﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾.

أما المعجزات المتميزة بخصائصها الطبيعية فكرية أو مادية فهي أمر من الغيب المنزل، خارج عن نطاق شخصية الرسول في طبيعته البشرية والروحانية، تنزل جواباً برهانياً بمنطق العقل للسائلين، أو المتسائلين، فهي مدد من عالم الغيب، جاءت لتكون برهاناً على صدق الرسول للذين لا ترتفع طبائعهم إلى آفاق الإدراك الغيبي ممن يؤمنون بالرسول لأنه رسول، مكتفين بخصائصه السلوكية في حياته وأخلاقه، واستواء جانبيه، راضياً وغاضباً، وآمراً وناهياً، ومرغباً ومرهباً، والذين لا ترتفع طبائعهم إلى مستوى هذا الإدراك الغيبي الرفيع يحتاجون في رحلتهم الفكرية للإيمان بالرسول إلى مطايا عقلية أو حسية مادية على وقع خطوها إلى ساحات العقول والأفكار يؤمن عامة البشر، لأنها تحملهم إلى أودية المعرفة الهادية عن طريق التأمل البرهاني الذي تمدهم به خوارق العادات الفكرية أو المادية التي تعلو بأوضاعها الخاصة وقوانينها على أوضاع وقوانين الحياة العامة، وسنن الطبيعة المألوفة.

غلط المتفلسفة في معرفة حقيقة النبوة والرسالة

وقد غلط الفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام في معرفة حقيقة النبوة والرسالة والوحي لإفراطهم في تقديس هوس الفلسفة اليونانية التي أبطل العلم التجريبي أكثر نظرياتها وآراء زعمائها، فتوهموا أن النبوة ضرب من التخيُّل إذا قوي واستكمل وجوده في الإنسان، وخلص من تأثير المحسوسات الواردة عليه من خارج طبيعته، وتحرر من قيود تأثير القوى الناطقة لاحت له حقائق الأشياء فيضاً يفيض عليه من ذات نفسه يقظة أو مناماً، وهذا هو النبوة والوحي عندهم.

فالوحي الذي تحقق به النبوة أو الرسالة هو في نظرهم فيض النفوس العليا الذي يكشف للنبي أو الرسول الحقائق يقظة أو مناماً برموز وأمثال من نظائرها في عالم الحس والشعور تنزلاً من فيض العقل الفعَّال على النفوس الصافية.

وقد تناقل ذلك خلفهم عن سلفهم، فذكره الفارابي في مدينته الفاضلة صريحاً مبسوطاً، لا يحتمل التأويل، لأنه صرّح في هذا الكتاب بأن النبوة فيض من جنس المنامات، ثم التقط فكرته من بعده ابن سينا في إشاراته، غير أنه حاول بلورتها في مرايا إسلامية، وتبناها بعدهما ابن مسكويه ـ وهو لا يجري في شوطهما إلا تقليداً لهما ـ في كتابيه الفوز الأكبر والأصغر ـ وكان تلميذاً أميناً لنظرية الفارابي، وحاول أن يحاكي ابن سينا في تقريب هذه الآراء الفيضية التخيلية من أصول الإسلام فلم يلحق بصاحبه، وتخلف وراءه مقلِّداً.

وقد تأثر ببعض فلتات هذا التفلسف الفيضي التخيلي أبو حامد الغزالي، فقال في كتابه «المنقذ من الضلال»: فالنبوة عبارة عن طور ـ إنساني ـ يحصل فيه عين لها نور، يظهر في نورها الغيب، وأمور لا يدركها العقل... ومعك أنموذج منها، وهو مدركاتك في النوم، ومعك علوم من جنسها في الطب والنجوم، وهي معجزات الأنبياء، ولا سبيل إليها ببضاعة العقل ولا بالتجربة. وهذا كلام غريب جداً عن أصول الإسلام وشرائعه في النبوة والرسالة والوحي.

شواظ من إلحاد الباطنية

وفي مناهج متفلسفة التعليمية طامات وطامات اتكأ عليها الباطنية من الإسماعيلية وسائر طوائفهم من الملاحدة المحرِّفين لأصول الدين، وخاض في بحر هذه الترهات الفيضية التخيلية بعض من تأثر بنظريات التفلسف من المتصوفة، فغرق في خضمه فريق منهم، إلا من عصمه الله بمسبح الشريعة المطهَّرة، فساحل من قريب، وعاد إلى بر السلامة قبل أن يجرفه تيار التفلسف والمخرقة، ولعل من أمثل من نجا من هؤلاء الراغب الأصفهاني في «تفصيل النشأتين».

وقد صور أبو حيان التوحيدي في كتاب «الإمتاع والمؤانسة» صورة من طامات إخوان الصفا في رسائلهم المتفلسفة على لسان شيخه أبي سليمان المنطقي، وهو شيخ سوء، مغموز في دينه، ومتهم بوضع رسائل إخوان الصفا، أو أنه أحد واضعيها ومقدمهم.

وسيرى القارىء في كلام أبي سليمان الذي يحكيه عنه تلميذه أبو حيان، أو الذي ينحله فينسب إليه نظرية الفيض والتخيل تصور بها حقيقة النبوة والوحي، وسيرى القارىء تصريح أبي سليمان المنطقي باعتقاده سمو منزلة الفلاسفة على الأنبياء، كما هو مشهور من مذهب الفارابي الذي دندن حوله ابن سينا، ولوّح ولم يصرِّح، وجمجم ولم يفصح، ولا يخفى على القارىء اختلاف الألفاظ ولف الأسلوب في إطار الرمزيـة، لأن المعاني المقصودة من وراء ما هنا وهناك واحدة.

ونحن نسوق من كلام أبي حيان في ليلته الرابعة عشرة من «الإمتاع» ما يصوِّر مذهب شيخه أبي سليمان، ولعله مذهبه ومذهب أصحابه من تلاميذ أبي سليمان، وهم ـ فيما يظهر لنا ـ «إخوان الصفا» أو من منتحلي مذهبهم المتفلسف الملحد.

كلام أبي حيان عن الفيض والتخيل منسوباً لشيخه أبي سليمان المنطقي

قال أبو حيان: سألت أبا سليمان عن السكينة، ما هي؟ فقال: السكائن كثيرة، طبيعية، ونفسية، وعقلية، وإلٓهية، ومجموعة من هـذه بأنصباء مختلفة، ومقادير متفاوتة ومتباعدة ، والسكينة الطبيعية: اعتدال المزاج بتصالح الاسطقات، تحدث به لصاحبه شارة تسمى الوقار، ويكون للعقل فيها أثر باد، وهو زينة الرواء المقبول.

والسكينة النفسية: مماثلة الروية للبديهة ، ومواطأة البديهة للروية، وقصد الغاية بالهيئة المتناسبة، يحدث بها لصاحبها سمت ظاهر، ورنو دائم، وإطراق لا وجوم معه، وغيبة لا غفلة معها، وشهامة لا طيش فيها.

والسكينة العقلية: حسن قبول الاستفاضة بنسبة تامة إلى الإفاضة، ومعنى هذا أن القابل مستغرق بقوة المقبول منه، وبهذه الحال يحدث لصاحبها هدى يشتمل على وزن الفكر في طلب الحق مع سكون الأطراف في أنواع الحركات.

والسكينة الإلٓهية لا عبارة عنها على التحديد، لأنها كالحلم في الانتباه، وكالإشارة في الحلم، وليست حلماً، ولا انتباهاً في الحقيقة، لأن هذين نعتان

محمودان في عالم السيلان والتبدُّل، جاريان على التخيل والتجوز، بزوائد لا ثبات لها، ونواقص لا مبالاة بها، روحانية في روحانية كما يقال «هذا صفو هذا» و«هذا صفو الصفو» ومن لحظ هذه الكيفية، وبوشر صدره بهذه الحقيقة استغنى عن رسوم محدودة بألف ولام، وحقائق مكنونة في عرض الكلام، وإذا جهلنا أشياء هي لأهل الأنس بلغات تفطروا عليها، وعبارات أنسوا بها، كيف نجد السبيل إلى الإفصاح والإشارة إليها.

فعلى هذا الصمت أوجد للمراد من النطق، والتسليم أظفر بالبغية من البحث.

ثم يسوق أبو حيان سؤالاً من أحد أخصَّاء تلاميذ أبي سليمان المنطقي، هو أبو العباس البخاري، يقول فيه: فشيء كهذا بدقيقه وإشكاله، وغموضه وخفائه، كيف يظهر على جبلة بشرية وبنية طينية، وكمية مادية، وكيفية عنصرية؟.

أبو سليمان المنطقي يجمجم ثم غلب على باطنه فصرح وتكشف

فقال أبو سليمان، يجيب تلميذه: يا هذا، إنما يشع من هذه السكينة على قدر ما استودع صاحبها من نور العقل، وقبس النفس، وهبة الطبيعة، وصحة المزاج، وحسن الاختيار، واعتدال الأفعال، وصلاح العادة، وصحة الفكرة، وصواب القول، وطهارة السر ومساواته للعلانية، وغلبته بالتوحد، وانتظام كل صادر منه ووارد عليه.

وها هنا تمحى الجبلة البشرية، وتتبدد الجبلة الطينية، وتبيد الكمية المادية، وتعفو الكيفية العنصرية، ويكون السلطان والولاية، والتصريف والسياسة كلها لتلك السكينة التي قدمنا وصفنا لها، واشتد وجدنا بها، وطال شوقنا إليها، ودام تحديقنا نحوها، واتصل رنونا إليها، وتناهت نجوانا بذكرها.

قال أبو سليمان لتلميذه: وهذا هو الخلع الذي سمعت بذكره، واللباس الذي سألت عنه، أعني خلع ما أنت منه إنسان، ولبس ما أنت به ملك.

الله المستغاث منكم، ما أشد بلواي بكم، لم لا تتحركون إلا إلى ما لا سكون لكم فيه، ولم تسألون عما لا اطلاع لكم عليه؟ سلوا ربكم أعيناً بصيرة، وآذاناً واعية، وصدوراً طاهرة، وقوة متتابعة، فإنكم إذا منحتموها هديتم لها، وإذا حرمتموها قطعتم دونها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم قال أبو العباس البخاري لشيخه أبي سليمان المنطقي: وقد تركنا ياسيدنا حديث السكينة المجموعة من هذه الجملة بأنصباء مختلفة.

فقال أبو سليمان يرد على تلميذه: نعم، والسكينة المجموعة من كل ما سلف القول فيه تقاسمها نوع الإنسان بالزيادة والنقصان، والغموض والبيان، والقلة والكثرة، والضعف والقوة.

وهذا يتبين بأن تقسم الطيش والحدة، والعجلة والخفة على أصحابها فتجد التفاوت ظاهراً، وكذلك إذا قسمت الهدوء والقرار والسكون والوقار على أهلها، فإنك تجد التباين مكشوفاً، والاختلاف ظاهراً.

أبو سليمان المنطقي يخلع عذار الرياء فيهوي إلى قعر من الإلحاد سحيق

ثم قال أبو سليمان: أما السكينة التي هي في أعلى المراتب فهي لأشخاص هم فوق البشر، وليس لهم نسبة من الخلق إلا الخلقة الحسية، والعشرة البشرية، وإلا فهم في ذروة عالية ومحلة إلٰهية.

ثم قال: وأما السكينة التي تلي هذه فهي للأنبياء على اختلاف حظوظهم منها، لأنها مرتبات تنقسم بين المنام واليقظة انقساماً متفاوتاً بالعرض الحامل للصدق، والشبيه بالصدق، وللحق وللقرب من الحق، وللصحيح والتالي للصحيح، ثم يختلف بيانهم عن ذلك بالتعريض والإيضاح، والكناية والإفصاح، والتشبيه والاستعارة.

ثم قال أبو سليمان: فأما السكينة التي تتلو هذه فهي التي تظهر على طائفة تخلف الأنبياء وذلك أن بقايا قواهم يرثها الذين صحبوهم، واستضاءوا بنورهم، وفهموا عنهم، ولقنوا منهم، ودخلوا في زمرتهم، وحاكوهم في الشمائل والأخلاق، وسلكوا مناهجهم في القياد والسياق، وصلحوا سفراء بين الأبعدين، كما كانوا سجراء للأقربين، وهم الذين

يفسرون الغامض، ويوضحون المشكل، ويبسطون المطوي، ويشرحون المكني، ويبرزون المراد والمعنى، ويوطدون الأساس، ويرفعون الالتباس، وينفون الوحشة، ويحدثون الإيناس.

وأما السكينة الباقية فهي مفضوضة على أتباع هؤلاء بالسهام العلوية والمقادير العدلية، والمناسيب العقلية من غير جور ولا حيف، ولا انحراف ولا ميل.

فقال له تلميذه البخاري: أهي - أي السكينة - في معنى فاعلة أو مفعولة؟

فقال أبو سليمان: الفضاء أعرض مما تظن، وإن كان في غاية العرض، والذروة أعلى من أن ترام، وإن كان الإنسان يطلبها بالبسط والقبض.

هي بوجه في معنى فاعلة إذا شعرت بتأثيرها، وبوجه آخر في معنى مفعولة إذا شعرت بتأثرها، وبوجه آخر ليست من هذين القبيلين في شيء إذا لحظتها في معانيها قبل تأثيرها وتأثرها.

وأنت تعتبر حد الفاعل والمفعول من شكل اللفظ ووزن الترتيب بشائع العادة وقائم العرف والسكينة وراء ذلك كله بالحق والواجب والصحة والتمام، فإنها صراط الله للمخصوصين بالاستقامة عليه، فإذا شهدت المخصوص بها كانت عبارتك عن الملحوظ منها مشاكلة لعبارتك عن أخلاق رضية وأحوال مرضية، وإذا شهدت ذلك المعنى من معاني الحق كانت عبارتك متلجلجة، لا نظام لها ولا تعادل ولا اتساق على العادة الجارية والحالة الطارئة، فأجلّ ما ينبغي لطالب الحكمة، اللائذ بهذه الحومة أن يبحث وينظر، ويكشف وينقر، ويستقصي ويسهر، ويسأل ويستبصر، حتى إذا بلغ هذه الآفاق، وشهد هذه الأعلام، ووجد الصواب الذي لا شوب فيه، وصادف اليقين الذي لا ريب معه، وعرف الاستبانة التي تغني عن البيان، وذاق المعنى الذي هو فوق العيان، أمسك وانتهى، ووقف واستغنى،

لا لعرض ظلام غشيه، ولكن لسلطان شعاع ملكه، لأن ذلك النور محيط بكل شيء دونه، ومستول على كل شيء تحته.

انكشاف الغطاء عن سوأة أفكار أبي سليمان وجماعته

قال أبو حيان التوحيدي في التعقيب على ما ساقه في هذا الفصل من كتاب (الإمتاع) من كلام أبي سليمان المنطقي أستاذه وأستاذ أصحابه، وهو تعقيب يكشف عن سوأة إلحاد خبيث، ويبين أن صاحب هذه الأفكار يدسّ من ورائها في حنايا صدره لوناً خبيثاً من الإلحاد المتدسس، وأن من خلفه من يلتقطون شذرات هذا الإلحاد لينظموا منه عقداً مكتوباً، وكتاباً مقروءاً للإضلال وتحريف كلم الله تعالى في رسالاته عن مواضعها، تستراً وراء التفلسف الأجوف والرمز المبرسم.

وفي هذا التعقيب البين يقول أبو حيان: وكان ـ أي أبو سليمان المنطقي ـ يقول في هذا الفن إذا جد به الكلام، وبدا منه المكتوم، وشرد عنه الخاطر ما لا يوعى بحفظ، ولا يروى بلفظ.

وإنما كان أصحابنا ينتظرون منثوره بهذه الحروف لفظاً لينظموا منه شذراً وعقداً، وكانوا إذا تلاقوا اشتركوا في تقويم ذلك، وتعاونوا على تحبيره، وتصادقوا على مفهومهم منه، وتجنبوا المنازعة والشغب عليه، وأخذوا بالعفو والممكن منه، لئلا يفوتهم المعنى، ولا يتحيرون في المنتهى.

* * *

تنبيه يكشف عن حقيقة هذا التفلسف الخبيث

وهذا كلام واضح المنحى، بيِّن المرمى، ولا يحتاج في فهم أهدافه وغاياته إلى كد الفكر على رغم تلففه في أكفان الرموز والمعميَّات، والإشارات المتغمضة، وجلابيب الهلوسة المتفلسفة، ولا سيما في الحديث عن السكينة الإلٓهية، وقول أبي سليمان المنطقي في وصفها: لا عبارة عنها على التحديد، لأنها كالحلم في الانتباه، وكالإشارة في الحلم، وأنها ليست حلماً ولا انتباهاً في الحقيقة.

والمتعارف عند جميع العقلاء الشعوريين أن الانتباه أعلى درجات التيقظ، وأرفع مراتب الشعور، وأجلى مظاهر الإحساس، فإذا لم تكن سكينة

أبي سليمان الإلٓهية حلماً في رؤى النوم حيث لا شعور ولا انتباه، وإذا لم تكن انتباهاً في أكمل درجات التيقظ والإحساس فماذا تكون تلك السكينة؟ وكيف تكون كالحلم في الانتباه مع أن الانتباه أرفع مراتب التيقظ، وأجلى درجات الحس والشعور؟ ولا يحلم في اليقظة إلا المبرسمون.

ومن بداهات العقل أن الحلم لا يكون إلا عند فقدان الشعور الذي هو أقوى معالم النوم، أو بالذهول المستغرق لمناطق الإحساس والشعور.

وقوله في الرد على سؤال تلميذه أبي العباس البخاري الذي كان من بين الجماعة كأنه مسعر إثارة لكوامن أبي سليمان ليسترسل في معمياته، وغوامض رموزه وإشاراته، عسى أن يكبو جواد حرصه على الغموض الرمزي، فيصرح بما يكنّ ويكتم.

فهذا البخاري يسأل شيخه أبا سليمان قائلاً: فشيء كهذا - أي السكينة الإلٓهية - بدقيقه وإشكاله، وغموضه وخفائه، كيف يظهر على جبلة طينية، وكمية مادية، وكيفية عنصرية - وهو يقصد بموضوع هذه الأوصاف ومصدوقها في الوجود الخارجي الإنسان في صورته البشرية بما لها من خصائص الشعور والإحساس والإدراك -.

فيجيبه أبو سليمان قائلاً: يا هذا، إنما يشع من هذه السكينة على قدر ما استودع أصحابها من نور العقل، وقبس النفس، وهبة الطبيعة، وصحة المزاج، وحسن الاختيار، واعتدال الأفعال، وصلاح العادة، وصحة الفكرة، وصواب القول، وطهارة السر، ومساواته للعلانية، وغلبته بالتوحُّد، وانتظام كل صادر منه، ووارد عليه.

وها هنا تمحّي الجبلة البشرية، وتتبدد الجبلة الطينية، وتبيد الكمية المادية، وتعفو الكيفية العنصرية، ويكون السلطان والولاية والتصريف والسياسة كلها لتلك السكينة التي قدمنا وصفنا لها، واشتد وجدنا بها، وطال شوقنا إليها، ودام تحديقنا نحوها، واتصل رنونا إليها، وتناهت نجوانا بذكرها.

قال: وهذا الامحاء ـ أي للجبلة الطينية، والإبادة للكمية المادية ـ هو الخلع الذي سمعت بذكره، واللباس الذي سألت عنه، أعني ـ أي أبو سليمان ـ خلع ما أنت منه إنسان، ولبس ما أنت به ملك.

وهذا الكلام من غرائب الرموز الإلحادية الباطنية، في تحريف الحقائق، وهو تفلسف ماكر مغرور لأن امحاء الجبلة الطينية، وإبادة الكمية المادية مع بقاء معالمها ورسومها في خلقة الإنسان وتكوينه البشري، وهيئته البدنية، وبقاء آثارها مشهودة في حركات الإنسان وسكناته، وعزته البشرية ضرب من المحال، لا يعقله إلا المبرسمون.

ولهذا استغاث أبو سليمان من توقف تلاميذه في فهم هذه المحالات المبرسمة، وسؤالهم إياه أن يكشف لهم عن رموزها ومعمياتها.

والطامة الكبرى في هذا الكلام الخبيث قول أبي سليمان: أما السكينة التي هي في أعلى المراتب فهي لأشخاص هم فوق البشر، وليست لهم نسبة من الخلق إلا الخلقة الحسية، والعشرة البشرية، وإلا فهم في ذروة عالية، ومحلة إلهية.

وهذا كلام يفضح مكنون الرموز الغامضة، والإشارات المعمّاة، في تفلسف أبي سليمان وعصابته، لأنه كلام تنفرج سوءاته عن سؤال يصطرخ في وجه أبي سليمان وجماعته من متفلسفة ملاحدة الباطنية:

من هم أولئك الأشخاص الذين هم في حقيقتهم الوجودية خلقة وإحساساً إنسانياً، وعشرة بشرية، بشر من البشر، ولكنهم بهذه الأخلوقة التي اختلقها أبو سليمان، وسماها السكينة الإلهية، امتازوا عن سائر البشر، فصاروا فوق البشر، في ذروة عالية، و محلة إلهية ـ كما زعم لهم أبو سليمان المنطقي، وشرذمته من المتفلسفة التحريفيين؟

أهم الأنبياء والرسل المصطفون لقيادة الإنسانية إلى ذروة كمالها المقدور؟ وهؤلاء الأنبياء والرسل هم في حقيقة الواقع الوجودي أعلى ذروة للإنسانية، روحانية، وعقلاً، وكمالاً بشرياً؟.

ولكن أبا سليمان المنطقي يأبى عليه إلحاده المتفلسف أن يكون أولئك الأشخاص الذين رفعتهم سكينته فوق مستوى ذروة البشر، هم صفوة الصفوة من الأنبياء والرسل، لأنه يرى في تفلسفه الباطني الملحد أن الأنبياء والرسل أحط مرتبة من أشخاص سكينته الذين هم في ذروة عالية، ومحلة إلٰهية.

وإذا أخرج منطق تفلسف أبي سليمان المنطقي الأنبياء والرسل من زمرة أشخاص سكينته الإلٰهية، وجعلهم في مرتبة أحط من مرتبة أشخاص هذه السكينة المزعومة عاد السؤال مستبيناً ليعرف حقيقة ومعالم أشخاص سكينته الذين اشتد وجده بهم، وطال شوقه إليهم، وتناهت نجواه بذكرهم، وهم ـ كما صرّح ـ ليسوا بأنبياء، وليسوا رسلاً لله تعالى، ولكنهم فوق الأنبياء والرسل؟.

والذين تمرسوا على كشف حجب الضلالات الرمزية في أساليب متفلسفة الباطنية، ومرنوا على أساليب متفلسفة عبيد الفلسفة اليونانية في إشارات (أبسال وسلامان) من الأحاجي والألغاز التي تطوي تحتها أشياء وأشياء، يعرفون أن أبا سليمان المنطقي وعصابته لا يقصدون بأشخاص سكينتهم الإلٰهية الذين هم ـ في زعمهم ـ فوق مستوى ذروة البشرية، بأنبيائها ورسلها، إلا مؤلهيهم من الفلاسفة، الذين يرونهم ـ كما هو ظاهر في كتب أبي نصر الفارابي ومن تقيَّله ـ أفضل وأعلى منزلة من الأنبياء والرسل، لأن صناعتهم، وهي الفلسفة أجلّ ـ في نظرهم ـ من النبوة والرسالة، وإلا مؤلهي الحلولية الباطنية في اعتقادهم مخرقة الأئمة التعليمية المختفين في سراديب الجبال، يسبحون في العسل والماء.

وأيّما أراد أبو سليمان المنطقي وجماعة تلاميذه بأشخاص أخلوقتهم وسكينتهم من شراذم الإلحاد والضلال الكفور فأمرهم لا يخرج عن كشف سوء معتقدهم في فهم النبوة ومعرفة حقيقتها.

ويمضي أبو سليمان المنطقي في هذه الطامات الإلحادية، فيقول: أما السكينة التي تلي هذه فهي للأنبياء على اختلاف حظوظهم منها، لأنها

مرتبات تنقسم بين النوم واليقظة انقساماً متفاوتاً بالعرض الحامل للصدق، والشبيه بالصدق وللحق والقريب من الحق، وللصحيح، وبالتالي للصحيح.

وهذا كلام صريح في أن مرتبة الأنبياء في حظهم من سكينة أبي سليمان المنطقي وجماعته تالية لمرتبة المؤلهين من الفلاسفة وأئمة التعليميين، الذين هم - في نظر أبي سليمان - فوق البشر، بما فيهم الأنبياء والرسل.

ومرتبة الأنبياء من سكينة أبي سليمان فيها الصدق، والشبيه بالصدق، وفيها الحق وقريب من الحق، وفيها الصحيح والتالي للصحيح، ولا بد من سؤال عما هو هذا الشبيه بالصدق في مرتبة الأنبياء من سكينة أبي سليمان، وليس بصدق؟ أهو الكذب؟ أم شيء وراء الصدق والكذب، لا يوصف بالصدق ولا بالكذب، وإذاً فما هو؟.

ولا بد من السؤال عن هذا الأمر الذي ليس حقاً ولكنه قريب من الحق في حظ الأنبياء من مرتبة سكينة أبي سليمان، أهو الباطل؟ أم شيء وراء الحق والباطل، لا يوصف بأنه حق أو باطل، وإذاً فما هو؟.

ولا بد من السؤال عن هذا الشيء الذي ليس صحيحاً ولكنه تالٍ للصحيح؟ أهو الأمر الفاسد؟ أو هو شيء وراء الصحيح والفاسد، لا يوصف بالصحة ولا بالفساد، وإذاً فما هو؟.

والعقلاء قاطبة لا يعرفون في حقائق الأشياء حقيقة شبيهة بالصدق وليست صدقاً سوى الكذب المموه بالخداع والتغرير، ولا يعرفون شيئاً قريباً من الحق وليس حقاً سوى الباطل المغلف بالغموض والرموز، ولا يعرفون أمراً تالياً للصحيح وليس صحيحاً سوى الأمر الفاسد الملفوف بلفائف المخادعة.

فهل يعني أبو سليمان المنطقي أن حظ الأنبياء من سكينته أنهم في منزلة بين منزلتين، فلا هي صدق، ولا هي كذب، ولا هي حق، ولا هي باطل، ولا هي صحيح، ولا هي فاسد.

فإذا قيل لأبي سليمان: ما هي هذه المنزلة التي يحيا بها الأنبياء في

نبوتهم؟ صرخ أبو سليمان مستغيثاً يقول: واغوثاه منكم، لم لا تتحركون إلا إلى ما لا سكون لكم فيه؟ ولم تسألون عما لا اطلاع لكم عليه؟؟ ما أشد بلواي بكم؟؟...

ونمضي مع أبي حيان التوحيدي في إمتاعه حتى نصل في حديث هذه الليلة إلى أبي سليمان عاري العقيدة، مكشوف سوأة التفكير، ينادي عليه أبو حيان فيقول: (وكان ـ أي أبو سليمان ـ يقول في هذا الفن إذا جد به الكلام، وبدا منه المكتوم، وشرد عليه الخاطر ما لا يوعى بحفظ، ولا يروى بلفظ، وإنما كان أصحابنا ينتظرون منثوره بهذه الحروف لفظاً، لينظموا منه شذراً وعقداً، وكانوا إذا تلاقَوا اشتركوا في تقويم ذلك كله، وتعاونوا على تحبيره، وتصادقوا على مفهوم منه، وتجنبوا المنازعة والشغب عليه، وأخذوا بالعفو والممكن منه، لئلا يفوتهم المعنى ولا يتحيرون في المنتهى).

وهذه الفقر التي يصور بها أبو حيان حال شيخه أبي سليمان المنطقي أدق تصوير صريحة في أن أبا سليمان كان ينطوي على مستكنة من الإلحاد المتفلسف، وكان يجمجم لتلاميذه متدسساً بأفكاره ومذهبه، كتوماً بدخيلته ومعتقده، معتصماً بالرموز الغامضة والإشارات المعماة، حتى إذا سكر مع تلاميذه بخمرة الفكرة في خلوة الحديث الذي يستحوذ على عقله وقلبه، وروحه، وإحساساته ومشاعره بدا منه ما كان يكتم في صدره من إلحاد، وما يكنّ في دخيلته من ضلال، وشرد عنه الخاطر جامحاً لا يملكه لجام الإرادة، فيتكلم بأشياء لا توعى بحفظ فرقاً أن يند منه حرف ينم عنه، ويشير إليه، ولا تروى عنه بلفظ؛ جبانة عن التهمة بسوء الاعتقاد وضلال الإلحاد.

وإنما كان همّ تلاميذ أبي سليمان معه أن يتلقفوا منه ما عفا لهم من لفظ يرمي به ليشتركوا في تقويمه وتحبيره، ويتوافقوا على مفهومهم منه، دون منازعة أو اعتراض عليه، لئلا يضيق بهم ذرعاً، فيفوتهم ما استهدفه من فكرة ومعنى أرادهم به ليضبطوه وينشروه عنه دون تقيد بلفظه وعبارته.

وإلى هنا نكف عنان القلم مكتفين من ليلة أبي حيان عن شيخه أبي

سليمان وسكائنه وجمجمته وتدسسه بأفكاره إلى عقول تلاميذه بما نقلناه منها، ونبّهنا عليه من مواطن التدسيس الفكري الذي انتهى بتعرية أبي سليمان المنطقي وعصابة تلاميذه، وكشف الغطاء عن إلحادهم الذي أبان عنه أبو سليمان في سكينته الإلٓهية، وأفصح عنه أبو حيان في فقره التي صور بها حال شيخه أبي سليمان، وموقف تلاميذه من أفكاره وأحاديثه معهم، مما يجعلنا نرجح، بل نكاد نقطع أن أبا سليمان المنطقي وعصابة تلاميذه، وفي طليعتهم أبو حيان التوحيدي، صاحب (الإمتاع والمؤانسة) وصاحب (المقابسات) ، هم هم «إخوان الصفا» الذين دبجوا بأقلامهم ما تلقفوه من تدسسات شيخهم المتفلسفة، وضلالاتهم الباطنية الملحدة، وأخرجوه للناس في رسائلهم المسمومة المشهورة، والله تعالى هو الكفيل بالمجازاة العادلة.

* * *

تفنيد ابن تيمية آراء الفلاسفة والباطنية الملاحدة في النبوة والوحي

وقد عرض الإمام ابن تيمية في مواضع متعددة من كتابه (النبوات) لآراء الفلاسفة ومن شاكلهم من أرباب الملل والمذاهب في فهم النبوة والوحي، ففندها، وكشف عن زيفها، وأبان بطلانها فقال: وأبعد هؤلاء عن النبوة المتفلسفة والباطنية والملاحدة، فإن هؤلاء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بني آدم، وهو المنام، فهؤلاء المتفلسفة ما قدروا النبوة حق قدرها، وقد ضلّ بهم طوائف من المتصوفة المدعين للتحقيق.

وهؤلاء عندهم جميع ما يحصل في نفوس الأنبياء إنما هو من فيض العقل الفعال، فما يأتي به الأنبياء من الآيات هو عندهم كله من قوة نفس الإنسان، فالخبر بالغيب هو لاتصال نفوسهم بالنفس الفلكية التي يسمونها اللوح المحفوظ، وهذا يحصل للسحرة والممرورين والمصروعين.

ثم قال ابن تيمية: ولما أراد طائفة كأبي حامد الغزالي وغيره أن يقرر إمكان النبوة على أصلهم احتجوا بأن مبدأ الطب، ومبدأ النجوم ونحو ذلك كان من الأنبياء، لكون المعارف المعتادة لا تنهض بذلك... وعلى هذا بنى ابن سينا أمر النبوة أنها من قوى النفس وقوى النفس متفاوتة.

وكل هذا كلام من لا يعرف النبوة، بل هو أجنبي عنها، وأبو حامد في

مثل معراج السالكين ونحوه يشير إلى أن العلم غاية، لا وسيلة، فإن كلامه برزخ بين المسلمين وبين الفلاسفة، ففيه فلسفة مشوبة بإسلام، وإسلام مشوب بفلسفة.

ولهذا ذاكرني مرة شيخ جليل، له معرفة وسلوك، وعلم بهذا، فقال: كلام أبي حامد يشوقك، فتسير خلفه، وهو يشوقك فتسير خلفه، منزلاً بعد منزل، فإذا هو ينتهي إلى لا شيء.

تحقيق معنى النبوة والرسالة عند ابن تيمية

ثم قال ابن تيمية: والمقصود هنا الكلام على النبوة، فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبىء بما أنبأه الله، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول.

وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول... فأولئك الأنبياء يأتيهم وحي من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم لكونهم مؤمنين بهم... فالأنبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره، وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله به من الخبر والأمر والنهي، فإن أرسلوا إلى كفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له كانوا رسلاً بإطلاق... فالنبي وإن كان مرسلاً بمعنى منبئاً لينبىء المؤمنين به لا يسمى رسولاً عند الإطلاق، لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه... وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة، فإن يوسف كان رسولاً وكان على ملة إبراهيم، وداود وسليمان كانا رسولين وكانا على شريعة التوراة. انتهى ما أردنا من كلام الإمام ابن تيمية.

تبيان وتوضيح في معنى النبوة والوحي

فالنبوة في دين الإسلام هي إنباء الله تعالى من يصطفيه من الناس بطريق من طرق الوحي بما يشاء إنباءهم به من أمر، أو نهي، أو خبر، أو أدب وتوجيه وإرشاد، فإن كان هذا الإنباء تكليفاً بتبليغ ما أنبأه به إلى غيره من المكلفين بقبول دعوته كان بهذا التكليف التبليغي رسولاً على الإطلاق، وإن لم يكن هذا الإنباء تكليفاً بالتبليغ، على معنى أن الله تعالى أنبأه بما شاء من أمره، ولكنه لم يأمره بتبليغ ما أنبأه به إلى غيره وإنما طلب منه العمل به في خاصة نفسه ـ كان حينئذ نبياً بمعنى منبأ ومنبئاً عن الله تعالى، دون أن يكون

إنباؤه لغيره بما أنبىء به تكليفاً تبليغياً، فإن سمِّي حينئذ رسولاً فهي تسمية توسعية، وإطلاق عرفي خاص لأنه رسول إخبار، لا رسول تبليغ.

أما الوحي في دين الإسلام وشرعته فهو إنباء الله تعالى وإعلامه لمن يصطفيه لهذه المرتبة العلية في مراتب البشر بما يشاء من أمره بأية طرق من طرق الإنباء والإعلام، وهي الطرق التي هي مراتب الوحي وأنواعه التي عرفها علماء الإسلام تلقياً عن رسول الله ﷺ وهي إما منامية، رؤى صادقة، تجيء مثل فلق الصبح وضوحاً وجلاء، وإما يقظية، وتحتها مراتب، والمنامية هي أول مراتب الوحي، تأتي توطئة وتمهيداً لمراتب الوحي اليقظي، التي هي أكثر مراتب وحي الرسالة، وهي متفاوتة، وأعظمها مرتبة لقاء الملك يقظة بوحي القرآن الكريم، وكل ذلك من مراتب الوحي مندرج في قوله تعالى: ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، إنَّه عليّ حكيم﴾[1].

* * *

مرحلة انفراد النبوة لم ينزل فيها قرآن قط

في دائرة ما استطعنا الوصول إليه من البحث مطمئنين انتهينا إلى أن نبوة نبينا محمد ﷺ كانت متقدمة زمناً ووحياً على رسالته، وهذا قدر توافقنا فيه مع آراء جمع من محققي الأئمة الأعلام من السلف والخلف الذين أشرنا إلى أقوالهم في موضعها من البحث.

كما انتهينا إلى أن مرحلة انفراد النبوة بزمنها ومراتب وحيها ـ سواء أطالت كما في مرسل الشعبي وقرن إسرافيل بالنبي ﷺ في زمنها، الذي بلغ بها ثلاث سنين، أم قصرت كما في رواية دلائل البيهقي التي انتهت بها إلى ستة أشهر، وهي مدة الرؤيا المنامية الصادقة، وهي أول وأكثر مراتب وحي النبوة ـ لم ينزل فيها على النبي ﷺ شيء من القرآن، وأنها كانت توطئة وتمهيداً للرسالة ووحيها.

وقد بيَّن مُرسل الشعبي أن مرتبة النبوة كان الوحي فيها بالرؤيا

---

(١) سورة الشورى آية (٥١).

الصادقة، وسماع الكلمة والشيء من الوحي، تعليماً للنبي ﷺ، وتأديباً له بأدب الاصطفاء الذي تميز به على سائر البشر، وأن الذي قرن به في مدة انفراد النبوة من الملائكة هو إسرافيل عليه السلام، وأن جبريل عليه السلام لم يقرن به إلا حيث بدأت الرسالة ببدء نزول القرآن في وحي يقظي أنزل عليه فيه ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربُّك الأكرم * الذي علَّم بالقلم * علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

وهذا كان ترجيحاً منَّا لم نكن قد انفردنا به، ولكنه كان نتيجة بحث اطمأن إليه نظرنا في النصوص التي أوردنا منها عديداً من الأحاديث المثبتة لذلك.

لم ينزل قط قرآن في وحي منامي

وحديث الشعبي بقرن إسرافيل بالنبي ﷺ مدة نبوته صريح في أن مدة انفراد النبوة بزمنها ووحيها، لم ينزل فيها قرآن قط، وأن نزول القرآن ابتدأ وانتهى على لسان جبريل عليه السلام الذي قرن بالنبي ﷺ بعد انتهاء مدة انفراد النبوة، وبدء الرسالة، وكان بدء قرن جبريل بالنبي ﷺ في أول لقاء يقظي وقع في مفاجأة الغار التي نزل فيها أول ما نزل من القرآن على الإطلاق الآيات الخمس من أول سورة (اقرأ).

وحديث الشعبي صحيح الإسناد إليه ـ كما صرح به شارح المواهب ـ معتمد عند المحققين من أئمة العلم وأعلام المحدثين، وإرساله لا يصلح أن يكون مطعناً لرده وعدم الأخذ به، لأن ما جاء من الأمور التي لا تقال بالرأي، والتي لا سبيل إلى الاجتهاد في مثلها، فلا بد أن يكون مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وأن الشعبي رواه عن صحابي تلقَّاه من النبي ﷺ، والشعبي من أوثق أئمة التابعين، فلا يردّ قوله إلا بما يعارضه معارضة لا مدفع لها من طريق من هو مثل الشعبي في الثقة أو من هو أوثق منه، ولم يقع لنا له معارض إلا ما جاء عن الواقدي، وقد أبَّنا حاله في عدم صلاحيته لمعارضته.

وقد أوضحنا سبيل ما جاء في مرسل عبيد بن عمير من حديث نمط الديباج في النوم، إقراء جبريل النبي ﷺ الآيات الخمس التي افتتحت بها سورة (اقرأ) والتي كانت بدءاً لنزول القرآن الكريم في أول لقاء يقظي لقي

فيه جبريل النبي ﷺ في مفاجأة الغار، وأوضحنا أن جمهور العلماء على أن القرآن الكريم لم ينزل منه شيء قط في النوم، وأنه نزل جميعه كله في وحي اليقظة، وما ورد من الروايات الموهمة لنزول شيء من آي القرآن في النوم كرواية نزول ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ ليس نصاً في ذلك، وهو سهل التأويل، فلا يعارض ما يشبه الإجماع.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذ غفا إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله، فقال: «أنزل عليّ آنفاً سورة» فقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * إنَّا أعطيناك الكوثر * فصلِّ لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر ﴾.

قال الحافظ السيوطي في الإتقان: قال الإمام الرافعي في أماليه: فهم فاهمون من الحديث أن السورة نزلت في تلك الإغفاءة، وقالوا: من الوحي - أي وحي القرآن - ما يأتيه في النوم. . لكن الأشبه أن يقال: أن القرآن كله نزل في اليقظة. . . وقد يحمل ذلك - أي الإغفاءة - على الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي، ويقال لها: برحاء الوحي.

قال السيوطي: الذي قاله الرافعي في غاية الاتجاه، وهو الذي كنت أميل إليه قبل الوقوف عليه. . . وليس الإغفاء - أي في هذا الحديث - إغفاء نوم، بل هو الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي، فقد ذكر العلماء أنه - ﷺ - كان يؤخذ عن الدنيا.

دعوى أن الرسالة بدأت بنزول ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر﴾ وأن النبوة بدأت بنزول ﴿اقرأ﴾ غير مسلَّمة

بَيْدَ أن بعض الباحثين في السيرة النبوية من علمائنا القائلين بانفراد النبوة متقدمة على الرسالة زمناً ووحياً يأتي في كلامهم أن رسالة النبي ﷺ بدأت بنزول قول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ يا أيها المدَّثر قم فأنذر ﴾ محتجين بورود صريح الأمر بالإنذار، وأن أوائل سورة (اقرأ) ليس فيها ما يدل على الإرسال وطلب التبليغ الذي هو خصيصة الرسالة.

ويصرح فريق منهم بأن نزول أوائل سورة (اقرأ) كان من وحي النبوة، بل كان - في رأي بعضهم - هو ابتداء النبوة، ثم فتر الوحي إلى أن

بدأت الرسالة بالأمر الصريح بالإنذار الذي جاء في الآية الثانية من سورة ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾.

وإلى هذا ذهب القسطلاني في مواهبه وشارحها الزرقاني، إذ قالا: فقد تبيَّن أن نبوته عليه الصلاة والسلام كانت متقدمة على إرساله، لأن نزول ﴿ قم فأنذر﴾ - أي الذي كان به بدء إرساله في رأيهم - إنما كان بعد الفترة الواقعة بعد النبوة، على ما ذهب إليه أبو عمر بن عبد البر، وحكاه أبو أسامة بن النقاش، وكان في نزول (اقرأ) نبوته، وفي أول سورة (المدّثر) إرساله بالنذارة والبشارة والتشريع، وهذا قطعاً متأخر عن الأول، لأنه لما كانت سورة (اقرأ) متضمنة لذكر أطوار الآدمي من الخلق والتعليم والإفهام ناسب أن تكون أول سورة أنزلت، وهذا هو الترتيب الطبيعي، وهو أن يذكر سبحانه وتعالى ما أسداه إلى نبيِّه عليه الصلاة والسلام من العلم والفهم، والحكمة والنبوة، ويمن عليه بذلك في معرض تعريف عباده بما أسداه إليهم من نعمة البيان الفهمي، والنطقي، والخطي، ثم يأمره سبحانه وتعالى أن يقوم فينذر عباده.

قال الزرقاني: فلهذه النكتة كانت النبوة سابقة، وقيل: هما متقارنان، وحكى تصحيحه عن بعض الشيوخ، ويؤيده أن الوضوء والصلاة كانا أول الوحي مع نزول (اقرأ)، فإن مفاده أنه لم يأمر خديجة وعلياً بهما إلا بعد الوحي إليه بذلك، وهذا عين الرسالة، وتأخر ظهورها لا يضر لجواز أنه أمر بالتبليغ حالاً لمن علم إجابته وعدم إبائه.

وقول صاحب المواهب: وكان في نزول (اقرأ) نبوته غير مسلَّم، لأن قول شارحه الزرقاني: ويؤيده أن الوضوء والصلاة إلى آخر ما ذكره في عبارته يرده ويثبت أن الرسالة بدأت بنزول أول ما نزل من القرآن، وهو أوائل سورة (اقرأ).

ولا وجه لقول الزرقاني: وتأخر إظهارها لا يضر، لأن وجودها وتحققها يقتضي إظهارها بالتبليغ، والأمر بالتبليغ عام لا يخص شخصاً دون شخص، ومن علم إجابته وعدم إبائه كان موجوداً تحت بصر النبي ﷺ

وسلطانه الاجتماعي، لأن خديجة كانت الزوج الوفية وكانت وزيرة الصدق في كل ما ينوب النبي ﷺ من أعباء رسالته، وعليّ رضي الله عنه كان في كنف الرعاية النبوية والتربية الأبوية، فإجابتهما من أول لحظة وعدم إبائهما متوافر الأسباب.

ولا سند لدعوى مقارنة الرسالة للنبوة التي صحَّحها بعض الشيوخ ـ كما قال الزرقاني ـ لأن حديث الشعبي وغيره من الأحاديث التي تفيد تقدم النبوة على الرسالة زمناً ووحياً يردّ هذه الدعوى، بل إن حديث عائشة عند الشيخين وغيرهما، وهو العمدة في أحاديث بدء الوحي يفهم منه تقدم النبوة على الرسالة، فقد جاء فيه قولها رضي الله عنها: (كان أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة. . . حتى فجئه الحق، فجاءه الملك، فقال له: «اقرأ»).

وهذا يفيد أنه ﷺ نبىء بأول مراتب وحي النبوة، وهي الرؤيا الصادقة، وأنه ﷺ دام على نبوته حتى فجئه الحق، وجاءه الملك بالرسالة في وحي اليقظة بشدته وقوة تنزله، وبما نزل به من آي القرآن الكريم، الذي بدأ بنزول أوائل سورة (اقرأ).

وقد قدمنا نصوص الأحاديث التي خوطب فيها النبي ﷺ بعد مفاجأة الغار وقبل نزول ﴿ يا أيها المدَّثر قم فأنذر ﴾ بأنه رسول الله حقاً، وأن المخاطب له جبريل أمين الوحي، ولا تستقيم مخاطبته ﷺ بذلك في تكرار وتثبيت إلا إذا كانت الرسالة قد أنزلت عليه، وتجلبب جلباب نورها.

ونزول قول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ قم فأنذر ﴾ بعد فترة الوحي التي سبقها باتفاق نزول ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ يدل على أن مطلق الرسالة كان قد سبق نزول هذا الأمر بالإنذار، ثم جاء هذا الأمر ليوجه الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى نوع من ضروب التبليغ قد يكون أشقها وأصعبها، وهذا النوع هو التخويف من بطش الله ونقمته وعذابه، وقد كانت البيئة، وهي تهوي في مهاوي الوثنية أحوج ما تكون إليه.

وإطلاق الإنذار من كل قيد يتعلق به يجعله بمعرض الامتثال على أية

صورة من صور الامتثال والإجابة، حتى جاء الوحي بمراتبه، وتعيين من اختارته العناية الإلهية ليكون أول من يفر إلى الله بقبول رسالاته، وقد تمثل ذلك في دعوة الخواص الذين يجيبون دون تردد، فكانوا هم أسبق السابقين إلى الإيمان بالرسالة وإنذارها.

أسبق السُّبَّق إلى الإيمان

ومن الطبيعي أن تكون طليعة هؤلاء السابقين زوج النبي ﷺ الوفية الأمينة أعقل نساء العالمين السيدة خديجة رضي الله عنها وأرضاها، التي كانت على أكمل المعرفة ببشائر نبوته ﷺ، بل كانت متطلِّعة إلى اصطفائه نبياً ورسولاً، حتى اختاره الله تعالى لنبوته ورسالته رحمة للعالمين.

خديجة أسبق السُّبَّق إلى الإسلام

وقد أجمع أهل العلم من أئمة الإسلام على أن خديجة رضي الله عنها كانت أول البشر قاطبة إيماناً بالله ورسوله، يقول ابن الأثير: لم يتقدمها رجل ولا امرأة بإجماع المسلمين، ويقول ابن إسحق: كانت خديجة أول من آمنت بالله ورسوله، وصدَّقت ما جاء من عند الله عزّ وجلّ، ووازرت النبي ﷺ على أمره، فخفَّف الله بذلك عن رسوله، فكان لا يسمع شيئاً يكرهه من ردٍّ عليه، وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته، وتخفف عليه، وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس.

ثم قَفَّى خديجة في السبق إلى حظيرة الإيمان برسالة محمد ﷺ ربيب النبوة، ورضيع ثديي الرسالة، المتقلب على فراش الإيمان، الناهد في مهد أكرم المكارم، عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه.

علي بن أبي طالب كان ثاني اثنين في السبق إلى الإسلام

آمن في سن الصبا قبل أن يبلغ الحلم، فشبّ معه الإيمان حتى خالط مشاعره ووجدانه وملأ قلبه، وأفعم بالنور روحه، وكانت العناية الربانية قد ساقته إلى حجر رسول الله ﷺ.

يقول ابن إسحاق: وكان من أنعم الله عليه أنه كان في حِجْر رسول

الله ﷺ قبل الإسلام، وذلك أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه ـ وكان من أيسر بني هاشم ـ : «يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه، فلنخفف من عياله، آخذ من بنيه رجلاً، وتأخذ أنت رجلاً، فنكفيهما عنه» قال العباس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله ﷺ علياً فضمه إليه، وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه، فلم يزل عليّ مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبياً، فاتبعه عليّ وآمن به وصدَّقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم، واستغنى عنه.

وفي حديث عفيف الكندي أخي الأشعث بن قيس لأمه، وابن عمه أنه قال: كان العباس بن عبد المطلب لي صديقاً، وكان يختلف إلى اليمن، يشتري العطر ويبيعه أيام الموسم، فبينا أنا عند العباس بمنى فأتاه رجل مجتمع، فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم قام يصلي، فخرجت امرأة فتوضأت، ثم قامت تصلي، ثم خرج غلام قد راهق فتوضأ ثم قام إلى جنبه يصلي، فقلت: ويحك يا عباس، ما هذا الدين؟! قال: هذا دين محمد بن عبدالله، ابن أخي، يزعم أن الله بعثه رسولاً، وهذا ابن أخي عليّ بن أبي طالب قد تابعه على دينه، وهذه امرأته خديجة قد تابعته على دينه، فقال عفيف بعد أن أسلم ورسخ في الإسلام: يا ليتني كنت رابعاً.

زيد بن حارثة الحِبّ كان ثالث ثلاثة في السبق إلى الإسلام

ثم كان ثالث أسبق السابقين إلى ساحة الهداية حِبّ رسول الله ﷺ ومولاه زيد بن حارثة الذي أفرده الله بأشرف الشرف، فذكره في القرآن الكريم باسمه، ممتناً عليه بإنعامه عليه بنعمة التوفيق إلى الإيمان في طليعة أسبق السابقين، وممتناً عليه بإنعام رسوله ﷺ بالحرية والولاية ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه ﴾ قال ابن عبد البر: روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أحب الناس إليّ من أنعم الله عليه وأنعمتُ عليه».

وزيد الحب من صميم العرب، وعُليا قبائلهم، وقد ذكر أبو عمر ابن عبد البر في الاستيعاب نسبه من جهة أبيه عن ابن الكلبي وغيره في تفصيل وإسهاب حتى ألحقه بيعرب بن قحطان، وذكر نسبه من جهة أمه، وهي سعدى بنت ثعلبة من بني معن، وينتهي نسبها إلى طيء.

ثم روى أبو عمر عن ابن عباس وجميل بن يزيد الكلبي قال: خرجت سعدى بنت ثعلبة أم زيد بن حارثة - وهي امرأة من طيء - تزور قومها وزيد معها، فأغارت خيل لبني القَيْن بن جسر في الجاهلية، فمروا على أبيات بني معن رهط أم زيد، فاحتملوا زيداً وهو يومئذ غلام يفعة فوافَوا به سوق عكاظ فعرضوه للبيع، فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له.

وقد حزن عليه أبوه وقومه حزناً جعلهم يضربون في الأرض بحثاً عنه، وكان ينشد في التفجع عليه الشعر، يبكي به غيبته التي لا يعرف لها نهاية، ولا يعرف لابنه فيها مستقراً أو مقاماً.

وقد روى أبو عمر وغيره من أشهر شعر التفجع عليه قوله:

بكيتُ على زيد ولم أدرِ ما فعلْ	أحيٌّ يرجَّى أم أتى دونه الأجل
فوالله ما أدري وإن كنت سائلاً	أغالك سهل الأرض أم غالك الجبل
فياليت شعري هل لك الدهر رجعة	فحسبي من الدنيا رجوعك لي بجل
تـذكـرنيه الشمس عند طلوعهـا	وتعرض ذكراه إذا قارب الطَّفَل
وإن هبت الأرواح هيجن ذكـره	فيا طول ما حزني عليه ويا وجل
سأعمل نص العيس في الأرض جاهداً	ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حيـاتي أو تـأتي علـيَّ منـيـتي	وكل امرىء فانٍ وإن غرّه الأمل
سـأوصي به قيسـاً وعمراً كليهـما	وأوصي يزيد ثـمَّ من بعده جبل

وهذه الأسماء في البيت الأخير أسماء إخوة لزيد رضي الله عنه، قال ابن حجر في الإصابة: يعني بقيس وعمرو أخويه، وبيزيد أخا زيد لأمه، وهو يزيد بن كعب بن شراحيل، وبجبل ولده الأكبر، وهو أيضاً أخو زيد

كما صرح به الحافظ ابن عبد البر في قوله: يعني جبلة بن حارثة أخا زيد، وكان أكبر منه.

ولما حضر موسم الحج قدم ناس من قومه من كلب حجاجاً فرأوا زيداً فعرفهم وعرفوه، فأراد أن يكفكف دموع أبيه وقومه ويخفف من لهفتهم عليه ببعث الطمأنينة إلى قلوبهم، وإعلامهم بحياته وسلامته وسعادته حيث يقيم في أرغد مقام، فقال للقوم الذين عرفوه وعرفهم: أبلغوا أهلي هذه الأبيات فإني أعلم أنهم قد جزعوا عليّ، فقال:

أحنُّ إلى قومي وإن كنت نائباً　　فإني قطين البيت عند المشاعر
فكفُّوا من الوجه الذي قد شجاكم　　ولا تعملوا في الأرض نص الأباعر
فإني بحمد الله في خير أسرة　　كرام معدٍّ كابراً عن كابر

فانطلق الكلبيون فأعلموا أباه ووصفوا له موضعه، وعند من هو، فخرج أبوه حارثة وعمه كعب ابنا شراحيل لفدائه، وقدما مكة فسألا عن النبي ﷺ، فقيل: هو في المسجد، فدخلا عليه، فقالا: يا ابن عبد المطلب، يا ابن هاشم، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكُّون العاني، وتطعمون الأسير، جئناك في ابننا عندك، فامنن علينا، وأحسن إلينا في فدائه، فإنا سنرفع لك، قال النبي ﷺ «من هو؟» قالا: زيد بن حارثة، فقال ﷺ لهما: «أوَغَيْرَ ذلك» قالا: ما هو؟ قال ﷺ: «أدعوه فأخيِّره، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً» قالا: أحسنت وزدتنا على النِّصَف، فدعاه النبي ﷺ فقال له: «هل تعرف هؤلاء؟» قال زيد: نعم، هذا أبي، وهذا عمي، قال النبي ﷺ: «فأنا من قد علمت، ورأيت صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما» قال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني بمكان الأب والعم، فقال أبوه حارثة وعمه كعب: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال زيد: نعم، إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً، ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ أخرجه إلى الحجر فقال: «يا مَنْ حضر، اشهدوا أن زيداً ابني، يرثني وأرثه»

فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما، فانصرفا، ودعي زيد بن محمد، حتى جاء الإسلام فنزلت (ادعوهم لآبائهم)، فدعي يومئذ زيد بن حارثة.

قال أبو عمر بن عبد البر: وذكر معمر في جامعه عن الزهري قال: ما علمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة، وقال عبد الرزاق: وما أعلم أحداً ذكره غير الزهري، قال أبو عمر: وقد روي عن الزهري من وجوه أن أول من أسلم خديجة، وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة يَرِدُ على قول عبد الرزاق دعواه أن القول بعدم سبق أحد إلى الإسلام زيد بن حارثة لم يعلم أن أحداً ذكره غير الزهري: قلت: قد ذكره الواقدي بإسناد له عن سليمان ابن يسار، جازماً بذلك، وقاله زائدة أيضاً.

وعن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لزيد ابن حارثة: «يا زيد أنت مولاي، ومنّي وإليَّ، وأحب الناس إليّ» أخرجه ابن سعد بإسناد حسن.

* * *

سبق أولاده ﷺ إلى الإسلام لا يحتاج إلى نص

ولم يذكر العلماء في هذا الصدد أسبقية أولاده الأطهار ﷺ إلى الإيمان برسالته والتصديق بدعوته، لأن أبناءه الذكور: القاسم، وعبدالله الملقّب بالطيب والطاهر، وإبراهيم ابنه ﷺ من السيدة مارية بنت شمعون المصرية ـ ماتوا جميعاً في سن الطفولة.

وأما بناته ﷺ الطاهرات عليهنّ السلام: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، فكلهن أدركن الإسلام وأسلمن، وكنّ مع أمهن سيـدة نساء العالمين السيدة خديجة في طليعة أسبق السابقين والسابقات إلى ساحة الإيمان به ﷺ نبياً ورسولاً.

قال الزرقاني في شرح المواهب: ولم يذكر بناته ﷺ ـ أي في السابقين ـ لأنه لا شك في تمسكهن قبل البعثة بهديه وسيرته.

وقد روى ابن إسحاق عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: لما أكرم الله نبيه بالنبوة أسلمت خديجة وبناته، وفي رواية عنها قالت: أسلمت

رقية حين أسلمت أمها خديجة، وبايعت حين بايع النساء، وأسلمت أم كلثوم حين أسلمت أخواتها وبايعت معهن.

أما فاطمة رضي الله عنها فقد ولدت في أصح الروايات بعد البعثة بقليل، ونشأت على الإسلام وأتقى التقى، قال الزرقاني: والحاصل أنه لا يحتاج للنص على سبقهن إلى الإسلام، لأنه معلوم، وهو يقصد بهذا إلى أن ذلك نتيجة لازمة لزوماً قطعياً لنشأتهن بين أحضان أصدق وأكرم أبوة، وأفضل وأحنى أمومة، يأخذن عن أبيهن أكرم المكارم، وعن أمهن حصائل العقل الذي لا يوزن به عقل امرأة في السابقين ولا في اللاحقين.

فهنّ عليهن السلام في قَرَن مع أمهن السيدة خديجة، ينظمهن معها عِقْد أسبق السابقين والسابقات إلى الإسلام، والتصديق برسالة أبيهن سيد الخلق ﷺ، الذي كان أباً قبل أن يكون رسولاً، وقد كانت مكارم أخلاقه، وعظيم شهرته بها ورفيع صفاته التي تميز بها عن سائر بيئته وقومه بين أيديهن، يرينها رأي البصر والبصيرة، ويسمعنَ أحاديث الناس عنها، والولد على نهج أبيه وأمه ينشأ.

ولعل عدم ذكرهن عليهن السلام في السبق إلى الإسلام كان أثراً من آثار الجو العام للبيئة التي بزغت فيها شمس الإسلام ورسالته، فقد كُنَّ إذ ذاك في سن لا تعتد بها تلك البيئة في مواقف الإناث من كبريات الأحداث، إلى جانب موضعهن من أبوة رسول الله ﷺ، مما تقضي معه البداهة ألَّا يقفنَ موقفاً قصياً عن مطالع الإيمان ومشارق الرسالة، والتصديق بالدعوة التي ملأ نورها خدورهن، وساحات حركاتهن حول أمهنّ التي كانت وزيرة صدق لأبيهن ﷺ في مؤازرته على رسالته التي بعثه الله بها ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

أما ما حفَّ بأمهن من العناية الفائقة في ذكرها طليعة للسابقين والسابقات إلى الإسلام قاطبة فنظراً لما كان لها من المكانة الاجتماعية في قومها، فقد كانت منذ الجاهلية قبل أن تتشرف بزواج رسول الله ﷺ معروفة بالفضل والنبل ورفعة الشرف، وحسن الأحدوثة، ونظراً لما كان لها من الآثار

الحميدة الباهرة التي انفردت بها في مطلع شمس الرسالة، من شدها أزر رسول الله ﷺ والوقوف إلى جانبه في عزيمة فاقت في قوتها وصلابتها عزائم أبطال الرجال، فقد كانت رضي الله عنها تخفف عنه ﷺ شدائد التبليغ، وتهوِّن عليه فدائح ما يلقى في سبيل دعوته، وتزيده تثبيتاً على أمره مما جعلها دعامة من أقوى مساند الرسالة وانتشارها.

أبوبكر الصديق أول البشر إسلام دعوة وتبليغ

ثم آمن أول مدعو إلى الإسلام، فحلُ الملَّة، وإمام الأمة، سيد المسلمين وأفضل أتباع الأنبياء والمرسلين، الصدِّيق الأعظم، ثاني أول اثنين في أعظم منازل الفداء، وأجلّ مصادق الإيمان، من وسمه الله تعالى بأشرف الألقاب، قرآناً يتعبد به ويتلى إلى يوم القيامة، فجعله الصاحب الأخص بإضافة التكريم في الامتنان الأعظم على الحبيب الأكرم، يعرض تهييج الأمة على الكفاح المؤزر الذي ينتظرها بعد محنة أفظع مؤامرة في أخس وأدنأ خطة كافرة حاقدة، حيث بدأت الهجرة، وتبسَّمت التضحية في وجه الموت، بين فكّي المنية في غار ثور، فداء للحبيب المحبوب، عنوان الحقيقة الكبرى، ونور الهداية العظمى، وشمس الرسالة الخاتمة، ومهبط أمين أمناء الوحي من الملأ الأعلى، ومجلى الروحانية العليا محمد رسول الله ﷺ: ﴿ إلَّا تنصروه فقد نصره الله؛ إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا ﴾[1].

يقول الإمام الشعبي: عاتب الله أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر.

لله أنت يا صدِّيق رسول الله ﷺ: من مثلك في المؤمنين أتباع الأنبياء منذ نبأ الله آدم أبا البشر إلى أن أبرزك الله من ذريته أخص صاحب لأخص حبيب له عزّ وجلّ، محمد عبده ورسوله، وخاتم أنبيائه؟ حسبك من شرف وفضل أن الله تعالى نظمك في سلك المعية الخاصة، بعد أن آنسك برشح من غيث شهود الحبيب، حيث رفعت حجب البشرية، وانطلق لسان الروحانية العليا يخاطبك من أفق الملأ الأعلى، ليلقي في قلبك وروحك باسم

(١) سورة التوبة آية (٤٠).

اليقين، وقد اهتزت منك مشاعر الإشفاق على نور الحياة أن تصيب شمسه عاصفة من عواصف الجحود الأصم الأعمى، فينطفىء شعاعها، ويسود الظلام آفاق الوجود.

وأحسّ ذلك منك سيد الوجود وهو مغمور بأنوار الشهود، وحيث كانت روحه تسبح في بحار التقديس مع أعلياء الملأ الأعلى، فألقى إليك درة من لآلىء شهوده ليثبتك على دعائم ﴿ والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ فقال لك إذ قلت معبِّراً عن إشفاقك ما قلت: (لا تحزن إن الله معنا) فتنزلت عليك السكينة، وتجلت لك لوحة بسطورها اللوامع من وراء حجب الإشفاق، فقرأت وعرفت أنه ﷺ وإياك في رحلة عقد لواءها النصر المؤزر، وأيد الله رسوله بجنود من عوالم الغيب، لا تقع تحت طائلة رؤية العيون والأبصار، ولا تحتويها إلا بصائر المصطَفَين من الصدِّيقين.

روى الطبراني: أن عليّاً رضي الله عنه كان يحلف بالله أن الله أنزل اسم أبي بكر من السماء صدِّيقاً، قال علماؤنا من السلف والخلف: وهذا حكمه الرفع إلى رسول الله ﷺ إذ لا مدخل للرأي والاستنباط في مثله.

* * *

طريقة للتوفيق بين القول بأسبقية إسلام أبي بكر والقول بأسبقية إسلام خديجة ومن أظلهم سقف بيتها

والقول بأسبقية السيدة خديجة وبناتها من سيدنا رسول الله ﷺ إلى الإسلام، وأسبقية علي رضي الله عنه، وزيد بن حارثة، من كل من كان يظلهم سقف بيت رسول الله ﷺ في رعاية الزوجية، والأبوة، وحضانة التربية والولاء ـ لا يعارض قول جمهور العلماء من الصحابة والتابعين وتابعيهم، ومن جاء بعدهم من الأئمة بأسبقية الصديق أبي بكر رضي الله عنه جميع البشر إلى ساحة الإيمان برسول الله ﷺ، والتصديق برسالته، لأن إسلام أسرة رسول الله ﷺ: زوجه وبناته، وربيب رعايته وتربيته ابن عمه، ومولاه وحبه ـ كان إسلام الفطرة النقية الطاهرة، التي ولدت في مهد الإيمان، ونشأت بين أحضان النبوة، حيث شاهدت أكرم مكارم الأخلاق، ورأت معالم النبوة وآياتها الإرهاصية، تتجلى في حياة النبي ﷺ قبل نزولها، ثم رأت معالم الوحي، وسمعت آيات الله تتلى في بيتهم، والحكمة تتنزل

بينهم، وشهدت النبي ﷺ وهو الزوج الحبيب الأكرم، والأب الودود المحب الحبيب، والحاضن المربي الشفيق، والمولى الرحيم الرفيق، والمعلم المهذب المؤدب، والمشرِّع السمح الحكيم، والرسول المصداق الأمين، ينزل عليه الوحي بآيات الرسالة وشرائعها وأحكامها وآدابها، فإذا هو ﷺ صورة حية متحركة لهذه الآيات والشرائع والأحكام والآداب، فيأخذون عنه خلقه وعمله مشاهدة ومحاكاة، ويسمعون منه ما يأمر به ويرغب فيه من الخير وما ينهى عنه وينفِّر من مقاربته من الشر، فيتشربون من يقينه وإيمانه وحكمته وآدابه وشرائعه ما تطيق قلوبهم وأرواحهم حمله، وتترسم عقولهم ما تستطيع إدراكه من مشاهد النبوة والوحي، وإشراق الرسالة، وينهضون إلى القيام بجوارحهم أداء لما يطلب من الجوارح.

فسبق هؤلاء الغرِّ الميامين إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده، والتصديق برسالة النبي ﷺ فطري طبيعي، تقتضيه الفطرة النقية، والطبيعة الناهدة بين أحضان الخير والهدى، لأن في ذلك تحقيقاً لما يشهدونه في واقع حياة الأب والزوج والمربي، والرسول الصادق المصدق من أدب وخلق وعمل، ليصنعوا منه صورة أنفسهم وعقولهم وقلوبهم وأرواحهم ومشاعرهم وإحساساتهم تحبباً إليه، واستجابة له، وإيناساً لخوالجه، وتقرباً إلى الله تعالى.

وهذا هو أصدق ضروب الإيمان، فهو إيمان استجابة لدوافع الفطرة المطهَّرة التي لا تدفع، وهو إيمان ينبع من الامتزاج بحياة قام بنيانها على الإخلاص المؤمن بكل حركة يشهدونها من النبي ﷺ، لم يكن إيماناً عن دعوة تبليغية منه ﷺ لأسرته ومجتمع بيته وأهله لأنهم لم يكونوا في حاجة إلى دعوة وتبليغ، ضرورة تكيّفهم بكل ما يرون ويسمعون في هذا البيت الكريم، وضرورة تقبلهم لكل ما يشهدون من الخير تقبل الفطرة النقية، وطبيعة النشأة الحاكية وتصديق الإيمان والإسلام.

ولم نَرَ في روايات الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته رواية تذكر أن النبي ﷺ دعا أهله وأفراد أسرته الخاصة المقيمين معه في ظل رعايته وتربيته ببيته تبليغاً لرسالته إليهم، لأنهم كانوا مدعوين بالفطرة والتربية، فأجابوا

بهذه الفطرة، وهذه التربية، وسبقوا إلى الإيمان والإسلام.

أما ما ورد في بعض الروايات من دعوة لعلّي رضي الله عنه إلى الإسلام، وتوقفه بعض الشيء، ثم أسرع إلى الإجابة وسبق إلى الإيمان في طليعة السابقين فلم تثبت لنا صحته، ولو فرضناه صحيحاً فهو من قبيل التثبيت والمساندة، لأن وجود عليّ رضي الله عنه في أحضان تربية النبي ﷺ مع أسرته في بيته وهو صبي كان لأمر خاص، قصد به إسعاد أبي طالب ومعاونته ـ وكان كثير العيال ـ في التخفيف عنه من عبء الأزمة المعاشية التي نزلت بقريش، ولم يكن هذا الوجود ليبعد علياً عن أبيه وإخوته وعمومته، وهم على شركهم إذ ذاك مقيمون، فكان رضي الله عنه في حاجة إلى التثبيت والمساندة بالدعوة والتبليغ.

أما إسلام أبي بكر رضي الله عنه فكان إسلام أول رجل حرّ مكلف، مدعو إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، والتصديق برسالته، وكان إسلامه إسلام أول رجل حر مكلف بلّغه النبي ﷺ رسالة ربه، فهو إسلام استجابة لدعوة النبي ﷺ وتبليغه رسالته. فأبو بكر رضي الله عنه كان أول مبلَّغ بالرسالة، وأول مدعو إلى الإسلام، فأسرع إلى تصديق النبي ﷺ دون تلبث أو تردد، وفي ذلك يقول النبي ﷺ كما ذكره ابن إسحاق: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر، ماعكم ـ تلبث ـ عنه حين ذكرته له» ومن ثم ألبسه الله تعالى خلعة الصدِّيقية، فلقب بالصدِّيق.

فأبو بكر رضي الله عنه آمن بالله ورسوله وصدق برسالة ربه لحظة أن دعي إلى الإسلام دون سؤال أو توقف أو حاجة إلى نظر، فكان أول البشر مدعواً إلى الإيمان، وكان أول الناس استجابة إلى الإسلام، لم يسبقه إليه أحد قط، دعي وبلغ واستجاب كما دعي هو وبلغ فأجاب، وسبق، وكان ثاني اثنين في الدعوة إلى الله ورسوله، كما كان ثاني اثنين في الهجرة إلى الله مع رسوله.

وبهذا الطريق في فهم الروايات والأوضاع يصح قول جمهور المسلمين:

إن أبا بكر الصديق كان أول الناس إسلاماً.

وقد ثبت في بعض الروايات أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سمع من ورقة بن نوفل ما سمعته خديجة رضي الله عنها من تبشير النبي ﷺ بأنه نبي هذه الأمة، وأن الله أرسله هادياً ومبشراً ونذيراً، وأنه هو الذي بشر به عيسى بن مريم، وأنه على مثل ناموس موسى.

وفي بعض هذه الروايات تصريح بأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه صحب النبي ﷺ إلى ورقة في مشرق رسالته قبل أن يعرف عنها أحد من الناس ـ خاصتهم وعامتهم ـ شيئاً، سوى خديجة رضي الله عنها التي كانت تعرف كل شيء في مطلع إبانه وأول لحظات وجوده، بإحساساتها وتطلعاتها وتوسمها المتفرس، وكانت إنباءات النبي ﷺ بما يقع له من الأحداث والآيات والعجائب والإرهاصات تجيء مؤكدة لحدسها وتفرسها، وزادها تأكيداً في يقينها بما كانت تتوقعه ما سمعته من ورقة بن نوفل عقيب مفاجأة الغار، ساعة عاد إليها رسول الله ﷺ ترجف بوادره من هول ما رأى وسمع، ومن شدة ما كان وتحمل، في أول لقاء يقظي لقيه فيه جبريل عليه السلام، وأوحى إليه من أمر ربه ما أوحى، وأقرأه أول ما أنزله الله عليه من كتابه ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ فأخبرها وقص عليها ما رأى وسمع، وانطلقت به إلى ابن عمها ورقة، وحدَّثته بما حدثها به رسول الله ﷺ، فسمعت من ورقة ما صدَّق تفرسها، وأقرَّ عينها، وأكد توسمها وتطلعها في مستقبل محمد ﷺ ونبوته ورسالته، مسندة له بما تعلمه يقيناً صادقاً من اتصافه ﷺ بأكرم مكارم الأخلاق التي لا يخزي الله صاحبها.

قال صاحب (عيون الأثر): وفي رواية يونس عن ابن إسحاق بسنده إلى أبي ميسرة، عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، وقد خشيت والله أن يكون لهذا أمر» قالت: معاذ الله: ما كان الله ليفعل ذلك بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث.

فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله ﷺ ثَمَّ ذكرت خديجة له، فقالت:

يا عتيق اذهب مع محمد إلى ورقة، فلما دخل رسول الله ﷺ أخذ أبو بكر بيده، وقال: انطلق بنا إلى ورقة، فقال النبي ﷺ: «ومن أخبرك؟» قال: خديجة، فانطلقا إليه، وقصا عليه، فقال النبي ﷺ: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء من خلفي يا محمد، يا محمد، فأنطلق هارباً في الأرض» فقال له ورقة: لا تفعل، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول لك، ثم ائتني وأخبرني، فلما خــلا رسول الله ﷺ وحده ناداه يا محمد، يا محمد، قل: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. حتى بلغ: ولا الضالين، قل: لا إلّه إلا الله، فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فقال ورقة: اثبت، وأبشر، فأنا أشهد أنك الذي بشَّر به ابن مريم، وأنك على مثل ناموس موسى، فإنك نبي مرسل، وأنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، ولئن أدركني ذلك لأجاهدن معك.

فلما توفي ورقة قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيت القس في الجنة، وعليه ثياب الحرير، لأنه آمن بي وصدَّقني».

ففي هذه الرواية تصريح يصدقه التاريخ بأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان أصفى الأصفياء لمحمد ﷺ، وكان ألصق الناس به قبل مبعثه، وأقواهم مودة، وأعظمهم صداقة، وأكثرهم له خلطة، وأشدهم امتزاجاً بروحه وعقله، وألزمهم عشرة، حتى كأنه أحد الأخصَّاء في أهله، يعلم من أمره وحاله ما لم يعلمه من لم يؤهله حياء الأدب - في ظل الرعاية والتربية وهيبة الأبوة، سناً وتجربة وتأثراً بسنن البيئة والمجتمع بما يكون بين الأكابر والأصاغر - لعلم مثله قبل أن يظهر ويتحدث به، وأن السيدة خديجة رضي الله عنها كانت على أكمل المعرفة بما بين محمد ﷺ وأبي بكر من صفاء المودة، وامتزاج الإخاء والصداقة، مما يجعل أبا بكر أعلم الناس بأمره ﷺ، وأن لا حرج عندها من إخباره بما حدثها به النبي ﷺ مما وقع له، وأن تطلب منه أن يصحبه إلى ورقة ليسمع منه ما يقول، تأكيداً لفراستها وتوسماتها، وزيادة في تثبيت النبي ﷺ وتخفيف ما يجول في خواطره.

فلما حدثها رسول الله ﷺ بما حدث له من سماع النداء باسمه، دون

أن يرى من يهتف به ويناديه، وإشفاقه من ذلك؛ أرادت أن تزيح عن كاهله عبء ما علق بنفسه من القلق والخشية، وتزيده تثبيتاً فوق ما كانت تثبته به وتؤنسه لتفرج عنه ماألـمَّ بنفسه من أثر مفاجأته بأمور غريبة لا عهد له بمثلها.

وكانت خديجة رضي الله عنها قد زارت ابن عمها ورقة بن نوفل أول مرة بعد إذ فاجأها النبي ﷺ ترجف بوادره، وأخبرها بما حدث له في الغار، وحدَّثت ورقة بما حدثها به رسول الله ﷺ، وسمعت عنه بشارته لرسول الله ﷺ بأنه نبي مرسل.

وكان رسول الله ﷺ قائماً على تعبده في غار حراء، فلما وقع له ما وقع لم يقطع جواره وتعبده، بل ظل على ما كان عليه، مما يدل دلالة قاطعة على أن ما وقع في نفسه من الخشية، لم يكن قط خشية تمس مداركه أو شعوره، وذهب إلى خلائه، وقضى ما كان يقضيه من التعبد، وإطعام المساكين، متفكراً في آيات الله وآلائه، وعاد إلى أهله بعد أن سمع النداء باسمه، دون أن يرى من يناديه، وأخبر أهله جرياً على حميد عادته معهم في الأنس بهم، والإفضاء إليهم بما يحدث من أمره، فآنسته بما كانت تؤنسه به من حفاوة الله تعالى به، وما خصه به من مكارم الأخلاق وحميد الشمائل.

وكان أبو بكر رضي الله عنه دائم التنسم لعَرْف رسول الله ﷺ في تلمس لقائه، وكثرة التردد عليه في بيته، ليلقاه ويزود روحه وعقله بمشهده، ومطالعة مكارم أخلاقه. وجاء أبو بكر رضي الله عنه إلى بيت رسول الله ﷺ جرياً على سنته، وكان رسول الله ﷺ ساعة مجيء الصديق غير موجود في البيت، فقالت خديجة رضي الله عنها لأبي بكر: يا عتيق اذهب مع محمد إلى ورقة، فلما جاء رسول الله ﷺ أخذ أبو بكر بيده، وقال له: انطلق بنا إلى ورقة، ويظهر أن سيدنا رسول الله ﷺ كان حريصاً على أن يبقي ما أفضى به إلى زوجه السيدة خديجة رضي الله عنها سراً لا يطَّلع عليه أحد، مهما تكن خصيصته به، حتى تنجلي شمسه، ولعله من هنا كان سؤاله للصدِّيق سؤالا لا يخلو من استغراب وعدم توقع، فقال له: (من أخبرك؟) كأنه ﷺ خشي تفلُّت الحديث وتسربه، لكن الصديق أخبره،

فقال: أخبرتني خديجة، فاطمأن النبي ﷺ، وتيقّن أن الأمر لم يخرج عن دائرة أصفى الأصفياء وأخص الأصدقاء.

ولو لم تكن خديجة رضي الله عنها تعلم علم اليقين منتهى الرضا من نفس رسول الله ﷺ ما أخبرت الصدِّيق، ولا طلبت إليه أن يذهب مع رسول الله ﷺ إلى ورقة ليزداد بسماع كلامه وتبشيره باصطفاء الله له نبياً ورسولاً تثبيتاً في أمره، ويقيناً في حاله، ويذهب عن نفسه ما يجد من قلق وخشية.

ولا شك أن هذا يدل على كمال الأنس وأصفى صفاء المودة، وأخلص الصداقة بين النبي ﷺ وأبي بكر الصديق، بدليل أن النبي ﷺ لم يبد عليه أدنى مظهر من مظاهر الإنكار وعدم الرضا لتعريف الصديق بأمر من أخصِّ أحواله، لم يفض لأحد قط سوى زوجه ومأنسه ووزيرة الصدق له في تحمل أعباء الرسالة، بل استجاب إلى طلب الصديق ومرافقته إلى ورقة بعد أن علم أن خديجة هي التي أخبرت أبا بكر بما حدث، فبشره ورقة وفرّج عنه، وازداد بكلامه تثبيتاً،وآمن به وصدق برسالته، وتمنى لو أنه أدرك الجهاد معه لينصره نصراً مؤزراً.

ومن ثم وقر الإيمان في قلب أبي بكر رضي الله عنه كما وقر في قلب الصديقة خديجة رضي الله عنها، فكانا أول لؤلؤتين في عقد دراري السابقين إلى الإسلام، وكانا أسبق السابقين إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ، وتصديقه فيما جاء به عن الله تعالى دون أدنى تردد أو توقف.

وقد كان لخديجة رضي الله عنها في مطالع إيمانها مشرق الرسالة سوابق لم تكن لأبي بكر رضي الله عنه ولا لغيره قط، وكانت لأبي بكر رضي الله عنه في مدى حياته الإيمانية، منذ دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام أول مدعو إليه، فأجاب دون تلبث إلى أن ردّ رسن الإسلام إلى غاربه في جهاد الردّة - سوابق لم تكن قط لأحد غيره من أتباع النبيين والمرسلين.

فلكل من السابقَيْن فضله الذي ينفرد بشرفه فلا يلحقه فيه لاحق.

وقد سبق أن ذكرنا أن العلاَّمة الحافظ الإمام ابن حجر العسقلاني استنبط من حديث أبي ميسرة أن خديجة رضي الله عنها أول الآدميين إيماناً برسول الله ﷺ، وأن هذا الحديث أصرح نص في ذلك.

وهذا الحديث نفسه الذي استنبط منه الحافظ العلامة هذا الحكم يحمل في غضون قصته كما عرضناه وأوضحنا معالمها دلائل أولية سبق الصديق أبي بكر رضي الله عنه إلى الإسلام بسيدنا رسول الله ﷺ والتصديق برسالته أوليَّة، لا نقول فيها أنه سبق فيها خديجة رضي الله عنها، ولكنها أوليَّة يحل عقدتها في مسابقته لها أنها أولية تشبه أولية المتكافئين في الشوط اللذين وصلا فيه إلى الغاية قَرنًا واحداً، أو أولية تشبه أولية المتكافئين في مسابقة امتحانية من التي يعبِّر عنها الفنيون في نظم المسابقات بأنها تكافؤ (مكرر) لم يسبق فيه أحد المتسابقين صاحبه، ولكنهما تساويا في درجات التقدم.

وهذه الأولية المتكافئة (المكررة) لا تخضع لحكم فواصل لحظات الزمن لتقارب لحظات التقدم أو التأخر إلا كما يخضع أثر يقين الفطرة الملازمة اللاقطة في مرآتها صور جزئيات الوقائع والأحداث ممثلة في إسلام خديجة الزوجة البرة الوفية الأمينة، وأثر يقين العقل الغوّاص في أعماق النفس والأحداث ممثلاً في إسلام أبي بكر وسرعة استجابته لدعوة النبي ﷺ أول من دعا لحظة التبليغ، لعلمه بموجبات الصدق عند رسول الله ﷺ.

يقول الزرقاني في شرح المواهب: ووقوع إسلام الصديق عقب إسلام خديجة، لأنه كان يتوقع ظهور نبوته عليه السلام، لما سمعه من ورقة، وكان - أي أبو بكر - يوماً عند حكيم بن حزام، إذ جاءت مولاة (جارية) له فقالت: إن عمتك خديجة تزعم في هذا اليوم أن زوجها نبي مرسل، مثل موسى، فانسل أبو بكر حتى أتى النبي ﷺ، فأسلم.

وقول الزرقاني: أنه كان يتوقع ظهور نبوته عليه السلام لما سمعه من ورقة يدل على ما ذكرناه من مشاركة أبي بكر السيدة خديجة رضي الله عنهما في إشراق نور الإيمان في قلبهما لما سمعاه من ورقة.

فالسيدة خديجة رضي الله عنها كانت الزوجة الوفية الأمينة التي رزقها الله عقلاً لَمّاحاً، وفطنة صافية زاكية، لم يعرف تاريخ الإنسانية لها نِدّاً في صدق وفائها وأمانة سرها، واستشراف عقلها إلى مطالعة أعماق النفوس البشرية، وعرفانها بآثار الفضائل والمكارم في صياغة الحياة الفردية والاجتماعية وموافقات تطلعاتها المتوسمة، وتفرساتها الألمعية.

كانت للنبي ﷺ وزيرة صدق، ومأنس تثبيت، وموئل تهوين للشدائد وتوهين للمصاعب، فلم يكن رسول الله ﷺ يسمع شيئاً يكرهه إلا فرَّج الله بها عنه، وزاده تثبيتاً ويقيناً في أمره، وقوة في احتماله وصبره.

وأبو بكر رضي الله عنه هو الصاحب الوفي، والصديق الأمين، والمؤمن القوي، لم يعرف التاريخ له نظيراً في قوة إيمانه، وشدة دفاعه عن رسول الله ﷺ، وتفديته بروحه وبذله نفسه وماله في سبيل عقيدته وإسلامه، عرف الحق فلم يستطع كتمانه، فكان أول من جهر به على سمع الملأ من طغاة الوثنية وأنضاء الشرك، فأوذي بكل ألوان الإيذاء حتى شارف الهلاك، فلم يصده ذلك عن قيامه مقامات الصدق، ولا وهن من عزيمته في ملازمته رسول الله ﷺ فهو أول في جميع أوليات الإسلام، وهو أسبق السابقين في سائر سوابق الإسلام.

وقد جاء على لسان رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ـ الثناء على أبي بكر رضي الله عنه بأقرب ما أثنى به ﷺ على السيدة خديجة في موقفين متماثلين، روى الطبراني أن النبي ﷺ قال للسيدة عائشة رضي الله عنها حين قالت له في معرض ذكره ﷺ للسيدة خديجة ووفائه لذكراها بعد وفاتها: قد رزقك الله خيراً منها ـ تعني نفسها ـ «لا والله ما رزقني خيراً منها، آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأعطتني مالها حين حرمني الناس».

ويروي هذا الحافظ ابن حجر بأتم من ذلك في (الإصابة)، وأخرجه أبو عمر بن عبد البر في (الاستيعاب) وعنه أسند الحافظ، قال أبو عمر بن عبد البر: وروي عن علي بن المديني، قال: أخبرني حماد بن أسامة عن مجالد،

عن عامر الشعبي، عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ذكر رسول الله ﷺ خديجة ذات يوم، فتناولتها، فقلت: عجوز، كذا، وكذا، قد أبدلك الله خيراً منها، قال: «ما أبدلني الله خيراً منها، لقد آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها وحرمني ولد غيرها» فقلت: والله لا أعاتبك فيها بعد اليوم.

وفي رواية أخرى بسند آخر عن الشعبي عن مسروق أيضاً عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة رضي الله عنها، فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام فأدركتني الغَيْرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزاً، فقد أبدلك الله خيراً منها، فغضب ـ ﷺ ـ حتى اهتز مقدم شعره من الغضب، ثم قال: «لا والله، ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء» قالت عائشة: فقلت في نفسي: لا أذكرها بسيئة أبداً.

وفي حديث مغاضبة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما عند البخاري في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟؟» وأخرج الطبراني وغيره أن النبي ﷺ قال: «ما أحد أعظم عندي يداً من أبي بكر، واساني بنفسه وماله».

فهذه الأحاديث الشريفة تضع أمام أنظار الباحثين في حلبة التسابق الإيماني أساس التكافؤ في ميدان السبق على الإسلام بين أسبق سابِقَيْن، الصدِّيقَين، صدِّيق المؤمنين قاطبة وصدِّيقة المؤمنات طرًّا: أبي بكر وخديجة، رضي الله عنهما، ويبقى وراء ذلك التفرد المطلق العام والخاص لثاني اثنين إذ هما في الغار، غار ثور يوم الهجرة والنصر المؤزر والفداء الأغر الأكرم، الصدِّيق أبي بكر رضي الله عنه الذي اختاره الله أخص صاحب لنبيه ورسوله وحبيبه محمد ﷺ في أشد ما مرّ على الإسلام من شدائد المحن، وقد

نوّه النبي ﷺ بهذه الصحبة الخاصة، فذكرها بإضافة التكريم والتشريف والاختصاص فقال في حديث مغاضبة عمر لأبي بكر رضي الله عنهما: «فهل أنتم تاركو لي صاحبي» أخذاً من قول الله تعالى: ﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾.

ولا شك أن الإضافة في الآية الكريمة، والحديث الشريف إضافة تخصيص تدلّ على منزلة من الصحبة أجلّ وأرفع من مطلق الصحبة العامة الثابتة بفضلها وشرفها لسائر الصحابة رضي الله عنهم.

فإسلام أبي بكر رضي الله عنه كان إسلام العقل العليم بدلائل الصدق، الموقن بموجبات الحق، الذي أسرع مجيباً داعي الله لحظة أدت أذنُه إلى عقله وقلبه وروحه نداء التبليغ والدعوة إلى الإيمان بالله عزّ وجل وتصديق رسوله ﷺ.

وإسلام أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها كان إسلام الفطرة النقية الصافية الزاكية المتطلعة إلى المستقبل في توسُّم الفراسة النورانية الصادقة، إلى موجبات الوقائع والأحداث وإرهاصات الآيات والدلائل المتعاقبة طوال حياة الزوج الحبيب، المفضي بروحه وعقله وقلبه وإحساساته ومشاعره في سره وعلانيته إلى روحها وعقلها وقلبها وإحساساتها ومشاعرها، في ملازمة لازمة لا يند عنها حادث من أحداث حياتهما، ولا تذهب من تأملاتهما وتفكيرهما واقعة من وقائعها.

وهذا السباق الظافر الميمون، الذي لم تقم له حلبة مسابقة تقصد إلى غايتها القُرَّح من جيادها كان قدراً مقدوراً، جمع في شوطه رجلاً وامرأة ليتم به عنوان الدعوة في شموله جانبي الإنسانية بطرفيها، ذكر وأنثى، فالمرأة في الإسلام شريكة الرجل في تكاليفه وأحكامه وشرائعه وآدابه، وكلٌّ مُيَسَّر لما خلق له.

التَّحرُّك الإيجابي لسَيْر الرّسَالة

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول ثمرة جنية في دوحة تبليغ الرسالة

كان إسلام الصديق أبي بكر رضي الله عنه أول تحرك إيجابي في سير الرسالة، وأول أثر عملي للدعوة التبليغية للإيمان بالله تعالى، وتصديق رسوله فيما جاء به من الحق والهدى، وأول ثمرة جنية ظهرت في دوحة تبليغ الرسالة.

فقد آمن الصدِّيق أبو بكر رضي الله عنه لحظة دُعي إلى الإيمان، لم يتلبث لينظر، ولم يتوقف ليفكر ويعزم، ولم يتردد ليستشير ويستهدي، لأن دلائل صدق النبي ﷺ كانت متوافرة لديه، وكامنة في حنايا نفسه، ممتزجة بحسه وشعوره، تملأ قلبه وعقله وروحه.

وهنا يتجلى للمتأمل في أحداث الرسالة فيصل ما بين إيمان الفطرة النقية الصافية، التي نهد الإيمان معها، ونهضت معه، وهي ترى وتسمع شواهد الأحداث، ونداء الوقائع، ودلائل الإرهاصات، قبل تنزل الرسالة، وبين إيمان العقل العليم الذي دُعي بين يدي براهين الصدق فاستجاب، وبُلِّغ الرسالة فأجاب، ونظر فما استراب.

فإيمان الفطرة الذي سبقت به خديجة رضي الله عنها ومن معها في ساحة بيتها اطمئنان إلى نور الحق يغمر النفس، ويشغلها في حدود طاقتها بموجبات الإيمان الناشىء في مهد الرسالة، انتظاراً لما ينجلي عنه أفق الدعوة بظهور شمس الهداية، وإشراق أضوائها التي تظهر بها معالم الطريق إلى الله.

وإيمان العقل العليم، الذي دعى إلى التصديق بالرسالة، وهو مغمور

بأنوار دلائل صدق الداعي، وهداية الدعوة فلبى وأجاب، والذي بُلِّغ بالرسالة وهو يشهد بشائرها فاستجاب - إيقان بالحق الذي دعي إلى الإيمان به، وتحمل مسؤوليته في الدعوة إليه، وتبليغ رسالته.

ومن هنا قال الأجلَّاء من سلف الأمة وخلفها: إن أول الناس إسلاماً أبو بكر الصديق، وهم يعنون إيمان الدعاء إلى الله عزّ وجلّ، وتبليغ الرسالة، وتحمل مسؤولية النيابة والوراثة في هذا الدعاء والتبليغ، لتسير الرسالة في طريقها قوية متحركة مع الزمن حركة إيجابية، تجذب القلوب والعقول إلى ساحة الإيمان بالله والتصديق برسالة محمد ﷺ، وهكذا كان إيمان أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فهو منذ أجاب إلى الإسلام أقام نفسه داعياً إلى الله، يبلغ دعوة رسول الله ﷺ، متحملاً مسؤولية النيابة والوراثة في الدعوة والتبليغ.

وخصيصة أبي بكر رضي الله عنه في ذلك أنه كان أول من تحمَّل هذه المسؤولية، لأنه كان أول مؤمن يطيق حملها والقيام بأعبائها باعتباره الشخصية الوحيدة التي كانت بعرض التكليف بهذا التحمل إذ ذاك.

أما خديجة رضي الله عنها فمكانها من رسول الله ﷺ، وطبيعتها الأنثوية، ووضعها الاجتماعي في بيئاتها ومجتمعها لا تجعل لها سبيلاً إلى تحمل المسؤولية التكليفية في الدعوة والتبليغ، وأما عليّ رضي الله عنه فسنه يوم أن أسلم لا تؤهله لتحمل هذه المسؤولية لأنه أسلم وهو دون البلوغ، ومكان زيد بن حارثة من ولاية رسول الله ﷺ الخاصة أحرى أن لا تؤهله لتحمل مسؤولية التكليف بالدعوة والتبليغ يوم أن أسلم.

حديث عمرو ابن عبسة وتأويله بما لا يتنافى مع الواقع التاريخي

ولعل هذا هو تأويل حديث عمرو بن عبسة الذي أخرجه مسلم في صحيحه، قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو نازل بعكاظ، قلت: يا رسول الله، من اتَّبعك على هذا الأمر؟ قال «اتبعني عليه رجلان، حر، وعبد، أبو بكر، وبلال» قال عمرو بن عبسة: فأسلمت عند ذلك، فلقد رأيتني إذ ذاك ربع الإسلام.

قال علماؤنا: ولم يذكر علياً لصغره، ونقول: ولم يذكر خديجة وزيداً لما

بَيَّناه، ولعل هذا أيضاً هو تأويل ما ذكره البيهقي في الدلائل عن محمد ابن كعب القرظي، قال: إن أول من أسلم من هذه الأمة خديجة بنت خويلد، وأول رجلين أسلما أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وأن أبا بكر أول من أظهر الإسلام، وأن علياً كان يكتم الإسلام فرقاً من أبيه.

أول فرض الصلاة قبل الخمس وأول من صلى مع رسول الله ﷺ

ويذكر البيهقي في دلائل النبوة عن محمد بن إسحق قوله: وكانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله، وصدَّق بما جاء به، قال البيهقي: قال ابن إسحق: ثم إن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ حين افترضت الصلاة - أي على النبي ﷺ، كما جاء صريحاً في سيرة ابن هشام المأخوذة عن سيرة ابن إسحاق، حيث قال: تحت عنوان «ابتداء فرض الصلاة» وافترضت الصلاة عليه وحيث قال: قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم: أن الصلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فهمز له بعقبه في ناحية الوادي فانفجرت منه عين.

والمراد مطلق الصلاة قبل فرض الخمس ليلة الإسراء، فهمز بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت له عين من ماء مزن، فتوضأ جبريل ومحمد عليهما السلام، ثم صلى ركعتين، وسجد أربع سجدات ثم رجع النبي ﷺ قد أقر الله عينه وطابت نفسه، وجاءه ما يحب من الله فأخذ بيد خديجة حتى أتى بها العين، فتوضأ كما توضأ جبريل، ثم ركع ركعتين وأربع سجدات هو وخديجة، ثم كان هو وخديجة يصليان سراً.

رواية في تصوير أولية إسلام عليّ رضي الله عنه

ثم إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه جاء بعد ذلك بيوم فوجدهما يصليان فقال علي: ما هذا يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده، لا شريك له، وإلى عبادته، وكفر باللات والعزّى، فقال علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم فلست بقاض أمراً حتى أحدِّث به أبا طالب، وكره رسول الله ﷺ أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره، فقال له: «يا علي إذا لم تسلم فاكتم» فمكث عليٌّ تلك الليلة حتى جاءه، فقال: ما عرضت علي يا محمد؟ فقال

رسول الله ﷺ «تشهد أن لا إله إلا الله وحده، ولا شريك له، وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد» ففعل عليّ وأسلم، ومكث عليّ يأتيه على خوف من أبي طالب، وكتم علي إسلامه ولم يظهره، وأسلم ابن حارثة.

وهذه الرواية اختصرها ابن هشام في سيرته المهذبة لسيرة ابن إسحاق بما لا يخل بشيء من مقصودها.

الترتيب الواقعي بين طلائع السابقين

فهذا الحديث بهذا السياق بين الدلالة على أن خديجة رضي الله عنها كانت أول من آمن بالله ورسوله إطلاقاً، لم يسبقها إلى تصديق النبي ﷺ، وإلى الإيمان بما جاء به من عند الله سابق قط، بيد أنها كانت في ظل طبيعتها كامرأة عربية في قمة الشرف، تعيش في بيئة لها أعرافها وعوائدها الاجتماعية، وأخلاقها التقليدية الموروثة، في جو كانت الرسالة فيه لمّا تزل في مطلع أشعة شمسها، لم ينتشر نورها، ولم تتقو بأنصارها، مع ملاحظة وجوب تفرغها لخدمة رسول الله ﷺ وقيامها بحق الزوجة الأمينة الوفية نحوه ﷺ، وقيامها بواجبات تربية أولادها أداء لحق الأمومة، ومواساتها له ﷺ في كل ما كان ينوبه من أعباء رسالته، وتخفيفها عنه آثار ما كان يلقى من الأذى في سبيل دعوته - غير متاح لها فرص تحمل مسؤولية الدعوة، وتبليغ الدعوة تبليغاً تكليفياً، وبقي إسلامها حقيقة ملأت فراغ نفسها في حدود قيامها بواجباتها كأوفى زوجة، وأصدق معين ووزير.

وهذا الحديث بهذا السياق صريح الدلالة على أن علياً رضي الله عنه كان ثاني خديجة في السبق إلى الإسلام، وهو في سن لم تبلغ به مبلغ التكليف، وتحمُّل مسؤولية الدعوة إلى الله، والقيام بموجبات تبليغها، مما أحوجه إلى التوقف وعدم الإقدام على قبول ما دُعي إليه من توحيد الله تعالى والكفر بالأوثان، وأنه ليس على استعداد لأن يقضي في أمر غريب عليه وعلى حياته وحياة قومه وبيته، لم يسمع به من قبل وأنه لا بد له من مؤامرة أبيه وتحديثه بما رأى وسمع من محمد - ﷺ - وأن النبي ﷺ كره ذلك منه، وخشي أن يفشيَ سره، قبل أن يظهر أمره، وطلب منه إذ لم يسلم أن يكتم عليه ما رأى، وأن لا يتحدث بما طلبه منه من الإيمان بالله، والكفر بالأوثان،

فكتم عليّ ذلك، ولم يحدِّث أباه بشيء مما رأى أو سمع، ولكن علياً رضي الله عنه بات ليلته تصطرع في نفسه الأفكار والهواجس، حتى إذا أصبح جاء إلى النبي ﷺ، واستعاده ما عرض عليه من الإسلام، فأسلم مكانه، غير أنه مكث يلقى رسول الله ﷺ، يتلقى منه نور الهداية ومعالم الإيمان، وهو يكتم إسلامه على خوف من أبيه وقومه.

وهذا الحديث يدل بسياقه ومفهومه على أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وحبه رضي الله عنه كان ثالث السابقين إلى الإسلام، غير أن إسلامه كان يقف به في دائرة ما يفرضه عليه وضعه الاجتماعي من قيود لا تسمح له بتحمل مسؤولية التكليف التبليغي والقيام بواجبات الدعوة إلى الإيمان، وهو في مكانه من هذا الوضع الاجتماعي، وما توجبه عليه ولاية رسول الله ﷺ من حقوق وواجبات نحو هذه الولاية التي كان يحفها الحب الودود.

نتيجة البحث في التوفيق بين روايات السُّبْق إلى الإسلام

فإذا ضمَّت دلالات هذا الحديث، وما كان على نحوه من الروايات في الدلالات على سبق خديجة وعلي وزيد رضي الله عنهم إلى الإسلام، إلى روايات إسلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وتحمُّلـه منذ اللحظة التي أجـاب فيها داعي الله وأسلم وجهـه إلى الله تعالى مسؤوليـة التكليف التبليغي، والقيام بموجبات الدعوة إلى الله تعالى، وتصديق رسوله فيما جاء به من الهدى من عند الله، وأنه كان أول من أظهر الإسلام، ودعا إليه علانية، متحملاً في سبيل ذلك صنوف البلاء والأذى ـ ظهر جلياً وجه ما ذهبنا إليه في التوفيق بين روايات السبق إلى الإسلام، توفيقاً يضع كل سابق في موضعه من واقع الحياة مشرق الإسلام ومطلع الهداية، بما استوجبه موقعه يوم أن أسلم عملاً في طرفي السلب والإيجاب، ولكل سابق خوالده في تاريخ الإسلام.

انتهض الصدِّيق أبو بكر رضي الله عنه فور إيمانه إلى الدعوة يحمل لواءها في ظل رسول الله ﷺ مشمِّراً في تبليغها بعد أن أظهر إسلامه على الملأ، فدعا إليها أوائل السابقين ممن وثق بإجابته لمعرفته باستعداده لتقبل الهداية، وكان أبو بكر رضي الله عنه ـ كما يقول ابن إسحاق في سيرته ـ رجلاً مألفاً لقومه، محبباً سَهْلاً، وكان عليماً نسّابة، أنسب قريش لقريش،

وأعلمها بها، وبما كان فيها من خير أو شر، وكان رجلاً موسراً، سري التجارة، كريماً ذا خُلق ومعروف ومآثر في قومه وبلده، وصنائع في منتجعه، لا يجهله مجتمع عربي يحل في ساحته، وكان رجال قومه يحفون به، يأتونه، يخطبون وده، يألفونه لغير واحد من الأمر، ويعظمونه لعلمه وتجاربه، وحسن مجالسته، وقد جعلت منه هذه الصفات النبيلة عضداً قوياً للنبي ﷺ في مطلع شمس الإسلام، وركناً شديداً، تأوي إليه الدعوة منحدرة من آفاق رسول الله ﷺ إلى كنفه، وجعلت منه صدِّيقاً وفياً أميناً، يرفد رسول الله ﷺ في تبليغ رسالته، ورسول الله ﷺ يومئذ وحيد، مثقل الأعباء لا يحف به خارج بيته من رجالات قومه من يؤمن برسالته ويدفع عنها من يعوق سيرها، ولا من يقف معه ردءاً يُصَدِّقه، بل كان ﷺ فريداً في تحمل أمانة رسالته والدعوة إليها وتبليغها، فاختار الله له الصدِّيق أبا بكر أوفى صديق، وجعل منه بعد رسول الله ﷺ أعظم داعية إلى دعوة الحق ورسالة الإسلام، يبلغها تأسياً برسول الله ﷺ، وأخذاً منه، وتلقياً عنه، فجعل أبو بكر يدعو من يثق به من بيوتات قومه، فأجاب دعوته، واستجاب له في غير تردد أو توقف خمسة نفر، كانوا عُمُد الدعوة، وركائز تبليغ الرسالة:

أوائل الذين استجابوا إلى دعوة الإسلام على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنهم

(١) عثمان بن عفان الأموي العبشمي، قال الزرقاني في شرح المواهب: أخرج أبو سعد في الشرف عن عثمان رضي الله عنه قال: كنت بفناء الكعبة، فقيل: أنكح محمد عتبة بن أبي لهب ابنته رقية، فدخلني حسرة ألا أكون سبقت إليها، فانصرفت إلى منزلي، فوجدت خالتي سعدى بنت كريز، فأخبرتني أن الله أرسل محمداً، وحثتني على اتباعه، وكان لي مجلس من الصدِّيق، فأصبته فيه وحده، فسألني عن تفكري فأخبرته بما سمعت من خالتي، وحثّها لي على الإسلام، فما كان بأسرع من أن مر رسول الله ﷺ ومعه عليّ، يحمل له أثواباً، فقام أبو بكر فسارَّه، فقعد ﷺ، ثم أقبل عليّ، فقال: «أجب الله إلى جنته، فإني رسول الله إليك وإلى جميع خلقه» قال عثمان: فوالله ما تمالكت حين سمعته أن أسلمت، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية.

(٢) طلحة بن عبيد الله التيمي من رهط أبي بكر الصديق، أخرج

ابن سعد عنه قال: حضرت سوق بصرى، فإذا راهب في صومعته يقول: سَلُوا أهل هذا الموسم، أفيهم أحد من أهل الحرم؟ قال طلحة: نعم، أنا، فقال: هل ظهر أحمد؟ قلت: من أحمد؟ قال: ابن عبدالله بن عبد المطلب هذا شهره الذي يخرج فيه، وهو آخر الأنبياء، ومخرجه من الحرم، ومهاجره إلى نخيل وحرّة وسباخ، فإياك وأن تسبق إليه.

فوقع في قلبي، فخرجت سريعاً حتى قدمت مكة، فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا: نعم محمد الأمين تنبأ، قد تبعه ابن أبي قحافة، فخرجت حتى أتيت أبا بكر، فخرج بي إليه، فأسلمت فأخبرته بخبر الراهب. وقد روى هذه القصة الحافظ ابن حجر في الإصابة عن ابن سعد بسنده عن محمد ابن إبراهيم بن طلحة، عن طلحة رضي الله عنه.

(٣) الزبير بن العوام الأسدي، أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ،أسلم صغيراً قبل أن يبلغ سن التكليف رضي الله عنه، قيل: أنه أسلم وسنه ثمان سنين، وهو قول ابنه عروة.

(٤) عبد الرحمن بن عوف الزهري، أسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم مستخفياً بدعوته، وهو أصغر من النبي ﷺ بعشر سنين.

(٥) سعد بن أبي وقاص الزهري، وكان رسول الله ﷺ يقول له: (أنت خالي) وفي حديث الترمذي عن جابر قال: أقبل سعد، فقال النبي ﷺ «هذا خالي، فليرني امرؤ خاله» وقال ابن حجر: وقع في صحيح البخاري عنه أنه قال: لقد مكثت سبعة أيام وإني لثالث الإسلام، وقال ابن إسحق في مغازيه: كان أصحاب رسول الله ﷺ بمكة - أي مطلع شمس الإسلام - يستخفون بصلاتهم، فبينا سعد في شِعْب من شعاب مكة في نفر من الصحابة إذ ظهر عليهم المشركون، فنافروهم، وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم، فضرب سعد رجلاً من المشركين بِلَحْيِ جمل فشجه، فكان أول دم أريق في الإسلام، وكان سعد رضي الله عنه أحد أربعة يعدون أشد أصحاب رسول الله ﷺ، قال ابن حجر: أخرج محمد بن عثمان بن أبي شيبة في تاريخه بإسناد جيِّد عن ابن إسحاق قال: كان أشد أصحاب رسول

الله ﷺ أربعة: عمر، وعلي، والزبير، وسعد، وعن عائشة بنت سعد عن سعد قال: أسلمت وأنا ابن تسع عشرة سنة.

وجزم ابن عبد البر في الاستيعاب أن سعداً رضي الله عنه كان سابع سبعة في إسلامه.

كان هؤلاء الأبطال الخمسة أول ثمرة من ثمار الصدِّيق أبي بكر رضي الله عنه، دعاهم إلى الإسلام فاستجابوا، وجاء بهم إلى رسول الله ﷺ فرادى، فأسلموا بين يديه، فكانوا الدعامات الأولى التي قام عليها صرح الدعوة، وكانوا العدة الأولى في تقوية جانب رسول الله ﷺ، وبهم أعزه الله وأيَّده وتتابع الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، رجالاً ونساءً، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به الناس سراً وعلانية، وكان كل من هؤلاء الطلائع داعية إلى الإسلام، وأقبل معهم رعيل السابقين، الواحد، والاثنان، والجماعة القليلة، فكانوا على قلة عددهم كتيبة الدعوة وحصن الرسالة، لم يسبقهم سابق ولا يلحق بهم لاحق في تاريخ الإسلام.

الخطواتُ الأولى في سَيْرِ الرّسَالة

جرينا في بحثنا ـ الذي اعتضدنا فيه بالأدلة الثابتة والروايات الحديثية الصحيحة، والذي استندنا فيه إلى معاني الأحداث وأسبابها وموقعها من التاريخ، ومكانها من الترتيب الزمني في تتابع الأحداث، والذي استأنسنا فيه بأقوال وآراء بعض الأئمة من أعلام الأمة ورواة السيرة وجهابذة المحدثين ـ على أن نبوة نبيِّنا محمد ﷺ كانت متقدمة زمناً ووحياً على رسالته، وذلك ذهاباً منَّا إلى ما تقتضيه حقيقة النبوة ومعناها في مفاهيم الحقائق الشرعية من أنها نوع من التربية الإلٰهية الخاصة للمصطَفَين لمرتبتها من البشر، تقصد إلى لون من التهذيب والإعداد الخاص، دون تكليف تبليغ شرع جديد، أو إحياء شرع كان معمولاً به، ثم طمست معالمه، أو دخله تحريف، وأن مراتب النبوة من الوحي لا تبلغ أن تكون فيها مرتبة في مثل مراتب وحي الرسالة اليقظي، إذ لم يعرف في تاريخ النبوات، ولا في تاريخ انفراد نبوة نبيِّنا محمد ﷺ التي بدأت بالرؤيا الصادقة، أن في مراتب وحي النبوة مرتبة تشبه أول مرتبة من مراتب وحي الرسالة، وهي ما وقع في أول لقاء النبي ﷺ بملك الوحي جبريل عليه السلام في غار حراء.

لقاء غار حراء صورة جديدة للوحي في معالمها وآثارها

هذا اللقاء الذي كان يسوده عنصر المفاجأة بشدته المبالغة من أول لحظة بدئه إلى نهايته، وهذا اللقاء هو المرة الأولى التي يلقى فيها جبريلُ أمينُ الوحي، وهو مسربل بروحانيته العلية محمداً ﷺ وهو مدثر ببشريته الزكية.

فهو لقاء بين طبيعتين مختلفتين أبعد اختلاف، من عالمين مختلفين أشد اختلاف، مختلفين في الحقيقة التكوينية، لقاء بين ملَك من أجل وأعظم عوالم

الملأ الأعلى، في علو روحانيته، وقدس نورانيته، وبين نبي من البشر، تتمثل فيه عناصر البشرية بأكمل أوصافها، وأتم خصائصها في الفضائل الإنسانية والمكارم الخلقية.

لقاء بين شخصيتين لا تجانس بينهما في طبيعتهما الأصليتين، ولا في وجودهما الكوني في عالميهما، وهو لقاء يقع فجأة دون توطئة ولا تمهيد، بل ولا سلام وإيناس، لقاءٌ يفجأ فيه النبي ﷺ، أو يُفجأ به؛ ولما يفق من روعة مباغتة الدخول عليه في خلائه دون توقع منه أو انتظار، وهو مستغرق في تأملاته الروحية، وسبحات فكره الكونية، وهي تجول به في مظاهر جلال الله بما أبدعه من بدائع ملكه وملكوته ـ بما لم يكن له قط في حسبان.

فهو أمي لم تغيِّر نبوته شيئاً من أميته، وإذا به يفـاجأ بطلب يقتضيه الخروج عن طبيعته ونزع خصائص بشريته، وهو لا يـدري كيف يكون ذلك، لأن الملك المفاجىء له في لقائه يبدؤه مباغتاً فيقول له: (اقرأ) وهذا الطلب في مفاجأته وجَوِّه وما احتف به من أروع ما يروع ويُفْزِع، ويرد النبي ﷺ على الملك بما تقتضيه طبيعة الحال، مبيناً أن تحقيق هذا الطلب ليس في طاقته واستطاعته، لأنه مباين لجبلته التي نشأ عليها وولد وعاش في أحضانها.

وأنَّى له أن يقرأ وهو ما عرف قط قراءة؟ فـ(ما أنا بقارىء)، فيأخذه الملك إليه أخذاً غير رفيق، يغطه فيه غطة شديدة، يعصره بها عصراً يبلغ منه أقصى جهده، ونهاية طاقة بشريته ثم يرسله ويقولـه له: (اقـرأ) ويرد النبي ﷺ، وهو لما يزل في روعة الغطة الأولى وشدتها، مسترفقاً مبيناً حاله وطبيعته، باسطاً عذره في عدم استطاعته تحقيق ما يطلب منه ويسأل: (كيف أقرأ؟) وهو لا يعرف القراءة فطرة وجبّلة، ولا كان له بالقراءة عهد قط، لا تعلماً وتلقياً، ويعود إليه الملك فيقول له: (اقرأ) فيرد النبي ﷺ مفتدياً نفسه أن يعود إليه بمثل ما كان منه إليه، من الغط والعصر الشديد، ويقول: «ماذا أقرأ؟» كما جاء في بعض الروايات صريحاً.

وهنا كان محمد ﷺ قد بلغ بروحانيته مقاماً جانس فيه الملأ الأعلى في

روحانيته، حيث استفرغت بشريته، وانطلقت روحانيته من عقال قيودها المادية التي كانت تقيد بها بشريته، فقال له الملك عندئذ: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علَّم بالقلم * علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

وحي الرسالة نهج جديد في مراتب الوحي

فهذه المفاجآت الباغتة المتكررة، وهذه الشدة العاصرة التي تتمثل في الضم الضاغط والعصر العنيف من ملَك يصفه القرآن الحكيم بقوله: ﴿ ذي قوة عند ذي العرش مكين ﴾ ويصفه بأنه ﴿ شديد القوى ذو مرة ﴾ لإنسان بشر من الناس نبيء وأوحي إليه بوحي النبوة التي لم تبلغ في مراتب وحيها هذا المبلغ القوي العنيف الذي لقيه محمد ﷺ في مفاجآت الغار وأحداثه وشدائده.

وهذا الطلب الغريب العجيب الذي يطلب من النبي ﷺ القراءة، وهي أمر لم يكن في متناول طبيعته، ولا هو قد عرفه قط، ولا سمع به في حياته.

وهذه الآيات البيِّنات من أول سورة العلق التي تنزَّلت من سماء الجلال الإلٰهي، فأوحاها الملَك إليه، وأقرأه إياها، فقرأها إعجازاً، ونزلت على قلبه برداً وسلاماً، وثبتت فيه كأنما كتب بها في كتاب، فحفظها وعاد بها إلى أهله قارئاً بعد أن لم يكن قارئاً، وبقيت في لوح الحياة علماً على الإعجاز البياني، ومناراً للإعجاز المادي الخارق لقوانين الطبيعة، وضياء من الإعجاز العقلي، ونوراً من الإعجاز العلمي الذي عبَّر عنه النبي ﷺ وهو يصف معجزته الخالدة، ويبين فيصل ما بينها وبين سائر معجزات الأنبياء والمرسلين روى البخاري عنه ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي ما على مثله آمن البشر، وكان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

وهذه الآيات التي افتتح بها وحي القرآن الكريم كانت أول آيات من الذكر الحكيم شرفت بها آفاق الحياة على هذه الأرض، فهي أول ما نزل بإطلاق من آيات القرآن المبين وكلماته، لم يسبقها تنزلاً غيرها قط، وهي أول ما أوحي به إلى النبي ﷺ في لقاء المواجهة ووحي اليقظة.

كل ذلك كان نهجاً جديداً في الوحي إلى محمد ﷺ، تضمَّن أحداثاً لم تمر بمثلها حياته في نبوته، فهو إذاً ضرب من الوحي غير وحي النبوة، وهو فوق وحي النبوة بمضامينه وآثاره، وهو انتقال من مرتبة وحي النبوة إلى وحي الرسالة، وميلاد استهلت به الرسالة وجودها.

مقصد وحي الرسالة يختلف عن مقصد وحي النبوة

يقصد وحي النبوة إلى نوعٍ من التربية الخـاصة، والتهذيب الشخصي لمن يصطفيه الله من عباده لتلقِّي أنبائه بما يشاء من وحيه وحكمته وشرائعه وآدابه، ليعملوا بذلك في خاصة أنفسهم تعبداً لله تعالى وأسوة يتأسى بهم في هديهم من يؤمن بهم ويتقبل التأسِّي بهم، دون تكليف تبليغي بما أنبأهم الله به من وحيه إلا كما يطلب من كل من علم شيئاً من الخير والبر وحسن الأدب النفسي والعملي أن ينبىء به ويرغِّب فيه، وكل من علم شيئاً من الشرور وسوء الأدب والضلال أن ينهى عنه، وينفِّر منه، وهذا مندرج تحت عموم شرعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي شرعة إلٰهية إنسانية إصلاحية لم ينقطع نسبها عن جميع النبوات والرسالات، وورثها منهم القائمون بالقسط، الآمرون بالخير، الناهون عن مقارفة الشرور والآثام استصلاحاً لعامة الخلق في حياتهم الاجتماعية.

أما وحي الرسالة فهو وحي تكليف ـ يسبقه أو يقع معه وحي التربية الخاصة والتهذيب الشخصي ـ تبليغ ما أوحي إليهم، وأنبؤوا به من الله تعالى من شرائعه وأحكامه، وأخباره، وأمره، ونهيه وزجره وإنذاره، ووعده وترغيبه، ووعيده وترهيبه، وتخويفه وتحذيره، ومنازل رحمته، ومواقع إحسانه وفضله، وإنعامه وجوده.

فهو وحي يقصد أول ما يقصد إلى إصلاح الحياة، لتسير على نهج ما شرع الله لعباده، وهو وحي يجب فيه على الرسول أن يبلِّغ ما أُوحي به إليه لكل مدعوٍ إلى رسالته والإيمان بها، من كتب الله المنزلة وشرائعه المحكمة، مرتبطاً ذلك بالثواب والعقاب في دار الخلود والجزاء.

وبهذا يظهر بجلاء أن وحي الرسالة يتطلب إعداداً خاصاً في تربية الرسول ـ أيِّ رسول ـ منذ ميلاده، وتنسمه نسائم الحياة، فيتعهده الله تعالى

الإعداد للرسالة أبلغ تربية من الإعداد للنبوة

في تخيُّر نسبه وشرف قومه، ويتعهده في نشأته بنوع من التربية الذاتية، والرعاية الشخصية، حتى ينشأ نشأة فاضلة، متكملاً في آدابه وأخلاقه، متحلياً بأفضل الفضائل الإنسانية، متأدباً بأرفع الآداب السلوكية لأن الله تعالى اختاره ليكون قدوة يُقتدى بها في جميع ما يأتي وما يذر، وجميع ما ينهى عنه وما يأمر به، وجميع ما يرغب فيه وما يرهب منه.

ولا يمكن أن يجعل الله تعالى من أقامه مناراً للهداية والاقتداء به إلا في أكمل صورة من صور الكمال الإنساني في زمنه وعالمه الخاص والعام، وهذا هو معنى قول الله تعالى: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ فهذه الآية الكريمة تفيد صراحة أن وحي الرسالة يتطلب إعداداً خاصاً في النشأة وتربية السلوك والتحلِّي بالفضائل الإنسانية والتخلق بالمكارم الخلقية، والتميز بالشمائل الاجتماعية في قومه ومجتمعه، إلى درجة من السمو الروحاني لا يمكن أن تقع مجتمعة لغيره من أمته، لأنه بهذه الدرجة من السمو الروحاني يتلقى الرسول وحي ربه الذي يكلفه تبليغه إلى جميع من أرسل إليهم، والتبليغ يحتاج إلى قدر عظيم من العلم بطبائع الخلق، ومداخل النفوس البشرية ومخارجها، في ظواهر أحوالها وبواطنها، وقدر عظيم من العلم بتصاريف الحياة وتقلباتها، وإلى قدر عظيم من الفطنة وزكانة النفس وذكاء العقل، وإلى قدر عظيم من الشجاعة القلبية والتطهُّر الخلقي، ونظافة السلوك، والتميُّز بأكرم المكارم، ليكون ذلك داعية لتقبل ما يبلغه ويدعو إليه.

والذين يقرؤون سير الأنبياء والمرسلين يجدون مصداق ما قلنا مبثوثاً في مدارج حياتهم ولا سيما من قصّ الله تعالى علينا في القرآن أنباء حياتهم، وتصاريف عيشهم من واقع وجودهم.

شواهد واقعية تبين فضل الرعاية الربانية لحملة الرسالات على فضلها للمنفردين بالنبوة

ولعل من أبين ذلك ما نجده في قصة إبراهيم خليل الله عليه السلام، وما نجده في قصة موسى كليم الله ورسوله عليه السلام، وفي بيان ما تولّاهما الله به من تربيته، وما تعهدهما به من رعايته، منذ طفولتيهما من ألوان التربية والإعداد، وتقويم السلوك، والتوجيه للتحلي بالفضائل، حتى شبَّا وبلغا مبلغ الكمال الإنساني، وبعثهما الله تعالى رسولين هاديين، فبلّغا رسالات ربهما

بلاغاً كان للتعهد الإلٓهي في تربيتهما بإعدادهما أثر قوي ظاهر.

بينما لا نجد مثل تلك الرعاية البالغة المتتابعة في حلقاتها في قصص الذين انفردوا بالنبوة ممن أعدوا إعداداً تهذيبياً خاصاً، لأن الرسل في أشد الحاجة إلى التأييد الإلٓهي والرعاية الربانية في مظاهر السلوك لتصديقهم فيما يبلغون من رسالات الله وشرائعه، والتأسي بهم، والناس مختلفون في تفكيرهم ومداركهم، وعاداتهم، وأخلاقهم، ومشاربهم في الحياة.

وهذا الاختلاف يضع الرسل مع القبول تارة، والرد عليهم تارة أخرى، وفيمن يردون عليهم عناداً أو جهالة، وهذا يقتضي أن يكون الرسل على درجة من الإعداد الروحي الذي تستفرغ فيه البشرية وتظهر في أطواره شدائد الوحي، وعلى درجة من الصبر على فوادح البلاء، وعلى درجة من قوة الإقناع، وبراعة البيان، ما يجعلهم قادرين على تحمُّل أعباء التبليغ وأثقال تنزل الرسالات بمراتب وحيها، إيماناً بوعد الله تعالى لهم بالنصر على أعدائهم، كما قال تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون﴾[1].

* * *

خصائص الرسالة المحمدية تقتضي تميّزاً وعناية في الإعداد الفطري والسلوكي على سائر الرسالات

وإذا كان هذا هو الواقع في حياة جميع رسل الرسالات الإلٓهية قبل رسالة محمد ﷺ وهي رسالات خاصة لقوم أو جيل من الناس مخصوصين، جاءت بشرائع خاصة لزمن مخصوص، فهو أوجب ما يكون في واقع الرسالة الخاتمة الخالدة، العامة الشاملة، رسالة محمد ﷺ، خاتم الأنبياء وآخر المرسلين، لأن رسالته ﷺ في عمومها زمناً ومكاناً وأجيالاً، وتشريعاً، ونظاماً للحياة تتضاعف حاجتها إلى التميُّز على سائر الرسالات الإلٓهية في طريقة إعداد حامل أمانتها، المصطفى لتلقي وحيها، وتنزّل كتابها الكريم، وتبليغ شرائعها وأحكامها، ونشر آدابها، وإقامة نظمها الاجتماعية في حياة الناس والأشياء، والجهاد في سبيل تأمين سيرها حتى تصل دعوتها إلى الداني والقاصي، وتعم هدايتها جميع من تبلغه دعوتها.

---

(١) سورة الصافات آيتا: (١٧١ ـ ١٧٢).

وقد سبق لنا أن صوَّرنا حالة العالم المدعو إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ، وما كان عليه من ضلالات وحماقات، وجهالات في العقيدة والأخلاق، وانحرافات في السلوك والنظم الاجتماعية، وما كان يشيع فيه من مظالم تسود حياة أممه وشعوبه، ودوله وممالكه، يستعبد فيها الأقوياء الضعفاء، ويستغلّ الأغنياء الفقراء، ويستبيح الطغاة حرمات الإنسانية انتهاكاً لمقدسات الحياة الخاصة والعامة، وأن عموم رسالة محمد ﷺ وختمها للرسالات الإلٓهية يجعلها الوسيلة التي لا وسيلة غيرها لإصلاح الحياة، وتبديل هذه المفاسد والشرور، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

ومعنى ذلك أن رسالة محمد ﷺ جاءت لتحوِّل الإنسانية عن واقعها المظلم الظالم إلى حياة مضيئة مشرقة، تقوم معالمها على العدالة والتراحم، وترفع فيها منائر العلم والمعرفة، والهدى والإصلاح، حياة مليئة بالخير والبر، معتمدة على الإخاء الإنساني والمحبة والمواساة والتعاون.

ومن هنا كانت نبوته ﷺ متقدمة على رسالته زمناً ووحياً، لتكون أهم مرحلة من مراحل إعداده لتلقِّي وحي الرسالة، وتحمُّل أمانة تبليغها، ونشر دعوتها، لأن نبوته ﷺ بالنسبة لرسالته كانت تمهيداً روحياً جعلها معبراً إلى آفاق وحي اليقظة الذي جعله الله تعالى من خصائص تنزُّل القرآن وبدء الرسالة.

أما إعداده ﷺ إعداداً إنسانياً جامعاً لجميع مراتب الكمال البشري، فيتجلى في فَطْره على صفاء الخليقة، وجَبْله على أكرم مكارم الفضائل، وتنشئته على أفضل الشمائل، وأحمد الأخلاق، وفي معرفته بالله تعالى معرفة عصمته منذ نشأته عن التدلِّي إلى مفاسد الجاهلية وشرورها، وبغَّضت إليه عقائدها، وجعلت منه مثلاً مضروباً في المكارم بين قومه، وفي بلده ومجتمعه.

وبهذه المكارم التي كانت خلقاً له في حياته كلها رأت فيه السيدة الجليلة خديجة رضي الله عنها شواهد على صدق تطلعاتها المتوسمة، وفراستها الصادقة، وأنه ﷺ كان موضع الرعاية الربانية.

ومن ها هنا كانت شدائد وحي الرسالة التي لقيها رسول الله ﷺ في

شدائد وحي الرسالة كانت فيصلاً بين مرحلة انفراد النبوة ومرحلة ميلاد الرسالة

مفاجآت الغار فيصلاً بين نبوته في حال انفرادها بزمنها ومراتب وحيها التي لم تبلغ مرتبة منها في الشدة، واستفراغ البشرية، والإعداد الروحاني الأعلى، ما بلغته أول مرتبة بدأ بها وحي الرسالة في أول لقاء يقظي تم بين أمين الوحي جبريل عليه السلام وبين النبي ﷺ.

وقد كانت مفاجأة هذا اللقاء آخر نقطة انتهى عند بدئها خط انفراد النبوة بانتهاء زمنها مع انتهاء قرن إسرافيل به ﷺ، وكان ما وقع في هذا اللقاء من الأحداث والمفاجآت الإعجازية، وتنزل أول ما نزل من آيات القرآن الكريم هو أول نقطة بدأ بها خط رسالة محمد ﷺ بالهدى ودين الحق، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

تحقيق أوّل ما نزل من القرآن

كان أول ما نزل من آي القرآن الكريم خمس آيات افتتح الله بها رسالة محمد ﷺ وهي الآيات التي افتتحت بها سورة العلق ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علَّم بالقلم * علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

إبداء بعض الحكمة باستهلال ميلاد الرسالة الخاتمة بأوائل سورة ﴿اقرأ﴾

بهذه الآيات بدأت رسالة محمد ﷺ، فكانت استهلالاً متوافقاً وهذه الرسالة الخاتمة الخالدة.

وبهذه الآيات بدأ نزول القرآن الكريم، فكانت أول آيات من الذكر الحكيم أقرأها أمين الوحي جبريل عليه السلام محمداً خاتم النبيين ﷺ في أول لقاء تم بينهما في غار حراء.

وبهذه الآيات وضع الله تعالى معالم الرسالة الإلٓهية، الخاتمة الخالدة في عمومها المطلق وشمولها الأعم، مبيناً أنها رسالة العقل والعلم، وهما أعظم منن الله تعالى على الإنسان، وهو خيرته من خلقه، وأكرمهم عليه، فكانت هذه الآيات كالعنوان للكتاب، والطرة للإطار، والغرة في جبهة الإيحاء.

وبهذه الآيات، وجَّه الله تعالى أمة محمد ﷺ إلى ما يجب أن يكون هدفها في حياتها من تبليغ رسالة نبيِّها ﷺ، هذا الهدف الذي جعله الله منار الهداية في هذه الرسالة، هو هدف العلم والتعلُّم، وجعل القلم حارسه وحافظه ومسجله في سجلات الحياة، وجعل لكل جيل من أجيال الإنسانية نصيباً منه، ترتفع به الحياة إلى آفاق ما قدِّر لها من المعرفة والتقدم.

وبهذه الآيات، وما تضمنته من الإشادة بالعلم والقلم أبان الله تعالى لأمة الإسلام عن وسيلة تبليغها رسالتها إلى القاصي والداني في أقطار الأرض، لتعلم أن العلم والتعلُّم والكتابة بالقلم هي الوسيلة التي لا وسيلة غيرها لتبليغ هذه الرسالة.

وبهذه الآيات أعطيت الأمة الإسلامية مفاتيح الإصلاح والهداية، لتعْلَم أول ما تَعْلَم أنه لا إصلاح بغير علم ومعرفة، فليس مع الجهالة خير، والجهل كله شر وفساد، ولتعلم بأن الهداية إلى معرفة الحق، واعتناقه، والحرص عليه، وإقامة منائره، والدعوة إليه لا تكون إلا مع العلم، ولا تتحقق آثارها في الحياة إلا بالعلم، والعلم لا ينمو وينتشر إلا إذا قيَّده القلم ونشره وبيَّنه وأعلن عنه.

وبهذه الآيات أخذت الأمة الإسلامية مقاليد خلافة الله في الأرض، لتقيم عليها موازين العدالة بين من وما تظلهم الحياة بظلها الوارف من الناس والأشياء، لأن خلافة الله في أرضه حينما تسربلها الإنسان ليقوم بأمانة حملها، وأبت السموات والأرضون والجبال أن تحملها، إنما كان ذلك خصيصة للإنسان لأنه منبع العلم ومهبط التعلُّم، فهو قد علِم فعلَّم، وكان العلم مصدر فوقه على الملائكة المكرمين.

تحليل يكشف عن مواطن الإعجاز الحسي والمعنوي وبراعة البيان في أسلوب هذه الآيات

وقد جاءت هذه الآيات ـ وهي أول آيات تنزَّلت من سماء الوحي ـ تحمل في كل كلمة من كلماتها أعظم مظهر من مظاهر التحدي، ليكون الإعجاز البياني في هداية الرسالة، ومعانيها، وحقائقها، وتوجيهاتها هو القوة التي تدفع سير الرسالة إلى آفاق الفكر العليا في أقطار الأرض.

وبهذا كانت هذه الآيات هي المعجزة الأولى للرسالة الخاتمة الخالدة، التي تحدَّت العقول والقلوب والأرواح، والألسن والقرائح، أن يأتوا بمثلها هداية، وأسلوباً، وتنزُّلاً.

ففيها الإعجاز الحسي يتراءى محققاً في واقع الحياة، رأي عين، وسمع أذن، بوجود ما هو في قوانين الطبيعة، ومألوف الحياة من أمحل المحال، ذلك أن يقرأ من لم يكن قارئاً قط، إعجازاً لا تعلُّماً.

وفيها الإعجاز الفكري الذي يواكب في وجوده الإعجاز الحسي، يجعل قراءة الأمي الذي لم يثافن عالماً قط، ولا جلس مجلس متعلِّم قط، إعجازاً يقوم على الاستناد إلى قوة الله تعالى وقهره لظواهر الأسباب والعلل، وإذابة العلائق بينها وبين مسبباتها ومعلولاتها فيما يخيل للعقول والأفهام، فكأنه قيل للنبي الأمي ﷺ: أنت لا تقرأ بقوتك وحولك، ولا تقرأ بتعلم كما يقرأ سائر القارئين، وإنما أنت تقرأ باسم ربك الذي تولَّاك بخصائص تربيته، وأعدَّك لحمل أمانة أعظم رسالاته، فهو الذي يقرئك إعجازاً لا تعلُّماً ودرساً، بل خَلْقاً وإبداعاً، لأنه الخالق، والخَلْق إبداع في الإيجاد لما ليس على مثال في الوجود الواقعي، فإذا تعلق الخلق بأبدع ما أبدع الخالق، وأحسن ما قومت قدرته في عوالم الحس والإبداع (خلق الإنسان) وخلق الإنسان بما فيه من آيات التكوين وبدائع التركيب الظاهر والباطن التي لا يحيط بها علم العلماء، ولا تكشفها مناظير المكبرات، هو الآية الكبرى على اقتدار الألوهية وإبداعها اقتداراً لا يدخل في حيِّز الإمكان لأي مخلوق.

ثم تأتي في الآيات معجزة المعجزات التي يدندن حولها العلم بكل بحوثه ومكتشفاته وآلاته ومخابره فيرتد عنها حسيراً، ليس في يده من حقيقتها شيء، تلك هي الإخبار عن الأصل الذي منه أنشىء الإنسان، والبذرة التي منها نبت هذا الكائن الذي لم يخلق الله تعالى أحسن ولا أقوم منه (من علق)، وليقل العلم في تفسير (العلق) ما يقول، وليكثر من البحث والدوران حول كشوفه، فلن يصل - إن وصل - إلى غير ما وصل إليه إخبار محمد النبي الأمي ﷺ في أول كلمة نزلت عليه وخوطب بها في مطلع رسالته، ليبلِّغها إلى الإنسان تعليماً وتعلُّماً، ليعرف ربه الذي خلقه فأبدعه في أحسن تقويم من أدنى ما يتصور منه الإيجاد لأعظم كائن في هذه الحياة.

ثم تأتي الآيات بعد ذلك ببيان معالم هذه الرسالة الخالدة، الخاتمة لرسالات الله تعالى، ومعالمها هي العلم بكل ما فيه من هداية ونور ومعرفة.

والعلم لا ينزل على الناس غيثاً من السماء يتقاطر عليهم، فيتلقونه عبّاً، ولكنه يخضع لقوانين سنن الله تعالى في نظام الحياة، وفي متعارف هذه

السنن الإلهية أن العلم يتنزَّل على الناس من سماء التعلُّم والفكر، وقد جعلت هذه السنن القلم آلة العلم التي يقيد بها ويسجل، وبهذا التقييد يتلقَّى الحاضر حصائل الفكر الماضي، ويمد الحاضر بهذه الحصائل الفكر المستقبل الذي لا يقف عند حدود هذه الحصائل، ولكنه يجعل منها مادة تربط بين أطوار الفكر وتوثباته، ويتخذ منها مدارج إلى آفاق المجهول المحجب، ليكشف عنه أغطية الجهالة، ويجعل منه أساساً لمرحلة فكرية جديدة، يستزيد فيها الفكر الإنساني معرفة بكثير من حقائق الوجود، ويتضاعف طموحه إلى كل جديد من ألوان المعرفة، والمعارف الكونية لا نهاية لها.

منهج الرسالة في إعظام شأن العلم بأوسع معانيه وشتى فنونه ومعارفه

وهكذا يقود العلم ـ الذي جعله الله بشتى فنونه، واختلاف ألوانه ـ أعظم معالم الرسالة الخاتمة الخالدة، رسالة محمد النبي الأمي ﷺ ـ العقلَ الإنساني إلى آفاق من التقدم الفكري، لا تقف عند غاية ولا تعرف لها نهاية، وهذا هو سر الأسرار في خلود هذه الرسالة، ووفائها بأقصى مطالب الحياة ورغائبها على مدى مرور الأزمان وتوالد الأجيال، واختلاف المنازل والأوطان.

والله تعالى إذْ يخبر نبيه الأمي في هذه الآيات التي أشرقت من أفقها شمس رسالته أنه أقرأه بغير تعلُّم ولا آلة إعجازاً تبدأ به رسالته، قد جعل من سنن الحياة العامة أن يكون العلم بالتعلُّم، وأنه جعل القلم آلة التعلُّم، ووسيلة قيد العلم وتسجيله، وصيانة له عن التبدُّد والزوال.

فليكن العلم في دائرة سنن الله في الحياة وقوانينها هو هدف أمة الإسلام من تبليغها رسالة الإسلام، لأن العلم هو العنوان الأعظم على خلود هذه الرسالة، وهو العنصر الحيوي في تكوين حقيقتها الهادية الراشدة، وهو الآية الكبرى على صدقها وصدق رسولها ﷺ.

منهج الرسالة في إعظام العلم إنما يعني العلم المؤمن

والعلم المؤمن باقتدار رب العالمين الذي خلق الإنسان وربَّاه على موائد كرمه وفضله إذا أخذ بزمام الحياة، وقادها بسلطان هدايته أدرك بها أقصى غايات الرشد والإصلاح، وجعل مفاتيح رقيها بيد الذين يؤمنون ويَعْلمون ويُعَلِّمون، وهؤلاء هم خلفاء الله تعالى في أرضه، يقوِّمون أود

الحياة، وينصبون على منحنيات جوادّها موازين الحق والعدل ومنائر الهداية، حتى لا تزلّ بالناس قدم، ويضعون فوق روابي مهايعها مصابيح المرحمة والمواساة، وتعاطف الإخاء الودود، لتقوم المحبة بينهم مقام قانون المحاسبة والجزاء.

العلم الكفور قد يرعد ويبرق ولكنه يصير إلى الزوال ولو بعد حين

أما العلم الكفور الذي لا يعرف يد الله على الحياة والأحياء، أو هو يعرفها ولكنه يتنكر لها جحوداً واستكباراً عنيداً يكنفه الطغيان، فهو ليس مما ينطوي تحت طائلة هذا الامتنان الأكرم، لأن هذا العلم الكفور أخذ عناصر وجوده من طينة الخبال والتدمير، فهو بمعرض الدثور والبوار، طال الزمن أو قصر، والآخرة عند ربك للمتقين.

وقد جاءت هذه الحقائق العظمى والمعاني السامية مصورة في أبرع صورة بيانية، سبقت بأسلوبها المعجز، لتتساوق في براعة صياغتها مع سمو مقاصدها.

اتساق الأسلوب ودقة التعبير في تركيب الآيات يصور التناسب الحسي والمعنوي في الأداء

فالتناسب الحركي في صورتيه الحسية والمعنوية بين القراءة والتربية في قوله: ﴿اقرأ باسم ربك﴾ إعجازٌ بياني، بصورة ربط الفعل (اقرأ) بمتعلق خاص هو اسم (الرب) دون غيره من أسماء العزة والقهر، مما يدل على أن التناسق بين الفعل والاسم المتعلق به بما في معناهما من الحركة هو مناط الإعجاز.

والإضافة الخاصة لضمير المخاطب المخصوص بهذا الإنعام الأكرم، وهو النبي الأمي محمد ﷺ إعجازٌ بياني يصوره اقتضاء الخطاب شهوداً لمخاطب مظاهر الجود في الإنعام.

ووصف الاسم الكريم بإضافته الخاصة بالخالقية بأسلوب الجملة الموصولية بما فيها من تأكيد الإسناد وتقريره إعجازٌ بياني يصوره التناسب الأكمل بين معنى الخالقية والتربية التي يشعر اسم (الرب) بها، مع ما يفيده إطلاق الخالقية من عموم شمولي في الاقتدار الإلٓهي في أخص صفات الربوبية من الإبداع والإيجاد.

وإعادة فعل الخلق بعد ذلك مقيداً بتعلقه بالإنسان بكل ما فيه من آيات وعجائب في التكوين، إعجازٌ بياني يصوره تخصيص الإنسان بجعله نموذج الإبداع دون غيره من سائر المبدعات الإلّهية، للتناسب المتكامل بينه وبين ما هو محور الدائرة في الإبداع هنا، وهو العلم والتعلُّم.

وذكر منشأ تخليق الإنسان في قوله تعالى: (من علق) لتأكيد مظاهر الاقتدار في الإبداع إعجاز بياني يصوره تقريب ما هو أبعد تصوراً في دائرة الإمكان العقلي.

وإعادة الفعل (اقرأ) واستئناف الجملة الاسمية بعده (وربك الأكرم) يذكر اسم (الرب) بإضافته التخصيصية، ووصفه بأعلى منازل الكرم وذروته بصيغة التفضيل إعجاز بياني، يصوره التناسق بين المعاني وقوالبها الأسلوبية التي أخرجت في إطارها، مع ما يفيده استئناف الجملة الاسمية بتأليفها الخاص ومجيئها بعد الفعل مباشرة من الإشعار بسببية مضمونها لتحقيق مضمون الفعل (اقرأ).

ووصف الاسم الكريم بإضافته الخاصة ونقبة الأعلى بالتعليم بأسلوب الجملة الموصولية - أيضاً - المقررة لمضمونها على أبلغ وجه، مع ذكر آلة التعليم (علَّم بالقلم) إعجاز بياني، يصوره ما ينطوي تحت الإيجاز المعبِّر عن كثرة المعاني والحقائق من الروعة فيما هو كالحجة البرهانية على الاقتدار الإلّهي في هذا المقام الأكرم.

وتختتم الآيات بقوله تعالى: ﴿علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ وفيه إعجاز بياني يصوره ما اشتمل عليه من إجمال أبهمت فيه الصور والحقائق التي يعلمها الإنسان، وهذه الصور والحقائق من الكثرة والتتابع بما لا يمكن أن تحل تحت إحصاء أو حصر، لأنها مستمرة الوجود على مدى توارد الأجيال و«تطور» الفكر، واختلاف الأحداث والنوازل، وتوالي الكشوف تبعاً لتحرك العقل نحو التعرف على عناصر الكون ومظاهر الطبيعة، تحقيقاً للإفادة من نعمة تسخير الكون للإنسان.

وفي التعبير بقوله: ﴿علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ - هكذا بالفعل الماضي

المفيد لتحقق وقوع التعليم نظراً إلى ما هو مركوز في طبيعة الإنسان وفطرته المستعدة لتلقي ما يأتيها من صور الأفكار والأحداث مهما تكن كثرتها وعظمتها - إعجاز بياني يصوره جعل الإنسان معلَّماً لكل ما لم يعلم، إقامة للاستعداد الفطري مقام الواقع المتحقق في وجود الحياة.

وهذا الاستعداد الفطري هو المنبع الذي يمد الإنسان بعلم ما لم يعلم على مدى مرور الحياة في فلك الأحداث والوقائع، وهو الذي يكشف الأغطية، بجلو سحب الحجب عن المجهول الذي لا بد أن يعلم ويظهر.

كلام ابن حجر في إبداء حكمة أولية نزول هذه الآيات

وقد حام حول حمى كشف أسرار الحكمة الإلٓهية في افتتاح نزول القرآن الحكيم، وابتداء رسالة النبي الأمي محمد ﷺ بهذه الآيات مَنْ أجرى قلمه في حلبة سباقها من القدامى والمحدَثين، فأشار بعضهم إلى قطرات من غيثها، يقول الإمام الحافظ ابن حجر في الفتح: والحكمة في هذه الأولية أن هذه الآيات الخمس اشتملت على مقاصد القرآن، ففيها براعة الاستهلال، وهي جديرة أن تسمى عنوان القرآن، لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله.

وبيان كونها مشتملة على مقاصد القرآن أن هذه المقاصد تنحصر في علوم التوحيد والأحكام والأخبار، وقد اشتملت الآيات على الأمر بالقراءة، والبداءة ببسم الله، وفي هذه الإشارة إلى أصول الدين، وفيها ما يتعلق بالأخبار من قوله: ﴿ علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾. إهـ.

رأي الأستاذ الإمام محمد عبده في حكمة افتتاح نزول القرآن وابتداء الوحي بهذه الآيات

ويقول الأستاذ الإمام محمد عبده في تفسير سورة العلق: إنه لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه من افتتاح الله كتابه وابتداء الوحي بهذه الآيات الباهرات، فإن لم يهتدِ المسلمون بهذا الهُدى، ولم ينبههم النظر فيه إلى النهوض إلى تمزيق تلك الحجب التي حجبت عن أبصارهم نور العلم، وكسر تلك الأبواب التي غلقها عليهم رؤساؤهم وحبسوهم بها في ظلمات الجهل، وإن لم يسترشدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين - أي فاتحة تنزله، وهي أوائل سورة العلق - ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع فلا أرشدهم الله أبداً. إهـ.

وهذا كلام واضح غاية الوضوح، وصريح إلى أقصى حدود الصراحة في القطع بأن هذه الآيات الخمس التي افتتحت بها سورة العلق هي مفتتح كتاب الله، وابتداء وحي القرآن الكريم وهي فاتحة الكتاب المبين ـ أي فاتحة نزوله ـ فهي أول آيات نزلنَ منه إطلاقاً، فلم ينزل منه شيء قط، لا سورة الحمدلله فاتحة المصحف في ترتيب التلاوة، ولا أوائل سورة (المدَّثر) كما توهم في حديث جابر المتفق على صحته، ولا غير ذلك من آيات القرآن وسوره.

وقد صرح الأستاذ محمد عبده بما يرفع كل شك عن رأيه في ذلك، إذ قال في مطلع تفسير سورة العلق: وفي هذا ـ أي سياق حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي ـ دلالة على أن ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علَّم بالقلم. علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ هو أول خطاب إلهي وجه إلى النبي ﷺ، وهذا لا ينافي أن أول سورة نزلت كاملة بعد ذلك هي أم الكتاب كما بيناه في تفسيرها. إهـ.

تفسير المنار ينقل عن الأستاذ الإمام أن الفاتحة أول ما نزل إطلاقاً من القرآن

وهذا مخالف تمام المخالفة لما ذكره الأستاذ رشيد رضا في تفسير المنار نقلاً عن أستاذه الإمام محمد عبده، من أن الأستاذ الإمام محمد عبده قد رجَّح أن أول ما نزل على الإطلاق سورة فاتحة الكتاب ـ أي ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ ولم يستثن قوله تعالى: ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾.

وكلام الأستاذ الإمام محمد عبده يحمل الدلالة الواضحة على أن تفسيره جزء (عم) متأخر عن تفسيره لبعض القرآن الكريم مبتدئاً من فاتحة المصحف (الحمد لله)، وهذا التفسير العام هو الذي ينقله أو يلخصه، أو يمثله في عبارته السيد رشيد رضا في تفسير المنار، وهذا بين في قول الأستاذ الإمام فيما نقلناه عنه: وهذا لا ينافي أن أول سورة نزلت كاملة بعد ذلك ـ أي بعد نزول أوائل سورة العلق ـ هي أم الكتاب، كما بيَّناه في تفسيرها.

والأستاذ رشيد ـ وهو أقوم تلاميذ الإمام بفهم كلامه ومراميه ـ يؤكد رأيه فيما فهمه من كلامه من أنه يقول بأولية نزول سورة الفاتحة (الحمد لله) إطلاقاً دون استثناء أوائل سورة العلق أو غيرها من آيات وسور القرآن، وفي ذلك يقول في تفسير المنار: أما الأستاذ الإمام فقد رجح أن أول ما نزل على

الإطلاق سورة الفاتحة ـ أي (الحمد لله) ولم يستثن قوله تعالى (اقرأ باسم ربك).

سياحة فكرية للإمام محمد عبده في إبداء حكمة أولية نزول أم الكتاب إطلاقاً

ثم قال الأستاذ رشيد رضا: ونزع ـ أي الأستاذ الإمام محمد عبده ـ في الاستدلال على ذلك منزعاً غريباً في حكمة القرآن وفقه الدين، فقال ما مثاله: ومن آية ذلك أن السنة الإلٓهية في هذا الكون، سواء أكان كون إيجاد، أو كون تشريع أن يظهر سبحانه الشيء مجملاً ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجاً، وما مثل الهداية الإلٓهية إلا مثل البذرة والشجرة العظيمة، فهي في بدايتها تحتوي على جميع أصولها ثم تنمو بالتدرج، حتى تنبثق فروعها بعد أن تعظم دوحتها، ثم تجود عليك بثمرها.

والفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن، وكل ما فيه تفصيل للأصول التي وضعت فيها، ولست أعني بهذا ما يعبرون عنه بالإشارة، ودلالة الحروف كقولهم: إن أسرار القرآن في الفاتحة وأسرار الفاتحة في البسملة، وأسرار البسملة في الباء، وأسرار الباء في نقطتها، فإن هذا لم يثبت عن النبي ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان، ولا هو معقول في نفسه، وإنما هو من مخترعات الغُلاة الذين ذهب بهم الغلو إلى سلب القرآن خاصيته، وهي البيان.

وبيان ما أريد هو أن ما نزل القرآن لأجله أمور:

أحدها ـ التوحيد، لأن الناس كانوا كلهم وثنيين، وإن كان بعضهم يدعي التوحيد.

ثانيها ـ وعْدُ من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة، ووعيد من لم يأخذ به وإنذاره بسوء العقوبة، والوعد يشمل ما للأمة وما للأفراد، فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتها، والوعيد كذلك يشمل نقمها وشقاءهما، فقد وعد الله المؤمنين بالاستخلاف في الأرض، والعزة والسلطان والسيادة، وأوعد المخالفين بالخزي والعار في الدنيا، كما وعد بالجنة والنعيم، وأوعد بنار الجحيم في الآخرة.

ثالثها ـ العبادة التي تحيي التوحيد في القلوب، وتثبته في النفوس.

رابعها ـ بيان سبيل السعادة، وكيفية السير فيه، الموصل إلى نعيم الدنيا والآخرة.

خامسها ـ قصص من وقف عند حدود الله تعالى، وأخذ بأحكام دينه، وأخبار الذين تعدّوا حدوده، ونبذوا أحكام دينه ظِهْرِيًّا، لأجل الاعتبار، واختيار طريق المحسنين ومعرفة سنن الله في البشر.

هذه الأمور التي احتوى عليها القرآن، وفيها حياة الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية، والفاتحة مشتملة عليها إجمالاً بغير ما شك ولا ريب.

فأما التوحيد ففي قوله تعالى: ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ لأنه ناطق بأن كل حمد وثناء يصدر عن نعمة ما فهو له تعالى، ولا يصح ذلك إلا إذا كان سبحانه مصدر كل نعمة في الكون، تستوجب الحمد، ومنها نعمة الخَلْق والإيجاد والتربية والتنمية، ولم يكتف باستلزام العبارة لهذا المعنى فصرَّح به بقوله: ﴿ رب العالمين ﴾ ولفظ (رب) ليس معناه المالك والسيد فقط، بل فيه معنى التربية والإنماء، وهو صريح بأن كل نعمة يراها الإنسان في نفسه وفي الآفاق منه عزّ وجلّ، فليس في الكون متصرف بالإيجاد ولا بالإشقاء والإسعاد سواه.

التوحيد أهم ما جاء لأجله الدين، ولذلك لم يكتف في الفاتحة بمجرد الإشارة إليه، بل استكمله بقوله: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فاجتثّ بذلك جذور الشرك والوثنية التي كانت فاشية في جميع الأمم، وهي اتّخاذ أولياء من دون الله، تُعتقد لهم السلطة الغيبية ويُدعون لذلك من دون الله، ويستعان بهم على قضاء الحوائج في الدنيا، ويتقرب بهم إلى الله زلفى، وجميع ما في القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا الإجمال.

وأما الوعد والوعيد: فالأول منها مطوي في ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فذكر الرحمة في أول الكتاب ـ وهي التي وسعت كل شيء ـ وعدٌ

بالإحسان، وقد كررها مرة ثانية تنبيهاً لنا على أن أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا، لأنه لمصلحتنا ومنفعتنا.

وقوله: ﴿ مالك يوم الدين ﴾ يتضمن الوعد والوعيد معاً، لأن معنى الدين الخضوع، أي أن له تعالى في ذلك اليوم السلطان المطلق، والسيادة التي لا نزاع فيها، حقيقة لا ادِّعاء، وأن العالم كله يكون فيه خاضعاً لعظمته ظاهراً وباطناً، يرجو رحمته، ويخشى عذابه، وهذا يتضمن الوعد والوعيد.

أو معنى الدين الجزاء، وهو إما ثواب للمحسن، وإما عقاب للمسيء، وذلك وعد ووعيد وزد على ذلك أنه ذكر بعد ذلك ﴿ الصراط المستقيم ﴾ وهو الذي من سلكه فاز، ومن تنكبه هلك، وذلك يستلزم الوعد والوعيد.

وأما العبادة فبعد أن ذكرت في مقام التوحيد بقوله: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ أوضح معناها بعض الإيضاح في بيان الأمر الرابع الذي يشملها ويشمل أحكام المعاملات وسياسة الأمة بقوله تعالى: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ أي إنه قد وضع لنا صرّاطاً سيبينه ويحدده، وتكون السعادة في الاستقامة عليه، والشقاوة في الانحراف عنه، وهذه الاستقامة عليه روح العبادة، ويشبه هذا قوله تعالى: ﴿والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصَوا بالحق وتواصَوا بالصبر ﴾.

والفاتحة بجملتها تنفخ روح العبادة في المتدبر لها، وروحُ العبادة هي إشراب القلوب خشية الله وهيبته والرجا لفضله، لا الأعمال المعروفة من فعل وكف حركات اللسان والأعضاء، فقد ذكرت العبادة في الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها، والصيام وأيامه، وكانت هذه الروح في المسلمين قبل أن يكلَّفوا هذه الأعمال البدنية، وقبل نزول أحكامها التي فصلت في القرآن تفصيلاً ما، وإنما الحركات والأعمال مما يتوسل به إلى حقيقة العبادة، ومنح العبادة الفكر والعبرة.

وأما الأخبار والقصص ففي قوله تعالى: ﴿ صراط الذين أنعمت

عليهم ﴾ تصريح بأن هناك قوماً تقدموا وقد شرع الله شرائع لهدايتهم، وصائح يصيح: ألا فانظروا في الشؤون العامة التي كانوا عليها، واعتبروا بها، كما قال تعالى لنبيه يدعوه إلى الاقتداء بمن كان قبله من الأنبياء: ﴿ أولئك الذين هدى الله فبِهُداهم اقْتَدِهْ ﴾ حيث بيَّن أن القصص إنما هي للعظة والاعتبار، وفي قوله تعالى: ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ تصريح بأن غير المنعم عليهم فريقان، فريق ضلّ عن صراط الله، وفريق جاحد وعاند من يدعو إليه، فكان محفوفاً بالغضب الإلٓهي والخزي في هذه الحياة الدنيا.

وباقي القرآن يفصِّل لنا في أخبار الأمم هذا الإجمال على الوجه الذي يفيد العبرة، فيشرح حال الظالمين الذين قاوموا الحق عناداً، والذين ضلُّوا فيه ضلالاً، وحال الذين حافظوا عليه وصبروا على ما أصابهم في سبيله.

فتبين من مجموع ما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على الأصول التي يفصِّلها القرآن تفصيلاً، فكان إنزالها أولاً موافقاً لسنة الله تعالى في الإبداع، وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى (أم الكتاب) كما تقول: إن النواة أم النخلة، فإن النواة مشتملة على شجرة النخلة كلها حقيقة، لا كما قال بعضهم: أن المعنى في ذلك أن الأم تكون أولاً، ويأتي بعدها الأولاد. إهـ ما ساقه السيد رشيد رضا في تمثيل كلام شيخه الأستاذ محمد عبده، وتصوير فكرته في إبداء حكمة أولية نزول الفاتحة إطلاقاً دون استثناء شيء من آي القرآن وسوره، لا أوائل ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ كما هو صريح حديث عائشة في بَدْء الوحي، ولا أوائل (المدَّثر) كما هو صريح حديث جابر عند مسلم والبخاري رحمهما الله تعالى.

نهج الإمام محمد عبده في بيان حكمة أولية نزول الفاتحة نهج شعري يلفه الخيال والرمزية

هذا النهج الذي نهجه الإمام محمد عبده، وحاول فيه أن يجعل سورة الفاتحة ﴿ الحمدلله رب العالمين ﴾ متضمنة إجمالاً لجميع ما احتواه القرآن المجيد من الحقائق والمعاني التشريعية والأصول العقيدية والنظم الاجتماعية، تفصيلاً في سوره وآياته ليثبت بذلك أن سورة الفاتحة أول ما نزل إطلاقاً لا يستثني أوائل سورة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ ولا غيرها - نهج شعري، يلفه

الخيال من جوانبه، وهو لا يخرج في مباديه ونهاياته عن مذهب (الدمجيين) الذين يُكرِهون الألفاظ والعبارات تعسفاً لاستخراج معاني متخيلة في حنايا عواطفهم، فيدمجون الحقائق المتناثرة في عبارات وأساليب وألفاظ قد تكون متباعدة المواقع في مناسباتها، ولكنها قد تكون قريبة النسب لبعضها في معانيها وأهدافها.

وهؤلاء (الدمجيون) هم الذين زعموا على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: لو شئت أن أوقر سبعين بعيراً من تفسير أم القرآن لفعلت.

والذين زعموا هذه القالة لم يسلكوا في تبيينها مسلك الإشاريين الغلاة الذين ذهب بهم الغلو إلى سلب القرآن خاصيته البيانية في تقحمهم على حماه، واخترقوا قولهم: إن أسرار القرآن في الفاتحة، وأسرار الفاتحة في البسملة، وأسرار البسملة في الباء، وأسرار الباء في نقطتها، مما لا يعقل في نفسه، ولا يتصور في دائرة الخيال، وإنما سلكوا في تبيين ما نسب إلى عليّ رضي الله عنه مسلك بيان المعاني المختلفة، والحقائق المتعددة في (سورة الفاتحة). ولم يقولوا ـ كما قال الأستاذ محمد عبده ـ: إن (الفاتحة) تتضمن جميع ما في القرآن من الحقائق والمعاني، ولكنهم قالوا: إن (سورة الفاتحة) في إيجازها المعجز تتضمن ـ إذا بسطت عبارتها وفصِّلت حقائقها ومعانيها ـ الكثير من المعاني والحقائق الإيمانية، والأحكام الشرعية.

صة مزعومة تنسب
ـ علىّ رضي الله عنه
سيراً دمجياً لسورة أم
الكتاب

يقول الحافظ جلال الدين السيوطي في «الإتقان»: إن الإمام ابن أبي جمرة قال في توضيح معنى ما نسب إلى عليّ رضي الله عنه من أنه لو شاء لأوقر سبعين بعيراً في تفسير (سورة الفاتحة)، قال ابن أبي جمرة: وبيان ذلك أنه إذا قال: الحمد لله رب العالمين، يحتاج إلى تبيين معنى الحمد، وما يتعلق بالاسم الجليل الذي هو الله، وما يليق به من التنزيه، ثم يحتاج إلى بيان العالم وكيفيته على جميع أنواعه وأعداده، وهي ألف عالم، أربعمائة في البحر، وستمائة في البر فيحتاج إلى بيان ذلك كله، فإذا قال: الرحمن الرحيم يحتاج إلى بيان الاسمين الجليلين، وما يليق بهما من الجلال، وما معناهما، ثم يحتاج إلى بيان جميع الأسماء والصفات، ثم يحتاج إلى بيان الحكمة في اختصاص

هذا الموضع بهذه الاسمين دون غيرهما.

فإذا قال: مالك يوم الدين، يحتاج إلى بيان ذلك اليوم، وما فيه من المواطن والأهوال وكيفية مستقره، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، يحتاج إلى بيان المعبود وجلالته، والعبادة وكيفيتها وصفتها، وأدائها على جميع أنواعها، والعابد في صفته، والاستعانة وأدائها وكيفيتها، فإذا قال: اِهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة، يحتاج إلى بيان الهداية ما هي، والصراط المستقيم وأضداده، وتبيين المغضوب عليهم والضالين، وما يتعلق بهذا النوع، وتبيين المرضيّ عنهم وصفاتهم وطريقتهم.

فعلى هذه الوجوه يكون ما قاله عليّ من هذا القبيل.

وقصة إيقار عليّ رضي الله عنه سبعين بعيراً في تفسير أم الكتاب ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ لو شاء؛ لا يُعرف لها سند يعوّل عليه، فهي أشبه أن تكون من تكذّب الروافض على الإمام رضي الله عنه، فلا مقام لها في بحث علمي، يفسَّر به القرآن الحكيم.

وبيان ابن أبي جمرة لما يمكن أن يحقق به ما زُعم على عليّ رضي الله عنه كلام لا يخرج عن طرائق الدمجيين الذين يتكثرون من قضايا الخيال المتشابكة بخيوط الاستطراد، واجترار المسائل لأدنى مناسبة، وهو صنيع معروف في تاريخ تدوين العلوم والمعارف الإسلامية وغيرها منذ عصر التكثر، عصر النقل والرواية والاستطراد، والخروج من فن إلى فن، ومن مسألة إلى مسائل أخرى، فهو أشبه ما يكون بما عرف في العصور المحدثة بـ«دوائر المعارف» التي يحاول واضعوها أن يجمعوا كل شيء عن كل شيء، بيد أن هذه الدوائر لها نظامها الوضعي الخاص الذي يجعلها قواميس موسَّعة للمعرفة في نظام يجعل كل مسألة تحت أصولها الأبجدية أو الموضوعية، وليس فيها هذا «الدمج المَزْجيّ» الذي يدخل الشيء في الشيء وهو أبعد ما يكون منه.

ونهج ابن أبي جمرة في بيان إمكان تحقق ما نسب إلى عليّ رضي الله عنه ـ لو صحت القصة ـ أقرب إلى أن يكون نهجاً علمياً تفسر به فاتحة الكتاب

نهج ابن أبي جمرة في محاولة تفسير الفاتحة لبيان تجويز ما زعم على عليّ أقرب إلى العلم من نهج الشيخ محمد عبده

من النهج الذي سلكه الأستاذ محمد عبده فيما صوره عنه تلميذه السيد رشيد رضا، لأن نهج ابن أبي جمرة لم يدّع أن (سورة الفاتحة) في إيجازها المعجز تتضمن جميع حقائق ومعاني القرآن الحكيم كالذي زعمه الأستاذ محمد عبده، وأقام على دعائمه كلامه في بيان تضمن الفاتحة لذلك، وهذه الدعوى «الدمجية» هي التي يمكن أن تكون محتملة لأن يقال عنها: إنها تسلب القرآن الحكيم خاصيته، وهي البيان.

لأن خاصية البيان القرآني تقتضي أن تكون آياته وسوره مستقلة الأداء للحقائق الكونية التي تضمنها القرآن، وأن تكون مستقلة الأداء في تأسيس الإيمان بالله تعالى وصفاته العليا، وأسمائه الحسنى وموجبات الإيمان بها، وأن تكون مستقلة الأداء في التعبد الذي يقرِّب إلى الله تعالى بما شرعه في كتابه، وأن تكون مستقلة الأداء في إقامة دعائم النظم الاجتماعية التي تقوم على العدل والمرحمة بين أفراد المجتمع البشري وجماعاته، وأممه وشعوبه.

فلا تدمج الحقائق الكونية والمعاني الإيمانية، والشرائع التنظيمية إدماجاً يجعلها محصورة ـ ولو إجمالاً ـ في آيات سورة موجزة التعبير والأداء في موضوعها، لأن ذلك يفتح الطريق أمام الذين لم يشربوا روح الأسلوب البياني الذي اختص به القرآن، ليقولوا في إعجازه البياني ومعانيه وحقائقه وهدايته ما لا يتفق مع روعة البيان الإعجازي، وما لا يتفق مع عموم تشريعاته ونظمه وأساليب براهينه ودلائله الكونية، وأهدافه الإصلاحية، وخلود دعوته.

خلود إعجاز القرآن في خلود هدايته التي يتابع العلم الكشف عن حقائق آياتها

وسورة الفاتحة ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ يمكن التعبير عن حقائقها ومعانيها بعبارات لا تؤدِّي إلى بعض حقائق ومعاني القرآن في دائرة ما اشتملت عليه، لا ما اشتمل عليه القرآن، مهما أسهب في تفسيرها المفسرون، ومهما ولَّدوا فيها من المعاني، لأن القرآن العظيم كتاب فصلت آياته تبياناً لحقائق الإيمان والهداية، فلا يمكن تفسيره تفسيراً يكشف عن حقائقه كلها، ويكشف عن جميع معانيه في زمن معين، وجيل معين، لأن القرآن هو المعجزة العلمية العظمى الخالدة خلود رسالة محمد ﷺ.

فحقائق القرآن ومعانيه التي تحمل عموم هدايته خبيئة بيانه وأسلوبه وكلماته، يكشف عنها العلم في ظل «تطور» العقل الإنساني وتفكيره شيئاً فشيئاً على مدى قيام الحياة في هذا العالم المتوثب للتقدم في آفاق المعرفة المتجددة، كما قال الله جلّ شأنه: ﴿ خُلق الإنسان من عَجَل، سأريكم آياتي فلا تستعجلون ﴾[1].

وكما قال عزّ وجلّ: ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ﴾[2] وكما قال جلّ وعلا: ﴿سنريهم آياتِنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[3].

والمتأمل في أسلوب هذه الآيات، التي نبعت من محيط الحقائق الكونية، واتخذها القرآن معبراً إلى بثّ هدايته، ومعرفة الله تعالى بوحدانيته وكمالاته الإلهية، وجاءت في أسلوب يكاد يكون موحد التعبير - يجد أنها تضمنت وعداً من الله تعالى مقرباً بإعانة العقل الإنساني حتى يتمكن من معرفة أسرار الكون التي أودع الدلالة عليها في آياته تعبيراً تارة، وإشارة تارة أخرى، ورمزاً في كثير من مواقعها مما يكشف عنه العلم على مدى تتابع الأجيال زمناً بعد زمن، لا ينقطع مدده، ولا تنتهي آثاره، حتى يتبين للناس أن هذا القرآن المبين بحقائقه ومعانيه وهدايته إنما أنزل على قلب محمد ﷺ النبي الأمي رسول الله وخاتم النبيين لهدايتهم إلى معرفة الله بمعرفة آياته، وبراهين حكمته، وستعرف أفئدتهم وعقولهم هذه الآيات عند كشفها كلما توافرت للعقل أسباب كشفها ووسائل معرفتها، فلا يستطيعون يومئذ إنكارها وجحدها، ولكنهم يستعجلون بما جبلوا عليه من غريزة الحرص على معرفة ما غاب عن حسهم وشعورهم، ولمّا تصل إليه عقولهم، فكل جيل من الناس في كل زمان ومكان له حظه من معرفة حقائق القرآن ومعانيه وهدايته، ودلائله وأسراره.

---

(١) سورة الأنبياء آية (٣٧).
(٢) سورة النمل آية (٩٣).
(٣) سورة فصلت آية (٥٣).

يقول الإمام فخر الدين الرازي: إن العجائب التي أودعها الله تعالى في آياته مما لا نهاية له، فهو تعالى يطلع خلقه على تلك العجائب زماناً، فزماناً، ومثاله: كل أحد رأى بعينه بنية الإنسان وشاهدها إلا أن العجائب التي أبدعها الله في تركيب هذا البدن كثيرة وأكثر الناس لا يعرفونها، والذي وقف على شيء منها فكلما أمعن النظر ازداد وقوفاً على تلك العجائب والغرائب. إهـ.

وقد أبان النبي ﷺ أروع إبانة عن خلود معجزته العظمى، وسر ذلك الخلود فيما أخرجه البخاري في صحيحه من قوله ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أوتي ما على مثله آمن البشر، وكان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

فهذا الحديث الثابت إعجازٌ في الإبانة عن معجزة القرآن وخلودها، وسر ذلك الخلود، لأنه جعل الوحي بالقرآن، وهو أمر علمي عقلي محض، لا أثر فيه للمادية التي تكره العقول على الإيمان بالمعجزة المادية ساعة التحدي بها، ثم تنقضي وتنتهي، كما في سائر معجزات الأنبياء والرسل السابقين، وإذا تقضت المعجزة المادية تقضى معها أثرها، لأنها موقوتة محدودة.

أما معجزة القرآن فهي نفس ما أوحى الله به إلى نبيه محمد ﷺ، وهي نفس رسالته، وهي نفس هداية تلك الرسالة، فالتحدي بها قائم لا يتقضى ولا ينتهي، وأثرها في إقناع العقول وإنارة القلوب، وإشراق الأرواح قائم لا ينقطع، فلها في كل لحظة من كل يوم مهتدون بها، مقبلون على الإيمان بها واعتناقها، ومن ثم جاءت الرجاوة مترتبة على أسبابها ودواعيها في قول النبي ﷺ: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

* * *

تحقيق القول في دعوى أولية نزول الفاتحة

والقول بأن (سورة الفاتحة) هي أول ما نزل من القرآن إطلاقاً قول مرجوح، بل مردود، قال عنه الإمام النووي: هو قول باطل، وبطلانه أظهر من أن يذكر. إهـ.

وقال البيهقي عن حديثه الذي استند إليه القائلون به: هو منقطع، أي والمنقطع من أقسام الضعيف، فلا تقوم به حجة.

وقد ذهب إلى هذا القول المرجوح من المفسرين جار الله الزمخشري، وجازف فنسبه إلى أكثر المفسرين، قال في الكشاف: ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أن أول سورة نزلت (اقرأ)، وأكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب. إهـ.

وقد رد الحافظ ابن حجر في الفتح على الزمخشري ادّعاءه أولية نزول الفاتحة، فقال: والذي ذهب إليه أكثر الأئمة هو الأول ـ أي القول بأولية نزول (اقرأ) كما هو قول ابن عباس ومجاهد ـ وأما الذي نسبه الزمخشري إلى الأكثر فلم يقل به إلاّ عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول.

وحجة الزمخشري على ادّعائه أولية نزول الفاتحة ما أخرجه البيهقي في الدلائل، والواحدي في (أسباب النزول) من طريق يونس بن بُكَير عن يونس ابن عمرو عن أبيه، عن أبي ميسرة الهمداني، عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً» فقالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث. فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له، وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة، فانطلقا فقصّا عليه، فقال: «إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي، يا محمد، يا محمد، فأنطلق هارباً في الأرض» فقال: لا تفعل، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه، يا محمد، قل: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم* الحمد لله رب العالمين ـ حتى بلغ ـ ولا الضالين ﴾.

قال السيوطي في (الإتقان): هذا حديث مرسل، رجاله ثقات، وقال البيهقي: إن كان هذا الحديث محفوظاً من وجه غير هذا فيحتمل أن يكون خبراً عن نزول الفاتحة بعد ما نزلت (اقرأ) و(المدّثر).

وقال القسطلاني في (المواهب): وأما حديث البيهقي، أن أول ما نزل

الفاتحة، كقول بعض المفسرين، فقال البيهقي: هذا حديث منقطع ـ أي فلا حجة فيه ـ لأن المنقطع من أقسام الضعيف، فإن كان محفوظاً من غير هذا الوجه فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعد أن نزلت ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ و﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ فلا حجة فيه للأولية المطلقة.

وقفة باحثة مع الأستاذ الإمام محمد عبده

ولعل الأستاذ الإمام محمد عبده نزع في قوله بأولية نزول الفاتحة إطلاقاً إلى هذا الحديث متقيِّلاً للزمخشري في دعواه هذه الأولية، والمسألة نقلية محضة، لا مدخل فيها للاجتهاد والرأي.

بيد أن الأستاذ الإمام أراد أن يدعم اختياره لهذا الرأي فنزع هذا المنزع الغريب في بيان حكمة القرآن وفقه الدين، فأسهب في بيان تضمن الفاتحة جميع حقائق ومعاني القرآن، وقصصه وأخباره وتشريعاته إسهاباً أدبياً لا يخلو من تكلف وتعسف في استخراج حقائق القرآن ومعانيه من عبارات آيات سورة الفاتحة.

وقد كان من الخير للعلم وسواء البحث أن يتسامى الأستاذ الإمام بقلمه إلى مقامه العلمي ومركزه الفكري وهو رائد الطليعة المجدِّدة في هذا القرن، ولا سيما في بيان حكمة القرآن، وتفسير المعاني التشريعية والتنظيمية وإبراز سنن الله في الاجتماع البشري من خلال آيات القرآن المبين.

ويظهر أن تلميذه السيد العلَّامة الأستاذ رشيد رضا ـ وهو أنجب تلاميذه، وأقومهم على فهم القرآن الكريم فهماً يعتمد على معرفة بالسنة النبوية، وكان بنصوصها أقوم من شيخه ـ لم يطمئن كل الاطمئنان إلى منزع شيخه الأدبي الغريب في بيان حكمة القرآن وفقه الدين اللذين نزع بهما في بيانه حكمة أولية نزول الفاتحة، فقال في تقديم كلام شيخه: إنه نزع في الاستدلال على مذهبه أن سورة الفاتحة أول ما نزل من القرآن إطلاقاً منزعاً غريباً.

ثم قال الأستاذ رشيد رضا معقباً على كلام شيخه: وأقول الآن: هذا ما قاله الأستاذ الإمام مبسوطاً موضحاً، ويمكن أن يقال: إن نزول أول سورة العلق قبل الفاتحة لا ينافي هذه الحِكَم التي بيَّنها.

وها هنا ملاحظة تسترعي النظر والتأمل، ذلك أن كلام الشيخ رشيد رضا رحمه الله ليس فيه إشارة من قريب أو بعيد إلى ما جاء في تفسير جزء (عَمَّ) للأستاذ الإمام من تصريحه بأن نزول سورة العلق كان أول خطاب إلّهي وُجِّه إلى النبي ﷺ، وهذا بيِّنٌ لا يتخالجه شك في أن أول ما نزل من القرآن إطلاقاً هو الآيات الخمس من أول سورة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وهو الرأي الذي مضى عليه جمهور الصحابة والتابعين وأكثر الأئمة من علماء الأمة.

ثم قال الأستاذ الإمام: وهذا لا ينافي أن أول سورة نزلت كاملة بعد ذلك هي أم الكتاب كما بيَّناه في تفسيرها.

ولا ندري كيف كان ذلك، والشيخ رشيد رضا هو صاحب نقل وتصوير دروس الإمام في تفسيره العام على صفحات (المنار) نشراً في المجلة، وتفسيراً مدوناً في أسفار وأجزاء تفسير (المنار) وهو صاحب الإشراف الكامل علمًا وعملاً في إخراج تفسير جزء (عَمَّ) مطبوعاً متداولاً في أيدي القارئين.

والذي ذكره الإمام في تفسير جزء (عَمَّ) كلام متقبّل لا يرده نقل صريح، ولا يأباه عقل عليم؛ ولا سيما إذا أدرج فيه ما يفيد أن الآيات الخمس من أول سورة ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ كانت أسبق نزولاً من سورة الفاتحة، لأنها أول آيات نزلت بعد فترة الوحي، التي بدأت عقب نزول ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وانتهت بنزول ﴿ يا أيها المدَّثـر ﴾، وهذه الفترة لم تتجاوز أياماً معدودات كما حققناه بحثاً وترجيحاً.

ولو أن الأستاذ الإمام محمد عبده جعل ما ذكره في بيانه الأدبي ـ الذي نزع فيه هذا المنزع الغريب في بيان حكمة أولية نزول سورة الفاتحة إطلاقاً ـ بياناً لحكمة الترتيب الإلّهي بين سور القرآن في العرضتين الأخيرتين في رمضان من عام انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ـ حتى انتهى هذا الترتيب التوقيفي بين سور القرآن إلى المصحف الإمام الذي اتفقت عليه كلمة الأمة خلفاً عن سلف بجميع طوائفها، وهو لا يزال بين يديها متلواً مدروساً على ما رتبه رسول الله ﷺ في آخر عرضة على أمين الوحي جبريل عليه السلام، والله

معهما يسمع ويرى ـ لكان ذلك من أمثل ما يقال في حكمة القرآن وفقه الدين، ولكان فيه ما يؤيد رأي جمهور العلماء من أن ترتيب السور على ما في المصحف الإمام توقيفي كترتيب الآيات.

وكان يكفي الأستاذَ الإمامَ محمد عبده كلماته الحكيمة التي قالها في بيان حكمة افتتاح نزول القرآن بأول سورة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وأنها أول خطاب إلهي وُجِّه للنبي ﷺ، لتبقى في ميزانها الرجيح ـ إلى جانب ما قاله العلّامة الحافظ ابن حجر في حكمة افتتاح نزول القرآن بها ـ صورة مشرقة في الإطار الفكري الذي وضعت فيه رسالة محمد خاتم النبيين ﷺ.

ومن غرائب الأقوال في أولية نزول (سورة الفاتحة) ما نسبه بعض من لم يحسن التأمل في سَوْق الحقائق لمناسباتها، أخذاً من كلام أبي الحسن الواحدي في كتابه (أسباب نزول القرآن) إذ ذكر الواحديُّ حديث أبي ميسرة، وهو بصدد بيان مكية فاتحة الكتاب ـ وقد عرفنا أن هذا الحديث هو مستمسك القائلين بأولية نزول الفاتحة، ولعل هذا هو مصدر عدم التأمل عند من نسب القول بأولية نزول الفاتحة إلى عليّ رضي الله عنه ـ ثم قال الواحدي: وهذا ـ أي القول بمكية فاتحة الكتاب ـ قول علي بن أبي طالب، فذهب الوهم بمن لم يحسن التأمل إلى أولية نزول الفاتحة، فنسبه لعليّ رضي الله عنه، وظاهر عند التأمل أنه لا علاقة لهذا بأولية النزول.

والواحدي ذكر حديث أبي ميسرة بصدد بيان أن فاتحة الكتاب مكية النزول، رداً على من زعم أنها مدنية النزول، وهو قول منسوب إلى مجاهد، وقد عدّه العلماء هفوة عالم، لا يتابع عليها.

ثم قال الواحدي: ولا يسعنا القول أن رسول الله ﷺ قام بمكة بضع عشرة سنة يصلي بلا فاتحة الكتاب، هذا مما لا تقبله العقول.

* * *

والخلاف في أولية النزول بين ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وسورة الفاتحة، أيسر مورداً ومصدراً من الخلاف في أولية النزول بين ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾

و﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ لأن حديثي (اقرأ) و(المدَّثر) مرويان في الصحيح، رواهما الشيخان: البخاري ومسلم، وحديث أولية نزول (اقرأ) من رواية عائشة رضي الله عنها، وهو قولها كما أخرجه الحاكم في مستدركه والبيهقي في دلائله، وأنها كانت تقول: أول سورة نزلت من القرآن ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وهو قول أبي موسى الأشعري، كما أخرجه الطبراني في كبيره عن أبي رجاء العطاردي قال: كان أبو موسى يقرئنا، فيجلسنا حِلَقاً، عليه ثوبان أبيضان، فإذا تلا هذه السورة ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ قال: هذه أول سورة أنزلت على محمد ﷺ.

وشُهر القول به عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهما، وقال به من التابعين عبيد بن عمير والزهري، ورواية عن مجاهد، وعليه جمهور المحدثين، والفقهاء.

تحقيق القول في زعم أولية نزول ﴿يا أيها المدثر

أما حديث أولية نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ فمن رواية جابر بن عبدالله رضي الله عنهما وهو قوله، وقد أخرجه الشيخان، البخاري ومسلم، والترمذي، والنسائي، والإمام أحمد.

والبخاري رحمه الله أورد حديث جابر في صحيحه بطرق مختلفة الإسناد، وروايات متعددة، فقد رواه أولاً - عن يحيى بن موسى البلخي، قال: حدثنا وكيع، عن علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن؟ قال: ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ قلت: يقولون: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن ذلك، وقلت له مثل الذي قلت فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء، فلما قضيت جواري هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني، فلم أرَ شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أرَ شيئاً، ونظرت أمامي فلم أرَ شيئاً، ونظرت خلفي فلم أرَ شيئاً، فرفعت رأسي، فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة، فقلت: دثِّروني، وصبوا عليّ ماء بارداً، فدثروني، وصبوا عليّ ماء بارداً»، فنزلت: ﴿يا أيها المدَّثر. قم فأنذر﴾.

ورواه ثانياً ـ عن محمد بن بشار، قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي وغيره ـ أي أبو داود الطيالسي ـ قالا ـ حدثنا حرب بن شداد، عن يحيى ابن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (جاورت بحراء)؛ثم أحال البخاري هذه الرواية على حديث لم يروه ـ كما قال الحافظ ابن حجر ـ وإنما رواه مسلم.

ورواه ثالثاً ـ فقال: باب قوله: (وربك فكبر) حدثنا إسحق ابن منصور، حدثنا عبد الصمد، حدثنا حرب، حدثنا يحيى، قال سألت أبا سلمة: أيُّ القرآن أُنزل أول؟ فقال: ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ فقلت: أنبئت أنه ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبدالله: أي القرآن أنزل أول؟ فقال: ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ فقلت: نبئت أنه ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ فقال: لا أخبرك إلا بما قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «جاورت في حراء، فلما قضيت جواري هبطت فاستبطنت الوادي، فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض، فأتيت خديجة، فقلت: دثّروني، وصبُّوا عليّ ماء بارداً»، وأُنزل عليّ ﴿ يا أيها المدَّثر قم فأنذر. وربك فكبِّر ﴾.

ورواه رابعاً ـ فقال: باب﴿وثيابك فطهِّر﴾حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث عن عقيل، عن ابن شهاب، وحدثني عبدالله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن الزهري، فأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه رعباً، فقلت: زمِّلوني، زمِّلوني، فدثّروني»، فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ إلى ﴿ والرجز فاهجر ﴾.

ورواه خامساً ـ فقال: باب ﴿ والرجز فاهجر ﴾ حدثنا عبدالله ابن يوسف، حدثنا الليث عن عقيل، قال ابن شهاب: سمعت أبا سلمة قال:

أخبرني جابر بن عبدالله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدِّث عن فترة الوحي: «فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قِبَل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحِرَاء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي، فقلت: زمِّلوني، زمِّلوني، فزمَّلوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها المدَّثر قم فأنذر﴾ إلى ﴿والرجز فاهجر﴾ ـ قال أبو سلمة، والرجز: الأوثان ـ ثم حَمِيَ الوحي وتتابع».

غموص الحكمة في سوق الإمام البخاري روايات هذه القصة

هذا الصنيع الذي نهجه الإمام البخاري في سوقه روايات القصة عجيب، ولعله من أسرار جامعه التي لم تُكْشف عنها الحُجُب، فالقصة واحدة، تدور رواياتها كلها حول موضوع واحد، والسائل في الروايات الثلاث الأولى واحد، وهويحيى بن أبي كثير، والمسؤول فيها واحد، هو أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، والمجيب فيها واحد، هو الصحابي الجليل جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنهما.

وفي الرواية الرابعة والخامسة لم يُذكر يحيى بن أبي كثير، وإنما ذكر فيهما ابن شهاب الزهري مُخْبَراً من أبي سلمة بما حدثه به جابر عن رسول الله ﷺ.

فالروايات الخمس كلها تدور حول مسألة واحدة، هي (ما أول ما نزل من القرآن)، وجاءت عبارات الروايات متقاربة تقارباً شديداً، تكاد تكون موحدة، فما حكمة توزيع الروايات الموحدة المضمون وتفريقها على أبواب، كل باب تعنونه آية من الآيات الخمس، فيما عدا الرواية الأولى التي أخذت من الآيتين الأوليين ﴿يا أيها المدَّثر * قم فأنذر﴾ عنوانها دون تبويب؟.

فهل صنع الإمام البخاري ذلك لمجرد جمع طرق الرواية وأسانيدها المختلفة، فيما قبل يحيى والزهري تأكيداً لصحة الحديث؟.

فإذا صح هذا بقي السؤال عن حكمة جعل كل آية من الآيات الثلاث الأخيرة عنواناً لباب لم يذكر فيه سوى الحديث نفسه بلفظه ومضمونه ومعناه؟.

ومما هو أدخل في الغرابة وإثارة العجب سكوت الحافظ الإمام العيلم

ابن حجر ـ وهو قيِّم الجامع الصحيح وحلَّال مشكلاته، وفكَّاك طلسماته، وكشَّاف خفاياه، ومظهر أسراره ـ عن بيان حكمة هذا الصنيع من الإمام البخاري.

والسؤال في الروايات الثلاث الأولى كان عن أول ما نزل من القرآن، والجواب فيها كان من أبي سلمة بأن أول ما نزل ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ وجاءت معارضة يحيى بن أبي كثير لأبي سلمة، بذكره له ما هو متداول عند أهل العلم بينهم بأن أول ما نزل من القرآن ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ وبيان أبي سلمة في ردِّه على هذه المعارضة بأنه سأل جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن ذلك، وأنه أخبر جابراً بمثل ما قاله يحيى له في معارضته مما اشتهر وتُدوُول بين أهل العلم من أن أول ما نزل من القرآن ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ فقال له جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ، وساق حديث تجلِّي جبريل للنبي ﷺ، وهو يناديه، فرفع النبي ﷺ رأسه إلى السماء لمّا سمع النداء، فرأى شيئاً، ولم يعيِّن في هذه الرواية ما هو هذا الشيء الذي رآه النبي ﷺ، ونزلت ﴿ يا أيها المدَّثر قم فأنذر ﴾.

وفي الرواية الثالثة أن النبي ﷺ لما سمع النداء نظر عن يمينه وشماله وأمامه وخلفه ثم قال: «فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض» وهذا القول من النبي ﷺ يفيد أن النبي ﷺ قد رأى من يعرفه، ومن سبق له لقياه ورؤيته، وليس ذلك إلا جبريل عليه السلام أمين الوحي، فهو الذي سبق له أن لقيه في غار حراء، وأقرأه الآيات الخمس من أول سورة ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾.

والروايات الثلاث الأولى تتفق في جوهر الموضوع، ولا تختلف إلا في أسلوب الأداء إيجازاً أو بسطاً مناسباً لا يخلو من فائدة.

أمـا الروايتان الرابعة والخامسة ففيهما أن الزهري أخبره أبو سلمة، وسمع منه ما حدثه به جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ وهو يحدِّث عن فترة الوحي، وساق البخاري في هاتين الروايتين الحديث، وقد جاء فيه (فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس أو قاعد على كرسي بين السماء

والأرض) وأن النبي ﷺ جئث من هَوْل ما رأى، وداخله شيء من الفزع لعظم المنظر وغرابته على الطبيعة البشرية، وقد عبَّر النبي ﷺ عن فزعه بقوله: «ففرقت منه» ثم ذهب إلى أهله، وقال لهم: «زمِّلوني، زمِّلوني» فزملوه، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿ يا أيها المدَّثر * قم فأنذر﴾.

وبمقتضى وحدة القصة في موضوعها يجب رد بعض الروايات إلى بعض، على معنى أن تجعل كلها رواية واحدة، تتضمن خلاصة القصة باعتبارها وحدة في موضوعها، لينتهي ذلك إلى أن كل ما نقل عن جابر رضي الله عنه إنما كان حديثاً سمعه من النبي ﷺ وهو يحدِّث عن فترة الوحي، وعودته إليه بعد فترته، وأنه كان أول ما نزل في عودة الوحي بعد فترته ﴿ يا أيها المدَّثر قم فأنذر ﴾ إلى قوله ﴿ والرجز فاهجر ﴾.

وجابر رضي الله عنه لم يتعرض مطلقاً في حديثه لنزول ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ ولكنه لما سُئل عن أول ما نزل من القرآن أجاب بما عنده من العلم، ولما أُشعر بما يقوله أهل العلم من أن أول ما نزل من القرآن ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ بيَّن أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يحدث عن مناسبة خاصة هي فترة الوحي، وكان في هذا الحديث عن الفترة ، فأنزل الله تعالى ﴿يا أيها المدَّثر. قم فأنذر﴾ وهي التي افتتح بها الوحي بعد فترته وعودته إلى النبي ﷺ.

ولم يتعرض جابر رضي الله عنه في حديثه إلى نفي أو إثبات أن قرآناً نزل على النبي ﷺ قبل فترة الوحي، مع بيانه في نص الحديث أن النبي ﷺ رأى جبريل وعرفه، وأخبر عنه بالكناية في قوله ﷺ: «فإذا هو» وهذا بيِّن جداً في أنه ﷺ يعني بهذه الكناية شخصاً معروفاً له، كان قد سبق له أن لقيه ورآه وعرفه معرفة يقين وأنه اجتمع به، ويوضح ذلك ما جاء في الرواية الثانية من الروايتين الأخيرتين، وهي رواية الزهري، من التصريح بأخص أوصاف شخصية المُكْنَى عنه، إذ جاء فيها قول النبي ﷺ: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء».

وإذا استعصى على الباحثين تأويل حديث جابر رضي الله عنه في

التوفيق بين روايات حديث جابر برد المبهم إلى المفسر

رواياته الثلاث الأولى عند البخاري رحمه الله تعالى، بما يجعله متفقاً مع رأي جمهور الأئمة من السلف في قولهم بأولية نزول ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ أولية مطلقة، لما في تلك الروايات الثلاث من مراجعة يحيى بن أبي كثير لأبي سلمة ـ أولاً ـ وإخباره بما يقوله أهل العلم من أولية نزول (اقرأ) بعد إجابة أبي سلمة له عن سؤاله: أيُّ القرآن نزل أولاً، فقال له أبو سلمة: ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾.

ومن مراجعة أبي سلمة لجابر ـ ثانياً ـ وإخباره بما يقوله أهل العلم من أولية نزول (اقرأ) وقول جابر رضي الله عنه في الرد على أبي سلمة: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ، وذكر له الحديث الذي سمعه من رسول الله ﷺ، وفيه أنه ﷺ لما قضى جواره واستبطن الوادي رأى الملك الذي كان قد رآه في غار حراء على عرش بين السماء والأرض، فرعب لما رأى من منظر هائل غير مألوف ولا متوقع، حتى هوى على الأرض، وذهب إلى أهله، فقال لهم: (دثِّروني) فدثَّروه، وأنزل الله عليه: ﴿ يا أيها المدَّثر قم فأنذر ﴾ ـ إذا استعصى على الباحثين التوفيق لهذه المعارضات، فإنه لا يستعصي عليهم أن يردّوا ما في هذه الروايات الثلاث من إبهام وإجمال إلى ما جاء من التفسير والتفصيل ـ في روايتي الزهري ـ اللتين تحددان شخصية المرئي للنبي ﷺ في منظره وهو جالس على كرسي بين السماء والأرض، وتحدِّدان المكان الذي سبق للنبي ﷺ أن لقي فيه هذا الشخص المرئي له في منظره الهائل، وهو مستبطن الوادي، وهذا المكان هو غار حراء، ويشير إلى ما جرى في هذا اللقاء من أحداث، كان أجلُّها وأعظمها وأظهرها هو افتتاح الرسالة بنزول أول ما نزل من القرآن الكريم، وهو الخمس آيات من أول سورة (اقرأ).

وعندئذ يظهر جلياً أن جابراً رضي الله عنه تحدث إذ تحدث إلى أبي سلمة في جواب سؤاله: عن أي القرآن نزل أولاً؟ وإخباره بقول أهل العلم أنهم يقولون: أول ما نزل ﴿اقرأ باسم ربك﴾ بما كان عنده من علم سمعه من رسول الله ﷺ، وهو يتحدث عن فترة الوحي، وعن أول ما نزل من القرآن بعد انتهائها وعودة الوحي إليه ﷺ، وأن جابراً رضي الله عنه لم يتعرض مطلقاً في حديثه إلى أبي سلمة لقصة غار حراء قبل فترة الوحي،

وما جرى فيها من أحداث كانت معروفة لأهل العلم، من جمهور الصحابة، وما نزل فيها من قرآن، وهو الآيات الخمس من أول سورة (اقرأ) باتفاق.

ولعل جابراً لم يكن قد وصل إلى علمه شيء من قصة غار حراء، وما نظن أحداً يزعم أن كل صحابي يجب عليه أن يحيط علماً بجميع جزئيات وقائع الوحي.

أو لعل جابراً رضي الله عنه كان على علم بقصة الوحي في غار حراء، ولكنه لم يجعلها بمعرض حديثه لأبي سلمة في جواب سؤاله، لأن هذا الحديث كان في مناسبة خاصة، هي عودة الوحي بعد فترته، ولا شك أن أول ما نزل حينئذ هو ﴿يا أيها المدَّثر * قم فأنذر﴾ كما يدل عليه صراحة رواية الزهري بسنديها، التي جاء فيها عن جابر، قال: سمعت رسول الله ﷺ (وهو يحدث عن فترة الوحي) فهذا نص قاطع في تعيين مناسبة الحديث، ويؤكد ذلك ما جاء في هذه الرواية نفسها من قول النبي ﷺ: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء»، فالحديث كان عن فترة الوحي، وفيه النص الصريح على أن الملك الذي نزل بعد فترة الوحي بآيات ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ هو الملك نفسه الذي جاء إلى النبي ﷺ في متعبده غار حراء، وأقرأه آيات أول سورة (اقرأ).

وعلى هذا يكون إخبار جابر لأبي سلمة بأول ما نزل من القرآن، إنما يعني أول ما نزل أول عودة الوحي بعد فترته، وكون آيات (اقرأ) نزلت قبل ذلك لم يكن بمعرض الحديث عنه، والمعارضات التي أوردها يحيى بن أبي كثير على أبي سلمة، وأوردها أبو سلمة على جابر، يقول أهل العلم في أولية نزولها، وردّ جابر لهذه المعارضات بما سمعه من رسول الله ﷺ منظور فيه إلى مناسبة الحديث وجوّه الذي جرى فيه، وهو التحدث عن فترة الوحي لا عن شيء قبلها.

وهذا الوجه في التوفيق بين الروايات أولى وأرجح من سائر وجوه التوفيق التي ذكرها في أجوبتهم من تعرضوا للنظر في هذا الموضع.

ويؤيد ما ذهبنا إليه قول العلاّمة الحافظ ابن حجر في الفتح: ودلّ

قوله: عن فترة الوحي، وقوله: الملك الذي جاءني بحراء على تأخر نزول سورة المدَّثر عن اقرأ، ولما خَلت رواية يحيى بن أبي كثير عن هاتين الجملتين أشكل الأمر، فجزم من جزم بأن ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ أول ما نزل ورواية الزهري هذه الصحيحة ترفع الإشكال.

ضعف الأجوبة عن حديث جابر. وكلام ابن حجر ومناقشته

ثم قال ابن حجر في تفسير سورة (اقرأ) من الفتح: ورواية الزهري عن أبي سلمة عن جابر تدل على أن المراد بالأولية في قوله: أول ما نزل سورة (المدَّثر) أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي، أو مخصوصة بالأمر بالإنذار، لا أن المراد أولية مطلقة.

وهذا الكلام من الإمام ابن حجر يهدر المراجعة التي كانت ـ أولاً ـ بين يحيى بن أبي كثير، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، والتي كانت ـ ثانياً ـ بين أبي سلمة وجابر، لأن هذه المراجعة تقطع بأن القضية كانت قضية أول ما نزل من القرآن إطلاقاً، إذ ليس في رواية من روايات المراجعات الثلاث ـ وهي التي صدَّر بها البخاري ـ ما يشعر قط بقيد يخصص الأولية بما بعد فترة الوحي، ولا بما هو أمر بالإنذار، بل إن نص الروايات يرد هذا التقييد، لأن كلاًّ من المتراجعَين، يحيى بن أبي كثير وأبي سلمة من جانب، وأبي سلمة وجابر من جانب آخر، حينما أخبر من صاحبه بأن أول ما نزل ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ راجعه معارضاً لقوله بما نبىء به من أن أهل العلم يقولون: إن أول ما نزل ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وهذا معناه التعارض في نظرهم.

ولو كان المراد بأولية نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ في حديث جابر أولية مخصوصة بأحد القيدين المذكورين في كلام ابن حجر لم يقع تعارض، والمتراجعان أولاً، وثانياً، من أجلّ وأعلم أئمة العلم والدين في سلف الأمة وخير قرونها، لا يخفى عليهم مكان التعارض من مكان التوافق.

ولا يمكن دفع هذا التعارض إلا بحمل ما في روايات المراجعة الثلاث من إبهام وإجمال على ما جاء في روايتي الزهري من تفسير وتوضيح وتفصيل، كما دل عليه قول ابن حجر: ودل قوله: عن فترة الوحي، وقوله: (الملك الذي جاءني بحراء) على تأخر نزول سورة (المدَّثر) عن (اقرأ)، ولما خَلَت رواية

يحيى بن أبي كثير ـ وهي رواية المراجعة الثلاث ـ عن هاتين الجملتين أشكل الأمر، فجزم من جزم بأن ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ أول ما نزل، ورواية الزهري هذه الصحيحة ترفع الإشكال.

فلو لم تخلُ روايات المراجعة الثلاث من ذكر القيدين المذكورين في روايتي الزهري لم يقع تعارض قط، لأن هذا التقييد يبين تخصيص أولية نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ بأنها بعد فترة الوحي.

أما التقييد بأن أولية نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ مخصوصة بما هو الأمر بالإنذار، فلا يفيد في دفع التعارض، لأن هذا التقييد لا يستفاد من روايتي الزهري، ولا تدلّان على أنه مقصود في تقييد الأولية به من قريب أو بعيد، فيكون مجرد دعوى، لا تجد لها سنداً يدعمها.

ضعف كلام الحافظ السيوطي في التوفيق والإجابة عن تعارض الروايات

ومن الإجابات الضعيفة للتوفيق ما قاله الحافظ جلال الدين السيوطي في «الإتقان» من أن السؤال كان عن نزول سورة كاملة، فبين سيدنا جابر أن سورة (المدَّثر) نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة (اقرأ)، وهذا كلام ظاهر الضعف.

وزعم السيوطي أن ذلك يتأيَّد بما في الصحيحين، وساق حديث الزهري الذي جاء فيه «فإذا الملك الذي جاءني بحراء» وقال: الملك الذي جاءه بحراء، يدل على أن هذه القصة ـ أي قصة التحدث عن فترة الوحي التي نزل فيها ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ ـ متأخرة عن قصة حراء التي نزل فيها (اقرأ).

والقول بأن قصة نزول ﴿يا أيها المدَّثر﴾ وقصة التحدث عن فترة الوحي متأخرة عن قصة حراء صحيح مسلَّم، ولكن الزعم بأن قصة حراء هي التي نزل فيها (اقرأ) وهو صحيح مسلَّم أيضاً، لكن لا يلزم به من يقول بأولية نزول ﴿يا أيها المدَّثر﴾.

وليس في حديث جابر بطرقه المختلفة، زهرية أو غير زهرية، ذكر لكون (اقرأ) نزلت في قصة حراء، وكل ما في حديث الزهري أن الشخص الذي رآه النبي ﷺ جالساً على كرسي بين السماء والأرض، وهو مستبطن

الوادي، هو الملك الذي جاءه بحراء، وليس في الحديث تعرُّض قط لما أوحي إليه ﷺ في هذه القصة من قرآن أو غيره.

وثبوت نزول (اقرأ) في حديث عائشة عند البخاري وغيره لا يلزم من يقول بأولية نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾؛ لأن حديث عائشة لم يذكر في صدد قصة أولية ما نزل من القرآن إطلاقاً، فما في الصحيحين ليس فيه تأييد لهذا المدَّعى الذي ذهب إليه الحافظ السيوطي.

والمتأمل في هذه الأجوبة والتوفيقات يظهر له ضعفهاوعدم تماسكها، وحديث جابر صحيح ثابت بجميع طرقه ورواياته، وهو متعارض مع حديث عائشة رضي الله عنها في قصة حراء وهو حديث متفق على صحته وثبوته، متقدم في قصته وموضوعه تاريخياً على حديث جابر.

وإن لم يقصد بسياقه تحقيق أولية ما نزل من القرآن

وحديث عائشة رضي الله عنها صريح قاطع بنزول أوائل سورة (اقرأ) في أول وحي يقظي، بدأت به رسالة محمد ﷺ، في أول لقاء بينه وبين أمين الوحي جبريل عليه السلام، إذْ جاءه الحق، ففجأه به، وأقرأه أول ما أوحي إليه من القرآن في أول خطاب وُجِّه إليه ﷺ ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربُّك الأكرم * الذي علَّم بالقلم * علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

ثم فتر الوحي فترة غمر الشوق فيها إلى تنزُّله وتتابعه مشاعر النبي ﷺ ومداركه وإحساساته، وعظم تطلعه إليه، ولم ينقطع ﷺ عن جواره في متعبده بغار حراء، وبينما هو عائد إلى أهله بعد أن أكمل مدة جواره إذا جبريل الأمين يتجلَّى له في صورة روحانية عالية عظيمة، لم يعهدها رسول الله ﷺ، فرعب من هول ما رأى وشاهد، فلما بلغ إلى أهله قال: «دثِّروني. دثِّروني» فدثَّروه حتى ذهب عنه الروع، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿ يا أيها المدَّثر * قم فأنذر * وربَّك فكبِّر * وثيابك فطهِّر * والرجز فاهجر ﴾ فكانت هذه الآيات أول ما نزل بعد فترة الوحي، ابتدأ بها عوده إليه، وحمي وتتابع، وقرت بذلك عين رسول الله ﷺ.

فجابر رضي الله عنه حينما سُئِل عن أول ما نزل من القرآن فهم من

السؤال أنه يقصد إلى أولية مطلقة، فأجاب بما عنده من علم سمعه من رسول الله ﷺ، وهو يتحدث عن فترة الوحي، وما انتهت به من عوده وتتابعه، ونزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾.

ولم يثبت ـ فيما نعلم ـ أن سيدنا جابراً رضي الله عنه كان على علم بسبق نزول (اقرأ) نزولَ ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾، ولكن الاحتمال بالعلم قائم ليس هناك ما ينفيه، وقد فرضناه وأجبنا عنه.

ولعل النبي ﷺ حين سمعه جابر يتحدث عن فترة الوحي، ويذكر الملك الذي جاءه بحراء كان يتحدث عن قصة وحي الرسالة منذ بدأ وحيها بلقاء جبريل في غار حراء وما نزل عليه في هذا اللقاء من آيات سورة (اقرأ)، ثم عن فترة الوحي، وما كان فيها حتى تجلى له جبريل في صورته الروحانية الخاصة، ونزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ فسمع جابر رضي الله عنه من النبي ﷺ آخر الحديث، وهو ما يختص بفترة الوحي ونزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ ولم يسمع أوله الذي يختص بقصة الغار، وما نزل فيها من آيات أوائل سورة (اقرأ)، فتحدث جابر إلى سائله عن أول ما نزل من القرآن بما سمع من النبي ﷺ، وظن أن ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ أول ما نزل من القرآن إطلاقاً، وإلى نحو هذا يشير كلام الواحدي في كتابه (أسباب نزول القرآن) إذ يقول بعد أن روى حديث جابر من إخراج مسلم عن طريق الأوزاعي: وهذا ليس بمخالف لما ذكرناه أولاً؛ وذلك أن جابراً سمع من النبي ﷺ هذه القصة الأخيرة ـ أي قصة فترة الوحي ونزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ ـ ولم يسمع أولها ـ أي قصة الغار، ونزول (اقرأ) ـ فتوهَّم جابر أن سورة المدَّثر أول ما نزل، وليس كذلك، ولكنها أول ما نزل بعد (اقرأ).

مجازفة النووي في الحكم على حديث جابر بالبطلان

فحديث جابر في قوله بأولية نزول: ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ صحيح ثابت، فالحكم عليه بالضعف، بَلْهَ البطلان ـ كما زعم الإمام النووي ـ مجازفة، وتعجل في الحكم.

ومقام الإمام النووي في فضله، وعلمه بالسنة النبوية، ودرجات الحديث صحة وضعفاً، وورعه وفقهه في الدين كان يقتضيه الريث والتعمق

في تطلب مخارج لهذا الحديث، وعدم بت الحكم على حديث مروي بأسانيد ثابتة صحيحة من أعلى درجات الصحة والثبوت، وحسبه أنه من مرويات الشيخين: البخاري ومسلم، فمن أين يأتيه الضعف؟ وكيف يمكن أن يحوم حوله حائمة من حائمات البطلان؟.

والحديث له مخارج تحميه عن مثل هذه الأحكام المتسرعة التي لم يأخذ البحث المتأنِّي فيها مداه الذي يتطلبه، والحكم على حديث صحيح ثابت الإسناد، متعدد الطرق الصحيحة والروايات المحققة السلامة من المطاعن بالضعف فضلاً عن البطلان، لا ينبغي اللجوء إليه إلا إذا كان الحديث مشتملاً على أمر يمس أصول العقيدة والإيمان، وإلا إذا ضاقت الحيل العلمية ومخارج البحث عن تأويله تأويلاً يحميه من سمات الضعف والبطلان.

وقد بيَّنا أن لحديث جابر رضي الله عنه في قوله بأولية نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ مخارج من التأويل العلمي الصحيح، ذكرها الأئمة من علماء الأمة، وعرضنا ما علمنا منها مع البحث والترجيح فيما سبق.

وقد رجَّحنا أن سيدنا جابراً رضي الله عنه سمع النبي ﷺ يتحدث عن فترة الوحي وذكر في حديثه عنها رؤيته الملك الذي كان قد جاءه بحراء، وأنه ذهب إلى أهله وقال لهم: «دثِّروني. دثِّروني» فدثَّروه، فأنزل الله عليه: ﴿ يا أيها المدَّثر. قم فأنذر ﴾، ولم تكن قصة غار حراء التي نزلت فيها ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ قد بلغت جابراً رضي الله عنه، أو بلغته دون ما أوحي إليه فيها من آيات القرآن، فلما سُئل عن أول ما نزل من القرآن أخبر بما علم وسمع من النبي ﷺ، وسكت عما لم يعلم، فالحديث صحيح الإسناد، صحيح المعنى، وارد مورد علم المُخْبِر به، ولا تعرُّض فيه لنفي أسبقية نزول شيء من القرآن على نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾.

وزعمُ الإمام النووي أن حكمه بالبطلان على حديث جابر ليس تقليداً للجماهير، بل تمسكاً بالدلائل الظاهرة، ومن أصرحها حديث عائشة، وأن ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ نزلت بعد فترة الوحي بعد نزول (اقرأ) غير مسلَّم، لأن جماهير العلماء مع عدم أخذهم بظاهر حديث جابر في أن أول ما نزل من

القرآن إطلاقاً ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ لم يحكموا ببطلانه بطلاناً ظاهراً، كما حكم النووي، وإنما سلكوا مسالك التأويل الذي يضع الحديث موضعه من القبول الذي لا يتعارض مع حديث عائشة الصريح بأن أول ما نزل من القرآن إطلاقاً ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾.

وليس في حديث جابر من رواية الزهري، الذي يقصده النووي بقوله: وإنما نزلت ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ بعد فترة الوحي، بعد نزول (اقرأ) كما صرَّح به في مواضع من حديث جابر نفسه، كقوله: وهو يحدِّث عن فترة الوحي، إلى أن قال: فأنزل الله ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ وقوله: فإذا الملك الذي جاءني بحراء... وقوله: فحمي الوحي وتتابع، أي بعد فترته ـ ما يفيد علم جابر رضي الله عنه بأن ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ نزلت بعد (اقرأ)، وهذا هو محل النزاع، فأين تصريح حديث جابر بذلك؟ ولا دلالة لقوله: وهو يحدث عن فترة الوحي على أن نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ كان مسبوقاً بنزول (اقرأ) إذ ليس في الحديث تعرض قط لنزول (اقرأ)، والحديث عن فترة الوحي لا يلزمه الحديث عن سبق نزول (اقرأ) لهذه الفترة، ولا يلزمه أن يكون جابر رضي الله عنه سمع هذا من رسول الله ﷺ.

وكذلك لا دلالة لقوله: فإذا الملك الذي جاءني بحراء على أن نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ كان مسبوقاً بنزول (اقرأ)، كما أنه لا دلالة لقوله: فحمي الوحي وتتابع على أن نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ الذي كان بعد فترة الوحي كان مسبوقاً بنزول (اقرأ) وهذا السبق هو محل الاستدلال.

والقضية بين حديث عائشة، وحديث جابر أن حديث عائشة قاطع بأن نزول (اقرأ) كان في لقاء حراء بين سيدنا رسول الله ﷺ، وأمين الوحي جبريل عليه السلام، وهو أول لقاء بدأت به رسالة محمد ﷺ، وفي هذا اللقاء نزلت ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وقصة هذا اللقاء كانت قبل فترة الوحي، وأن حديث جابر في رواية الزهري قاطع بأن نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ كان بعد فترة الوحي، فنزولها متأخر عن نزول (اقرأ) الذي دلّ عليه دلالة قاطعة حديث عائشة رضي الله عنها.

وجابر رضي الله عنه حينما سُئِل عن أول ما نزل من القرآن، وأخبر سائله بأنه ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ كان قد علم من حديث النبي ﷺ الذي سمعه عن فترة الوحي، المسبوقة بقصة غار حراء أن ملك الوحي وأمينه جبريل عليه السلام كان قد جاء النبي ﷺ في حراء، وأوحى إليه ما أوحى، ولم يسمع جابر في هذا الحديث الذي كان عن فترة الوحي شيئاً بخصوص ما أوحي إلى النبي ﷺ في غار حراء، فمن أين تجيء دلالة حديث جابر على أن نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ كان بعد نزول اقرأ؟.

وفرق شاسع بين دلالة حديث جابر على أن ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ نزلت بعد فترة الوحي، وهذه الفترة متأخرة عن قصة الغار، وبين دلالته على أن ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ نزلت بعد (اقرأ) الذي هو المقصود للمستدل.

فالأول، وهو نزولها بعد فترة الوحي مسلَّمة دلالة حديث جابر عليه، لكنه لا مدخل له في تحقيق المقصود للمستدل، وهو أن ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ نزلت بعد (اقرأ) أخذاً من حديث جابر، إذ ليس في حديث جابر دلالة عليه من قريب أو بعيد.

والثاني وهو نزول ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ بعد نزول (اقرأ) ادّعاء لا سند له في حديث جابر المدَّعى دلالته عليه، وإن كان هو الواقع المدلول عليه بحديث عائشة رضي الله عنها.

فالحكم بالضعف، فضلاً عن البطلان أحرى أن ينصبَّ على كلام النووي في رد الحديث، والحكم عليه بهذا الحكم المتسرع الذي لا يستند إلى شبهة، بَلْه حجةً، لا إلى حديث صحّ صحة قاطعة عن صحابي جليل، وهو جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، الذي حدَّث إذْ سئل بما انتهى إلى علمه سماعاً من رسول الله ﷺ، وهو يحدث عن فترة الوحي التي كان أول ما نزل من القرآن عقيب انتهائها وأول عودة الوحي وتتابعه ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ فظن أنها أول ما نزل، فأخبر بما علم، وما كان له من علم بما نزل من قرآن قبلها في غار حراء.

واحتمال علمه بما نزل قبلها له مخرج من التأويل الصحيح ـ كما ذكرناه

سابقاً ـ يباعد بين الحديث وبين الحكم عليه بالضعف، فضلاً عن البطلان.

مجازفة أخرى للنووي بالحكم على حديث أبي ميسرة بالبطلان

وقد حكم الإمام النووي بالبطلان ـ أيضاً ـ على حديث أبي ميسرة، عمرو بن شرحبيل الهمداني الذي استدلّ به من يقول بأولية نزول سورة (الفاتحة)، كالزمخشري ومن تبعه من المفسرين.

وحديث أبي ميسرة قال عنه السيوطي في «الإتقان» هذا مرسل، رجاله ثقات، وقال فيه البيهقي ـ وهو راويه في الدلائل ـ: إنه منقطع، والمنقطع من أقسام الضعيف، فإن كان الحديث محفوظاً من غير هذا الوجه فيحتمل أن يكون خبراً عن نزول فاتحة الكتاب بعد ما نزلت (اقرأ) و(المدَّثر) فلا حجة فيه للأولية المطلقة.

وهذا الاحتمال يحمي الحديث من الحكم عليه بالبطلان، لأن الحديث ليس فيه ما يدلّ على ادّعاء أولية مطلقة لنزول فاتحة الكتاب، فالاحتمال قائم، وهو يرد الحديث إلى تأويل سائغ صحيح، فلا يجوز الحكم عليه بالبطلان، وقد قدمنا الكلام على حديث أبي ميسرة نصّاً وتأويلاً بما فيه الكفاية.

أبعد وأغرب ما قيل في أولية ما نزل من القرآن

وأبعد ما قيل في أول ما نزل من القرآن، وأغربه ما ذكره أبو بكر ابن العربي في كتابه: (أحكام القرآن) وتابعه عليه القرطبي منسوباً إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال أبو بكر بن العربي في تفسير سورة (اقرأ): القول في أول ما نزل من القرآن، وفيه أربعة أقوال: الأول ـ هذه السورة ـ أي سورة اقرأ، قالته عائشة، وابن عباس، وابن الزبير وغيرهم.

الثاني ـ أنه نزل ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ قاله جابر.

الثالث ـ قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أول ما نزل من القرآن ﴿ قل تعالوا أَتْلُ ما حرَّم ربكم عليكم ﴾.

الرابع ـ قال أبو ميسرة الهمداني: أول ما نزل فاتحة الكتاب.

ثم قال ابن العربي: والصحيح ما رواه الأئمة، واللفظ للبخاري، ثم ساق حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي.

وقال القرطبي: في تفسير سورة (اقرأ): هذه السورة أول ما نزل من القرآن في قول معظم المفسرين، نزل بها جبريل على النبي ﷺ، وهو قائم على حراء، فعلَّمه خمس آيات من هذه السورة.

وقيل: إن أول ما نزل ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ قاله جابر بن عبدالله.

وقيل: فاتحة الكتاب أول ما نزل، قاله أبو ميسرة الهمداني.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أول ما نزل من القرآن ﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم ﴾.

ويظهر أن القول بأولية ﴿ قل تعالوا ﴾ في النزول يتصل بإسرائيليات كعب الأحبار وتفسيراته للكتب الإسرائيلية، فقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن كعب الأحبار أنه قال: أول ما نزل من التوراة عشر آيات، وهي العشر التي أنزلت من آخر الأنعام ﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم ﴾ وأخرج أبو الشيخ والطبري عن عبدالله بن عدي بن الخيار قال: سمع كعب الأحبار رجلاً يقرأ ﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربكم عليكم ﴾ فقال كعب: والذي نفس كعب بيده إن هذا لأول شيء في التوراة ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم. قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم ﴾.

وهذا قول غريب: لا يعرف له سند يوثق به ويعتمد عليه، فهو قول مرغوب عنه، لا تصح نسبته إلى عليّ رضي الله عنه، ولم نرَ أحداً ذكره سوى ابن العربي، الذي تقبَّله القرطبي، فذكره جازماً بنسبته إلى عليّ رضي الله عنه، كجزم ابن العربي.

ونسبة هذا القول إلى عليّ رضي الله عنه من قبيل ما أُكثر عليه من الآراء والأقاويل والروايات الإسرائيلية والفِرْقية التي يخترعها زعماء الفرق المنحرفة تأييداً لنحلهم ومذاهبهم.

أو هو من قبيل أوهام الرواة ـ إن صحَّت النسبة ـ الذين تشتبه عليهم الألفاظ المروية بالمعنى، وليس من المستبعد أن يكون مصدر هذه الأوهام حديث ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وحديث أبي الشيخ والطبري المرويان عن

كعب الأحبار، كما تقدم نصهما - إن صحت روايتهما.

ومكان الوهم فيهما ظاهر، ولا سيما إذا كانت الرواية بالمعنى، فقد كانوا يطلقون على التوراة الكتاب الأول، فتكون الرواية عن كعب في الحديث الأول: أول ما نزل من الكتاب، أو الكتاب الأول عشر آيات، وهي العشر التي أنزلت من آخر الأنعام ﴿قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربكم عليكم﴾، وتكون الرواية عنه في الحديث الثاني، حين سمع هذه الآيات تُقرأ أن قال: إن هذا لأول شيء في الكتاب، أو الكتاب الأول، وحذف الوصف اختصاراً، وهو يعني التوراة، فأخذها من يرى الرواية بالمعنى، ورواها بلفظ الكتاب، وتوهَّم أحد الرواة أنه يعني بالكتاب القرآن الكريم، ثم نسبت إلى عليّ رضي الله عنه. والله تعالى أعلم بما هو الحق.

الخطوة الثانية في سير الرسالة
الأمر بالإنذار العام

ارتباط خصائص محمد الرسول ﷺ برسالته وإيمانه بهذه الرسالة

خصائص محمد ﷺ في رسالته لا يحيط بها مداد الأقلام، ولا يستوعبها تسلسل الأفكار، لخلودها بخلود الرسالة التي تضفي عليها هذا التسامي إلى آفاق العزة، ولعمومها آثاراً، وشمولها هدياً في كل زمان، وموطن ، وجيل في الحياة بمقتضى عموم الرسالة وشمولها.

ذلك أن لكل جيل من الناس في زمانه وعصره، وتفكيره، وعلمه، ومعارفه، ونظمه وتجاربه، حظه من معرفة خصائص محمد ﷺ في رسالته، ولكل عصر بما فيه من علم ومعرفة أسلوبه في فهم هذه الخصائص التي تستمد عناصرها المميزة لها على سائر الخصائص المميزة للمصطَفَين من أنبياء الله ورسله من طبيعة الرسالة التي أوتي محمد ﷺ هذه الخصائص من أجلها، إعداداً له للقيام بحقها وموجباتها الإصلاحية.

بيد أن معرفة هذه الخصائص بالقدر المقدور منها لكل من أجيال الإنسانية على امتداد الحياة وتتابع الأعصر، يستوجب التعمق، ودقة البحث في تتبع أطوار سير الرسالة ومعرفة أحداثها، وردِّ تلك الأحداث إلى أسبابها وعواملها، ومعرفة حِكَمها الروحانية والاجتماعية بقدر الطاقة البشرية، والوقوف معها عند آثارها وهدايتها، والاستظلال بظل هذه الهداية والعمل بتلك الآثار، تحقيقاً للتكيُّف الذاتي عند كل مؤمن بهذه الرسالة، ليكون بعمله وهديه صورة مجسمة لها متحركة، تمشي بين الناس، تنادي بلسان حالها عن نفسها، معربة عن حقيقتها العملية في قيادة الإنسانية إلى غايتها من الخير والإصلاح.

وأصل ذلك وعموده الوسيط معرفةُ مقدار صلة كل حادث من أحداث الرسالة بنفس محمد ﷺ، ومعرفة ارتباط كل حادث من حوادثها بإيمان محمد ﷺ برسالة نفسه إلى نفسه ـ أولاً ـ وإلى جميع العالمين ـ ثانياً.

لأن هذا الإيمان هو مصدر تلك الأحداث ومورِدها، ومعنى ذلك أن محمداً ﷺ في رسالته رسول يحيا مع الحياة والناس والأشياء بهذا الوصف الأكرم، وليس لذاته البشرية مظهر إلا بقدر التكافؤ المهيىء لأداء الرسالة أكمل ما يكون الأداء.

وبمعرفة هذا الارتباط بين إيمان محمد ﷺ برسالة نفسه، وأحداث هذه الرسالة تتكشف الحجب عن تلك الخصائص التي تلاقي جوها الفكري والاجتماعي الملائم لظهورها في أي جيل من الأجيال، وفي أي عصر من عصور حياة الإنسانية على الأرض.

من هنا يبدأ البحث في تصوير أحداث الرسالة تصويراً تحليلياً، يضع كل حادث في مكانه من واقع الحياة، وموضعه من سير الرسالة في أطوارها التي مرَّت بها حتى اكتمل هديها، ويردّ كل حادث يعرض له البحث إلى أسبابه ودوافعه، وموجباته المعنوية والمادية، بقدر ما تصل إليه طاقة البحث، مع استظهار حِكْمة كل حادث يرى البحث أن له حِكْمة متاحة للنظر والإدراك والمعرفة.

وسيتجنب البحث الاعتماد على مجرد الروايات الواردة هنا وهناك من كتب السيرة إلا بعد تمحيصها سنداً ومتناً، فلا يقبل إلا ما يثبت سنداً، ولا يتعارض متناً مع أصول الإيمان.

وليس معنى ذلك أن البحث يزعم أنه سيتقصى ويستوعب الأحداث والوقائع، فذلك منال دونه إحصاء نجوم السماء.

* * *

بدأت رسالة محمد ﷺ بفجىء الحق له في غار حراء، إذ جاءه الملك فاستقرأه حتى استفرغ بشريته، واستصفى روحانيته، ثم أقرأه أول ما وجهه

بدء رسالة محمد ﷺ كان بأول خطاب قرآني وجه إليه من الله

الله إليه من خطاب قرآني فقال له: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علَّم بالقلم * علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾.

وعاد محمد ﷺ من جواره في متعبده بحراء بهذه الآيات إلى أهله رسولاً إلى العالمين، وكانت معالم النبوة قد تحققت له قبل ذلك بمراتب وحيها الخاص، إعداداً وتمهيداً للرسالة، وشعر ﷺ بفداحة العبء الذي حمل أمانته، وتمثل له المستقبل بما فيه من شدائد الكفاح ومحن البلاء، وأثقال التبليغ، والدعوة إلى رسالته، ليخرج الحياة من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم وهداية الإيمان، وهو المنفرد وحده بتحمل هذا العبء أمام مجتمع يعجّ بألوان من الفساد الاجتماعي، والضلال العقيدي، والانحراف الخلقي ومظالم الاستبداد، وانتشار الأباطيل، وانتحال الأكاذيب.

مجتمع يعبد أصناماً نحتوها بأيديهم، يسفكون الدماء، ويؤلِّهون المال والثراء ويرتكبون الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ويقتحمون الشرور، وينكرون البعث والنشور.

رسالة محمد ﷺ نزلت لتهدم الشر، وتبني الخير

ورسالة محمد ﷺ تقتضيه أن يغيِّر ذلك كله، فعليه أن يهدم أطواد الشر، ويقوِّض معالم الفساد، ويقيم منائر التوحيد، ويقضي على الشرك، لتخلص العبادة بجميع مراتبها وصورها لله الواحد القهَّار.

وعليه أن يقيم مكان كل باطل يمحوه حقاً يدعمه بالبرهان، ومكان كل ضلال يقتلع جذوره من العقول والقلوب والأرواح هدياً يشرق نوره، فتضيء به العقول، وترشد به القلوب، ومكان كل شر اجتماعي يبيده بدعوته وهديه خيراً يزرعه بعمله، ومكان كل ظلم يرعبله عدلاً ينشره.

ومكان كل رذيلة يمزق أديمها فضيلة يؤسسها، ومكان كل سيئة ينفّر منها إحساناً يحببه إلى النفوس لتتشرب محبته، ومكان كل عبث وفوضى اجتماعية تتهاوى أمام دعوته نظاماً يقوم الناس في ظله بالقسط والحق، ومكان كل تقاطع وتدابر إخاء ومواساة، بل إيثاراً وحباً، ومكان كل تسلط بالبغي والكبرياء الآثمة تراحماً ومساواة، ومكان الفرقة بدعوى الجاهلية وحدة

تقوم على دعائم الإخاء الإيماني في الإسلام.

وإذا كان هذا هو حال مجتمع قوم محمد ﷺ الذين كانوا أول مدعو إلى رسالته، وكان هذا هو حاله وموقفه ﷺ من هذا المجتمع المحصور في جزيرته وأرضه، بين جبالها ووديانها، فما شأن مجتمعات الدنيا وراء هذا المجتمع المليء بالمفاسد والشرور؟ وما حاله وموقفه ﷺ مع تلك المجتمعات الضخمة العريضة المنتشرة في أرجاء الأرض، وهي مدعوة بدعوته، مطلوب منه أن يبلغها رسالته؟.

لقد كانت تلك المجتمعات فيما وراء الجزيرة العربية أفسد حالاً من مجتمع قوم محمد ﷺ، وكانت أصلب في فسادها عوداً، وأقسى شكيمة، وأبعد في الضلال غوراً، وأعمق في الشر قراراً، ذلك لأن مجتمع قوم محمد ﷺ ضلّ طريق الحق والخير جهالة، وتلك المجتمعات ضلُّوا عناداً وبغياً وهم يعلمون، ولا ريب أن ضلال العلم أشد ترسباً في قرارات النفوس من ضلال الجهالة، ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه، وأضلّه الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكّرون ﴾[1].

وكان ﷺ قد رأى ذَرْواً من حال أحد أكبر وأعظم مجتمعات الدنيا، وأكثرها علماً وحضارة ومعرفة ونظاماً اجتماعياً، رأى صورة لجانب من المجتمع الروماني في سفراته إلى الشام ـ وهي يومئذ رومانية البزة ـ مع عمه أبي طالب، وكان ﷺ يومئذ في ذروة الطفولية، ومطالع الشباب، ورأى هذه الصورة لهذا المجتمع الروماني مرة أخرى، يوم أن سافر بمال خديجة بنت خويلد، يتجر لها قبل أن يتزوج بها، وكان يومئذ في سواء الرجولية، وهو الذكي، اللبيب، اللمَّاح الأريب، الذي يزن الأمور بموازين الاستقامة السلوكية، وقيم مكارم الأخلاق.

فإذا بذلك المجتمع المتحضر، مستغرق التفكير والعقيدة في خضم

---

(١) سورة الجاثية آية (٢٣).

آسن من الوثنية المفلسفة بالجدل الأجوف، حول الناسوت واللاهوت، والآب، والابن، وروح القدس، ثلاثة هي واحد، وواحد هو ثلاثة، وكأنما العقل الإنساني في غيبة أصحاب القبور، إلى جانب ما هو مستغرق فيه اجتماعياً من مستنقع السلوك المنحرف، الذي ينزُّ بالمفاسد الخلقية، والرذائل المقنعة، فهو مجتمع سادة وعبيد، سادة لا تقيد سلطانَ سيادتهم قوانينُ ولا أعراف، وعبيد ليس لهم من سمات الإنسانية إلا أنهم يتحركون في ظل القهر الفاجر، والبغي اللعين أداء لشهوات سادتهم.

وكان محمد ﷺ قد ترامى إليه من أحوال المجتمع الفارسي المغمور بظلمات الوثنية المادية الإباحية، مما تناقله أرباب الرحلات من تجار قريش وغيرهم، فإذا به مجتمع مشرك كفور، تتعبده الأباطرة والحكام والرؤساء، يستبيحون منه الحرمات، ويفتكون بمقومات الحياة فيه، ليس للشعب أفراداً وجماعات في نظامهم الاجتماعي وجودٌ إلا كما يوجد العبيد سُجَّداً في محاريب العبودية الذليلة، فهو مجتمع ينخر فيه سوس الانحلال وتتناوشه أعاصير الفناء.

وهذان المجتمعان: الروماني، والفارسي، كانا يومئذ عنوان الحياة المتحضرة، الزاخرة بصنوف الترف، وألوان المعارف، والنظم السياسية والاجتماعية، والأوضاع القانونية، والمبادلات المصلحية في التجارات والزراعات، وسائر المنافع والأعمال.

وهما أقرب الدنيا إلى جزيرة العرب التي اختارتها العناية الإلٓهية لتكون مثابة لخاتمة رسالات السماء، واختارت من بين أقوامها محمداً ﷺ ليكون حاملَ أمانتها، والقيام بأعباء تبليغها، ليخرج بها الناس في مجتمعات الدنيا ـ تحقيقاً لعموم رسالته زمناً وجيلاً ـ من ظلمات الشرك والوثنية، بجميع مظاهرها وسائر معالمها، ومن الجهالة الضالة، والظلم والفساد، إلى نور التوحيد، والعلم، والعدل، والإصلاح، والخير، والحق، والهُدَى، ليقيم مجتمعاً موحَّد الإحساس بإنسانيته، موحَّد الشعور بإيمانه وعقيدته، وإخلاص التعبُّد لخالقه، موحَّد الآمال في مستقبله، متعاوناً في تفكيره، وبناء حضارته.

وأي مجتمع وراء هذه المجتمعات في أطراف الأرض، شرقها وغربها، جنوبها وشمالها كان يحمل خيراً في عقيدة أو سلوك خلقي، أو نظام اجتماعي، ضلت عنه شعوب هذه المجتمعات؟!.

لو كان ذلك لنقلته لوافح الرياح في دنيا الناس إلى هذه المجتمعات، ولعرف بسماته منسوباً إلى أصحابه الذين يعيشون في ظله.

وقد كشف الغيب عن أسواء في العقيدة، وشرور في التعبُّد، ورذائل في الأخلاق، وضلال في التفكير فاشٍ في شعوب تملأ أطراف المعمور من الأرض.

نعم كان لدى الإغريق فلسفات وفلاسفة، وعلوم ومعرفة، وكان لدى أساتذتهم الفراعنة علوم وطلسمات وسحر، وكان لدى قدماء الصين فن وحكمة، وكان لدى براهمة الهند ألوان من المعرفة المتصوفة المتزهدة، ولكن هذا كله لم يكن خيراً مما كان لدى الفرس والرومان من علوم وحضارة.

والتاريخ يذكر أن الرومان على عهد ظهور دعوة الإسلام كانوا ورثة الفلسفة الإغريقية والعلوم الفرعونية، فكانوا بما ورثوا على ما كانوا عليه من فساد اجتماعي وسوء عقيدة.

وقد كان الفراعنة مثلاً مضروباً في سوء كفرهم وشركهم بالله، واتخاذهم ملوكهم وحكامهم أرباباً يعبدونهم من دون الله تعالى، وها هي ذي آثارهم تحمل لعنات الشرك وعتو الكفر مرسومة فوق معبوداتهم التي صوروها في متاحفهم ومقابرهم.

أما فن الصين وحكمتها، ومعارف الهند وصوفيتها، فكانت خليطاً من مظاهر الحياة المادية وضروب الارتكاس الروحي والتزهد القاتل للحياة، ولم تؤثر في تلك الفنون والمعارف كلمة تدل على معرفتهم بالله وتوحيده، وإخلاص العبودية له، والناظر في طقوسهم الدينية وأوضاعهم التعبدية على ضوء كتبهم القديمة المقدسة عندهم لا يجد إلا أوضاعاً وثنية تسيء إلى السلوك الخلقي، والتقليد الجاهلي، ولا وزن لأية فلسفة وفن ومعرفة لا تقوم

على أساس العقيدة الإيمانية التي تعرف لله تعالى حقه في إخلاص العبودية له وحده.

* * *

تمثل محمد ﷺ ذلك كله في المجتمع البشري، وتمثل معه موجبات رسالته التي حمَّله الله تعالى أمانة تبليغها إلى هذا المجتمع في أقطار الأرض بادئاً بمجتمعه الخاص، في بلده وقومه وأمته العربية في جزيرتها القاحلة الجرداء، ذات الجبال القفرة التي تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم، وتمثل إلى جانبه وحدته وتفرده، وهو يحمل على كاهله عبء ما كُلِّفه، فناءت بحمله قوى بشريته وهي قوى محكمة النسج، عظيمة الاحتمال، فكان لا بد له من قوة فوق قوى أقوى قوى البشرية لتكون عدته في سبيل الوفاء بحق أمانة رسالته تحملاً وأداء وتبليغاً بالقول والعمل والأسوة.

وعاد ﷺ من جواره في متعبده بحراء إلى بيته ليلمَّ بأهله، ويستنشق عبير الأنس من نسيم مودتهم، ويستروح روح التثبت من كلمات زوجه سيدة نساء العالمين، العاقلة اللبيبة، المتوسمة المتفرسة، السيدة خديجة رضي الله عنها، وهو يحمل في سماته ومشرق وجهه الكريم نور رسالته الخالدة، وفي قلبه وعقله صدق العزيمة على القيام بواجبه نحو رسالته.

معجزة التحدي في رسالة محمد ﷺ معجزة علمية روحانية

وكان أول ما نزل عليه من آيات بدأت بها رسالته هو بدء معجزته التي أمر أن يتحدى بها الإنس والجن، فعرف أنه انفرد من بين أنبياء الله ورسله بمعجزة مباينة لسائر معجزات الأنبياء والرسل، فهي ليست معجزة مادية تقسر الناس قسراً، وتأخذ العقول كَرْهاً إلى الاستجابة لدعوته والإيمان برسالته، فعرف أنها لا تكون عصا تنقلب ثعباناً يسعى، ويتلقف سحر السحرة الذين لم يملكوا أنفسهم أمام هذا التحدي القاهر حتى آمنوا برب هارون وموسى، وعرف محمد ﷺ أن معجزته المتحدية لا تكون إبراء أكمه، مُسح بصره، ولا إبراء أبرص استعصى برؤه على طب أبرع الأطباء في دنيا العلم، وأنها لا تكون إحياء ميت وُسِّد جسده أطباق الثرى، ولا نفخاً في صورة من طين، فتكون طيراً حياً يطير على مرأى أعين الناس وحسهم، ولا

ناقة تخرج من صخرة، وثقبها بين يديها يمشي ويرغو، ولا ناراً تفقد كل أثر وضع في طبيعتها قهراً لهذه الطبيعة، وتمزيقاً لنواميسها، ولا شيئاً يقلب أوضاع الحقائق المادية، ويغلل العقول بسلاسل العجز القاهر عن الوقوف أمامها مفكراً، متأملاً ليعلم ويعرف ويدرك ويفقه، ويستجيب إلى الإيمان بغير إكراه.

فمعجزة محمد ﷺ التي وقع بها التحدي كانت منذ أول لحظات وجودها معجزة علمية، تخاطب العقل وتتحدَّاه، وتنادي القلب والوجدان، لا تكره أحداً على الإيمان بها لعجز عقله عن فهم حقيقتها، كالمعجزات المادية، ولكنها معجزة تدعو كل أحد إلى النظر فيها والتعمُّق في فهم حقائقها، وتدعوهم إلى الإيمان بها وبرسالتها وتصديق رسولها إذا تأملوها بعقولهم وقلوبهم وأرواحهم، ووجداناتهم، وفهموا ما جاءت به من علم نافع، وحكمة مسدّدة، ومعرفة فاضلة، وأدب يعتصم بعقيدة التوحيد لله تعالى، خالق كل شيء.

ومن هنا أخبر النبي ﷺ بفيصل ما بين حقيقة معجزته، ومعجزات إخوانه الأنبياء والمرسلين من قبله، وأخبر بآثار معجزته ومعجزاتهم في تحقيق الإيمان برسالته ورسالاتهم، فقال فيما يرويه الصحيح: «ما من نبي إلا أوتي ـ أي من المعجزات ـ ما على مثله آمن البشر ـ أي كرهاً وقهراً ـ وكان الذي أوتيته ـ أي المعجزة المتحدية ـ وحياً أوحاه الله إليّ ـ أي علماً وهداية ليس فيه قهر للعقول، ولا إكراه للنفوس ـ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

ومعنى ذلك أن معجزته خالدة بخلود رسالته، يتجدد إعجازها بتجدد الحياة في تفكيرها ومعارفها، وقد بسطنا القول في ذلك بسطاً مسهباً عند وقفتنا مع الذين فسروا (الخشية) تفسيرات متخرصة في قوله ﷺ لأهله: «لقد خشيت على نفسي» وهو يحدثهم عما حدث له في مفاجأة الغار، حيث بدأت رسالته، وأبدَى لهم في حديثه تخوفه أن تتكاءده العقبات وهو يبلِّغ رسالة ربه، وكان قد ظهر على سمته البشري أثر هذا التخوف، فشجعته زوجه

الوفية الأمينة، وذكرت له ما تعالم بين قومه من منن الله تعالى التي فطره عليها من مكارم الأخلاق، التي جرت سنة الله في خلقه ألا يخزي من يتحلّ بشمائلها.

عزيمة الكفاح الصبور كانت عدة محمد ﷺ في تبليغ رسالته

وبهذا عرف محمد ﷺ أن رسالته رسالة كفاح صبور، ونضال شاق مرير، لا مجال للراحة في أداء واجباتها، وعرف ﷺ أن عليه في سبيل تبليغها إلى الناس وهم على ما هم عليه من شر وفساد أن يتحمل من فوادح البلاء، وشدائد الإيذاء بالقول والفعل من أعداء الحق والعدل والإيمان بالله الواحد الأحد ما تنوء بحمله الرواسي الشامخات.

ومن الطبيعي في تأثرات الطبائع البشرية أن يحدث هذا التفكير مع تمثل المشاق التي تعترض السير في تبليغ الرسالة أثره في سمات محمد ﷺ البشرية، فرُعب وأُرعد بدنه إشفاقاً على نفسه أن تقف العقبات المتمثلة في مجتمعه من رواسب الجاهلية دون بلوغ غايتها في أداء أقصى واجباته في تبليغ رسالته.

فطلب إلى أهله أن يزمِّلوه، ليهدأ روع تفكيره في أعباء ما ينتظره من شدائد المواجهة مع هذا المجتمع الفاسد المفسد، ويستجمع عزائمه لينهض بأثقال ما حُمِّل مهما تكن العقبات والحواجز، فزملوه حتى ذهب عنه ما كان يجده، ونهض عائداً إلى مأنسه الروحي، ومتعبده في حراء.

وفتر الوحي أياماً، لم ينزل عليه فيها قرآن، ليستجمّ ويكتمل إعداده نفسياً، ويزداد شوقه إلى تنزلات الوحي بآيات ربه، ويعظم تشوقه إليه، ويتسامى تطلعه إلى إشراقه، ليتلقّاه بعزيمة صادقة، وقوة روحانية راسخة، ورغبة مصممة.

وقد تحقق ذلك كله في نفس رسول الله ﷺ حتى كان من شدة تشوقه إلى تنزلات الوحي، وتشوفه إلى تلقي آيات ربه، يذهب فيتنسم نسائمه في منازله، ويتردد عليها ليستطلع طلائعه في معاهد تنزله، وهو ﷺ على أكمل مراتب اليقين بفوزه بأعظم نعمة من ربه، برسالته الخاتمة الخالدة، حتى استحوذ الشوق على مشاعره وإحساساته، ومداركه، فلم يترك عنده مكاناً

لغيره، وكان ﷺ آنئذ كأنما عاد إليه حاله في مدى قوة بشريته المحدودة ساعة لقيه الأمين جبريل لأول مرة في مفاجأة الغار، روحانياً خالصاً، لم تقو بشريته على احتمال أشواقه للوحي الذي ارتفع به فوق آفاق الحياة، فكان إليه شوقه، وبه أنسه.

ولما أتم ﷺ جواره خرج من متعبده عائداً إلى بيته ليلمّ بأهله، فتبدى له جبريل عليه السلام في صورة روحانية عالية، هاله منظرها، لأنه لم يسبق له أن رآه على مثلها، ولا كان يتوقع أن يراه عليها، وهو في غمرة الشوق إليه والتشوُّف للقائه، فكانت مفاجأة أخرى، عاوده عندها ـ بمقتضى تأثراته البشرية ـ بعض ما كان وجده في المفاجأة الأولى مفاجأة الغار والغط، والإقراء، فرُعب، وانجلى عنه تجلِّي جبريل في صورته الملائكية، وذهب إلى أهله، وعلى سمات بشريته أثر ما كان من هذه المفاجأة، وقال لهم: (دثِّروني، دثِّروني) فدثَّروه، وجاءه جبريل بقوله تعالى: ﴿ يا أيها المدَّثر * قم فأنذر * وربك فكبِّر * وثيابك فطهِّر * والرجز فاهجر ﴾.

خمس آيات بدأ بها الوحي بعد فترته، كخمس آيات بدأ بها أول تجلياته، وكانت التجلِّيات التي افتتح بها تَنَزُّل التنزيل من سورة ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ تصويراً لأخص خصائص الرسالة، التي تحمل عنوان الإعجاز البياني، إلى جانب الإعجاز المعنوي الفكري، في معجزة القرآن الكريم.

بيان يحقق معاني آيات بدء الوحي بعد فترته

وكانت آيات بدء عودة الوحي بعد فترته تهييجاً لعزيمة رسول الله ﷺ لينهض بعبء ما كُلِّفه من تبليغ رسالات ربه، فيمضي قُدُماً بدعوته، لا يبالي العقبات والحواجز، كما كانت إثارة لحوافز الجد في الدعوة إلى الله تعالى.

كان هذا النداء المتلطف ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ إيذاناً بشحذ العزائم، وتوديعاً لأوقات النوم والراحة، والتلفف بأثواب الهجوع والتلبث، انتظاراً للأحداث يسوقها الزمن في سيره، فتتحكم بواقعها في سير الرسالة، التي يجب أن تنطلق في سيرها حرة من كل قيد، يقعد بها عن المضي إلى غايتها الإصلاحية.

كان هذا النداء المتلطِّف ﴿ يا أيها المدَّثر ﴾ المثير إشعاراً بطلب الجد الجاد في الأمر، جداً يسبق الأحداث، ولا ينتظرها ويسابق الزمن، ولا يني في حركته، متوثباً إلى غايته.

ولهذا جاء عقب هذا النداء المتلطف المثير الأمر الجازم بالنهوض، والتشمير المصمم، فقيل خطاباً للنبي ﷺ بوصفه الذي كان عليه ساعة المواجهة بالخطاب (قم) أي انهض بكل ما آتيناك من قوة العزم في حزم مشمِّر، ودع عنك ما أنت عليه من التدثُّر، لأن الأمر بالقيام في هذا المقام لا يراد منه مجرد النهوض، وترك التلفف في الثياب، وإنما يراد منه العزيمة الناهضة في قوة حازمة، تتحرك ماضية في اتجاه ما كُلِّفه من صدق العمل، تحقيقاً لأداء واجب التبليغ.

فتعقيب النداء المتلطف المثير الأمر بالقيام عنوان على أقصى ما يطلب من الاهتمام، ولهذا ربط به الأمر بالإنذار بحرف (الفاء) المقتضي ترتيبه على تحقيق القيام بمعناه المقصود، كما يرتبط الجواب بالشرط في الترتيب وتعليق الحصول في واقع الوجود.

والإنذار هو التخويف من بطش الله وانتقامه ممن يخالف عن أمره، ويلحد في آياته، ومجيء الأمر بالإنذار في الخطوة الثانية من ابتداء الرسالة بعنوانها الأخص ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ ملايم أشد الملايمة، ومناسب أقوى المناسبة لحال المواجَهين بالدعوة، المطالبين بالإيمان بها في بوادر إشراقها، لأنه لم يكن فيهم من دواعي التبشير ما يقتضي إيناسهم بل هم أحوج إلى الإزعاج والإرهاب، ليقتلعهم من سوء ما ارتطموا فيه من أوحال وفساد حتى ينظروا في حالهم، ويتفكروا في مآلهم، عسى أن يلحقهم بعض الندم، فيفيقوا من سكرتهم ويستيقظوا من غفلتهم، ويتدبروا شأنهم، ويثوبوا إلى رشدهم، فيفيئوا إلى ظل من الإيمان والهُدَى، ويجيبوا داعي الله، ويؤمنوا برسالته، ويهتدوا بهديه، ويعتصموا بحبل دعوته، تاركين ما هم عليه من وثنية بليدة، وضلالة جاهلة، وانحرافات خُلقية، وفساد اجتماعي، وتظالم فاجر، يستعبد فيه الغني الفقير، ويستبد فيه القوي بالضعيف.

وفي مجيء الأمر بالإنذار منفرداً عن التبشير في أول خطاب وُجِّه إلى النبي ﷺ بعد فترة الوحي إيذان بأن رسالته تعتمد على الكفاح الصبور، والنضال المرير، ليكون ﷺ على يقين من أمر رسالته، فيما سيلقاه في سيرها، فيعد نفسه لتحمل ما ينوبه من صنوف البلاء والإيذاء، وليعلم ﷺ أن كفاحه يعتمد أول ما يعتمد على الحجة التي توقظ العقول من غفلتها، وأن نضاله يعتمد على الصبر والمصابرة، ليستطيع القضاء على الطغيان الفاجر الذي يملأ حياة أحلاس الشرك وعبيد الوثنية، وينقذ المعذبين في الأرض من المستضعفين، ويشعر أبناء الإنسانية قاطبة بحقهم في الحياة والعيش الكريم في ظل من الحرية الذاتية التي تشمل الفرد والجماعة والأمم والشعوب، حرية لا يعبد في ظلها إلا الله وحده يخرجهم بها من ظلمات الشرك ومفاسد الأخلاق إلى نور الإيمان والتوحيد ومكارم الفضائل.

ثم زادت الآيات في تقوية عزيمة النبي ﷺ، وشدِّ أزره، وحضِّه على المضي قُدُماً إلى غاية ما أُمِر به، غير عابىء بما يعترض طريقه من عقبات، مهما يكن شأنها فقيل له: ﴿ وربّك فكبِّر ﴾ أي لا تعظِّم شيئاً من أمور الخلق، ولا يتعاظمك منهم شيء، فلا تتهيب فعلاً من أفعالهم، ولا تخشى أحداً منهم، ولا تعظِّم إلا ربك الذي تعهدك وأنت في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، فربَّاك على موائد فضله، ورعاك بإحسانه وجوده حتى أخرجك للناس نبياً ورسولاً، بعد أن أعدَّك خَلْقاً وخُلُقاً لتحمل أمانة أعظم رسالاته.

وفي إضافة الاسم الأكرم بعنوان الربوبية إلى ضمير الخطاب الموجه للنبي ﷺ تأنيسٌ له ﷺ في سير رسالته إلى غايتها، وتعريف له ﷺ بأنه في وحدته وانفراده بحمل عبء تبليغ دعوته، وما سيلاقيه في سبيلها، يأوي إلى ركن شديد، ويعتصم بقوة ربه القوي القهَّار، ذي البطش والانتقام من أعدائه وأعداء رسله، ورسالاته، ومن هنا يظهر سر تقديم الاسم الأكرم بإضافة التخصيص والتشريف على فعل الأمر المقرون بحرف (الفاء) في هذه الآية الكريمة ﴿ وربَّك فكبِّر ﴾ ليفيد أن كل تعظيم وتكبير وإجلال حق لله تعالى وحده، لا يشاركه فيه أحد، أو شيء من مخلوقاته.

وفي هذه الإضافة أيضاً بهذا الأسلوب الحاصر، وعد كريم من الله تعالى، وحفاوة رحيمة برسوله محمد ﷺ، وتذكير له بنعم الله عليه، في سوابق فضله، ولواحق مننه وأنعامه، والتذكير بالنعمة يتطلب القيام بحق شكرها بما يتناسب مع قدرها.

وقول الله تعالى لنبيه ﷺ في الآية الرابعة من هذه الآيات البينات ﴿ وثيابك فطهِّر ﴾ تحضيض على قيامه في الإنذار قياماً طاهراً، زاكياً، إبقاء على ما فطر عليه من الكمال الخُلقي، وهو أعظم عون على النهوض المشمِّر في تبليغ الرسالة، فهو من تطهير النفس وتزكيتها، وتكميلها بأرفع الفضائل، وأكرم المكارم، لأن النبي ﷺ وهو الطاهر المطهَّر، النظيف المنظَّف، لا يقال له في أول خطوات سير الرسالة: طهِّر ثوبك، أي جلبابك الحسي الذي تستر به بدنك، وتتجمل به في حياتك مع الناس وتلبسه درءاً للفحة الحر، ولذعة القر، ولمَّا يدخل الناس في ساحة الإيمان، ولمَّا تنزل شرائع الإسلام من التطهير الحسي والنظافة المادية حتى يقال: إن هذا خطاب تُقصد به الأمة لإرشادها إلى التجمل والتنظُّف.

وإنما المقام مقام التسامي إلى آفاق الكمال المعنوي في تهذيب النفس، وإعدادها بأكمل الأخلاق الاجتماعية التي تشتد إليها حاجة الداعي إلى الإيمان برسالة الله تعالى، التي جاءت لتقوض دعائم الفساد التي يقوم عليها بناء المجتمع البشري يوم ذاك، ولتبنى مكانها دعائم تقوم عليها صروح الخير والإصلاح.

فكأنه قيل له ﷺ، فأنت على طهرك وتطهُّرك بفطرتـك في كمال إنسانيتك بما جبلك الله عليه من أكرم مكارم الأخلاق، وبما حباك به من نبوته ليعدَّك بها ليومك هذا أحوج إلى أن تزداد في تطهرك النفسي، فتزداد من المكارم في حياتك مع الناس والأشياء، فأنت اليوم رسول الله إلى العالمين، وكمال الرسالة في كمال الخُلق الاجتماعي، صبراً، وحلماً، وعفواً، وإحساناً، ودؤوباً على الجد في تبليغ الدعوة إلى الله تعالى، لا يثنيك إيذاء، ولا يقعدك عن المضي إلى غايتك فادح البلاء.

ثم ختمت الآيات الكريمات بما عاد بها إلى ما بدئت به من تهييج عزيمة النبي ﷺ وإثارة حوافز الجد والنَّصب في سبيل القيام بتبليغ رسالته، فقيل له: ﴿ والرجز فاهجر ﴾ أي إنك في تساميك عن النقائص، وتنائيك عن التدنس بصغائر الأمور التي تخدش إنسانيتك وتمس كمالك في رسالتك كالذي هجر أسباب ذلك تطهراً وتعبداً بعد أن كان له هذا التطهر جبلة وفطرة، فلتدم على ما أريد لك من الاتساق بين فطرتك في تطهرها، وبين كسبك هذا التطهُّر تعبُّداً وتكليفاً.

وتفسير (الرجز) بالأوثان في قول أبي سلمة بن عبد الرحمن ـ كما جاء في حديث البخاري ـ تفسير بأول وأهم ما يجب هجره والتباعد عنه تكليفاً وتعبداً، ولو كان مهجوراً فطرة وتطهُّراً، وفي التعبير بالهجر مع تحقق الترك والتباعد منه ﷺ لطيفة بيانية، لأن الترك الجبلِّي الذي يكون أثراً من آثار الفطرة لا يقتضي وجود شعور به ونية تقصده، وأما الهجر فلا يتحقق معناه المقصود بالتكليف إلا إذا كان الترك مشعوراً به في القلب، مقصود الوقوع في الوجود، منوياً بالعزيمة وإرادة التحقق.

فكأنه قيل له ﷺ: ليكن قصدك ونيتك في تركك ما تركت فطرة وطبعاً هجره تكليفاً وتعبُّداً، لتكون قدوة أمتك، وعنوان تطهرها بهداية رسالتك.

وهذا كله من قبيل الإعداد والإقدار على تحمُّل أعباء الرسالة، وأثقال التبليغ.

الاستمرار بالدعوة

بهذا الإعداد القوي، والتربية المحكمة، والدفع المتوثب، وتهييج العزيمة وشحذ الإرادة، وإثارة حوافز الجد الناهض، وصرامة التوجيه من كل ما اشتملت عليه آيات بدء عودة الوحي بعد فترته من دواعي التشمير للقيام بواجب تبليغ الرسالة، إلى جانب ما كان في فطرة النبي ﷺ، وجبلّته من خصائص الاصطفاء لرسالة الخلود ـ نهض محمد ﷺ ممتثلاً أمر ربه، مجيباً داعي الله في تبليغ رسالته.

وكان قد استجاب له ﷺ من قبل نزول آية الإنذار العـام، مطلع رسالته بفجىء الحق، ومجيء الملك إليه برسالة ربه في أول لقاء يقظي بغار حراء، ونزوَل أول ما أنزل الله تعالى من القرآن الكريم، إيذاناً بميلاد الرسالة، وبدء وحيها ـ أبو بكر الصديق، والسيدة خديجة رضي الله عنهما، واستجاب مع كل منهما خلصاؤه الذين سمعوا النبأ العظيم، فلم يسألوا عنه، ولم يتساءلوا، بل أسرعوا إلى الإيمان فآمنوا، وأصفياؤه الذين لم يترددوا في قبول دعوة الحق مذ سمعوا منادي الإيمان ينادي أن آمنوا بربكم فآمنوا، فدخل مع خديجة في بحبوحة الإيمان أهل بيت النبي ﷺ، بناته الطاهرات المطهَّرات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة سيدة نساء العالمين، وربيب النبوة وحضينها علي بن أبي طالب، والحِب زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، فلم يكن في بيت رسول الله ﷺ إلاّ مؤمن بدعوته، مصـدِّق برسالته، مغمور بأنوار هدايته منذ بدأت الرسالة بإنـزال ﴿ اقرأ بـاسم ربك ﴾.

ودخل بدعوة الصدِّيق رضي الله عنه إلى ساحة الإيمان من رفعهم الله تعالى إلى ذروة السبق، فقبلوا دعوة الحق، ممن أنس إليهم أبو بكر، وعرف فيهم مخايل العقل، فحدثهم عن الصادق الأمين محمد ﷺ، وما أنزل الله عليه من خير وهدى، اصطفاه لتبليغه للعالمين، فأسرعوا مجيبين، وأجابوا ملبِّين، وذهب بهم الصدِّيق إلى رسول الله ﷺ، فأسلموا بين يديه إذ دعاهم إلى الهدى، فآمنوا بدعوته وصدَّقوا برسالته، فكانوا رعيل السبق إلى الإسلام، وطليعة الإيمان برسالة محمد ﷺ، فهم أسبق السابقين، بعد الصدِّيقَين أبي بكر وخديجة رضي الله عنها، وبعد خواص البيت النبوي الكريم، وبهذا السبق كان هؤلاء السُّبق عمد الدعوة ودعائمها، وألسنة الصدق الداعية إليها.

حكمة الاستسرار بالدعوة

بيد أن رسول الله ﷺ رأى بتسديد الله وتوفيقه أن الحكمة تقتضيه في أول خطوات سير الدعوة أن لا يسرع إلى معالنة مجتمع قومه المتعزز بوثنيته، المتعظِّم بشروره ومفاسده الخُلقية والاجتماعية، وأن لا يجهر لهم بتبليغ رسالته إليهم، وأن يتخذ من بدء الإنذار العام تمهيداً يسري فيه صوت الدعوة إلى المجتمع هادئاً، هامساً، ليهيىء القلوب والأسماع التي تقبل الصيحة المدوية عندما تحين فرصتها في الغد القريب، فلتكن الخطوة الأولى في سير الرسالة، وامتثال الأمر بالإنذار العام بمثابة إلقاء البذر في الأرض الصالحة المستصلحة المتخيرة، رجاء أن تنبت وتثمر حتى تصل الدعوة هادئة قوية الجذب إليها إلى قلوب مستعدة لتقبل دعوة الحق، وإلى عقول مستنيرة بنور الفطرة الأصيلة الصافية، ليكون هؤلاء الذين سبقوا إلى الاستظلال بظلها ـ وهي غضة أقرب ما تكون عهداً بالسماء، تسري إلى القلوب والعقول والوجدان بدفعها الذاتي، وقوة تَسَرُّبها إلى شرايين الحياة في النفوس، كما يسري نمير الماء إلى أفئدة الظمأى في هجير الصحراء ولفح السموم ـ عدة كفاحها، وقوة دعمها، وصلابة عودها، عند الجهر بها للذين على قلوبهم أقفالها، عناداً، وجحوداً واستكباراً في الأرض بغير الحق، وهؤلاء المستكبرون هم الذين يحتاجون من الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ إلى صبر الكفاح، ومصابرة المحاجة، ونضال العناء ومجاهدة البغي، ومقاومة الظلم

الملحد، والاستبداد الكفور.

ومن ثَمَّ آثر رسول الله ﷺ الاستسرار بالدعوة، والاستخفاء بالتبليغ في مطلع سير الرسالة بعض الوقت، ليعدّ لها أرضاً صلبة تقف عليها في كفاحها ونضالها.

ولم يكن الاستخفاء بالدعوة واستسرارها موقفاً سلبياً لا حركة فيه، ولكنه كان أبلغ موقف إيجابي في دوافعه وآثاره، لأنه كان موقف التأسيس والإعداد، والتربية النضالية، والكفاح الصبور، وتخيُّر المواد لبناء المجتمع الإسلامي الذي تحيا في ظله الرسالة الخالدة، لتكون هذه المواد التي يبنى منها هذا المجتمع قوية التماسك، شديدة الصلابة في إيمانها، موحدة الحركة إلى غايتها، فلم يكن ﷺ وسُبّق أصحابه يدعون في هذه المرحلة كلّ كفَّار عنيد، جوَّاظ جحود، وإنما كانوا يدعون من يأنسون إليه، ويرون في قلبه قبساً من نور الفطرة الأصيلة.

واتخذ رسول الله ﷺ من دار الأرقم عند أصل الصفا أول معهد لتعليم المسلمين أمور دينهم، وإقرائهم ما ينزل عليه من آي القرآن المبين، ويستقبل فيها من يقبل على الإسلام يريد اعتناقه.

وكان رسول الله ﷺ دائب الحركة، يدعو إلى الله، لا يستحسر، ولا يفتر، وكان يلمّ بالبيت الحرام كثيراً، يطوف به متعبداً إلى الله تعالى، والملأ من قريش قعود حول الكعبة، يسمرون في هجر وعبث.

وكانوا قد تسامعوا بدعوته، وصكَّت آذانهم معالم هدايته، وعرفوا الكثير ممن اتبعه وآمن به، فلم يبادروه بإنكار، ولكنهم كانوا إذا رأوه يطوف بالبيت اكتفوا بالإشارة إليه إذا مرَّ بهم في مجالسهم، يقولون: إن غلام بني عبد المطلب ليُكَلَّم من السماء، ولم يكن منهم إليه كبير أذى، ولا مناكرة.

وبهذه المسالمة التي كانت أثراً من آثار الحكمة في الاستسرار بالدعوة، تمكنت بها الدعوة في زمن استسرارها من السير إلى القلوب والعقول، فدلف إلى حظيرتها في دار استخفائها عدد غير قليل من فتيان قريش، وذوي

بيوتاتها، والوافدين على مكة من غير أهلها، من صادقي الإيمان أقوياء العقيدة، الذين تخشى قريش في عتوها شجاعتهم، وقوة بأسهم، فكان هؤلاء قوة للضعفاء والمستضعفين الذين آمنوا على حذر من قومهم أن يفتنوهم في دينهم.

أوّل صَلَاة قَبل الفريضَةِ العَامّة

الصلاة الأولى قبل فرض الخمس ليلة الإسراء

يذكر رواة السيرة النبوية أن الله تعالى فرض على رسوله ﷺ صلاة أول ما أوحى إليه، كما يؤخذ من حديث أسامة بن زيد، عن أبيه زيد بن حارثة، فكان ﷺ يصلِّيها، ويعلِّمها أصحابه، وهم مستخفون بإيمانهم ودعوتهم إلى الله، فكان ﷺ إذا أراد أن يصلي ذهب إلى الشعاب ليصلي بعيداً عن أعين أعداء الله المشركين، أعداء الحق، وكذلك كان أصحابه يفعلون.

قال أبو جعفر الطبري: وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلّوا ذهبوا إلى الشِّعاب فاستخفَوا من قومهم، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب النبي ﷺ في شِعْب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلُّون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فاقتتلوا، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلَحْي جمل، فشجَّه، فكان أول دم أهريق في الإسلام.

وذكر ابن إسحاق أن بعض أهل العلم حدَّثه أن الصلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت منه عين فتوضأ جبريل ورسول الله ﷺ ينظر ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل يتوضأ، ثم قام جبريل فصلى به، وصلى رسول الله ﷺ بصلاته، ثم انصرف جبريل، فجاء رسول الله ﷺ خديجة فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة، كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ﷺ، ثم صلَّى بها رسول الله ﷺ

كما صلَّى به جبريل فصلَّت بصلاته.

قال ابن سيد الناس في «العيون» بعد أن أورد رواية ابن إسحاق: كذا ذكره ابن إسحاق مقطوعاً، وقد وصله الحارث بن أسامة، فرواه بسنده إلى الزهري عن عروة عن أسامة، عن أبيه زيد بن حارثة، ثم قال صاحب «العيون» ورويناه من طريق ابن ماجه عن إبراهيم بن محمد الفريابي، عن حسان بن عبدالله، عن ابن لَهيعة، عن عقيل عن الزهري بسنده بمعناه، قال: وقد روى عن البراء بن عازب، وابن عباس رضي الله عنهم وفي حديث ابن عباس: وكان ذلك أول من الفريضة.

وفي حديث عفيف الكندي الذي أخرجه صاحب «العيون» من طريق ابن إسحاق، وهو مخرَّج في سيرته، قال عفيف: كان العباس بن عبد المطلب لي صديقاً، وكان يختلف إلى اليمن يشتري العطر، ويبيعه أيام الموسم، فبينما أنا عند العباس بمنى، فأتاه رجل مجتمع فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم قام يصلِّي، فخرجت امرأة فتوضَّأت، ثم قامت تصلي، ثم خرج غلام قد راهق، فتوضأ ثم قام إلى جنبه يصلي، فقلت: ويحك يا عباس: ما هذا الدين؟ قال: هذا دين محمد بن عبدالله ابن أخي، يزعم أن الله بعثه رسولاً، وهذا ابن أخي علي بن أبي طالب قد تابعه على دينه، وهذه امرأته خديجة قد تابعته على دينه. قال عفيف بعد أن أسلم ورسخ في الإسلام: يا ليتني كنت رابعاً.

وأخرج ابن إسحاق في سيرته أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شِعَاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبي طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا كذلك، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا.

أوّل دعوة أبي طالب إلى الإسلام

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان، فقال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال «أي عم؟ هذا دين الله، ودين ملائكته ورسله ودين أبينا إبراهيم، بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أي عم أحق من بَذَلْتُ له النصيحة، ودعوتُه إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه، وأعانني عليه».

فقال أبو طالب: أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي، وما كانوا عليه، ولكن لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيت.

قال ابن إسحاق: إن أبا طالب قال لعلي: أي بني، ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ فقال: يا أبتِ، آمنت برسول الله - ﷺ - وصدقت بما جاء به، وصلَّيت معه لله، واتبعته، فقال له أبوه: أما إنه لم يدعك إلّا إلى خير، فالزمه.

من آثار حكمة الاستسرار بالدعوة

في هذه الرواية من الحقائق والمعاني ما ينبغي التنبيه عليه، لاستشفاف حكمته، وتبينٌ أسبابه ودوافعه.

أولاً - إن النبي ﷺ في مدة استسراره بدعوته، وتبليغ رسالته كان يستخفي من عامة قومه، من قرب منهم، ومن بَعُد، وكان يقصر دعوته على من يأنس إليه ويطمئن إلى استجابته، أو يأمنه على كتمان ما عرض عليه، ويضمن صمته عن التحدُّث بما أفضى به إليه.

وكان أقرب قرباه إليه في عصبة النسب أعمامه، ولم يعرف أنه ﷺ

قصد إلى دعوة أحد منهم للإيمان برسالته في مدة استسراره بالدعوة إلى قبول رسالته واعتناق دينه.

وكان في طليعتهم والمقدم فيهم عمه صنو أبيه، أبو طالب الذي ورث زعامة بني هاشم بعد وفاة أبيه عبد المطلب، والذي انتقلت إليه كفالة ابن أخيه محمد بن عبدالله ﷺ وهو في مشرق طفوليته، بعد أن فقد أباه، وأمه، وجدّه، فحدب عليه، وصبَّ به وأحبه حباً شديداً، والتزمه فلم يفارقه في سفر أو إقامة، وكان يؤثره على جميع أبنائه، حتى شبّ محمد ﷺ في كنف هذه الرعاية الحانية، وبلغ مبلغ الرجال، فأثَّله عمه أبو طالب بتوجيهه إلى الاتجار بمال خديجة بنت خويلد الأسدية، سيدة نساء قومها يومئذ ثم زوَّجه بها، وأمهرها له من خاص ماله، وكان حب أبي طالب لابن أخيه محمد ﷺ يزداد وينمو، ووفاؤه بالحدب عليه ورعايته يتصاعد، ويسمو، حتى اختار الله محمداً نبياً، وبعثه لعباده رسولاً، فشَرِقَت ببعثته غطاريف الوثنية، وغُصَّت برسالته حلاقيم رؤوس الشرك، وشنفت به زعامات العتو والطغيان في قريش، واستشرى إليه شرهم، واشتعلت في صدورهم نيران أحقادهم، فقام دونه عمه أبو طالب، يدافع عنه، ويحمي حوزته، ويرد عنه، فلم يستطع أحلاس الشرك، وعبيد الوثنية أن ينالوا من محمد ﷺ نيلاً، حياة عمه أبي طالب، حتى إذا هلك أبو طالب امتدت إلى رسول الله ﷺ حينئذ سفاهة السفهاء بالإيذاء، وسوء القول، وكان النبي ﷺ يذكر لعمه هذا الموقف منه ومن دعوته ورسالته، فيقول: «ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب» وهذا القول من النبي ﷺ يؤكد موقف عمه منه، حدباً، ورعاية، وحماية.

ثانياً ـ إن أبا طالب عاش ردحاً من الزمن في بعثة النبي ﷺ، قريباً من عشر سنين، وهو في هذه الفترة كما كان قبلها ظل على ما كان عليه، حباً لمحمد ﷺ، ووفاء له وحَدَباً عليه، وحماية له، وذوداً عنه، وهو ﷺ يؤدي رسالته، ويبلغها إلى من يستطيع إبلاغها إليه وأبو طالب على شركه ووثنيته، وهو أقرب قرابة محمد ﷺ إليه، لأنه أخو عبدالله أبي محمد ﷺ لأمه وأبيه،

وهو ألصقهم به، وألزمهم له، وأعرفهم بمدخله ومخرجه، فكان أعظمهم قياماً دونه والذود عنه، وأصدقهم عزيمة في التضحية من أجله، وأقواهم شكيمة في الوقوف إلى جانبه.

ومع ذلك كله لم يعرف أن النبي ﷺ آثره على سائر عمومته بدعوته إلى الإيمان برسالته مدة استسراره بدعوته.

وقد مكث النبي ﷺ مستسراً بدعوته قريباً من ثلاث سنين، وهذه الدعوة التي تقول هذه الرواية أن النبي ﷺ توجه بها إلى عمه أبي طالب، ودعاه فيها إلى دينه، دين الله تعالى وملائكته ورسله ودين أبي العرب إبراهيم الخليل عليه السلام، هي أول دعوة عرفت أن النبي ﷺ دعا فيها عمه إلى الهدى ودين الحق، وبذل النصيحة.

وهي ـ على ذلك ـ كانت أثراً من آثار لقاء المصادفة، لم تُستهدف بقصد بدياً، وإنما كانت ضرورة ساق إليها الاتفاق الذي لم يكن متوقعاً، كما تقتضيه الرواية.

وفي إجابة النبي ﷺ عن سؤال عمه: (ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟) لمحات من الإشفاق الرفيق، والرحمة الحانية، والحرص على اجتذاب قلب عمه إلى ساحة الإيمان، ليسلم وجهه لله تعالى ويخلع الأنداد، ويترك عبادة الأصنام، وشعائر الشرك والوثنية.

فقد دعاه النبي ﷺ إلى التصديق برسالته، وقبول هدى الله الذي بعثه به إلى عباده، بأسلوب جمع أحب ما يمكن أن يكون من طرائق الترغيب والإثارة العاطفية وإيقاظ العقل، من أجل ما اختص به أبو طالب من الحدب عليه في أوقات الشدة والأزمات، ليحرِّك في قلبه وعواطفه نوازع القربى، ويلفته إلى مفخرة مفاخر العرب في التاريخ بذكر منقبة الانتساب إلى إبراهيم خليل الله عليه السلام، فقد خصَّه النبي ﷺ بالذكر بعنوان أبوته للعرب، وخاصة قريشاً سادنة البيت الذي أقامه إبراهيم وابنه إسماعيل وجعله الله مثابة للناس وأمناً لأهله والوافدين عليه، ومرتفقاً لعيش قريش ورزقها، ومتَّجراً يهوي إليه الناس بما معهم من منافع يتبادلونها، ومحمدة وذكراً صالحاً في دنيا التاريخ.

ورد أبو طالب على رسول الله ﷺ في هدوء يلفه خوف قالة الناس، وأبى أن يجيب إلى الإسلام، وأدركته حمية الجاهلية وعصبية القومية، فقال: إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولم ينسَ أبو طالب مآثره مع ابن أخيه محمد ﷺ، ولم يكن ليجهل أبو طالب أن قومه سيعادون ابن أخيه إنكاراً لما جاء به من الهدى وينصبون له شواخص البغضاء والمقاومة على طريق سير رسالته، فواتته عصبيته الخاصة له في مواقفه السابقة فقال له: ولكن - أي مع عدم إجابتي لدعوتك وإقامتي على دين آبائي، مثل قومي - لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيتُ، وقد وفى أبو طالب بوعده، واحتمل الشدائد والأزمات معرِّضاً نفسه وآله لأخطر المواقف مع قومه، دفاعاً عن محمد ﷺ.

رسالة محمد ﷺ إنسانية لا تعرف عصبيات القومية والقرابة

هذا وضع قد يبدو غريباً لمن لم يمعن النظر في جَوّ الأحداث، ويتعرَّف إلى أسبابها القريبة والبعيدة في تأمل متعمق، وفهم متفقه في الدوافع التي أفضت وتفضي إلى تلك الأحداث ومثيلاتها حتى يتبين للناظر حكمتها، وما تستهدفه من مقاصد وغايات.

فالنبي ﷺ أُمِر بالإنذار العام في أول آيات نزلت بعد فترة الوحي، إذ قيل له: ﴿ يا أيها المدَّثر قم فأنذر ﴾ وكان عمه أبو طالب أقرب الناس إليه، وألصقهم به، وأخلصهم له، فهو في بديِّ الرأي أحق الناس أن يُدعى أول من يدعى إلى الهدى والخير الذي جاء به ابن أخيه وأحب الناس إليه، وآثرهم عنده محمد ﷺ، وكان أبو طالب بذلك أحق من يبذل له محمد ﷺ النصيحة، لمواقفه الكريمة منه، منذ كان في كفالته وهو في مهاد طفوليته، حتى بعثه الله رحمة للعالمين.

ولكن الذي وقع - كما تصوره هذه الرواية وغيرها من روايات الدعوة - كان يُخفي وراءه حكمة التدبير في سياسة تبليغ الرسالة مدة الاستسرار بها، تلك الحكمة التي كانت تتطلب آثارها العملية تحقيق فكرة الاستخفاء بالدعوة ريثما تتكون لها لبنات قوية المزج، شديدة التماسك في جو بعيد عن إثارة المعوِّقات في طريق سير الرسالة، هذه اللبنات هي القوة الدافعة التي

يعتمد عليها بناء المجتمع الإيماني الجديد، الذي يحمل لواء رسالة محمد ﷺ، ويخوض به لجج النضال فيما ينتظر هذه الرسالة من كفاح مرير.

وقد يغلط هنا بعض الكاتبين والباحثين، فيعمم الحكم بأن الذين دخلوا في دين الله، وصدقوا برسالة محمد ﷺ في مدة الاستسرار بها من السابقين الأولين كانوا جميعاً من الضعفاء والمستضعفين والعبيد والفقراء والبائسين، وهذا غلط يجب التنبيه عليه.

إن الذين دخلوا في الإسلام مدة استسرار الدعوة لم يكـونوا من الضعفاء والعبيد والمحرومين، وقد ذكر ابن إسحاق في سيرته، وابن سيد الناس في «العيون» والقسطلاني في «المواهب» أسماء وأنساب هؤلاء السابقين الأوَّلين، حتى بلغوا عدداً كان يمكنهم به رد الاعتداء على أنفسهم، لو أنه كان قد أُذِن لهم في ذلك، ولكن دعوة محمد ﷺ إلى رسالته والإيمان بهديه لم تكن تقصد إلى إشعال نيران القتال في بيوتات قريش، التي دلف كثير من شبابها إلى الاستجابة لدعوة محمد ﷺ واتبعه على دينه، لأن هدف هذه الدعوة الهادية الكريمة كان فتح القلوب والعقول إليها وتقبلها.

ومن بداهات التاريخ أن عمومة النبي ﷺ، وخاصة زعيمهم وكبير قومه أبا طالب كانوا في الذروة من قريش، مكانة واحتراماً، وتأسياً بهم، وكانوا من العرب عامة في القمة سيادة وشرفاً، وتمجداً.

وقد جعلهم هذا الوضع القيادي أحرص العرب على التمسك بدين آبائهم، وتقاليدهم الجاهلية التي كانوا يقودون بها العرب بزمام الطواعية والاحترام، فهم بزعامتهم لقريش جيران البيت المعظَّم، وسدنة الكعبة المشرفة، يقومون على خدمة زائريها، وإكرام الوافدين عليها تنسكاً واتّجاراً، فحياتهم مرتبطة بهذا البيت، بيت أبيهم إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وعيشهم موصول بمكانهم من هذا البيت المعظَّم.

وكانت قريش تعرف لنفسها هذه المكانة بين العرب، وكانت تتعظم بسكنى الحرم وتقول في تعظمها الذي لا يرده عليها أحد: نحن بنو إبراهيم، وأهل الحرم، وولاة البيت، وقطّان مكة، فليس لأحد من العرب مثل حقنا،

ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف العرب لأحد ما تعرفه لنا.

وكان رسول الله ﷺ أعلم الناس بذلك، فرأى بتسديد الله وتوفيقه أن الحكمة في سياسة السير بالدعوة وتبليغ الرسالة أن لا يهاجم هذا المجتمع الغارق في شروره ووثنيته، بمعالنته بضلاله، ودعوته إلى خلع الوثنية وقد سيطت بلحمهم ودمائهم، ولا سيما أقرب الناس إليه عصبية، وأدناهم إلى الدفاع عنه حمية، وهم عمومته، وعلى رأسهم وفي طليعتهم عمه أبو طالب، زعيم قومه الذي حدب عليه، وكفله في طفوليته ويتمه، ورعاه في شبابه وفتوته، وشدَّ أزره في رجوليته؛ لأن في مهاجمتهم تحريكاً لدوافع المقاومة للدعوة في نفوسهم، والدعوة لا تزال في أول خطواتها، خشية أن تتعثر في سيرها، وأن تتكاءدها العقبات في طريقها، وهي لمَّا تزل وليدة لمَّا تثبت أقدامها، فآثر ﷺ الاستسرار بدعوته، وتبليغ رسالته، حرصاً منه على أن يكون سيرها مطّرداً، وئيداً، هادئاً، تمشي إلى القلوب والعقول بخطى ثابتة، حتى تتمكن من الإعلان عن نفسها، وظهورها في قوة ومنعة.

نُجح خطة الاستسرار بالدعوة

وقد أفلحت هذه الخطة الحكيمة خطة الاستسرار بالدعوة في مطلع شمسها، وظهرت آثارها فيما حققته من نجاح بعيد المدى، يتمثل في عدد وقوة إيمان من دلف إليها إيماناً بها وتصديقاً بهديها، وكان من هؤلاء السابقين الأولين عدد من أبناء الأسر ذات الوضع الاجتماعي المرموق في قريش وغيرها، وتسامع العرب بها في مواسمهم ومحافلهم وأسواقهم، ومضارب منازلهم، فأقبل إلى مكة فريق منهم يتحسس أخبارها، ويتعرَّف مكانها في خفية وحذر، حتى إذا بلغوا مأمنها في دارها ومعهدها دار الأرقم أسلموا لله تعالى، واتبعوا رسوله ﷺ واهتدوا بهديه، وصدقوا رسالته، وآمنوا بما جاء به من الحق.

قوّة إيمان السّابقين

وقد بلغت قوة الإيمان ببعض هؤلاء أن استولت عليهم حماسة الإيمان، فأبى إلا أن يعلن إسلامه على ملأ الشرك ومجتمع الكفر، دون أن يحسب أي حساب لما يناله من الأذى في سبيل إيمانه، وهذا كالذي صنعه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، فيما يرويه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما بلغ أبا ذر مبعثُ النبي ﷺ، قال لأخيه أنيس: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم عِلْمَ هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله، ثم ائتني. فانطلق الأخ حتى قدم مكة، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر، فقال له رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، ويقول كلاماً ما هو بالشعر. فقال: ما شفيتني مما أردت، فتزود وحمل شنة له فيها ماء، حتى قدم مكة فأتى المسجد، فالتمس النبي ﷺ، وهو لا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه بعض الليل، فاضطجع، فرآه عليّ، فعرف أنه غريب، فلما رآه تبعه، فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح، ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد، وظل ذلك اليوم ولا يرى النبي ﷺ حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمر به عليّ فقال: أما آن للرجل أن يعرف منزله، فأقامه فذهب به معه، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى كان اليوم الثالث، فعل مثل ذلك، فأقامه عليّ معه، ثم قال له: ألا تحدثني ما الذي أقدمك هذا البلد؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت، ففعل فأخبره، فقال: إنه حق، وهو رسول الله ﷺ، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخافه عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي، ففعل، فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه فسمع من قوله، وأسلم مكانه، فقال له النبي ﷺ:

«ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري» فقال: والذي نفسي بيده لأصرخنَّ بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فثار القوم فضربوه حتى أضجعوه، فأتى العباس فأكب عليه، فقال: ويلكم: ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم، فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها، فضربوا وثاروا إليه، فأكب عليه العباس فأنقذه.

وفي رواية أخرجها أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب بسنده عن أبي حمزة، عن ابن عباس، قال أبو ذر: وحييت رسول الله ﷺ بتحية الإسلام، فقلت: السلام عليك يا رسول الله، فكنت أول من حيَّاه بتحية الإسلام، فقال: «وعليك السلام، من أنت؟» قلت: رجل من بني غفار، فعرض عليّ الإسلام، فأسلمت، وشهدت أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقال لي رسول الله ﷺ: «ارجع إلى قومك فأخبرهم، واكتم أمرك عن أهل مكة، فإني أخشاهم عليك» فقلت: والذي نفسي بيده لأصوتنَّ بها بين ظهرانيهم، وفي رواية: فرماني الناس حتى كأني نُصُبٌ أحمر.

وكالذي صنعه عبدالله بن مسعود فيما يرويه ابن إسحق عن عروة ابن الزبير قال: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه، قال: اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: والله ما سمعتْ قريش هذا القرآن يُجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبدالله بن مسعود: أنا، فقالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني، فإن الله سيمنعني، فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم رافعاً بها صوته ﴿الرحمن• علَّم القرآن﴾ ثم استقبلها يقرؤها، فتأملوه، فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ ثم قالوا: إنه يتلو بعض ما جاء به محمد - ﷺ - فقاموا إليه فجعلوا يضربونه في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه، وقد أثَّروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشيناه عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا، قالوا: لا، حَسْبك، قد أسمعتهم ما يكرهون.

إسلام حمزة بن عبد المطلب

إسلام حمزة كان من أعظم آثار الاستسرار بالدعوة

ولو لم يكن من آثار الاستسرار بالدعوة وسداد حكمتها إلا أنها جذبت في أول خطواتها إلى ساحة الإيمان برسالة محمد ﷺ أشجع رجلين كانا في قريش، بهما أعز الله دينه، وأعلى كلمته، وأيّد نبيه ﷺ، وقوّى جانبه، لكفاها نجحاً وتوفيقاً وسداداً.

فقد جذبت إلى ساحتها في السنة الثانية من بدء وحي الرسالة ـ كما قطع الحافظ ابن حجر به في (الإصابة) وصدَّر به أبو عمر بن عبد البر في (الاستيعاب) وتبعهما القسطلاني في (المواهب) أعز فتى في قريش، وأشد شكيمة، أسد الله، وأسد رسوله، سيد الشهداء، مرعبل كتائب الشرك والوثنية في بدر، ورافع راية الإسلام والتوحيد، الفارس المُعْلَم أبا عمارة، حمزة بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ وأخاه من الرضاع، وابن خالته نسباً ومنزلة، فأمه هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة، ابنة عم آمنة بنت وهب بن عبد مناف، أم سيد الخلق، محمد ﷺ.

وكان سبب إسلامه أن أخته صفية بنت عبد المطلب، عمة رسول الله ﷺ وأم الزبير بن العوام، ومعها جارية لعبدالله بن جدعان أخبرتاه، وهو عائد من قنصه وصيده أن أبا جهل بن هشام قد آذى ابن أخيه محمداً ـ ﷺ ـ وبالغ في تنقيصه، وهو جالس عند الصفا، فلم يكلمه محمد ﷺ، ولم يرد عليه سفاهته، فاحتمل الغضب والحمية حمزة رضي الله عنه، لِمَا أراد الله به من الكرامة، ولِمَا أراد لدينه ونبيه من الإعزاز، فخرج يشتد معدّاً لأبي جهل

الإيقاع به، فلما دخل المسجد لم يكلم أحداً على غير دأبه وعادته، ونظر إلى أبي جهل جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه ضربه بقوسه، فشجه شجَّة منكرة، وقال له: أتشتمه وأنا على دينه؟ أقول ما يقول فَرُدّ عليّ إن استطعت، فحمي لأبي جهل رجال من قومه بني مخزوم، لينصروه، فقال لهم أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحاً.

ومضى حمزة رضي الله عنه في طريق الإيمان، والذود عن الدعوة حتى بلغ مقاماً لم يبلغه غيره من المسلمين، فهو سيد الشهداء بشهادة سيد الخلق ﷺ، وهو أسد الله وأسد رسوله ﷺ، كان إسلامه عزاً للمسلمين، ومنعة وقوة للنبي ﷺ، أُخذت به قريش فأصابها المقيم المقعد، وشَرِقَت بإسلامه فكان شجاً في حلاقيمها، وأذل كبرياءها، وقتل كبراءها، وظهرت به الدعوة بعد استخفائها وأعلنت بصوته كلمة الحق بعد استتارها، وجهر بالتكبير لله تعالى على سمع طغاة الشرك، فأراهم حقارة عقولهم في حقارة معبوداتهم، وأراهم عزة الحق وانتصاره.

إسلام عمر بن الخطّاب

ثم جذبت سياسة الاستسرار بالدعوة في مطلع شمسها وبدء أمرها ثاني العظيمين، فاروق الإسلام، وعز المسلمين، وعبقري الدنيا عمرابن الخطاب رضي الله عنه.

وقد اختلفت الروايات في سبب إسلامه اختلافاً عريض الجوانب، واسع المنتجع، بيد أنها كلها تتفق على أن بداية حركة إسلامه كانت عزيمة جاهلية مظلمة، خرج فيها شاهراً سيفه ليقتل رسالة الحق والهدى، رسالة الإسلام، ويئد الدعوة إلى الله، دعوة رسالة محمد ﷺ بقتل محمد ﷺ.

كما تتفق تلك الروايات على أن نهاية حركته المظلمة كانت نوراً وضياء، وهدى ورحمة، كانت آية من آيات الغيب المحجب، الذي تعجز العقول والقوى والقُدَر عن استشفاف حقائقه، كانت صورة من الإيمان المشرق المتوثب حماسة للحق، وقوة للإيمان والهدى.

فبداية عمر رضي الله عنه مع الإسلام ورسالته ـ التي انتهى بها القدر الحكيم عزاً للإسلام والمسلمين، وذلاً وخزياً للشرك والمشركين ـ كانت حمية جاهلية، وعزيمة جاحدة لمنطق العقل، مغرورة بتعبدها للوثنية، تناصر الشيطان، وتكفر بالرحمن، وكان السيف فيها هو صاحب الكلمة الفاصلة الناطق بحجتها، غاب فيها العقل عن منصته في الحكم على المدارك، وأظلم فيها القلب، فلم يشرق في أفقه شعاع من نور الحق.

أما نهاية عمر في حركته إلى دار الإسلام ومعهده، التي كتب الله

سطورها في سجل الخلود بمداد من النور، فكانت هدى ورحمة، وعزاً ونصراً، وفتحاً مبيناً، وإيماناً راسخاً، وصوتاً بشعار الإسلام وعنوانه جهيراً، فما أبعد ما بين البداية والنهاية، ولكنها المقادير تظهرها العناية.

وهكذا انخرط عمر رضي الله عنه في سلك المؤمنين أقوى ما كان مؤمن بدعوة، اعتنق عقيدتها وآمن بمبادئها وشرعتها، فكان إيمانه قوة للإسلام، وعزاً للمسلمين.

روى البخاري عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر، وكان ابن مسعود يقول: ما كنا نقدر أن نصلِّي عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب، وكان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً. وروى ابن ماجه عن ابن عباس قال: لما أسلم عمر رضي الله عنه نزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ فقال: يا محمد لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر رضي الله عنه.

كان إسلام عمر بعد إسلام حمزة رضي الله عنهما بثلاثة أيام، وكان رسول الله ﷺ يعرف شجاعة عمر، وشهامة رجوليته، ويعرف عبقريته في سواء تفكيره واستقامة طبعه، وجرأته على الجهر بما يعتقد، ووقوفه مع رأيه وكلمته، فكان يحب أن يهديه الله إلى الإسلام، ليكون له ناصراً، وتكون شجاعته قوة لهذا الدين الحق الذي بعث الله به نبيه رحمة للعالمين، فكان يدعو الله تعالى أن يهديه للإيمان، وأن يجعله درعاً من أدراع هذا الدين، يدرأ به عن المستضعفين ذل الاستضعاف وأذى المشركين، فيقول فيما أخرجه ابن ماجه، ورواه الحاكم وابن حبان عن عائشة وابن عباس: (اللهم أعز الإسلام ـ أو أيِّد الإسلام ـ بعمر بن الخطاب خاصة).

ضعف حديث ذكر أبي جهل في إعزاز الإسلام

وهذا الحديث يوهي ما أخرجه الترمذي والإمام أحمد من أن دعاء النبي ﷺ كان بلفظ «اللهم أعزّ الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب».

وذلك الإيهاء من وجوه.

الوجه الأول

الأول ـ أن ذكر أبي جهل في هذا المقام بأقبح كنية له في الإسلام؛ نبذه بها المسلمون لكثرة ما كانوا يلقَونه من سفاهته وأذيته، ولبشاعة ما كان ينالهم منه من سوء وشر، ولسوء ما كان يتناول به رسول الله ﷺ من بذيء القول، وفجور الإيذاء ـ لا يتواءم مع المناسبة في مقام هذا الدعاء الأكرم الذي قصد به النبي ﷺ الضراعة إلى الله تعالى أن يختار لإعزاز دينه رجلاً يحبه، ويعلم فيه أنه خُلق على الاستعداد للتحلي بطهارة الإسلام ومكارمه وعزته.

وحديث الترمذي الذي يجمع بين الرجلين في الدعاء بأن يعز الله بأحدهما الإسلام مضطرب الألفاظ في الروايات، فقد رواه صاحب الصفوة بلفظ: «اللهم أعزّ الإسلام بعمرو ـ أي أبي جهل ـ أو عمر» ورواه ابن إسحاق عن خباب بن الأرت بلفظ: «اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب» ورواه ابن سيد الناس في «العيون» بلفظ «اللهم أعزّ الإسلام بأحد الرجلين: إما أبو جهل بن هشام، وإما عمر بن الخطاب» وهذا الاضطراب في ألفاظ الحديث يضعِّف روايته، ويوهي نصه.

هذا التشقيق لم يعرف في أساليب أفصح الفصحاء ﷺ

الوجه الثاني

الثاني ـ أن أبا جهل كان منذ جاء الإسلام لَعِين الله تعالى وملائكته، ولعين رسول الله ﷺ ولعين المسلمين، وعدوهم الألد، فقد عرف بأشد البغض، وأقبح الشنآن لرسول الله ﷺ، وكان مصداق قول الله تعالى: ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ﴾[1] كما فسرها به ابن عباس، فيما أخرجه عنه ابن مردويه.

وأبو جهل حري بهذا، فقد كان دائب مواقف لؤم الطبع، وخسة الفجور، وخبث الإيذاء للنبي ﷺ وأصحابه، وهو صاحب الطعنة الفاجرة الخبيثة التي طعن بها أم عمار بن ياسر، السيدة سمية أول شهيدة في الإسلام، وهو صاحب اليد الجبانة التي أطارت حلق أسماء بنت أبي بكر الصديق من أذنها، إذ تشاجع وهو يسألها عن أبيها يوم الهجرة، فصفعها ليشفي غلّ الخسة والهمة الساقطة في نفسه ونحيزته.

---

(١) سورة الفرقان آية (٣١).

وهذه أفعال لا تقع من رجل عربي، له من مروءة العرب أدنى حظ، وأحط نصيب، ولا تقع من رجل يعرف لرجوليته حقها عليه مهما بلغ به حقد الكفر، وخبث الجحود، فلا يتصور أن النبي ﷺ يدعو ربه متضرعاً إليه أن يؤيد دينه، دين العزة والكرامة والمروءة برجل يفقد العزة والكرامة والمروءة، ولا يتصور أن محمداً ﷺ المختار لتربية الإنسانية بأدب القرآن العظيم أن يدعو ربه أن يؤيد رسالته الهادية الراشدة بألد أعدائها، وأخبث شريريهم، وأفسد مفسديهم، وأحطّ من مشى على أرض الله في دنيا الناس.

الوجه الثالث

الثالث ـ أن أبا جهل كان مغموز الرجولية بين قومه، معروفاً في الجاهلية والإسلام بأحط وأقذر ما يتصف به إنسان، ولا يتصور أن النبي ﷺ يضرع إلى ربه داعياً أن يعزّ الله الإسلام دين العزة والكرامة بهذا المغموز في رجوليته بغميزة لا يبرأ من عارها مطعون بها.

الوجه الرابع

الرابع ـ إن جعل هذا الخبيث اللعين في ميزان مع عمر بن الخطاب، وهو من هو في جاهليته رجولية وفتوة وعزة، كان رجلاً مشهور الجد، كريم الرجولية، يتفتى ويتكارم، لم تعرف عنه غميزة تمس شخصيته في أخلاقه الإنسانية، ولم يعرف مع ما كان عليه في جاهليته التي لم تطل كثيراً مع الإسلام من الشدة والعنف في عداوة الإسلام ونبيه ﷺ والمؤمنين أنه آذى رسول الله ﷺ بخسائس من الإيذاء، كما عرف من هذا الخبيث الغميز أبي جهل من خسائس الإيذاء ـ لا يستقيم مع موازين الرجال، والتطلّع إليهم ليسهموا في معالي أمور الحياة وقيادتها، فلا يتصور أن يضع رسول الله ﷺ وهو المسدّد برعاية الله وتوفيقه العليم بالرجال وموازينهم، عمر بن الخطاب في كفة ميزان مع هذا الخبيث أبي جهل، وعمر بن الخطاب في جاهليته وشركه كان شريف المكانة، مقدّر العقل واستقامة الخُلق بين قومه، فكان سفير قريش، ومنافرها ومفاخرها في جاهليتها.

وإذا كان قصدُ النبي ﷺ بهذا الدعاء مجرد إعزاز الإسلام وتأييده، ولم ينظر إلى خصوص شخصية من يؤيد به الدين، فلماذا اقتصر رسول الله ﷺ في دعائه على أحد الرجلين غير معين؟ وهو ﷺ ـ بمقتضى ظاهر الرواية ـ

ما كان يعلم ساعة الدعاء أي الرجلين كان أحب إلى الله أن يُعِز به دينه ويؤيد به الإسلام، ولا أيهما يكون إسلامه عزاً لهذا الدين، فهل كان يضيق الإسلام بإسلام الرجلين وإعزازهما وتأييدهما له، والمسألة كانت مسألة رغبة من النبي ﷺ في أن يعز الله الدعوة ليقوى جانبها وتخرج من تخفِّيها، فهلاَّ كانت الدعوة عامة للرجلين، لإعزاز الدين بهما، وهذا بلا شك ـ لو صحّ وضع الرجلين في ميزان ـ أجدى وأنفع لتحقيق الرغبة في إعزاز الإسلام بهما.

إن أسلوب الدعوة التي أخرتها رواية الرجلين في إطاره يقتضي أن النبي ﷺ كان يشعر بأن أحد الرجلين فقط ـ غير معيَّن ـ هو الذي يتحقق به إعزاز الدين وتأييده، وأن الآخر ـ غير معيَّن ـ لا أمل فيه لإعزاز الدين، ولا رجاء منه في تأييده، فلا يجتمع الرجلان في إعزاز الدين، ومن ثم لم تجمعهما الدعوة ليكون الإعزاز والتأييد بهما مجتمعين، فمن أين جاء هذا الشعور الذي يقتضيه أسلوب الرواية؟ أمن طريق الوحي؟ فيكون النبي ﷺ قد تلقى عن الله ذلك، أم هو اجتهاد من رسول الله ﷺ؟.

أما الوحي فلم يُعْلَم لنا شأنه في هذا الحادث بخصوصه، وأما اجتهاد رسول الله ﷺ فلا يُدْرى حكمةُ تخصيص واحد من الرجلين بالدعاء ـ غير معين ـ وكان إسلامهما معاً ـ لو كان ممكناً تساويهما ـ أقوى إعزازاً وتأييداً للإسلام والمسلمين.

فلو كان لأبي جهل منفذ إلى رجاء الخير فيه أو منه لكانت دعوة النبي ﷺ للرجلين معاً أن يعزّ الله بهما معاً الإسلام، لا لأحدهما غير معين.

الوجه الخامس

الخامس ـ أن التخصيص بالنص على انفراد عمر بن الخطاب بدعوة النبي ﷺ أن يعزّ به خاصة الإسلام، في حديث عائشة الذي أخرجه الحاكم وصححه، وأقر تصحيحه الذهبي، وصرح بصحته الزرقاني في شرح المواهب، وفي حديث ابن عباس عند البزار وابن ماجه وابن حبان، ونصه: «اللهم أيِّد الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة» ـ قاطع بأن أبا جهل لم يكن قط أهلاً لرجاوة النبي ﷺ، ولا كان أهلاً أن يدخل في رغبة إعزاز الدين كما

أقحمته الروايات التي تجمع بينه وبين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وذكر السيوطي في الدرجة ٣ ص ٢٠١، ٢٠٢ عن عبد الله بن مسعود كما أخرجه الطبراني وابن مردويه قال ابن مسعود: فضل عمر رضي الله عنه الناس بأربع: وفيه: دعوة نبي الله ﷺ «اللهم أيد الإسلام بعمر».

والروايات المضطربة في نصوصها، المختلفة في ألفاظها وعباراتها التي تذكر الرجلين في دعوة النبي ﷺ عامة مبهمة، ورواية تخصيص عمر ابن الخطاب بالذكر منفرداً صريحة النص على تخصيصه، مفسرة واضحة، ولا شك أن الأخذ بالواضح المفسر المخصص لمطلوبه أحق بالقبول.

وقد حاول بعض الأئمة أن يوفق بين روايات ذكر الرجلين في الدعوة، ورواية تخصيص عمر رضي الله عنه بالذكر منفرداً في طلب إعزاز الدين به خاصة، فقال ابن عساكر أنه ﷺ دعا بالأول - أي الدعاء الذي ذُكِر فيه الرجلان - أولاً - فلما أوحى إليه أن أبا جهل لن يسلم خص عمر بدعائه.

وهذا التوفيق متوقف على العلم بأن الدعاء وقع من النبي ﷺ مرتين - كانت أولاهما بذكر الرجلين، قبل أن يعلم سيدنا رسول الله ﷺ بحال أبي جهل في كفره المقيم، وكانت ثانيتهما بتخصيص عمر بعد أن علم رسول الله ﷺ من طريق الوحي أن أبا جهل مطبوع على قلبه فلن يسلم أبداً، وأنّى لنا بهذا العلم الذي يفيد وقوع الدعاء مرتين مرتبتين، أولاهما جمعت الرجلين لعدم علم رسول الله ﷺ بحال أبي جهل وخَتْم الله على قلبه فلا يتوقع منه الإسلام فضلاً عن إعزازه به، وثانيتهما خصصت عمر بالذكر بعد أن علم رسول الله ﷺ بحال أبي جهل من طريق الوحي، ولو كان هذا العلم موجوداً لذكره العلماء وذكروا سنده.

الوجه السادس

السادس - أن أبا جهل كان عنيد الكفر، كفور العناد، حقود الجحود، خبيث الطبع، غليظ الكبد، فظاً جواظاً حسوداً حانقاً على الإسلام والمسلمين، مغيظ النفس، شانئاً للنبي ﷺ وآل بيته من بني عبد مناف. منذ اختارهم الله تعالى دوحة لانبثاق محمد ﷺ من نبعتهم، واصطفاه الله لرسالته، فشرفهم به شرفاً لا يلحق في الآخرين، ولم يسبق في الأولين.

وقد ثبت أن أبا جهل كان يقول عن النبي ﷺ كما أخرجه ابن أبي حاتم وغيره: والله إني لأعلم أنه لنبي ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعاً؟ وفي هذا الجحود المغيظ، والحسد الكفور نزل قول الله تعالى: ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾[1].

ويروي ابن إسحاق أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شَرِيق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، فقال بعضهم لبعض: لاتعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية فعلوا مثل ما فعلوا في الليلة قبلها، ثم عادوا للَّيلة الثالثة، ثم تعاهدوا ألا يعودوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: يا أبا ثعلبة: والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد منها.

قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به كذلك، ثم خرج الأخنس من عند أبي سفيان حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه في بيته، فقال: يا أبا الحكم: ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال أبو جهل: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا بالركب، وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟؛ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه.

هذه القصة تبين خبيء ما يكنُّه قلب هذا الخبيث الكفور من الحقد العنيد، المنحدر من مواريث العصبية الجاهلية، التي لا تعرف للحق وزناً، ولا تعرف للخير والعدل طريقاً، فصاحباه أبو سفيان، والأخنس على كفرهما وشركهما لم يبد منهما شيء مثل الذي بدا من أحقاد هذا الطاغية الخبيث.

---

(١) سورة الأنعام آية (٣٣).

ولقد صدق الله تعالى إذ يقول فيه وفي أمثاله من المكذبين حقداً وعناداً: ﴿ كذلك نَسْلُكُهُ في قلوب المجرمين. لا يؤمنون به وقد خلَت سُنَّةُ الأولين ﴾[1] قال الزمخشري في تفسيرها: على معنى أنه يلقيه ـ أي الذِّكر ـ في قلوبهم مُكَذَّبا مُسْتَهْزَأ به غير مقبول، كما لو أنزلت بلئيم حاجة فلم يجبك إليها، قلت: كذلك أنزلناها باللئام، تعني مثل هذا الإنزال أنزلناها بهم مردودة، غير مقضية. إهـ.

وقال ابن المنير في «الإنصاف»: والمراد ـ والله أعلم ـ إقامة الحجة على المكذِّبين، بأن الله تعالى سلك القرآن في قلوبهم، وأدخله في سويدائها، كما سلك ذلك في قلوب المؤمنين المصدِّقين فكذب به هؤلاء، وصدق به هؤلاء، كل على علم وفهم، ليهلك من هلك عن بيِّنة ويحيا من حيَّ عن بينة، ولئلا يكون للكفار على الله حجة بأنهم ما فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن، فأعلمهم الله تعالى من الآن وهم في مهلة وإمكان أنهم ما كفروا إلا على علم معاندين باغين غير معذورين.

ولذلك عقَّبه الله تعالى بقوله: ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلُّوا فيه يعرجون لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[1] أي هؤلاء فهموا القرآن، وعلموا وجوه إعجازه، وولج ذلك في قلوبهم ووقر، ولكنهم قوم سجيتهم العناد، وشيمتهم اللدد، حتى لو سلك بهم أوضح السبل وأدعاها إلى الإيمان بضرورة المشاهدة. إهـ.

ومثل هذه الآيات أخوات لها كقوله تعالى: ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين. لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ﴾[2].

وكقوله عزّ شأنه: ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾[3].

---

(١) سورة الحجر آيات (١٢ ـ ١٥).
(٢) سورة الشعراء آيتا (٢٠٠ ـ ٢٠١).
(٣) سورة الأنعام آية (٧).

ومن أدق ما يلفت النظر في هذه الآيات العنونة لهؤلاء المعاندين بوصف (الإجرام) ليفهم أن المقصود الأعظم بهذا المثابة إنما هم الزعماء الذين يتبعهم الناعقون من الرعاع الذين لا تدبر لهم لما يسمعون، وهؤلاء الزعماء هم الذين يقودون المقاومة للحق، لأنه إذا استقر وفهمته العقول هدم بنيان حياتهم الزائفة الحاقدة، من أمثال الخبيث أبي جهل وضربائه الذين يردون الحق وهم يعلمون أنه الحق عناداً وجحوداً، يحملهم عليه الحقد الكفور.

الوجه السابع

السابع ـ إن روايات أحاديث انفراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدعوة النبي ﷺ أن يعزّ بِهِ الإسلام وردت مضبوطة العبارة موحدة اللفظ، في صيغة واحدة، لم يدخلها الاضطراب باختلاف الألفاظ والعبارة، وهذا دليل على صحتها وثبوتها.

أما روايات الأحاديث التي جاء فيها ذكر الرجلين منسوباً إلى دعوة النبي ﷺ وضراعته إلى ربه أن يعزّ الإسلام بأحدهما، بأي اسم أو أي وصف فقد دخلها الاضطراب باختلاف الألفاظ والعبارات والأوصاف ـ كما نبهنا عليه.

فحديث الترمذي وهو أقواها رواية، روي بلفظ: «اللهم أعزّ الإسلام بأحب الرجلين إليك، بأبي جهل أو بعمر» وروي بلفظ «اللهم أعزّ الإسلام بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب» قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وفي إسناده خارجة بن عبدالله صدوق، فيه مقال، وكفى بذلك إيهاءً له.

وحديث خباب بن الأرت روي فيما أخرجه الدارقطني بلفظ «اللهم أعزّ الإسلام بعمر، أو بعمرو بن هشام» وروي فيما أخرجه البزار بلفظ «اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب».

فإدخال أبي جهل في دعوة النبي ﷺ لإعزاز الإسلام، تقحم ساق إليه الوهم والتخيل، ولعل هذا الوهم جاء من قبل بعض المستضعفين الذين اشتد عليهم الأذى، ولم تقو قلوبهم على احتمال الصبر، فحدّثوا أنفسهم بأمنية أن يهدي الله رجلاً قوياً للدخول في الإسلام، فيعتزون به، وتوهم من

توهم أن قسوة أبي جهل وعتوه وجبريته على الضعفاء والمستضعفين، تكون لهم قوة وعزاً، لو أن الله هداه إلى الإيمان برسالة الإسلام، ولم يعلموا من أمر أبي جهل ما كان يستبطنه من سوء سريرة وغميزة.

وكانت شدة أبي جهل على المسلمين مستفيضة الوقائع، خبيثة دنيئة، كصنيعه بأسماء بنت أبي بكر وهي صبية لم تتجاوز سن الطفولية، وقد جاء هذا الخبيث يسألها عن أبيها يوم الهجرة، فأخبرته صادقة، أنها لا تعرف أين أبوها، فرفع الجبن يد الفسولة والوضاعة النفسية وصفع بها أبو جهل الصبية صفعة أطارت شنفها من أذنها، وكذلك الجبناء إذا خلَوا بغير كفء يتشاجعون.

وكصنيع غميز الرجولية الخبيث في طعنه سمية أم عمار بن ياسر، وهي تعذَّب لتكفر بالإسلام طعنة لا يرفع يده بها إلا كل جبان فقد رجوليته، واستعاضها حقداً على الحياة، وهو أعجز من أن يجد لحقده متصرفاً إلا أجسام الضعفاء يمزقها بسياط الحقد اللئيم.

أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي وضعته الرواية الباطلة في كفة ميزان مع الخبيث الرعديد أبي جهل فقد كان في جاهليته شديداً على الإسلام والمسلمين، وعلى النبي ﷺ، وحسب شدته الجاهلية مقتاً أنه خرج بسيفه ليقتل رسول الله ﷺ، فرده القدر، وصنع منه رجل الدنيا إيماناً وعدلاً وسياسة وقوة في الحق.

وعمر يصف شدته على النبي ﷺ فيقول في إجمال: كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ. وتصف شدة عمر وقسوته على المسلمين أم عبدالله بنت أبي حثمة فيما يحكيه عنها ابن إسحق قالت: والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليّ، وهو على شركه، وكنا نلقى منه البلاء، أذى لنا وشدة علينا، فقال: إنَّه للانطلاق يا أم عبدالله؟ فقلت: نعم، والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجاً، فقال: صحبكم الله!!.

قالت أم عبدالله: ورأيت له رقة، لم أكن أراها، ثم انصرف، وقد

أحزنه خروجنا، فلما جاء عامر بن ربيعة ـ زوجها ـ قلت له: يا أبا عبدالله: لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا؟ قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: نعم، قال عامر: فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، يأساً منه، لما كان يرى من غلظته وقسوته على أهل الإسلام.

هذه غلظة عمر بن الخطاب وقسوته في جاهليته يصفها هو فيجمل، ويصفها من قاسى آثارها وعانى منها حتى يئس من صاحبها أن تدخل الهداية قلبه فيسلم، فأين تقع هذه القسوة الجاهلية في عمر بن الخطاب، وهي غلظة رجولية تدفع إليها حمية جاهلية من رجل مثل عمر من غلظة الجبن الحقود، يدفع إليها الحسد الموروث من إنسان فقد حياءه، ؛ فلا يستعرض قوته وبأسه إلا في صفع صبية لا تملك يومها الدفاع عن نفسها.

بل أين تقع شدة عمر وقسوته على أهل الإسلام في جاهليته، تلك الشدة التي خرجت من نفس ترق وتلين، حتى تصل إلى مرتبة الحزن لمفارقة من صبَّت عليهم قسوتها، فراراً بدينهم، وعقيدتهم في أرض الله حتى يجعل الله لهم فرجاً ومخرجاً، فيقول لهم من قسا عليهم بالأمس: صحبكم الله، من قسوة رعديد، لا يملك من دواعي المروءة والترفع عن مخازي الرذائل، فيطعن امرأة ضعيفة، وهي تئن تحت سياط العذاب طعنة لا تقع من إنسان فيه ذرة من معالم الرجولية، بَلْه المروءة العربية، ولكن إذا ذهبت الرجولية مع الحياء لم يبق لثاكلها إلا عصارة الحقد الأسود، تفيض به نفسه، فيصبه على من لا يملك أن يدفع عن نفسه.

الوجه الثامن

الثامن ـ ومن أقطع ما يرد حديث ذكر الرجلين في الدعوة النبوية، ويؤكد الوهم في روايته، سواء جاء ذكرهما باسميهما أو وصفيهما ما رواه البخاري في أبواب الطهارة، والصلاة، والجزية، والجهاد، والمغازي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: كان عليه الصلاة والسلام يصلِّي عند الكعبة، أو البيت، وجمع من قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم ـ هو اللعين أبوجهل، كما جاء مصرحاً به في رواية مسلم ـ ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها ودمها

وسلاها، فيجيء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم ـ هو عقبة بن أبي معيط ـ قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وإنما كان أشقاهم مع أن فيهم أبا جهل وهو أشد كفراً منه، وإيذاء للمصطفى ﷺ لاشتراكهم في الكفر والرضا، وانفراد عقبة بالمباشرة، ولذا قتلوا في الحرب، وقتل عقبةَ صبْراً.

وحكى ابن التين عن الداودي: أن الذي انبعث هو أبو جهل، فإن صحّ احتمل أن عقبة لما انبعث حمل أبا جهل شدَّةُ كُفره فانبعث على أثره حتى لا ينفرد بفخر الجريمة الفاجرة عند أكابر مجرميها عقبة، فأراد اللعين أبو جهل أن يكون شريكه في إثمها وفجورها.

فلما سجد ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجداً، وضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك، فانطلق منطلِقٌ إلى فاطمة، وهي يومئذ جويرية صغيرة، فأقبلت تسعى وثبت النبي ﷺ ساجداً حتى ألقته عنه وأقبلت تسبهم، وتشتمهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: «اللهم عليك بقريش» وكرر ذلك ثلاث مرات، ثم سمَّى وعيَّن وفصَّل، فقال: «اللهم عليك بأبي جهل عمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد» قال ابن مسعود: فوالله لقد رأيتهم ـ أي أكثرهم ـ صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر، ثم قال رسول الله ﷺ: «وأتبع أصحاب القليب لعنة» قال الحافظ ابن حجر: وهذا يحتمل أن يكون من تمام الدعاء الماضي، فيكون فيه عَلَم عظيم من أعلام النبوة.

هذا الحديث الذي يرويه رواة أصح الحديث الإمامان البخاري ومسلم، وغيرهما من الأئمة، فيه تصريح بأن الخبيث أبا جهل رأى رسول الله ﷺ يصلِّي عند الكعبة، وملأ قريش زعماء الكفر وطغاة الشرك جلوس حول البيت، فتحرَّك في قلب هذا الكفّار العنيد حقد الجاهلية الموروث الجحود، وفجوره الكنود، فأغرى شياطين الوثنية بالنبي ﷺ، وتناوله بالسبّ والشتم الخبيث، وطلب إلى هؤلاء الأخابث أن يمدوا أيديهم بالسوء بعد أن

مدّوا ألسنتهم بالسفه والبذاء، لينالوا من رسول الله ﷺ، وطلب إليهم أن يأتوا بأقذار جزور فيطرحها على المصطفى ﷺ وهو ساجد، فانبعث إلى لعنة الله وسخطه أشقاهم عقبة بن أبي معيط ليباشر الجريمة الفاجرة، وكأنما حسده اللعين أبو جهل على انفراده بهذا الإثم الفاجر، فانبعث يلحق به، وجاءا معاً بأقذار الجزور وطرحاها بين كتفي رسول الله ﷺ وهو ساجد، فتضاحك ملأ الفجور استهزاء وسخرية حتى مال بعضهم على بعض تماجناً وفرحاً بما رأوا من سوء وفجور، ولم يجرؤ أحد أن يلقي القذر عن كتفي رسول الله ﷺ، حتى أتى الخبر فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فجاءت تسعى وهي طفلة صغيرة، فألقت القذر عن كتفي أبيها سيد الخلق ﷺ وهو ثابت في سجوده، لم يرفع رأسه تنزهاً أن تكون حركة من حركات تعبده لله تعالى في ظل هذا الفجور والإثم، وتطهيراً لصلاته أن تقع حركة من حركاتها على غير طهر وتطهر، ثم التفتت إليهم فاطمة تسبهم وتلعنهم، فما جرأ خبيث منهم أن يردّ عليها.

فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته دعا على أهل الفجور، فعمَّ وأجمل، فقال: «اللهم عليك بقريش) وكرر ذلك ثلاث مرات، ثم خص وفصَّل وعيَّن، وسمى من المجرمين أعتاهم، وأشقاهم، فقال: (اللهم عليك بأبي جهل عمرو بن هشام» وفلان، وفلان، حتى ذكر منهم سبعة، كانوا هم أكابر مجرميها، ثم قال النبي ﷺ إعجازاً، وإخباراً عن الغيب بما هو كائن فكان كما قال: «وأتبع أصحاب القليب لعنة» وهذا كما يقول ابن حجر: عَلَم من أعظم أعلام النبوة، لأن هؤلاء الفجار قتلوا جميعاً يوم بدر، وسحبوا إلى القليب قليب بدر، وقتل أشقاهم عقبة بن أبي معيط صَبْراً، وقتل عمارة ابن الوليد بالحبشة شر قتلة.

فكيف يمكن أن يدعو النبي ﷺ ربه أن يعز الإسلام ويؤيده بأحد رجْلين، فيهما هذا الخبيث الكفَّار العنيد، والمؤذي لرسول الله ﷺ هذا الإيذاء الفاجر الذي دفع به ﷺ ـ وهو الحليم الصفوح ـ أن يدعو عليه بهذا الدعاء، الذي خصَّه فيه بعد التعميم، وعينه باسمه وكنيته فيمن ذكرهم بأسمائهم من الجارمين، بل إنه أخبره مواجهة أنه من المذبوحين؟.

وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ، فأخذهم بأيدي المؤمنين في أول وقعة من وقائع نصر الإسلام والمسلمين، وقعة بدر الكبرى، التي جاءوا إليها يقودهم اللعين أبو جهل، وقد انتفخ سحره بأواً وكبرياء حتى قتله أضعف المسلمين بدناً الغلام المُعَلَّم، عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وقد فرح بقتله النبي ﷺ.

أخرج ابن عبد البر بسنده في الاستيعاب عن أبي عبيدة بن عبدالله ابن مسعود، عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ يوم بدر، فقلت: إني قتلت أبا جهل، قال: «آلله الذي لا إلّه غيره لأنت قتلته؟» قلت: نعم، فاستخفه الفرح، ثم قال: «انطلق فأرنيه» قال: فانطلقت معه حتى قمت به على رأسه فقال: «الحمد لله الذي أخزاك، هذا فرعون هذه الأمة، جرّوه إلى القليب».

الوجه التاسع

التاسع ـ وأخرج البخاري عن عمرو بن العاص قال: ما رأيت قريشاً أرادوا قتل النبي ﷺ إلا يوم أغرَوا به وهم في ظل الكعبة جلوس، وهو يصلّي عند المقام، فقام إليه عقبة بن أبي معيط، فجعل رداءه في عنقه، ثم جذبه حتى وجب لركبتيه، وتصايح الناس، وأقبل أبو بكر يشتد حتى أخذ بضَبُعِ رسول الله ﷺ وهو يقول: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله) ثم انصرفوا عنه، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته مرَّ بهم، فقال: «والذي نفسي بيده ما أرسلت إليكم إلّا بالذبح» فقال أبو جهل: يا محمد، ما كنت جهولاً، فقال النبي ﷺ: «وأنت منهم».

وأخرج البخاري هذا الحديث ـ أيضاً ـ عن عبدالله بن عمرو وقد سأله عروة بن الزبير عن أشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ، فذكر نحوه.

فهذا الحديث الذي يرويه البخاري مرة عن عمرو بن العاص، ومرة أخرى عن ابنه عبدالله بن عمرو صريح في أن ملأ قريش، وفيهم غميز الرجولية أبو جهل، أغرَوا أشقاهم عقبة بن أبي معيط بقتل النبي ﷺ، كما جاء صريحاً في قول عمرو بن العاص: (ما رأيت قريشاً أرادوا قتل النبي ﷺ إلا يوم أغروا به).

وفعل اللعين عقبة بن أبي مُعَيط فعلته الجارمة، وقام إلى النبي ﷺ

وخنقه خنقاً شديداً، كاد يقلب النهار ليلاً، والنور ظلاماً، لولا أن أسرع الله تعالى بأبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ بلغه الخبر الفظيع المفظع، فجاء يشتد وهو يبكي، فدفع عن رسول الله ﷺ، واشتبك مع ملأ الكفر والطغيان، فقال له النبي ﷺ: «دعهم يا أبا بكر، فوالذي نفسي بيده، إني بُعثت إليهم بالذبح». فأخذ ملأ قريش عن أنفسهم، وأصابهم ذهول واجم، ذهب بعقولهم لما سمعوا ما توعدهم به رسول الله ﷺ، وكان أشدهم فزعاً وأكثرهم رعباً رعديدهم غميز الرجولية أبا جهل، لتيقنهم من صدق محمد ﷺ، وأنه لا يقول قولاً إلا وقع تصديقه كما قال، وراح الجبن والخور، وسوء الانمياع تملي على الرعديد الفاجر كلمات الذلة، يتوجه بها إلى محمد ﷺ، يرفؤه، ويتملقه، ليخفف من إنذاره لهم وتوعده إياهم، بيوم يلقَون فيه التي لا شوى لها، فيقول غميز الرجولية وهو ينتفض رهبة من هول ما سمع وتمثل: يا محمد، ما كنتَ جهولاً، ويرد عليه محمد ﷺ في يقين شهود الغيب وكأنه واقع بهم، فيقول له: «أنت منهم». أي من المذبوحين بكفرهم وفجورهم، والله أعلم بما كان من هذا المتشاجع الكفور ساعة أن صكَّ أذنيه صوت الوعيد الذي خصه به الصادق المصدوق، محمد الأمين ﷺ بقوله: «أنت منهم».

فكيف يصح في ميزان عقل مستقيم، أو في ميزان الطبائع البشرية، بَلْه ميزان العدل والحق أن ينسب إلى النبي ﷺ أن يدعو ربه أن يعزّ دينه ويؤيده بأحد رجلين عُيِّنا باسميهما ووصفيهما، وأحدهما أخبث إنسان عرفته الحياة، وأسقط بشر في ميزان الرجولية وحمية الرجال، سداه ولحمته لؤم ومكر وكيد لدعوة الإسلام، والنبي ﷺ توعده بوعيد يقضي على احتمال إيمانه في مستقبل حياته؟.

هذا من أبعد ما يتصور وقوعه من النبي ﷺ، وهو المسدَّد بتوفيق الله الناطق بوحيه وإعلامه، وقد أخبر أن هذا اللعين أبا جهل ممَّن ختم الله على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

الوجه العاشر

العاشر ـ أن مما يلفت النظر في روايات ذكر الرجلين باسميهما أو

وصفيهما أن يعزّ الله الإسلام ويؤيده بأحدهما، أو بأحبهما إلى الله تعالى أن رواية زيد بن أسلم في حديث خبَّاب بن الأرت تعينِّ اليوم الذي دعا فيه رسول الله ﷺ بهذا الدعاء، فقد جاء في هذا الحديث أن عمر بن الخطاب لما وصل في قراءة الصحيفة التي وجدها عند أخته فاطمة بنت الخطاب، وزوجها ابن عمها سعيد بن زيد من سورة (طه) إلى قوله تعالى: ﴿ إنني أنا الله لا إلّه إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ قال: لا ينبغي لمن يقول هذا أن يعبد معه غيره، دُلُّوني على محمد - ﷺ - فخرج القوم الذين كانوا في بيت أخته من مخابئهم في البيت التي اختبئوا فيها فرقاً من عمر، وكان فيهم خبَّاب بن الأرت يُقرئهم، يتبادرون بالتكبير استبشاراً لما سمعوا عمر يقول ما يقول، ويسأل عن النبي ﷺ ليسلم بين يديه، ثم قالوا لعمر إظهاراً لفرحهم بهدايته: أبشر يا ابن الخطاب، فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الاثنين فقال: «اللهم أعزّ الإسلام بعمرو - أي أبي جهل - أو بعمر - أي ابن الخطاب» وإنا نرجو أن تكون دعوته لك، فأبشر.

وموضع لفت النظر في هذه الرواية أنها عينت يوم دعاء النبي ﷺ أن يعزّ الله الإسلام بأحد الرجلين، وأنها ذكرته باسمه في الأيام إذ قالت: دعا يوم الاثنين وهذا اليوم، يوم الاثنين في كلام الراوي لا يحتمل إلا يوم الاثنين من الأسبوع الذي دخل فيه عمر بن الخطاب بيت أخته وزوجها لينهنهها عن الذي بلغه من إسلامها، واتباعها لمحمد ﷺ، وهذا اليوم المعينّ لا يتعدّى أن يكون قد مضى عليه قبل إخبار الراوي عنه أكثر من ثلاثة أيام.

فمتى كان إذاً دعاء النبي ﷺ على ملأ قريش عامة وتوعدهم بالذبح وتخصيص أبي جهل منهم بأنه في المذبوحين المتوعدين بالهلاك على الكفر؟ المروي في أصحّ الصحيح؟.

هل كان هذا الدعاء وهذا التوعُّد، وهذا التعيين للخبيث أبي جهل بأنه في المذبوحين كافراً مخلّداً في جهنم بعد انصراف عمر بن الخطاب من بيت أخته وزوجها متوجهاً إلى رسول الله ﷺ ليسلم، وقد أسلم وأعلن إسلامه

وجهر به على الملأ، وفيهم اللعين غميز الرجولية أبو جهل مغيظاً مختنقاً من إسلام عمر رضي الله عنه؟

وهذا فرض غير معقول، لأنه بعد تحقق إسلام عمر بن الخطاب، وهو أحد الرجلين في رواية «اللهم أعزّ الإسلام بأحد الرجلين: عمرو بن هشام أو عمر بن الخطاب» لا يبقى معنى لهذا الدعاء والتوعد، مع الزعم أنه ﷺ دعا يوم الاثنين من أيام أسبوع الدعاء على الملأ وفيهم أبو جهل أن يعزّ الله الإسلام بأحد الرجلين، والمفروض أن أحدهما أسلم وأعلن إسلامه، والآخر مدعو عليه متوعد بالبقاء على الكفر، مذبوح به، أو كان هذا الدعاء والتوعُّد قبل إسلام عمر بن الخطاب، وهو قد أسلم غداة يوم الإثنين الذي وقع فيه الدعاء بإعزاز الإسلام بأحد الرجلين في زعم الرواية بذكرهما معاً بغير تعيين، وحينئذ لا يمكن أن يقع هذا الدعاء بإعزاز الإسلام وإدخال أبي جهل في معادلة مع عمر بن الخطاب، لأن الدعاء على أبي جهل بالذبح على الكفر قبل ذلك يخرجه من احتمال الإسلام بله إعزاز الإسلام به، لأنه مقطوع ببقائه على الكفر والعناد.

ويؤكد ذلك رواية ابن سعد في الطبقات عن عثمان بن الأرقم أن النبي ﷺ قال في دار الأرقم ليلة الإثنين: «اللهم أعزّ الإسلام بـأحب الرجلين إليك: عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام»، فجاء عمر بن الخطاب من الغد بكرة فأسلم في دار الأرقم.

وهذه الرواية تعين أن النبي ﷺ دعا أن يعزّ الله الإسلام بأحب الرجلين إليه كان ليلة الإثنين التي غدا عمر بن الخطاب في بكرتها إلى النبي ﷺ في دار الأرقم فأسلم بين يديه، وهي تفسر رواية خباب بن الأرت التي بشَّر فيها عمر بأن النبي ﷺ دعا يوم الإثنين أن يعز الله الإسلام بأحد الرجلين، فكأنه قال: دعا بالأمس لأن عمر غدا بكرتها إلى النبي ﷺ في دار الأرقم فأسلم.

وإذاً فلا يعقل أن يكون النبي ﷺ قد دعا على أبي جهل في ضمن دعائه على ملأ قريش، ثم خصَّصه بالوعيد فقال له: «أنت منهم» ثم يدعو

الله تعالى أن يعز بهذا اللعين المذبوح بكفره وعتوه أو بعمر بن الخطاب، أيهما غير معين الإسلام ويؤيده به، لأن دعاءه عليه وتوعده بالذبح على الكفر لا يلقى محلاً ولا يحقق غرضاً، بل هو غير جائز، لأن النبي ﷺ لا يمكن أن يدعو على إنسان بخصوصه دعاء يقتضي عقابه في الدنيا والآخرة، ويخبره بأنه سيكون في ضمن من بعث إليهم بالذبح على الكفر والعتو إلا إذا كان ﷺ واثقاً عن طريق الوحي أن ذلك الشخص المعين سيموت على كفره.

وإذا كان ذلك كذلك فأبو جهل يستحيل أن يكون ممن يحتمل أن يدخله رسول الله ﷺ في دعائه أن يعزّ الله الإسلام بأحد رجلين، ويجعله في ميزان مع عمر بن الخطاب الذي ما عكم أن سمع القرآن في بيت أخته، وقرأ آياته من صحيفتها التي كانت عندها حتى دخل الإيمان قلبه، فذهب من توِّه إلى النبي ﷺ فأسلم وجهر بإسلامه.

وهذا كله يصحح حديث عائشة رضي الله عنها في دعاء النبي ﷺ بقوله: «اللهم أعزَّ الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة» ويوهي رواية ذكر الرجلين في دعاء النبي ﷺ.

فالصحيح الثابت أن النبي ﷺ قال مناجياً ربه في ضراعة الإشفاق والرحمة لأصحابه وهو ﷺ يراهم يؤذَون معتصمين بالصبر الجميل، لا يدفعون عن أنفسهم: «اللهم أعزَّ الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة» وقد روى هذا الحديث ابن سيد الناس في «العيون» بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها مجرداً من ذكر القيد (خاصة) قال: «اللهم أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب».

وقد يبدو ذكر القيد (خاصة) في رواية من ذكره غريباً، ولعل حكمته - إذا صحت رواية ذكره - أن النبي ﷺ شعر بما يهجس في قلوب بعض أصحابه من الأماني والرغبات في أن الله تعالى يهدي لهم رجلاً ممن عرفتهم قريش بالشدة والبأس ولا سيما أولئك الذين يشتدون على المؤمنين، فأراد النبي ﷺ تقوية قلوب هذا البعض من أصحابه، فأعلن هذا الدعاء، وقيده بمن أعلمه الله به بالوحي، وأنه عمر بن الخطاب خاصة.

طلب إعزاز الدعوة بإسلام عمر

وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ، وألقى في قلب عمر الإيمان غداة إجابة دعاء النبي ﷺ فأسلم وأعزّ الله به الإسلام والمسلمين.

أخرج البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف منا القوم، وأنزل الله ﴿ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾.

وأخرج الطبراني وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أسلم مع النبي ﷺ تسعة وثلاثون رجلاً وامرأة، ثم إن عمر أسلم صاروا أربعين فأنزل الله ﴿ يا أيها النبي حَسْبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن المسيِّب، وسعيد بن جبير، قالا: لما أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً، وست نسوة، ثم أسلم عمر نزلت ﴿ يا أيها النبي حَسْبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾.

قال ابن كثير: وفي هذا نظر، لأن الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى الحبشة، وفي هذا النظر نظر، لأن مدنية الآية لم يذكر له ابن كثير سنداً يعتمد عليه، وكل ما يمكن التماسه لدعوى ابن كثير أن الآية من سورة الأنفال، والأنفال مدنية باتفاق، ولا يلزم من كون الآية تلاوة في سورة مدنية أن تكون الآية مدنية نزولاً، لأن مدنية السور ومكيتها باعتبار الغالب،

لا باعتبار جميع الآيات، وكثير من الآيات المدنية وضعت بالتوقيف في سور مكية، وكثير من الآيات المكية وضعت توقيفاً في سور مدنية، قال أبو القاسم القشيري: إن الآية ـ يا أيها النبي حَسْبك الله ـ مكية كتبت بأمر رسول الله ﷺ في سورة مدنية، وهذا الكلام أدق من كلام ابن كثير، لأن كلام القشيري يشعر بأنه ناقل وعنده سند نقله، إذ هذا الكلام بمعزل عن أن يقال بالرأي والاجتهاد.

عدد المسلمين يوم أسلم عمر بن الخطاب

وإسلام عمر كان بعد إسلام حمزة بأيام، وإسلام حمزة قديم، كان في مدة الاستسرار بالدعوة، والهجرة إلى الحبشة بدأت مبكرة قبل إسلام حمزة وعمر، وتعددت مرَّاتها.

وقصة عمر وهو على شركه مع أم عبدالله بنت حثمة، وهي تستعد إلى الهجرة مع زوجها تدل على أن إسلام عمر كان في مبتدئها، لأن عدد المسلمين قبل إسلام عمر كان يتراوح بين الثلاثين وكسرها، فلما أسلم عمر كمَّلهم أربعين. قال ابن إسحاق: أسلم عمر عقب الهجرة الأولى إلى الحبشة، وكان عدد من هاجر في هذه الهجرة الأولى عشرة رجال كما يقول ابن إسحاق، معهم أربع نسوة وخالفه ابن سيد الناس في «العيون» فجعل عددهم اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، قال: وكانت الهجرة إلى أرض الحبشة مرتين، فكان عدد المهاجرين في المرة الأولى اثني عشر رجلاً وأربع نسوة.

وتختلف الروايات في عدد المسلمين عند بدء الهجرة إلى الحبشة، وعند إسلام عمر، فرواية أنهم كانوا تسعة وثلاثين وكمَّلهم عمر أربعين، ذكرها ابن حجر في الفتح في ترجمة عمر، قال: روى ابن أبي خيثمة عن عمر قال: لقد رأيتني وما أسلم مع رسول الله ﷺ إلا تسعة وثلاثون، فكمَّلتهم أربعين، فأظهر الله دينه وأعزّ الإسلام.

قال العلماء: وهذا التقدير مرجعه إلى أن عمر إنما ذكر من عرفهم واطَّلع عليهم من المسلمين، وكان هناك عدد منهم لم يعرفه عمر ولا اطَّلع عليه، لأن غالب من أسلم في فترة استسرار الدعوة كان يخفي إسلامه، ثم إن عمر اقتصر في إخباره على الرجال، ولم يذكر النساء، لأنهن لا إعزاز للإسلام بهنّ

في مدة استسرار الدعوة، لضعفهن، والحرص على عدم ذكرهن، وتعريضهن للفتنة في دينهن.

وقد حدَّد ابن سعد في الطبقات عن سعيد بن المسيب الوقت الذي أسلم فيه عمر فقال: إن عمر أسلم في ذي الحجة سنة ستٍ من المبعث ـ أي من النبوة ـ وسنة اثنتين أو ثلاث من بدء الرسالة بعد حمزة بثلاثة أيام.

وقال القسطلاني في المواهب: وكان عدد المسلمين إذ ذاك ـ أي إذ أسلم عمر ـ بضعة وأربعين رجلاً. قال شارحه الزرقاني: وزادوا احدى عشرة امرأة، **وهذا قريب مما ذكره ابن سيِّد الناس في «العيون» فقد ذكر المؤمنين السابقين في مدة الاستسرار بالدعوة بأسمائهم وأنسابهم فقاربوا ستين شخصاً، ما بين رجل وامرأة.**

* * *

إسلام عمر يمثل خصائصه الذاتية

كان إسلام عمر بن الخطاب صورة لشخصيته، يمثل خصائصه النفسية والعقلية، والإرادية، كما يصورها تاريخ حياته، قوة، وشجاعة، وجرأة مقتحمة، وصراحة لا تعرف المداهنة، ولا المداورة، وإدراكاً مُلْهَماً، وفطنة ألمعية، ورجولية غلَّابة قاهرة.

فعمر رضي الله عنه قوي لا يسلم إلا إسلام الأقوياء، وعمر عبقري الإدراك فلا يسلم إلا إسلام العقل المفكر المستقيم، وعمر شجاع لا يسلم إسلام الجبناء الرعاديد، ولكنه يسلم إسلام ذوي الشجاعة الذين يعرفون لأنفسهم حقها في الكرامة والعزة، وعمر جريء لا يسلم إلا إسلام المقتحم الذي لا يهاب ما هناك من المخاطر، وعمر ألمعي الرأي، فلا يسلم إلا إسلام من شهد الحق بعقله وبصيرته فعرفه واهتدى إليه بنور تلك البصيرة وذلك العقل الدرَّاك المستقيم.

اختلاف سياق الروايات
في إسلام عمر

فلم يسلم عمر خوفاً ولا رَهَباً، ولم يسلم عمر طمعاً ولا رَغَباً، ولم يسلم تقليداً وتبعية، ولكنه أسلم مستقلاً حراً كريماً، فإسلام عمر إسلام إيمان وصدق، وقد تعددت الروايات في طريقة إسلامه.

روايات قصة إسلام عمر رضي الله عنه الرواية الأولى

١ ـ تقول بعض روايات بدء إسلام عمر ـ وهي من رواية ابن إسحاق: أنه خرج متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ، استجابة لتحريش قريش، وتذميرهم، وتطلعاً لسمعة الفتوة الجاهلية، أو طمعاً في جائزة أبي جهل التي جعلها لمن يقتل محمداً ﷺ، فلقيه في طريقه نعيم بن عبدالله النحَّام ـ وهو عَدَوي مثل عمر ـ.

بين نعيم وعمر

وكان نعيم يكتم إسلامه خوفاً من عمر وأمثاله من المتجبرين في قريش، فقال له: أين تريد يا عمر؟ ولا بد أن يكون نُعَيم قد قرأ في وجه عمر شيئاً جعله يسأل عمر عن وجهته، وأجاب عمر عن سؤال نُعَيم فقال: أريد محمداً، هذا الصابىء الذي فرَّق أمر قريش، وسفَّه أحلامها، وعاب دينها، وسبَّ آلهتها، فأقتله..

فقال نُعَيم: قد والله غرتك نفسك من نفسك يا عمر!! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال عمر: وأي أهل بيتي؟ قال نعيم: خَتَنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، واتَّبعا محمداً على دينه، فعليك بهما.

بين سعد بن أبي وقاص وعمر في طريق إسلام عمر

وفي رواية أن الذي لقيه في طريقه، وهو ماضٍ في عزيمته المظلمة سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه فقال له: أين تريد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمداً، قال سعد: أنت أحقر وأصغر من ذلك، فكيف تأمن بني هاشم وبني زهرة - عمومة النبي ﷺ وخؤولته؟ ومنهم سعد بن أبي وقاص - وقد قتلت محمداً؟ قال عمر لسعد: ما أراك إلا قد صبأت، وتركت دينك الذي أنت عليه، قال سعد: نعم، إني أشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، فسلّ عمر سيفه، وكشف سعد عن سيفه، وشدّ كل واحد منهما على الآخر حتى كادا أن يختلطا، فقال سعد: أفلا أدلّك على العجب يا عمر؟ إن أختك وختنك قد صبوا، وتركا دينك الذي أنت عليه.

التوفيق بين الروايتين

ولا تنافي بين الروايتين لاحتمال أن يكون نُعَيم وسعد لقياه في طريقه، واحداً بعد آخر، وهو يخطو إلى عزيمته السوداء، فأخبراه بخبر أخته وَخَتنه ليصدّاه عن قصده، وتصرف كل منهما بما في إهابه، فسعد أسد من أُسد الله، يعرف له عمر قدر شجاعته وفتوة شبابه، فكان بينهما ما كان من تصادم كاد يودي إلى اختلاطهما قتالاً بسيفيهما، ونُعيم أحد المؤمنين الصادقين في إيمانهم الذين كانوا يستخفون خوف الفتنة في دينهم، ومع ذلك فقد وقف موقفاً كريماً، لأنه رأى الأمر يتعلق بالنبي ﷺ، فهدد عمر، وأراه أنه مغرور بنفسه عن نفسه، وأن عشيرة محمد - وهي من هي - لا تتركه يمشي على الأرض إذا هو نال من محمد ﷺ نيلاً يؤذيه، فضلاً عن قتله.

فلما سمع عمر ما جبهه به نُعَيم وسعد عن إسلام أخته وخَتَنه أُخذ عن نفسه، وذُهل عن عزيمته، فخنس عنها، وعاد عامداً إلى أهل بيته الذين أسلموا من وراء ظهره، وهو مخمور بغفلة العنجهية الجاهلية.

ودخل على أخته وختنه، فقال لأخته: يا عدوّة نفسها؟! بلغني أنك صبوت، وأخذ بلحية ابن عمه ختنه فبطش به، وجلس على صدره، فجاءته أخته لتخلِّص زوجها منه فلطمها لطمة أدمت وجهها، فبكت، وقالت لهذا الجبار الباطش وهي معتصمة بقوة إيمانها: أتضربني يا عدو الله على أن أوحِّد

الله تعالى! لقد أسلمنا على رغم أنفك يا ابن الخطاب، فافعل ما كنت فاعلاً، فقد أسلمنا!!.

فارعوى عمر، وأخذ صحيفة كانت عند أخته وخَتَنه، فيها بعض سور من القرآن الكريم، آيات من أول سورة (الحديد)، وسورة (طه) وسورة (الحاقة) وسورة (التكوير)، فلما قرأ من القرآن ما قرأ ذهب عنه رجز الشيطان وفتح الله قلبه لنور الهداية، وقال: دلُّوني على محمد ـ ﷺ ـ حتى آتيه فأُسلم، فقالوا له: هو في بيت أسفل الصفا ـ دار الأرقم ـ معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، قيل: من هذا؟ قال: قلت: عمر بن الخطاب وقد عرفوا شدتي على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه، ولم يعلموا بإسلامي، فما اجترأ أحد منهم أن يفتح الباب، ونظر أحدهم من خلل الباب فرآه متوشحاً سيفه، ففزع ورجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هذا عمر ابن الخطاب متوشحاً سيفه، فقال حمزة: فأْذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: «إيذن له» فأذن له، ودخل وقد أخذ حمزة والزبير بضبعيه حتى أوقفاه بين يدي رسول الله ﷺ، فأخذ ﷺ بحجزته ثم جبذه جبذة شديدة، نتره بها نترة فما تمالك نفسه عمر أن وقع على ركبتيه وارتعدت فرائصه من هيبة رسول الله ﷺ، وقال له: «ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة» فقال عمر: يا رسول الله جئت لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف منها أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم، فكبَّروا جميعاً تكبيرة واحدة سمعت بطرق مكة.

قال ابن إسحق عقب هذه الرواية: فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم.

الرواية الثانية في قصة إسلام عمر

٢ ـ ثم ذكر ابن اسحق رواية المكِّيين عن إسلام عمر فقال: وحدثني عبدالله ابن أبي نجيح المكي عن أصحابه: عطاء ومجاهد أو عمن روى ذلك أن

إسلام عمر فيما تحدثوا به عنه أنه كان يقول: كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأشربها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحَزْوَرة، فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ذلك فجئتهم فلم أجد أحداً منهم فيه. . فقلت: فلو أني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين، فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي، وكان إذا صلَّى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلَّاه بين الركنين، الركن الأسود، والركن اليماني، فقلت حين رأيته: والله لو استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول، فقلت: لئن دنوتُ منه لأروعنه، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشي رويداً ورسول الله ﷺ قائم يصلي يقرأ القرآن حتى قمت في قبلته مستقبله ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة، فلما سمعت القرآن رقَّ قلبي له، فبكيت ودخلني الإسلام، فلم أزل قائمًا في مكاني ذلك حتى قضى رسول الله ﷺ صلاته ثم انصرف، فتبعته حتى أدركته، فلما سمع رسول الله ﷺ حسي عرفني، فظن رسول الله ﷺ أني إنما تبعته لأؤذيه، فنهمني ثم قال: «ما جاء بك يا ابن الخطاب؟» قلت: جئت لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله فحمد الله رسول الله ﷺ ثم قال: «قد هداك الله يا عمر» ثم مسح صدري ودعا لي بالثبات.

الرواية الثالثة

٣ ـ ذكر ابن سيد الناس في «العيون» بسنده عن أسلم مولى عمر قال: قال لنا عمر: أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامي؟ قلنا: نعم، قال: كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ، فبينا أنا في يوم حار شديد الحر بالهاجرة في بعض طرق مكة إذ لقيني رجل من بعض قريش، فقال لي: أين تذهب يا ابن الخطاب؟ أنت تزعم أنك هكذا، وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك، قلت: وماذاك؟ قال أختك قد صَبَت، فرجعت مغضباً، وقد كان رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلم عند الرجل به قوة فيكونان معه ويصيبان من طعامه، وقد ضم إلى زوج أختي رجلين، فجئت حتى قرعت الباب، فقيل: من هذا؟ قلت: عمر بن الخطاب، وكان القوم جلوساً يقرؤون صحيفة معهم، فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفَوا وتركوا أو

بين قوة الإيمان ومهانة الكفر ـ عمر وأخته فاطمة

نسوا الصحيفة من أيديهم، فقامت المرأة ففتحت لي، فقلت لها: يا عدوة نفسها قد بلغني أنك صَبَوت، قال عمر: فأرفع شيئاً في يدي فأضربها به، فسال الدم، فلما رأت الدم بكت، ثم قالت: يا ابن الخطاب: ما كنت فَاعلاً فافعل، فقد أسلمت، فدخلت وأنا مغضب فجلست على السرير، فنظرت فإذا بكتاب في ناحية البيت، فقلت: ما هذا الكتاب؟ أعطنيه، فقالت: لا أعطيكه، لست من أهله، أنت لا تغتسل من الجنابة، ولا تطهَّر، وهذا لا يمسه إلا المطهَّرون، فلم أزل بها حتى أعطتنيه فإذا فيه ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فلما مررت بالرحمن الرحيم ذُعرت ورميت الصحيفة من يدي، ثم رجعتْ إليّ نفسي، فإذا فيها ﴿ سبَّحَ لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ فكلما مررت باسم من أسماء الله عزّ وجلّ ذعرت، ثم ترجع إليّ نفسي، حتى بلغت ﴿ آمِنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلَفين فيه ﴾ حتى بلغ إلى قوله: ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ فقلت: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوا مني، وحمدوا لله عزّ وجلّ، ثم قالوا: يا ابن الخطاب أبشر، فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الاثنين فقال: «اللهم أعزَّ الإسلام بأحد الرجلين: إما أبو جهل بن هشام، وإما بعمر بن الخطاب» ـ وقد وَهَّينا هذا الحديث بهذه الصورة ـ وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك، فأبشر.

تنزل غيث الإيمان على قلب عمر

قال عمر: فلما أن عرفوا مني الصدق، قلت لهم: أخبروني بمكان رسول الله ﷺ، قالوا: هو في بيت في أسفل الصفا، ـ وصفوه ـ فخرجت حتى قرعت الباب، قيل: من هذا؟ قلت: ابن الخطاب، وعرفوا شدتي على رسول الله ﷺ، ولم يعلموا إسلامي، فما اجترأ أحد أن يفتح الباب، فقال رسول الله ﷺ: «افتحوا له فإن يرد الله به خيراً يهده» ففتحوا لي، وأخذ رجلان بعضدي حتى دنوت من النبي ﷺ، فقال: «فأرسلوه» فأرسلوني، فجلست بين يديه، فأخذ بمجمع قميصي فجبذني إليه، ثم قال: «أسلم يا ابن الخطاب، اللهم اهده» قلت: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأنك رسول الله، فكبَّر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة.

وقد كان الرجل إذا أسلم استخفى، ثم خرجت فكنت لا أشاء أن

أرى رجلاً إذا أسلم ضُرِب إلا رأيته، فلما رأيت ذلك قلت: لا أحب أن لا يصيبني ما يصيب المسلمين، فذهبت إلى خالي، وكان شريفاً فيهم، فقرعت الباب عليه، فقال: من هذا؟ قلت ابن الخطاب فخرج إليّ، فقلت: أشعرتَ أني قد صبوت، قال: نعم؟ قلت: نعم، قال: لا تفعل، قلت: بلى قد فعلت، قال: لا تفعل، فأجاف الباب دوني، وتركني، قلت: ما هذا بشيء، فخرجت حتى جئت رجلاً من عظماء قريش، فقرعت عليه الباب، قال: من هذا؟ قلت: عمر بن الخطاب، فخرج إليّ فقلت له: هل شعرت أني قد صبوت، فقال: أو فعلت؟ قلت: نعم، قال: فلا تفعل، قلت: قد فعلت، قال: لا تفعل، ثم قام فدخل فأجاف الباب دوني، فلما رأيت ذلك انصرفت، فقال لي رجل: تحب أن يعلم إسلامك؟ قلت: نعم، قال: فإذا جلس الناس في الحجر واجتمعوا أتيت فلاناً لرجل لم يكن يكتم السر فأصغ إليه، فقل له فيما بينك وبينه: إني قد صبوت، فإنه سوف يظهر عليك ذلك، ويصيح ويعلنه، فلما اجتمع الناس في الحِجْر جئت إلى الرجل فدنوت منه، فأصغيت إليه فيما بيني وبينه، فقلت: أعلمتَ أني قد صبوت، فقال: أصبوت؟ قلت: نعم، فرفع صوته بأعلاه قال: ألا إن ابن الخطاب قد صبأ. فما زال الناس يضربوني وأضربهم، فقال خالي: ما هذا؟ قيل: ابن الخطاب، فقام عليّ في الحجر، فأشار بكمه فقال: ألا إني قد أجرت ابن أختي فانكشف الناس عني، وكنت لا أشاء أن أرى أحداً من المسلمين يُضرب إلا رأيته وأنا لا أُضرب، فقلت: ما هذا بشيء حتى يصيبني ما يصيب المسلمين، فأمهلت حتى إذا جلس الناس في الحجر وصلت إلى خالي، فقلت: اسمع، فقال: ما أسمع؟ قلت: جوارك رد عليك فقال: لا تفعل يا ابن أختي، قلت: بلى هو ذاك، فقال: ما شئت، فما زلت أُضرب وأُضرب حتى أعزّ الله الإسلام.

شموخ الإيمان في مدارك عمر

أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعقله وقلبه وروحه ووجدانه، وملأ الإسلام جوانب نفسه، وملك عليه شعوره وحواسه، فلم يرض لنفسه ما رضيه جمهور إخوانه: المؤمنين السابقين من الاستسرار بإسلامهم، ولم يرضَ لنفسه أن يظفر بالعافية، يعيش بين أحضانها، وإخوانه في الإسلام ينالهم من الأذى والبلاء ما تنوء به قواهم، وترزح تحت نيره قُدَرهم، يسامون سوء العذاب، يُضْربون، ويُشتمون، ويَسْفه عليهم السفهاء، ويستهزىء بهم المستهزئون، وأبى عمر إلا أن يعلن عن إسلامه، ويجهر بإيمانه على سمع ملأ قريش في أنديتهم ومجالسهم وهو أعرف بعنجهيتهم وجبريتهم، ليصيبه ما يصيب إخوانه المسلمين الذين حبسهم الخوف في دار الأرقم مستخفين بإيمانهم اتقاء بطش قريش وظلمها، حتى يجعل الله لهم من ضيقهم فرجاً، ومن عسر الحياة يسراً ومخرجاً.

روى ابن إسحاق عن نافع، عن عبدالله بن عمر قال: لما أسلم عمر قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجُمَحي، فغدا عليه، وغدوت أتبع أثره، وأنظر ما يفعل، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت حتى جاءه فقال له: أعلمتَ يا جميل أني قد أسلمت، ودخلت في دين محمد - ﷺ - فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه، واتّبعه عمر، واتبعتُ أبي حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش - وهم في أنديتهم حول الكعبة - ألا إن ابن الخطاب قد صبأ، ويقول عمر خلفه: كذب، ولكني أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله،

فثاروا عليه، فما زال الناس يقاتلونه، ويقاتلهم حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وطلح عمر، فقعد، وقاموا على رأسه، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمئة رجل لقد تركناها لكم أو تتركوها لنا.

فبينما هم على ذلك إذْ أقبل شيخ من قريش عليه حُلّة حِبَرة، وقميص موشًى حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر، قال: فَمَه؟ رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون! أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم؟ هكذا، خلُّوا عن الرجل، فوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه.

وفي رواية ذكرها الزرقاني في شرح المواهب أن أبا جهل رأى الناس، وهم يضاربون عمر، فقال: ما هذا؟ قالوا: ابن الخطاب قد صبأ، فقام أبو جهل على الحجر فقال: ألا إني قد أجرت ابن أختي ـ وأم عمر حنتمة بنت هاشم بن المغيرة، بنت عمٍّ أبي جهل، فهي أخته منزلة ـ فانكشف عني القوم، فكنت لا أزال أرى مسلماً يُضرب ولا يَضربني أحد، فقلت ألا يصيبني ما يصيب المسلمين؟ فأمهلت حتى جلس الناس في الحجر، فجئت إلى خالي ـ أبي جهل ـ فقلت: إسمع، قال: ما أسمع؟ قلت: جوارك رد عليك، قال: لا تفعل يا ابن أختي، قلت: بل هو رد عليك، فقال: ما شئت فافعل، فما زلت أَضرِب ويضربوني حتى أعزّ الله الإسلام.

لقد نكأ عمر بن الخطاب جرح الشرك، وفقأ عين الوثنية بإعلان إسلامه، وردّ جوار رأس الكفر أبي جهل ورضي بجـوار الله تعالى، ليشارك إخوانه المؤمنين ما يلقَون من أذى في سبيل دينهم وعقيدتهم، وتجلبب قوة الإيمان، فَضُرب وضَرَبَ حتى أعيت به قريش، واستسلمت ذليلة أمام عزة الإيمان وقوته في نفس عمر رضي الله عنه.

إسلام عمر كان تمهيداً للجهر بالدعوة

وعمر رضي الله عنه ـ منذ أسلم ـ صاحب إلْهام، وموافقات، يراها بإلْهامه، فينزل القرآن بموافقته مصدِّقاً له فيما رأى توفيقاً من الله تعالى.

وتبدأ موافقات عمر، وتأتي طلائـع إلْهامـه وألمعيته، فيـذهب إلى النبي ﷺ ـ بعد أن جلس بإيمانه في كل مجلس جلس فيه بالكفر، فطأطأت قريش أعناقها لإسلامه، ولم تستطع أن تنال من إيمانه شيئاً ـ يقول: يا رسول

الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ فيقول له النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم، وإن حييتم» فيقول عمر: ففيمَ الخفاء يا رسول الله، ونحن على الحق، وهم على الباطل؟ ويقول النبي ﷺ إشفاقاً على أصحابه، وتهييجاً لعزائم أولي القوة منهم: «يا عمر إنا قليل، قد رأيتَ ما لقينا» ويقول عمر: والذي بعثك بالحق نبياً لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان.

وأَذِن الله تعالى لدعوة الإسلام أن تعلن عن نفسها، وأذن لرسولها ﷺ أن يجهر بها بعد أن تحققت حكمة الاستسرار بها، وبعد أن توافرت عوامل الجهر والإعلان، وأصبح المسلمون في قوة تمكنهم من الانتصاف لأنفسهم، فاستجاب رسول الله ﷺ لرغبة عمر في إظهار الدعوة والجهر بها، وأن ينادي الناس بأمره، وخرج رسول الله ﷺ ـ كما يقول عمر ـ في صفَّين من أصحابه، أنا في أحدهما، وحمزة في الآخر، ولنا كديد ككديد الطحين، حتى دخلنا المسجد، فنظرت إلينا قريش فأصابتهم كآبة لم تصبهم قط، ويومئذ سمَّى رسول الله ﷺ عمر (الفاروق).

ودخل الناس في دين الله أفراداً وجماعات، وفشا ذكر الإسلام بين الناس، وتحدثوا به في منازلهم وأنديتهم ومجالسهم، ومحافلهم، وأسواقهم ومواسمهم، وتمت كلمة الله، ومضت الرسالة الخالدة في سيرها تفتح القلوب، وتكافح أعداءها متدرِّعة بالصبر الجميل، وتنزّل نصر الله متدرجاً مع تدرج الوحي بالتشريع، حتى أكمل الله نعمته على عبده ورسوله وعلى المؤمنين.

نفحات الإعجاز في إسلام عمر

كان إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه نفحة من نفحات الإعجاز في رسالة محمد ﷺ، وكان آية من آيات الحكمة الربانية التي تُمسك بزمام هذه الرسالة الخاتمة الخالدة، فتوجهها في سيرها ثابتة الخطا، وطيدة الأركان، راسخة الدعائم قوية البناء.

وإسلام عمر رضي الله عنه كان إعجازاً متعدد الجوانب، نديَّ الرغائب، ثريّ الحقائق، يتمثل في استحالة نفسية عمر وطبيعته الجاهلية، وخصائصه الوثنية - في لحظة من لحظات الزمن التي تمر بها الحياة، فتحمل معها فيما تحمل من الأحداث الجسيم الخطير، الذي تعجز العقول عن تعليله، وإدراك أسبابه ودوافعه، فلا تملك إلا أن ترده إلى الغيب، وتحيله إلى الأقدار، كأثر من آثار سلطانها على الحياة، وقهرها لقوانينها الطبيعية، وسننها الاجتماعية المألوفة لعقول الناس ومشاهداتهم الحسية - إلى نفسية جديدة، لا تعرف عمر الجاهلية، ولا يعرفها، نفسية خُلِقت إبداعاً، فاستحالت غلظتها الجافية المتحجرة، إلى قوة إنسانية رحيمة حانية، واستحالت قسوتها العارمة إلى هداية وعدل، ينصر الضعفى، ويضمِّد جراحهم، ويعز الحق ويؤيده.

لمحات من حياة عمر في جاهليته

كان عمر في جاهليته رجلاً من فتيان قريش، مشبوب القوى، قوي الشكيمة، حديد العزيمة، مرهوب الجانب، رهيب السمعة، لا يرام ما وراء ظهره، ولا تعرك أذنه، يعيش عيشة الفتيان الأغرار، التي لا

تستهدف إلا سمعة داوية في الأسواق والمحافل، يتردد صداها خوفاً منه ورهبة له، غارقاً في وثنية متبلدة، وشرك وضيع، يتشاطر مفتوناً بالخمر وندمانها، لا يشغله في حياته شاغل غير نفسه وأهوائها، حياة فارغة إلا من تفاهات جاهلية، يستهويه التردد على الأسواق ليصارع الأشدة من أقرانه.

يقول ابن سعد في الطبقات: إن أبا التيَّاح حدث في مجلس أبي سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري فقال: لقي رجل راعياً فقال له: أشعرت أن ذلك الأعسر اليسر - يعني عمر بن الخطاب - قد أسلم؟ قال الراعي: الذي كان يصارع في سوق عكاظ؟! قال: نعم، قال: أما والله ليوسعنّهم خيراً أو ليوسعنّهم شراً، فلما جاء الله تعالى بالإسلام، وبعث نبيه محمداً ﷺ رسولاً إلى العباد، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويقيم لهم معالم الهداية، وينصب لهم على جوادّ الحياة منائر الحق والعدل، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم من غبش الوثنية والشرك، ليعرفوا ربهم عرفان صدق وإخلاص بتوحيده وإفراده بالعبادة والدعاء، ويعرفوا حق إنسانيتهم عليهم، فلا ينزلوا عن كرامتها لأحد من الخلق - كان عمر ابن الخطاب في طليعة المباعدين له، المشمِّرين عن سواعد الغرور والعنجهية لمناهضته، ومقاومة دعوته، فكان من أقسى الناس وأشدهم أذى لرسول الله ﷺ وأصحابه، كما أخبر عمر نفسه عن نفسه بذلك، فقد جاء في حديث مولاه أسلم قال: قال عمر: أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامي؟ قلنا: نعم، قال: كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ، وقال حينما ذهب إلى دار الأرقم ليسلم على يدي رسول الله ﷺ: فقرعت الباب، قيل من هذا؟ قلت: عمر بن الخطاب، وقد عرفوا شدَّتي على رسول الله ﷺ، ولم يعلموا بإسلامي.

وتقول أم عبدالله بنت أبي حثمة وهي تحدِّث عن عمر وقد أتاهم وهم يستعدون للهجرة إلى الحبشة: وكنا نلقى منه البلاء أذىً لنا، وشدَّة علينا، وتقول أم عبدالله. وقد حدثت زوجها عامر بن ربيعة عما رأته من رقة عمر لهم وهم على أهبة الهجرة، قال عامر: أطمعتِ في إسلامه؟

قالت: نعم، قال عامر: فلا يسلم هذا حتى يسلم حمار الخطاب، قالت أم عبدالله: يقول ذلك ـ أي زوجها عامر بن ربيعة ـ يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على أهل الإسلام.

وكتب السيرة تروي أن عمر كان ممن غمس يده قبل أن يسلم في تعذيب المستضعفين من المسلمين، قالوا: كانت له جارية رومية تدعى (زِنِّيرة) سبقته إلى الإسلام، فكان يعذبها، ويشتد في تعذيبها والقسوة عليها، حتى أفقدها بصرها، وكان يشاركه في تعذيبها طاغية الكفر أبو جهل، لترجع عن إسلامها فتأبى ـ وهي صابرة محتسبة ـ إلا الإسلام.

روى ابن المنذر عن عون بن أبي شدَّاد قال: كان لعمر أمة أسلمت قبله، يقال لها (زنِّيرة)، فكان يضربها على إسلامها حتى يفتر، وكان كفار قريش يقولون: لو كان ما أتى به محمد خيراً ما سبقتنا إليه (زِنِّيرة)، فأنزل الله في شأنها وشأنهم قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾[1].

وكان المشركون يقولون: ما أذهب بصرها إلا اللاَّت والعزّى، فتقول لهم (زِنِّيرة): هذا أمر من السماء وما يدري اللاَّت والعزَّى من يعبدهما، وربيّ قادر على أن يرد عليّ بصري، فردّ الله تعالى عليها بصرها.

و(زِنِّيرة) ممن أعتقهم أبو بكر الصديق رضي الله عنهم، بعد أن اشتراهم من الطغاة لينقذهم من أليم العذاب، ويذيقهم سعادة الحرية في ظل الإسلام.

وكأنما كانت هذه الغلظة القاسية مكبوتة في طبيعة عمر، لا يعبِّر عنها في حياته الجاهلية إلا تفتِّيه وتشطُّره في الأسواق والمحافل، وتخلقه بأخلاق الجاهلية التي كانوا يرونها شجاعة وأنفة.

تروي بعض كتب الأدب والتاريخ التي تحدثت عن رذيلة وأد البنات عند الجاهلية أن عمر في جاهليته كان ممن قارف هذه السيئة، فقد ذكروا

---

(١) سورة الأحقاف آية (١١).

أنه أخذ بنتاً له صغيرة، فأصحر بها متنائياً، وجعل يحفر لها ليدفنها حية، ويدسها في التراب، اتقاء عارها، وبينما هو يحفر لها، والطفلة إلى جانبه لا تدري ما يريد بها هذا الأب المتحجِّر القلب، إذا بشيء من غبار الحفير يتطاير إلى لحيته، فأخذت الطفلة مسوقة بعاطفة البنوة، وبراءة الطفولة تنفض عنه الغبار، وهو ماضٍ في عمله، لا تحركه إلا قسوة فقد معها حنان الأبوة ورحمة الطفولة، وعواطف الإنسانية.

ولم تكن هذه الأحداث الجاهلية لتشبع غريزة القسوة في طبعه ولا لتطفىء غلَّة تعطشه للبطش، ولا لترضي ميراثه المتحدر إليه من أبيه الخطاب وخؤولته المخزومية من أمثال أبي جهل.

وأقام عمر هو وأمثاله من شباب التفتي الوثني، والتشطر الجاهلي الكفور يترقبون الأحداث لينفثوا سموم غرائزهم، ويتنفسوا من أزمات الكبت الجاهلي، حتى جاء الإسلام بدعوته الهادية الرشيدة، التي كان أول طلائع أهدافها القضاء على كل أثر وثني، وهدم معالم الشرك بكل ألوانها، وأنواعها، وكل ما يتصل بها مبدأ ونهاية من رذائل وعادات وأخلاق، ونظم اجتماعية ظالمة.

ودلف إلى ساحة الإسلام إيماناً بدعوته، واعتناقاً لمبادىء رسالته عدد من شباب قريش وأبناء بيوتاتها ممن صفَت فطرهم، وزكَت عقولهم، فاستجابوا لدعوته، وآمنوا برسالته، واهتدَوا بهديه، ودخلوا مع رسول الله ﷺ دار الأرقم، أول دار اتخذها الإسلام داراً له، ومعهداً لدراساته وعلومه ومعارفه التي كانت تنزل على رسول الله ﷺ قرآناً يتلوه عليهم، ويبيِّن لهم طرائق هدايته..

ودخل معهم في ساحة الإيمان مسلمين، مهتدين بهُدى الله، مؤمنين برسالة نبيه محمد ﷺ، عدد من الأرقاء والمستضعفين ذوي القلوب الصافية من دغل الوثنيات وأرجاس الجاهلية، وذوي النفوس الصبورة على احتمال البلاء وشدة الأذى في سبيل إيمانهم وعقيدتهم، ممن أرمضهم الظلم الاجتماعي وشدخ يأفوخ إنسانيتهم طغيان الجاهلية، وبطش المتجبرين،

وبأو المستكبرين، وعتو أهل البغي والفجور، وصَلَف الكفر والجحود، وفسولة الشرك والوثنية.

قسوة عمر تَرَسُّب جاهلي موروث

وقسوة عمر بن الخطاب وغلظته في جاهليته التي عُرف بها بين قومه خاصة وفي قريش وغيرها بصفة عامة طبيعة موروثة، تحدرت إليه حتى ترسبت في نفسه من:

أولاً ـ عصبته وقومه بني عدي، الذين انبثق من دوحتهم فرعه في عمومته وخاصة بيته.

ثانياً ـ خؤولته بني مخزوم عامة، وآل المغيرة خاصة، لأن أمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة، بنت أخي الوليد بن المغيرة، وبنت عم أبي جهل ابن هشام بن المغيرة.

فعصبة عمر بنو عدي كانوا في الجاهلية أقل عدداً في بطون قريش من سائرهم، وكانوا أقل ثراء وأموالاً منهم، وكانوا أضعف قريش حركة في تقلبات تجاراتها، وكانوا من أبعد بيوتها عن تولِّي المناصب الهامة في الجاهلية ـ ولا سيما المناصب التي تتصل بالكعبة المشرفة والبيت المحرَّم، وزواره، والوافدين لحجِّه من أقاصي البلاد العربية وأدانيها، من كل ما يستوجب ألواناً من المكارم والكرم، والإنفاق في سبيل الفخر والشرف ـ ما أورثهم كبتاً مغيظاً، وحنقاً مشوباً بشيء من الحقد الخفي، والكراهية المتربصة.

ومن ثَمَّ كانت الشدة الجافية، والحدَّة القاسية، وجفوة الطبع، مظهر ذلك الكبت المحنق الذي ملأ صدورهم، ولم يجدوا له متنفساً إلا أن يجعلوا ذلك الدسيس في طباعهم تعويضاً خلفياً عما فاتهم من كثرة العدد، وأمجاد التقدم في طلائع قريش، والثراء الفاحش عند بعضهم، وحركات المضاربة في رحلات التجارة التي لم يكن فيها لبني عدي كبير شأن، ولا ذكر مشهور.

وكأنما قُصد قصداً أن يوسد إليهم منصب السفارة والمنافرة بين

قريش ومن يخاصمها وينافرها من قبائل العرب، ليكف ذلك المنصب (المتعقل) من حدَّة بني عدي، ويفل من جفوتهم، ويجعلهم في حرصهم على الفَلَج لقومهم في المنافرات، والظفر لهم في المفاخرات أهدأ بحجتهم، وأعقل في سباق مآثر قومهم.

وأقرب الناس في عصبة بني عدي إلى عمر، وألصقهم به، وأدناهم منه أبوه، الخطاب الذي تحدَّر منه إليه مباشرة ميراث القسوة وجفاوة الطبع.

وليس وراء وصف عمر نفسه لأبيه في ميراث القسوة والغلظة وصف يفوقه أو يتقدم عليه، فعمر نفسه يصف أباه فيما يرويه ابن سعد في الطبقات عن عبد الرحمن بن حاطب، قال: أقبلنا مع عمر قافلين من مكة، حتى إذا كنا بشعاب ضجنان وقف الناس، فقال عمر: لقد رأيتني في هذا المكان وأنا في إبل الخطاب ـ وكان فظاً غليظاً ـ احتطب عليها مرة واختبط لها أخرى، ثم أصبحت يضرب الناس بجانبي، ليس فوقي أحد.

وعن سليمان بن يسار أيضاً قال: مرّ عمر بن الخطاب بضَجْنان، فقال: لقد رأيتني وإني لأرعى على الخطاب في هذا المكان، وكان ـ أي أبوه الخطاب ـ والله ما علمت فظاً غليظاً، ثم أصبحت إلَى أمر أمة محمد ﷺ.

أما خؤولة عمر من بني مخزوم عامة، وآل المغيرة خاصة ـ وفي طليعتهم الوليد بن المغيرة، الكفور العنيد، وابن أخيه أبو جهل الفاجر الكنود، وكان عمر يتشارق بخؤولته تفاخراً به، وتباهياً ببأوه وعنجهيته ـ فكانوا أولي بأس وعدد، وقوة ومدد، وغرور وكبرياء، جفاة غلاظ الأكباد، تيَّاهين بأموالهم وعددهم ومكانتهم من قومهم، مستكبرين في الأرض بغير الحق، يلون في مناصب قريش ومفاخرها منصب الحرب، ومفخرة الفروسية، يزاحمون بني عبد مناف وينافسونهم في مفاخر الجاهلية ومآثرها، يتسابقون فيها تسابق المضمرات في حلبة السباق.

فلما جاء الله تعالى لبني عبد مناف عامة وبني هاشم خاصة بواحدة؛

جُدِع لها أنف الكبرياء والغرور من مخزوم، وأرغمت عرانين آل المغيرة، وأذلّت معاطسهم، ونكست جباههم، فاصطفى من بني عبد مناف ثم من بني هاشم خير من مشى على الأرض إنساناً، وأفضل من بعث إلى العباد رسولاً، محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم، ورَمِت لذلك أنف مخزوم، وانتفخ سحر غطاريفهم، وضرع عزهم، فشنِفوا لبني عبد مناف، واستزرعوا الحقد لهم في قلوبهم، وأرّثوا نيران الشنآن في صدورهم، فحملوا لواء العداوة والبغضاء لكل ما هو منافي، وتزعموا مناهضة الدعوة الإسلامية، ومقاومة الرسالة المحمدية، وكانوا بزعامة الكفور العنيد أبي جهل أعدى أعداء رسول الله ﷺ، وأشدهم إيذاء لأصحابه، فتذامروا مع كل من انضوى تحت لوائهم على الفتك بمن أسلم من رجالاتهم وشبابهم، وبمن اهتدى بهُدَى الله من الأرقاء والمستضعفين ليردوهم عن دينهم وعقيدتهم.

واستسرّ رسول الله ﷺ بدعوته، وهو ماض على أمر ربه، لا يرده عنه وعيد ولا إرهاب والدعوة تنمو وتزداد انتشاراً، والإسلام يفشو بين الناس، ويتحدثون به في مجالسهم، وكثر الداخلون في ساحته، وشعر غطاريف قريش، وأحلاس الشرك وعبيد الوثنية أن أرض مكة تميد تحت أقدامهم، وأنهم مهدَّدون في حياتهم الجاهلية، وهي مرجع ثرواتهم، ومصدر نفوذهم، ومربح تجارتهم، وأن سلطانهم على المستضعفين والمحرومين قد آذن بالانحسار، يرونه بأبصارهم يهوي إلى هاوية الدمار والفناء، وأن محمداً ﷺ سيقلب عليهم أوضاع الحياة، وأن دعوته ستذهب بنفوذهم وتقوض عروش غطرستهم، وتهدم مكانتهم، وتضعضع أقدارهم، وتعبث بهيبتهم، وأن رسالته ستجعل من العبيد والأرقاء سادة، ومن المغمورين طلائع وقادة، وأنها ستبخع بَأْوَهم وعنجهيتهم، وتذل كبرياءهم وتردهم عن غرورهم وتعاليهم إلى شرعة المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية، في ظل توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له وحده، والقضاء على الشرك بجميع أنواعه وضروبه وإزالة الفوارق الإنسانية في الحقوق والواجبات.

ضاقت الدنيا برؤوس البغي، وزعماء الشرك والوثنية، وسدّت في وجوههم منافذ الرأي لمقاومة محمد ﷺ ومناهضة دعوته، وعميت عليهم طرائق الوصول إلى صدّ تيار هذه الدعوة التي تزداد، وتنمو، ويزداد معتنقوها قوة وعدداً، بعد أن أفحمتهم حجتها، وفوّقت سهام براهينها إلى أباطيلهم وضلالاتهم الجاهلية، فنسفتها نسفاً؛ فأبلسوا حيارَى لا يدرون ما يفعلون، ودارت رؤوسهم فوق أعناقهم منكوسة التفكير، مرتكسة التدبير، كما تدور الرحى على الحصى، تسمع لها جعجعة ولا ترى لها طحناً، فلم يجدوا في كناناتهم بعد أن عجموا عيدانها المتكسرة إلا نصالاً من الوحشية الجاهلية المتعطشة للطغيان والفجور، فأخذ كل قوم منهم يتفننون في تعذيب من آمن بالله ورسوله من شبابهم وأرقّائهم، والمستضعفين من الرجال، فحبسوهم، وضيّقوا عليهم مسالك الحياة ليمنعوهم من الوصول إلى رسول الله ﷺ في دار الإسلام، دار الأرقم، ويحولوا بينهم وبين الاجتماع بإخوانهم المؤمنين ذوي المنعة والقوة الذاتية الذين لا تستطيع قوة البغي والضلال أن تنال منهم.

وأجاعوهم ليرغموهم على الكفر بدينهم دين الحق وعقيدتهم التي خالطت حلاوتها مشاعرهم وإحساساتهم، ومداركهم وامتزجت بدمائهم وأرواحهم، وأذاقوهم فادح البلاء وشديد الأذى، وصبُّوا عليهم ألوان التعذيب وساموهم سوء العذاب، فلم ينالوا من أحد منهم منالاً، بل كانوا في إيمانهم أثبت من شوامخ الرواسي، وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب فإنه لا يعزب عنها.

ورأى رسول الله ﷺ بتوفيق الله وتسديده، إشفاقاً على أصحابه، وإنقاذاً لهم مما يصيبهم من آلام وبلاء، لا طاقة لهم على احتماله، ولا طاقة لهم بدفعه أن يوجه أصحابه إلى الهجرة من هذا البلد الظالم أهله إلى حيث يأمنون على أنفسهم وعقيدتهم يعبدون ربهم مطمئنين، لا يستخفُّهم إرهاب ولا يستفزهم إيذاء وتعذيب، فقال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً

مما أنتم فيه». فخرج من تمكن من الخروج عند ذلك، مهاجرين إلى أرض الحبشة.

مكر خبيث وتدبير خاسر

فاستشاط غضب قريش واشتد حنقهم، وضاعفوا الأذى على من بقي من المسلمين، ولم يتمكن من الهجرة، وأملى عليهم الشيطان أخبث رغائبه، واستهواهم بأشنع وساوسه، وأرجاسه، وألقى إليهم أبشع مكايده وأسوأ تدبيره ومكره، وائتمروا بينهم أن يقتلوا محمداً - ﷺ - وتنادى ملؤهم بهذا النعيق الأشأم، وقالوا في هُجر وسُعُر: مَنْ رجل يقتل محمداً - ﷺ - فقال عمر بن الخطاب - وكان هذا أول وآخر مظهر له مع الملأ -: أنا له، فقال المتهاتفون في فرحة بلهاء: أنت له يا عمر.

روى أبو نعيم في الدلائل عن طلحة وعائشة رضي الله عنهما عن عمر قال: إن أبا جهل رصد لمن يقتل محمداً - ﷺ - مائة ناقة حمراء وسوداء، وألف أوقية من فضة، قال عمر - وكأنه استعظم هذا الجُعْل، وخشي أن يخيس أبو جهل بوعده به، وأراد عمر أن يوثق الأمر، ويؤكد الالتزام - يا أبا الحكم الضمان صحيح؟ قال أبو جهل: نعم، قال عمر: فخرجت متقلداً سيفي، متنكباً كنانتي، أريد رسول الله ﷺ.

ولم يكن عمر في خروجه هذا يرى في نفسه، ولا يتصور في شعوره وإحساسه إلا أنه يمشي تلبية لرغائب ملأ قريش وطغاتها، ليحقق أخطر ما مشى فيه فتى من فتيانها وأشجع شجعانها، إنه يمشي والشيطان يقوده كالجمل المخشوش ليحقق له ممثلاً في أشباح الملأ أعز آماله.

إنه يمشي ليقتل محمدبن عبدالله بن عبد المطلب الهاشمي المنافي، هذا الصابىء الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها، وأقلق بالها، وحرمها الاستقرار.

وكان قصارى عمر في هذا الممشى أن يفوز بدوي هذه الأحدوثة الفاجرة، تتحدث بها عنه قريش ومن ورائها سائر قبائل العرب في مضاربها ومحافلها وأسواقها ومواسمها، ويفوز بما عزّ عليه أن يملك مثله في جاهليته

من رصد أبي جهل وهبته السخية لمن يقتل محمداً ﷺ؛ وعندئذ يكون عمر قد فاز أيضاً بمقعد بين ملأ قريش إلى جانب الوليد بن المغيرة، وخاله أبي جهل، وابن أبي مُعَيط، وابني خَلَف، أمية وأبيّ، وغيرهم من غطارفة الشرك وعبيد الوثنية.

خرج عمر ـ كما تقول بعض الروايات ـ متقلداً سيفه ليضرب ضربته التي ستقعده هذا المقعد الذي لم يحلم به أحد من قومه بني عدي، ويعود إلى ملأ قريش منتفخ الأوداج، ملطَّخاً بدم أعز فتى في بني عبد مناف، وهم أسد الشرى، لا ينامون على ضيم ولا يعفِّر جباههم ذل الرضا بالدنية، ولن يسلمه ملأ قريش إلى هؤلاء الأباة الهاشميين المنافيين الذين لم تُغمز لهم قناة ولا خُضدت شوكة، ولا ريموا بسوء كِيدُوا به إلا دفعوه بحدٍّ سيوفهم وأسنة رماحهم.

هكذا كانت هواجس عمر في ممشاه هذا، ومن ورائه الملأ من أحلاس الكفر، وطغاة الوثنية، لا يملأ أدمغتهم إلا فتات متعفن من بقايا أشلاء جاهلية، تحفر قبرها بيدها، وهي تمشي إليه مجللة بالخزي والخذلان.

لم يكن عمر بن الخطاب في ممشاه هذا يعرف عن محمد ـ ﷺ ـ إلا أنه الصابىء، الذي فرَّق قريشاً، وها هي ذي قد جعلت الجعائل سخية في قتله، لتخلص إلى فجورها وشركها ووثنيتها، واستبدادها بالضعفاء والمحرومين من عباد الله المعذبين في الأرض.

ولم يكن يمر بخاطر عمر ساعتئذ، ولا خطر في خياله أنه في ممشاه هذا أذلُّ، وأقمأ من أن يستطيع إطفاء ضوء الشمس وهي مشرقة الضحوة بنفخة مصدورة من فيه.

ولم يكن يهجس في نفس عمر يومئذ أنه في ممشاه هذا أضعف وأخسأ من أن يستطيع الفتك بالحياة وهي متجددة في عنفوان قوتها وشبابها.

ولم يكن لعمر يومئذ نظرٌ يدرك به أنه في ممشاه هذا كان مفتون الغرور، يريد أن يخنق الخير وهو في براعمه، ويبدل نهار الحياة المشرق ليلاً

دامساً، ونور الحق ظلاماً حالك السواد، مغبّر الآفاق، تعوي فيه ذئاب الشياطين، ويملؤه عزيف المردة من أبالسة الأناسي، شاربي دماء البشر شراهة وآكلي أكبادهم ظلماً وبغياً وعدواناً.

ومضى عمر في وجهه متغضباً متجهماً، ولكنه لم يكد يمشي خطوات حجبته عن الملأ في مجالسهم ينتظرون النبأ العظيم، حتى لقيه أحد أبناء قومه بني عدي، نُعَيم بن عبدالله النحَّام، أحد السُّبق إلى الإسلام، فاستوقفه ـ وكأن نعيماً رأى في سمت عمر ومشيته القلق والاضطراب ـ سائلاً: أين تريد يا عمر، فقال عمر ـ وهو لا يعلم شيئاً عن سبق نعيم إلى الإسلام، وأنه يكلم منذ اللحظة الأولى جندياً من جنود الله الذين استجابوا لله ولرسوله، وملأ الإيمان برسالة محمد ﷺ قلوبهم، فكان أحبّ إليهم من أنفسهم وأبنائهم وآبائهم وأمهاتهم، يفدونه بأرواحهم وكل ما عزّ عندهم ـ أريد محمداً، هذا الصابىء، فأقتله. وضحكت الآفاق تهزأ بعمر وعزمته وسيفه، وكأنما سمع نُعَيم صدى سخرية الآفاق وهزئها بعمر في ممشاه وهو متقلّد سيفه ليقتل محمداً ﷺ، وكان نُعَيم يخفي إسلامه من قومه عامة وفرقاً من عمر بخاصة، ولكن صَوْلة الإيمان، وجسامة الخطب في ممشى عمر جعلا من نعيم أسداً من أُسْدِ الله، وضع حياته فداء لرسول الله ﷺ، فلم يأبه لسيف عمر، ولم يبال بتجهمه وعزمته الخائرة، فوقف في وجهه يجبهه ويزجره بما لم يكن في حسبان عمر، فقال له: لبئس الممشى مشيت يا عمر: ولقد والله غرَّتك نفسك من نفسك يا عمر، ففرطت، وأردت هلكة بني عدي، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض، وقد قتلت محمداً؟.

ولم يترك نعيم عمر يلتقط أنفاسه ويصحو من سكرة الغضب التي سقاه كأسها نعيم هذا الذي كان يفرق من عمر فرقاً يجعله لا يمر في طريق يمر به عمر، ولكنه بدهه بقاصمة الظهر التي تشغله عن غروره بنفسه وتعيده إلى صوابه، وتنسيه الملأ ووعودهم، وأبا جهل وجائزته، فقال له: أفلا ترجع إلى بيتك فتقيم أمرهم؟: : فقال عمر فزعاً، ولَّما يتم استفاقته من صدمة نُعَيم التي جبهه بها: وأي أهل بيتي؟ قال نعيم: ختنك وابن عمك سعيد ابن

زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما.

الإيمان يجدد الحياة في النفوس

سبحان الله!! ماذا صنع الإيمان بهذه النفوس الحبيسة في أرضها، بين شواهق الجبال المخيفة، والوديان القاحلة المقفرة من كل عيش وأمل، والمفاوز الممتدة في بؤس وجهالة، لا تعرف علماً، ولا تؤثر معرفة؟ وماذا يستطيع الإيمان بالحق أن يصنع بكل نفس خالطتها بشاشته، وامتزجت بها حقائقه؟.

إنه صنع ويصنع الإنسان، يجدد خلقه، ويعيده إلى ما في طبيعته الأصيلة من كمال بشري وقوة مهذبة، إنه صنع ويصنع في ظل رسالة محمد ﷺ الحياة الجادة، المستقيمة في صورة لا يعرفها تاريخها من قبل.

ليس في الأمر تخيُّل ولا مبالغة، ولكنه الواقع المشهود يملي حقائقه، لتسجل بالقلم عبرة وذكرى بعد أن آمنت الحياة بها إيماناً لا يداخله امتراء.

هذا نموذج من عمل الإيمان وأثره في النفوس التي لم تكن تحلم أن الأمل يناغيها في مهدها لتشب منه خلقاً آخر، يمسك بزمام الكون، فيوجهه مسخِّراً له إلى آفاق كان قبل هذا الإيمان أبعد ما يكون عنها، وهو تائه في بيداء الحياة، حيران يعيش منه من يعرف طعم العيش في ظل فلسفات وثنية مظلمة، يغلِّفها الغموض والإبهام، إلى آفاق الخير والهدى والنور والعدل والإصلاح، ومعرفة الله بجلال كمالاته وإشراق وحدانيته.

حقائق جديدة على هذه النفوس، ولكنها أصبحت هي خصائصها التي تحيا بها، وحياتها التي تنبع من داخل ضميرها فتجري فيه أنهراً، تسقي العقول والأرواح من نميرها، فتبدل بؤسها وشقاءها سعادة، وسخطها رضاً، وجهلها علماً ومعرفة، وخوفها أمناً، وظلمها عدلاً، وقسوتها رحمة، وتباغضها محبة، وتباعدها إخاء ومودة، وتفرقها تجمعاً ووحدة، يتواسى فيها الناس ويتراحمون.

نعيم بن عبدالله النحَّام العدوي رضي الله عنه ـ وهو رجل من بني

موقف نعيم النحام من عمر

عدي قوم عمر بن الخطاب، سبق إلى الإسلام فآمن بهدايته مع السابقين الأولين، وأخفى إيمانه وإسلامه فرقاً من بطش عمر، فتى فتيان قومه، ورعباً من قسوته الجاهلية وغلظته الوثنية على أهل الإسلام - يقف في وجه عمر إذ يراه متوشحاً سيفه، يمشي في عزيمة متجهمة، يطوي جوانحه على مستكنة من الكوارث قاصمة، وقارعة من القواصم مبيدة مدمرة، لا يبالي جبرية عمر وبطشه ولا يقيم وزناً لقسوته وغلظته، موقفاً يجبهه فيه، ويحقِّره أمام نفسه، بكل ما تعرف كلمة من تقريع وتحقير، ويريه في صراحة صارمة أنه في ممشاه هذا مغرور، مفتون، لا يعرف قدر نفسه.

فما هذا الذي أحال نعيماً الرجل المسلم الذي ظل مستخفياً بإسلامه رهبة ورعباً من عمر وقومه، حتى يقف من هذا العاتي الجبَّار، المغرور بنفسه هذا الموقف الذي يعنون شجاعة الأبطال في مواقف النضال؟.

إنه الإيمان، والإيمان فحسب، والإيمان ليس غير، الإيمان الذي بلغ من نُعَيم المسلم في لحظة لا تكاد تكون شيئاً في حساب الزمن، وسير الفلك، مبلغاً جعله يتصور في لمحة خيال طائر مفزع مرعب، أن عمر حقق عزيمته السوداء، وتصور نعيم مع خياله المزعج أن الحياة كلها أظلمت، فغارت نجومها، وأفل إلى غير عودة قمرها، وغابت إلى الأبد شمسها.

فمن عمر إذاً؟ وما جبريته وقسوته وبطشه؟ ومن نعيم وإسلامه؟ وما الحياة كلها في هذا الظلام الدامس؟ إنها الفناء الأبدي، والشقاء السرمدي، والعذاب الذي ليس فوقه عذاب.

وتجمعت عزائم الإيمان في قوتها فملأت جوانب نفس نعيم الرجل المسلم فحسب، فكانت فداء للنور والهدى، فداء لشمس الحياة محمد رسول الله ﷺ، واستحال نعيم المسلم المستخفي بإسلامه، الضعيف المستضعف قوة قاهرة، وشجاعة مزمجرة، أخذت بمجامع الجبرية الجاهلية في عمر ابن الخطاب فتى فتيان الوثنية ونترتها نترة جثا منها هذا العاتي الجبار المغرور بنفسه وفتوته، بين يدي نعيم المسلم الذي كان يُرْهبه عتو عمر في جاهليته، فيسأل

في ضراعة المخدوع عن نفسه وأهل بيته، فيقول: وأي أهل بيتي أسلم وتابع محمداً ـ ﷺ ـ على دينه؟.

وهنا بدأ الموقف يتغير بكل ما فيه من ملامح من مبتداه إلى منتهاه، فأخذت الحيرة التي فاجأت عمر بما لم يكن يمر بخلده، ولا يهجس به خاطره، فذهب عنه تجهمه، وسكن بعد تفزز، وهان بعد تعزز، ولان بعد تيبس، ونسي عزيمته السوداء، ونسي ملأ قريش وتحريشهم إياه، وتغريرهم به، ونسي وعد أبي جهل وجائزته، وذهبت فتوته شريدة في أودية الفناء، وذهب تشطّره مع أعاصير الصحراء، ولم يبقَ في تصوره الحائر المهزوز إلا أمر أهله الذين هزأوا به وافتاتوا عليه، وهو فتى فتيان بني عدي، ووقف أمام شكوكه حيران مذهولاً، يتساءل: أحقاً أن أحداً من أهل بيتي أسلم وتابع محمداً ﷺ على دينه؟.

وعاد نُعَيم هادئاً وادعاً، يظلله إيمانه بالسكينة وبرد اليقين، فهو إذْ يقول لعمر: لبئس الممشى مشيت يا عمر، ولقد والله غرتك نفسك من نفسك يا عمر... أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ـ ليفلَّ من حدّه، ويكفكف من نزوته، ويصده عن غايته، وقد أفلح نعيم وكان ملهماً، فنكص عمر على عقبيه، وارتد راجعاً إلى بيت ختنه وأخته ـ يقول له بلسان الحياة كلها: أأنت يا عمر، وكل مؤهلاتك في دنيا الناس، غرور مفتون، وسيف مثلوم، وتشطّر جاهلي، وتسكع في الأسواق تصارع وتتفتّى، تستطيع أن تطفىء ضوء الشمس المشرقة في ضحوة النهار بنفخة من أنفك أو فيك؟.

وأين تقع أنت وقومك عمومة وخؤولة، وقريشك بملئها وأبي جهلها، والدنيا ومن فيها وما فيها من محمد رسول الله ﷺ، وهو جالس في دار الإسلام، دار الأرقم مع قلة من أصحابه الذين اهتدوا بهديه وآمنوا بدعوته وصدقوا برسالته، واتبعوه على دينه، يتدارسون معه كلمة الله التي سيملكون بها الدنيا (لا إلَه إلا الله محمد رسول الله).

واستخذى صلف الجاهلية في نفس عمر أمام موقف نعيم وقوة إيمانه

وشجاعته، وارتد عامداً إلى بيت أخته وختنه، ليكشف ما عمي عليه، ويعرف حقيقة ما أُنبىء به.

سعد بن أبي وقاص وموقفه من عمر

ولكن نوازل الأحداث لم تتركه يمضي في طريقه، بل لاحقته بموقف قد يكون أقسى عليه وأبلغ أثراً في نفسه من موقف نعيم، فروايات هذه القصة التي تلاحق عمر في مخرجه المجلل بالظلام، ليقترف أخطر جرائم الإفساد في الأرض، بما طوى عليه صدره تأثراً بالإغراء الوحشي الذي تفقَّأ عنه الحقد الجاهلي الأسود، لا تقف عند لقاء نُعَيم وحديثه معه، حديثاً سدَّ عليه منافذ الرأي، وصدّه عما كان يريد أن يفعل من الإثم الذي وجهه إليه ملأ الفجور من أحلاس الشرك المهين، وعبيد الوثنية المتبلِّدة.

ولكنها تحكي قصة لقاء آخر مع شخصية أخرى، كان حديثها أعنف وأمرّ، ووقعه أشد وأقسى على نفس عمر من حديث نعيم، ولا يبعد أن يتعدد لقاء عمر بأكثر من شخص واحد من المؤمنين، لقاء متقارب الزمن، وهو في طريقه إلى عزمته الجارمة، فيجري ما يجري من حديث، ربما لا يدري صاحبه ما سبق حديثه من حديث وحَدَث، لعبت فيه المصادفة دورها المقدور، وربما كان هناك ترتيب لهذه اللقاءات من جانب المؤمنين الذين كانوا لا ينامون على غرة، يحذرون كيد المشركين وخبيث مكرهم، ويعلمون ما يبيتون من أمر يريدون به الوقيعة بالمسلمين.

كل ذلك محتمل الوقوع، وقرائن القصة لا تقطع بنفي ولا إثبات في طريقة هذه اللقاءات التي تثبتها الروايات، ويظهر أن لقاء نعيم بعمر وما جرى بينهما من حديث، أدار رأس عمر، وهزّ كيانه، كان أسبق في لحظات الزمن من اللقاء الآخر الذي جرى فيه حديث أشبه في موضوعه وآثاره بحديث نعيم.

وكان عمر ساعة هذا اللقاء الثاني لا يزال في غمرة المفاجأة من لقاء نعيم وحديثه معه، مأخوذاً عن نفسه يترجَّح بين الشك الحائر، والظن المتربِّص، تدفعه اللهفة على تحقيق آماله في إغراء ملأ قريش، وجائزة أبي جهل، ويمسك به الأسف الممض على ضياع ثمرة هذا الإغراء الخبيث من

سمعة جاهلية داوية، وتأثّل مال، لم يكن يحلم به عمر في مرائيه وتخيلاته.

كان هذا اللقاء مع الأسد الخادر في عرينه، بطل بني زهرة، أخوال رسول الله ﷺ، سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ويشعر سعد بفطنته ـ أو بما ترامى إليه من أنباء ممشى عمر ـ بما يدور في نفس عمر من وراء تجهمه، واحتقان وجهه بالغضب الثائر، وفي عنقه سيفه، وفي قلبه نار تتقد، وقد عرفت شدته على رسول الله ﷺ، وعلى أصحابه، فيقول له سعد: أين تريد يا عمر؟ فيقول عمر في هوج عارم من الغرور الجاهلي: أريد أن أقتل محمداً!! ويعاجله سعد في شجاعة وبأس، وذَرَب لسان أحد من سيف عمر، ليطامن من غطرسته، ويكسر حدة غروره، وسعد ـ إلى جانب قوة إيمانه ـ خال رسول الله ﷺ فيقول له: أنت أحقر وأصغر من ذلك!!.

ولم يشأ سعد أن يتسامى بإسلامه وقوة إيمانه فوق عقلية عمر الجاهلية، التي كانت تقوده إلى عزيمته الجارمة السوداء، وكأن سعداً استحضر في نفسه وهو يرد على عمر أن هذه المرحلة التي تمر بها دعوة الإسلام في استسرارها وتخفِّيها ليست مرحلة إثارة، فأراد أن ينهنه غروره، فنزل إلى منحدر تفكيره الجاهلي المتعزِّز بالعصبيات القبلية، فقال له: كيف تأمن بني هاشم ـ عمومة رسول الله ﷺ ـ وبني زهرة ـ خؤولة رسول الله ﷺ، وأسدهم الهصور سعد الذي يكلمه منذ اليوم ـ وقد قتلتَ محمداً؟.

وضاق عمر بهذه المجابهة، فقال لسعد: ما أراك إلا قد صبأت، وتركت دينك الذي أنت عليه، فقال سعد في صراحة الأبطال: نعم، إني أشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله، فاستهوج عمر وسل سيفه مرعداً مزبداً، يظن أن سعداً كأحد المستضعفين الذين يتخذهم الطغاة مظهراً لجبروتهم، وإذا به يرى سعداً قد كشف عن سيفه، سعد يهاجمه ليوغر صدره، فيقول له: أفلا أدلك على العجب يا عمر؟ إن أختك وختنك قد صبوا وتركا دينك الذي أنت عليه.

وسعد رضي الله عنه يعلم أن عمر وسيفه على عاتقه، وهو يمضي لعزيمته المتهاوية لن يستطيع ولو كانت الدنيا بحذافيرها تحمل معه سيفه أن

يوقف جري الأفلاك في مداراتها، ولا أن يعوق الأقدار وهي تمضي في قضائها، ولا أن يطاول النجوم في مواقعها، ولا أن يحوِّل مجرى أنهار الحياة، وهي تصب نميرها في أودية الهداية وينابيع الإيمان نوراً وشفاء إلى مستنقعات الوثنية الوبيئة بأخطر أمراض الحياة وأسقامها.

ولكن سعداً رضي الله عنه أراد أن يري عمر ومن وراءه من حثالات الفُتات الإنساني المتعفن، ممثَّلين في ملأ الفجور والكفر أن أمر محمد ﷺ لا يطاول ولا ينال لأنه نبع السماء، يدخل على الناس بهدايته كل مدخل، ويلج إليهم كل متولج، تحمله إليهم نسائم الإيمان، فإذا استطعموه وجدوا في حلاوته أنفسهم الشاردة، تعود إليهم صافية مطهَّرة، فليذهب عمر بسيفه إلى أهل بيته ليجد عندهم ذكر محمد ﷺ، وذكر دعوته الرشيدة الراشدة، وذكر رسالته الخاتمة الخالدة، وذكر كتابه وما أنزل إليه من النور والهدى والحق، مسطوراً بدموعهم على صفحات من النور إيماناً وهدى، ومعرفة بالله الواحد الأحد ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾.

وعمر لا يعرف، كيف وأنًى، ومتى خلص هذا النور الهادىء الوديع إلى بيت أهله، فأحالهم إلى حقائقه الإيمانية رحمة وهدى؟ وذهب عمر من وجه محدثه سعد بن أبي وقاص وهو يتفصَّد غضباً، مخموراً بغروره الجاهلي، كأنما يطأ على جمر الغضا، ويمشي على شوك السعدان، وهو لا يدري ماذا أريد به، أو ماذا أريد له في غيب المقادير.

سبحان الله اللطيف لما يشاء!! هكذا في لحظة أشبه بنقطة نهاية الخط المستقيم تتحول النفس الإنسانية من النقيض إلى النقيض، وهكذا تتبدل الأفكار والعقول والقلوب والأرواح، والخصائص، والطبائع والترسبات الموروثة في لحظة ليس لها في حساب الزمن تقدير، من جاهلية شريرة، لا تعرف للخير معنى، ولا تتذوق له طعماً، إلى أفكار وعقول، وأرواح، وقلوب، وخصائص، وطبائع، مهدية، هادية، راشدة مرشدة، صالحة مصلحة، مؤمنة، مسلمة، خيِّرة برة، داعية إلى الله، عارفة بجلاله، عالمة بقهره وسلطانه، مستسلمة لأمره وحكمه، مصنوعة من عدله ورحمته.

بلى، كذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حياته بداية ونهاية، ومن هنا كان إسلام عمر رضي الله عنه نفحة من نفحات الإعجاز في رسالة محمد ﷺ.

عفواً، عفواً، أبا حفص، فلتغفر للقلم صولته في تصوير حقيقة تاريخية كانت.

وهنيئاً، هنيئاً، فاروق الإسلام، وعبقري الدنيا، ثاني اثنين ـ بعد رسول الله ﷺ ـ في دنيا الإيمان والعدل والهدى والخير، والإصلاح القائم على الحق، وإقامة الحياة على منهاج رسالة محمد ﷺ في صورة حية متحركة مع الناس والأشياء، كأنها هي في معانيها وحقائقها.

ولتسمح للقلم يسجد بين يديك متطامناً لعظمتك التي أبدعك عليها الإسلام بقوة دفعه، ونشّأك عليها محمد ﷺ في هديه، ودلِّه، وسمته، وخُلقه، وعمله، فكنت المثل المضروب للسمو الإنساني المكسوب إلهاماً وعلماً، وعملاً، وهدياً، ودلاً، وسمتاً، وخُلُقاً، وقوة في الحق، وعبقرية في الرأي والعدل.

الإيمان أقوى من عتو الجاهلية

قال عمر يحدِّث عن تصرفه وما لقيه إذ وصل إلى بيت أخته فاطمة بنت الخطاب، فدخل عليها بوجه، وخرج عنها بوجه غير الوجه الذي دخل به: فجئت فقرعت الباب، فقيل: من هذا؟ قلت: ابن الخطاب، وكان القوم جلوساً ـ فيهم مقرئهم، خباب بن الأرت ـ يقرؤون صحيفة معهم، فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفوا فقامت المرأة ففتحت لي، فدخلت عليها، فقلت لها: يا عدوَّة نفسها، قد بلغني عنك أنك صبوت ثم ضربتها، وجاء زوجها سعيد بن زيد فبطش عمر بلحيته وضرب به الأرض، وجلس على صدره، فجاءته أخته لتكفه عن زوجها، فلطمها لطمة شجَّ بها وجهها حتى سال دمها، فبكت، بَيْد أنها استحالت قوة من الإيمان لا ترهب شيئاً من صنوف البلاء والأذى، وقالت لهذا الباطش الجبار: أتضربني يا عدو الله على أن أوحِّد الله؟ لقد أسلمنا على رغم أنفك يا ابن الخطاب، فافعل ما كنت فاعلاً.

قال عمر: ودخلت وأنا مغضب، وجلست على السرير، ونظرت فإذا كتاب في ناحية البيت، فقلت: ما هذا الكتاب؟ أعطنيه، فقالت: لا أعطيكه، لست من أهله، أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تتطهَّر، وهذا لا يمسه إلَّا المطهَّرون.

* * *

في هذا الإطار كانت صورة عمر بن الخطاب في جاهليته، وهي صورة تمثل خصائصه العربية الجاهلية تمثيلاً لا يفوته خط من الخطوط الأصيلة. في صورته التي كان يعيش بها في بيئته الخاصة بين قبيلته بني عدي في بيت أبيه الخطاب، يرعى عليه إبله، فيسومه سوء غلظته وقسوته، وفي بيئته العامة بين بطون قريش، ومجتمعات العرب في مواسم أسواقهم ومحافلهم.

فهو في هذه الصورة فتى بني عدي، يرثها في خصائصها الاجتماعية ويمثلها بين فتيان قريش وشبابهم فتوّة وتشطُّراً، ومغالبة للأقران، يصارعهم فيصرعهم، وينادم على الخمر فلا تفوته مجالسها، ويسارع إلى مفاخر الجاهلية ومفاتنها فيتجلببها ولو كانت من أرذل رذائل الإنسانية، يطنّ في أذنه أن بعض غطاريف العرب يئد البنات خيفة العار فيئدهن عمر مفاخرة وطموحاً للسيادة الجاهلية.

يرى القسوة والغلظة والجفوة في طباع قومه بني عدي تغطي ما فاتهم من مفاخر قريش ومناصبها فيدَّرعها طبيعة وخُلقاً، فينشأ قاسياً، فظاً، غليظ الطبع، شديد الجفوة، يخافه الناس، ويرهبه الضعفى اتقاء بطشه، ويساور الأقوياء تعابثاً وتفتِّياً، لا يُرى إلا متجهماً غضوباً، لم تعرف الابتسامة وجهه.

ويرث من خؤولته بني مخزوم عامَّة وآل المغيرة خاصة صلفهم وغرورهم، ويتخذ من خبيثهم أبي جهل مظهراً لخؤولتهم له، وفي آل المغيرة غير أبي جهل فتية سادة، وأبطال قادة، عرفت لهم قريش مكانتهم بين فتيتها وشبابها، ووسدت إليهم بعض أمرها، فلم يتخذ عمر منهم مظهراً لخؤولتهم له، ينتسب إليهم، كما اتخذ من أبي جهل مظهراً لهذه الخؤولة، لأن الآخرين

لم يكونوا في صلف أبي جهل، وتفكك طبيعته، وبأوه، واستكباره وتعاليه تصنّعاً، يتظاهر بالصنيعة، يبتغي من ورائها السمعة والقالة، تطلعاً إلى زعامة بين ملأ قريش، يشاركهم أحاديثهم وأسمارهم في مجالسهم وأنديتهم حول البيت حتى أدخلوه في مشوراتهم وسائر ما ينوبهم من أحداث.

فأراد عمر أن يضاهئه ويجري على شوطه، لأنه وجد في طباعه وخصائصه ما يرضي طموحه الجاهلي ويعوضه عما فات قومه بني عدي من المكانة المرموقة في قريش ومناصبها الجاهلية.

وجاء الإسلام فكان المخزوميون، ولا سيما آل المغيرة منهم ألد أعدائه، يبغونه الغوائل ويتربصون به الدوائر، وكانوا أشد قريش إيذاء لرسول الله ﷺ وأصحابه، وكان أخبثهم لدداً وحقداً أبا جهل، لأن الإسلام جدع أنف كبريائه، وبخع طموحه، وقضى على منافسة قومه في المكارم لبني عبد مناف عامة، وبني هاشم خاصة، وقال كلمته المعبِّرة عن حقده على الإسلام ورسوله محمد ﷺ، وهو يحاور الأخنس بن شَريق، بعد أن استمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف... حتى إذا تحاذَينا بالركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منّا نبيٌ يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدِّقه.

ومن هذه الوراثة، وهذه المضاهأة كان عمر بن الخطاب في طليعة المباعدين للإسلام وكان من أشد الناس أذىً لرسول الله ﷺ، وأقساهم على أصحابه، فإذا انتهض الخبيث أبو جهل ليصب جام حقده على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه بكل ما يملك من وسائل الإيذاء، فلينهض عمر ابن أخته مضاهئاً لخاله، فيصب جام قسوته على المسلمين.

ويسمع عمر ملأ قريش، وفيهم خاله أبو جهل يقولون في ناديهم: مَنْ لمحمد يقتله؟ فيهتبلها عمر فرصة يكتسب بها مقعداً من مقاعد الزعامة الجاهلية، فيقول: أنا له، ويهش الأخابث لهذا الغرور الأبله فيقولون له ليضاعفوا من غروره: نعم، أنت له يا عمر، ويزيد خاله أبو جهل إغراء

وتغريراً، فيقول: ومائة ناقة حمراء، وألف أوقية فضة.

ويتوشح عمر سيفه، ويخرج يمشي لعزيمته السوداء، ويلقاه نعيم ابن عبدالله النحام العدوي، ثم سعد بن أبي وقاص الزهري، فيسخران منه سخرية كانت نقطة تحول في حياة عمر، لأنها أصابت مقاتل غروره، إذْ أخبراه بأن الإسلام ومتابعة محمد ﷺ قد دخل عليه بيته، وهو غافل لا يدري، ويعدل عمر إلى بيت أخته فاطمة بنت الخطاب، ويدخل متوعداً، مهدداً، يرغي ويزبد، يصب البقية الباقية في إهابه الجاهلي من مخلّفات ميراثه من الخطاب ومضاهاته لخاله أبي جهل قسوة وغلظة على أخته الضعيفة، فيلطمها لطمة شج بها وجهها فأدماه، وعلى زوجها ابن عمه سعيد بن زيد، فيبطش به، ويجلس على صدره، وتدرك المرأة وزوجها صولة الإيمان، وتملأ قلبيهما حلاوة الفداء في سبيل عقيدتهما، فيقولان لعمر: وهو في قسوته وتجهمه وجبريته: لقد أسلمنا على رغم أنفك يا ابن الخطاب، فاصنع ما أنت صانع.

تضاؤل العتو الجاهلي أمام قوة الإيمان

وهنا يتضاءل غرور عمر وبطشه، مستخذياً مخذولاً، ويفر عنه شيطانه، ويبقى عمر الإنسان وحده مجرداً إلا من عقله الأصيل، وقلبه العقول، وفطرته المطهرة، ويجلس عمر وقد ذهبت عنه خنزوانية الغضب، ويبصر في جلسته كتاباً أو صحيفة في ناحية من البيت، ويطلب إلى أخته أن تعطيه الكتاب أو الصحيفة فتأبى عليه، وتقول له: لا أعطيكها، وهنا تقع المعجزة بكل خصائصها العقلية والروحية والمادية، إذْ يقول عمر لأخته: ويحك! وقع في قلبي مما قلت، فأعطنيها أنظر إليها، وأعطيك من المواثيق أن لا أخونك حتى تحوذيها حيث شئت.

لقد تبدَّل الموقف، فخنع الجبَّار، واستبسل الإيمان، في إهاب امرأة ضعيفة، كانت إلى لحظة تبكي، لأن أخاها الذي دخل عليها متسربلاً غلظة الجاهلية، نفحها نفحة دمَّى بها وجهها، وليس لها ذنب إلا أنها وحَّدت الله تعالى وتركت عبادة الأصنام، وقالت فاطمة لأخيها وهو يتضرع إليها أن تعطيه الصحيفة: إنك رجس، لا تغتسل من الجنابة، فانطلق واغتسل وتطهَّر، فإنه كتاب لا يمسه إلا المطهَّرون، وخرج عمر طائعاً ليغتسل لأن الإيمان وقع في

قلبه، ويخرج خبَّاب بن الأرت من مخبئه، ويقول منكراً على تلميذته: أتدفعين كتاب الله إلى كافر؟ فترد التلميذة المتفقهة المتشرعة على معلِّمها ومقرئها: نعم، إني أرجو أن يهديَ الله أخي، ألم يقل عمر لأخته: قد وقع في قلبي مما قلت، فما الذي وقع في قلبه مما قالت؟ إنه الإيمان، ولكن خبَّاباً رضي الله عنه لم يسمع هذا من عمر، فأنكر على تلميذته أن تعرض كتاب الله للوقوع في يد كافر، ولكن تلميذته فاطمة بنت الخطاب رأت ـ ومن حقها أن ترى في فقه الإيمان والدين، والدعوة إلى الله، وهي ترجو أن يهديَ الله أخاها إلى الإيمان وقد سمعت منه ما أطمعها في إيمانه ـ أن تعطيه الصحيفة ليقرأ ما فيها من آيات القرآن.

وعمر ـ على ما كان عليه في جاهليته ـ لَّماح العقل، عبقري المدارك، أحوذي الفكر، ألمعي الرأي، لا تعزب عنه هداية القرآن، إذا قرعت آياته قلبه، ويعود عمر بعد تطهره واغتساله، وتعطيه أخته الصحيفة، ويقرأ ما فيها ـ وكان عمر قارئاً كاتباً ـ فإذا في الصحيفة: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يقول عمر: فلما مررت بالرحمن الرحيم ذُعِرت ورميت بالصحيفة من يدي، ثم رَجَعت إليّ نفسي، وأخذت الصحيفة، فإذا فيها ـ كما تقول هذه الرواية ـ ﴿سَبَّح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ فكلما مررت باسم من أسماء الله تعالى ذُعِرت، وجعل عمر يستعيد إليه نفسه، ويقرأ ﴿له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم * هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير * له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور * يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور، آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلَفين فيه، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير. . وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين﴾[1].

(١) ثمان آيات من أول سورة (الحديد).

هكذا جاءت هذه الآيات من أول سورة الحديد في قصة إسلام عمر من رواية أسلم مولى عمر في مواهب القسطلاني وشارحها الزرقاني الذي أسند شيئاً منها إلى البزَّار، نقلاً عن روض السهيلي.

وفي رواية ابن عساكر، وأبي نُعيم عن ابـن عباس، عن عمر، وفي رواية الدارقطني عن أنس عن عمر، أنه قال لأخته ومن معها: أرني هذا الكتاب، فقالت: ﴿لا يمسُّه إلا المطهَّرون﴾ فقمت فاغتسلت، فأخرجوا لي صحيفة فيها ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى * تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العُلى * الرحمن على العرش استوى * له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لاإلّه إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾[1] فعظُمَتْ في نفسي، وقلت: مِنْ هذا فَرَّت قريش، فأسلمت.

قال الزرقاني في شرح المواهب: وفي الصفوة: فلما بلغ ـ أي عمر ـ قوله تعالى: ﴿ إنني أنا الله لا إلّه إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾[2] قال: ما ينبغي لمن يقول هذا أن يعبد معه غيره.

وأخرج ابن سعد في الطبقات بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: خرج عمر متقلداً سيفه، فلقيه رجل من بني زهرة ـ هو سعد بن أبي وقاص كما حكاه الزرقاني عن الصفوة، ووفق بينه وبين لقاء نعيم، فقال: ويحتمل أن يكونا لقياه معاً، فبلغاه إسلام أخته وختنه ـ قال الزهري ـ أي سعد ابن أبي وقاص ـ: أين تعمد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمداً، قال الزهري: وكيف تأمن في بني هاشم، وبني زهرة، وقد قتلت محمداً؟ فقال عمر: ما أراك إلا صبوت، وتركت دينك الذي أنت عليه، قال الزهري، أفلا أدلك على العجب يا عمر؟ إن أختك وختنك قد صبوا، وتركا دينك الذي أنت عليه، فمشى عمر ذامراً حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين، يقال له: خبَّاب، فلما سمع خبَّاب حسَّ عمر توارى في البيت، فدخل عمر على

---

(١) ثمان آيات من أول سورة (طه).

(٢) سورة طه آية (١٤).

أخته وختنه، فقال: ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم؟ وكانوا يقرؤون سورة (طه) فقالا: ما عدا حديثاً تحدَّثناه بيننا، قال عمر: فلعلكما قد صبوتما، فقال له ختنه: أرأيت يا عمر إن كان الحق في غير دينك؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأ شديداً، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها، فنفحها بيده نفحة فدمَّى وجهها، فقالت وهي غضبى: يا عمر إن كان الحق في غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فلما يئس عمر قال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرؤه ـ وكان عمر يقرأ الكتب ـ فقالت له أخته: إنك رجس و﴿لا يمسه إلا المطهَّرون﴾ فقم واغتسل أو توضأ، فقام عمر فتوضأ، ثم أخذ الكتاب فقرأه حتى انتهى إلى قوله: ﴿ إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ فقال عمر: دلّوني على محمد، فلما سمع خباب بن الأرت قول عمر خرج من البيت فقال: أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ليلة الخميس، ثم قال خباب: ورسول الله ﷺ في الدار التي في أصل الصفا، فانطلق عمر حتى أتى الدار، وخرج إليه رسول الله ﷺ، وأخذ بمجامع ثوبه وحمائل سيفه، وقال: «اللهم هذا عمر بن الخطاب اللهم أعزّ الدين بعمر بن الخطاب» فقال عمر: أشهد أنك رسول الله.

* * *

هذه هي قصة إسلام عمر بن الخطاب في خطوطها الأصيلة بداية ونهاية، في إجمال لا يغض من معالمها، فهي قصة تصور خصائص عمر في جاهليته، وتصور مباعدته للإسلام، إذْ جاء هذا الدين هادياً للحياة، ونوراً للعقول، وضياء للقلوب، وإشراقاً للأرواح، ونظاماً عادلاً، وأدباً حكيماً، وهي قصة تصور عمل الإيمان في داخل ضمير عمر، وهو يحاور أخته فاطمة بنت الخطاب في إسلامها، منكراً أن تكون قد أسلمت، وتابعت محمداً ﷺ، فتجبهه بإيمانها، فيقسو عليها، وينفحها نفحة تدمي وجهها، وتثور عوامل الإيمان في نفس هذه المرأة المؤمنة الضعيفة، فلا تملك إلا أن تفقأ عين كبرياء الجاهلية في وجه هذا المتجبِّر، فتقول: لقد أسلمنا رغم أنفك يا ابن الخطاب.

عمل الإيمان في داخل ضمير عمر

وهنا تنهار جاهلية عمر بكل ما فيها من عنجهية عاتية أمام قوة الإيمان وقهره، وينقلب الجبار العتيّ إنساناً هادئاً وديعاً، يتضرع إلى أخته المؤمنة الصادقة ويعطيها ما تحب من المواثيق على أنها إذا أعطته صحيفتها التي كانت تقرؤها ليردنَّها إليها محفوظة حيث شاءت، وتنتهز أخته هذه الفرصة التي تعترك فيها الأزمات النفسية والعقليـة في نفس عمر، فتلقي عليه درساً (جانبياً) يصور حلاوة الإسلام وجماله وسموه، ونقاء ظاهره، كصفاء باطنه، وتطلب إليه أن يعد نفسه حتى يكون أهلاً لمسّ هذه الصحيفة التي كتبت فيها آيات من القرآن العظيم، الذي أنزل على محمد ﷺ هدى ورحمة للعالمين، فليتطهَّر ليمسك بالصحيفة ويقرأ ما فيها، فيستجيب الرجل الرهيب في استسلام ورضا إلى طلب أخته في صدق إيمانها، بسمو هذا القرآن العظيم الذي لا يمسه إلا المطهَّرون.

ويذهب عمر، ويتطهَّر، ويعود إلى أخته بوجه تملأه الابتسامة المشرقة، فتعطيه الصحيفة وهي مغتبطة فرحة، وينظر عمر فيها ويقرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ في آيات تمجِّد الله وتقدسه، فيهتز كيان عمر هزة تزلزل منها أركانه، وتتبدل نفسيته، ويستحيل عقله الجاهلي إلى قوة روحانية، تتعمق الحقائق وتستطعم المعاني، وتتذوق آثارها، فيقول: من هذا فرَّت قريش، ويمضي عمر قارئاً حتى يبلغ قول الله تعالى: ﴿إنني أنا الله لا إلَه إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ فيرتفع بروحه إلى آفاق علوية ينفسح فيها مجال الفكر انفساحاً رحيباً يملأ قلبه سكينة وإيقاناً يقوده إلى المعرفة فيؤمن إيماناً علياً، ويقول: ما ينبغي لمن يقول هذا أن يعبد معه غيره.

فماذا بقي من حقيقة الإيمان وروافده لم يتولج إلى قلب عمر؟ ويسرع عمر عندئذ مستخبراً عن مكان النبي ﷺ ويذهب إليه جاثياً بين يديه مؤمناً مسلماً بعزيمة عرفت الحق فاعتنقته، ونفس ذاقت حلاوة الإيمان فاعتزت به وأعزته، وصدَّق الله تعالى دعوة نبيه ﷺ أن يعزّ الله الإسلام بعمر ابن الخطاب، فأعزّه به وأيَّده.

قريش تفاجأ بإسلام عمر فتُكْبت وتذل

ويسأل عمر رسول الله ﷺ أن يخرج في أصحابه على ملأ الكفر ليعلن للدنيا رسالته، ويجهر بدعوته، ويحاوره رسول الله ﷺ ليمتحن عزائم أصحابه، ويتعرف قوة يقينهم، ويزيدهم إيماناً على إيمانهم فيقول ﷺ لعمر: «إنا قليل قد رأيت ما لقينا» فكانت هذه الكلمة النبوية قوة انبعاث في أنفس جند الله، فحفُّوا برسول الله ﷺ في صفَّين، يتقدم أحدهما عمه حمزة أسد الله، وأسد رسوله، ويتقدم الآخر غيظ قريش، وشجا حلاقيمها عمر ابن الخطاب، وهم يكبِّرون الله بصوت واحد، هز أرض مكة، وتردد صداه في آفاقها ويرن رجعه من ذرى جبالها، وتمتلىء بنبراته ودیانها.

ويدلفون في جمعهم العظيم إلى المسجد، وملأ قريش في أنديتهم ومجالسهم يهجرون، فلما نظروا إليهم أخذهم المقيم المقعد وكُبتوا، وذلُّوا، ووجموا مبلسين، وارتعدت فرائصهم وتزايلت عن أماكنها مفاصلهم، واضطربت قلوبهم واجفة بين أضلعهم، وجعلوا يستثبتون وجودهم، وأنهم أحياء يقظة، فأخذوا يمسحون رمص أعينهم، ليتحققوا من حقيقة ما يرون ويشهدون، وكأنهم كانوا في سُبات عميق، أو سكارى بغير رحيق.

ينظرون فلا يصدِّقون، ويحاولون مع أنفسهم أن يعرفوا: كيف، ومتى، ولماذا، استحال فتى قريش ابن الخطاب في لحظة إلى حريق مشبوب يشوي أكبادهم، وهو الذي كان منذ لحظة عنوان جبروتها وعتوها على محمد ﷺ ودعوته، وسوط قسوتها على أصحابه.

وَيْ؟ أليس هذا الذي يقف إلى يمين محمد ﷺ خفيض الجفن، لا يملأ عينه من النظر إليه حياء وحباً متقدماً أحد صفَّي المسلمين، متهللاً زجلاً بالتكبير والتوحيد هو عمر بن الخطاب الذي خرج من عندهم منذ لحظة متوشحاً سيفه ليفعل به الأفاعيل؟ فَمَا عَدا مما بَدا؟.

أجل، إنه عمر بن الخطاب بعينه، وفصه، جاء مع محمد ﷺ مؤمناً به، مصدِّقاً لدعوته، حامياً لجنده، يكيد قريشاً وينغل جراحها، بعد أن كان أملها المرجّى في مناهضة رسالة محمد ﷺ، وسيفها المصلت فوق رقاب أصحابه.

وها هوذا عمر بن الخطاب يصبح في لحظة بين أتباع محمد ﷺ رجل الإسلام، وبطل الدعوة الجديدة التي ستقوِّض بنيان الجاهلية، وتقضي قضاء مبرماً على الوثنية في شتى أشكالها، وتزيل الشرك على اختلاف ألوانه، وتهدم دعائم المجد المادّي الزائف، وتبخع الطغيان الظلوم، وتبني الحياة من جديد على أسس من العدل والحق والمساواة بنياناً يجعل من الإنسانية كلِّها في إخائها وتعاطفها وتوادها وتعاونها على البر والتقوى جسداً واحداً، تتقمصه روح واحدة، هي روح البر والرحمة.

كذلك صار عمر بن الخطاب في الإسلام كله، الرجل الثاني في جميع أصحاب رسول الله ﷺ، تحقيقاً لقوله ﷺ شهادةً بفضله وفضل الصدِّيق أبي بكر رضي الله عنهما فيما رواه مسلم من حديث ابن عباس عن عليّ رضي الله عنهما قال وعمر على سريره بعد موته: والله ما خلَّفت أحداً أحبَّ إليّ أن ألقى الله بمثل عمله منك، وايم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وذاك أني كنت أُكثر أسمع رسول الله ﷺ يقول: «جئت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر».

وفي حديث البقرة المتكلمة فعجب الناس وفزعوا، وقالوا: أبقرة تَكَلَّم؟ فقال رسول الله ﷺ: «فإني أؤمن به وأبو بكر وعمر» وما هما ثَمَّ، خرَّجه مسلم أيضاً.

فإذا كان أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه هو الرجل الأول في إعادة رسن الإسلام إلى غربه، وفي توطيد أركان الدعوة بعد أن تزلزلت الحياة الإسلامية بوفاة رسول الله ﷺ، وبما أعقب ذلك من تفكك عروة المجتمع الإسلامي وانفراط عصامه، بموقفه يومئذ من الخلافة والردة، موقفاً انفرد به في تاريخ الدنيا، حزماً، وعزماً، وقوة تدبير، وشجاعة قلب، واستقامة رأي، وعلو حجة، وسرعة حركة في التوجيه، وإحكام ضربات حاسمة، ردت العقول الثائرة إلى مرابضها، والعقول الفاترة إلى ثورتها، وسلطان الإسلام إلى أفقه، ووحدة المسلمين إلى منهجها في السير برسالة محمد ﷺ إلى غايتها وأهدافها في فتح القلوب، وإيقاظ العقول.

فإن عمر بن الخطاب كان هو الرجل الأول في إقامة دعائم دولة الإسلام نظاماً اجتماعياً وحكماً لم تعرف الدنيا له مِثْلاً في العدل، وإقامة الحق، واستقامة السلوك، وتطبيق أحكام الإسلام، على الأفراد مهما كان شأنهم، وعلى الجماعات مهما عظم خطرها، وفي تحقيق الأسوة المرئية للناس بأبصارهم في نفسه وولده وسائر أهل بيته وقرابته أولاً، وعامة المسلمين ثانياً في سواء من أمرهم، لا يتميز منهم أحد على أحد في أخذ الحق منه أو إعطائه له.

وعمر بن الخطاب أصبح بإسلامه عبقري الدنيا بشهادة رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري من قوله ﷺ: «فلم أر عبقرياً يفري فَرِيّه».

فأي شيء يكون الإعجاز في صنع النفوس، وخلقها خلقاً جديداً، وإبداعها إبداعاً سوياً تتسامى به في تفكيرها وعملها وقوة إيمانها، إذا لم يكن هذا الذي كان لعمر بن الخطاب بإسلامه إعجازاً؟.

فإذا قلنا إن إسلام عمر بن الخطاب كان نفحة من نفحات الإعجاز في صنع النفوس الإنسانية في رسالة محمد ﷺ لم نكن نقصد إلى شيء من أساليب المجاز والرمز، ولا إلى شيء من المبالغة التعبيرية، ونصاعة البيان، في تصوير ما صار إليه عمر بن الخطاب بإسلامه بعد جاهليته من عظمة شخصية، وعبقرية فكرية، وألمعية عملية، لنضفي على هذا الحدث الخطير في تاريخ الحياة من الألوان ضرباً من الخيال الفضفاض، ولكنا قصدنا إلى حقيقة الإعجاز الإنساني الذي تميَّزت به هذه الرسالة الخالدة في صنع النفوس وتربية الرجال في مدارس آياتها ومعاهد آدابها، وهي بطبيعتها الإنسانية ومصدرها الإلهي في غُنْية عن التحدِّي بالمعجزات المادية التي تُكْرِه العقول على الإيمان بها، لأنها رسالة الإنسان جاءته لتكشف له الحجب عن حقيقته حتى يعرف نفسه ومكانه في الحياة، فهي رسالة تخاطب العقل والروح والقلب، وتحرك الوجدان، وتثير العواطف والشعور والإحساس.

هي رسالة الإنسان ليعرف الكون كله، أُنزلت لتطلب إلى العقل الإنساني في إغراء واعد، وتطلب إلى كل مدرك شعوري في الإنسان أن

يعمل بكل ما أوتي من وسائل وقوة علم ومعرفة ونظر وتفكير، وتجارب عملية، على استكشاف عناصر الكون الطبيعية، وأسراره الروحية، إظهاراً لآيات الله في كل ذرة من ذرات الحياة فيه ليهتدي بها الإنسان إلى:

أولاً ـ معرفة خالق هذا الكون، ومدبِّر نظامه، معرفة برهانية، لا تعتمد على منطق فرضي، يؤمن بأمور يتوهمها حقائق، وهي أوهام وأباطيل، ولكنها تعتمد على منطق الحق الذي تتضافر على الإيمان به قوى الإدراك في الإنسان، فيخالط بردُ يقينها جذوةَ الإدراك العقلي في أوج ذروتها.

ثانياً ـ معرفة مكانه من الحياة في هذا الكون العريض العميق، معرفة تقوده إلى أن يقرأ كتاب الكون، مستغرقاً في التأمل، ليتبين آيات الله تعالى في خلقه، وتدبيره، ليُخْلِص الإنسانُ التعبد لله وحده.

ثالثاً ـ معرفة طرائق الإفادة من عناصر الطبيعة في هذا الكون، ووضعها موضع العمل التجريبي، بجميع ما يكون في استطاعته من أسباب توصله إلى الحصول على أكبر قسط من هذه الإفادة.

مظاهر الإعجاز في إسلام عمر

والإعجاز الذي قصدناه في إسلام عمر هو الإعجاز الذي يحيي القلوب بعد موتها، فيبعثها من مرقدها حية مؤمنة بعد كفر، عالمة بعد جهالة، مهتدية بعد ضلالة، عاملة ناهضة، وكذلك كان إسلام عمر، أحيا قلبه بعد موته في جاهليته، فبعثه من مرقده في حمأة الوثنية، مؤمناً بالله وحده، عالماً بجلاله، مهتدياً بهديه، عاملاً نهَّاضاً في سبيل عقيدته.

وهو الإعجاز الذي يوقظ العقول الغطيطة في مهاد الضلال، لتدرك حقيقة الحياة على ضوء ما يسوق لها الإيمان بالله تعالى من إشراق ينير لها طريق السير في دروب الحياة، وكذلك صنع إسلام عمر بعقل عمر، فأيقظه من غفلته، وأراه الحياة كما يراها الإسلام في هديه ورسالته.

وهو الإعجاز الذي يحيل في لحظة من لحظات الزمن النفوس الجاحدة العاتية إلى نفوس مؤمنة وادعة تأخذ من الحياة لتعطي، وتعطي لتفيد، وتتحرك لتعلم، وتعلم لتعمل، وكذلك صنع إسلام عمر بنفس عمر، فقد

أحالها من جحود عاتٍ، وعتو جاحد إلى نفس مشرقة الإيمان، عظيمة الإخلاص، أعطت أكثر مما أخذت وأفادت أكثر مما استفادت، وتحركت فعلمت وعلّمت فعملت، فكانت في الإسلام أسوة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وكانت مفخرة المفاخر في تربية الإسلام.

وهو الإعجاز الذي يبدّل في لحظة من لحظات الزمن القسوة الباغية في النفوس الطاغية، رحمة حانية ورقة عاطفة، وكذلك صنع إسلام عمر بشخصية عمر، فقد بدَّل قسوته وبغيه على أهل الحق والإيمان من المسلمين المستضعفين، رحمة ورأفة وإشفاقاً، وفي تاريخ عمر الإسلامي من الشواهد على ذلك ما لا يحصى عداً، وما لا يعرف لغيره من الرجال الذين أوتوا من السلطان والحكم ما أوتي عمر في الإسلام.

وهو الإعجاز الذي يجعل من الصلف المغرور، والغرور المفتون عزة وكرامة، وكذلك صنع إسلام عمر في طبيعة عمر، فجعل منه أعز رجل في أمة الإسلام وأكرمه، وجعل منه مربياً لهذه الأمة، يسوسها بالعزة والكرامة، ويربيها على الأنفة وإباء الضيم، يكره الخنوع، والذلّ، ويحب أن يرى فيها الشموخ والعزة.

وهو الإعجاز الذي يجعل من إنسان وُلد ونَهد، وشب في جاهلية حمقاء، وبيئة شريرة عمياء وحياة ضالة جهلاء، إماماً للإنسانية، يهتدي لها، ويهديها، ويقودها إلى أكمل مراتب الكمال في حياتها، وينهض بها إذْ يوسد إليه أمرها إلى أرقى درجات التحضر الكريم، يسوسها بعدله وحكمته، ويأسو جراحها برحمته، ويحمل عنها عبء مسؤوليتها بأرفع وأجلّ ما حمل عبقري مسؤولية أمة في حياتها.

وأخيراً هو الإعجاز الذي جعل من أمة الإسلام، أمة محمد ﷺ أمة محسودة لأن العناية الإلٓهية وهبت لها عمر بن الخطاب، ثاني الراشدين، ليقودها وهي في مطلع حياتها، تتحسس مواضع أقدامها، فكانت بعدله وسياسته وحكمته وقيادته خير أمة أخرجت للحياة في جميع مظاهر الإصلاح.

بهذا كله وأعظم منه قدراً، وأكثر عداً جاءت رسالة محمد ﷺ،

فكانت خاتمة الرسالات السماوية، بهذا كله، وأرفع منه وزناً، وأجلّ منه مرتبة، وأفضل معنى في مراتب الفكر والنظر، وفي مجالات أنظمة الحياة أُنزل كتابها القرآن العظيم على رسولها محمد خاتم النبيين ﷺ، فكان معجزتها الخالدة، وآياتها البينة، بمعانيه الإنسانية، وتشريعاته التعبدية، وسماحته العقيدية، ونظمه الاجتماعية، وهدايته التربوية، وآدابه الخُلقية وروعة أساليبه البيانية، وبراعة تحليله للنفوس البشرية، وكشف دخائلها، وشفائها من أسقامها.

لقد جمع الله تعالى لعمر بن الخطاب كل هذه الحقائق والمعاني، وصوَّر له كمالاتها في لحظة من الزمن انفجر منها في داخل بصيرته نور أضاء له ملكوت السموات والأرض، فقرأ من كتاب الكون أصول هدايته، ممثلة في الآيات الثماني من أول سورة (طه) التي كانت تضيء صحيفة أخته التي قرأها عندها، وكانت كل آية منها صورة لجانب من جوانب ملكوت الله تعالى، ورآها عمر في مرآة بصيرته، فآمن برسالة محمد ﷺ، واتَّبع هداه، وأسلم قلبَه ووجهَه لله رب العالمين.

بعونه تعالى تمَّ الجزء الأول من كتاب

«محمد رسول الله»

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

الفهـرس

هذا الكتاب
محمد صلى الله عليه وسلم
من نبعته إلى بعثته
مقدِّمات ممهِّدات

فتح وتقديم

تمهيد

الرسالات الإلٓهية والعقل الإنساني

البيئة الطبيعية والاجتماعية

لحياة محمد ﷺ

مكة المكرمة ومكانتها

البيئة الاجتماعية

محمّد صلّى الله عليه وسلّم الإنسان
تسلسل الأحداث

أسرة محمد ﷺ
خصائصها ومكانتها في العرب

قصة حفر زمزم

قصة الذبيـح
عبد الله بن عبد المطلب

تزويج
عبد الله بن عبد المطلب من آمنة

قصة المتعرضة
لعبد الله بن عبد المطلب

قصة أصحاب الفيل

ميلاد محمد ﷺ وما احتف به من الأحداث

الأعاجيب الكونية والخوارق المعجزة
تحقيق تاريخي وتحليل علمي

إخبار أهل الكتاب ومُتَحنِّفة العرب
بمولد محمد ﷺ وبعثته

محمد صلى الله عليه وسلم في المهد

رضاعه عليه السلام

تحقيق قصة شق صدره

صلى الله عليه وسلم

محمد صلى الله عليه وسلم
في طفوليته

سفر محمد ﷺ إلى يثرب ووفاة أمه
وهي عائدة به إلى مكة

محمد صلى الله عليه وسلم
في كفالة جده

محمد صلى الله عليه وسلّم
في كفالة أبي طالب

محمد صلى الله عليه وسلم
في رحيله إلى الشام

تسببه ﷺ لعيشه

رعيه عليه السلام الغنم

محمد صلى الله عليه وسلّم

بين أترابه

محمد صلى الله عليه وسلّم

يشهد حرب كنانة وقيس

في يوم الفجار

محمد صلّى الله عليه وسلّم

يشهد حلف الفضول

محمد صلّى الله عليه وسلّم

يعمل في بناء الكعبة

محمد صلّى الله عليه وسلّم
يتسامى عن دنس الجاهلية

محمد صلّى الله عليه وسلّم
يتجر في مال خديجة

تزوُّج محمد صلّى الله عليه وسلّم
خديجة رضي الله عنها

ظاهرتان في حياة محمد صلّى الله عليه وسلّم

الأولى: شظف العيش

تعبده صلّى الله عليه وسلّم قبل البعثـة

خصائص محمد صلّى الله عليه وسلّم فـي رسـالتـه لا تزال منهلاً لأقلام المفكرين

رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم تنصف النبوة والأنبياء وترد اعتبارها واعتبارهم

محمد صلّى الله عليه وسلّم
بين ميلادين
ميلاد بشرية وميلاد رسالة
بدء الوحي وقداسة النبوة
نظر وتحقيق

العلم هو العنوان الأول
في رسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم

تحقيق
روايات بدء الوحي

أقصوصة التردِّي من شواهق الجبال
أبطولة زائفة مضلّة

نظر ونقد

من غار حراء إلى غار ثور

سير الرسالة إلى غايتها

في مدى هذه الخطوات المعدودة تم بناء أعظم رسالة إلى الحياة
الكفاح الصبور والصبر المكافح هما مادة بقاء هذه الرسالة
وعنصر نمائها وسر خلودها

نبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم

كانت أول مراتب آصطفائه

بدء نزول القرآن العظيم

كان أول خطوات الرسالة

أسبق السُّبَّق إلى الإيمان

التحرك الإيجابي لسير الرسالة

الخطوات الأولى في سير الرسالة

تحقيق أول ما نزل من القرآن

الخطوة الثانية في سير الرسالة
الأمر بالإنذار العام

اختلاف سياق الروايات
في إسلام عمر

شموخ الإيمان في مدارك عمر

نفحات الإعجاز في إسلام عمر